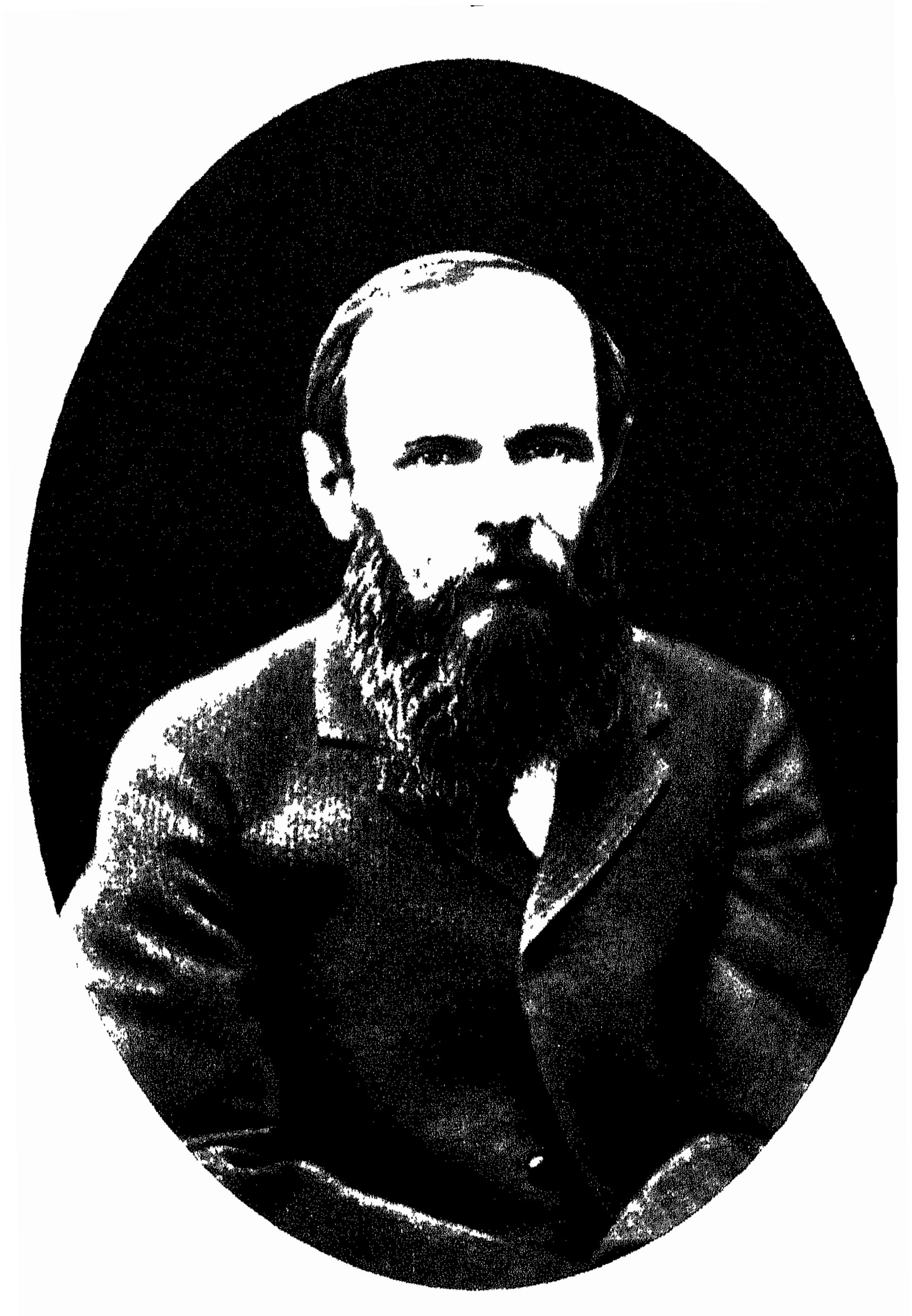
دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي





الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الخامس عشر

دوستويفسكي: الاعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٢٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- المراهق -٢-

- قصص

- بوبوك
- الطفل عند يسوع
- الفلاح ماراي
- عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
- العذبة
- حلم رجل مضحك
- خطاب عن بوشكين

المراهقة

٢

الفصل السادس

١

قلتُ عازما أمرى وأنا أعـود الى البيت مسرعا : « واضح . يجب أن أذهب اليها . يجب أن أذهب اليها فوراً . ومن الجائز جـداً أن أجدها وحدها ، وحـدها أو مع غيرها ، سـيان : ففى وسعى أن أدعوها ، وسوف تستقبلنى ، ستدهش لكنها ستستقبلنى ، واذا لم تستقبلنى ألححت عليها أن تستقبلنى مرسلاً من يقول لها ان علىّ أن أراها حتماً . فتعتقد أن لمجيئى صلة بالوثيقة ، فتستقبلنى ، فأعلم كل شىء عن أمر تاتيانا ... ثم ... ثم ماذا ؟ اذا ثبت أننى على خطأ ، كفرت لها عن خطئى ، واذا ثبت أننى على حق وأنها على خطأ ، انتهى كل شىء . وقد انتهى كل شىء على كل حال . ماذا الذى أخسره ؟ لا شىء ! هلمّ ... هلمّ ! » .

ولكننى لم أذهب . لن أنسى هذا أبداً ، وسأظل أتذكره بفخـر واعتزاز . لن يعلم بذلك أحـــد ، ســيظل مجهـولاً ، ولكن يـكفى أن أعرفه أنا ، يكفى أن أعرف اننى فى تلك اللحظة استطعت أن أكون نبيلاً نبلاً لا نهاية له ! قلت لنفسى بعد تفكير : « هى محـاولة اغـواء . لكننى سأغض النظر عنها . وقد أريد لى أن أرتاع ، ولكننى لم أصدق ، ولم أفقد ايمانى بطهارتهـا ! علام أذهب اليها ؟ وعمّ أسألها ؟ لماذا يكون عليهـا أن تثق بى كمـا أثق بهـا ، أن تؤمن بطهــارتى ، ألاّ تخشى « حرارة اندفاعى » ولا تحتمى بتاتيانا بافلوفنا ؟ اننى لم استحق بعد شيئاً

من ذلك كله في نظرها • فلتجهل أنني أستحق ذلك ، وأنني لا انقاد للاغواءات ، وانني لا أصدق ألسنة السوء ! لتجهل هي ذلك كله • ولكنني سأعلمه أنا ، فازداد احتراماً لنفسي • سأحترم عاطفتي • صحيح أنهاجعلتني أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا ، كانت تعلم أن تاتيانا هناك وأنها تتصنت (لايمكن الا أن تتصنت) ، وكانت تعلم أن تاتيانا تسخر مني ••• آه ••• شيء فظيع ! شيء فظيع ! •• ولكن لعلها كان يستحيل عليها أن تتجنب ذلك ! ماذا كان في وسعها أن تعمل اذا استحال عليها أن تتجنب ذلك ؟ كيف يمكنني أن أتهمها ؟ أفلم أكذب عليها أنا نفسي بصدد كرافت ؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأنني استحال عليّ أن أتجنب ذلك ؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البريء على غير ارادة مني •

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمر وأشعر بألم شديد : رباه ! رباه ! ما هذا الذي فعلته أنا ؟ ألم أستدرجها على مسمع من تاتيانا هذه نفسها ؟ ألم أقصص كل شيء على فرسيلوف ؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسي ؟ ان هناك فرقاً ضخماً • لقد كان الأمر أمر الوثيقة فحسب • والحق أنني لم أحدث فرسيلوف الا عن الوثيقة ، اذ لم يكن ثمة شيء آخر أحدثه عنه ، ولا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر أحدثه عنه • ألست أنا الذي بادرت الى ابلاغه ، وصحت أقول « انه لا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر » ؟ هذا رجل يدرك الأمور •• همْ •• ولكن ما هذا الكره الشديد لا يزال يحمله قلبه لهذه المرأة حتى الآن ! ما عسى تكون القصة التي جرت بينهما في الماضي ؟ لا شك أن حبه لنفسه هو سبب كل شيء • « هذا رجل لا يقدر أن يحس الا عاطفة واحدة هي حبه لذاته حباً لا حدود له » (بالفرنسية) •

نعم ، أفلتت مني هذه الفكرة حتى انني لم أنتبه اليها • تلكم هي

الخواطر الى تلاحقت فى ذهنى سريعة ، وكنت عندئذ صادقا مع نفسى: لم أكن أخادع ، ولم أكن أحاول أن أغشّ نفسى • واذا كان ثمة شىء لم أستطع أن أدركه فى تلك اللحظة ، فانما مرد ذلك الى فقدان الفهم لا الى مخادعة النفس •

وعدت الى البيت مهتاجاً اهتياجاً شديداً ، وكنت مرح المزاج برغم الاضطراب القوى ، لا أدرى لماذا ! ولكننى كنت أخشى أن أحلل نفسى ، وكنت أبذل كل ما أملك من قوة فى سبيل أن أسلو • فسرعان ما ذهبت الى المؤجرة • فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً • انها امرأة موظف مصابة بداء السل اصابة قوية ، وهى طيبة القلب ، لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة • فأسرعت أصلح بينهما • ثم ذهبت الى المستأجر الشرس ، وهو موظف فى بنك ، غليظ القلب ، فظ الطبع ، أنانى ، مجدور الوجه ، اسمه تشرفياكوف ، كنت لا أحبه كثيراً ولكن العلاقات بينى وبينه كانت حسنة ، لأننى كنت أستعذب أن أستهزىء معه ببطرس هيبوليتوفتش • فسرعان ما أقنعته بألا يترك المنزل الى مسكن آخر ، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال • وأفلحت فى تهدئة المؤجرة تهدئة حاسمة ، واستطعت عدا هذا أن أسوى لها مخدتها • فقالت فى مكر : « ذلك ما لا يستطيع بطرس هيبوليتوفتش أن يفعله أبداً » • ثم عكفت فى المطبخ على الاهتمام بكماداتها ، فصنعت لها بيدى كمادتين رائعتين • فكان المسكين بطرس هيبوليتوفتش ينظر الىّ حاسداً ، ولكننى لم أسمح له حتى بلمس الكمادات ! وقد كوفئت على صنيعى بامتنان عبّر عن نفسه بدموع صادقة • ثم لم ألبث أن شعرت بضجر من هذا كله على حين فجأة – لا أزال أتذكر هذا – وأدركت أننى لم أعن بالمريضة بدافع الشهامة والأريحية قط ، وانما عنيت بها هكذا ، لا أدرى لأى سبب ، أو لسبب آخر لا علاقة له بالشهامة ولا الأريحية !

وأخذت أنتظر ما تفتئي نافد الصبر : كنت قد قررت في ذلك المساء أن أجرب حظي مرة أخيرة • وعدا الحظ ، كنت أشعر بحاجة شديدة الى المقامرة • والا لم يكن في وسعي أن أصبر • فلو استحال علي أن أشغل نفسي بالقمار ، لكان من الجائز جدا ألا أستطيع مقاومة الرغبة في الذهاب اليها • وكان على ماتفتئي أن يصل بعد قليل • ولكن الباب فتح فجأة ، ودخلت علي زائرة لم أكن أتوقع أن تجيء الي ، وهي داريا أوسيموفنا • فقطبت حاجبي وبانت دهشتي • كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن ، لأنها جاءتني برسالة من أمي في أحد الأيام • وأجلستها ، ونظرت اليها مستفهماً • فلم تقل شيئاً ، ولم تزد على أن أخذت تنظر الي محدقة وتبتسم بخضوع ومذلة • فخطر ببالي فجأة أن ليزا هي التي أوفدتها ، فسألتها :

ـ أليست ليزا هي التي أرسلتك ؟

فقالت :

ـ بل جئت هكذا ••• من تلقاء نفسي •••

فأنبأتها بأنني خارج بعد قليل ، فعادت تقول مرة أخرى انها جاءت « هكذا » ، من تلقاء نفسها ، وانها منصرفة حالاً • فأحسست فجأة بنوع من الشفقة • يجب أن أذكر هنا أن أمي ، وتاتيانا بافلوفنا خاصة ، هما اللتان ، من بيننا جميعاً ، عطفتا عليها ، ولكن جميع ذوينا قد نسوها تقريباً بعد أن وضعت عند ستوليبافا ، ربما باستثناء ليزا التي كانت تزورها في أحيان كثيرة • ويرجع ذلك ، فيما أظن ، الى داريا نفسها ، لأنها كانت تتصف بالميل الى الابتعاد والغياب ، رغم كل مذلتها وكل ابتساماتها المستجدية المستعطية • أما أنا فكانت هذه الابتسامات لا تعجبني كثيراً ، اذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير

وجهها اصطناعا زائفا ، حتى لقد خطر ببالى ذات يوم أنها لم تبك عزيزتها اوليا مدة طويله • ولكننى فى هــذه المرة شعرت بشفقة عليها ، لا ادرى لمــاذا !

وهاهى ذى تنحنى فجأة دون أنْ تقول كلمه ، وتخفض عينيها ، وترمى ذراعيها الى أمام ، فتمســك بخاصرتى ، وتميــل بوجههــا على ركبتى ، ثم تتناول يدى ، فأظن أنهــا تريد أن تقبلها ، ولكنهــا رفعتها الى عينيها ، فاذا بسيل من الدموع يسيل عليها • وأخــذت تنشج نشيجاً قوياً يهز جسمها كله ، دون أن ُيسمع لبكائها صوت • فانقبض صدرى ألما ، رغم أننى أحسست ببداية حنق • ولكنها أخذت تقبلنى بثقة كاملة ، لا تخشى أن أغضب ، على حين أنها كانت منذ قليل تبتسم ابتسامات فيها كثير من الوجل وكثير من المذلة • فرجوتها أن تهدىء نفسها • فأخذت تتكلم فقالت :

ـ سيدى الطبيب ، لقد أصبحت لا أعــرف ماذا أصـــنع بنفسى • فما ان يهبط الظلام ، حتى تنفد طاقتى على الاحتمال • اننى أفقد قدرتى على الصمود متى حل المساء ، فأرانى مدفوعة الى الخروج الى الشارع فى العتمة • والحلم هو الذى يجذبنى خاصة • لقد نبت فى رأسى حلم هو أننى متى خرجت فسألقاها فى الشــارع • فأسير ، وأظن أننى أراها • أقصد أن الناس يســيرون ، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسى : أليست هذه هى ؟ نعم ، ها هى ذى ، انها ابنتى أوليا • وأفكر ، وأفكر • وأصبحت فى النهاية مجنونة من كثرة الجرى بين الجمهور • وصرت أشعر من ذلك بغثيان • اننى أصــدم الناس كسكرى ويقذفنى بعضــهم بشتائم • لكننى أحتفظ بهذا كله لنفسى ، ولا أذهب الى أحد • ثم اننى لا أذهب الى مكان الا أجــد حالتى أســوأ مما كانت • وقد مررت منــذ قليــل أمام بيتك ،

فقلت لنفسي : « ماذا لو دخلت ؟ انه خير من الاخرين ، ثم انه رأى الأمر بعينيه » • سيدى الطيب ، اغفر لى ازعاجك ، أنا منصرفة حالاً ••

ونهضت بحركة مباغتة ، وهمت أن تسارع الى الانصراف • ووصل ماتفش في تلك اللحظة • فأركبتها الى جانبى فى العربة ، وأوصلتها الى منزل ستولبيافا •

٢

أصبحت فى الآونة الأخيرة أتردد الى صالة الروليت التى يملكها زرشتشيكوف . وكنت أذهب قبل ذلك الى ثلاثة بيوت ، فى صحبة الأمير الذى كان « يدخلنى » الى تلك الأماكن . ففى أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصةً وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة . فكنت لا أحس هنالك بارتياح ، اذ كنت أرى أن المرء يحتاج فيها الى مال كثير ، عدا أن ذلك البيت كان يرتاده عدد كبير من الوقحين ، وعدد كبير من الشبان الذين ينتمون الى أسر عالية ، وتمتلىء جيوبهم بأموال طائلة . وذلك بعينه ما كان يحبه الأمير . كان الأمير يحب أن يقامر ، ولكنه كان يحب أيضاً أن يحتك بهؤلاء الطائشين . وقد لاحظت أنه اذا دخل معى فى بعض الأحيان جنبا الى جنب ، ابتعد عنى طوال السهرة ، ولم يقدمنى الى أحد من « صحبه » . وكانت هيئتى هيئة انسان متوحش تماماً ، حتى لقد كان ذلك يلفت الىّ الانتباه أحياناً . وكان يتفق لى أن أتحدث على مائدة القمار الى هذا أو ذاك من اللاعبين ، ولكن وقع لى ذات مرة أن حاولت التكلم فى ذلك البيت نفسه مع سيد قصير تحدثت اليه بالأمس ، ضحكت معه جالساً الى جانبه (حتى لقد حزرت له ورقتين من أوراق اللعب) ، فاذا هو لا يتعرفنى ، واذا هو يزيد على ذلك سوءاً فيلقى علىّ نظرة دهشة مصنوعة ، ثم يمضى مبتسماً ابتسامة ساخرة . لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت ، وأخذت أرتاد محلاً للقمار لا أستطيع أن أسميه الا ماخوراً قذراً . انه صالة روليت حقيرة ،

صغيرة ، تديرها امراة « مومس » كانت لا تظهر في الصاله مع ذلك ابدا .
الناس هنالك يتعاملون بدون كلفه ولا حـرج ، فكانهـم اسرة واحدة ،
رغم ان بينهـم ضـباطا وتجارا ، فكان هذا يجتذب كثيرا من الرواد .
ولكنني انقطعت عن ارتيـاد ذلك المكان في اعقاب قصة قذرة حدثت ذات
يوم اثنـاء اللعب ، وانتهت بتضـارب بين اثنين من المقامرين . وبعد ذلك
انما أخذت اجيء الى صالة زرشتشيكوف التي قادني اليها الأمير أيضـاً .
ان زرشتشيكوف ضابط من سلاح الفرسان محال على التقاعد ، وان جو
سـهراته جو محتمل جداً . وهو رجل عسكري قليـلاً في سـلوكه ،
حريص على التقيد بالأصول ، سريع وعملي . من ذلك مثـلاً أنه كان
لا يقبل في صالته أناساً يسيئون المزاح أو يسرفون في القصف واللهو .
ثم ان اللعب نفسـه لم يكن فيـه عنده مزاح . وكان المقامرون يتعاطون
البكاراه والروليت . وكنت في ذلك المســاء ، مساء ١٥ تشرين الثاني
(نوفمبـر) ، قد جئت الى هـذا المكان قبلئـذ مرتين لا أكثر . وكان
زرشتشيكوف يعرف وجهي فيما أظن ، ولكن لم يـكن قد قام بيني وبينه
أي تعارف . وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن جاء الأمير في ذلك المساء
نفسـه مع دارزان عند منتصف الليل عائداً من لعب البكاراه مع أولئك
الشبان الطائشين أبنـاء المجتمع الراقي الذين هجرتهـم : هكذا كنت في
ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء .

لو كان لي قارىء فقرأ كل ما سـبق أن رويتـه من أحداث حيـاتي
لما كان عليّ حتمـاً أن أشرح له أنني أمـرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع
أياً كان هذا المجتمع . أنا أولاً لا أعرف كيف أمكث بين النـاس . فاذا
ذهبت الى مكان فيه ناس كثير ، بدا لي أن جميع الأنظار تنصب عليّ فتلسعني
كاسع الكهرباء ، فأجد نفسي متوتر الأعصاب ، منهكاً انهاكاً جسمياً ، حتى
في مكان كالمسرح ، ناهيك عن البيوت الخاصـــة . وفي جميع صـالات

الروليت هذه وفى جميع تلك المحافل اشعر بعجز عن السيطرة على سلوكى : فتارة أجلس حتى لألوم نفسى على فرط الرقة والأدب والتهذيب ، وتارة أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات . وأنظر حولى فأرى أى وغد من الأوغاد الحقيرين أقدر منى على التصرف فى المجتمع بيسر عجيب وسهولة مدهشة ، فيزيدنى هذا حنقاً ، فاذا أنا أفقد هدوئى مزيداً من الفقدان . ويجب أن أقول بصراحة اننى ، لا اليوم فحسب ، بل حتى فى ذلك الحين ، كانت تلك السهرة كلها ، وكانت أرباح القمار نفسها (اذا وجب أن أقول كل شىء) قد أمست فى النهاية تبدو لى باعثة على الاشمئزاز ، مثيرة للألم . نعم ، حتما : مثيرة للألم . صحيح أننى كنت أشعر بمتعة قصوى ، ولكن تلك المتعة كانت تجىء من خلال الألم . كان ذلك كله ، أقصد الناس والقمار وأنا خاصة معهم ، كان ذلك كله يبدو لى قذراً قذارة فظيعة . « ألا فلأربح مرة واحدة ، ثم أركل ذلك كله برجلى الى الأبد ! » . كذلك كنت أقول لنفسى دائماً حين أستيقظ فى الصبح بعد لعب الليل . الربح مثلاً : اننى لم أكن أحب المال البتة . لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبذولة وهى أننى كنت أقامر من أجل القمار نفسه ، من أجل الاحساسات القوية ، من أجل لذة المجازفة ، من أجل متعة المصادفة ، وما الى ذلك ، وليس من أجل الربح . لقد كنت فى حاجة ملحة الى المال . ولاشك أن هذه الطريق لم تكن طريقى ، لاشك أن هذا لم يكن فكرتى ، ولكن ذلك لا يمنع أننى كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجربة . هناك فكرة قوية كانت تحاصرنى ، كنت أقول لنفسى : « لقد خلصت الى هذه النتيجة : وهى أنك تستطيع أن تصبح من أصحاب الملايين بشرط أن تملك ارادة قوية ! وقد برهنت على قوة ارادتك . فهلم برهن هنا أيضاً على أنك قوى الارادة : ان الروليت تقتضى من قوة الارادة أكثر مما تقتضيه فكرتك ! » .

ذلك ما كنت اردده لنفسي • ولما كنت مقتنعا حتى هذه الساعه بأن المرء في ألعاب المصادفة يستطيع بالهدوء الكامـل الذي يتيح له أن يحتفظ بدقة تفكيره ، أن يتغلب على المصادفة العمياء ، وأن يربح حتماً ، فقد كان لابد لى في ذلك الأوان من آن يزداد حنقي ويشتد حين كنت أرانى أفقد هدوئى واندفع اندفاع صبى صغير • « أنا الذى استطعت أن أتحمل الجوع ، كيف أعجز عن تحمل نفسى فى أمر تافه هذه التفاهة ؟ » ذلك ما كان يغيظنى • أضف الى ذلك أن شعورى بأننى أملك فى قرارة نفسى ، مهما َأبدُ للناس مضحكاً وحقيراً ، كنزاً من قوة سيجبرهم على أن يغيروا حكمهم علىّ فى ذات يوم ، أقول ان هذا الشعور ـ الذى لازمنى منذ سنى طفولتى الذليلة ـ كان فى ذلك الحين هو النبع الوحيـد الذى يروى حياتى ، وكان ضيائى ، وكان تراثى وكان سلاحى وكان عزائى ، ولولا ذلك لانتحرت منذ أن كنت طفـلاً • فهـل كان فى وسـعى ألا أغضب من نفسى حين أرى المخلوق التافه الذى كنت أصـير اليه أمام مائدة القمار ؟ ذلك هو السبب فى أننى أرى اليوم هذا رؤية واضـحة • وعدا هذا السبب الرئيسى ، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً : كانت الخسارة فى القمار تخفض قدرى فى نظر الأمير ، وتخفض قدرى فى نظر فرسيلوف ، (وان يكن فرسيلوف لم يتنازل يوماً فيقول شـيئاً عن هذا) وتخفض قدرى فى نظر الجميع ، حتى فى نظر تاتيانا بافلوفنا ـ ذلك ما كان يتراءى لى على الأقل ، ذلك ما كنت أحسه • وهناك أخيراً اعتراف يجب أن أدلى به : كنت قد فسدت • أصبح صعباً علىّ أن أتخلى عن عشائى المؤلف من سبعة أطباق فى المطعم ، وأن أتخلى عن ماتفئى ، وعن المتجر الانجليزى ، وعن رأى بائع العطور الذى أشترى منه عطورى ، أصبح صـعباً علىّ أن أتخلى عن هذا كله • ولقد وعيت هذا حينذاك ، لكننى أغمضت عينىّ • والآن حين أدوّن هذه الحقائق انما احمر منها خجلاً •

٣

دخلت وحيداً ووجدتني في جمهـور غريب ، فجلست أول الأمـر الى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صـغيرة . ولبثت على هذه الحال ساعتين لا أتحرك . ساعتين راكدتين ركوداً رهيباً : فلا حظٌ ولا سوء حظ. وأفلتت مني فرص رائعـة ، فحـاولت ألا أغضب، وأن أنتصر بهدوئي وثقتي . وكان حاصـل الحسـاب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم أخسر . فالثلاثمـائة روبـل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبـلات او خمسـة عشر روبلا . وأحنقتني هذه النتيجة التافهة ، وحدثت لي عدا ذلك حادثة زادتني حنقاً . انني أعلم أن المرء يلقى حـول موائد الروليت هذه لصوصاً ، لصوصاً لم يجيئوا من الشـارع ليسرقوا ، ولكنهم من بين المقامرين المعروفين . فأنا مقتنع مثلاً بأن المقامر الشهير آفردوف سارق . وهو يظهر في المدينة شامخ الأنف . وقد رأيته منذ مدة قصيرة مع فرسين . ولكن هذا لا ينفي انه سارق ، وأنه سرقني . على أن لهذه الحـادثة حديثا سيجيء حينه فيما بعد . أما ذلك المسـاء فلم يكن الا مقدمة : لقد ظللت طوال تينك الساعتين جالساً الى ركن من المائدة ، وكان الى يساري مفزور صغير ، أنيق الهندام ، أظن أنه يهودي ، هو عضـو في جماعة لا أدري ما هي ، كمـا أنه يكتب وُينشر له ما يكتب . كنت قد ربحت في آخـر لحظة عشرين روبلا على حين فجأة : فكانت أمامي ورقتان حمراوان ، فاذا أنا أرى اليهودي الصغير يمد يده ويجذب اليه احدى الورقتين بأكبر هدوء ممكن . فهممت أن أوقفه ، ولكن ها هو ذا يعلن لي بلهجة وقحة وبدون

أن يرفع صوته أن هذا ربحه هو ، فقد حظ وربح ، حتى أنه لم يشأ ان يتابع الحديث معي ، بل أدار لي ظهره ، وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن أكون عندئذ في أشد حالاتي النفسية حماقة ، اذ كنت قد تصورت فكرة كبيرة ، فلم أزد على أن بصقت ، ثم نهضت بسرعة وانصرفت ، دون ان أناقش ، مهدياً اليه ورقتي النقدية الحمراء ، وكان من الصعب على كل حال أن أسوّي الأمر مع وغد حقير مثله ، فقد فعل فعلته وانقضى وقت ، واستمر اللعب ، لكن سكوتي كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائج وبيلة : فان ثلاثة أو أربعة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة ، ورأوا تراجعي السريع فلابد أنهم اعتقدوا انني غشاش ، وكان الليل قد انتصف، مضيت الى الغرفة المجاورة ، ووضعت خطة جديدة ، ثم رجعت فبدّلت أوراقي النقدية من البنك قطعاً ذهبية ، فأصبح بين يديّ أكثر من أربعين قطعة جعلتها عشرة أقسام وقررت أن أحط عشر مرات متتالية على « الصفر » ، أي أربعة أنصاف من الليرات الامبراطورية في كل مرة ، حطةً بعد أخرى ، قائلا لنفسي : « ان ربحت كان هذا حظي وان خسرت فهذا أفضل : فلن ألعب بعد اليوم أبداً » ، يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرةً واحدة ، حتى أصبح لا يحط أحد عليه ،

كنت ألعب واقفاً ، صامتاً ، مقطباً حاجبيّ كازاً أسناني ، وهذا زرشتشيكوف يعلن في المرة الثالثة بصوت عال عن خروج « الصفر » بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة ، فنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية ، بقيت لي سبع حطات ، واستمررت ، وكان كل شيء في أثناء ذلك يضطرب من حولي ويتراقص ،

ـ تعال الى هنا ، تعال الى هنا ، فهنا هنا الحظ !

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقربه قبل لحظة ، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدي رداء رسمياً ، وكان

يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر فى كل مرة ، فيصبر صبراً لا يمكن وصفه . فصاح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألنى بدهشة فيها تهديد :

ــ أ اياى تنادى ؟

فقلت :

ــ نعم ، اياك أنادى ، فهناك ستخسر كل شيء !

فقال :

ــ هذا ليس شأنك ، فدعنى ولا تزعجنى !

ولكننى كنت قد فقدت سيطرتى على نفسى . وكان يجلس أمامى فى الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن ، فلما رأى حطتى على الصفر ، دمدم يقول لجاره :

ــ غريب : الصفر . لا ، لا ، لن أحط على الصفر أبداً .

فصحت أقول له وأنا أحط مرةً أخرى :

ــ بل تجرأ يا كولونيل !

فانبرى يقول لى بعنف :

ــ أرجوك ألا تزعجنى أيضاً . لست فى حاجة الى نصائحك . انك تحدث صخباً كثيراً هنا .

ــ اننى أسدى نصيحة حسنة . هل تريد أن تراهن على أن الصفر الذى سيطلع فى هذه المرة أيضاً ؟ أتراهن على عشر قطع ذهبية ؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ذهبية . فقال لى بلهجة خشنة قاسية :

ـ عشر قطع ذهبيـة ؟ أراهن ؟ مستعد ! أراهن على ان الصفر لن يطلع هذه المرة !

ـ عشرة دنانير لويس يا كولونيل !

ـ ما عشرة دنانير لويس ؟

ـ أى عشرة أنصـاف ليرات ذهبيـة ، وهى تسمى فى اللغة النبيلة عشرة دنانير لويس •

ـ قل اذن عشرة أنصـــاف ليرات امبراطورية ، ولا تمزح معى !

ولم أكن آمـل أن أربح الرهان طبعاً : فان حظ الصفر فى الطلوع لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وثلاثين حظاً • ولكننى انما عرضت هذا الرهان أولاً من أجل أن « أثير الدهشـة » وثانياً من أجل أن اجتذب الىّ مودة الآخرين • كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحبنى وأنهم يجدون لذة فى اشعارى بذلك • وأخذت الروليت تدور ، فما كان أشد ذهول الجميع حين طلع « الصفر » مرة أخرى ! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة • وذهبت نشوة الانتصـار بصوابى ! و'نقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية • وسألنى زرشتشيكوف ألا أريد أن أقبض جزءاً من المبلغ أوراقاً نقدية ، فأجبته بغمغمة غير مفهومة ، لأننى أصبحت عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح • كان رأسى يدور ، وكانت ساقاى تصطكان • وأحسست فجـأة بأننى سأتعرض الآن لخطر رهيب • وكنت أرغب فى أن أقوم بعمل آخـر ، أن أعرض رهاناً جديداً ، أن أنقد أحداً آلاف الروبلات • لمت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدى دون وعى ، ولم أستطع أن أعدّها • وفى تلك اللحظـة لاحظت الأمـير ودارزان ورائى فجـأة ، وكانا آتيين من لعب البكاراه بعـد أن خسرا هنالك كل شىء كما علمت ذلك فيما بعد •

صحت أقول لدارزان :

ـ هيه دارزان ! هنا حظك ! حطّ على الصفر .

فأجابني قائلاً بخشونة :

ـ خسرت كل شيء فليس معي مال .

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئاً ، وبأنه لم يعرفني . فصحت أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي :

ـ اليك المال ، فخذ ما شئت . كم تريد ؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمراراً شديداً :

ـ غريب أمرك . أنا لم أطلب منك شيئاً فيما أظن !

وقال لي زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي :

ـ هناك من يناديك .

كان الكولونيل قد ناداني عدة مرات ، وكاد يشفع نداءاته بشتائم ، منذ خسر رهاني معه على عشرة أنصاف الليرات الامبراطورية . وها هو ذا يقول لي وقد تخضب وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب :

ـ خذ ! لست مضطراً أن أنتظرك ! سوف تقول عني انني لم أدفع الرهان . اعدد .

ـ أصدّقك يا كولونيل ، أصدّقك ، أصدّقك بدون أن أعد . لكنني أرجوك ألا تصرخ غاضباً مني ، أرجوك ألا تزعل .

ولمت كدسة ذهبية بيدي . فصرخ الكولونيل يقول لي بعنف :

ـ أيها السيد العزيز ، أرجو أن تتجه بحماستك هذه الى غيري ، فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام ، وليس بيني وبينك سابق علاقة .

وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت :

ـ انه لأمر غريب أن يُسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطراز ! من هذا ؟ فتى صغير ؟

ولكنني لم أكن أصغي ، وطفقت أحط بغير روية ، ولكنني لا أحط على الصفر ، وجعلت حطاتي أعداداً من أوراق مالية .

قال الأمير ورائي :

ـ هيّا بنا ننصرف يا دارزان !

فقلت وأنا التفت اليهما :

ـ الى البيت ؟ انتظراني فننصرف معاً . انتهيت . لقد ربحت . فكان ربحي ضخماً . فصرخت أقول :

ـ كفى !

وبيدين مرتعشتين لممت الذهب وسكبته في جيوبي دون أن أعده ، وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعي أريد أن أدسها جميعاً في جيب جانبي من سترتي ، فاذا بيد سمينة يزينها خاتم ، هي يد آفردوف الذي كان الى يميني وكان قد حطّ مبالغ ضخمة ، اذا بيده تطبق على ثلاث من أوراقي وتغطيها براحتها . وقال يخاطبني بخشـونة مقطعاً كلماته مرققاً صوته :

ـ اسمح لي ، هذه ليست لك !

كانت هذه هي المقدمة التي تحملت نتائجها الرهيبة بعد بضعة أيام . اني لأقسم اليوم بشرفي أن تلك الأوراق الثلاث (وهي من فئة المائة روبل) كانت لي ، ولكن شاء سوء حظي أن ظلاً من شك قد ساورني حينئذ رغم اقتناعي الكامل ، وذلك شيء له خطورته عند من يحرص على أن يكون

انسانا شريفا ، وأنا انسان شريف ، ولاسيما أنني كنت لا أعلم في ذلك الحين علم اليقين ان افردوف لص ، بل كنت أجهل حتى اسمه ، فلم يكن في وسعي أن أصدق حقا أنني لست مخطئا وأن هذه الأوراق الثلاث ليست من الاوراق التي عدّت لي • ولقد كنت طوال السهرة لا أعد كدسة اموالي ، بل اقتصر على لمها بيدي ، اما افردوف فكان يرتب ماله أمامه معدودا محسوبا بجانب مالي • وكان افردوف عدا ذلك معروفا في هذا البيت ، وكانوا يعدونه هنالك رجلاً واسع الثراء ، وكانوا يعاملونه باحترام : فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته علي ، فاذا أنا أسلّم مرةً أخرى بغير اعتراض • يا للغلطة الفظيعة ! وأنكى ما في الأمر كله أنني كنت في حماسة شديدة • فلم أزد على أن قلت مرتعش الشفتين من الاستياء :

ـ يؤسفني أنني لا أتذكر تذكراً دقيقاً ، ولكن يخيّل اليّ أن هذه الأوراق لي أنا •

فسرعان ما أثارت كلماتي هذه دمدمات تذمر • وقال أفردوف بلهجة فيها استعلاء لا يطاق :

ـ لكي يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون « واثقاً » ، وأنت تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً •

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة :

ـ من هذا الفتى ؟ كيف يُسمح بمثل هذه الأمور ؟

وارتفع صوت وبش يقول بجانبي :

ـ ما هذه أول مرة • فمنذ قليل اراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة عشر روبلات من مال رخبرج •

فصحت أقول :

ـ طيب ، كفى ، كفى ! لست أعترض • خـذ ما تشاء ! يا امير •
ولكن أين الامير و دارزان ؟ انصرفا ؟ يا سـادة ، ألم تروا من أى جه
خرج الأمير و دارزان ؟

ولمت أخيرا مالى كله • وبدون أن أتريث لأدس فى أحـد جيوبي
عددا من أنصـاف الليرات الامبراطورية كان بيدى ، اندفعت ألاحق الأمير
و دارزان • ان القارىء يرى الآن رؤية واضـحة أننى لا أستر عيوبى
وأننى أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالى فى تلك اللحظة ، وكيف كنت
أحمق غاية الحماقة ، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك •

كان الأمير و دارزان قد بلغا أسفل السلم ، ولم يوليا ندائى وصيحاتي
أىّ انتباه • وقد وصلت اليهما ، لكننى تلبثت لحظةً أمام البواب السويسرى
فدسست فى يده ثلاثة أنصاف من الليرات الامبراطورية ، لا أدرى لماذا
فنظـر الىّ البواب متحيِّراً ، حتى أنه لم يشـكرنى ، ولكننى لم أكترث
بذلك ؟ ولو كان ماتفئى هناك ، اذن لناولته قبضةً من القطع الذهبية حتماً
فاننى كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً ، ولكن ما ان وضعت قدمى على
درج الباب حتى تذكرت فجـأةً أننى صرفت ماتفئى • وفى تلك اللحظة
كانت عربة الأمير تتقدم نحو البـاب ، فركبها الأمير ، فصحت أقول وأنا
أمسك وقاء العربة وأرفعه لأجلس بجانبه :

ـ أنا آت معك يا أمير !

ولكن دارزان مرّ أمامى فجأة ، فوثب يركب العربة ؟ وانتزع منى
الحوذى الوقاء فغطى به سيِّديه ، فصحت أقول خارجا عن طورى :

ـ يا للشيطان !

لكأننى ما رفعت الوقاء الا ليركب دارزان ، مثلما يفعل خادم • وصاح
الأمير يهيب بالحوذى قائلاً :

ـ الى البيت !

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة :

ـ قف !

ولكن الحصان جرّ العربة ، فتدحرجت على الأرض . ثم لم ألبث أن نهضت ، ووثبت أركب أول عربة رأيتها ، وطرت الى منزل الأمير وأنا أستحث الحوذى فى كل لحظة ، فأنهك الحصان المسكين .

٤

الحصان يجرى بطيئاً كأنما ليزيد حنقى ، والحوذى لا يبرح يضربه بسوطه لأننى وعدته بروبل مكافأة . وقلبى يخفق خفقاناً شديداً . أخذت أكلم الحوذى ، ولكن الكلمات لا تخـرج من فمى ، فكنت أتمتـم تمتمة بسـخافات لا أدرى ما هى . تلك كانت حالى حـين هرعت الى الأمير . وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان الى بيته . فهو الآن وحيد ، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة . يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر فى القمار كثيراً . وها هو ذا ينظـر الىّ فى حـيرة وذهول ، ثم يقول مقطباً حاجبيه :

ـ أ أنت أيضاً ؟

فقلت وأنا أختنق :

ـ جئت لأنهى صلتى بك . كيف تجرأت أن تعاملنى هذه المعاملة ؟

فرشقنى بنظرة مستفهمه . قلت :

ـ اذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان ، فما كان عليك الا أن تقول لى انك ستصطحب دارزان ، ولكنك أجريت الحصان ، فاذا بى ...

ـ آ ... نعم ... أظن أنك وقعت أنت فى الثلج .

قال ذلك وطفق يضحك . قلت :

ـ هذه أمور يـكون الرد عليها بدعوة الى مبارزة ، ولذلك سنصفي أولاً حساباتنا ...

واستللت أموالي بيد مرتعشة ، فوضعت بعضها على الديوان ، وبعضها على المنضدة الرخامية ، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح ، وكنت أتناولها بقبضة يدي ملأى ، وألقيها حزماً وأكداساً ، حتى لقد تدحرجت قطع ذهبية كثيرة على السجادة . قال :

ـ ها ... نعم ... أظن أنك ربحت كثيراً ؟ يدرك المرء ذلك من لهجة كلامك .

انه لم يكلمني بمثل هذه الوقاحـة في يوم من الأيام وكان وجهي شاحباً شحوباً شديداً .

ـ يوجد هنا ... لا أدري كم يوجد ... يجب أن نعد ... انني مدين لك بثلاثة آلاف ... أم ماذا ؟ أأكثر أم أقل ؟

ـ أظن أنني لا أجبرك على أن تدفع لي شيئاً .

ـ بل أنا الذي أريد ذلك . ولابد أنك تعرف لماذا . خذ !

وطفقت أعد المال بيد مرتجفة ، ولكنني ما لبثت أن عدلت عن العد ، قائلاً له :

ـ لا يهمني أن أعرف المجموع معـرفة دقيقة . أنا أعرف أن ههنا ألف روبل . فسآخذ هذه الألف لنفسي ، وخذ أنت الباقي كله ، خذ هذه الأكداس جميعها ، سـداداً لدينك عليّ أو لبعض دينك عليّ : أظن أن الباقي يبلغ نحو ألفي روبل وقد يزيد .

قال الأمير مبتسماً :

ـ وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك ؟

ـ أأنت في حاجـة اليها ؟ اذن ... أعطيك اياها ... كنت أظن أنك قد لا تريد أن ... ولكن خذها اذا وجب أن تأخذها ...

ـ لا ، لا أريد .

قال ذلك وأشاح عني باحتقار ، وعاد يذرع الغـرفة ذاهبا آيباً . ثم التفت اليّ فجأة وقد لاحت في وجهه معاني التحدي والاستفزاز :

ـ ولكن ما الذي جعلك تفكر في سداد ديونك ؟

فزأرت أقول أنا أيضاً :

ـ انما أرد اليك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت !

ـ اذهب الى الشيطان أنت وألفاظك الضخمة واشاراتك الأبدية !

وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره ، وأضاف يقول :

ـ انني أريد منذ مدة طويلة أن أطردكما كليكما أنت وصاحبـك فرسيلوف .

صرخت أقول :

ـ هل جُننت ؟

وكان كمن جُنّ فعلاً . وتابع كلامه قائلاً :

ـ لقد عذبتماني تعذيباً رهيباً بجملكما المتفخمة . دائمـاً جمل ، جمل ، جمل ! فيما يتعلق بالشرف مثـلاً ! أف ! انني أريد منـذ مدة طويلة أن أقطع صـلتي بكمـا . ويسرني ، يسرني أنه آن الأوان . كنت أظن أنني مرتبط ، وكنت أحمر خجلاً من أنني مضطر أن أستقبلكما ... كليكمـا ! أما الآن فأرى أنني غير مرتبط بشيء ، غير مرتبط بشيء ، ألا فاعلم ذلك ! لطالمـا حضني صـاحبك فرسـيلوف على أن أهاجـم آخماكوفا ، وأن ألطخ شرفها بالعار ... لا تتكلما عن الشرف بعد اليوم

عندى أبداً ! كلاكمـا غير شريف ، كلاكمـا غير شريف ! وأنت ، ألم تستح أن تأخذ مالى ؟

زاغ بصرى . وقلت متمتماً برفق :

ـ أنا اقترضت منك كمـا يقترض رفيق من رفيقـه . وأنت الذى عرضت علىّ أن تقرضنى فصدّقت حسن نياتك ...

ـ ما أنا رفيقك ! لقد أعطيتك مالاً ، ولكن لغير هذا الغرض . أنت تعلم لماذا أعطيتك .

ـ أعطيتنى من حساب فرسيلوف . وذلك غباء طبعاً ، ولكن ...

ـ لم يـكن فى امكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون اذنه ، ولا كان فى امكانى أن أعطيـك ماله بغـير اذنه ... فانا انما أعطيتك من مالى ، وكنت أنت تعرف ذلك . كنت تعرفه وكنت ترضاه . ولشدما قاسيت أنا فى بيتى من تمثيل هذه المسرحية الكريهة .

ـ ما الذى كنت أعـرفه ؟ عن أية مسرحيـة تتكلم ؟ ولماذا كنت تعطينى اذن ؟

ـ لجمال عينيك يا ابن عمى ! .

قال هـذه الجملة السـاخرة بالفرنسـية . وطفق يضحك أمامى . فصرخت معولاً أقول :

ـ اذهب الى الشيطان ! خـذ كل شىء . اليك هذه الألف أيضـاً ! هاقد سددت دينى كله الآن ، وغداً ...

ورميت له كدسة الأوراق المالية التى كنت قد احتفظت بها لنفسى ، فسقطت على صـديرته ، وتدحرجت الى الأرض . فاذا هو يتقدم منى

ثلاث خطوات سريعة واسعة ، ويقول لى بغتةً بلهجة وحشية وكلمات مقطّعة :

ـ هل تجرؤ أن تدّعى أنك حين كنت تأخذ منى المال طوال هذا الشهر ، كنت تجهل أن أختك حبلى منى ؟

ـ ماذا ؟ كيف ؟

كذلك هتفت أسأله . وارتخت ساقاى فأصبحتا لا تستطيعان حملى فتهاويت على الديوان خائر القوى .

لقد ذكر لى هو نفسه فيما بعد أن وجهى اصفر اصفراراً شديداً يشبه أن يكون بياضاً كبياض منديل .

اضطرب ذهنى . وأذكر أن كلاً منا قد حدّق الى عينى صاحبه صامتاً . وألمّ بوجهه هو نوع من ذعر . ومال علىّ فجأة ، فأمسكنى من كتفىّ يسندنى . انى أتذكر ابتسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح . لقد قرأت فيها معانى الشك والدهشة . نعم ! لم يكن يتوقع لكلماته أن تحدث فى نفسى هذا الأثر ، لأنه كان موقناً بأننى على علم بالأمر ، وبأننى كنت آثماً .

وأغمى على اخيرا ، غير أن الاغماء لم يدم الا دقيقة واحدة . فلما أفقت وقفت على قدمى ونظرت اليه وفهمت . لقد انكشفت الحقيقة فجأة لفكرى الذى طال نومه ! لو قد حكى لى الأمر من قبل وسئلت ما عسانى صانعاً بالرجل ، اذن لأجبت حتماً بأننى سأمزقه تمزيقاً . ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً ، وقد حدث بغير ارادتى أبداً : فاننى لم ألبث أن دفنت وجهى بيدىّ فجأةً ، وأخذت أذرف دموعاً حارة مُرّة . ذلكم ما حدث . لقد انبعث الطفل الصغير فى الرجل الشاب . معنى ذلك أن الطفل

الصغير كان لا يزال حياً في نفسي ، وتهالكت على الديوان وطفقت انشج منتحباً : « ليزا ! ليزا ! ليزا المسكينة ! » .

وعندئذ صدّقني الأمير تصديقاً تاماً . فهتف يقول بحزن عميق :

ـ آه ! ما أكبر الذنب الذي ارتكبته في حقك ! ما أبشع الأشياء التي تصورتها عنك ! سامحني يا آركادي ماكاروفتش !

فانتفضت ، وأردت أن أقول له شيئاً ، وتسمرت أمامه ، ولكن دون أن أنطق بكلمة ، ثم لم ألبث أن ولّيت هارباً من الغرفة ومن البيت .

رجعت الى مسكني سائراً على القدمين ، ولا أكاد أتذكر كيف وصلت . ارتميت على سريري ، مكباً بوجهي على الوسادة في الظلام ، ورحت أفكر وأفكر . ان الأفكار في مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقةً منسجمة أبداً ، ويكون الفكر والخيال كأنهما معلقان بخيط يترجح ويتراقص . أذكر أنني أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه ، بل بأشياء لا يعلم الا الله ما الذي جعلها تخطر ببالي ! ولكن حزني وشقائي ما يلبثان أن يدركاني مؤلمين موجعين ، فأعقف يديّ كمداً ، وأصيح قائلاً : « ليزا ! ليزا ! » ، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة . لا أدري كيف نمت ولكنني نمت نوماً عميقاً هادئاً .

الفصل السابع

١

استيقظت في نحو الساعة الثامنة من الصباح ، فسارعت أقفل بابي بالمفتاح فوراً ، وجلست أمام النافذة ، وعدت أحلم من جديد . وبقيت على هذه الحال حتى الساعة العاشرة . وقد قرعت الخادمة الباب مرتين ، لكنني طردتها . وبعد الساعة العاشرة قُرع الباب مرةً أخرى ، فأوشكت أن أصرخ أيضاً ، لولا أن عرفت أنها ليزا . وقد دخلت الخادمة معها : جاءتني بقهوتي ، واستعدت لاشعال المدفأة . فكان يستحيل أن أطردها . فكنت طوال الوقت الذي قضته في وضع الحطب واشعال النار أذرع غرفتي الصغيرة بخطى واسعة ، دون أن أشرع في الحديث ، متحاشياً أن أنظر الى ليزا . وكانت الخادمة تعمل ببطء شديد ، وتتعمد هذا البطء تعمداً ، كما تفعل جميع الخادمات في مثل هذه الحالة ، حين يلاحظن أن أسيادهم متحرجون من الكلام بحضورهن . وكانت ليزا جالسةً على المائدة أمام النافذة تتابعني بنظرها . فقالت فجأة :

ـ توشك قهوتك أن تبرد .

فنظرت اليها . لم أر في وجهها أثراً لاضطراب ، فوجهها هادىء هدوءاً تاماً ، حتى أن ابتسامة كانت تلم بشفتيها .

قلت محدثاً نفسي وأنا أرفع كتفي : هذه هي النساء !

وانتهت الخادمة أخيراً من اشعال المدفأة ، وشرعت في تنظيف الغرفة

وترتيبها • ولكننى طردتها طردا صارماً ، وأقفلت الباب بالمفتاح من جديد •

سألتنى ليزا :

ـ قل لى ، من فضلك ، لماذا أغلقت الباب ثانيةً ؟

فتسمرت أمامها ، وهتفت أقول فجأة دون أن يكون قد خطر ببالى أن تكون هذه بداية كلامى :

ـ ليزا ، كيف أمكن أن تظنى أنك ستظلين تخدعيننى ؟

لم أذرف فى هذه المرة دموعاً ، وانما اجتاحت قلبى عاطفة تشبه أن تكون شراً ، حتى اننى لم أكن أتوقع ذلك أنا نفسى • فاحمرت ليزا ولكنها لم تجب ، وانما ظلت تحدق الى عينىّ •

ـ انتظرى يا ليزا ، انتظرى ! آه ••• ما أغبانى ! ولكن هل كنت غبياً الى هذا الحد من الغباوة حقاً ؟ ان التلميحات كلها لم تتجمع حزمةً واحدة الا بالأمس ، أما قبل ذلك فكيف كان يمكننى أن أحزر ؟ أكان يمكننى أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين الى ستولبيافا أو الى ••• داريا أونيسيموفنا هذه ؟ لقد كنت أعدُّك شمساً يا ليزا ، فكيف كان يمكن أن يخطر ببالى ••• ؟ انك تتذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده ، وكيف مضينا نتنزه فى الشمس معاً ، وكيف سررنا أعظم السرور • هل كانت الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين ؟

فأومأت ليزا برأسها لتقول نعم •

ـ اذن كنت تخدعيننى منذ ذلك الحين يا ليزا ! لا ، يا ليزا ، لم يكن ذلك منى غباءً ، بل كان أنانية • ليس الغباء هو المسئول ، وانما أعمتنى الأنانية ، وأعمتنى ثقتى الكبيرة بقداستك • كنت لا أنظر الا فى نفسى • وعلام أنظر فيكم أنتم ؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً ، وكنت أعدُّكم أعلى

منى كثيراً ! وأمس ، فى البيت ، لم يستطع سلوككم الغريب أن يزيل الغشاوة عن بصرى ، وكنت عدا ذلك مشغول البال بأمور أخرى ، فلم أستطع أن أدرك شيئاً ، رغم جميع الاشارات والتلميحات .

وتذكرت فى تلك اللحظة كاترين نيقولايفنا فجأة . فأحسست مرةً أخرى بألم يشبه أن يكون وخز ابرة فى القلب ، واحمر وجهى احمراراً شديداً . فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طيباً .

قالت ليزا بصوت رفيق لكنه جازم :

ـ ولكن عمَّ تعتذر يا أركادى ؟ يبدو لى أنك تحاول أن تعتذر عن شىء ، أن تبرىء نفسك من شىء ، ولكن عمَّ تعتذر ؟ مم تبرىء نفسك ؟

ـ ما الذى يجب علىَّ أن أفعله الآن ؟ لو لم يكن ثمة الا هذا السؤال لكفى . فكيف تقولين ممَّ تبرىء نفسك ؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف أتصرف ! لست أعلم ماذا يفعل الاخوة فى مثل هذه الحالة .. أعلم أن منهم من يجبر الجانى على الزواج مشهراً عليه المسدس ... ولسوف أتصرف كما يجب أن يتصرف رجل شريف . لكننى أجهل كيف ينبغى أن يتصرف رجل شريف ! لماذا ؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء . انه أمير . وهو يصنع حياته ويهيىء مستقبله ، فلن يرضى حتى أن يصغى الينا نحن الشرفاء . وأنا وأنت لسنا أخاً وأختاً ، وانما نحن ولدا زنا بغير اسم ، نحن من أولاد الأقنان . هل يتزوج الأمراء بنات أقنان ؟ آه ... ياللعار ! وتظلين تنظرين الىَّ وتُدهشين ؟ ...

فاحمرت ليزا من جديد ، وقالت :

ـ أظن أنك معذب ، ولكنك تتسرع كثيراً وتؤذى نفسك ..

ـ أتسرع ؟ أفى رأيك اذن أننى لم أتأخر ؟ أأنت تقولين هذا الكلام يا ليزا ؟ (أخيراً نشط خيالى) . ما أكثر ما تكدس علىَّ من عار مع ذلك ،

وما اسد الاحتقار الذى لابد ان هذا الأمير قد حمله لى ! اه ... الان أصبح كل شيء واضحاً . الان اصبحت اللوحه كلها ماثله امامى : لقد تصور اننى عرفت صلته بك منذ مدة طويلة ، ولكننى سكت عليها ، أو حتى شمخت بأنفى تباهياً « بالشرف » العظيم ـ ذلك ما تصوره عنى . وتصور أننى كنت آخذ ماله فى سبيل أختى ، تصوَّر أننى كنت آخذ ماله ثمناً لعرض أختى . وذلك ما كان يشمئز منه . وانى لأعذره ، أعذره كل العذر : فليس غريباً أن يضيق ذرعاً بمخلوق دنيء يُضطر أن يلقاه مرةً بعد مرة كل يوم لا لشيء الا أنه « أخوها » ، وأن يسمعه ـ فوق ذلك ـ متحدثاً عن الشرف ... ذلك خليق بأن يقسى قلب المرء ، أن يقسى حتى قلب رجل مثله ! وقد ارتضيت أنت هذا كله ، ولم تنبهينى ! لقد بلغ من شدة احتقاره لى أنه كان يحدث عنى ستيبلكوف ، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس انه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلينا أنا وفرسيلوف . وهذا اذن ما جعل ستيبلكوف يقول : « ان آنا آندرييفنا أختك مثل اليزابت ما كاروفنا سواء بسواء » ، حتى لقد صرخ يقول ورائى : « مالى أنا أفضل » . وكنت أنا استلقى فى بيت الأمير على دواوينه مسترخيا ، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيراً ! وسمحت أنت بهذا كله ! ولا شك أن دارزان نفسه على علم بالأمر الآن ، كما تدل على ذلك لهجته فى مساء أمس .. جميع الناس عارفون بالأمر ، جميعهم عارفون به ، الا أنا ! ...

قاطعتنى ليزا تقول :

ـ لا أحد يعرف . انه لم يتحدث الى أحد من أصدقائه ، انه لم يستطع أن يتحدث الى أحد منهم . أما ستيبلكوف هذا ، فأنا أعرف أنه يعذبه ، وأن ستيبلكوف قد استطاع أن يشتبه اشتباهاً فى أكثر تقدير ... أما أنت فقد كلمته عنك مراراً ، وصدّق ما قلته له تصديقاً كاملاً ...

لقد قلت له انك تجهل كل شيء ، ولكنني لا أدرى لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس .

ــ الحمد لله على أننى دفعت له دينه أمس ، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذى يجثم على قلبى ! ليزا ، هل ماما على علم بالأمر ؟ ولكن كيف لا تكون على علم به . انها بالأمس ثارت علىّ ! آه يا ليزا ! ولكن هل يمكن أن تعتقدى بأنك على حق ؟ ألا تتهمين نفسك بشيء ؟ اننى لا أدرى كيف يُحكم على هذه الأمور اليوم ، ولا أدرى ما هى آراؤك ، أقصد ما هى آراؤك فىّ ، فى أمك ، فى أخيك ، فى أبيك ! هل فرسيلوف على علم ؟

ــ لم تقل له ماما شيئاً . وهو لا يسأل عن شيء . لاشك أنه لا يريد أن يسأل .

ــ يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم . هذا هو الأمر . ذلك فى طبيعته . طيب ، وفى وسعك أن تسخرى من أخيك ، من أخيك الغبى ، اذا هو تكلم عن مسدسات ، ولكن هلا فكرت فى أمك ؟ ألم تحدثك نفسك أبداً يا ليزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك ؟ لقد عذبتنى هذه الفكرة طوال الليل . ان الفكرة الأولى عند ماما اليوم هى هذه : « لقد أثمت ابنتى لأننى أثمت أنا أيضاً . هل تلد الحية الا الحية ؟ » .

ما ان سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها ، وهتفت تقول :

ــ آه ما أقسى هذا الذى تقوله وما أسوأه !

ثم نهضت وسارت مسرعةً نحو الباب ، فقلت لها :

ــ قفى قفى !

وأمسكتها ، وأجلستها من جديد ، وجلست بقربها دون أن أسحب يدى . قالت :

ـ كنت أقدّر ، وأنا آتيه الى هنـا ، أن هذا كله سيحدث ، وأنك ستكون فى حاجة الى أن أتهم نفسى حتماً . فاغتبطْ : هأنا ذى أتهم نفسى . اننى لم اصمت حتى الآن ولم أمتنع عن الكلام الا كبرياءً ولكننى أشفق عليك وعلى ماما أكثر مما أشفق على نفسى ...

ولم تكمل ليزا جملتها ، وانما انفجرت تبكى . فقلت لها :

ـ كفى يا ليزا ! لا ، لست فى حاجة الى شىء . ما أنا لك بالقاضى يا ليزا . ولكن قولى لى : هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة ؟

فأجابت ليزا برقة وهى تخفض عينيها :

ـ أظن . ولكننى لم أذكر لهـا أنا متى وقـع « الأمـر » الا منـذ زمن قصير .

ـ فماذا كان منها ؟

ـ قالت : « احتفظى به » .

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة . فقلت لها :

ـ نعم يا ليزا ، « احتفظى به » . لا تحـاولى أن تصنعى بنفسـك شيئاً . حماك الله من مثل ذلك !

قالت بثبات :

ـ لن أفعل شيئاً .

ورفعت بصرها الىّ من جديد . ثم أضافت تقول :

ـ اطمئن . ليس الأمر هذا !

ـ ليزا ، عزيزتى ! كل ما أراه هو أننى لا اعلم شيئاً . لكننى علمت

الان أنني احبك . هناك شيء واحد لا افهمه يا ليزا : لقد اصبح كل شيء واضحا لي يا ليزا ، ولكنني لن افهم في يوم من الأيام ، فهماً كاملاً ، لماذا افتتنت به يا ليزا ؟ كيف أمكن أن تحبي رجلاً مثله ؟ ذلك هو السؤال.

فأجابت ليزا وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة :

ـ ولا شك أن هذه الفكرة أيضاً قد عذبتك في الليل ، أليس كذلك ؟

ـ انتظري يا ليزا ، هذا سؤال سخيف ، وأنت تستهزئين بي . استهزئي بي ، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش : أنت و « هو » نقيضان ! لقد درست طبعه : انه رجل قاتم المزاج ، كثير الشك ، قد يكون طيباً ، ولكنه ميال كثيراً الى رؤية الشر في كل مكان . (هنا على الأقل يشبهني تماماً) . وهو يحترم النبل احتراماً شديداً ، أعترف بهذا أيضاً وأراه ، ولكنني أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المثل الأعلى . وهو ميّال الى الندم طول حياته بغير انقطاع ، وهو ينحي على نفسه باللائمة دائماً ، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضاً يشبهني على كل حال) . في رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية ، وألف معنى من المعاني الزائفة ، ولكن ليس له فكرة واحدة ! يسعى الى المآثر الكبرى ، لكنه لا يزيد على أن يُراكم دناءات فوق دناءات . معذرة يا ليزا ، انني أسيء الى شعورك . والحق أنني غبي : فحين أقول هذا الكلام أجرح عاطفتك ، وأعلم أنني أفعل ذلك ؟ انني أفهم هذا ...

قالت ليزا مبتسمة :

ـ الصورة التي رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة ، ولكنك مسرف في السخط عليه ، لذلك لم يبق فيها شيء من صحة . لقد ارتاب فيك منذ البداية ، ولم تستطع أن تراه كاملاً ، أما معي أنا فانه منذ أن كنا في لوجا ... انه لم ير أحداً غيري منذ أن كنا في لوجا ... نعم انه

كثير الشك مهيأ للمرض ، ولولاى لفقد عقله . ولسوف يفقده اذا هو تركنى أو سوف ينتحر .

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجمة مفكرة :

ـ أظن أنه يدرك ذلك وأنه يعرفه .

وتابعت كلامها فقالت :

ـ صحيح أنه ضعيف ، ولكن أمثال هؤلاء الضعفاء قادرون أحياناً على أشياء قوية قوة هائلة . ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادى: لا حاجة الى شيء من هذا البتة ، وأنا أعرف ما سوف يحدث . لست أنا التى ألاحقه وأطارده ، بل هو الذى يجرى ورائى . ان ماما تبكى وتقول : « اذا تزوجته فسوف تشقين ، لأنه سيكف عن حبك » . أما أنا فلا أصدّق هذا الكلام . قد أشقى ، ولكنه لن ينقطع عن حبى . ليس هذا هو السبب الذى حملنى على تأخير موافقتى ، وانما هنالك سبب آخر . لبثت شهرين لا أوافقه على الزواج . ولكننى أجبته اليوم قائلة : « نعم ، أتزوجك » . هل تعلم يا أركادى (هنا سطعت عيناها وطوقت عنقى بذراعيها فجأة) انه ذهب أمس الى آنا آندرييفنا ، وأبلغها بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع أن يتزوجها ؟ نعم ، لقد أفصح عن نفسه ، وانتهى أمر تلك الفكرة الآن ! وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال ، وانما كان ذلك حلم الأمير نيقولا ايفانوفتش ، وكان ذانك الجلادان ، ستيبلكوف وشخص آخر ، يضغطان عليه ضغطاً شديداً . فكان أن كافأته اليوم بجوابى : « نعم ، أتزوجك » . لا تجرحنك قصة الأمس يا عزيزى أركادى . انه يدعوك اليه ، وهو اليوم مريض ، وسيبقى طول النهار فى البيت . حقاً انه مريض يا أركادى . لا تظنن أن هذا تعلل . لقد أوفدنى اليك خصيصاً ورجانى أن أقول لك انه « محتاج » اليك ، وان فى نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك ، وان هذه الأشياء لو قالها لك هنا فى مسكنك هذا لكانت فى غير محلها .

هيّا ، الى اللقـاء ! آه يا أركادي ، انني استحي أن أقول لك هذه الحقيقة ، وهي أنني في طريقي اليك كنت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك لي قد زال . فكنت أرسم اشارة الصليب طـوال الطريق . ولكنني أحمد الله على أنك طيب جداً ، ولطيف جداً ! لن أنسى هذا في حياتي . أنا ذاهبة الى ماما . حاول أن تحبه قليلاً ، هه ؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها :

ـ أعتقد يا ليزا أنك قوية الارادة . نعـم ، أصدّق أنك لست أنت التي تجـــرين وراءه ، بـل هو الذي يجـــري وراءك . ولـكن ، رغم كل شيء ...

فقالت ليزا تكمل جملتي :

ـ ولكن رغم كل شيء ، « لماذا افتتنت به ؟ هذا هو السؤال » .

قالت هذه الجملة وهي تضحك ضـحكة ماكرة كمـا فعلت من قبل ، ونطقت بعبارة « هذا هو السؤال » مقلدةً لهجتي تقليداً تاماً ، رافعةً ابهامها الى مستوى عينيها مثلما فعلت أنا .

وتعانقنا ، ولكن قلبي انقبض ثانية بعد انصرافها .

٢

أريد أن أسجل هذا لنفسى : بعد انصراف ليزا تلاحقت فى خاطرى أفكار غريبة كثيرة أورثتنى ارتياحاً كبيراً • فكنت أقول لنفسى مثلاً : « لماذا أقحم نفسى فى هذه الشئون ؟ فيم يعنينى هذا الأمر ؟ ان هذه الأشياء تحدث لجميع الناس أو لجميعهم تقريباً • وقد حدثت لليزا • فماذا ؟ هل علىّ أن أنقذ شرف الأسرة ؟ هل علىّ أن أمحو عار الأسرة ؟ » • اننى أسجل هذه الخطرات الحقيرة لأبين مدى ما كنت عليه فى ذلك الأوان من ترجح فى فهم الخير والشر • والعاطفة وحدها هى التى أنقذتنى : كنت أعرف أن ليزا شقية ، وأن ماما شقية ؛ كنت أعرف ذلك بالعاطفة حين أفكر فيهما ، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً •

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث ، منذ هذا اليوم الى يوم كارثة مرضى ، قد تلاحقت بسرعة تبلغ من الشدة أننى أدهش أنا نفسى – حين أفكر فيها اليوم – من أننى استطعت أن أصمد ، ومن أن القدر لم يسحقنى• لقد تعرض عقلى وتعرضت عاطفتى للمخاطر أثناء تلك الأحداث ، فلو قد نفدت طاقتى فى آخر الأمر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن أرتكبها) ، لكان من الممكن جداً أن يبرئنى المحلفون • ولكننى سأحاول أن أقص كل شىء بترتيب محكم ، رغم أن فكرى أثناء تلك الأحداث لم يكن فيه شىء من ترتيب • انى لأنبه الى هذا • لقد هاجمتنى الأحداث كعاصفة ، فدارت الأفكار فى رأسى كأوراق الأشجار اليابسة فى أعاصير

الخريف • لقد كنت متشبعا حينذاك بافكار الاخرين ، فأين أجد فكرة نابعة من نفسي فاتخذ قراراً حراً ! ولم يكن ثمة من يرشدني •

قررت أن أذهب في المساء الى الأمير ، لأكلمه عن كل شيء بحرية تامة ، والى أن يحين المساء بقيت في البيت • ولكنني حين حل الغسق تلقيت بالبريد رسالةً جديدة من ستيبلكوف ، مؤلفه من ثلاثة أسطر ، يطلب اليَّ فيها بالحاح وبلهجة « مقنعة » الى أبعد حد أن أزوره غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح « لأعمال ذات شأن هام ، وسترى بنفسك ما هي » • فقررت ، بعد تفكير ، أن أتصرف وفقا للظروف ، فالغد لا يزال بعيداً •

كانت الساعة قد بلغت الثامنة • وكان يمكن أن أمضي الى الأمير منذ مدة طويله ، غير أنني كنت لا أزال أنتظر فرسيلوف : فان هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبرَ له عنها ، وكان قلبي يحترق احتراقاً • ولكن فرسيلوف لم يجيء ، وقد أصبحت لا أستطيع في تلك اللحظة أن أظهر عند أمي وليزا ، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار • فخرجت سيراً على القدمين ، وفيما أنا في الطريق خطر ببالي أن ألقي نظرة على حانة الأمس التي تقع تحت مستوى الأرض • فوجدت فرسيلوف هناك ، في المكان الذي كان فيه البارحة •

قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة ، ويحدجني بنظرة عجيبة :

ـ كنت أعرف أنك ستأتي •

كانت ابتسامته خالية من الطيبة ، لم أر مثلها في وجهه منذ مدة طويلة •

جلست الى المائدة ، ورويت له من البداية الى النهاية جميع الوقائع التي تتصل بالأمير وليزا ، وقصصت عليه المشهد الذي وقع لي أمس مع الأمير بعد الروليت ، ولم أنس أن أذكر له أنني أصبت في القمار ربحاً

كبيراً • فأصغى الىّ بانتباه شــديد ، وسألنى عن القرار الذى اتخذه الأمير فى تزوج ليزا • وقال :

ــ « يا للطفلة المســكينة » ! لعلهــا لن تجنى من هذا ربحاً • ولكن أغلب الظن أن الأمر لن يتم ••• رغم أن الشاب قادر على أن •••

ــ قل لى كما يقول صــديق لصــديقه : هل كنت تعلم ؟ هل كانت نفسك تحدثك بشىء ؟

ــ يا صديقى ، ماذا كان فى وســعى أن أعمل ؟ ذلك أمر من أمور العاطفة والوجدان ، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل • أكرر لك ما ســبق أن قلته : لقد طالما تدخلت فى شــئون غيرى فى الماضى ، ثم أقلعت عن هذه الدعوى الخرقاء وصرت ألتزم جانب التحفظ ! هذا لا ينفى طبعاً اننى لا أرفض أبداً أن أســاعد أحداً اذا ألم به شــقاء ، أن أساعده فى حــدود طاقتى ، بشرط أن أفهم شــيئاً مما يحدث • ولكن قل لى : ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة ؟

فقلت وقد اشتعلت نفسى غضباً :

ــ ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت فى أننى أعــرف عــلاقة ليزا بالأمير ــ ولو أقلّ اشتباه ــ ورأيت فى الوقت نفسه أننى أقبل أن آخذ من الأمــير مالاً ، كيف أمكنك أن تتحــدث معى ، وأن تجــالسنى ، وأن تصافحنى ، أنا الذى لابد أنك كنت تعدنى شخصاً حقيراً ؟ أراهن على أنك كنت تشتبه حتماً فى أننى أعرف كل شىء ، واننى كنت آخذ المال من الأمير ثمناً لأختى وأنا عالم بالأمر كل العلم !

قال وهو يبتسم :

ــ أقول لك مرةّ أخرى ان هذا شأن من شئون الوجدان والضمير •

ثم أضاف يقول وقد لاح فى وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملغزة :

ـ ومن أدراك أننى كنت لا أخشى ـ كما خشيت أنت ، فى حالة أخرى ـ أن أفقد مثلى الأعلى ، وأن أكتشف فى ابنى النزق الشريف وغدا حقيرا ؟ لقد كنت أخشى هذا ، فكنت أؤجل لحظة المعرفة الاليمة • لماذا لا تفترض فىّ ، بدلاً من الكسل والدناءة ، شيئاً أقرب الى البراءة ، بل شيئاً من الغباء أيضاً ، والغباء أنبل على كل حال • على أننى كثيراً ما أكون غبياً بغير نبل • بأى حق يمكن أن أكون متشدداً فى محاسبة ابنى ؟ هذا عدا أن اصلاحك بالاكراه لا قيمة له فى نظرى •

ـ وليزا ؟ ألا تشفق عليها ؟ ألا ترثى لحالها ؟

ـ أشفق عليها كثيراً يا عزيزى • من قال لك اننى خال من الاحساس ؟ ••• بالعكس ، اننى أحاول بجميع الوسائل ••• وأنت ؟ كيف تسير أمورك « أنت » ؟

ـ دعنا من أمورى • لم يبق لى « أنا » أمور • اسمع ! لماذا تشك فى أنه سيتزوجها ؟ لقد ذهب أمس الى آنا آندرييفنا ، وأعرب لها عن عدوله اعراباً واضحاً ••• أقصد عن هذه الفكرة السخيفة ••• التى قامت فى ذهن الأمير نيقولا ايفانوفتش ••• فكرة أن يزوجهما • لقد عدل عن هذه الفكرة عدولاً صريحاً •

ـ صحيح ؟ متى حدث هذا ؟ ممن علمته ؟

ألقى علىّ هذه الأسئلة مستطلعاً باهتمام • فحكيت له كل ما كنت أعرفه • فقال واجماً كمن يفكر بينه وبين نفسه :

ـ همْ ••• اذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة • همْ ••• نعم ••• جائز جداً أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما •• رغم أن شيئاً لم يُقل ولم يعمل هناك أبداً حتى ذلك اليوم ، لا من هذا

الجانب ولا من ذاك .. أنا أعرف هذا . نعم ... حتماً ... تكفى كلمتان اثنتان للعرض . ولكن ...

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة ، وتابع كلامه فقال :

ـ ولكن اسمع ... سأذكر لك نبأً خارقاً لا شك أنه سيهمك : لو أن صاحبك الأمير طلب من آنا آندرييفنا أن يتزوجها (وذلك عرض كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه ، لما فى ذهنى من شبهات عن العلاقة التى بين الأمير وبين ليزا ، أقول لك هذا سراً بينى وبينك) لرفضت آنا آندرييفنا طلبه فوراً . على كل حال أظن أنك تحب آنا آندرييفنا كثيراً ، وتحترمها ، وتقدرها ، أليس كذلك ؟ هذا لطف كبير منك ، ولسوف تبتهج لها اذن : فاعلم يا عزيزى أن آنا آندرييفنا مقبلة على زواج ، واذا صدق ما أعرفه عن طبعها ، فانها ستتزوج حتماً ، وسأبارك أنا زواجها طبعاً .

هتفت أقول مدهوشاً :

ـ ستتزوج ؟ من الذى ستتزوجه ؟

ـ أحزر . هيّا ، لا أريد أن أعذبك . ستتزوج الأمير نيقولا ايفانوفتش ، شيخك العزيز .

حملقت . وتابع كلامه بقول بتراخ ووضوح :

ـ من الجائز جداً أن تكون هذه الفكرة قد نبتت فى ذهنها منذ مدة طويلة ؛ ولاشك أنها صقلتها صقلا فنيا على جميع وجوهها، وفى تقديرى أن الأمر قد تم بعد زيارة « الأمير سرجويا » بساعة تماماً (هذا مثال على غزواته التى تجىء فى غير الأوان) . لقد جاءت الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ببساطة وعرضت عليه أن يتزوجها .

ـ كيف ؟ هي عرضت عليه أن يتزوجها ؟ تقصد : عرض عليها أن يتزوجها ؟

ـ هو ؟ دعك من هذا ! هي التي عرضت عليه ، هي ! وواقع الأمر الآن أنه ممتلىء حماسة • ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر بباله • ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً ، من فرط الحماسة أيضاً ••• في أغلب الظن •

ـ اسمع ••• انك تتكلم بسخرية شديدة • فلا أكاد أصدقك • كيف تعرض عليه أن يتزوجها ؟ ماذا قالت له ؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جد مدهش على حين فجأة :

ـ ثق يا صديقي انني مبتهج ابتهاجاً صادقاً • صحيح أنه شيخ ، ولكن جميع القوانين والعادات تجيز له أن يتزوج • أما عنها هي ، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير ، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقي • ثم انها أهل لأن يكون لها رأيها وأن تتخذ قرارها الخاص بها • وأما عن التفاصيل ، وعن الكلمات التي استعملتها في مخاطبته ، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئاً يا صديقي • ولكنها دبّرت أمرها على كل حال ، كما لا نستطيع أن نفعل نحن ، لا أنا ولا أنت يا صديقي • وخير ما في المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة ، فهو في نظر جميع الناس سليم كل السلامة ، هو « كما يجب » جداً • واضح أنها أرادت أن تنشىء لنفسها مركزاً في المجتمع ، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز في المجتمع • تلك كلها أمور رائجة في المجتمع • ولابد أن العرض الذي تقدمت به قد صاغته بعبارات رائعة فاتنة • ان لها طبعاً قاسياً يا صديقي ! هي راهبة شديدة المراس كما ألقبها بذلك منذ مدة طويلة • لاحظ أنها ربيبته تقريباً ، وأنها خبرت طيبته كثيراً • وطالما أكدت لي أنها تحمل له « كثيراً من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة ! » ، الخ ، لذلك كنت شبه متهيء

لتلقى النبأ • هذا كله قد نقله الى اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابنى آندره آندريفتش ، أخوها ، الذى لا تعرفه ، والذى أراه مرة واحدة كل سته أشهر تماماً • وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم •

ـ اذن أذيع النبأ ؟ ما أشد دهشتي !

ـ لا ، لم يُذع بعد ••• ولن يذاع الا بعد مـدة • متى ؟ لا أدرى • على كل حال ، أنا لا دخل لى أبداً • ولكن كل ما قلته لك صحيح •

ـ ولكن ما عسى أن يـكون موقف كاترين ايفانوفنا الآن ؟ لاشك أن هذا الأمر لن يسر بيورنج !

ـ ذلك ما أجهله • ولكن ممَّ يمكن ألا يسر ؟ صـدقنى على كل حال ان آنا آندريفنا سـوف تعرف كيف تحسن التصرف فى هذا المجـال أيضاً • يا لآنا آندريفنا هذه ! لقد سألتنى فى صباح أمس هل أحب السيدة آخماكوفا • هل تتذكر ؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً : ألا يمكنها أن تتزوج الأب اذا تزوجت أنا البنت ؟ هل تفهم الآن ؟

هتفت أقول :

ـ آ ••• فعلاً • ولكن هل يخطر ببال آنا آندريفنا حقاً أنك يمكن أن تريد تزوج كاترين نيقولايفنا ؟

ـ طبعاً يا صـديقى • على كل حـال ، على كل حال ، آن الأوان لأن تذهب الى حيث كنت تريد أن تذهب • اننى أشـعر بألم فى رأسى • سوف أطلب أن تُعزف « لوسيا » • أحب عظمة الضجر والسأم • أظن أننى قلت لك هذا قبـل الآن • ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتفـر ! قد أنصرف من هنا مع ذلك • أحبك يا صديقى ، ولكن استودعك الله ! حين أحس بألم فى الرأس أو فى الأسنان فاننى أشتاق دائماً الى الوحدة •

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم . انني أصدقه الآن . لقد كان يشعر بألم فى رأسه ، فى رأسه خاصةً ...

قلت :

ـ الى الغد .

ـ ما تعنى بقولك الى الغد ؟ وما الذى سيحدث غداً ؟

وابتسم ابتسامة شزراء .

ـ أجيء اليك أو تجيء الىّ .

ـ لا لن أجيء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الىّ . كان فى وجهه سوء وشر ، ولكننى لم أنتبه الى هذا . ياله من حادث !

٣

كان الأمير مريضاً بالفعل : فهو ملازمٌ بيته ، معصوب الرأس بخرقة مبللة . وكان ينتظرنى نافد الصبر . ولكن لم يكن رأسه وحده مريضاً ، بل كان شخصه كله يعانى من ألم نفسى . تنبيه آخر : اننى فى هذه الآونة الأخيرة ، وحتى وقوع الكارثة ، لم ألق الا أناساً مهتاجين اهتياجاً شديداً ، فكان لابد أن تسرى عدواهم الىَّ رغم ارادتى .

يجب أن أعترف بأننى حين وصلت اليه كانت نفسى زاخرة بعواطف سيئة ، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أننى بكيت عنده أمس . لقد بلغا من خداعى ، هو وليزا ، أننى كنت أقدِّر أنهما يعدانى غبياً ولاشك . الخلاصة أن قلبى كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه . ولكن هذا كله كان سطحياً ، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر . يجب أن أنصف الأمير فأقول : انه متى خفت حدة تأذيه أو زالت ، فتح نفسه لك صادقا ، فاذا أنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل ، من حنان وثقة ومحبة . لقد قبَّلنى والدموع تترقرق فى عينيه ، ثم سرعان ما شرع يتحدث فى الأمر ... نعم ، لقد كان فى حاجة الىَّ حقاً . وكان فى أقواله وفى تتابع أفكاره اضطراب كبير .

أعلن لى جازماً أنه عاقد عزمه على أن يتزوج ليزا ، وعلى أن يتزوجها فى أقرب وقت . وقال لى : « ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء ، فذلك أمر لم يهمنى لحظة واحدة . لقد تزوج جدى فتاة من الأقنان كانت

مغنية في مسرح خاص لملاك مجاور • صحيح ان اسرتى تعقد على امالاً من نوع خاص ، ولكنها ستذعن الان مضطرة ، وسيتم هذا بغير صراع • اريد أن اقطع صلتى بكل مجتمع هذا الزمان ! اريد شيئا اخر ، شيئا جديدا ! لا أدرى لماذا أحببتنى أختك ، ولكن لعل السبب هو اننى لولاها لكنت قد بارحت هذا العالم • أحلف لك صادقاً كل الصدق أننى أعد لقائى لها في لوجا رحمةً الهية • أعتقد أنها أحبتنى بسبب « فداحة سقوطى » ••• ولكن هل تفهم هذا يا أركادى ما كاروفتش ؟

فأجبته بصوت يعبر تعبيرا واضحاً عن الاقتناع :

ـ كلّ الفهم •

كنت جالساً على المقعد الذى يواجه المائدة ، وكان هو يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً •

ـ يجب أن أروى لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفى شيئاً • لقد بدأ كل شىء بسرٍ خاص عرفته وحدها ، لأننى لم أبح به الا لها ، ولا يعرفه أحد حتى الآن • لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً ، وأقمت عند ستوليبافا ، لا أدرى الآن لماذا ! لعلنى أردت أن أنشد أكمل عزلة • لقد تركت الجيش منذ قليل • وكنت قد دخلت الجيش عند عودتى من الخارج بعد ذلك اللقاء فى الخارج مع آندره بتروفتش • وكنت أملك فى ذلك الحين ثروة ، وكنت أبدّد المال تبديداً ، وأعيش حياة بذخ ولهو • ولكن رفاقى كانوا لا يحبوننى • ومع ذلك كنت أحاول ألا أسىء اليهم • يجب أن أعترف لك بأن أحداً لم يحبنى فى يوم من الأيام • وكان هناك حاملُ علم اسمه ستيبانوف ، وهو فى الواقع رجل فارغ تافه بل يكاد يكون أبله • الخلاصه أنه ليس له ميزة من الميزات • ولكنه كان رجلاً شريفاً لا يمكن أن يجحد أحد شرفه • وقد تشبث هذا الرجل بى • فكنت

لا أضيق بوجوده ولا أشعر بحرج منه • كان يأتي الى ، فيجلس في ركن من الاركان اياما كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة ، ولكن بوقار وكرامة ، فلا يزعجني أي ازعاج • وقد قصصت عليه في ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفتها بسخافات كثيرة : وهي أن ابنة الكولونيل تحمل لي عاطفة حب ، وأن الكولونيل يعوّل عليّ فأستطيع أن أحرّكه كيف أشاء • ولا حاجة الى ذكر التفاصيل ، فانما المهم أنه قد نشأت عن كلامي هذا شائعات وأقاويل معقدة غاية التعقيد ، قذرة الى أبعد حدود القذارة • وهذه الشائعات والأقاويل لم يكن مصدرها ستيبانوف ، وانما كان مصدرها خادمي الذي سمع كل شيء وحفظ كل شيء ، لأن الكلام كان حكاية سيئة تفسد سمعة فتاة • فلما سأل الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت في الناس سمّى ستيبانوف بل ذكر أنني الذي رويتها لستيبانوف • وكان يستحيل على ستيبانوف أن ينكر أنه سمعها • فهذه مسألة شرف • ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثي الحكاية اختراعاً لزخرفتها فقد استاء الضباط واضطر الكولونيل أن يجمعنا في بيته لتوضيح الأمور ووضعها في نصابها • وهناك ألقى هذا السؤال على ستيبانوف بحضور الجميع : أسمعت أم لم تسمع ؟ فقال ستيبانوف الحقيقة • فكيف كان تصرفي أنا الأمير الذي أنتسب الى سلالة أمراء عمرها ألف سنة ؟ لقد أنكرت ، وقلت أمام ستيبانوف انه كذب ، أو بتعبير مهذب : « لم يحسن فهم ما قلت » ، الخ • هنا أيضاً لا داعي الى ذكر التفاصيل • وانما المهم أن أشير الى أن موقفي يمتاز على موقف ستيبانوف بأنني كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيبانوف على المجيء الى بيتي ، أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن ثمة تواطأ قد تم بين ستيبانوف وبين خادمي لتحقيق بعض المنافع ، وذلك شيء يمكن أن يصدّق •• وذلك ما كان • فلم يزد ستيبانوف على أن نظر اليّ وهزّ منكبيه دون أن ينطق بكلمة واحدة • انني أتذكر

نظرته ولن انساها ما حييت . ولم يلبث ستيبانوف ان قدم استقالته فوراً .
ولكنك لن تحزر أبداً ما حدث . ان جميع الضباط ، من أولهم الى
آخرهم ، قد زاروه وناشدوه ألا يرحل . حتى اذا مضى اسبوعان
كنت أنا الذى أترك الجيش : لم يطردنى أحد ، ولم يدعنى أحد الى
الرحيل ، وانما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتى . هكذا انتهت القضية.
وقد بقيت فى أول الأمر غير مكترث ، حتى لقد كنت غاضباً منهم . وأقمت
فى لوجا ، وتعرفت الى اليزابت ماكاروفنا ، ولكننى أخذت بعد انقضاء
شهر واحد ، أنظر الى مسدسى وأفكر فى الموت . اننى أرى الأمور
سوداء دائماً يا آركادى ماكاروفتش . وأعددت رسالة الى الكولونيل
والى رفاقى فى الجيش لأعترف بكذبى ولأرد الى ستيبانوف اعتباره . وحين
انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسى هذا السؤال : « أأرسلها وأعيش
أم أرسلها وأموت ؟ » . وكان يمكن أن أعجز عن الاهتداء الى اجابة .
لكن مصادفة من المصادفات ، مصادفة عمياء ، قربتنى فجأة من اليزابت
ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بينى وبينها . كانت حتى ذلك الحين
تختلف الى ستوليبيافا ، فكنا نلتقى أحياناً ، ونتبادل التحية ، ولا نتخاطب
الا فى القليل النادر . فاذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شىء . وعندئذ
انما مدت لى يدها .

ــ وكيف حلت المشكلة ؟

ــ لم أبعث الرسالة . هى التى قررت ذلك . وسوغت قرارها على
هذا النحو : اذا بعثت الرسالة فلا شك أن عملى يكون نبيلا يغسل عارى
ولكن هل أطيق أنا نفسى احتمال هذه الخطوة ؟ وكان رأيها أن أحداً
لا يستطيع احتمال مثل هذه الخطوة ، لأن كل مستقبل يكون
قد ضاع ، وكل انبعاث من أجل حياة جديدة يصبح مستحيلاً . ثم ان
ارسال الرسالة يكون له ما يوجبه لو أن ستيبانوف قد أوذى وتألم ، ولكن

ستيبانوف قد ردّ اليه الضباط اعتبـاره ، وهو معهـم على أحسن حال .
الخلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة . ولكنها صدتنى عن بعث الرسالة ،
وانقدت لها انقياداً تاماً .

هتفت أقول :

ـ ولقد اتخذتْ قراراً على غرار ما يفعل يسوعى ، ولكن على غرار
ما تفعل امرأة أيضا . كانت تحبك منذ ذلك الحين .

ـ وهذا بعينه هو ما بعثنى الى حياة جديدة . حلفت لأغيرن نفسى
ولابدلن حياتى، ولاكسبن جدارة فى نظرى وفى نظرها . فانظر الى أى
شىء انتهى ذلك كله ! ركضنا أنا وأنت الى بيوت القمار ، لعبنا الباكاراه ،
أطاش الميراث صوابى ، لم أفطن الا الى اللذة ، لم أنتبـه الى ضـــمان
مستقبلى وعملى ، وعاشرت الأوغاد من الناس ، وحفلت بمظاهر الأبهة
والفخـــامة واندفعت فى ترهات المجتمع الراقى . وعذبت ليزا . آه ..
يا للعار !

قال ذلك وفرك جبينه بيده، وراح يذرع الغرفة، ثم أردف يقول:

ـ نحن كلانا مصابان بالداء الروسى المألوف يا آركادى ماكاروفتش :
فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل ، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل .
ان الروسى متى خرج عن الطريق الذى رسمته له العادة أصبح لا يعرف
ماذا يجب أن يعمل . فى الطريق المرســوم كل شىء واضح : دخـل ،
ورتبة ، ومركز فى المجتمع ، ومركبة ، وزيارات ، ومصب ، وامرأة .
ماذا يبقى منى عند أول انحراف عن الطريق الممهـــد ؟ ورقة تذروهـا
الريح ! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل ! لقد حاولت فى هذين الشهرين
أن أبقى فى الطريق المرسوم ، وأردت أن أحب الطريق المرسوم ، وغصت
فى هذا الطريق المرســوم . انك لا تعــرف حتى الآن الهـاوية الجديدة
التى سقطت فيها : لقد كنت أحب ليزا ، كنت أحبها حباً صادقاً ، وكان
فكرى فى الوقت نفسه ينصرف الى السيدة أخماكوفا !

هتفت أقول متألما :

ـ أهذا ممكن ؟ قل لى بالمناسبة يا امير : ماذا ذكرت لى أمس عن فرسيلوف ؟ هل قلت لى انه كان يحضك على ارتكاب دناءة فى حق كاترين ايفانوفنا ؟

ـ لعلنى بالغت . ولعلنى بسبب ما أتصف به من سرعة التأذى قد أذنبت فى حقه مثلما أذنبت فى حقك . ولكن دعنا من هذا الآن . هل تتصور أننى طوال هذه المدة ، وربما منذ أيام لوجا ، لم أكن وفيا لأى مثل أعلى فى الحياة ؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقنى قط ، بل كان دائماً أمامى ، ولم يفقد شيئاً من جماله فى نظرى . كنت أتذكر العهد الذى قطعته على نفسى لاليزابت ماكاروفنا وهو أن أبعث بعثاً جديداً . وحين حدثنى آندره بتروفتش بالأمس هنا عن النبل فانه لم يقل لى شيئاً جديداً ، ثق بذلك . ان مثلى الأعلى ثابت راسخ : بضع عشرات من الهكتارات (بضع عشرات لا أكثر ، اذ لم يبق من الميراث شىء تقريباً) ؛ وقطيعة تامة ، تامة اطلاقاً ، مع المجتمع الراقى وعالم المناصب ؛ ومسكن ريفى ، وأسرتى ، وأنا ... أحرث الأرض أو أقوم بعمل من هذا القبيل . وليس هذا فى سلالتنا شيئاً جديداً : ان عمى كان يدفع سكة المحراث ، وكذلك كان جدى . نحن أمراء منذ ألف سنة ، ونبلاء مثل آل روهان ، ولكننا فقراء . واليك ما كنت سأقوله لأولادى : « تذكر طول عمرك يابنىّ أنك نبيل ، وأن الدم المقدس ، دمُ الأمراء الروس ، يجرى فى عروقك ، ولكن لا تحمرّ خجلاً من أن أباك دفع سكة المحراث : فهو انما فعل ذلك كما يفعله أمير » . ولن أترك لأولادى ثروة عدا تلك الرقعة من الأرض ، ولكننى فى مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليماً عالياً ، سوف أجعل ذلك واجباً يقع على عاتقى ولا أتخلى عنه أبداً . وستساعدنى ليزا فى ذلك . ليزا ، الأولاد ، العمل ! آه .. لكم حلمنا بهذا كله ، أنا وهى ، فى

هذا البيت نفسه ! وفي الوقت نفسه كان فكرى ينصرف الى آخماكوفا ، دون أن أحبها أبداً ، وكنت أفكر في زواج ثرى واف ! ولم أقرر أن أذهب الى آنا آندريفنـــا الا بعد ذلك النبأ الذى حمله ناشتشوكين بالأمس من بيورنج ذاك .

ـ ولكنك ذهبت اليها لتنسحب . هذه خطوة شريفة فيما أرى .

ـ أتظن ذلك ؟

ألقى هذا السـؤال ، ووقف أمامى متسمراً ، ثم اسـتأنف كلامه قائلاً :

ـ بل انك لا تعرف طبيعتى بعد . أو قل ... أو قل ان هاهناشيئاً لا أعرفه أنا نفسى ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب . اننى أحبك صادقاً يا آركادى ماكاروفتش ، وعدا هذا فقد أثمت فى حقك اثماً عميقاً خلال هذين الشهرين ، لذلك أريد أن تعرف كل شىء ، من حيث أنك أخو ليزا : أنا انما ذهبت الى آنا آندريفنا لأخطبها ، لا لأنسحب .

ـ أهذا معقول ؟

ـ لقد خدعت ليزا .

ـ اسمح لى : أخطبت آنا آندريفنا خطبة رسمية ورفضت ؟ نعم ؟ أهذا ما حدث ؟ ان التفاصيل تهمنى كثيراً يا أمير .

ـ لا ، لم أتقدم بخطبتها ، ولكن السبب هو أننى لم يتح لى ذلك . وهى التى أفهمتنى ، لا بألفاظ الرفض طبعاً ، ولـكن بكلمـات واضحة شـفافة مع ذلك ، أفهمتنى « برقة » أن هذه الفكرة أصبحت بعـد الآن مستحيلة .

ـ فكأنك اذن لم تخطبها ، وبقيت كرامتك سـليمة لم يمسسـها أذى .

ـ كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير ؟ وحكم ضميرى ، وليزا التى خدعتها ... والتى أردت اذن أن أهجرها ؟ والعهد الذى قطعته على نفسى وعلى سلالة أسلافى جميعاً ، وهو أن أبعث بعثاً جديداً وأن أكفّر عن دناءاتى الماضيات ؟ أتوسل اليك : لا تحدثها فى هذا الأمر . فلعل هذا هو الشىء الوحيد الذى لا تستطيع أن تغفره لى ! اننى من ذلك مريض منذ الأمس . ويخيَّل الىّ خاصةً أن كل شىء قد انتهى وأن آخر أمير من أمراء سوكولسكى سيودع فى السجن ! مسكينة ليزا ! لقد انتظرتك نافذ الصبر ، يا آركادى ما كاروفتش ، لأكشف لك ، بصفتك أخا ليزا ، ما لا تعرفه ليزا حتى الآن . اننى مجرم من مجرمى الحق العام ، أشارك فى صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركات السكك الحديدية .

ـ ما هذا أيضاً ؟ ماذا تقول ؟ تودع فى السجن ! ...

قلت له ذلك منتفضاً وتأملته مذعوراً . كان وجهه يعبر عن مرارة عميقة قاتمة لا مخرج منها . قال :

ـ اجلس !

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالتى . وشرع يتكلم :

ـ اعلم أولاً هذا : منذ أكثر من سنة ، فى ذلك الصيف ، صيف امس وليديا وكاترين ايفانوفنا وباريس بعد ذلك ، يوم أردت أن أذهب الى باريس لقضاء شهرين ، وفى باريس بطبيعة الحال ، كنت فى عوز . وحينذاك انما جاءنى ستيبلكوف ، وكنت أعرفه على كل حال ، فأعطانى مالاً ووعدنى بمزيد ، ولكنه سألنى أن أساعده : كان فى حاجة الى أحد يكون فنانا رساما حفاراً طباعا وهلم جرا .. كيميائياً وتكنيكياً ، وذلك لأغراض معينة . وقد جعلنى أدرك تلك الأغراض منذ المرة الأولى

ادركا واضحا . لقد كان يعرف طبعي . فلم يزد ذلك كله على ان أضحكني وسلاني . وكنت أعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد الدرس ، شخصاً هو الآن مهاجر روسي ، لا روسي الأصل على كل حال ، يقيم في مكان بمدينة هامبورج . كان هذا الرجل قد شارك ابان اقامته بروسيا في قصة تزييف أوراق . وعلى هذا الرجل انما كان يعوّل ستيبلكوف ، ولكنه كان في حاجة الى من يوصي به لديه ، فاتجه اليّ يلتمس مني هذه التوصية . فكتبت له سطرين بخط يدي ثم لم أفكر في هذا الموضوع . وقد رآني بعد ذلك مراراً ، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل . ولقد نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً . وصرت اقترض منه هنا من حين الى حين ، على رهون أو بسندات ، وكان يتلوى أمامي ذليلاً كما يتلوى عبد . وعلمت منه أمس فجأة ، لأول مرة ، انني مجرم من مجرمي الحق العام .

ـ أمس ؟ أية ساعة ؟

ـ ساعة كنا نتصارخ في مكتبي قبيل وصول ناشتشوكين . لأول مرة ، وبألفاظ صريحة في هذه المرة ، تجرأ أن يكلمني عن آنا آندريفنا . وقد رفعت يدي لأضربه ، لكنه نهض فجأة ليعلن أنني متضامن معه ، وأن عليّ أن أتذكر أنني كنت شريكه في الجرم ، وأنني وغد مثله . ذلك ما قاله لي ، ان لم يكن بنصه فبمعناه .

ـ ما هذه السخافات ؟ أهذا حلم ؟

ـ لا ، ليس حلماً . ولقد جاءني اليوم ، فزادني ايضاحاً . ان هذه الأسهم المزيفة هي الآن في التداول ، وسينزل غيرها الى التداول . ويظهر أن عدداً منها قد صودر هنا وهناك . وأنا ليس لي في الأمر أي دخل طبعاً . ولكن ستيبلكوف قال لي : « أما تكرمت فأعطيتني كتاب التوصية هذا في ذلك الحين ؟ » .

ـــ ولكن أكنت تعلم لماذا التمس منــك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف ؟

أجاب الأمير وهو يخفض صوته ويخفض عينيه أيضاً :

ـ كنت أعرف ، بل قل كنت أعرف دون أن أعرف . لقد ضحكت وسلاّني الأمر . ولم أفكر وقتئذ فى شىء ، لا سيما وأننى لم أكن أنا فى حاجة الى أســهم مزيفة ، ولم أكن أتهيأ أبداً لصنع أسهم مزيفة . ولكن الثلاثة آلاف روبل التى أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً علىّ ، وقبلت أنا ذلك . ثم ما أدراك ؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً ! لم يكن فى الامكان ألا أعلم ، ما أنا بطفل . ولكن الأمر ســلاّنى وأضــحكنى ، وساعدت مجرمين ... ساعدتهم طمعاً فى مال ! واذن فأنا أيضاً مـزيف !

ـ لا ، لا ، انك تبالغ ! صحيح أنك مذنب ، ولكنك تبالغ !

ـ الخطير فى الأمر أن هنــاك شاباً اســمه جيبلسكى يعمل كاتباً فى القضاء وتحوم حوله الشبهات ، قد شــارك أيضاً فى حكاية الأسهم المزيفة هذه ، ثم جاءنى بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورج ، جاءنى لترهات وســفاسف طبعاً ، بـل اننى لا أعـرف لأى غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءنى ، ولكنه يحتفظ برسالتين منى ، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو احداهما سطرين ، غير انهما تشهدان علىّ . اليوم أدركت هذا . ويقول ستيبلكوف ان جيبلســكى هذا مزعج : فقــد سرق لا أدرى ماذا ، سرق مالا من الخزينــــة فيما أظن ، وهو ينتوى أن يسرق المزيد ثم يهاجــر ؟ ومن أجـل أن يهاجــر يجب أن يتزود للسفر بثمانيــة آلاف روبـل ، لا أقل من ذلك . ان نصيبى من الميراث يكفى ستيبلكوف . ولكن ستيبلكوف يقول ان علينــا أن نرضى جيبلسكى أيضاً . الخلاصة أن علىّ أن أتنازل عن حصتى من الميراث وأن أدفع فوق

ذلك عشرة آلاف روبل • هذه كلمتهم الأخيرة • فاذا نفّذت هذا الشرط ردُّوا اليّ الرسالتين • وواضح أنهم متواطئون •

ـ يا للسخافة ! انهم اذا وشوا بك كانوا يسلّمون أنفسهم ! فلا يمكن أن يشوا بك •

ـ أعرف هذا • ثم انهـم لا يهدِّدون بأن يشـوا بي • بل يقولون : « نحن لن نشي بك ، ولكن افتضح الأمر ••• » • ذلك ما يقولونه • ذلك كل ما يقولونه • وأظن أنه كافٍ • ولكن ليس هـذا هو الأمر : هبني استرددت الرسائل • فهل ينجيني هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد متضامناً معهـم ؟ آه •• كيف يمكنني أن أبقى الى الأبد رفيقهـم ؟ أكذب على روسـيا ، أكذب على الأطفال ، أكذب على ليزا ، أكذب على ضميري ••• ؟

ـ هل تعلم ليزا ؟

ـ لا ، لا تعلم كل شيء • لو علمت ، وهي على ما هي عليه من حال ، لماتت من هول الصـدمة • انني أرتدي الآن بزة الجيش ، فكلمـا صادفت جندياً من الجيش ، شـعرت شعوراً كاوياً بأنني لا أستحق ارتداء هذه البزة •

هتفت أقول فجأة :

ـ اسمع ! لا حاجـة الى الاكثار من الكلام • ليس أمامك الا طريق واحـدة للخلاص • اذهب الى الأمـير نيقولا ايفـانوفتش ، وخـذ منه عشرة آلاف روبل ، اسـأله ان يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن شيء ، ثم استدع هذين الوغدين ، وصفِّ حسابك معهما تصفيةً نهائية بافتـداء رسائلك •• فينتهي كل شيء ! ينتهي كل شيء ، وتمضي تحرث الأرض ! دع الأوهام وثق بالحياة !

قال مؤكداً :

ـ لقد فكرت في هذا . فكرت فيه طول هذا اليوم ، واتخذت أخيراً قراري . وكنت لا أنتظر الا أن تجيء أنت . سوف أذهب اليه . هل تعلم انني لم يسبق لي أن اقترضت في حياتي كلها قرشاً واحداً من الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟ انه طيب في معاملة أسرتنا ، حتى انه ... أظهر اهتماماً بنا .. ولكنني .. شخصياً .. لم أطلب منه أيّ مال في يوم من الأيام . وهأنذا الآن أرتضي لنفسي أن أطلب منه . لاحظ أن فرعنا أقدم من فرع الأمير نيقولا ايفانوفتش : انهم هم الفرع الحديث ، الفرع الهجين، الفرع المشكوك فيه تقريباً ... ولقد تناصب أسلافنا العداء . وفي بداية عهد الاصلاح ، أيام بطرس الأكبر ، كان أبو جدي ، واسمه بطرس أيضاً ، كان راسكولنيكاً وظل كذلك وطوّف في غابات كوستروما . فهذا الجد تزوج زواجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هي أيضاً ، وعندئذ انما تقدمنا آل سوكولسكي هؤلاء ... ولكن عمّ كنت أتكلم ؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه .

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتي :

ـ هدىء نفسك . نَمْ قبل كل شيء . أما الأمير نيقولا ايفانوفتش فانه لن يرفض حتماً ، ولا سيما الآن ، في غمرة فرحه . هل تعرف القصة ؟ لا ! غير معقول ! لقد بلغني نبأ عجيب : أنه سيتزوج . هذا سر ، ولكن لا يُكتم عنك أنت طبعاً .

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتي أهمُّ بالانصراف . لم يكن على علم بالأمر . فجعل يسألني عن تفاصيل ، ويسألني خاصةً عن الزمان والمكان وحظ النبأ من امكان التحقق . فلم أخف عنه طبعاً أن الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته آنا آندريفنا بالأمس فوراً . لا أستطيع أن أصوّر لكم الأثر الأليم الذي أحدثه هذا النبأ في نفسه . فقد تشوه وجهه وتخدّد ، وتشنجت شفتاه بابتسامة غضب ، واصفر أخيراً ، ثم

خفض عينيه وغاص فى تفكير حالم عميق . لقد رايت رؤيه واضحه ان رفض انا اندريفنا كان قد جرح كبرياءه جرحا بالغا عميقا . ولعله وهو فيما هو فيه من حالة مرضية قد غلا وأسرف الآن فى تصور الدور المضحك الذليل الذى قام به امس امام تلك الفتاة التى كان يتوقع موافقتها بثقه تامة كما ظهر ذلك واضحاً . ولعله اخيرا قد تصور الدناءة التى ارتكبها فى حق ليزا ، وهى دناءة لم تعد عليه بطائل ! انه لأمر طريف شائق أن يرى المرء ما هى آراء أبناء المجتمع الراقى بعضهم فى بعض ، وعلى أى أساس يحترم بعضهم بعضاً : لقد كان فى امكان هذا الأمير مع ذلك أن يفترض أن آنا آندريفنا على علم بالصلة التى بينه وبين ليزا ، أختها مهما يكن من أمر ، وأنها ان كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً فى يوم من الأيام . ولكنه رغم ذلك كان لا « يخالجه شك فى قراره » !

وحدّق الىّ فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال :

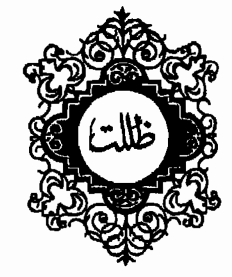
ـ فكيف أمكنك أن تظن أننى أرضى ، « أنا » أن أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش أسأله مالاً بعد نبأ كهذا النبأ ؟ أذهب الى خطيب الخطيبة التى رفضتنى ؟ ان هذا يكون استجداء ، وذلاً ، وعبودية ! لا ، لا ، ضاع الآن كل شىء . اذا كانت معونة هذا الشيخ هى آخر أمل ، فليهلك هذا الأمل أيضاً !

كنت فى قرارة نفسى موافقاً على ما يقول . ولكن كان ينبغى على المرء مع ذلك أن ينظر الى الأمور نظرة أوسع : هل الأمير العجوز رجل حقاً ؟ هل هو خطيب حقاً ؟ وتحركت فى رأسى أفكار كثيرة . وكنت قد قررت أن أزوره فى الغد . فحاولت ، بانتظار ذلك ، أن أخفف وقع النبأ فى نفس الأمير المسكين ، وأن أحضه على النوم قائلاً له : « سوف

تقضى ليلة مريحة ، فتكون أفكارك غداً أوضح . لسوف ترى ذلك ! » .
فصافحني بحرارة ، ولكن دون أن يقبلني . وقطعت له على نفسي عهداً لأجيئن اليه مساء غد وقلت له : « سوف نتحدث ، سوف نتحدث ، هناك كلام كثير سوف نقوله » . فحين سمع هذه الكلمات ألمت بشفتيه ابتسامة مشئومة .

الفصل الثامن

١



ظللت طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب وسداد الديون • كنت كالجالس الى مائدة القمار احسب مبالغ الخط واحتمالات الربح ، فقضيت ليلتي كلها فريسة كابوس ساحق • سأقول الحقيقة : انني طوال النهار السابق ، رغم جميع تأثراتي الخارقة ، كنت أتذكر من حين الى حين ، الربح الذي جنيته بالقمار عند زرتشتشيكوف • صحيح أنني كنت أطرد الفكرة ، ولكنني لم أستطع أن أدفع عن نفسي الشعور والعاطفة ، فكنت أرتعش كلما وافتني ذكرى • كان هذا الربح قد ملك عليّ نفسي • أتراني خلقت مقامراً ؟ لاشك على كل حال في انني أملك صفات المقامر • فحتى في هذا اليوم ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، أحب أحياناً أن أفكّر في القمار ! وربما اتفق لي أن أقضي ساعات كاملة أجري في الصمت حسابات قمار ، وأتخيلني في الحلم لاعباً ورابحاً • نعم ، انني أتصف « بصفات » كثيرة التنوع ، وليست نفسي هادئة مطمئنة •

لقد كنت أنتوي الذهاب الى ستيبلكوف في الساعة العاشرة سيراً على القدمين• فصرفت ماتفئي منذ جاء • وفيما كنت أحسو قهوتي حاولت أن أنعم النظر في الأمور • فلاحظت أنني مسرور ، فلما انكفأت الى نفسي لحظةً أدركت أن سروري انما يرجع خاصة الى « أنني سأكون هذا اليوم

فى منزل الامير نيقولا ايفانوفتش ، • ولكن ذلك اليوم من حياتى كان يوما مشئوماً ، ولم يكن فى الحسبان ، وقد ابتدأ بمفاجأة •

ففى الساعة العاشرة تماماً ، رأيت بابى يفتح على مصراعيه ، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخــل علىّ كهبوب الريح • كان يمكن أن أتوقع كل شىء الا هذه الزيارة ، فوثبت مذعورا • كان وجهها وحشيا ، وكانت حركاتها واشاراتها مشوشة ، وأغلب الظن أنها ما كانت لتستطيع أن تجيبنى لو سألتها ما الذى جاء بها الىّ هذا المجىء المباغت • ويجب أن أشرح سلفاً فأقول : انها قد تلقت منذ هنيهة نبأ خارقاً ساحقاً ، وكانت لا تزال واقعــة تحت تأثير الانفعال الأول ، وكان النبأ يمسنى أنا أيضاً • على أنها لم تقض عندى الا نصف دقيقة ، أو دقيقة ان شئتم ، ولكن من المحقق أنها لم تزد على الدقيقة • وقد بادرتنى فوراً بقولها وهى تتسمر قدامى ماثلةً الى أمام :

ــ آ ••• هأنت ذا اذن ! هأنت ذا أيها الوغد ؟ ما هذا الذى فعلت ؟ ماذا ، ألا تدرى ؟ انه يشرب قهوته ! آه ! يا ثرثار ! يا طاحونة حــكى ! يا ماضغ ورق ! •• يجب أن تُجلد بالسوط ، أن تجلد ، أن تجلد •••

ــ تاتيانا بافلوفنا ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ماما ؟

فقالت مهددة متوعدة وهى تولّى هاربة :

ــ ستعرف !

وغابت • وانطلقت ألاحقها طبعاً ، ولكن فكرة طارئة أوقفتنى ، بل قل ان ما أوقفنى ليس فكرة ، وانمــا هو قلق غامض : لقد أحسست أن الشىء الأساسى فى صراخها انما هو قولها « يا ماضغ ورق » • وما كان لى أن أكتشف شــيئاً بنفسى طبعــاً ، ولكننى خرجت مسرعاً لأفــرغ من ستيبلكوف بأقصى سرعة ، ثم أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، قائــلاً لنفسى بغريزتى : « هنالك مفتاح الأمور كلها » •

فسرعان ما عرفت أن ستيبلكوف كان عالما بقصة آنا آندريفنا كلها ، بل كان يعرف تفاصيلها • شيء غريب • لن أروى الآن حديثه ولن أصف اشاراته وحركاته ، وحسبي أن أذكر أنني رأيته يتدفق افتتاناً وحماسة « لما لهذه المأثرة من قيمة فنية » • قال صائحاً :

ـ يالها من امرأة شجاعة ! هذه امرأة شجاعة ! لا ، لا ، انها ليست مثلنا • نحن نبقى في مكاننا ساكنين ، أما هي فقد أرادت أن تشرب الماء من منبعه الحق ، وقد شربتـه من منبعـه الحق • هذه ••• هذه تمثـال قديم لمنيرفا ، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدى فساتين حديثة !

ورجوته أن ينتقل الى الموضـوع • فاذا الأمر كله ، كما أدركت ذلك من قبـل ، هو ضرورة اقنـــاع الأمير بأن يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة ، « والا فان العاقبة ستكون وخيمة عليه ، وخيمة جداً ، وليس الذنب ذنبي • صحيح أم لا ؟ » •

كان يحدّق الى عينيّ ، ولكنه كان في أغلب الظن لا يفترض أنني أعرف شـيئاً يزيد على ما عرفتـه البارحـــة • ولم يـكن في امكانه أن يفترض ذلك : فأنا لم أدعْ له طمعاً ، لا بالتصريح ولا بالتلميح ، أن يعرف انني على علم بأمر « الأســهم » • ولم يطل الحديث بيننا : فقد أسرع يعدني ، على الفور تقريباً ، بمبلغ من المال ، قائلا انه « مبلغ كبير ، مبلغ كبير ، وانما المهـم أن أقنع الأمير بطلب المعونة ، وان الأمر مستعجـل ، مستعجل جداً ، وان كل شيء يتوقف على السرعة ، فالأمر مستعجل الى حد رهيب ! » •

لم أشأ أن أدخـل في مناقشات معه كما فعلت البارحة ، وهممت أن أنصرف ، قائلاً له عرضاً « انني سـأحاول » • ولكنه أدهشني على حين فجأة ادهاشاً لا ســـبيل الى وصفه : كنت قد اتجهت الى الباب ، فاذا هو

يحضنني بغتة في رقة وحنان ، ويأخذ يقول لي أشياء تستعصي على الفهم الى اقصى حد .

سوف أهمل التفاصيل ، فلا أذكر سلسلة كلامه كلها ، حتى لا أتعب القارىء . ولكن اليك فحوى ما قاله : لقد عرض عليّ « أن أصله بالسيد درجاتشيف ، ما دمت أتردد على ذلك المنزل » .

أصخت اليه بسمعي ، محاولاً بكل قواى ألا أفضح نفسى بأية اشارة . وأجبته على الفور قائلاً انني لا أعرف أحداً هناك ، وانني ان ذهبت الى ذلك المنزل مرةً فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة . قال :

ــ ولكن ما دمتَ قد « قبلت » مرة ، ففي وسعك أن تذهب مرة أخرى ، أليس هذا صحيحاً ؟

فسألته صراحةً ، ولكن ببرودة شديدة ، فيم يعنيه هذا . وحتى هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السذاجة كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغبياء ، بل يلاحظ أيضاً أنهم « عمليون » كما وصفه بذلك فاسين . ولقد شرح لى بصراحة تامة أن شبهاته توحى اليه بأن شيئاً يحدث عند درجاتشيف ، شيئاً لابد أنه محرَّم قطعا ، محرم أقسى التحريم فيكفى أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطيع أن يجنى من ذلك نفعاً . قال لى ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم .

لم أجبه بشيء يؤكد أنني سألبي رغبته ، ولكنني تظاهرت بالتفكير ، ووعدته بأن « أفكر في الأمر » ، ثم سارعت الى الانصراف . ان الأمور تتعقد . وطرت الى فاسين ، فوجدته فى بيته .

ــ ها ! ... أنت أيضاً !

انه منذ رآنى استقبلنى بهذه الجملة الملغزة . ولكننى لم أتلبث على

جملته ، بل انتقلت الى الموضــوع رأســاً ، وقصصت عليه القصة ، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوءه البته ، وساءلني في جميع التفاصيل. وقال :

ـ يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم !

ـ بل فهمت أحسن الفهم . لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً .

فأضاف يقول بصدق :

ـ على كل حال ، أشكرك أجزل الشكر . نعم حقاً ، اذا كان كل شيء قد جرى على هذا النحو ، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لاغراء مبلغ من المال .

ـ انه عـدا ذلك يعرف حالي ، فلقد كنت أقامـر كثيراً ، وكانت سيرتي سيئة يا فاسين .

ـ سمعت عن هذا .

قلت :

ـ وما يحيرني أكثر من أي شيء آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً تتردد الى ذلك المنزل .

فقال فاسين ببساطة كبيرة :

ـ هو يعلم علماً تاماً أنني لاصلة لي بالأمر . وهؤلاء الشبان جميعاً انما هم ثرثارون لا أكثر . وانك لتتذكر هذا أكثر من أي انسان آخر على كل حال .

بدا لي انه يضمر نوعاً من سوء الظن بي ، أو نوعاً من الحذر مني . قال :

ـ انني أشكرك أجزل الشكر على كل حال .

وحاولت أن أسأله مزيداً من الاسئلة فقلت :

ـ سمعت أن أمور السيد ستيبلكوف لا تجرى مجرى حسنا ، سمعت على الأقل كلاماً عن اسهم ...

ـ أية أسهم تعنى ؟

لقد تعمدت أن أذكر الأسهم ، ولكننى لم أفعل ذلك من أجل أن أكتشف له عن سر الأمير . كل ما أردته هو أن ألمح الى الأسهم لأتبين من النظر الى وجهه والى عينيه هل يعلم عن هذا الامر شيئا . وقد وصلت الى هدفى : استطعت أن أدرك ، من حركة سريعة خفيفة فى وجهه ، أنه ربما كان على علم بشىء . ولم أجب عن سؤاله : « أية أسهم ؟ » ، بل صمت . ومن الغريب أنه لم يلح .

سألنى باهتمام :

ـ كيف حال اليزابت ماكاروفنا ؟

ـ هى بخير . ان أختى تكن لك الاحترام دائماً ...

فسطعت عيناه سروراً ورضا : كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه يحمل لأختى عاطفة ما ...

وقال لى فجأة :

ـ زارنى فى هذه الأيام الأخيرة ، الأمير سرجى بتروفتش .

فهتفت أسأله :

ـ متى ؟

ـ منذ أربعة أيام .

ـ لا أمس ؟

ـ لا ، لا أمس .

وألقى عليّ نظرة مستفهمة . واردف يقول :

ـ قد أحدثك في المستقبل عن هذه الزيارة حديثا فيه مزيد من التفصيل ، أما الآن فأعتقد أن من الضرورى أن أنبّهك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفمها السر) الى أننى لاحظت أن حالته النفسية ... بل حالته العقلية .. غير طبيعية . وقد زارنى شخص آخر أيضاً ..

قال ذلك وهو يبتسم فجأة ، ثم تابع كلامه :

ـ زارنى شخص آخر منذ هنيهة قصيرة ، قبل وصولك بلحظة ، وقد اضطررت أن استخلص أن حالة الزائر الآخر ليست طبيعية تماماً هى أيضاً .

ـ هل جاءك الأمير منذ قليل ؟

ـ لا ، لا الأمير ، لا أتكلم الآن عن الأمير . لقد زارنى ، منذ برهة ، آندره بتروفتش فرسيلوف ، و .. ألا تعرف شيئاً ؟ ألم يحدث له شيء ؟

أسرعت أسأله :

ـ ربما حدث له شيء ، ولكن ماذا جرى هنا ، عندك ؟

ـ يجب عليّ أن أكتم السر طبعاً ... ما أعجب هذا الحديث بيننا ! ان مداره كله على أسرار ...

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى . ثم أردف :

ـ على أن آندره بتروفتش لم يطلب منى كتمان السر . ثم انك ابنه ؛ ولعلمى بما تحمل له من عواطف ، يخيّل الىّ اننى أحسن صنعاً

اذا أنا نبهتك في هذه المرة • تصــور أنه ألقى عليَّ هــذا السؤال : « اذا اتفق لى في يوم قريب ، قريب جداً ، أن وجدتنى مضطراً الى مبارزة ، فهل تقبل أن تكون شــاهدى ؟ » • ولقد رفضــت ذلك رفضـــاً قاطعاً بطبيعة الحال •

دهشت دهشة شديدة • ان هذا النبأ هو أشد الأنباء اقلاقاً • لقد حدث شيء • لابد أن حادثاً مازلت أجهله قد وقع ! وتذكرت فجأة أن فرسيلوف قال لى أمس : « لست أنا الذى سأجيء اليك ، بل أنت الذى ستهرع اليَّ »•

وطرت الى الأمـير نيقولا ايفانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القــوة أن مفتاح السر هناك • وقد شكرنى فاسين مرةً أخرى حين فارقته •

٢

كان الأمير العجوز جالساً أمام مدفأته ، مدثراً ساقيه بغطاء . وقد استقبلني بنظرة فيها شيء من الاستفهام ، كأنه دهش من زيارتي ، مع أنه كان يرسل من يدعوني اليه كلّ يوم تقريباً . على أنه قد حيّاني بلطف ، لكنه أجاب عن أسئلتي الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح في وجهه ذهول رهيب . وكان في بعض اللحظات يبدو مفكراً ، ويحدّق اليّ بنظرة ثابتة ، كأنه كان قد نسي شيئاً يتعلق بي ثم اذا هو يتذكره الآن . فقلت له بصراحة انني أعرف كل شيء ، واني سعيد بما حدث . فسرعان ما بانت على شفتيه ابتسامة فيها مودة وسرعان ما انتعش وزال تحفظه واختفى حذره ، حتى لكأنه نسيهما ، بل لا شك في أنه نسيهما . قال :

ـ صديقي العزيز ، كنت أعلم حق العلم أنك ستكون أول من يأتي ، حتى لقد سألت نفسي أمس : « من ذا الذي سيبتهج ؟ » ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً : « هو الذي سيبتهج » . نعم ، لا أحد غيرك ، حتماً . ولكن لا ضير . ان ألسنة الناس ألسنة سوء ... ولكن لا قيمة لهذا ! ... « يا بنيّ العزيز » (بالفرنسية) ، ذلك كله سامٍ كل السمو ، لذيذ كل اللذة . ولكنك تعرفها معرفة جيدة ، أنت . ثم ان آنا آندريفنا ترى فيك أحسن رأي . هي ذات وجه قاس آسر أخاذ ، وجه صورة انجليزية . انها أحلى الصور الانجليزية قاطبة . لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور ... ان هذه النية كانت في نفسي دائماً ، دائماً . وانما يدهشني أنني لم أفكر في هذا الأمر أبداً .

ـ ولكنك أحببت آنا آندريفنا دائماً ، وقدرتها دائماً ، طوال المدة التى أذكرها .

ـ يا صديقى ، اننا لا نريد أن نلحق ضررا بأحد . ان الحياة مع أصدقاء وأقرباء وأشخاص أحبة هى الجنة . نحن جميعاً شعراء ... الخلاصه : هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ . اسمع ، سوف نقضى الصيف أولاً بمدينة سودن ، ثم بمدينة بادجاستاين ! أين ذهبت ؟ كنت أنتظرك . ما أكثر الأحداث التى مرت منذ ذلك الوقت ، ما أكثرها ، اليس كذلك ؟ وانما المحزن أننى لست هادئا : فمتى خلوت الى نفسى شعرت بأننى قلق . هذا هو السبب فى أننى يجب ألا أبقى وحيداً ، أليس كذلك ؟ هذا واضح وضوح النهار . آه يا صديقى ، انها لم تقل الا كلمتين ... ولكن كان كلامها أروع قصيدة . ولكن ... أنت أخوها تقريباً ، أليس كذلك ؟ يا عزيزى ، ليس غريباً أننى أحببتك ذلك الحب كله ! كنت أتوقع كل هذا ، أحلف لك . ولقد قبَّلت يدها ، وبكيت .

واستل منديله من جيبه ، كأنه يهم أن يبكى من جديد . كان متأثراً جداً ، بل أظن أنه كان فى حالة من تلك الحالات « المحزنة » التى أتيح لى أن أراها فيه مدة معرفتى به . انه فى العادة ، بل فى جميع الأوقات تقريباً ، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن . وتمتم يقول :

ـ سوف أغفر لهم جميعاً يا صديقى . أحب أن أغفر لجميع الناس ، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد . الفن ، « الشعر فى الحياة » ، مساعدة البؤساء ، وهى ، ذلك هو جمال التوراة .. « ما أروعها من انسان » ، هه ؟ « أناشيد سليمان .. لا .. ليس هو سليمان ، بل هو داود الذى أضجع فتاة جميلة فى سريره طلباً للدفء فى شيخوخته . أوه .. داود ، سليمان » ، هذا كله يدور فى رأسى دوران اعصار

حقاً . « ان تلك الحسناء فى شيخوخه داود ، لهى قصيدة » ، أما بول دوكوك فليس له ذوق ولا احساس بالتوازن ، رغم أنه صاحب موهبة .. ان كاترين نيقولايفنا تبتسم . ولقد قلت لها اننا لن نضايقها . اننا بدأنا روايتنا ، فليسمح لنا بأن نتمها . سَمِّه حلماً ان شئت ، ولكن فليتركوا لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا .

ـ كيف تقول انه حلم يا أمير ؟

ـ كيف أقول انه حلم ؟ فليعدوه حلماً ، ولكن فليتركوا لنا أن نموت مع هذا الحلم .

ـ آه ... أمير ... لماذا الموت ؟ ان الحياة هى الواجبة الآن !

ـ وماذا كنت أقول ؟ لست أقول غير هذا ! حقاً اننى لا أدرى لماذا الحياة قصيرة هذا القصر كله . اغلب الظن أن الغاية من قصرها هى ألا تكون مملة ، ذلك أن الحياة هى أيضاً عمل فنى من أعمال الخالق الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوشكين . ان الايجاز أول شروط الفن . ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن يعيشوا مدة أطول .

ـ قل لى يا أمير ، هل أذيع النبأ فى الناس ؟

ـ لا ، لا يا عزيزى ، لم يُذع تماماً . انه محدود بحدود الأسرة ، بحدود الأسرة وحدها حتى الآن . لم أبح بما فى نفسى بوحاً كاملاً الا لكاترين نيقولايفنا ، لأننى أعد نفسى آثماً فى حقها . ذلك أن كاترين نيقولايفنا ملاك ، ملاك .

ـ نعم ، نعم .

ـ نعم ؟ أنت أيضاً تقول نعم ؟ كنت أظنك عدواً لها . آه ...

بالمناسبه : لقد طلبت منى ألا أستقبلك بعد اليوم . تصـــور أننى نسيت ذلك منذ دخلت علىّ .

انتفضت وسألته :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا طلبت منك ذلك ؟ ومتى ؟

(لم يكذبنى احساسى . ان شيئاً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زيارة تاتيانا بافلوفنا !) .

ـ أمس يا صديقى ، أمس . لا أدرى كيف استطعت أن تدخل . ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنعك من الدخول . كيف دخلت ؟

ـ ببساطة .

ـ هذا هو الأرجح . فلو أنك دخلت بالمكر والحيلة لأوقفوك حتماً ، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل . البساطة يا عزيزى ، البساطة هى أمكر المكر .

ـ لست أفهم شيئاً . هل قررت اذن ، أنت أيضا ، ألا تستقبلنى بعد اليوم ؟

ـ لا يا صديقى . لقد أجبت بأن هذا ليس شأنى ... أقصد أننى وافقت موافقة تامة . ثق يابنى العزيز أننى أحبك حباً كثيراً . ولكن كاترين نيقولايفنا طلبت ذلك بكثير من الالحاح . آه ... هى ذى !

فى تلك اللحظة ظهرت كاترين نيقولايفنا على العتبة . كانت مرتدية ثياب الخروج ، وقد جاءت الى أبيها لتقبله على عادتها دائماً من قبل . فلما رأتنى توقفت واضطربت ، ثم استدارت وخرجت . فصاح الأمير مذهولاً منفعلاً أشد الانفعال :

ـ كذلك هى !

فهتفت أقول :

ـ هو سوء تفاهم لا أكثر . دقيقة واحدة يا أمير ... سوف ... سوف أرجع فوراً يا امير !

وركضت وراء كاترين نيقولايفنا .

ان كل ما حدث بعد ذلك قد حدث بسرعه بلغت من الشدة انني لم أستطع التفكير ، بل لم أستطع أن أهيء سلوكي أقل تهيئه . فلو انني استطعت أهيء سلوكي لتصرفت تصرفاً آخر حتما . ولكنني كنت قد طاش صوابي كصبي صغير . هرعت الى حجراتها ، غير أن الخادم قال لي ان كاترين نيقولايفنا قد خرجت في هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها . فاندفعت أهبط السلّم الكبير منكس الرأس . فرأيت كاترين نيقولايفنا تنزل على السلّم ، مرتدية معطفها ، ورأيت ضابطاً فارع القد حسن القامة ببزة عسكرية من غير معطف يسير الى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذي يتدلى على جنبه . وكان خادم يحمل له معطفه وراءه . هذا هو البارون . انه كولونيل في الخامسة والثلاثين من عمره ، نموذج الضابط الأنيق الجاف ، له وجه بيضوي كثيراً ، وله شاربان أحمران ، بل ان حاجبيه أحمران أيضاً . ليس وجهه جميلا ألبتة ، ولكن هذا الوجه يعبّر عن الجزم والتحدي . انني أصفه الآن على عجل ، كما رأيته في تلك اللحظة . لم أكن قد اقيته حتى ذلك الحين . وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف . فأبصرتني كاترين نيقولايفنا قبل صاحبها وهمست في أذنه بشيء .. فالتفت ، وسرعان ما أومأ للخادم والبواب السوسري باشارة من رأسه . فتقدم الخادم مني خطوة أمام الباب ، ولكنني دفعته بيدي ووثبت الى درج الباب في اثرهما . أجلس بيورنج صاحبته في العربة . وصحت أنا قائلاً بغباء (كما يفعل أبله ، كما يفعل أبله ! آه ! انني أتذكر كل شيء . كنت بغير قبعة) :

ـ كاترين نيقولايفنا ! كاترين نيقولايفنا !

فالتفت بيورنيج مرة أخرى غاضبا ، وصاح يقول للخادم كلمه او كلمتين لم اميزهما • واحسست انني امسكت من الكوع • وانطلقت العربة في تلك اللحظة • فصرخت صرخة واندفعت اجرى وراء العربه • كانت كاترين نيقولايفنا تنظر من نافذة العربة ـ رايت انا ذلك ـ وكانت تبدو قلقة قلقا شديداً • ولكنني بحركتي السريعة حين انطلقت أعدو وراء العربة قد صدمت بيورنيج صدمة قوية دون أن أفكر في هذا البتة ، وأظن أنني دست على رجله أيضاً • فصرخ صرخة صغيرة ، وصر بأسنانه ، وأمسك كتفي بيد قوية ودفعني دفعة بلغت من شدة الغضب والحنق أنني تقهقرت ثلاث خطوات • وفي تلك اللحظة مُدّ اليه معطفه ، فارتداه ، وركب عربته الزلاجة ، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير للخدم وللبواب الىّ • فأمسكوا بى ، وثبتوني في مكاني ، وألقى الىّ أحد الخدم معطفي ، ومدّ الىّ خادم ثان قبعتي ؛ لست أتذكر الآن ماذا قالوا لي : لقد كانوا يتكلمون ، وكنت أصغي اليهم دون أن أفهم شيئاً • ولكنني تركتهم في مكانهم فجأة ، ووليت هارباً •

٣

ظللت أركض دون أن أميِّز شيئاً ، وأصدم المارة أثناء ركضي يمنة ويسرة ، حتى وصلت أخيراً الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، ولم يخطر ببالي في الطريق حتى أن أستقل عربة . لقد دفعني بيورنيج بحضورها « هي » ! صحيح أنني دست على قدمه فدفعني عنه بغريزته كما يفعل شخص ديس على قدمه فانتزع ثفن من أصبعه (يجوز فعلاً أن أكون قد سحقت له ثفن في رجله !) . ولكنها رأت ، رأت الخدم يقبضون عليَّ . هذا كله حدث بحضورها ، أمامها !

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع في أول الأمر أن أنطق بكلمة . كانت فكي السفلى ترتعش من الحمى . لقد اجتاحتني حمى فعلاً . وكنت عدا ذلك أبكي ... فالى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة !

ـ هه ! طردوك اذن ؟ أحسنو صنعاً ! أحسنوا صنعاً !

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا . وتهاويت على الديوان دون أن أقول شيئاً ، ونظرت اليها .

قلت وهي تحدّق اليّ :

ـ ولكن ماذا أصابه ؟ خذ ، خذ هذه الكأس ، ابلع قليلاً من ماء ، اشرب ! وقل لي ما الحماقة الجديدة التي ارتكبتها .

تمتمت قائلاً انني طُردت ، وان بيورنيج دفعني في الشارع .

ـ هل تمكنك حالتك الآن من أن تفهم شيئاً ؟ اقرأ اذن ، ولينشرح فؤادك •

قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وتناولت من على المائدة ورقة ومدتها الى وتسمّرت أمامى • فسرعان ما تعرفت خط فرسيلوف • لم يكن ثمة الا أسطر قليلة : انها رسالة الى كاترين نيقولايفنا • ارتعشت • ولكن القدرة على الفهم لم تلبث أن وافتنى أقوى ما تكون • واليكم نص تلك الرسالة الفظيعة ، الفاضحة ، المستحيلة ، الاجرامية ، اليكم نصها كلمةً كلمة :

الى السيدة كاترين نيقو لايفنا

« رغم علمى بما انت عليه من فساد الخلق سواء اكان هذا الفساد طبيعة فيك ام كان فنا تحذقينه ، فلقد كنت اتصور انك تستطيعين ان تسيطرى على اهوائك ، وانك فى اقل تقدير لن تلحقى اذى باطفال • ولكنك لم تتورعى حتى عن هذا • اننى ابلغك ان الوثيقة التى تعرفين لم تحرق على لهب شمعة حتما ، ولم تكن عند كرافت فى يوم من الايام ، فلن تجنى نفعا مما تفعلين • فلا تفسدى اخلاق شاب فى غير طائل • كفى اذاك عنه ، فانه لا يزال قاصرا ؛ بل انه ليكاد ان يكون طفلا لما يبلغ بعد كمال نموه العقلى والجسمى • فيم يفيدك ؟ اننى اهتم بامره ، ولذلك جازفت فكتبت اليك هذه الكلمات ، رغم اننى لا ارجو لها اى نجاح • ويشرفنى ان ابلغك اننى ابعث بنسخة من هذه الرسالة الى البارون بيورنغ » •

اصفر وجهى أثناء القراءة ، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفتاى استياء وسخطاً • وصحت أقول غاضباً :

ـ اياى يقصد ؟ هذا بمناسبة ما بحت له به أمس الأول !

ـ ذلك لأنك بحت له به !

وانتزعت تاتيانا الرسالة من يدى •

ـ ولكن ••• ليس هذا ما كنت أقوله له ! آه ••• رباه ! ما عسى

يـكون ظنها بى الآن ؟ ولكن هل هو مجنون ؟ انه مجنون • لقد رأيتـه أمس • متى بعث الرسالة ؟

ـ أمس نهاراً • وقد وصلت فى المساء ، فأعطتنيها اليوم بنفسها •

ـ ولكننى رأيته أمس • انه مجنون ! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف هذا • هذا عمل رجل مجنون ! من ذا الذى يكتب كلاماً كهذا الكلام الى امرأة ؟

ـ يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهـم الغيرة ويجعلهـم الغضب صماً عمياً ويتحول الدم فى عروقهم الى زاج • انك لم تكن تعرفه بعد ! ولكنه سيدفع الثمن غالياً • لسوف يسحق سحقاً • انه يضع نفسه بنفسه تحت الساطور • ألا ان من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة الى خط نيقولا ، فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار قطعاً مناسباً ، مادام يستثقل حمله ! وما الذى حملك على التحدث اليه ؟ ما كانت حاجتك الى مذاكرته ؟ أردت أن تزهو بنفسك ؟

ـ يا له من كره ! ما أشـد هـذا البغض ! كذلك هتفت وأنا ألطم رأسى بيدى • وتابعت أتساءل :

ـ ولماذا ؟ لماذا ؟ يسىء هذه الاساءة الى امرأة ؟ ماذا صنعت ؟ أى ذنب جنت ؟ ما العلاقات التى كانت بينهما حتى يكتب لها رسائل كهذه ؟

ـ كره ! بغض !

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنـا وهى تقلد لهجتى وحركاتى بسخرية حانقة •

وازدحم الدم فى وجهى من جديد : بدا لى فجـأة اننى أفهم شـيئاً جديداً كل الجدة • نظرت الى تاتيانا بافلوفنـا نظرة مستفهمة ، أودعتها

كل ما أملك من قوة . فزعقت تاتيانا بافلوفنا وهى تدير لى ظهرها وتهدّدنى بيدها ، قائلة :

ـ اذهب من هنا ! كفانى ما لقيت منكم جميعاً ! حسبى ! فى وسعكم أن تغيبوا كلكم ... الوحيدة التى ما أزال أشفق عليها هى أمك .

ركضت الى فرسيلوف طبعاً . ولكن ما أقبحـه من عذر ! ما أقبحه من عذر !

٤

لم يكن فرسيلوف وحيداً . يجب أن أذكر سلفاً انه بعد أن أرسل تلك الرسالة الى كاترين نيقولايفنــا أمس ، وأرسل نسخة منها (لا يعلم الا الله لماذا !) الى البارون بيورنج ، كان ينتظــر أثنــاء النهار « عواقب » الخطوة التى قام بهــا ، فلذلك اتخــذ بعض التدابير : فنقل ماما وليزا منذ الصباح الى فوق ، الى « التــابوت » (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت فى الصباح عند عودتهــا فرقدت فى سريرها) ، كمــا عنى بنظافة الغرف وترتيبها عناية كبيرة ، ولاسيما « الصالون » . وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر فعلا ، حتى جاء الى الدار بارون اسمه « ر .. » ، وهو عسكرى برتبــة كولونيل ، فى نحــو الأربعين من عمره ، ألمانى الأصل ، طويل القامة ، جاف الهيئة ، قوى الجســم جــداً فيما يبدو ، أحمر البشرة هو أيضاً ، مثل بيورنج ، لكنه أصلع قليلاً . انه واحد من البارونات « ر ... » الكثير عددهم فى الجيش الروسى ، وهم جميعاً أناس شــديدو التأذى فى كل ما يمس الشرف ، ليس لهم ثراء ، وانمــا هم يعيشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً . لم أشهد بداية الحديث الذى جــرى بينهما . كانا كلاهما فى أوج النشـــــاط والاندفاع . وكيف لا يكونان كذلك ؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة ، وكان البارون جالساً فى مقعد الى جانب . وكان فرسيلوف شاحب اللون ، ولكنه يتكلم برصــانة ، ويزن أقواله ، وكان البــارون يرفع صــوته ، ويهم أن يحرك يديه باشارات عنيفة ، ولكنه يكبح جماحه . وكانت نظرته قاسية

فيها تعال بل فيها احتقار ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشـــة • فحين رآنى قطب حاجبيه ، ولكن فرسيلوف كاد يغتبط لرؤيتى • وقال يحيينى :

ـ يومك سعيد يا عزيزى •

وأضاف يخاطب البارون :

ـ يا بارون ، هذا هو الشاب الذى عنيته فى رسالتى • صدّق أنه لن يضايقنا وجوده ، حتى لقد يفيدنا •

رمقنى البـارون بنظرة شزراء فيها احتقار • وأردف فرسـيلوف قائلا لى :

ـ يا عزيزى ، يسعدنى أنك جئت • تلبَّث فى ركن ، أرجوك ، الى أن ننتهى •

ثم قال للبارون :

ـ اطمئن يا بارون ، سيبقى فى ركن •••

لم يهمنى ذلك • كنت قد عزمت أمرى • وكان كل شىء عدا هذا يدهشنى ويذهلنى • وجلست فى ركن لا أنطق بكلمة ، ولبثت هنـالك لا تطرف لى عين ، ولا أتحرك ، الى آخر الحديث •

قال فرسيلوف مقطعاً جميع الكلمات تقطيعاً قوياً :

ـ أكرر لك مـرة أخـرى يا بارون اننى أعُد كاترين نيقولايفنـا آخماكوفا ، التى كتبت اليها تلك الرسالة الدنيئة الخسيسة ، أنبل المخلوقات طراً ، بل أعُدها ذروة الفضائل الكاملة !

فزأر البارون يقول :

ـ ان هـذا الدحض لأقوالك ، كما قلت لك من قبـل ، أشـبه بتأكيدٍ لها • فتعابيرك تخلو من الاحترام خلواً واضحاً •

ـ ان الأفضـل مع ذلك أن تفهم أقوالى بالمعنى الذى يدل عليه نصها حرفاً حرفاً • اننى أصاب أحيـاناً بنوبات تستبد بى وتسيطر علىّ ، حتى اننى مضطر الى معالجة نفسى ومداواة مرضى ، وقد اتفق لى فى أثناء نوبة من تلك النوبات أن •••

ـ هذه الايضاحات والاعذار لا يمكن قبولها • أكرر لك مرة أخرى أنك لا تزال تصر على ضـلالك اصراراً عنيـداً ولعلك تتعمد أن تخدع نفسك • لقد نبهتك منذ البداية الى أن المسألة المتعلقة بتلك السيدة ، أعنى رسالتك الى الجنرالة آخماكوفا ، يجب اقصاؤها من الحديث الذى نحن بصدده ، ولكنك لا تزال تعود الى تلك المســألة • لقد رجانى البـارون بيورنج وكلفنى أن أوضح ما يتعلق به هو وحده ، أعنى ما اجترحت من وقاحة اذ بعثت اليه تلك « النسخة » من الرسالة ، ثم الحاشية التى أضفتها قائلاً انك « على اسـتعداد لتحمل المسئولية أمام أى انسـان ، وبأية طريقة » •

ـ ولكن يبـدو لى أن هذه النقطة الأخيرة جلية لاتحتـاج الى مزيد من الايضاح •

ـ أفهم ، أعلم • انك تتهـرب حتى من الاعتـذار ، وتظل تؤكد أنك « مستعد لتحمل المسئولية أمام أى انسـان وبأية طريقة » • ولكن سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخس ثمن • لذلك أجد أن من حقى ، بسبب ما أراه من اصرارك على توجيه الايضـاح هذه الوجهـة ، أن أفصح لك عن رأيى بغير تحرج : لقد وصلت من تفكيرى فى الأمر الى النتيجة التالية : ان البارون بيورنج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون له معك قضية ••• فكأنكما ندان •

ـ أرى أن هذا الحل أنفع الحلول لصديقك البارون بيورنج • وانى لأعترف لك بأنك لا تدهشنى البتة : فلقد كنت أتوقع هذا الأمر •

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أننى لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يسعى الى احداث انفجار ، فكان يستفز ويتحدى ويتأكد هذا البارون الذى من طبعه الاهتياج ، ولعله كان يمتحن صبره امتحاناً قاسياً . فكان البارون كالجالس على الشوك نفاد صبر .

ـ كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهة فى الفكاهة ، ولكن هذا ليس هو الذكاء .

ـ هذه ملاحظة عميقة الى أبعد حدود العمق يا كولونيل .

صرخ البارون يقول :

ـ لست فى حاجة الى مدحك ، ولا جئت هنا لاتكلم فى الهواء سدى . اسمعنى من فضلك : ان البارون بيورنيج ، حين تلقى رسالتك ، احتار حيرة سديده ، اذ كانت تفوح منها رائحة مستشفى مجانين . ولقد كان فى الامكان طبعاً أن تلتمس الوسائل .. لتهدئتك فوراً . ولكن أسباباً خاصه حملتهم على مراعاتك ، وقد سألوا عنك ، فاتضح أنك كنت تنتمى الى المجتمع الراقى ، وأنك فى الماضى قد عملت فى « الحرس » ، غير أنك أُقصيت من ذلك المجتمع ، واتضح أن سمعتك الآن مشبوهة بل أكثر من مشبوهة . ورغم ذلك انتقلت اليك لأستطلع الأمر بنفسى ، وهأنت ذا تستبيح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن ، ثم تشهد على نفسك بأنك تصاب بنوبات ... كفى ! ان مركز البارون وسمعته لا يمكن أن يتورطا فى هذا الأمر . والخلاصة أيها السيد اننى مكلف بأن أعلن لك أنك اذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع ، فسوف تلتمس لتهدئتك وسائلها على الفور ، وهى وسائل أؤكد لك أنها مضمونة جداً وسريعة جداً . اننا لانعيش فى الغابات ، بل فى دولة لها شرطة !

ـ هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزى الطيب البارون « ر ... »؟

ـ أف ...

كذلك صرخ البارون ثم نهض فجأة وقال :

ـ انك تغريني بأن أبرهن لك حـالاً على انني لست « عزيزك البارون الطيب » .

نهض فرسيلوف هو أيضاً وقال :

ـ أنبّهك مرةً أخرى الى أن زوجتي وابنتي ليستا بعيدتين ، لذلك أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً ، لأن صرخاتك تصل اليهما .

ـ امرأتك .. هاه ! لئن بقيت أتحدث اليك هذه المدة كلها ، فمن أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة ...

كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضبـاً حانقا ، ولم يخفض صوته أي خفض . ثم صرخ يقول ساخطاً :

ـ كفى ! انك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب ، بل أنت كذلك رجل مهووس ، مهووس حقاً ، رجل مختل العقل ؛ وهذا بعينه ما وصفوك به ! انك لا تستحق التسامح ، واني لأعلن لك أن تدابير معنية سوف تُتخذ في هذا اليوم نفسه ، وانك ستُستدعى الى مكانٍ تُردُّ فيه الى الصواب ... وستُخرج من المدينة !

قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة . ولم يشيعه فرسيلوف ، بل ظل واقفاً ينظر الي في ذهول كأنه لا يلاحظني . وابتسم فجأة ، وهزّ شعره ، وتناول قبعته ، واتجـه نحو الباب هو أيضاً . فأمسكت يده . فتوقف أمامي وقال :

ـ ها .. حقاً .. أنت هنا ! هل ..أصغيت ؟

ـ كيف أبحت لنفسـك أن تتصرف هـذا التصرف ؟ كيف أمكنك أن تشوه وأن تلطخ بالعار ... وأن تغدر هذا الغدر كله ؟

حدّق الىّ بنظرة ثابتة ، ولكن ابتسامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء ، حتى صارت الى ضحك حقاً •

صحت أقول خارجاً عن طوري :

ـ لكنني أنا الذي لطّخت بالعار •• أمامها ! أمامها ! هزئت على مرأى منها • لقد دفعني دفعاً مهيناً •

قال :

ـ هل هذا ممكن ؟ آه يابني المسكين ، لكم أشفق عليك ! هزموك ؟

ـ أتضحك ، أتضحك مني ؟ أترى هذا داعياً الى الضحك ؟

استل يده من يدي مسرعاً ، وتناول قبعته ، وخرج من البيت ضاحكاً ، ضاحكاً الآن ضحكاً حقاً !

أألحق به ؟ علام ؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء في دقيقة ! وأبصرت ماما فجأة • كانت قد نزلت ، وهي تلقي عليّ الآن نظرة وجلة •

ـ هل خرج ؟

قبّلتها في صمت ، وقبلتني بقوة ، بقوة ، ملتصقة بي التصاقاً •

ـ ماما العزيزة ، كيف يمكنك أن تبقى هنا ؟ لنرحل فوراً ، سوف أؤويك ، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشغال الشاقة ، من أجلك ومن أجل ليزا • لنتركهم جميعهم ، جميعهم ، ولنرحل • سنكون وحدنا • ماما ، هل تذكرين يوم جئت تزورينني عند توشار ورفضت أن أتعرفك ؟

ـ أتذكر يا بني • طوال حياتي كنت آثمة في حقك • ولدتك ثم لم أعرفك •

ـ هو الآثم يا ماما • هو سبب كل شيء • لم يحبنا في يوم من الأيام •

ـ بلى • أحبنا •

ـ لنرحل يا ماما •

ـ كيف أتركه ؟ هل هو سعيد ؟

ـ أين ليزا ؟

ـ في السرير • ما ان عادت حتى مرضت • أنا خائفة • ما بالهم حانقين عليه هذا الحنق كله ؟ ماذا يريدون به ؟ لماذا كان هذا الضابط يهدده ؟

ـ لن يقع له سوء يا ماما • لن يقع له سوء أبداً • لن يقع له سوء أبداً • ولا يمكن أن يقع له سوء • هكذا خلق ! ولكن ها هي ذي تاتيانا بافلوفنا • اسأليها ان كنت لا تصدقينني •

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا • وتابعت أقول :

ـ الى اللقاء يا ماما ، سأعود حالاً ، وسأطلب منك هذا الطلب مرة أخرى •••

ووليت هارباً • كنت لا أطيق أن أرى أحداً ، ناهيك عن تاتيانا بافلوفنا • كان أمر ماما يعذبني عذاباً شديداً • كنت أريد أن أخلو الى نفسي ، وحيداً ، وحيداً •

٥

ولكن ما ان وصلت الى الشارع التالى حتى أحسست أننى عاجز عن السير • وكنت أصطدم اصطداماً غبياً بأولئك الناس ، الغرباء ، غير المكترثين • الى أين أذهب ؟ مَنْ هو فى حاجة الىّ ، وما الذى احتاجه أنا الآن ؟ وسرت سيراً آلياً حتى وصلت الى بيت الأمير سرجى بتروفتش دون أن يخطر على بالى البتة • لم يكن الأمير بالبيت • فقلت لبطرس (خادمة) اننى سأنتظر فى مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً) • انها غرفة واسعة ، عالية السقف جداً ، ملأى بأثاث كثير • مضيت الى أعتم ركن ، وجلست على ديوان ، ووضعت كوعىّ على المائدة ، وأسندت رأسى الى يدىّ • نعم ، كان هذا هو السؤال : « ما الذى أنا فى حاجة اليه الآن ؟ » • ولئن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال ، فلقد كنت عاجزاً عن الاجابة عنه كل العجز •

ولكننى كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل • سبق أن ذكرت من قبل أننى فى نهاية تلك المرحلة كانت « الأحداث قد سحقتنى » • والآن ، فيما أنا جالس ، كان شىء كالسديم يدور فى رأسى اعصاراً • « نعم ، اننى لم أر من هذا الرجل شيئاً ، ولم أفهم عنه شيئاً » • تلك هى الفكرة التى كانت تبرق فى خاطرى فى بعض اللحظات • « لقد ضحك منى فى وجهى منذ قليل ؟ ولكن لا ، انه لم يضحك منى أنا ، بل كان لا يزال يضحك من بيورنيج ، لا منى أنا • أمس الأول ، أثناء العشاء ، كان يعرف كل شىء ، وكان قائم النفس • لقد استولى على اعترافى الغبى فى

المطعم ، فشوه كل شيء ، على حطـام الحقيقة . ما حاجته الى الحقيقة ؟ انه لا يصدّق نصف كلمة مما كتبه اليها . كانت حاجته كلها هي آن يجـرح ، أن يجـرح لغير سبب ، بل دون ان يعرف لماذا ، متشبثا بأية حجة ، وقد قدمت انا اليه تلك الحجة .. هذه فعلة كلب مسعور ! ... هل ينوى الآن أن يقتل بيورنج ؟ لماذا ؟ لأى سبب ؟ ان قلبه يعرف السبب ! أما أنا فانني أجهـل ما في قلبه ... نعم ، مازلت أجهل هذا حتى الآن . هل يحبها هذا الحب المشبوب كله ؟ لا أدرى . وهل يدرى هو نفسه ؟ لماذا قلت لأمى « انه لا يمكن أن يقع له سوء » ؟ وماذا عنيت بهذا الكلام ؟ أترانى فقدته أم لم أفقده ؟ ... » .

... « لقد رأت كيف دُفعت .. وضحكت أيضـاً .. أم أنهـا لم تضحك ؟ لو كنت أنا في مكانها لضحكت ! الجاسوس هو مَنْ ضُربَ ، الجاسوس ! ... » .

« وما الذى عنـاه (واتتنى هذه الفكرة فجأة) ، ما الذى عناه حين دسّ في رسالته الدنيئـة تلك أن الوثيقة لم تُحـرق ، وأنها لا تزال موجودة ؟ ... » .

« لن يقتل بيورنج . هو الآن في المطعم قطعاً ، يصغى الى أغنيـــة لوسيا ! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضى يقتل بيورنج . لقد دفعنى بيورنج ، بل ضربنى تقريبـاً . هل ضربنى ؟ ان بيورنـج يأبى حتى أن ينـازل فرسـيلوف : فهل ينازلنى أنا ؟ » ، « قد يـكون علىّ أن أقتله في الغد برصاصة مسدس ، وأن أتربص به في الشارع .. » . نشأت هذه الفكرة في ذهنى من تلقاء نفسها تماماً ، ولم أتلبث عليها البتة .

وفى بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيُفتح فتدخـل كاترين نيقولايفنا : تدخل فتمد لى يدها وننفجر ضاحكين كلانا .. آه .. عزيزى ،

الطالب ! ان هذه الفكرة بل فل هذه الرغبة انما عرضت لى حين ساد الظلام الغرفة تماماً . ولكن هل وقفت أمامهـا مدة طويلة أودّعها بينا هى تمد الى يدها وتضـحك ؟ كيف يمـكن هذا : فى برهة وجيزة من الزمن ، على مثل هذه المسافة الرهيبة ! ألا فلأذهب اليها ببساطة فأناقشها حالاً ، ببساطة ، ببساطة ! رباه ! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ ، جديد كل الجدة ، كل الجدة .. ليزا ، الأمير ، لا يزال هذا هو العالم القديم .. أنا الآن عند الأمير . وماما ، كيف أمكنها أن تعيش معه اذا صدق الأمر ؟ أنا كان فى امكانى ، أنا فى امـكانى ، ولـكن هى ؟ ما الذى سـيحدث الآن ؟ » . وأخذت أطياف ليزا ، وآنا آندريفنا ، وستيبلكوف ، والأمير ، وآفردوف ، والجميع ، تتلاحق كاعصـار دون أن تتـرك أثراً فى ذهنى المريض . وأصبحت الصور تزداد ابهاماً وتستعصى على الادراك مزيداً من الاستعصاء . فأسعدنى أن أفهم واحدةً منها وأن أمسك بها .

قلت لنفسى فجأة : « ان لى « فكرتى » ، ولكن هل هـذا صـحيح حقاً ؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب ؟ ان فكرتى هى العتمة والعزلة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بعتمة الماضى تلك ؟ آه ! يارب! ولكن السبب هو أننى لم أحرق « الوثيقـة » ! لقد نسيت أن أحرقهـا أمس الأول . سأرجع الى بيتى فأحرقهـا على لهب الشمعة ، نعـم ، على لهب الشمعة . ولكننى لا أدرى هل حسن ما أفكر فيه الآن .. » .

ساد الظلام منذ مـدة طويلة وجاء بطرس بالشـموع . وقف أمامى وسألنى هل أكلت ؟ فلم أزد على أن أشرت له بيدى . ومع ذلك جاءنى بعد سـاعة بشـاى ، فشربت كأساً كبيرة بشراهة . ثم سألته كم الساعة ؟ كانت السـاعة قد بلغت الثامنة والنصف . لم يدهشنى حتى أن أكون قد قضيت هنا خمس ساعات . قال بطرس :

ــ جئت ثلاث مرات ، ولكننى أعتقد أنك كنت نائماً .

لم أتذكر أنه دخل عليّ . ولكنني لا أدرى لماذا روّعنى فجأة أن أكون قد « نمت » ، فاذا أنا أنهض وآخذ أمشى فى الغرفة طولاً وعرضاً حتى لا أنام . وأخيراً أحسست بصداع فى رأسى . حتى اذا كانت الساعة العاشرة تماماً دخل الأمير ، فأدهشنى أننى انتظرته . كنت قد نسيته كل النسيان ، كل النسيان .

قال لى :

ـ أنت هنا ، وأنا ذهبت أبحث عنك فى بيتك !

كانت هيئته مكفهرة قاسية خالية من أيسر ابتسام . وكانت عيناه تعبران عن فكرة ثابتة ثاوية فى قرارة ذهنه .

تابع يقول :

ـ كافحت طول النهار واستعملت جميع الوسائل ، ولكن كل شيء أخفق فأصبح وضعى الآن رهيباً . (ملاحظة : لم يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش) . رأيت جيلسكى . انه انسان فظيع . اسمع : لابد أولاً من الحصول على المال ، ثم نرى ما يكون من الأمر . واذا لم نظفر بالمال ، فعندئذ .. لكننى قررت ألا أفكر اليوم فى هذا . اليوم يجب أن نحصل على المال ، وفى غد نرى ان المبلغ الذى ربحته أنت أمس الأول لا يزال كاملاً . هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات . فاذا طرحنا دينك يبقى عليّ أن أرد اليك ثلاثمائة . فخذها وأضف اليها سبعمائة لتصبح ألفاً ، وآخذ أنا الألفين . ثم نمضى معاً الى تسرشتشيكوف ، فنجلس على طرفين متقابلين ونحاول أن نربح عشرة آلاف ، فعسى أن نصل الى شيء .. والا .. هذا هو المخرج الوحيد الذى بقى لى .

وألقى عليّ نظرة يائسة .

هتفت أقول فجأة كأنني بعثت بعثاً جديداً :

ــ نعم نعم ! هيا بنا ! لم أكن أنتظر الا أن تجيء ..

لاحظوا أن الروليت لم تخطر ببالي لحظة واحدة طوال تلك الساعات كلها .

وقال الأمير يسأل على حين فجأة :

ــ والدناءة ؟ وحقارة الفعل ؟

فهتفت أقول :

ــ ماذا ؟ ذهابنا الى الروليت ؟ ولكن هذا هو المخرج . ان المال هو كل شيء . نحن القديسان أنا وأنت ، على حين أن بيورنج باع نفسه ، وأن آنا آندريفنا باعت نفسها ، وأن فرسيلوف .. هل تعرف أن فرسيلوف مختل ؟ مختل ، مختل ! ...

ــ ألست مريضاً يا آركادى ماكاروفتش ؟ ان عينيك غريبتان .

ــ هل تقول هذا لتذهب الى الروليت دون أن تصطحبني ؟ لن أتركك بعد الآن . ليس عبثاً أنني حلمت بالقمار طول الليل . هيا بنا الى الروليت ! هيَّا بنا !

كذلك صحت كأنني اكتشفت حل اللغز فجأة .

ــ طيب ، هيَّا بنا ، رغم أن بك حمى ، وهناك ...

لم يكمل الأمير جملته . كان في وجهه شيء أليم مرعب وخرجنا .

قال لى فجأة وهو يقف على العتبة :

ــ هل تعلم أنه لايزال هناك مخرج آخر غير القمار ؟

ــ ما هو ؟

ـ مخرج جدير بامراء .

ـ ما هو ؟ ما هو ؟

ستعرفه فى المستقبل . ولكن أعلم أننى الآن لا أستحقه ، لقد فات الأوان . هلمّ ، وتذكر أقوالى هذه . لنجرب المخرج الجدير بعامة الناس . هل يمكن أن أجهل أننى أتصرف تصرف خادم ، بوعى واضح وارادة كاملة ؟

٦

طرت الى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تجمعت هناك ، وكأن الروليت هي الحل الوحيد . ومع ذلك لم تكن الروليت قد خطرت ببالى قبل وصول الأمير ، كما سبق أن ذكرت . على أنني لم أذهب مقامراً لنفسي ، وانما ذهبت مقامراً بمال الأمير ومن أجل الأمير . انني لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يجذبني ، ولكنني كنت منجذباً انجذاباً لاسبيل الى مغالبته . لا ، لا ، ان هؤلاء الناس ، وهذه الوجوه ، وأولئك القوامين على مائدة الروليت ، وتلك الصرخات التي يطلقها المقامرون ، وتلك الصالة الحقيرة كلها ، صالة تسرشتشيكوف ، ذلك كله لم يبد لى فى يوم من الأيام على هذا القدر كله من البشاعة والجهامة والفظاظة والحزن كما بدا لى فى هذه المرة ! انني أتذكر بوضوح ما بعده وضوح شعور الحداد والحزن الذى كان يعض قلبي أثناء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار . ولكن لماذا لم أبارحها ؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يذعن لقدر أو كمن يقدم نفسه قرباناً أو كمن يقوم بسخرة ؟ يمكنني أن أقول شيئاً على كل حال : هو أنني لا أستطيع أن أقطع حقاً بأنني كنت أملك عقلى كاملاً حينذاك . ومع هذا لم أقامر فى حياتى بتعقل كما قامرت فى ذلك المساء . كنت صامتاً متركز التفكير شديد الانتباه بارعاً فى الحساب الى حد رهيب ، وكنت صبوراً وبخيلاً ، وكنت فى الوقت نفسه حازماً فى اللحظات الحاسمة . جلست من جديد أمام الصفر ، أى مرةً أخرى بين تسرشتشيكوف و أفردوف الذى يجلس دائماً على يمين تسرشتشيكوف .

لقد كنت أشمئز من هـذا المكان ، ولكننى أردت أن احط على الصفـر حتماً ، وكانت جميع الأماكن الأُخـرى حول الصفر محتلة . قامرنا قرابة ساعة . وأخيراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه الى الطرف الذى كنا فيه ، ويقف أمامى فى الجهة الأخرى من المائدة : كان قد خسر كل ما معه ، فهو ينظر الى لعبى صامتـاً ، ربما دون أن يفهـم منه شـيئاً بـل دون أن يفـكر فى اللعب . وكنت قد أخـذت أربـح ، وكان تسرشتشيكوف قد نقدنى مبلغـاً . فاذا أنا أرى آفردوف يتنـاول ورقة من أوراقى بمائة روبل ، فيضمها الى الكدسـة التى كانت أمامه . فعـل هذا فجأة ، دون أن يقول كلمة ، على مرأى منى ، بأكبر وقاحة . فصرخت وأمسكت يده . حدث لى عندئذ شىء لم أتوقعه أنا نفسى : ان جميع الأهوال والاهانات التى قاسيت منها فى النهـار قد تجمعت فجـأة فى هذه اللحظة الوحيدة ، فى سرقة هذه الورقة . لكأن كل ما تراكم وانضغط فى نفسى كان لا ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر . فهأنذا أصرخ خارجاً عن طورى ناظراً فيما حولى :

ــ هذا لص . لقد سرق منى ورقة بمائة روبل .

لا أريد أن أصف كل ما أثارته هذه الكلمات من جلبة ولغط . ان حادثة كهذه هى فى هذا المكان شىء جديد كل الجدة . ان الناس فى صالة تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً ، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة . ولكننى كنت قد فقدت صوابى . وهذا صوت تسرشتشيكوف يجلجل وسط الضجة والصياح قائلاً على حين فجأة :

ــ اختفت فعـلاً ، ليس فى ذلك شـك . كانت هنـا . أربعمـائة روبل !

هذه قضية أخرى : ان كدســة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من « البنك » تحت أنف تسرشتشيكوف . وأخذ تسرشتشيكوف يبيّن المكان

الذى كانت فيه الكدسة قائلاً : « كانت هنا منذ لحظة » ، وكان هذا المكان قريباً منى كل القرب ، بل كان يلاصقنى ، كان يلاصق الموضع الذى فيه مالى ، كان أقرب الىّ منه الى آفردوف كثيراً •

وهتفت أقول مشيراً الى آفردوف :

ـ اللص هنا ! هو الذى سرق أيضاً ! نبّشوه !

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول :

ـ مرجع هذا كله الى أنه يُسمح لأى شخص بالدخول الى هنا • أناس لم يوص بهم أحد • من أتى به ؟ من هو هذا ؟

ـ رجل يقال له دولجوروكى •

ـ الأمير دولجوروكى •

وصرخ أحدهم يقول :

ـ الأمير سوكولسكى هو الذى أتى به •

صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابى :

ـ اسمع يا أمير : يظنون أننى أنا السارق مع أننى سُرقت فى هذه اللحظة نفسها ! فقل لهم ، قل لهم من أنا !

عندئذ حدث شىء هو أفظع من كل ما سبق حدوثه فى ذلك اليوم كله ••• بل فى حياتى كلها : أنكرنى الأمير • رأيته يرفع منكبيه ، ويجيب عن الأسئلة التى كانت تنهمر عليه قائلا بصوت واضح قاطع :

ـ أنا لست مسئولاً عن أحد • أرجوكم أن تدعونى وشأنى •

وفى أثناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشد طالباً بصوت عالٍ أن ينبشوه ، وأخذ يقلب جيوبه ، ولكن الأصوات ارتفعت تجيب عن مطالبته

صائحة : « لا ، لا ، السارق نحن نعرفه » . وكان قد نودى خادمان ، فاذا هما يمسكان ذراعيّ من خلف .

فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلّص يديّ :

ـ لن أسمح لأحد بأن ينبشني ، لن أسمح لأحد بذلك .

ولكنني جررت جراً الى غرفة مجاورة ، وهناك نبشت ثيابي كلها دون أن تغفل منها ثنية واحدة ؛ فكنت أصرخ وأتخبط محتجا . قال أحدهم :

ـ لابد أنه رمى ما سرقه الى الأرض .

فأجاب آخر :

ـ ولكن أين نبحث عنها الآن في الأرض ؟

ـ تحت المائدة . لاشك أنه رماها تحت المائدة .

ـ لم يبق لها أثر حتماً ..

واقتادوني ، لكنني استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على العتبة وأن أصرخ في حنق مجنون :

ـ الروليت تحظرها الشرطة . سأشي بكم جميعاً في هذا اليوم نفسه .

ـ أنزلوني على السلم ، وألبسوني معطفي و ... فتحوا لي باب الشارع .

الفصل التاسع

١

هكذا انتهى النار بكارثة . وبقى الليل . فاليكم ما أتذكره عن تلك الليلة :

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليلاً حين وجدت نفسى فى الشارع . كانت الليلة صافية هادئة باردة . وكنت أسير سيراً يشبه أن يكون ركضاً ، متعجلاً تعجلاً محموماً ، لكننى لا أتجه الى البيت . « علام الرجوع الى البيت ؟ هل يمكن أن أفكر فى البيت الآن ؟ ان المرء فى البيت يحيا فاذا ذهبت الآن الى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا : فهل هذا الآن ممكن ؟ لقد انتهت الحياة ، فيستحيل علىّ بعد اليوم أن أحيا » . هكذا ظللت أهيم على وجهى فى الشوارع ، لا أرى أين أمضى ، بل انى لأجهل هل كنت أريد أن أمضى الى مكان . وكنت أحس بحر شديد ، حتى لأحل أزرار معطفى فى بعض اللحظات ، ويتراءى لى أنه « ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية » . شىء غريب : كان يبدو لى بغير انقطاع أن كل شىء من حولى ، حتى الهواء الذى أتنسمه ، انما ينتمى الى سيارة أخرى غير الأرض ، وكأننى وجدت نفسى فجأة على سطح القمر . كل شىء : المدينة ، المارة ، الرصيف الذى أركض عليه ، ذلك كله لم يبق لى أنا فكنت أقول لنفسى : « هذا ميدان القصور ؟ وهذه بحيرة اسحاق ، ولكن لم يبق لى بهما الآن شأن ، لا علاقة لى بهما الآن ! » . أصبح كل شىء غريباً عنى ، كف كل شىء عن أن يكون لى . « ان لى ماما و ليزا !

ولكن ماذا تستطيع ماما وليزا أن تصنعا لي الآن ؟ انتهى كل شيء ، انتهى كل شيء دفعة واحدة ، الا شيئاً واحداً : أنني سارق الى الأبد » .

« كيف أبرهن على أنني لست سارقاً ؟ هل يمكن الآن هذا ؟ أأسافر الى أمريكا ؟ ولكن ما الذي أستطيع بذلك أن أبرهن عليه ؟ لسوف يكون فرسيلوف أول من يصدّق أنني سرقت ! « الفكرة » ؟ أية « فكرة » ؟ ما « الفكرة » الآن ؟ بعد خمسين سنة ، بعد مائة سنة ، حين سأمر ، سيوجد دائماً من يشير الي باصبعه قائلاً : هذا سارق ، دشّن « فكرته » بسرقة مال في الروليت » .

هل شعرت بحقد ؟ لا أدري . لعلني شعرت بحقد . غير أن هناك صفة غريبة أتصف بها ، ربما منذ نعومة أظفاري : اذا نالني أحد باساءة ، اذا بلغت هذه الاساءة حدها الأقصى ، اذا أهانني أحد اهانة شديدة ، فانني أشعر دائماً برغبة نهمة في تحمل الاهانة دون رد ، بل في أن أستبق رغبات المسيء ، فكأنني أقول له : « خذ ، انك تذلني ، فهأنذا أذل نفسي مزيداً من الاذلال . فانظر اليّ واعجب بي ! » . كان توشار يضربني وكان يريد أن يُظهر أنني خادم ، انني لست ابن عضو من أعضاء مجلس الشيوخ . فسرعان ما كنت أقوم بدور الخادم ، فلا أقتصر على أن أناوله ثيابه بل أتناول الفرشاة طوعاً من تلقاء نفسي ، وآخذ أنفض عن ثيابه أيسر غبار عالق بها ، دون أن يكون قد طلب مني ذلك أو أمرني به ، وكنت في بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم ، لأزيل عن ردائه آخر ذرة من غبار ، الى أن يوقفني من تلقاء نفسه قائلاً : « كفى كفى يا آركادي ، هذا كاف ! » . وكنت اذا عاد بعد خروج ، فنزع معطفه ، آخذ أنظف المعطف بالفرشاة ، وأطويه بعناية تامة ، وأغطيه بغطاء من حرير ذي مربعات . كنت أعرف أن رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني ، كنت أعرف هذا حق المعرفة ، ولكن ذلك بعينه هو ما كان

يرضيني ، فكأنني أقول لهم : « أردتم لى أن أكون خادماً ، فانظروا كيف أنني خادم . ما دمت خادماً فلأكن خادماً تماماً ! » . وقد احتفظت بهـذا الكره السلبي وهذا الحقد الخفي سنين طويلة . وعند تسرشتشيكوف ، حين صرخت قائلاً لجميع من في الصالة وقد ثارت ثائرتي وخرجت عن طوري : « سوف أشي بكم جميعاً ، فالروليت تحظرها الشرطة » ، فيميناً ان عاطفة من هذا النوع هي التي كانت تحركني : لقد أذلوني ونبشوني ووصفوني على رءوس الأشـهاد بأنني لص ، أي قتلوني قتـلاً ، فكأنني رددت على ذلك قائلاً : « طيب .. اعلموا جميعاً أنكم عرفتموني على حقيقتي ، اعلموا أنني لست لصاً فحسب ، بل انني أيضاً واش ! » . حين أتذكر اليوم ما حدث ، فانني أفسّره هذا التفسير وألخصه هذا التلخيص . ولكن الأمر حينذاك لم يكن أمر تحليل ، فأطلقت صرختي تلك بغير نية ، وقبل ذلك بثانيـة واحدة كنت أجهل أنني سأطلقها . لقد خرجت الصرخة من تلقاء نفسها ، ولكنها خرجت لأن هذه الصفة التي أتصف بهـا كانت قائمة في نفسي .

لاشك أن هذياني كان قد بدأ حين أخذت أركض ، ولكنني أتذكر تذكراً واضـحاً كل الوضوح أنني كنت أتصرف واعياً . كل ما هنالك ـ وهذا ما أستطيع أن أقطع به واثقاً ـ أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستنتاجات كان موصدا دوني : فحتى في ذلك الوقت كنت أشعر بيني وبين نفسي أن « ثمه أفكاراً يمكن أن توافيني ، وأن ثمـة أفكاراً أخـرى ممنوعة عني اطلاقاً » . وكذلك كانت بعض قراراتي ، فهي وان اتخذت بوعي واضح وشعور كامل ، كان يمـكن أن تخلو حينذاك من أي منطق داخـلي . بل أكثر من ذلك انني أتذكر تذكراً واضـــحاً أن قراراً من قراراتي كان يمكنني في بعض اللحظات أن أشعر بسخافته واستحالته ثم أشرع مع ذلك في تنفيذه على الفور واعيـاً كل الوعي . نعـم ، لقد كانت الجريمـة

تتربص بى فى تلك الليلة ، ولئن لم أرتكب جريمـــة فان الفضل فى ذلك يرجع الى الصدفة وحدها .

وفجـأة وافتنى الكلمة التى قالتها تاتيانا بافلوفنـا عن فرسـيلوف : « ليذهب الى خط نيقولا فيضع رأســه على الســكة الحديدية ، فينفصــل رأسه عن جسمه على نحو مناسب » . وسيطرت هذه الفكرة لحظةً على جميع مشاعرى ، ولكننى لم ألبث أن طردتها من ذهنى على الفور متألماً ، اذ قلت لنفسى : « أضع رأسى على السكة الحديدية وأموت ؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً : هو السارق اذن ، شعر بالخزى والعار فانتحر . لا ، لن أفعل هذا أبداً ! » . وأذكر أن شرارة كره رهيب قد شبت فى قلبى فى تلك اللحظة . قلت : « ماذا ؟ يستحيل علىّ بعد اليوم أن أبرىء نفسى ، يستحيل علىّ أن أبدأ حياة جديدة . فيجب اذن أن أخضع ، يجب أن أجعل نفسى خادماً ، يجب أن أكون كلبـاً ، أن أكون ذبابة ، أن أكون واشـياً ، أن أكون الآن واشـياً بالفعل ، وفى أثنـاء ذلك أسـتعد بهدوء ورفق ، حتى اذا آن الأوان فى ذات يـوم دمـرت كل شىء ، أبـدت كل شىء ، أفنيت العالم كله ، المجرمين فيه والأبرياء . وسيعلم الناس جميعاً حينذاك ، على حين فجأة ، أن الذى فعـل ذلك انما هو الرجـل الذى اتهموه بأنه لص ، وبعدئذ انما انتحر » .

لا أذكر الآن كيف أفضى بى السـير الى زقاق صـــغير قريب من شارع « الفرسان الحرس » . ان هذا الزقاق تحفه فى الجانبين ، على طول مائة متر تقريباً ، جدران عالية هى حواجز تحجب وراءها أفنية منازل . وأبصرت خلف أحـد هذه الجدران ، على اليســـار ، كومة كبيرة من حطب ، كومة عالية جـداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين . فوقفت فجأة وأخذت أفكر . كان فى جيبى أعواد كبريت من شـمع ، محفوظة فى علبة من فضة . أكرر مرةً أخرى أننى كنت عندئذ أعى وعياً واضحاً

ما أفكر فيــه وما أريد أن أعمله ، ومازلت أذكر هذا الى اليوم ، ولكن لو سألتنى لماذا أردت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البته . كل ما أتذكره هو أن هــذه الرغبــة قد استبدت بى وملكت عليّ مشاعرى فجأة . قلت لنفسى : « ان تسلق الجدار ممكن جداً » . لقد كان هناك ، على بعد خطوتين ، باب كبير لاشك أنه مغلق منذ أشهر طويلة . وتابعت تفكيرى قائلاً لنفسى : « اذا وضعت قدمى على حرف أســفله ، كان فى امكانى أن أتشبث بأعلاه ، فأتسلق الجدار ، ولن يرى أحد شيئاً . لا أحد ســيرى شيئاً ! صمت كامل ! وهنـــاك فى أعلى الجدار ، سأستقر مرتاحاً ، فأشعل النار فى الحطب . هذا سهل ، حتى بدون أن أنزل الى الفناء ، لأن الحطب يكاد يلامس الجدار . وبسبب البرد ستسرى النار فى الحطب سريعة . ليس عليّ الا أن أسحب بيدى حطبة سندر .. بل لماذا الحطبة ؟ أستطيع رأســاً ، وأنا جالس على الجدار ، أن أنتزع بيدى قليلاً من القش ، فأشعله بلهب الكبريت ، أشعله ثم أدســه فى وسط الحطب ، فيشب الحريق . وأثب أنا الى أسفل الجدار وأنصرف . ولا داعى حتى الى الركض ، لأن الحريق لن يلاحظه أحد الا بعد مدة ... » . أدرت هذا كله فى رأسى ، ثم عزمت أمــرى تماماً على حين فجأة . وشــعرت بلذة قصوى ، بلذة قصوى وتسلقت . كنت أجيد التسلق اجادة عظيمة : اننى منذ كنت فى الليسيه كنت متفوقاً فى الرياضة البدنية تفوقاً كبيراً . ولكننى كنت أنتعل حذاءين من كاوتشوك ، فكان ذلك عقبة . ومع ذلك استطعت أن أمسك باحدى يديّ حافة لا يكاد يُرى بروزها ، وأن أصعد . وهممت أن أقذف يدى الأخرى لأتشبث بأعلى الجدار ، فاذا بقدمى تنزلق فأسقط منقلباً . أظن أن رقبتى اصطدمت بالأرض . ولاشك أننى بقيت مغشياً عليّ مدة دقيقة أو دقيقتين . فلما أفقت من غيبوبتى ، عقدت أزرار معطفى بغير شعور ، لأننى أحسست ببرد لا يحتمل ، وجررت نفسى جراً الى حيث

الباب الكبير ، فلطوت هناك وأنا لا أعى ما أفعل وعياً واضحاً ، وتجمعت على نفسى فى تجويف بين البـاب ونتوء الجدار • كانت الأفكار فى ذهنى مضطـربة ، وأغلب الظن أننى سرعان ما غفوت • اننى أذكر الآن ، كما لو كنت فى حلم ، أن صوت نواقيس ، عميقاً ثقيلاً ، قد ترجّع فى أذنىّ فجأة ، وأننى أصغيت الى ذلك الصوت متلذذاً •

٢

كان الناقوس يرن مـرةً كلَّ ثانيتين ، بل كل ثلاث ثوان ، ولكن صوته ليس صـوت ناقوس الخطـر ، بل هو صـوت ممتع بهيج عريض ، ولم ألبث أن ميزته فجـأة : انه ناقوس كنيسة القديس نيقولا ، الكنيسة الحمراء التي تقع في مواجهـة منزل توشـار ! ـ هي كنيسـة موسـكوبية قديمـة ، ذكراها في خيـالي واضـحة ، شـيدت في عهـد ألكسي ميخائيلوفتش ، بمسنناتها وقبابهـا الكثيرة وأعمدتهـا • وقد انتهى أسبوع الفصـح منذ برهة قصـيرة ، وعلى أشـجار السندر النحيلة في حديقة آل توشار ، أخذت تهتز الأوراق الخضر الجديدة منذ الآن • والشمس المتألقةعند الأصيل تسكب أشعتها المائلةفي صفنا بالمدرسة، وأنا،في غرفتي الصغيرة التي تقع على اليسـار ، والتي أقصـاني اليها توشـار بعيداً عن « أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ » ، عندي زائرة • نعم ، أنا الولد الذي لا يُعرف له منبت ، عندي زائرة ، أتتني أول مرة منذ أن أودعت في مدرسة توشار • ولقد تعرفتها منذ دخلت : انها أمي • تعرفتها رغم انني منذ العهد الذي كانت تقودني فيه الى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس ، وهي الكنيسة التي كانت الحمامة تجتاز قبتها ، لم أرها مرةً واحدة • نحن الآن جالسان معاً • وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً • ولقد عرفت فيما بعد ، عرفت بعد سنين كثيرة ، أنها في ذلك الحين ، وقد بقيت وحيدة اذ تركها فرسيلوف وسافر الى الخارج فجـأة ، جاءت الى موسـكو دون أن يكون لأحد سلطان عليها ، مستعينةً على ذلك بما تملك من مال زهيد ، كاتمة

امر سفرها تقريباً عن اولئك الذين عهد بها اليهم ، وذلك كله من أجل أن تراني لا أكثر . شيء غريب أيضاً : انهـا حين دخلت قد تحدثت الى توشار ، أما أنا فلم تقل لي انهـا أمي . هي الآن هنـا على مقربة مني ، واني لأذكر أنني قد أدهشني أن أراها لا تتكلم الا قليـلاً جداً . وهاهي ذي تفض صرّة كانت تحملهـا : ان في الصرة ست برتقالات ، وبضعة أقراص من الحلوى ، ورغيفين من خبز أبيض . وقد ســاءني الخبز ، فأجبت أمي متجهم الهيئة بأننا نُطعم هنا أحسن الطعام ، وأننا نعطى كلّ يوم مع الشاي رغيفاً كاملاً . فقالت لي أمي :

ــ لا بأس يا عزيزي ، لقد قلت لنفسي بسذاجة : « لعلهم في هذه المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة » . لا تؤاخذني يا حبيبي .

قلت :

ــ وسـوف يُجرح شـعور آنطونين فاسيليفنا (زوجـة توشار) ، وسوف يسخر رفاقي مني ...

ــ ألا تريده اذن ؟ قد تأكله مع ذلك !

ــ اتركيه ، اذا شئت .

ولم أمسس الهدايا . فالبرتقالات وأقراص الحلوى بقيت على المائدة أمامي ، وبقيت أنا جالساً خافضاً عينيّ ، ولكن على وقار . من يدري ؟ لعلني كنت أتمنى ألا أخفي عنها أن زيارتها تُخجلني أمام رفاقي ، وأن أظهر لها ذلك قليلاً لتفهم ، كأن أقول لها : « انك تخجلينني ولا تدركين ذلك من تلقـاء نفسك » . نعم ، أقول لها ذلك أنا الذي في تلك اللحظة ذاتها كنت أجري وراء توشار حاملاً الفرشاة لأنفض عن ثيابه أقل غبار ! وكنت أتصور كذلك مدى السخريات التي سيصبها عليّ الصبية الآخرون متى انصرفت ، وقد يصبها عليّ توشار نفسه ، فلم يهتز قلبي بأية عاطفة طيبة نحو أمي . كنت أنظر شزراً الى فسـتانها القاتم العتيق ، والى يديها

الغليظتين اللتين تشبهان يدى نشالة ، والى حذاءيها الثقيلين ، والى وجهها الذى نحل نحولاً شديداً . ان جبينها قد تخدّد منذ الآن بغضون صغيرة ، مع أن آنطونين فاسيلفنا قالت لى بعد ذلك فى المساء ، بعد انصرافها : « لابد أن أمك كانت فى الماضى جميلة جداً » .

وفيما كنا على هذه الحال اذا بآجاتى تدخل علينا بصينية فوقها فنجان قهوة . الوقت بعد الظهر . وآل توشار ، فى هذه الساعة ، يحتسون القهوة دائماً عندهم فى الصالون . ولكن ماما شكرت ولم تتناول الفنجان . وعلمت فيما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً ، لأن القهوة تحدث لها خفقاناً فى القلب . وآل توشار ، فى قرارة أنفسهم ، يرون أن زيارتها وسماحهم لها بزيارتى هو منتهى التسامح والكرم منهم ، وأن فنجان القهوة الذى أرسلوه اليها هو ذروة الانسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة وأفكارهم الأوروبية . ولكن أمى رفضت القهوة بمصادفة تشبه أن تكون عمداً .

ونوديت الى عند توشار . فطلب منى أن آخذ جميع دفاترى وجميع كتبى وأن أظهر عليها أمى « لترى مدى ما أجنيه من فائدة فى مدرسته » . وانبرت آنطونين فاسيليفنا عندئذ فقالت لى بلهجة ساخرة وهى تزم شفتيها :

ـ أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك .

وجمعت دفاترى لأحملها الى أمى التى كانت تنتظر . ومررت أمام « أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ » الذين احتشدوا فى الصف وأخذوا يرقبوننا كلينا . وسرّنى أن أنفذ أمر توشار تنفيذاً دقيقاً محكماً . فكنت أفتح دفاترى فتحاً منظماً ، وآخذ أشرح لأمى قائلا : « هذه دروس قواعد اللغة الفرنسية . وهنا نصوص الاملاء . وهذا تصريف الفعلين المساعدين ، فعل avoir وفعل être ، وهنا الجغرافيا ، وصف المدن

الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم ، الخ » . ظللت نصف ساعة أو أكثر أشرح لأمي ذلك كله بصوت رقيق مطرد خافضاً عينيَّ كما يفعل ولد أحسن تأديبه . وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب شيئاً ، وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة ، وهذا هو السبب في أن الدور الذي قمت به أعجبني . ومع ذلك لم أفلح في أن أتعبها ، فكانت تصغي اليَّ دون أن تقاطعني ، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع ، حتى اعتراني أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمرار من تلقاء نفسي . وكانت نظرتها حزينة ، وكان في وجهها شيء يبعث على الشفقة .

ونهضتُ أخيراً لتنصرف . فاذا بتوشار يدخل بنفسه بغتةً ، ويسألها بوقار مصطنع غبي هل هي راضية عن النجاح الذي حققه ابنها . فأخذت أمي تتمتم معبِّرةً عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة . ثم دخلت آنطونين فاسيليفنا . فرجتهما أمي ألا يتركا اليتيم ، « لأنه الآن في حكم اليتيم ، فاستمرا في احسانكما اليه ونعمكما عليه .. » . وحيتهما مغرورقة العينين بالدموع ، حيت كلا منهما على حدة ، بانحناء شديد ، كما يفعل العامة من أبناء « الشعب » حين يجيئون الى سادة كبار يلتمسون منهم شيئاً . وكان توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله ، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك ليناً واضحاً ، ولاشك أنها سرعان ما غيرَّت رأيها فيما يتعلق بفنجان القهوة . وازداد توشار اصطناعاً للوقار ، وأجاب قائلاً بلهجة انسانية « انه لا يفرِّق بين الأولاد ، وانهم هنا جميعاً أولاده ، وانه هنا أبوهم كافة ، وانني أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكونتات وأبناء أعضاء مجلس الشيوخ ، وان هذا شيء يجب أن يقدر حقَّ قدره » ، الخ ، الخ . فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار . وتفاقم اضطرابها ، فالتفتت اليَّ والدموع تلتمع في عينيها وقالت : « استودعك الله يا بني » .

وقبَّلتني بل قل انني سمحت لها أن تقبِّلني . وكان واضحاً

أنها ودَّت لو تقبِّلني مزيدا من التقبيل ، وأن تعانقني وأن تحضنني وأن تشدني اليها ، ولكنها أمسكت عن ذلك اما لأنهـا استحت من الحضـور ، واما لأنها شعرت بحزن ، واما لأنها أدركت أنني أشعر بخجل ، فهاهي ذي تحيي توشار وامرأته تحية أخيرة ، وتسرع متجهةً الى باب الخروج . وبقيت أنا مسمراً في مكاني .

قالت آنطونين فاسيلفينا :

ـ « هلاَّ تبعت أمك ! ان هذا الولد لا قلب له ! » .

ورفع توشار منكبيه ، كأنه يقول لهـا : « ليس عبثاً أنني أعامله كما يعامل خادم » .

وأطعت أمر آنطونين فاسيليفنا ، فنزلت وراء أمي ، وخرجنـا الى درج الباب . وكنت أعلم أن الآخـرين ينظرون الينـا الآن من النافذة . والتفتت أمي الى الكنيسة ، فرسمت اشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع ، وكانت شفتاها تختلجان . ورنَّ جرس جهير في أعلى برج الناقوس رنات قوية منتظمة . فالتفتت أمي اليَّ ، ثم لم تطق صبراً فاذا هي تضع يديها على رأسي وتجهش باكية بكاء غزيراً .

ـ كفى ياماما ، هذا يخجلني ... انهـم يرونـنـا من النافذة ...

فارتدت أمي الى وراء ، وأسرعت تريد الانصراف وقالت :

ـ طيب ! .. الرب .. الرب معك ! .. ملائكة السماء تحرسك ، ومريم العذراء والقديس نيقولا ...

وظلت تردد بسرعة ، وهي لا تزال ترسـم اشـارة الصليب ، وتحاول أن تضع عليَّ مزيداً من الصلبان بمزيد من السرعة :

ـ الرب .. الرب .. حبيبي .. عزيزى .. ولكن انتظر قليلاً ...

وأسرعت تدس يدها فى جيبها فتستل منها منديلاً .. منديلاً أزرق ذا مربعات قد عقد فى طرفه عقداً قوياً .. وأخذت تحاول حلّ العقدة .. ولكنها لم تفلح ، فقالت :

ـ طيب .. لا بأس .. خذ المنديل أيضاً .. انه نظيف كل النظافة .. قد تستعمله . ان فى العقدة أربعة نقود كبيرة فيما أظن ، فعسى أن تنتفع بها فى شيء . لا تحقد عليّ يا بنى ، ليس معى أكثر من ذلك .. لا تزعل منى يا حبيبى .

أخذت المنديل . وقد أردت أن أنبّهها الى « أن مسيو توشار وآنطونين فاسيليفنا يعاملاننا أحسن معاملة ، وأننا لا يعوزنا شيء » ، ولكننى أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل .

ورسمت عليّ اشارة الصليب مرةً أخرى ، وتمتمت أيضاً بدعاء لا أدرى ما هو ، ثم اذا هى تحيينى بانحناءة كبيرة بطيئة طويلة على حين فجأة ، تماماً كما حيّت توشار وامرأته فوق . لن أنسى هذه التحية ما حييت ! لقد ارتعشت من قمة رأسى الى أخمص قدميّ ، لا أدرى أنا نفسى لماذا ! ماذا قصدت من هذه التحية ؟ أكانت « تعترف بخطيئتها أمامى » كما تخيلت ذلك كثيراً فيما بعد ؟ لا أدرى . ولكننى شعرت حينذاك بمزيد من الخجل والخزى ، « لأنهم كانوا هناك فى أعلى ينظرون ، وقد يضربنى لامبير بعد قليل » .

وانصرفت أخيراً .

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد التهمها أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ حتى قبل أن أعود ، وسرعان ما انتزع منى لامبير النقود

الأربعة الكبيرة • فشتروا بها كتلة كبيرة من الشوكولاتة والجاتوه من عند بائع الحلوى ، ولم يذيقوني شيئاً مما اشتروا •

انقضت ستة أشهر • نحن الان في سهر تشرين الاول (أكتوبر) • رياح وأمطار • نسيت أمي نسياناً تاماً • والكره ، الكره الأسود العميق لكل شيء ، قد نفذ الى قلبي واستولى عليه استيلاء كاملاً • ومازلت أنفض الغبار عن ثياب توشار بالفرشاة ، لكنني أكرهه الآن بكل ما أملك من قوى ، ومازال كرهي يزداد شدة وتأججاً • وذات يوم ، في ساعة الغسق الحزينة ، بينما كنت أنبش علبتي ، اذا أنا أبصر المنديل الأزرق في الركن الذي دسسته فيه منذ أعطتنيه أمي • فأخرجته وأخذت أتأمله باهتمام • ان طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة ، بل لا يزال يحتفظ بأثر قطعة نقدية مستديرة • ولكنني لم ألبث أن أعدت المنديل الى مكانه وأغلقت العلبة • كان ذلك في عشية عيد ، وقد أخذت الأجراس تقرع مؤذنة بقداس الليل • وكان التلاميذ قد ذهبوا الى أسرهم بعد الغداء ، ولكن لامبير قد بقي في هذه المرة ، لأن أهله لم يرسلوا أحداً يصطحبه • انه لا يزال يضربني كما كان يفعل من قبل ، ولكنه أصبح يبوح لي بأشياء كثيرة ، وأصبح في حاجة الي • لبثنا طوال السهرة نتكلم عن مسدسات لوباج التي لم يسبق لأحد منا أن رآها ، وعن السيوف الشركسية ، وانتقل لامبير أخيراً الى حديثه المفضل ، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصغي اليه رغم ما أشعر به من دهشة بيني وبين نفسي • ولكنني في هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لا يطاق ، فقلت للامبير انني أشعر بصداع في رأسي ، ومضينا الى النوم • فغمرت رأسي بالغطاء ، واستللت المنديل الأزرق من تحت المخدة : كنت قد عدت الى اخراجه من العلبة قبل ساعة ، فما ان رُتّب سريرانا حتى وضعته تحت المخدة • شددت المنديل الى وجهي وأخذت أقبّله • وهمست أقول وقد استولت عليّ ذكرى أمي وانقبض

صدری کأنه مضغوط بين فكى ملزمة : « ماما ، ماما » . وتراءى لى وجهها وأنا مغمض عينىّ ، تراءى لى بشفتيه المختلجتين حين كانت ترسم على نفسها اشارة الصليب أمام الكنيسة ، ثم ترسم اشارة الصليب علىّ أنا ، فأقول لهـا : « اننى أشعر بخجل ، انهم يروننا » . وتابعت هتافى لماما : « ماما ، ماما الحبيبة ، لقد جئت الىّ مرةّ على الأقل .. أين أنت الآن يازائرتى البعيدة ؟ هل تذكرين الآن ابنك الصغير المسكين الذى جئت تزورينه ؟ .. تعالى الىّ مرةّ أخرى ، تعالى الىّ فى الحلم على الأقل ، لأقول لك اننى أحبك حباً عظيماً ، واننى أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزى ، واننى كنت أحبك فى ذلك الوقت أيضاً ، وان قلبى كان يتألم حين كنت أقبع هنـاك كخادم ! لن تستطيعى أبداً يا ماما أن تقدرى كم كنت أحبك حينذاك ! ماما الحبيبة ، أين أنت الآن ؟ هل تسمعيننى ؟ ماما ، ماما ، هل تتذكرين الحمامة ، فى الكنيسة ؟ ... » .

دمدم لامبير من قرارة سريره يقول :

ــ شيطان يأخذه ! ماذا دهاه ؟ انتظر قليلاً ! انه يمنع الناس من النوم ...

وها هو ذا يثب عن سريره أخيراً ، فيركض الى سريرى ، وينزع عنى الغطاء ، ولكننى أتشبث بالغطاء تشبثاً قوياً وأظل مطوقاً رقبتى به .

ــ تبكى ؟ ماذا دهاك حتى أخذت تئن يا أبله ؟ خذ هذه لك !

قال ذلك وأخذ يكيل لى الكلمات على ظهرى وعلى أضلاعى ، ويؤلمنى مزيداً من الايلام عند كل ضربة .. وفجأة فتحت عينىّ ...

النهار قد طلع تماماً ؛ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار ... وأنا جالس متجمع على نفسى نصف ميت ، متخدر فى معطفى . وهـذا رجل يقف أمامى يحاول أن يوقظنى من نومى بشتائم مقذعة ، ويركلنى

على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى • فأنهض وأنظر : هو رجل يرتدى معطفاً ثميناً من جلد الدب ، ويدثر رأسه بقبعة من الفراء ، له عينان سوداون ، وأسنان بيض مسددة الى ً • انه أبيض اللون ، محمر الخدين ، يشبه وجهه أن يكون قناعاً ••• لقد مال عليّ حتى كاد وجهه يلامس وجهى ، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد :

ـ لقد تجمدت من البرد يا سكير ، يا أبله ! لسوف تفطس هنا من التجلد كما يفطس كلب ! قم ! قم !

صرخت أقول :

ـ لامبير •

ـ من أنت ؟

ـ دولجوروكى •

ـ أيُ دولجوروكى ؟

ـ دولجوروكى فحسب ! •• ذلك الذى غرزت فى فخذه شوكة ••

فهتف وهو يبتسم ابتسامة طويلة ، ابتسامة من يتذكر :

ـ آ •• آ •• آ •• هذا أنت اذن ؟ أنت ؟

(أتراه نسينى ؟) •

وأنهضنى ، وأوقفنى على قدميّ ، فكنت أترنح وأجد فى الوقوف والحركة مشقة ، فقادنى وهو يسندنى بيده • كان ينظر فى عينيّ كمن يريد أن يتذكر وأن يفهم ، وكان ينصت الى كلامى بكل ما أوتى من قوة ؛ وكنت أنا أتمتم بكل ما أوتيت من قوة أيضاً ، فأتكلم وأتكلم بدون انقطاع ، وأشعر بسرور لأننى أتكلم ولأنه لامبير • ألأنه بدا لى « خلاصاً »

مما أنا فيه ، أم تراني ارتميت عليه ارتمائي على انســان من عالم آخر ؟ لا أدري . لم أكن في ذلك الوقت أفكر . لقد ارتميت عليه بغير تفكير . ماذا قلت ؟ لا أتذكر البتة . ولا شك أن ما قلته كان مفككاً . بل لا شــك أن نطقي لم يكن واضحاً . ولكنه كان يصغي الىّ اصغاء شديداً . واستوقف أول عربة مرت بنا ، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت في دفء غرفته .

٣

ان كل انسان ، أياً كان ، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصية يعدّها أو يميل الى أن يعدّها غير مألوفة ، خارقة ، كأنها تنتمي الى عالم الخيال ، كأنها معجزة من المعجزات ؟ وهذه الحادثة تكون حلماً رآه أو لقاءً وقع له ، أو نبوءة تنبأ بها ، أو احساساً سابقاً بأمر سيقع ، أو شيئاً من هذا القبيل • وانى محمول حتى الآن الى اعتبار لقائى هذا بصاحبى لامبير مشتملاً على شيء من ذلك ••• على الأقل اذا نحن نظرنا الى ظروف هذا اللقاء والى ما كان له من نتائج ضخمة • ولقد حدث هذا كله حدوثاً بسيطاً غاية البساطة ، من أحد الجوانب على الأقل : لقد كان لامبير عائداً من احدى مهماته الليلية (سنرى ماذا كانت تلك المهمة) ، وكان نصف سكران ، فلما توقف لحظةً أمام باب من الأبواب ، أبصرنى • ولم يكن قد انقضى على وجوده ببطرسبرج الا بضعة أيام •

الغرفة التى نُقلت اليها غرفة صغيرة ، أثاثها بسيط جداً ، مزودة بما تزوّد به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية • أما لامبير نفسه فكان يرتدى ثياباً فاخرة باذخة • وكان على أرض الغرفة حقيبتان لم تفرغا الا من نصف ما فيهما • وكان ركن من الغرفة محجوباً بحاجز يخفى وراءه السرير •

صاح لامبير منادياً :

ـ آلفونسين !

فأجاب من وراء الحاجز صـوت نسوى مرتعش يقول بلغة فرنسـية باريسية اللهجة :

ـ نعم !

وسمعت من وراء الحاجز حفيف قدمين عاريتين ، وما هى الا لحظة حتى ظهرت « مدموازيل آلفونسين » بقميص النوم • انسانة عجيبة : طويلة القامة نحيلة كعود يابس ، فتيـة ، سـمراء ، طويلة الوجـه ، عيناها تنطنطان ، وخداها خاسفان • مخلوقة بالية بلى رهيباً •

ـ أسرعى ! (أنا الآن أترجـم لأنه كلّـمها بالفرنسـية) • لابد أن عندهم سماوراً يعيرونه • اسرعى • هاتى ماءً ساخناً ونبيذاً أحمر وسكراً ، وقدحاً ، وأسرعى ، فانه متجلد من البرد • هو صديقى وقد قضى الليل فى الثلج •

فهتفت تقول بالفرنسية وهى تلوى يديها بحركة مسرحية :

ـ مسكين !

ـ هلمى ، هست •••

كذلك صرخ لامبير كأنه يكلم كلباً ، ولوّح لها بأصبعه مهدّداً • فسرعان ما كفّت عن حركاتها ، وركضت تنفذ ما أمرها به •

وأخذ لامبير يفحصنى ويمسنى ويجس نبضى ويلمس صدغىّ • ثم جمجـم يقول : « غـريب أنك لم تتجمد تجمـداً تاماً ••• ولكنك كنت مدفوناً فى معطفك مع رأسك ، فكان لك معطفك كجحر ••• » •

ووصـل كأس الماء المغلى ، فابتلعته بشراهـة ، فسرعان ما أنعشنى ، وعـدت أتمتم • كنت مضطجعاً فى الركن على الديوان نصف اضطجاع ، وكنت أتكلم نشوان بالكلام ، ولكننى لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول ،

بل ان هناك صفحات من ثرثرتي قد امحت الان من ذاكرتي امحاءً تاما .
هل فهم من كلامي شيئا؟ لا أدري. ولكنني أدركت فيما بعد انه لابد أن يكون قد فهم على الاقل أن لقاءه هذا بي امر لا ينبغي له أن يهمله ، وأن الابقاء على علاقته بي يمكن أن يجلب منه منافع . وسأشرح فيما بعد ما لعله أجراه من حساب .

لم أنتعش انتعاشاً قوياً فحسب ، بل أظن أنني كنت في بعض اللحظات مرحاً . انني أتذكر الشمس التي أضاءت الغرفة فجأة حين أزيحت الستائر ، وأتذكر المدفأة التي طقطقت نيرانها حين أشعلت . أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدري . وأتذكر الكلب الصغير الأسود الذي كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده الى قلبها بغنج ودلال . لقد سلاني هذا الكلب وأضحكني كثيراً ، حتى انني انقطعت عن الكلام ومددت اليه يدي مرتين ، ولكن لامبير أومأ ايماءة فاذا بآلفونسين وكلبها يختفيان فوراً وراء الحاجز .

وكان لامبير شديد الصمت ، وكان جالساً أمامي ينصت الى كلامي انصاتاً قوياً وقد مال عليّ فلا يبتعد عني . وكان يبتسم في بعض الأحيان ابتسامة طويلة بطيئة ، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينيه كمن يبذل جهداً من أجل أن يفهم وأن يحزر . أذكر أنني حين رويت له قصة « الوثيقة » لم أفلح في أن أعبِّر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة متسقة ، فكنت أرى في وجهي أنه لا يستطيع أن يفهم عني . حتى لقد جازف مرةً فألقى سؤالاً ، وكان هذا شيئاً خطراً ، لأنني كنت أغير موضوع الحديث متى أُلقي عليّ سؤال ، وأنسى ما كنت بصدد الكلام عنه . كم قضينا من الوقت على هذه الحال مسترسلين في الحديث ؟ لا أدري ، وهاهو ذا ينهض فجأةً وينادي آلفونسين فيقول لها :

ـ انه في حاجة الى هدوء . وقد نحتاج الى استدعاء طبيب . افعلي

كل ما يطلب ، أعنى ••• « تفهمين يا بنيتى ؟ هـل معـــك مال ؟ لا ؟ خذى اذن !

قال دلك وأخـرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات ، ثم همس يقول لآلفونسين وهو يلوّح لها باصبعه مهدّداً ويقطب حاجبيه بقسوة :

ـ « هل تفهمين ؟ هل تفهمين ؟ » •

ورأيت أنها كانت ترتعد أمامه ارتعاداً شديداً • وأردف يقول :

ـ سأرجع •

ثم اتجه الىّ فقال لى مبتسماً :

ـ أما أنت فعليك أن تنام • هذا خير ما تفعله •

وتناول قبعته • فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية :

ـ « ولكنك لم تنم البتة يا موريس ! » •

فأجابها بقوله :

ـ « اسكتى ! سأنام فيما بعد » •

وخرج •

همست تقول لى بنبرة التأثر وهى ترينى ظهرها :

ـ أُنقذت !

وسرعان ما أخـذت تخطب قائلة وقد انتصبت فى وسـط الغـرفة (بالفرنسية) :

ـ سـيدى ، سـيدى ، ما من رجـل كهذا الرجل كان قاسياً هذه القسوة كلها ، وكان بسماركاً الى هذا الحد ، فنظر الى المرأة نظرته الى

فاذوره ، ما امرأة في عصرنا هذا ؟ « اقتلها ! » هذه هي الكلمة الأخيرة التي قالتها اكاديمتنا الفرنسية !

حملقت عينيّ . انني أرى الشخص شخصين . انني ارى آلفونسينتين اثنتين . ولاحظت فجأة أنها تبكي . فارتعشت وأدركت أنها كانت تكلمني منذ مدة طويلة وأنني كنت اذن نائماً طوال ذلك الوقت ، أو كنت مغشياً عليّ .

وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية) :

ـ ... « وا أسفاه يا سيدى ، فيم كان يمكن أن يفيدني أن اكتشفه في وقت مبكر ... أفلم يكن من الخير لي أن أظل كاتمة عارى طوال حياتي ؟ قد لا يشرّف فتاة أن تشرح ما يدور في نفسها بمثل هذه الحرية أمامك يا سيدى ، ولكنني أعترف لك بأنني اذا سُمح لي أن أريد شيئاً ، فسوف يكون هذا الشيء هو أن أغمد في قلبه خنجري ، ولكن على أن أشيح عنه بصرى ، مخافة أن أرى نظرته فترتعش ذراعي وتتجمد عزيمتي ! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسي يا سيدى ، ونتف لحيته الحمراء من أجل أن يبيعها لفنان عند « جسر المارشالات » بقرب متجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية ، بضائع باريسية ، ملابس داخلية ، قمصان أنيقة ، تعرف يا سيدى ، أليس كذلك ؟ آه يا سيدى ، حين تضم الصداقة ، على مائدة واحدة ، زوجةً وأولاداً وأخوات وأصدقاء ، ويشتعل في القلب فرح قوى ... هل هناك يا سيدى سعادة أفضل من هذه السعادة التي ينعم بها جميع الناس ؟ ولكنه يضحك يا سيدى ، هذا الشيطان الكريه العجيب الذي لا يتصوره العقل . يمناً يا سيدى ، لولا وساطة مسيو آندريو ، لما .. آه .. مستحيل ، لما كنت .. ولكن ماذا يا سيدى ، ماذا بك ؟ ماذا بك يا سيدى ؟

كذلك هتفت تسألني ، ثم اندفعت اليّ . لعلني كنت أرتعد ، بل

لعلنى قد اغمى على • لا استطيع ان اصف الشعور الشاق الأليم الذى احدثته فى نفسى هذه المخلوقة نصف المجنونة • ولعلها تخيلت ان عليها آن تسليني وتسرى عنى• المهم أنها لم تتركنى لحظة واحدة• ولعلهاكانت تمثل فى الماضى • لقد كانت تنشد للامها انشاداً ، وتدور على نفسها ، وتتكلم بدون انقطاع ، على حين كنت قد صمت منذ مدة طويلة • كل ما استطعت أن أفهمه من أقوالها هو أنها كانت لها « علاقات وثيقة بمتجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية ، بضائع باريسية ، الخ » ، وأنها لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو » ، ولكن « هذا الشيطان الحانق الذى لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو اندريو الى الأبد » ، وتلك هى مأساتها •• انها تشهق وتنتحب ، ولكن بدا لى أنها لا تفعل ذلك كله الا تقيداً بالشكل • وشعرت فى بعض اللحظات أنها توشك أن تتهاوى متهشمة كهيكل من عظم • وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط ، فالألف الممدودة تخرج من حلقها كأنها ثغاء شاة • وحين أفقت من غيبوبتى رأيتها تستدير فى وسط الغرفة على رجل واحدة ، ولكن دون أن ترقص ، لأن استدارتها هذه كانت تمثيلاً يتصل بقضيتها • واندفعت فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدوزن ، كان بالغرفة ، ففتحته وأخذت تنقر على أصابعه وتغنى ••• أظن أننى غبت عن وعيى عشر دقائق أو أكثر ، وأننى نمت ، ولكن الكلب الصغير نبح ففتحت عينىّ ، وعاد الىّ شعورى كاملاً فأضاءنى بنوره كله لحظةً ، فانتفضت مذعوراً ، وأنا أقول لنفسى : « لامبير ، اننى عند لامبير » ، وتناولت قبعتى وارتميت على معطفى •

قالت لى آلفونسين اليقظة :

ـ « الى أين تذهب يا سيدى ؟ » •

فأجبتها :

ـ أريد أن أنصرف ، اريد أن أذهب ، لا تمنعينى !

فقالت آلفونسين مؤيدةً بقوة وهى تندفع لتفتح لى باب الدهليز :

ـ نعم يا سيدى !

ثم هتفت تقول بصوت عالٍ حتى يُسمع كلامها فى الدهليز كله :

ـ « ولكن المكان ليس بعيدا يا سيد ، فلا داعى الى ارتداء الفروة • انه قريب يا سيدى ! » •

فلما خرجت من الغرفة ، انعطفتُ يمنةً • فصاحت آلفونسين تقول بكل ما تملك من قوة وهى تتشبث بمعطفى بأصابعها الطويلة المعروقة وتدلنى باليد الأُخرى على مكان فى يسار الممر لم أكن فى حاجة الى الذهاب اليه البتة :

ـ « من هنا يا سيدى ، المكان من هنا ! » •

ولكننى أفلت منها وركضت الى باب الخروج نحو السلم • فأخذت الفونسين تصرخ قائلة بصوت مكسَّر وهى تركض ورائى :

ـ « انه ينصرف ! انه ينصرف ! ولكنه سيقتلنى يا سيدى ، سيقتلنى ! » •

ولكننى صرت على السلم ، واستطعت أن أفتح الباب فى أسفل رغم أنها كانت تلاحقنى على الدرجات ، ووثبت الى الشارع ، وسارعت أرتمى فى أول عربة ، ذاكراً للحوذى عنوان أمى •••

٤

ولكن شعورى ما ان أضاء لحظة حتى انطفأ • فلا أكاد أذكر الآن كيف نقلت الى بيت أمى ، وهنـاك لم ألبث أن غبت عن الوعى على الفور تقريباً • وفى الغد ، كما قيـل لى هذا فيما بعد (واننى لأتذكر ذلك أنا نفسى على كل حـال) أضـاء عقلى مرة أخرى لحظة • فرأيتنى فى غرفة فرسيلوف على ديوانه ، ورأيت حولى وجوه فرسيلوف و ماما و ليزا • وانى لأتذكر تذكراً واضـحاً كل الوضـوح كيف كلمنى فرسـيلوف عن تسرشتشيكوف والأمير ، وكيف أرانى رسالة وحاول أن يهدئنى • وقد رووا لى فيما بعد أننى كنت لا أنفك ألقى أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لامبير ، ولا أنفك أسمع نباح كلب صغير • ولكن هذا الشعاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم ، فلمـا كان المسـاء من ذلك اليوم الثانى كانت الحمى قد اجتاحتنى اجتياحاً تاماً • ولكننى أحب أن أسـتبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أننى لم أستطع أن أعبها على الفور •

فى ذلك المسـاء الذى طردت فيه من عند تسرشتشيكوف ، وحين هدأ فى الصالة كل شىء ، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب ، أعلن فجأة بصوت مدو ، أن خطأ مؤسـفاً قد وقع : فالمال المفقود ، أى الأربعمائة روبل ، قد عثر عليه فى كومة أخـرى من المال ، وأجريت حسـابات البنك فاتضح أنها كاملة لم ينقص منها شىء • فاذا بالأمير ، وكان قد بقى فى الصالة ، اذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يعلن براءتى على رءوس الأشهاد ، وأن يعبر لى عدا ذلك عن اعتذاره كتابة • وراى

تسرشتشيكوف أن هذا الطلب مشروع ، وتعهد امام الجميع بان يبعث الى في الغد رسالة ايضاح واعتذار • وقد زوّده الأمير بعنوان فرسيلوف منذ الغد فعلاً ، وتلقى فرسيلوف من تسرشتشيكوف رسالةً موجهةً اليّ ، ومعها مبلغ يزيد على ألف وثلاثمائة روبل ، هو مالٌ لى نسيته على مائدة الروليت • كذلك انتهت قضية تسرشتشيكوف • وقد أسهم هذا النبأ المفرح في ابلالى من المرض حين عاد اليّ شعورى •

أما الأمير فانه حين رجع من صـــالة القمار قد كتب في تلك الليلة رسالتين ، احداهما اليّ والثانيــة الى الكتيبة التى كان ينتمى اليهــا والتى وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية سيتبانوف • وقد بعث الرسالتين كلتيهما في صباح الغد • وبعد الرسالتين كتب تقريرا الى رؤسائه ، وجاء الى الكولونيل في الصباح حاملاً تقريره بنفسه ، فأعلن للكولونيل أنه « مجرم من مجرمى الحق العام ، وشريك في جناية تزييف أسهم ، فهو لذلك يسلّم نفسه للعدالة ، ويطالب بأن يحكم عليه القضاء » ، وفى الوقت نفســه سلّم التقرير الذى يعرض فيــه كلّ شيء كتــابةً • فأودع السجن •

واليكم نص الرسالة التى كتبها لى في تلك الليلة كلمةً كلمة :

عزيزى الغالى آركادى ماكاروفتش !

« اننى ، وقد جرّبت المخرج « العامى » ، قد فقدت الحق في أن أواسى نفسى أية مواســاة بأننى استطعت أخيراً أن أعزم أمرى على القيام بعمل شجاع وعادل • اننى مجـرم في حق الوطن وفى حق السلالة التى أنحدر منها وأنتمى اليها، لذلك أعاقب نفسى بنفسى، أنا آخر أفراد هذه السلالة • لست أفهم كيف أمكننى أن أتشبث بغريزة البقاء الدنيئة ، وأن

أفكر لحظةً في أن أفدى نفسي بمالٍ أدفعـــه لشركائي في الجريمـة . فلو فعلت ذلك لبقيت في نظر نفسي مجـرماً رغم كل شيء . ولو ردَّ اليَّ أولئك الناس رسائلي لظللت قلقاً طوال حياتي ، فلا راحة ! ماذا يبقى لي لو فعلت ذلك ؟ أعيش معهم ، وأرافقهم طوال عمري : ذلك هو المصير الذي كان ينتظرني ! فما كان لي أن أرضى بهذا . وأخيراً وجدت في نفسي من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتيح لي أن أفعل ما أفعله الآن .

« لقد كتبت الى كتيبتي الســـابقة ورفاقي القدامى مبرئاً ستيبانوف . وليس في هذا أي مأثرة تكفر عن ذنبي ، ولايمكن أن يـكون فيـه أي مأثرة تكفر عن ذنبي : وانما هي وصـية رجل سيموت غداً . هكذا يجب أن يُفهم عملي » .

« اغفر لي أنني أشحت عنك في صـالة القمار . ذلك أنني لم أكن في ذلك الوقت واثقاً بك . الآن وأنا رجل ميت ، أستطيع أن أدلي بهذه الاعترافات ... من العالم الآخر » .

« مسكينة ليزا ! انهـا لم تعرف شـيئاً عن هـذا القرار . فقل لهـا ألا تلعنني ، بل أن تفكر . انني لا أستطيع أن أبرىء نفسي ، ولا أجد كلمات أشرح لها بها أي شيء . واعلم أيضاً ، يا آركادي ماكاروفتش ، أنني في صباح أمس ، حين جاءت تزورني آخـر مـرة ، كشفت لها عن خداعي ، فاعترفت بأنني ذهبت الى آنا آندريفنـا خاطبـاً . لم أستطع أن أبقي هذا السرَّ حملاً ثقيلاً على ضميري قبل قراري الأخير الذي كنت قد اتخـذته ، فلم يسعني الا أن اكشف لهـا عنه حين رأيت حبها . وقد

غفرت لى ، غفرت لى كل شىء ، لكننى لم أصـــدقها . ليس هذا منها غفراناً . فلو كنت فى مكانها لما غفرت .

« تذكرنى .

صديقك الأمير الأخير التعيس

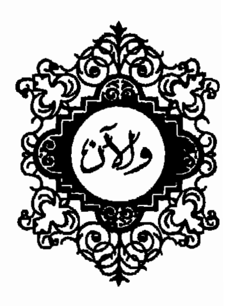
سوكولسكى

وقد بقيت فى سريرى بلا شعور تسعة أيام تماماً .

الجزء الثالث

الفصل الأول

١



فلنتكلم عن غير هذا تماماً .

الحق أنني أقول دائماً « فلنتكلم عن غير هذا » ، ثم اذا أنا أعود الى الكلام عن نفسي . كنت قد أعلنت مع ذلك ألف مرة أنني لا أنتوي أبداً أن أحكي عن نفسي ، وكنت قد عزمت أمري على ذلك جازماً حين بدأت تدوين هذه الأمـور : انني أدرك حق الادراك أن ما يحـدث لي لا يهـم القـارىء في شيء . فأنا أصف غيري وأريد أن أصف غيري ، فاذا كان شخصي يعود فيندس تحت قلمي دائماً ، فليس ذلك الا خطأ يؤسف عليه ، ويستحيل الافلات منه رغم كل ما أملك من ارادة ورغبة . ومما يحز في نفسي خاصـةً أنني حين أروي أحداث حياتي بمثل هذه الحرارة المتأججة كلها أوهم القارىء بذلك أنني لا أزال الآن كمـا كنت في ذلك الوقت . ولكن القارىء يتذكر على كل حال أنني هتفت أقول غير مرة : « آه ... ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضي وأن يبـدأ كل شيء بداية جـديدة ! » فما كان لي أن أهتف ذلك الهتاف لولا أنني قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً ، ولولا أنني أصـبحت شخصـاً آخـر يختلف عن الشخص الأول كل الاختـلاف . ذلك واضح وضوحاً قوياً . ولكن ليت القارىء يستطيع أن يتصـور مدى ما أشـعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه الاعتذارات وهذه المقدمات التي أضطر أن أدسّها كلّ لحظة في وسط هذه الصفحات التي أدونها .

ولا نتنقل من بعد الى الوقائع .

أفقت من غيبوبتي بعد تسعة أيام ، أفقت وقد بعثت بعثاً جديداً ، ولكنني لم أصلح . وكان انبعاثي حيوانيـا على كل حال ، اذا نحن فهمنا هذه الكلمة بمعناها الواسع ، ولعل الأمر لو تمّ الآن لجرى مجرى آخر . وكانت فكرتي أو عاطفتي لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصب على ضرورة أن « أتركهم » كلهم تركاً تاماً ، تركاً حاسماً مطلقاً ، لا كما حدث من قبـل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أفلح في تنفيذه أبداً . يمينا لم أكن أريد أن أنتقم من أحد ، رغم أنني كنت اشتكي منهم جميعاً . وكنت أهيىء نفسي للرحيل دون اشمئزاز ، ودون لعن ، وانما أنا أريد أن تكون لي قوتي الشخصـية ، قوتي الحقيقية في هذه المرة ، قوتي المستقلة « عنهم » جميعاً وعن العالم بأسره ! انني لا أسجل هذا الحلم كفكرة بل كاحسـاس عارم لا يغالب سيطر عليّ في ذلك الوقت . وكنت لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم في كلام ما بقيت راقداً في السرير . كنت أحس وأنا مريض خـائر القوى راقـد في غـرفة فرسـيلوف مهجـور « منهم » جميعاً ، كنت أحس مدى ما هويت اليه من عجز ، فيؤلمني ذلك ايلاماً شديداً : كنت قشةً ملقاة على سرير ، لا انساناً ! ولم يكن المرض وحده سبب ذلك ، فما أشد ما أورثنيه هذا من عذاب ! هكذا أخذ يصعد من أعماق كيـاني احتجـاج قوي ، فكنت أختنق في قرارة نفسي نوعاً من وقاحة مغالية وتحدٍ شـديد . لا أذكر أن عهداً من عهود حياتي قد حفل بمشاعر الاسـتعلاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتي ، أعني الفترة التي كانت فيها القشة ملقاة على السرير .

ولكنني كنت بانتظار تحقيق حلمي ألتزم الصمت ، حتى لقد قررت ألا أفكر في شيء ! كنت أسـبر وجوههـم محـاولاً أن أحزر فيها كل ما كنت في حاجة اليه . وكان واضـحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن

يسائلوني ، ولا ان يظهروا بمظهر المستطلعين ، وانما هم يكلمونني في أمور ليست بذات بال • فكان هذا يرضيني ويحزنني في آن واحد • ولن أحلل هذا التناقض • وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما ، رغم أنها تجيء اليّ كل يوم ، وربما جاءت في اليوم مرتين • وقد استخرجت من شذرات من أحاديثهم ومن هيئتهم كلها أن لليزا هموماً ومتاعب كثيرة ، وأنها تغيب عن البيت أحياناً كثيرة جدا بسبب مشاغلها ، فكان مجرد تفكيري في أن لها « مشاغل » خاصة بها يجرح شعوري ويؤذي نفسي • ولكن هذه الاحساسات كانت احساسات مرضية على كل حال ، احساسات فزيولوجية صرفاً ، فلا داعي الى وصفها • وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً تجيء اليّ كل يوم تقريباً ؛ ولئن لم تكن تعاملني برقة ولطف ، فانها لم تكن تشتمني كما كانت تفعل من قبل ، وهذا أمر أغاظني كثيراً ، حتى لقد عبّرت لها عن غيظي بسذاجة فقلت لها : « أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملة مضجرة اذا لم تنطقي بشتائم ! » فاذا هي تجيبني بلهجة قاطعة : « لن أجيء اليك اذن ! » • وانصرفت • فسرّني أنا أني طردت واحدة على الأقل •

ولكنني كنت أعذّب أمي خاصة • كانت أمي هي التي تحنقني أكثر من غيرها • كانت قد استبدت بي شهوة الطعام استبداداً قوياً ، فكنت أتذمر تذمراً شديداً من أن وجبتي تتأخر دائماً (وهذا ما لم يحدث في يوم من الأيام) • وكانت أمي تتفنن في تخيل ما يرضيني • وقد جاءتني مرةً بالحساء ، وأخذت تطعمنيه بيدها على عادتها ، فكنت أتذمر وأنا ألتهمه • وفجأة خجلتُ من تذمري وقلت لنفسي : « ربما كانت هي الوحيدة التي أحبها ، ومع ذلك فهي التي أسومها سوء العذاب » • ولكن فظاظتي لم تهدأ ، ثم اذا بهذه الفظاظة تتحول الى بكاء فجأة • فظنت المسكينة انني أبكي حناناً ورقة ، فمالت عليّ وطفقت تقبلني • فصبرت ، وتركت

للزوبعة أن تنقضي ، ولكنني في تلك اللحظة قد كرهت أمي في الواقع . والحق أنني قد أحببتها دائماً ، وحتى في تلك اللحظة كنت أحبها ، فليس صحيحاً أنني كرهتها ، وانما حدث عندئذ ما يحدث دائماً : ان الذي نحبه أكثر من غيره نعذبه قبل غيره .

والشخص الذي كنت أبغضه حقاً في تلك الأيام الأولى انما هو الطبيب . كان هذا الطبيب شابا متعجرف الهيئة ، شرس اللهجة ، بل قليل التهذيب . ان أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق في العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب ، ولا يكون الأمس القريب قد شهد شيئاً ذا بال . ولكن هذا شأن « التافهين » و « العاميين » . وقد صبرت عليه طويلاً ولكنني انفجرت أخيراً على حين بغتة ، فأعلنت له أمام جميع من في الدار أنه يزعج نفسه في غير طائل ، وانني سأشفى بدون أن يكلف نفسه عناء مداواتي ، وأنه رغم ما يتظاهر به من أنه واقعي، محشو العقل بالأوهام، وانه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف أحداً من مرض في يوم من الأيام ، وأنه في أغلب الظن جاهل جهلاً فاحشاً ، « كسائر اختصاصيي هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً » . وقد استاء الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته) ، ولكنه ظل يعودني . وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أنني ، اذا لم ينقطع الطبيب عن زيارتي ، فلأقولنّ له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة أضعاف . فأجابني ان قول كلام أغلظ ضعفين اثنين أمر مستحيل ، فما بالك بكلام أغلظ عشرة أضعاف ! فسرّتني ملاحظة فرسيلوف هذه .

يا له من انسان على كل حال ! أقصد فرسيلوف . لقد كان وحده سبب كل شيء . ومع ذلك كان الوحيد الذي لم أغضب منه . وليست معاملته وحدها هي التي فتنتني ، وانما كان كل منا يحس أن عليه ايضاحات يجب أن يقدمها لصاحبه ، فالأفضل لهذا السبب ألا يوضع أحد لأحد

شيئاً قط . انه لشيء ممتع فى ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً ! سبق أن قلت ، فى الجزء الثانى من روايتى ، مستبقاً الأمور ، ان فرسيلوف كلمنى بايجاز شديد عن رسالة بعثها الى الأمير المعتقل ، وعن تسرشتشيكوف واعتذاره لى ، الخ . واذ أننى كنت قد أزمعت الصمت ، فقد ألقيت عليه ، بأشد ايجاز ممكن ، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة ، فأجاب عنها اجابات واضحة دقيقة ، ولكن دون أن تشتمل اجاباته على كلمات زائدة ، ودون أن تشتمل على عواطف زائدة ، وهذا أعلى قيمة أيضاً . ان العواطف الزائدة هى ما كنت أخشاه فى ذلك الحين .

ولست أقول شيئاً عن لامبير ، ولكن لاشك أن القارىء قد حزر أننى كنت أفكر فيه كثيراً . لقد تكلمت عن لامبير أثناء الهذيان مراراً . ولكن حين أفقت من غيبوبتى ، وألقيت بضع نظرات حولى ، فاننى سرعان ما اعتقدت أن حكاية لامبير لا تزال سراً ، وأن أحداً لا يعرف عنها شيئاً ، حتى فرسيلوف . فاغتبطت لهذا وانقضى خوفى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين علمت فيما بعد أننى كنت مخطئاً فى اعتقادى : لقد جاء لامبير أثناء مرضى ، غير أن فرسيلوف لم يحدثنى عن مجيئه بشىء ، فاستنتجت من ذلك أننى الآن فى نظر لامبير قد انتقلت الى العالم الآخر . ومع ذلك كنت أفكر فيه فى كثير من الأحيان ، أفكر فيه بغير اشمئزاز منه ، بل أفكر فيه بمودة له ، كأننى أحس فيه شيئاً جديداً يلبى ما أخذ ينشأ فى نفسى من مشاعر جديدة وخطط جديدة . الخلاصة أننى قررت أن أفكر فى لامبير قبل أن أفكر فى أى شىء آخر متى عقدت العزم على الشروع فى التفكير . شىء غريب : لقد نسيت نسياناً تاماً أين يسكن ، وفى أى شارع جرى كلُّ الذى جرى . كنت أتذكر كل شىء : الغرفة ، آلفونسين ، الكلب الصغير ، الدهليز؛ حتى لقد كان يمكننى أن أرسم هذا كله لو شئت . ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها ؟ فى أى شارع ؟

في أية عمارة ؟ لا أدري ! نسيت نسياناً تاماً . والأغرب من هذا انني لم أدرك ذلك الا في اليوم الثالث أو الرابع من عودة شعوري الي ، أي بعد انقضاء مدة طويلة على شعوري بالقلق من لامبير .

تكلم هي اذن احساساتي الأولى بعد انبعاثي ، لم أذكر منها الا أكثرها سطحية ، ولعلني لم أستطع أن أذكر منها الشيء الأساسي . والحق أن الشيء الأساسي لعله تحدد وتبلور في قلبي في ذلك الأوان نفسه ؛ انني لم أقض وقتي كله في الغضب والحنق من تأخر وصول حسابي . آه .. انني لأتذكر كم كنت حزيناً ، وكم كان يستبد بي السأم أحياناً ، ولاسيما حين أبقى وحيداً خلال مدة طويلة . كانوا قد لاحظوا ، هم ، أنني أضيق ذرعاً بهم وبشفقتهم ، فكانوا يتركونني وحيداً فترات ما تنفك تزداد : افراط في الذوق !

٢

في اليوم الرابع من صحوى الكامل ، كنت راقداً على سريرى فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يكن معى أحد . كان الجو رائقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات ، وأن شعاعاً مائلاً أحمر سيسقط على زاوية جدارى ، فيضيئها ببقعة متوهجة . كنت أعلم هذا من الأيام السابقة ، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سيحدث بعد ساعة حتماً ، فكان يقينى من ذلك يسخطنى الى حد الحنق الشديد . ولذلك رأيتنى أنقلب الى الجهة الأخرى بحركة متشنجة ، فاذا أنا فجأة ، فى الصمت العميق ، أسمع هذه الكلمات سماعاً واضحاً : « يا ربنا يسوع المسيح ، يا الهنا ، ارحمنا » نطقت هذه الكلمات بما يشبه الهمس ، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقة ، ثم عاد كل شيء الى الصمت . فأنهضت رأسى بسرعه .

وكنت قبل ذلك ، أمس ، بل أمس الأول ، قد لاحظت أن فى غرفنا الثلاث ، تحت ، شيئاً خاصاً . فلابد أن الغرفة الصغيرة التى كانت تقيم فيها ماما وليزا ، على الجهة الأخرى من الصالة الكبيرة ، تضم الآن شخصاً آخر . وكنت قد سمعت بعض الأصوات عدة مرات ، فى النهار وفى الليل ، ولكن خلال لحظات قصار دائماً ، فسرعان ما كان الصمت يخيم من جديد ساعات عدة ، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتبهت اليه . وخطر ببالى أمس أن فرسيلوف هو الذى أحدث تلك الأصوات ، لا سيما وأنه جاء الىّ بعد لحظة . ومع ذلك كنت أعلم من أحاديثهم علم اليقين أن

فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضى الى غرفة أخرى يبيت فيها • أما ماما وليزا فكنت أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلتاهما (من أجل هدوئى وراحتى فيما اعتقدت) الى الطـابق الأعلى ، الى « تابوتى » القـديم ، حتى لقد تساءلت بيني وبين نفسي ذات يوم : « كيف أمكنهما أن تقيما فيه كلتاهما ؟ »• ثم هأنذا أتبينّ فجـأة أن غرفتهما التى كانتـا تقيمان بها انما يسكنها اليوم شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخـر ليس فرسـيلوف • وهأنذا ، بخفة لم أكن أظنهـا فى نفسى (اذ كنت أتصـور حتى ذلك الحين أننى لا أملك أية قوة) ، أُخرج ساقىّ من السرير ، وأدسهما فى بابوجين ، وألقى على كتفى ثوباً للمنزل رمادى اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان على مقربة منى (ضـحى به فرسيلوف) ، وأسير عبر الصالون متجها الى الغرفة التى كانت تسكنها أمى من قبـل • ان ما رأيتـه هناك قد شدهنى وأذهلنى • لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت ، فوقفت فى العتبة كالمتسمر •

ان فى الغرفة شيخاً أشيب الشعر تماماً ، له لحية بيضاء بياضاً هائلاً ، كان واضـــحاً أنه مقيم هنـا منذ مدة طويلة • ولم يكن الشيخ جالساً على السرير ، وانما هو جالس على كرسىّ ماما ، مسـتند الى السرير بظهره فحسب ؛ وكان عدا ذلك منتصب الجذع فى جلسته ، فكأنه ليس فى حاجة الى أى استناد رغم ما به من مرض بينّ لايخفى • وكان يرتدى فوق قميصه سـترةً مبطنة بفـراء خروف ، ويغطى ركبتيه بشـال لأمى ، وينتعل بابوجين • لابد أنه طويل القامة • وهو عريض المنكبين ، تدل هيئته على شكيمة قوية ، رغم مرضه ورغم شيء من الشحوب والنحول ؛ وهو بيضوى الوجه ، شعره غزير ولكنه ليس طويلاً جداً ؛ ويبدو أنه تجاوز السبعين من عمـره • وعلى مقـربة منه ، فوق مائدة صغيرة فى متناول يده ، ترقد ثلاثة كتب أو أربعة ، ونظارتان من فضـة • فما ان أبصرته حتى حزرت من هو ، رغم أننى لم يخطر ببـالى لحظةً واحدةً أن ألقـاه ، ولكننى

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يقضى هذا الوقت كله بجوارى مستخفياً هذا الاستخفاء الذى بلغ من الشدة أننى لم يدر فى خلدى وجوده .

لم يتحرك حين رآنى ، وانما نظر الىّ ملياً بصمت ، ونظرت اليه أنا كذلك ، مع فارق واحد هو أننى أظهرت دهشةً شديدة ، أما هو فلم يظهر أية دهشة . حتى انه بعد أن تفرس فىّ خلال خمس ثوان أو عشر ، ابتسم فجأة ، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك ، ضحكة سرعان ما انقضت ، ولكن بقى أثرها المضىء الفرح فى وجهه ، ولا سيما فى عينيه ، الزرقاوين جداً ، المشعتين ، الواسعتين ، اللتين يعلوها حاجبان منتفخان متهدلان من الشيخوخة ، وتحيط بهما غضون صغيرة لانهاية لعددها . ان ضحكته خاصةً هى التى أثرت فى نفسى .

اننى أرى أن الانسان حين يضحك يكون منظره منفّراً فى أكثر الأحيان . فالضحك يبرز فى العادة لدى الناس نوعاً من العامية والتدنى ، وان كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثر الذى يحدثه فى نفوس الآخرين . انه يجهل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم . فمن النائمين من تبقى وجوههم ذكيةً ، ومنهم من تصبح أثناء النوم غبيةً فمضحكةً رغم أنهم أذكياء . لا أدرى سبب هذه الظاهرة . كل ما أريد أن أقوله هو أن الضاحك ، كالنائم ، لايعرف عن وجهه شيئاً فى أكثر الأحيان . هناك كثرة كبيرة من الناس لا تجيد الضحك البتة . والحق أن الأمر ليس أمر اجادة يحصّلها المرء بالمران ، وانما الضحك موهبة يؤتاها المرء فطرةً ، فاذا أراد أحد أن يحصّل هذه القدرة على اجادة الضحك كان عليه أن يربى نفسه تربية جديدة ، وأن يحسّن ذاته ، وأن ينتصر على غرائزه السيئة ، فاذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه . ومن الناس من يفضحهم ضحكهم ، فمتى رأيتهم ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه بطونهم . فرب ضحكة ذكية حقاً ثم هى تنفرك مع ذلك أحياناً . ان

الضحك يقتضي الصراحة قبل كل شيء : فاين الصراحة في البشر ؟ والضحك يقتضي نفساً طيبة كريمة ، والناس في أكثر الأحيـان انما يصـدرون في ضحكهم عن خبث وشر • والضحك الصريح الذي لا شرَّ فيه فرح : فأين الفرح في زماننـا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون ؟ (هذه الملاحظة عن الفرح في زماننا انما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها) • فرح الانسان هو السمة التي تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته ، الى جانب رجليه ويديه • هنـاك طبـاع لا تستطيع أن تنفذ اليها ، فاذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة ، رأيت طبعه مبسـوطاً أمام بصرك فوراً • لا أحـد الا أولئك الذين ينعمون برقي رفيع سعيد ، يمكن أن يفرح فرحـاً معبرا سـارياً ، فرحاً طيباً لا سبيل الى مقاومة فتنته • ولست أقصد هنا رقي الذكاء والعقل بل رقي الطبع والخلق ، أعني رقي الانسان كله جملةً • لذلك اذا أردت أن تدرس امرأ وأن تعرف نفسه فلا تنتبه الى طريقته في الصمت ، أو في الكلام ، أو في البكاء ، أو حتى في تأثره بأنبل المعاني والأفكار ؛ وانما انظر اليه حين يضحك • فاذا أحسن الضحك فهو امرؤ طيب • وعليك أن تلاحظ الفروق الطفيفة : يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غبياً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريئاً وساذجاً • فمتى لاحظت في ضحكه أية علامة من علامات الغبـاء فاعلم أنه انسان محدود العقل ، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة • واذا لم يكن ضحكه غبياً ، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجـأة ، فاعلم أن هذا الانسـان لا يحترم نفســه احتراماً حقيقياً ، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً • واذا كان هذا الضحك معبرا وسارياً ولـكن بدا لك عاميـاً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية ، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو انما كان مقصوداً أو مصطنعاً أو مستعاراً على غير شعور منه ، وأن الرجل سيرتد حتماً الى

طبيعته السيئة ، فيهتم بما يعود عليه « بارباح » ، وينبذ أراءه السمحه الكريمة نبذاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ويعدُّها من أخطاء الشباب وحماساته .

اذا كنت أسهب هذا الاسهاب الطويل فى الكلام عن الضحك مضحياً بمواصلة سرد قصتى فلست أفعل ذلك استطراداً بغير نية . اننى أعد هذه الآراء نتيجةً من أثمن النتائج التى استخلصتها طوال حياتى . واننى أوصى بها الفتيات المخطوبات اللواتى يوشكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن مازلن يتفرسن فيه بشك وحيرة ولمّا يعزمن أمرهن بعد . ألا لا تسخروا من مراهق يتصدى لاعطاء دورس فى أمور الزواج التى لا يفهم منها شيئاً . اننى أعرف شيئاً واحدا لا أكثر : هو أن الضحك أضمن مقياس تُعرف به النفس . انظروا الى الأطفال : ان بعضهم يحسنون الضحك احساناً تاماً ، وهذا هو السبب فى أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فتنتهم . ان الطفل البكّاء كريه الى نفسى ، أما الطفل الذى يضحك ويبتهج فانه شعاع من الجنة ، واطلالة على المستقبل الذى سيصبح فيه الانسان آخر الأمر طاهراً طهارة طفل ، ساذجاً سذاجة طفل .

ولقد كان فى الضحكة العارضة التى ضحكها ذلك الشيخ شيء من طفولة لا حدود لفتنتها . فسرعان ما دنوت منه .

٣

قال لى بلطف وهو يشـير الى مكان بقربه ، ويرمقنى بتلك النظرة المشعة نفسها :

ـ اجلس ، اجلس لحظةً ، فلا تزال ساقاك ضعيفتين .

فجلست الى جانبه وقلت له :

ـ اننى أعرفك . أنت ماكار ايفانوفتش .

ـ نعم يا عزيزى . حسن أنك تقف الآن على قدميك . انك شاب . هذا حسن لك . للشيخ القبر ، وللشاب الحياة .

ـ هل أنت مريض ؟

ـ نعم يا صديقى ، الساقان خاصةً . حملتنى ساقاى المسكينتان حتى وصلت الى هنـا ، ولكن ما لبثتا أن تورمتـا منذ جلست . بدأ هذا يوم الخميس الماضى ، حين وقف الترمومتر (ملاحظة : يقصد حين تجلد من البرد) . كنت قبـل ذلك أدهنهما بمرهم . الدكتور لشتن ادمـوند كارلوفتش هو الذى وصف لى ذلك المرهم بموسـكو منذ ثلاث سـنين ، وكان ذلك المرهم ينفعنى كثيراً . ومنذ أمس ، سرى الوجع الى الظهر ، حتى لكأن الكلاب تنهش ظهرى نهشاً ... وصرت لا أنام الليل ..

قاطعته سائلاً :

ـ وكيف لا يُسمع لك صوت هنا البتة ؟

فنظـر الىّ وبدا مفكراً ، ثم أضـاف يقول كأنما وافتـه ذكرى مباغتة :

ـ حذار أن توقظ أمك . لقد ظلت تضطرب حـولى طول الليـل ، ولكن بدون أن يُسمع لهـا أى صوت ، كما لا يسمع صوت لفراشة . وهى الآن ترتاح .

وتنهد قائلاً :

ـ شىء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً . لا أدرى بمن تتشبث روحى ، ولكنها لا تزال صامدة ، وهى سعيدة بأن تبقى فى هذا العالم ، بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من ذلك . ولكن لعل مثل هذه الفكرة اثم .

ـ لماذا تكون اثماً ؟

ـ هذه الفكرة حلم ، وعلى الشيخ أن يمضى الى نهايته . نعم ان استقبال الموت بتذمر أو استياء اثم كبير . على كل حال ، اذا كان حب الحياة ناشئاً عن فرح روحى ، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ . يصعب على الانسان أن يعرف الفرق بين ما هو اثم وما ليس باثم . هذا سر يفوق العقل الانسانى . وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى ، وأن يموت مغموراً بضياء روحه ، سـعيداً بما قضى من أيام ، متطلعـاً الى سـاعته الأخيرة ، فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم الى باقة السنابل ، بعد أن حقق سرّه .

ـ أراك تتكلم دائمـاً عن السر . فمـا الذى تعنيـه بقولك : « حقق سره » ؟

سألته هذا السؤال وأنا ألقى نظرة على البـاب . كنت سـعيداً بأننـا وحيدان ، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء . وكانت الشمس تسطع قوية على النافذة قبل أفولها . وكان الشيخ يتكلم بشىء من التفخيم وبدون دقة

كأنه كان فرحاً بوجودي حقاً ٠ ولكنني لاحظت أنه يعاني من حمى لا شك فيها ، بل يعاني من حمى قوية ٠ وكنت مريضـاً أنا أيضاً ، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه ٠ قال :

ــ ما هو السر ؟ كل شيء سر يا صـديقي ٠ سر الله موجود في كل مكان ٠ كل شجرة ٠ كل عشبة تشتمل على سر ٠ أن يغرد طير صغير ، وأن تسطع النجوم متلألئة في الليل ، فذلك كله سر ، ذلك كله سر واحد ٠ ولكن ما ينتظر نفس الانسان في العالم الآخر هو سر الأسرار ، هو أكبر الأسرار ٠ هكذا يا صديقي !

ــ لا أدري ماذا تعني ٠٠ وثق انني لا أقول هـذا الكلام مناكدةً لك، وثق أنني أؤمن بالله ٠ ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشفعنها العقل منذ مدة طويلة ، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشـفه يوماً ــ هذا مؤكد حتماً ــ وربما اكتشفه في وقت قريب ٠ عالم النبات يعرف تماماً كيف تنبت الشجرة ، وعالم الفزيولوجيـا وعالم التشريح يعـرفان لماذا يغـرد الطائر ، أما النجـوم فقد أُحصي عـددها ، بل حُسبت كل حـركة من حركاتها حتى ليمكن التنبوء بظهـور أي مذنب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة ٠ وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً ٠ خذ مجهراً ــ المجهر عدسة مكبرِّة تضخم الأشياء مليون مرة ــ وانظر في قطرة ماء ٠ ولسوف ترى في قطرة الماء عالما كاملا يعـج بالمخلوقات الحية ، وكان ذلك سرا فاكتشفناه ٠

ــ سمعت أناسـاً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يابني ٠ لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش ٠ كل شيء وُهب للانسان بارادة الله ٠ ليس عبثاً أن أعطى الله الانسان نسمة الحياة : « عش واعرف » ٠

ــ هذه معان تلوكها جميع الألسن ٠ ما أنت مع ذلك بعدو من أعداء العلم ، ما أنت كهنوتي ؟ أعني ٠٠٠ لا أدري هل تفهم ٠٠٠

ـ لا يا بنى ، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً ، واذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فانني لا أناصبه العداء . مالم يوهب لنا قد وهب لآخرين . ولعل في هذا خيراً : كل امرىء ميسر لما خلق له . ذلك أن العلم يا بنى ليس دائماً ميزة . فمن الناس من ينقاد للرغبة في ادهاش العالم ، فلو كنت عالماً فقد أرغب في ذلك أكثر من سائر البشر . أما وأنني جاهل فكيف يمكنني أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب ملىء ذكاء. وذلك قدرك . فعليك بالدراسة . حاول أن تعرف كل شىء ، فاذا لقيت رجلاً زنديقاً أو رجلاً تافهاً كان في وسعك أن ترد عليه ، ولا يغرنّك بأقوال باطلة تعكر عقلك الغض . أما تلك العدسة التي جئت على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة كثيراً .

قال ذلك واسترد أنفاسه وتنهد . ولا شك أن مجيئي اليه قد سرّه سروراً عظيماً . كانت تعتمل في نفسه حاجة قوية الى البوح ، حاجة تكاد تكون مرضية . زد على ذلك أنني لا أظنني مخطئاً اذا قلت انه كان في بعض اللحظات ينظر اليّ نظرات تزخر بعاطفة قوية : كان يضع يده على يدي بحنان ، ويلاعب كتفي ... ولكن يجب أن أعترف أنه كان في لحظات أخرى يبدو كمن نسيني نسياناً تاماً ، فكأنه وحيد في الغرفة ، فاذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه .

تابع يقول :

ـ ان في دير جناديفا ـ بوستين ، يا صديقي ، رجلاً عظيم الذكاء ، نبيل الأصل ، واسع الثراء ، برتبة ليوتنان كولونيل . لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش في المجتمع . وهو الآن في الدير منذ قرابة عشر سنين ، انفصل عن الناس حباً بالسكون والوحدة وأراح حواسه من أباطيل الحياة الاجتماعية . انه يلتزم جميع قواعد الحياة الرهبانية ، ولكنه لا يريد أن يرتدي مسوح الرهبان . وما أكثر ما عنده

من كتب يا صـــديقى ! اننى لم ار هــذا القــدر من الكتب فى أى مكان الا عنده ! ثمنها يبلغ ثمانية آلاف روبل • هو قال لى ذلك • اسمه بطرس فالرياتتش • وقد علّمنى أشياء كثيرة فى فترات مختلفة ، فطالما كنت أحب أن أصغى اليه • قلت له ذات مرة : « كيف يا سـيدى وأنت رجل عظيم الفكر يعيش منذ عشر سنين فى طاعة النظام وهجر الارادة والتنازل عن الرغبة ، كيف لا تتمنى أن ترتدى المســوح فتزداد كمالاً ؟ » فقال لى : « كيف يا شيخ تجـرؤ أن تزعم لى فكراً عظيماً ؟ لعـل فكرى هو الذى أسرنى واستعبدنى بدلاً من أن أروّضه وأسيطر عليه • وما هذا الذى تقوله عن طاعتى ؟ لعلنى منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال ! وتتكلم أيضاً عن هجرى ارادتى وتنـازلى عن رغبتى ؟ فاعلم اذن أننى مستعد لأن أدع على الفور مالى ، وأن أردّ رتبى ، وأن أضع على هذه المائدة جميع أوسمتى •• ولكن غليونى •• هأنذا منـذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع الاستغناء عنه ! فأىّ راهب يمـكن أن أكون ، وأين هجـر الارادة الذى تمدحه فىّ ؟ » دُهشت عندئذ من هذا التواضع • وقد مررت بذلك الدير فى الصيف الماضى يوم القديس بطرس ــ أراد الله لى ذلك ــ فماذا رأيت فى الحجرة ؟ رأيت ذلك الشيء الذى حدثتنى عنه : مجهراً كان الرجل قد استقدمه من الخارج وتحمل فى سبيل ذلك نفقات ضخمة • قال لى : « انتظر قليلاً ، سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره فى حياتك حتى الآن • هل ترى هذه القطرة من الماء ؟ انها صـافية رائقـة كدمعـة • فانظر اذن الى ما فى داخلها • لتجدنّ أن علماء الميكانيكا سـيكشفون قريبـاً عن جميع أسرار الرب •• فلا يدعون منها واحداً » • هذا ما قاله وقد حفظته • وكنت أنا قد نظـرت فى المجهـر قبـل ذلك بخمســة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندر فلاديميروفتش مالجاسوف ، خال آندره بتروفتش ، الذى آلت أملاكه بعد وفاته الى آندره بتروفتش • لقد كان سـيداً خطير الشأن ، وكان جنرالا

كبيراً ، وكان يملك رهطاً كبيراً من كلاب الصيد ، وقد عملت عنده صيادا بالكلاب مدة طويلة • وكان قد احضر هو أيضا هذا المكروسكوب ، فكان يدعو جميع الناس بعضاً وراء بعض ، رجالاً ونساءً ، للنظر فيه ، عارضاً تحت عدسته قملةً وبقة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء • ما أكثر ما تسلينا وضحكنا ! كنا نخاف أن نقترب من المكروسكوب ، ولكننا كنا نخاف مولانا أيضاً اذا نحن لم نقترب ، لأنه كان شديد الغضب • وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر ، فهم يغمضون أعينهم فلا يرون شيئاً • وكان آخرون يصرخون جزعاً وهلعاً • حتى ان العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً : « اصنع بى ما شئت فلن أنظر ! » ، فانطلق الضحك من كل صوت ! كنت اذن قد رأيت هذا المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة ، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، كنت قد رأيت هذه المعجزة ، ولكننى لم أقل هذا لبطرس فالريانوفتش ، اذ كان يسره سروراً عظيماً أن يريها • حتى لقد تظاهرت بأننى أدهش وأرتاع • فتركنى لحظةً ثم سألنى : « فما قولك يا شيخ ؟ » • قلت وأنا انتصب : « الرب قال : كن يا ضياء فكان الضياء •» • فأجابنى فجأةً : « لعل الظلمات هى التى كانت ! » قال ذلك بطريقة غريبة دون أن يبتسم • وشعرت فى تلك اللحظة باستغراب ، أما هو فقد كاد يغضب ثم لم يقل بعدئذ شيئاً •

قلت له :

ـ الأمر بسيط جداً ، ان صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم فى الدير ليأكل كوتيا ويركع ويسجد ، لكنه لا يؤمن بالله ، وأنت انما وقعت عليه وهو فى لحظة من لحظات صراحته تلك • هذا كل شىء ، ثم انه شخص عجيب جداً : فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات ،

فلماذا جنّ به فى المرة الحادية عشرة ؟ هذه حساسية عصبية ••• أغلب الظن أنه اكتسبها فى الدير •

قال الشيخ باقتناع :

ـ انه رجل طاهر القلب رفيع الفكر ، وليس زنديقاً • ان له عقلاً واسعاً ، ولكن قلبه قلق • وما أكثر أمثاله الذين يفدون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء • ثم اسمع ما سأقوله لك : ان الرجل يعاقب نفسه • فلاحظ هؤلاء الناس ، ولا تعذبهم ، واذكرهم فى صلواتك قبل النوم ، لأنهم انما يبحثون عن الله • هل تصلى قبل أن تنام ؟

ـ لا • أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل فيه • ولكن يجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبنى: فهو على الأقل ليس خرقة بل رجلا ، وهو يشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منا نعرفه كلانا •

لم ينتبه الشيخ الا الى الجزء الأول من جملتى • وأردف يقول :

ـ خطأ منك يا صديقى ألا تصلى • الصلاة شىء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصحو فى الصباح وحين يستيقظ المرء فى الليل • أنا أقول لك هذا • فى صيف من الأصياف ، فى شهر تموز (يوليه) ، كنا نحث الخطى نحو دير « العذراء » احتفالا بعيد • فكلما اقتربنا من المكان ازداد عددنا ، فاذا نحن نصبح مائتى شخص تقريباً ، مسرعين الى تقبيل الرفات المقدس للشهيدين آنيكى و جريجوار • كنا قد قضينا الليل فى حقل من الحقول ، وفتحت عينىّ فى الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة • رفعت رأسى يابنى ، وشملت الأفق بنظرة وتنهدت : كان كل شىء جميلاً جمالاً لا يوصف ! كل شىء هادىء ، الهواء نسيم ، العشب ينبت ـ انبت يا عشب الرب ••• والطائر

الصغير يغرد ـ غرِّد يا طائر الرب ••• والطفل الصغير يزقزق على ذراعي أمه ـ ليحرسك الله أيها الرجل الصغير ، اكبر وكن سعيداً ! لعلني أدركت الجمال يومئذ أول مرة في حياتي ! وعدت أرقد ، ونمت نوماً ما كان أخفه وأحلاه ! العالم جميل يا صديقي ! اذا تحسنت صحتي فسوف أستأنف طوافي متى طلع الربيع • اذا كان هناك أسرار ، فمرحباً بالأسرار • صحيح أن الأسرار ترهب القلب وتثير فيه العجب ، ولكن هذا الخوف يبهج القلب أيضاً : « كل شيء متجمع فيك أيها الرب ، أنا نفسي موجود فيك ، فخذني اليك ! » •

وأضاف يقول برقة وحنان :

ـ لا تتململ يا فتى ! لأن يوجد سر فذلك أجمل •

ـ « لأن يكون سر فذلك أجمل ••• » • سوف أتذكر هذه الكلمات • الأسرار ترهب القلب ، كما عبرتَ عن ذلك تعبيراً غير صحيح ، ولكنني أفهم ••• ان ما يدهشني هو أنك تعرف وتدرك أموراً أكثر مما تستطيع التعبير عنه • ولكن كأنك تتكلم وأنت في حالة هذيان •••

أفلتت مني هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحمومتين ووجهه الشاحب • ولكن أظن أنه لم يسمعني •

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذي انقطع :

ـ هل تعرف يا بني الصغير أن لذكرى الانسان على هذه الأرض حداً ؟ ان هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة • قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده أو أحفاده الذين رأوا وجهه • واذا بقيت ذكراه مدة أطول ، فانما تكون بعد ذلك ذكرى شفهية ، ذكرى عقلية ، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحي سوف يمضون وسوف يخفي العشب قبره في المقبرة ، وتتكسر الشاهدة ، وينساه جميع الناس حتى أعقابه ، وأخيراً ينسون اسمه أيضاً ، لأن الذين

تبقى اســــماؤهم فى ذاكرة البشر قلة قليلة جــداً . لا بأس ! فلينسى أعزائى . ولكننى سأظل أنا أحبهم من قرارة قبرى . أيها الأولاد الصغار ، اننى أسمع أصواتـكم الفرحـة ، وأسمع أصوات وقع أقداكم على قبور آبائكم فى يوم عيد الأموات ، وسوف أصلى من أجلكم ، وسوف أنزل اليكم فى أحلامكم ... ان الحب يبقى بعد الموت ! ..

كنت فى حمى مثله . وبدلاً من أن أنصرف أو أن أحضه على أن يهدأ ويسكن ، أو أن أرقده فوق سريره ، لأنه كان يبدو فى حالة هذيان كامل ، أمسكت يده فجأةً ، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده ، قلت له بهمس متأثر ودموع فى القلب :

ـ اننى سـعيد برؤيتك . لعلنى كنت أنتظرك منـذ مدة طويلة . لا أحب أحـداً : ليس فى أحـد منهـم جمال .. لن أتبعهم ، ولا أعرف الى أين أذهب ، فسأمضى معك ...

ولكن شاء حسن الحظ ان تدخل أمى فى تلك اللحظة . فلولا ذلك لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهى الأمر . دخلت دخول شخص استيقظ الآن وأوجس خطـراً . وكانت تحمل بيـدها قارورة وملعقة حساء . فلما رأتنا صاحت تقول :

ـ آ ... توقعت هذا ! لقد نسيت أن أجرّعك جرعة الكينا فهأنت ذا قد اعترتك حمى شـــديدة ! نمتُ مـدة طويلة يا ماكار ايفانوفتش ، يا عزيزى !

نهضت وخرجت . وأعطته أمى جرعته وأرقدته على السرير . واندسستُ أنا أيضــاً فى سريرى ، ولكننى كنت مضطـرباً أشـــد الاضطراب . لقد رجعت الى غرفتى وأنا أشـعر بدهشـة كبيرة ، وأخذت أفكر فى هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة . لا أدرى ماذا كنت أنتظر من

هذا التفكير • وأغلب الظن انني كنت أفكر في الأمور تفكيراً مشوشا لا تسلسل فيه ، وأن ما كان يتلاحق في ذهني لم يكن أفكاراً بل شذرات أفكار • كنت في اضطجاعي متجهاً برأسي الى الجدار ، فاذا أنا أرى البقعة المضيئة المتوهجة التي أسقطتها الشمس الغاربة على الزاوية ، والتي كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لاعناً • انني أتذكر أن نفسي كلها قد اشتعلت حماسة في تلك اللحظة ، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ الى قلبي • انني أتذكر تلك اللحظة العذبة ، ولا أريد أن أنساها • لم تكن الا لحظة أمل جديد ، وقوة جديدة ••• كنت قد بدأت فترة النقاهة طبعاً ، فمن الجائز اذن أن تلك النوبات لم تكن الا نتيجة لا مفرّ منها لحالة أعصابي ، ولكنني ما زلت الى اليوم أومن بذلك الأمل المضيء الذي ملأ نفسي • ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه • صحيح أنني كنت أعلم حق العلم أنني لن أصحب ماكار ايفانوفتش لأجوب الأرض مثله ، وأنني كنت أجهل أنا نفسي ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذي استولى على نفسي ، ولكنني كنت قد نطقت بتلك الجملة ، ولو في الهذيان : « ليس فيهم جمال ! » قلت أحدث نفسي مفتتناً : « انتهى الأمر ، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال ، وهم ليس فيهم جمال ، فسأتركهم » • وسمعت حفيفاً ورائي ، فالتفت • انها ماما ، تميل عليّ وتنظر في عينيّ مستطلعةً على خجل • فأمسكت يدها فجأة ، وسألتها دون أن أتوقع أنا نفسي ماذا كنت سأقول :

ــ لماذا لم تقولوا لي شيئاً عن ضيفنا العزيز ؟

فاذا بقلقها كله يختفي بغتةً ، واذا الفرح يضيء وجهها ، ولكنها لم تجبني الا بهذه الكلمات :

ــ لا تنس أيضاً ليزا ، ليزا • انك قد نسيت ليزا •

قالت ذلك بسرعة وقد احمر وجهها ، وهمّت بالانصراف مستعجلةً ، لأنها كانت هي أيضاً تكره أن تبسط عواطفها • انها من

هذه الناحيـة تشبهنى ، أعنى أنهـا مغلقة على نفسها عفة . هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تشرع فى حـديث معى عن هـذا الموضـوع : ماكار ايفانوفتش . كان ما استطعنا أن نتبادله من نظرات كافياً . ولكننى ، أنا الذى أكره أن أعرض عواطفى ، قد احتجزتهـا عنوةً باحـدى يدىّ ، وأخذت أنظر فى عينيها برقة ، وأضحك برفق ولطف، وألامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخديها الخاسفتين . فمالت علىّ ، ووضعت جبينها على جبينى ، ثم قالت لى فجأة وهى تنتصب مشرقة المحيا :

ـ أبلّ من مرضـك فأكون لك شـاكرة . انه مريض ، مريض جـداً .. ان حيـاته بين يدى الرب .. آه ! ما هـذا الذى قلته ؟ مستحيل ! ..

وانصرفت . لقد ظلت طـول حياتهـا خائفةً مرتعدة زاخرة النفس بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعى ، الجوّاب ماكار ايفانوفتش ، الذى غفر لها الى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم .

الفصل الثاني

١

أنا ما نسيت ليزا . أخطأت ماما الظن . لقد رأت هذه الأم الحساسة أن هناك نوعاً من الفتور بين الأخ وأخته ، ولكن هذا لم يكن وهناً طرأ على ما يربطهما من عاطفة ، وانما كان ضرباً من الغيرة . وهأنذا أشرح ما في نفسي ببضع كلمات .

ان المسكينة ليزا قد انتابها منذ اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء المتغطرس ، والتكبر الشديد الذى لا يكاد يحتمل . ولكن كل من فى البيت قد أدرك الحقيقة ، فعرف أنها تعانى عذاباً قوياً ، ولئن حزنت أنا فى أول الأمر وقطبت حاجبى ، فانما كان مرد ذلك الى ما أتصف به من سرعة التأذى وفرط الحساسية ، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندى ، أو هذا ما أقدّره الآن . ولكننى لم أنقطع عن حب ليزا أبداً . بالعكس : اشتد فى نفسى ما كنت أحمله لها من حب . كل ما هنالك أننى لم أشأ أن أقوم بالخطوة الأولى ، رغم أننى أدركت أنها هى أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى فى حال من الأحوال ، مهما كلفها الأمر .

ان ليزا ، منذ عُرفت قصة الأمير فور اعتقاله ، سارعت تتخذ منا ومن جميع الناس موقف انسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثى أحد لحاله أو أن يشفق عليه أو أن يسرى عنه بمحاولة تبرئة الأمير . بالعكس : أصبحت ، مع حرصها على ألا تفصح عما بنفسها وألا تجادل أحداً قط ،

تصطنع هيئة من يمجد سلوك خطيبها المسكين ويعده بطولة ما بعدها بطولة .
لكأنها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة ، أكرر هذا) : « لا أحـد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً . لا أحـد منكم يمكن ان يسلم نفســه مدفوعا الى ذلك بدواعي الشرف والواجب . ذلك أنكم لا أحد منكم يملك وجـدانا يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة .
أما عن أعماله فأي انسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات ؟
الآخـرون يكتمون ويخفون أما هو فقـد آثر أن يهلك على أن يفقـد قيمته في نظر نفسه . . » . ذلك ما كانت تعبرّ عنه كل حركة من حركات ليزا تعبيراً واضحاً . وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف نفسه . ولا أدري هل هذه المعاني هي التي كانت راسخة في قرارة قلبها ، في أعماق نفسها : وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها ، في النصف المضيء ، كانت تدرك حتماً كل تفاهة « بطلها » . فمن ذا الذي يرفض اليوم أن يعترف أن هـذا الانســان الذي يمـكن أن يعـد من جهـة أولى تعيسـاً شـقياً ، وأن يعد من جهـة أخـرى شهماً كريه النفس في نوعه ، قد كان في الوقت نفســه امرأ تافهـاً كل التفاهة ؟ ان شـدة تأذيهـا نفســها ، وان تأهبهـا الدائم للتهجـم علينـا ، وان ما كانت تحســه من اشتباه مستمر في أننـا قد نرى فيـه رأياً آخـر ، ان ذلك كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر .
ومع ذلك أسـارع فأضيف أنها في نظري كانت على حق ، أو على بعض الحق في أقل تقدير . انهـا تعـذر أكثر منـا جميعاً اذا هي ترددت في اسـتخلاص نتيجة حاسـمة ورأي قاطع . أنا نفسي أعترف من كل قلبي ، بعـد أن مضى وانقضى ذلك كله ، انني لا أدري على وجـه اليقين كيف أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدّر تقديراً حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا جميعاً أمام لغز لا نعرف كيف نحله .

على أن المنزل قد استحال بسببها الى جحيم صغير • ان ليزا التي أحبت حباً قوياً كان لابد أن تتألم كثيراً • وكانت بحكم طبعها تفضّل أن تتألم صامتة • ان طبعها يشبه طبعي ، أعني ان يجنح بها الى التحكم والتسلط والتكبر •• وقد اعتقدت دائما ولا ازال أعتقد الى اليوم انها قد أحبت الامير مدفوعة الى ذلك بالرغبة في التسلط والتحكم ، لان الأمير كان بغير ارادة ، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً • ذلك كله انما يتم في القلب من تلقاء نفسه بدون أي حساب سابق • ولكن هذا الحب الذي يحمله قوي لضعيف يكون في بعض الأحيان أعنف كثيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم بين اثنين متكافئين ، ذلك لأن القوي يتحمل تبعة صديقة الضعيف رغم ارادته • أو هذا ما اعتقده أنا على الأقل • ولقد أحاطها أهل الدار منذ البداية بأكبر المراعاة وأشد المداراة ، ولا سيما ماما • ولكنها لم ترف ، ولم تستجب لهذه العاطفة ، وتأبت على كل مساعدة • ولئن ظلت تكلم ماما في أول الأمر ، فانها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً بعد يوم ، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة • وكانت تستشير في أول الأمر فرسيلوف ، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشاراً لها ومساعداً ، وهذا أمر أدهشني حين عرفته فيما بعد • كانت تذهب كلّ يوم الى فاسين ، وتركض الى المحاكم ، وتقابل رؤساء الأمير ، وتراجع المحامين ووكيل النيابة • وفي النهاية صار ينقضي النهار كله دون أن يراها أحد في البيت تقريباً • وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعاً ، في قسم النبلاء من السجن الذي أودع فيه ، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة على ليزا كما علمت ذلك من بعد • صحيح أنه ليس ثمة شخص ثالث يمكن أن يعرف شئون حبيبين معرفة تامة • ولكنني أعلم مع ذلك أن الأمير كان يجرح شعورها جرحاً عميقاً في بعض الأحيان • كيف ؟ بغيرة لا تنقطع • أمر عجيب ! ان لنا الى هذه النقطة عودة • غير انني أحب أن

أضيف هذه الفكرة : انه لمن الصعب ان يقطع المرء فى هـذا السـؤال : أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد ؟ لعل ليزا التى كانت بيننا تعتز ببطلها ، لعلها كانت تعامله معاملة أخرى ، كما يجوز لى أن افترض ذلك على أساس بعض الوقائع التى سنجيء على ذكرها فيما بعد أيضاً .

ففيما يتعلق بعواطفى وعلاقاتى بأختى ليزا ، لم يكن كل ما يُرى ويلاحظ الا كذباً مقصـوداً عنيداً من الطرفين كليهما ، والحق أننـا لم نتحابّ يوماً كما تحابينا فى تلك الفترة . يجب أن أضيف شيئاً آخر هو أن ليزا منذ أن جـاء الينـا ماكار ايفانوفتش قد عاملته ، بعد الاسـتغراب والفضول اللذين أحستهما فى اللحظة الأولى ، عاملته بنوع من الاحتقار بل الاستعلاء ، وتعمدت أن تتظاهر بأنها لا توليه أىّ انتباه .

عاهدت نفسى اذن على التزام الصمت ، كما أوضحت ذلك فى الفصل السابق ، وقدّرت نظرياً ، أى فىأحـلامى ، أننى سأفى بالعهد طبعاً . نعم ، اننى لأوثر ، مع فرسيلوف مثلاً ، أن أتحدث فى علم الحيوان ، أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان على أن أتكلم « عنها » أو عن ذلك السطر من رسالته ، الذى يبلغها فيه أن « الوثيقة » لم تُحرق بل هى موجودة ، وأنها يمـكن أن تظهر الى النور ـ ذلك السطر الذى أخذت أفكّر فيـه بينى وبين نفسى فوراً منـذ صـحوت من غيبوبتى وعاد الىّ رشـدى بعد الحمى . ولكن وا أسـفاه ! لقد أدركت منـذ الخطوات العملية الأولى بل قبلها تقريباً ، أدركت كم يصعب على المرء بل كم يستحيل عليه أن يتقيد بهذه القرارات التى تصورها خياله . ان ظرفاً لم يـكن فى الحسبان قد هزّنى هزاً قوياً رهيباً غداة لقائى بماكار ايفانوفتش .

٢

كان الظرف الذى هزّنى هزاً قوياً هو زيارة داريا أونيسيموفنـا ، أم الفتاة اوليـا التى انتحرت شـنقا . كنت قد عرفت من أمى انها جاءت مرتين أثناء مرضى ، وأنها كانت تهتم كثيراً بأنباء صحتى . أمن أجلى حقا انما جاءت تلك « المرأة الرائعـة » كما كانت تصفها أمى بذلك دائمـاً ، أم هى جاءت لزيارة أمى فحسب ، جرياً على عادتها ؟ اننى لم أسأل عن هذا . لقد كانت أمى تقص علىّ أحداث المنزل دائماً ، وكانت تقص علىّ هذه الأحداث فى العادة حين تجىء لتطعمنى حسائى (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامى بنفسى) ، وذلك تسليةً لى وتسريةً عنى . وكنت أحرص فى كل مرة على أن أظهر أننى لا أحفل بما ترويه لى ، لذلك لم أسـألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيموفنا .

الساعة هى الحادية عشرة . وقد دخلت علىّ داريا أونيسيموفنا حين كنت أهمُّ أن أنهض لأنتقل الى مقعد بقرب المائدة . فلمـا دخلت تعمدت أن أبقى فى السرير . كانت أمى منهمكة بالعمل فوق ، فلم تنزل لتراها ، فأمكننـا أن نبقى وحيدين . جلست قبالتى ، على كرسى بقـرب الجدار ، تبتسم ولا تنطق بكلمة . وتوقعت أن يطول الصمت . وكان مجيئها يحدث فى نفسى ضيقاً وحنقاً واهتياجاً فى جميع الأوقات على كل حال . فلم أتجه اليها ولو بحركة من رأسى محيياً ، وظللت أحدق الى عينيها بنظرة ثابتة . ولكنها حدّقت الىّ هى أيضاً .

وسألتها فجأة وقد نفذ صبرى :

ـ لا شك أنك تضجرين الآن وحيدةً بعد غياب الأمير ؟

فأجابت تقول :

ـ لا ، اننى لا أقيم هنـالك الآن . فأنا بفضل آنا آندريفنا ، أعنى الآن بالطفل .

ـ أى طفل ؟

ـ طفل آندره بتروفتش .

قالت ذلك هامسةً ، بلهجة البوح ، وهى تنظر الى الباب .

ـ ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا ...

ـ بل تاتيانا بافلوفنـا وآنا آندريفنـا كلتـاهما ، وكذلك اليزابث ماكاروفنا ، وأمك ... انهن جميعاً يشاركن . وقد انعقدت الآن أواصر صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا آندريفنا .

هذا نبأ !

وكانت المرأة تنتعش وتنشط أثناء كلامها . ونظرت اليها نظرة كره . وقلت لها :

ـ أرى أنك الآن أنشـط مما كنت عليه ابان زيارتك الأخـيرة لى فى بيتى .

ـ آ ... نعم !

ـ وأظن أنك سمنت ؟

فألقت علىّ نظرة غريبة . ثم قالت :

ـ اننى أحبها كثيراً ، كثيراً .

ـ من هى ؟

ـ آنا آندريفنا طبعاً • أحبها كثيراً • انسانة نبيلة ، عاقلة •••

ـ نعم ، وكيف حالها الآن ؟

ـ هادئة جداً ، هادئة جداً •

ـ كانت دائماً هادئة •

ـ صحيح • دائماً •

ونفد صبرى فهتفت أقول لها فجأة :

ـ اذا كنت قد جئت الىّ لتروى لى أقاويل وتنقلى الىّ نمائم ، فاعلمى أننى الآن لا أتدخل فى شىء ، واننى عزمت على أترك كل شىء وأن أترك جميع الناس ••• لقد استوت عندى الأمور كلها : اننى راحل !

قلت ذلك وصمت اذ ثاب الىّ رشدى • اننى لا أريد أن أهبط الى حيث أشرح لها أهدافى الجديدة • وقد أصغت الىّ بدون اندهاش وبدون اضطراب ، ولكن خيمّ صمت جديد • ثم اذا هى تنهض فجأة ، فتتجه نحو الباب ، وتلقى نظرةً على الغرفة المجاورة • حتى اذا اطمأنت الى أن الغرفة خالية ليس فيها أحد ، وأننا وحيدان ، رجعت بهدوء شديد ، وعادت تجلس فى مكانها نفسه •

قلت وأنا انفجر ضاحكاً :

ـ شىء لطيف !

سألتنى فجأة وهى تميل علىّ قليلاً وتخفض صوتها كأن هذا هو السؤال الأساسى الذى من أجله جاءت :

ـ مسكنك عند ذلك الموظف ، أتنوى أن تحتفظ به أم لا ؟

ـ مسكنى ؟ لا أعرف • قد أتركه ••• ما يدرينى ؟

ـ ذلك أن السكان ينتظرونك • الموظف ينتظرك بفارغ صبر ، وكذلك زوجته ••• ولقد أكد لهما آندره بتروفتش أنك عائد حتماً •

ـ ولكن فيم يهمك هذا الأمر ؟

ـ آنا آندريفنا أيضاً تريد أن تعرف • لقد سرّها كثيراً أن تعلم أنك باق •

ـ من أين جاءتها هذه الثقة بانني سأبقى فى ذلك المسكن ؟

وهممت أن أسألها : « وما شأنها هي فى هذا الأمر ؟ » ولكنني امتنعت عن القاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء •

ـ أكده لها مسيو لامبير •

ـ من ؟

ـ مسيو لامبير • هو أيضاً أكدّ لآندره بتروفتش تأكيداً قاطعاً بأنك باق ، وطمأن كذلك آنا آندريفنا •

اضطربت اضطراباً شديداً • ما هذه القصة أيضاً ؟ اذن أصبح لامبير يعرف فرسيلوف • اذن وصل لامبير الى فرسيلوف ! لامبير وآنا آندريفنا : وصل لامبير حتى الى آنا آندريفنا ! وانتابتني حمى • لكنني صمت • وأغرق نفسي سيل رهيب من صلف ، صلف أو شيء آخر • المهم أنني كنت كمن يقول لنفسه : « اذا طلبت كلمة ايضاح واحدة ، كنت أقحم نفسي فى هذا العالم من جديد ، فلا أتركه بعد ذلك أبداً » • واشتعل فى قلبي كره شديد • وقررت جازماً أن أصمت ، ولبثت فى سريري ساكناً لا أتحرك • ولبثت هي أيضاً صامتة خلال دقيقة كاملة •

سألتها فجأةً بغير تمهيد :

ـ كيف حال الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟

ألقيت هذا السؤال بلهجه قوية لأغيرّ موضوع الحديث ، فاذا أنا ألقى السؤال الأساسى اعتباطاً كمن فقد عقله ، فأرجع كالمجنون الى ذلك العالم الذى كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه •

قالت :

ـ هو فى تساركويه سيلو • انه مريض قليلاً • المدينة ملأى الآن بهذه الحميات نصحه الجميع أن يعتزل فى تساركويه سيلو بمنزله هناك نشدانا للهواء النقى •

لم أجب • وأردفت هى تقول :

ـ تزوره آنا آندريفنا والجنرالة كلّ ثلاثة أيام • تذهبان اليه معاً •

آنا آندريفنا والجنرالة (أى « هى ») صديقتان ! تذهبان اليه معاً !

لم أقل شيئاً •

ـ ذلك أنهما أصبحتا صديقتين جداً • وآنا آندريفنا تمدح كاترين نيقولايفنا كثيراً •••

بقيت صامتاً •

ـ عادت كاترين نيقولايفنا الى ولعها بالمجتمع ، فهى تنتقل من حفلة الى حفلة ، تتلألأ ••• بل يقال ان كثيراً من رجال البلاط يهيمون بحبها ، أما السيد بيورنـج فقـد انقطع الحبل بينـه وبينها ، فلن يتـم الزواج • ذلك ما يؤكده جميع الناس ••• منذ تلك المرة •••

أرادت أن تقول : منذ وصول رسالة فرسيلوف • وقد ارتعدت ، لكننى لم أقل كلمة واحدة •

ـ ما أشد اشفاق آنا آندريفنا على الأمير سرجى بتروفتش ! وكذلك

كاترين نيقولايفنا ! انهما تتحدثان عنه دائما ، ونقولان ان القضـــاء سيبرئه وسيحكم على الآخر ، ستيبلكوف ..

نظرت اليها نظرة تفيض كرهاً . ونهضت فجأة ومالت عليّ تقول لى بهمس :

ـ أوصتني آنا آندريفنا بأن أستفسر عن صحتك ، وأمرتنى أن أرجوك أن تذهب اليها متى خرجت ، فأرجو أن تبل من المرض . استودعك الله .

وخرجت . فجلست على سريرى . وأخذ عرق بارد يتصبب فى جبينى . غير أن ما شعرت به لم يكن قلقا . ان هذا النبأ الكريه الذى لم أستطع أن أفهمه ، هذا النبأ عن لامبير ومكائده ، لم يروّعنى كما كانت تروعنى أثناء مرضى وفى الأيام الأولى من نقاهتى ، ذكرى لقائى به فى تلك الليلة . حتى اننى فى تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم الذى أعقب انصراف داريا أونيسيموفنا ، لم يتلبث فكرى على لامبير ... وانما استولى على ذهنى ما أنبأتنى به داريا عن القطيعة التى وقعت بين كاترين نيقولايفنا وبين بيورنج ، وعن سعادة كاترين فى المجتمع ، وعن الحفلات التى تتنقل بينها ، وعن النجاح الذى تلقاه ، وعن تألقها . لقد قالت داريا أونيسيموفنا « انها تتلألأ » . وشعرت فجأة بأننى عاجز عن انتزاع نفسى من هذا الاعصار ، رغم اننى استطعت أن أتجلد وأصمت ، وألا ألقى على داريا أسئلةً بعد الأشياء المذهلة التى روتها لى . واجتاحنى ظمأ شديد الى تلك الحياة ، « حياتهم » ، و ... واجتاحنى كذلك ظمأ آخر لذيذ عذب ، لا أدرى ما هو ، ظمأ أحسسته كالسعادة وأحسسته كالعذاب . وطفقت أفكارى تدور فى رأسى كزوبعة .. وتركت لها أن تدور هذا الدوران ! كنت أقول لنفسى : « علام التفكير ؟ » . ثم جعلت أفكّر تفكيراً متقطعاً لا تسلسل فيه ، فأقول لنفسى : « ان أمى نفسها قد

أخفت عني مجيء لامبير . ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت . انني أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لامبير بحال من الأحوال ! » .
ثم عدت أقول : « فرسيلوف ! فرسيلوف ولامبير ! أوه ! ما أكثر ما حدث من أمور جديدة عندهم ! ما أمكر فرسيلوف هذا ! لقد أخاف ذلك الألماني بيورنج بتلك الرسالة . لقد أذاع في حقه النمائم ... « النميمة لابد أن يبقى منها شيء دائما » . خاف الرجل من الفضيحة . آه .. آه .. درس حسن لها ! « لامبير ! ولكن ألا يكون لامبير قد وصل اليها هي أيضاً . لابد أنه وصل اليها حتماً ! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد صلة به ؟ » .

وهنا كففت فجأة عن ادارة هذه الأفكار المضطربة المشوشة في ذهني، وهويت برأسي على الوسادة من شدة الكرب واليأس . ثم صحت أقول بعزم مباغت : « ولكن لا ! » . ووثبت عن سريري ودسست قدمي في البابوجين ، وألقيت عليّ ثوب المنزل ، ومضيت قدُما الى ماكار ايفانوفتش كأن الشفاء من هذه الأفكار التي تحاصرني انما يجب أن ألتمسه عنده ، كأن لديه النجاة والخلاص ، كأن عنده المرساة التي أستطيع أن أتشبث بها فلا أغرق .

وأغلب الظن أنني أحسست بهذه الفكرة احساساً قوياً ، والا فهل كنت أنهض هذا النهوض الذي لا سبيل الى مغالبته ، وهل كنت أسرع الى ماكار ايفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من تلك الحالة النفسية المضطربة ؟

٣

لكننى وجـدت عند ماكار ايفانوفتش زواراً لم أكن اتوقعهـم : ماما والدكتور . ولأننى كنت أتصور حين مضيت الى الشيخ أننى سألقاه وحيداً كما حدث أمس ، فقد وقفت فى العتبة متحـيراً تحيراً غبيـاً . ثم ما ان قطبت حاجبى حتى وصل أيضاً فرسيلوف ، ووصلت وراءه ليزا . التأم الشمل كله اذن عند ماكار ايفانوفتش « فى وقت غير مناسب » !

قلت وأنا اتجه الى ماكار ايفانوفتش رأساً :

ـ جئت أسأل عن صحتك .

ـ شـكراً يا ابنى ، كنت أعلم أنك سـتأتى ! هذه الليلة أيضـاً فكرت فيك .

وكان ينظر فى عينى برقة وحنـان ، فرأيت أنه ربما كان يحبنى أكثر من الآخرين جميعاً . ولكننى لاحظت فوراً برغم ارادتى أنه اذا كان وجهه فرحاً فان مرضه قد تفاقم فى الليل كثيراً . وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصـاً دقيقاً جـداً . وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذى تشاجرت معه يداوى ماكار ايفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام ، وهو يشخّص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسـميها بلغتهم الطبية . وقد انعقدت بين ماكار ايفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصـداقة كما أدركت

ذلك منذ أول نظرة ، فلم يعجبنى هـذا كثيراً فى تلك اللحظة • ثم اننى كنت آنئذ ٍ معتكر المزاج جداً •

سأل فرسيلوف قائلاً :

ـ فماذا يا الكسندر سيمونوفتش ؟ كيف صحة مريضنا العزيز اليوم ؟

لولا أننى كنت مضطرباً لجعلت أول همى أن أدرس ، باهتمام شديد وشغف كبير ، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ • وقد خطر ذلك ببالى منذ الأمس • والشىء الذى خطف بصرى الآن خاصة هو ما كان يعبر عنه وجهه فى الظاهر من لطف وبشاشة • أظن أننى سبق أن أشرت الى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جمالاً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض البساطة •

أجاب الطبيب يقول :

ـ نحن لانفتأ نتشاجر •

ـ تتشاجر مع ماكار ايفانوفتش ؟ لا أصدّق شيئاً من هذا : لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه •

ـ لكنه لا يريد أن يطيعنى : انه لا ينام الليل •••

ـ دعك من هذا الكلام يا ألكسندر سيمونوفتش ، كفى تقريعا !

كذلك قال ماكار ايفانوفتش ضاحكاً • وتابع كلامه سائلاً آندره بتروفتش :

ـ هيه آندره بتروفش العزيز ؟ ما صنعت بآنستنا ؟

ثم أضاف وهو يشير الى أمى :

ـ لقد ظلت مضطربة ً قلقة طول الصباح •

فهتفت أمي تقول بقلق شديد فعلاً :

ـ نعم يا آندره بتروفتش ، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبتنا المسكينة ! ماذا قرروا في حقها ؟

فقال :

ـ حكموا عليها .

ـ أوه !

ـ هدئي روعك ، لن تنفى الى سيبريا : حكموا عليها بدفع غرامة مقدارها خمسة عشر روبلاً . مهزلة !

قال ذلك وجلس . فجلس الطبيب أيضاً . كانوا يتكلمون عن تاتيانا بافلوفنا . ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد . كنت على يسار ماكار ايفانوفتش . وجلست ليزا أمامي على اليمين . كان واضحاً أنها تعاني ألماً خاصاً جاءت تفضي به الى أمي . كان وجهها ينم عن اضطراب واستياء . وقد تبادلنا نظرة في تلك اللحظة ، فقلت لنفسي فجأة : « كلانا تلطخ شرفه ، وعليّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى نحوها » . لقد رقّ قلبي لها فجأة . وفي تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروي ما جرى في الصباح .

لقد مثلت تاتيانا بافلوفنا في هذا الصباح أمام قاضي الصلح مع طباختها . وكانت القضية مضحكة جداً . سبق أن ذكرت أن الفنلندية المتعبة كانت اذا غضبت تلازم الصمت في بعض الأحيان أسابيع متصلة فما تجيب بكلمة واحدة على أسئلة مولاتها . وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا ضعيفة تجاهها ، فهي تحتمل منها كل شيء ، ولا يمكن أن تطردها من خدمتها بحال من الأحوال . ان جميع هذه النزوات النفسية التي تلاحظ في العوانس أمور تستحق الاحتقار في نظري ولا تستحق أي اهتمام ، واذا كنت قد قررت أن أروي هذه القصة هنا ، فانما يدفعني الى ذلك

ان هذه الطباخة سيكون لها فى روايتى دور مشئوم لا يمكن اغفاله •
وأعود الى حكايتها فأقول ان تاتيانا بافلوفنا قد نفد صبرها أخيراً وضافت ذرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التى لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ عدة أيام ، فاذا هى تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً •
وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل شيئاً ألبتة بل لم يصدر عنها أى صوت ، ولكنها اتصلت فى ذلك اليوم نفسه بمستأجر كان يقيم فى مكان يطل على سلم الخدم نفسه ، تحت ، وهو الملازم البحرى المتقاعد أوستروف الذى كان يعمل وسيطاً فى جميع أنواع القضايا ، وكان يرفع الى المحاكم قضايا من هذا النوع ، طلباً للرزق فى الكفاح من أجل البقاء •
وكانت النتيجة أن طُلبت تاتيانا الى المثول أمام قاضى الصلح ، واستدعى فرسيلوف شاهداً •

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب أن أمى نفسها أخذت تضحك • وقد قلد شخصيات تاتيانا بافلوفنا والملازم البحرى والطباخة • فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضى أنها تطالب بتعويض مالى وكيف عقبت على ذلك قائلة : « والا فلمن أهيىء العشاء اذا هى سجنت ؟ » • وروى كيف أن تاتيانا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضى بكثير من التكبر حتى انها أبت أن تبرز فعلتها وانتهت الى القول : « ضربتها ولسوف أضربها أيضاً » ، فكان أن حُكم عليها بغرامة قدرها ثلاثة روبلات لعدم توقيرها القاضى • وأخذ يصف الملازم البحرى ، وهو شاب متخلع المشى نحيل الجسم ، فذكر كيف اندفع يلقى خطاباً طويلاً فى مدح صاحبته الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً فأخذت القاعة كلها تضحك • وسرعان ما انتهت المناقشات فحكم على تاتيانا بافلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها مارى ، التى أساءت اليها وأهانتها • فما كان من تاتيانا بافلوفنا الا أن استلت محفظة نقودها فوراً

بدون انتظار ، وعدت المبلغ ، فاذا بالملازم البحري ينبجس حالاً ويمد يده ، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت ان تضربها ضربا ، والتفتت نحو مارى تريد ان تنقدها المبلغ ، فقالت لها مارى : لا تكترثى يا سيدتى ، وأضيفى المبلغ الى حسابى ، أما هذا السيد فساقوم أنا بدفع أجره له » ، فقالت تاتيانا بافلوفنا : « أرأيت يا مارى ما أغبى الرجل الذى اتخذته مدافعاً عنك ؟ » . قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهى تومىء الى الملازم البحرى ، فرحةً أعظم الفرح بأن مارى قد فتحت فمها أخيراً . فأجابت مارى وهى تنظر نظرة ماكرة : « هو غبى فعلاً يا سيدتى . أظن أنك أمرتنى اليوم بأضلاع مشوية وبازلاء ، أليس كذلك ؟ اننى لم أسمع كلامك حين كنا فى البيت اذ كنت استعجل المجىء الى هنا » . فأجابتها تاتيانا بافلوفنا : « بل أمرتك بأضلاع وكرومب يا مارى ، واياك أن تحرقيها كما فعلت أمس ! » فقالت مارى : « سأكون شديدة الانتباه يا سيدتى ، ولا سيما اليوم . هاتى يدك » . وقبلت مارى يد مولاتها دليلاً على المصالحة . فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك .

ـ يالها من امرأة غريبة الأطوار !

كذلك قالت ماما وهى تهز رأسها ، راضية مع ذلك بالنبأ ، مغتبطةً أيضاً بما قصه آندره بتروفتش . ولكنها كانت تختلس النظر الى ليزا قلقة .

قال ماكار ايفانوفتش وهو يضحك :

ـ هكذا كانت الآنسة منذ طفولتها .

فقال الدكتور :

ـ هذا من أثر الصفراء والفراغ .

ـ اياى تعنون ؟ عنى تجيئون على ذكر الصفراء والفراغ ؟

ان تاتيانا بافلوفنا هي التي دهمت الغرفة ، وكان واضحاً أنها راضية عن نفسها جداً • وأردفت تقول مخاطبة الطبيب :

ـ يا ألكسندر سيمنوفتش ، خير لك آلا تقول هـذه السخافات • لقد عرفتني حين لم تكن قد بلغتَ العاشرة من عمـرك ، فلا بد أنك تعلم هل أنا في بطالة وفراغ حقـاً • أما عن الصفراء فانك تداويني منذ سـنة كاملة ولا تفلح في شفائي • كان عليك أن تخجل من هذا ! هيًّا هيًّا ، لقد سخرتم مني سخراً كافياً • شكراً يا آندره بتروفتش لأنك رضيت أن تجيء الى المحكمة شاهداً • أما أنت أيها العزيز ماكار ، فمن أجلك انما جئت • لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت اليَّ ، ولكنها لم تلبث أن ربتت على كتفي بمودة • انني لم أرها مشرقة المزاج الى هذا الحد في يوم من الأيام) •

وختمت كلامها تقول وهي تلتفت فجأة الى الطبيب وتقطب حاجبيها مهمومة :

ـ فماذا يا دكتور ؟

ـ لا يريد أن يبقى راقداً ، وهو بالجلوس يرهق نفسه •

فجمجم ماكار ايفانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل :

ـ ولكنها لحظة نقضيها مع الاصدقاء ••

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ـ نعم نحن نحب هـذا ، نحب أن نثرثر مع النـاس ؟ نحب أن يتحلق حولنا جمهور • انني أعرف صاحبنا ماكار •

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً الى الطبيب :

ـ وما أشد اصراره • انتظر قليلاً ، دعني أتكلم : لسوف أرقد على

السرير ، ولكن المثل عندنا يقول : « من يرقد فقد لا ينهض » . ذلك بعينه هو ما يتربص بي يا صديقي .

ـ هوه ! هي الأوهام الشعبية ما تنفك تعشش في عقولنا « اذا رقدت فقد لا أنهض » ، ذلك ما تخشاه عامة الشعب في أكثر الأحيان ، فيؤثر الرجل أن يقضي فترة مرضه واقفاً على أن يذهب الى المستشفى . أما أنت يا ماكار ايفانوفتش فان ما يستولي على نفسك الآن هو الضجر ، هو التحسر على الحرية ، هو الشوق الى السفر والتجول والتجواب . مرضك كله هو أنك فقدت عادة المكث في مكان . نعم ، ان التشرد ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا . لاحظت هذا مراراً . ان شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حباً للتشرد .

قالت تاتيانا بافلوفنا :

ـ في رأيك اذن أن ماكار متشرد ؟

ـ لا ، ليس متشرداً بهذا المعنى . لقد استعملت الكلمة بمعناها العام . ان ماكار متشرد عن تدين وتقى ، ولكنه متشرد على كل حال . صحيح أنه متشرد بمعنى حسن ، بمعنى نبيل ، ولكنه متشرد .. من وجهة النظر الطبية ...

التفت فجأة نحو الدكتور ، وقلت :

ـ أؤكد لك أننا أنا وأنت وسائر الحضور هنا ، أولى بأن نُعدّ متشردين من هذا الشيخ الذي يحق له أن يلقننا كثيراً من الدروس لأن له في حياته مبدأ ثابتا ، أما حياتنا نحن جميعاً فنتشرد على غير هدى في كل اتجاه .. ولكنك في الواقع لا تستطيع أن تفهم !

لا شك أنني تكلمت بخشونة ، ولكن من أجل هذا انما جئت

والحق أنني لا أدرى لماذا بقيت ، ولكنني كنت خارجاً عن طورى حتى لكأنني جننت •

فنظرت الى تاتيانا وقد بدا في هيئتها الاشتباه ، وقالت تسألنى :

ـ ماذا أصابك ؟

ثم قالت تسأل ماكار ايفانوفتش مشيرة بيدها الى :

ـ كيف تجده ؟

فأجاب ماكار ايفانوفتش :

ـ باركه الله • ان له فكراً متقداً •

ولكن الحضور ما أن سمعوه يصفني بأن لى فكرا « متقداً » حتى طفقوا يضحكون • فكظمت غيظى • وكان الدكتور أشدهم ضحكاً • من المؤسف أنني كنت أجهل في ذلك الحين ما كانوا قد تواطئوا عليه • ان فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا ، قبل ثلاثة أيام ، على أن يصرفوا أمي عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار ايفانوفتش الذى كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاء على المداواة مما كنت أظن حينذاك • ذلك هو السبب في أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا يحاولون أن يضحكوا • غير أن الطبيب كان أحمق ، وكان بطبيعته لا يعرف كيف يمزح • هذا هو السبب في كل ما أعقب ذلك • فلو كنت على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر • وكانت ليزا لا تعلم أيضاً •

ظللت أصغى بجزء من سمعى ، فكانوا يتكلمون ويضحكون ؛ أما أنا فكان رأسى مشغولاً بشيء آخر : داريا أونيسيموفنا وما ذكرته لى من أنباء ؛ وكنت لا أستطيع أن أتحرر مما كان يدور في رأسى • انها تتراءى لها هناك، جالسة تنظر الى ، ثم قائمة بحذر لتلقى نظرة على الغرفة الأخرى •

وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة . كانت تاتيانا بافلوفنا قد وصفت الطبيب بأنه ملحد قائلة له : « هـذا معروف ، ما أنتـم جميعاً يا أطباء النحس الا ملاحدة » .

فهتف الدكتور يقول متظاهراً تظاهراً غبياً بأنه أهين ، مطالباً بأن يُنصف :

ـ ماكار ايفانوفتش ! هل أنا ملحد ؟ نعم أم لا ؟

ـ أنت ملحد ؟ لا ، لست ملحداً !

بذلك أجابه الشيخ وهو يحدق اليه بنظرة ثابتة ، وأضاف يقول هازاً رأسه بوقار :

ـ لا ، الحمد لله . أنت انسان مرح .

فسأله الدكتور بسخرية :

ـ واذا كان الانسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحداً ؟

قال فرسيلوف بدون أن يضحك :

ـ هذا رأى !

فهتفت أقول على غير ارادة منى وقد فتنت بهذه الفكرة :

ـ رأى قوى !

وكان الطبيب ينظر فيما حوله مستفهماً .

فبدأ ماكار ايفانوفتش يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً :

ـ هؤلاء المثقفون ، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد قالوا شيئاً عن الأساتذة من قبل) كنت فى البداية أخشاهم كثيراً : كنت اذا لقيتهم أتهيبهم ، لأننى لا أخاف أحداً كما أخاف الملاحدة . كنت أقول

لنفسي : « انني لا أملك الا نفساً واحدة ، فاذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً » ، ولكنني استرددت شجاعتي بعد ذلك فقلت لنفسي : هيّا ، ما هم آلهة على كل حال ، هم بشر مثلنا ، لهم ما لنا من أهواء ! » ثم استبد بي حب الاطلاع قوياً شديداً ، فقلت لنفسي : « أريد أن أعرف أخيراً ما الالحاد . » . ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقي .

صمت ماكار ايفانوفتش لحظة ، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام ، مبتسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها . ان هناك سذجا يركنون الى جميع الناس والى كل انسان دون أن تخطر السخريه لهم ببال . وهؤلاء يكونون 'سُذجاً ، فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تخفي . ولكن يبدو لي أن ماكار ايفانوفتش كان يتصف بشيء آخر غير السذاجة وأن براءة البساطة لم تكن هي الشيء الوحيد الذي يدفعه الى الكلام . انه يملك شيئاً من صفات الدعاة . ولقد سرّني أن ألاحظ فيه استهزاءً لا يخلوا حتى من بعض المكر ، تناول به الدكتور ، وربما فرسيلوف أيضاً . وكان واضحاً أن هذا الحديث تتمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع . ولكن شاء سوء الحظ أن تفلت تلك الكلمة المشئومة التي كهربتني بالأمس ، فأهاجتني اليوم هيجاناً مازلت آسف له .

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال :

ـ « الملحد ـ الانسان » ، ربما كنت أخشاه الى الآن . ولكن هذا الملحد ـ الانسان ، يا ألكسندر سيمنوفتش ، لم يتفق لي أن لقيته مرة واحدة في يوم من الأيام ، وانما أنا لقيت « الملحد ـ المشوش » . نعم هكذا يجب ان يسمى . أناس من كل نوع ، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم . بينهم كبار وصغار ، وبينهم حمقى وعلماء ،

وبينهم حتى افراد من عامة الشعب . وهم جميعا مشوشون . انهم يقضون حياتهم كلها في القراءة والاستدلال والتفكير ، وقد امتلأت نفوسهم افتتانا بالكتب ، ولكنهم يظلون دائماً في الشك ، ولا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على شيء . منهم من تبعثروا تبعثراً تاماً فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم ، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام . ومنهم خفاف يحسون ولا يكترثون ولا يهمهم الا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات . ومنهم لا يقطفون من الكتب الا الزهرة ، ولكنهم يقطفون الزهرة التي يريدون ، ثم يظلون مشوشين لا يستقرون على حال . اسمع ما سأقوله لك : ان في هذا كله ضجراً كثيراً . الانسان البسيط يعيش في عوز ، فهو في حاجة الى خبز ، ولا يملك ما يقدمه للصغار ، وينام على قش خشن ، ولكن قلبه فرح خفيف دائماً . قد يرتكب خطايا ويقول كلاماً غليظاً ، ولكن قلبه يبقى مرحاً خفيفاً . أما الانسان الذي له شأن خطير فهو يتملأ شراباً وطعاماً ، وينام على أكداس ذهبه ، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر . ان بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم ، ولكن الضجر بقي في قلوبهم . أعتقد أن الانسان كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً . انظر في هذه النقطة : لقد وجد التعليم منذ وجد العالم . فهل جاء التعليم بما يجعل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح ؟ بل انني لأقول لك : انهم ليس فيهم جمال ، ولا يريدون الجمال . هم جميعاً أموات ، ولكن كلاً منهم يتباهى بموته ، ولا يخطر بباله أن يتجه الى الحقيقة « الوحيدة » . أن يعيش المرء بغير اله فذلك عذاب . وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق، حتى دون أن يفطنوا الى ما يفعلون . أين العقل والحكمة في هذا ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود . بغير سجود لا يمكن أن يحتمل الانسان نفسه . ما من أحد قادر على هذا . فاذا جحد الله سجد لمعبود من خشب أو من ذهب ، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال . انهم جميعاً وثنيون لا ملحدون . هكذا يجب أن نسميهم . ولكن كيف لا يكون

هناك ملحدون ! ان بعض الناس ملحدون حقاً ، وهؤلاء ابعث على الخوف والرهبة من الآخرين ، لأن اسم الله ماثل في أفواههم دائماً . سمعت عن هؤلاء مراراً ، ولكنني لم ألق أحداً منهم يوماً . هم موجودون يا صديقي ، وأظن أنهم لابد أن يوجدوا .

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً :

ــ موجودون يا ماكار ايفانوفتش و « لابد أن يوجدوا » !

ــ موجودون حتماً و « لابد أن يوجدوا » !

أفلتت مني هذه الجملة بغير ارادتي حــارةً ملتهبةً لا أدري لماذا . ولكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتني ، كما أن فكرةً فتنتني في قوله : « لابد أن يوجدوا » . ماكنت أتوقع هذا الحديث أبداً . وحدث في تلك اللحظة شيء لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً .

٤

كان النهار مضيئاً جداً . وقد جرت العادة فى غرفة ماكار ايفانوفتش أن تسدل الستارة طول النهار بأمر من الطبيب . غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن ستارة بل حجاباً ، فلم يكن أعلى النافذة مغطى . ذلك أن الشيخ تضايق حين كان لا يرى الشمس أبداً بسبب الستارة القديمة . وقد بقينا معه الى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً . واذ كان منهمكاً في الحديث فانه لم يتنبه الى ذلك فى أول الأمر ، ولكنه أشاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر فى الكلام ، لأن الشعاع الساطع كان يضايقه ويهيج عينيه المريضتين . وكانت أمى واقفة أمامه ، فنظرت الى النافذة عدة مرات فى قلق . وكان ينبغى أن تغطى النافذة تماماً ، ولكن أمى ، من حرصها على ألا تقطع جمل الحديث ، بدا لها أن تزحزح المقعد الذى كان يجلس عليه ماكار ايفانوفتش، أن تزحزحه نحو اليمين بدفعه خمسة عشر سنتميترا أو عشرين في أكثر تقدير . وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح ، اذ أبى المقعد أن يتزحزح . وأحس ماكار ايفانوفتش بجهودها ، ولكن على غير شعور البتة ، وذلك من شدة انجرافه فى الحديث ، وحاول أن ينهض عدة مرات ، ولكن ساقيه لم تسعفاه . وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد . فاذا بهذا كله يثير حنق ليزا فى نهاية الأمر . اننى أتذكر بعض نظراتها الملتهبة الساخطة . ولكننى فى اللحظة الأولى لم أستطع أن أعزو هذه النظرات الى سبب ، هذا عدا أننى كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عداه .

وفجأةً دوّى هذا النداء العنيف الذى يشبه الصراخ ، متجهاً الى ماكار ايفانوفتش :

ـ ولكن هلاّ نهضت قليلاً ! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد ؟

فنظر الشيخ الى ليزا بسرعة ، وفهم على الفور ، وحاول فى الحال أن يطيعها ، ولكنه لم يفلح ، فانه ما ان ارتفع عن المقعد عشرة سنتمترات حتى تهاوى عليه ثانية • فقال يجيب ليزا بصوت شاك وهو ينظر اليها بمذلة :

ـ لا أقدر يا ابنتى !

ـ تقدر أن تتدفق فى كلام يملأ كتاباً بكامله ، أما أن تتحرك قليلاً فلا تقدر ، هه ؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا :

ـ ليزا !

وعاد ماكار ايفانوفتش يبذل جهداً خارقاً من أجل أن ينهض • فصاحت ليزا تقول له من جديد :

ـ تناول عكازتك فاستعن بها • هى ذى على الأرض !

فقال الشيخ ، وهو يسرع الى تناول عكازته :

ـ حقاً •

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض :

ـ بل ننهضه وكفى !

وتحرك الطبيب ، واندفعت تاتيانا بافلوفنا ، ولكنهما لم يصلا الى ماكار ايفانوفتش الا وقد توكأ على عصاه ، ونهض فجأة ، ووقف على ساقيه

ناظراً حوله ، فرحاً بانتصاره ، ضاحكاً فى مرحه ، قائلاً بما يشبه الظفر :

ـ استطعت مع ذلك . شكراً يا ابنتى ، لقد رددتنى الى الصواب وكنت أظن أن ساقىَّ أصبحتا عاجزتين لا تصلحان لشىء !

ولكنه لم يلبث واقفاً مدة طويلة . فانه ماكاد ينهى جملته حتى انزلقت العكازة التى كان يستند اليها بكل وزنه ، انزلقت على السجادة فجأةً ، فاذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله . كان المنظر رهيباً . اننى أتذكر ذلك . صاح الجميع بصوت واحد : « أوه ! » ، وأسرعوا يرفعونه عن الأرض . ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أى كسر . صحيح أن ركبتيه قد صدمتا الأرض صدماً قوياً فأُحدث سقوطه ضجة شديدة ، ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند اليها . وأنهضوه وأرقدوه على السرير . كان وجهه شاحباً ، لا من الخوف ، بل من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً فى القلب عدا الأمراض الأخرى) واضطربت أمى أشد الاضطراب هلعاً . واذا بماكار ايفانوفتش الذى لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوياً ، ولم يكد يثوب الى نفسه ، اذا هو يلتفت الى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون حنوناً زاخراً بالعاطفة :

ـ لا يا ابنتى . أصبحت ساقاى لا تحملانى ، كما ترين .

لا أستطيع أن أصف الشعور الذى أحسسته . ان أقوال الشيخ المسكين لم يكن فى نبرتها أى شكوى أو ملامة . بالعكس : كان واضحاً أنه منذ البداية لم ير فى كلمات ليزا أى سوء ، وأنه عدَّ صراخها شيئاً واجباً ، أى تقريعاً يستحقه خطؤه . وقد أثر هذا فى ليزا تأثير رهيباً أيضاً . لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع ، ووقفت فى مكانها

كالميتة ، متألمةً طبعاً لأنهـا كانت سبب كل ما حدث • لكنها حين سمعت هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الخجل والندم •

قالت تاتيانا بافلوفنا آمرة :

ـ كفى ! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث • فليرجـع كل واحـد الى حيث كان • ولكن ما العمل اذا كان الطبيب نفسه هو الذى يبدأ الثرثرة ؟

فقال ألكسندر سيمنوفتش وهو يسعى حول المريض منهمكاً :

ـ حقاً يا تاتيانا بافلوفنا • معذرة • انه فى حاجة الى راحه •

ولكن تاتيانا بافلوفنـا كانت قد انقطعت عن الاصغاء : انها منذ نصف دقيقة تنعم النظر الى ليزا صامتة • ثم قالت فجأة :

ـ تعـــالى يا ليزا وقبّلينى ، قبّلى العجـوز الحمقاء ، اذا أردت طبعاً !

وقبّلتها ، لا أدرى لماذا ، وكان هذا ما يجب فعله حقاً ، حتى اننى أوشكت أنا نفسى أن اندفع الى تاتيانا بافلوفنـا فأقبّلها • كان يجب فعلاً ألا تُسحق ليزا باللوم ، وانما يجب أن تُستقبل العاطفـة الطيبة الجديدة التى ستنشأ فى نفسها بالمرح والتهنئات •

ولكننى لم أسلك هذا السلوك فى الواقع • لقد نهضت فجأة ، وقلت وأنا أقطع كلماتى بغية أن تكون بارزة واضحة :

ـ ماكار ايفانوفتش ، انك قد استعملت مرةً أخرى هذه الكلمة : « الجمال » ، وكانت هذه الكلمة تعذبنى بالأمس ، وتعذبنى طـوال هذه الأيام الأخيرة • بل انها عذبتنى فى جميع أيام حيـاتى ، ولكننى لم أكن أعرف فى الماضى ماذا كان عذابى • فأنا أعد هذه المصـادفة قدراً بل أكاد أعدها معجزة ••• اننى أعلن هذا بحضورك •

ولكنهم أوقفوني عن الكلام . أكرر أنني كنت أجهل ما تواطئوا عليه بصدد ماما وماكار ايفانوفتش . وقياسا على ما عرفوا من أفعالي الماضية ، حكموا بأنني لا أتورع عن أية فضيحة .

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضبا شديدا ، وزأرت تقول :

ـ أسكتوه !

وأخذت ماما ترتجف . وذعر ماكار ايفانوفتش هو أيضاً حين رآهم جميعاً مذعورين . وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة :

ـ اسكت يا آركادى .

ولكنني لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى :

ـ يشدهني ويفززني يا سادتي أن أراكم جميعاً بقرب هذا الطفل (أشرت بيدى الى ماكار) . ليس هنا الا قديسة واحدة هي ماما ، ولكنها هي أيضاً ...

قال الدكتور ملحاً :

ـ انك تروّعها !

فتمتمت أقول :

ـ أعلم أنني عدو الجميع ..

أو قلت كلاماً من هـذا المذاق . ثم التفت الى فرسـيلوف ألقى عليه نظرة تحدٍ واستفزاز . فصرخ فرسيلوف قائلاً :

ـ آركادى ... سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع . فسيطر على نفسك الآن . أرجوك !

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التي ظهرت على فرسيلوف وهو

ينطق بهذه الجملة • لقد عبرَّ وجهـه عندئذ عن حزن خارق ، صـادق ، كامل • ومما يدعو الى الدهشـة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة انسان نادم : فالآن أنا القاضي وهو الجاني • فكان من شأن ذلك كله أن أخرجني عن طوري • فهتفت أجيبه قائلاً :

ـ نعم ، حدث هذا يوم كنت قد دفنت فرسـيلوف ، يوم كنت قد انتزعته من قلبي ••• ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك وُبعث الموتى ••• أما الآن فقد انتهى كل شيء • ولسوف ترون جميعاً ، جميعاً ، ما أنا قادر عليه ! انكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله •

قلت ذلك ، واندفعت الى غرفتي • فهرع فرسيلوف ورائي •

٥

انتكست بعد ابـلال : انتابتني حمى شـديدة ، وفي المسـاء كنت أهذي . ولكن لم يكن كل شيء هذياناً ، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة ، حفظت واحداً منها الى آخر حياتي ، أو قل حفظت شذرات واحد منها أرويه الآن بدون نفسـير . لقد كان في ذلك الحلم تنبؤ ، فلا أستطيع أن أغفله .

رأيتني في غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبي فجأة بنية عظيمة نبيلة . أين ؟ لا أدري . ولكن لم أكن عند تاتيانا بافلوفنا . وأقول سلفاً : انني أتذكر تلك الغرفة تذكراً وضحاً كل الوضوح . ورغم انني كنت وحيداً ، فقد كنت أحس ـ متألماً قلقاً ـ انني لست وحيداً وأنني أُنتظر ، وأن شيئاً يُتوقع مني ، ففي مكان وراء الباب أشـــخاص ينتظرون ما سـأفعله . احســــاس لا يطاق : « آه .. ليتني كنت وحيـداً » . وها « هي » ذي تدخـل فجـأة . انهـا تنظر اليَّ خجلةً ، خائفـةً خوفاً شديداً ، باحثـةً عن عينيَّ . و « الوثيقة بين يديَّ » . وابتسمت لتغريني ، والتصقت بي . فأشفقت عليهـا . ولكنني أخذت أشعر باشمئزاز . وفجأة غطت وجهي بيديهـا ، فرميت الوثيقة على المائدة باشمئزاز لا يوصف : « لا تسأليني شيئاً . خذي . لا أطالبك بشيء ! بالاحتقار انتقم لنفسي من كل الاهانات التي تحملت » .

وخرجت من الغرفة شاعرا بكبرياء قويه واعتزاز شـديد . ولكن لامبير يوقفني على العتبة في الظـلام ، ويهمس قائـلاً لي وهو يمسـك

ذراعي بقوة : « أحمق ، أبله ! سوف تنشيء في فاسيلي اوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعني لتستطيع أن تجني رزقها اذا علم أبوها بأمر الوثيقة فحرمها من الميراث وطردها من بيته • انني اسجل تعابير لامبير بنصها كما سمعتها في الحلم) •

ـ آركادي ماكاروفتش يسعى وراء « الجمال » •

ذلك صوت آنا آندريفنا النحيل سمعته قريباً مني على السلم • ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سخرية لاتطاق • وأعود الى الغرفة مع لامبير • فاذا « هي » ، حين تراه ، تأخذ تضحك مستهزئة • ان الشعور الأول الذي أحسسته كان ارتياعاً رهيباً ، ارتياعاً بلغ من الهول أنني توقفت ورفضت أن أتقدم • ونظرت اليها فلم تصدق عيناي ما رأيت • لكأن قناعاً كان على وجهها فانحسر القناع فجأة : لا تزال قسمات وجهها كما هي ، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها • وصاح لامبير يقول لها : « الفدية يا سيدتي ، الفدية ! » ، فاذا ضحكهما كليهما يشتد • وكف قلبي عن الخفقان • « هل يُعقل أن تكون هذه المرأة الوقحة هي المرأة نفسها التي كان يكفيني أن تنظر الي حتى يشتعل قلبي فضيلة ؟ »•

ويهتف لامبير قائلا :

ـ هذا ما يفعله هؤلاء المتعجرفون من أبناء المجتمع الراقي في سبيل المال !

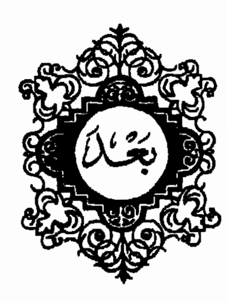
ولكن الوقحة لم تضطرب • وهي انما تضحك لأنني مروّع • آه ! انها مستعدة للفدية ، و •• و •• ماذا يحدث في نفسي ! أصبحت لا أشعر بشفقة ، بل باشمئزاز • وأرتعش كما لم أرتعش في حياتي من قبل ••• واستولت عليّ عاطفة أخرى لا سبيل الى وصفها ، عاطفة لم أعرفها في يوم من الأيام ، عاطفة قوية قوة الكون • أصبحت لا أقوى على

الانصراف . لن أنصرف بحال من الأحوال . آه .. لشدما يسعدنى أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الخلاعة ! وهاءنذا امسك يديها . ان ملامسة يديها تهز نفسى هزا اليما . وهأنذا أقرب شفتى من شفتيها الوقحتين ، القرمزيتين ، اللتين ترتجفان ضحكاً وتنادياني .

بعداً لهذه الذكرى المخزيه ! سحقاً لهذا الحلم اللعين ! أحلف لكم أننى قبل هذا الحلم الدنىء لم يراود خيالى أى شىء يشبه هذه الفكرة المخجلة ! لا ، لم يراود خيالى شىء من ذلك حتى فى أحلام من هذا النوع بغير ارادة (وان كنت قد احتفظت « بالوثيقة » مخيطة فى جيبى ، وكنت أتحسسها من حين الى حين مبتسماً ابتسامة غريبة) . فمن أين جاءنى هذا فجأة ؟ جاءنى من أن لى نفس عنكبوت ! أعنى أن هذا كله كان قائماً فى نفسى منذ مدة طويلة على حال بذرة ، وكان ثاوياً فى قلبى الفاسق ، فكنت « أشتهى » ، ولكن قلبى كان الخجل لا يزال يصده ، وكان فكرى لا يجسر ، بعد ، أن يتصور شيئاً من هذا القبيل تصوراً واعياً . أما فى الحلم فان النفس قد عرضت كل ما كان قائماً فى قلبى ، فجاءت هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة ، وكانت نبوءة . هل « هذا » ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين ولّيت فى الصباح من عند ماكار ايفانوفتش ؟ ولكن كفى ! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين ! ان هذا الحلم الذى رأيته هو من أغرب مغامرات حياتى .

الفصل الثالث

١



ثلاثة أيام نهضت فى الصباح فشعرت فجأة ، حين وقفت على قدمىّ ، أننى لن ألزم السرير بعد اليوم . لقد أحسست فى كيانى كله باقتراب الشفاء . لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن تسجل . لقد تتالت أيام لم يحدث فيها شىء ذو بال ، ولكنها بقيت فى ذاكرتى بتمامها شيئاً هادئاً فرحاً : هذا أمر نادر فى ذكرياتى . لا أريد الآن أن أصف حالتى النفسية . فلو عرف القارىء ماذا كانت لما صدّق . فالأفضل أن يبرز هذا من الوقائع فيما بعد . ولكننى بانتظار ذلك أقول : ليتذكر القارىء ما هى « نفس عنكبوت » ، ما هى نفس عنكبوت لدى انسان يريد أن يتركهم ، « هم » والعالم كله سعياً وراء « الجمال » ! صحيح أن ظمئى الى الجمال كان فى ذروته ، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ الى الجمال مع أنواع أخرى من الظمأ يالها من أنواع ! ذلك ما يبقى لغزاً أعجز عن حله . ولقد كان لغزاً على الدوام ، وطالما أدهشنى أن يستطيع الانسان (الانسان الروسى خاصةً) أن يهدهد فى قلبه أسمى شىء وأدنأ شىء فى آن واحد ، صادقاً مع ذلك صدقاً كاملاً . هل مرد هذا الى « رحابة الفكر » التى تُعزى الى الروسى أم مرده الى حطة لا أكثر ؟ ذلك هو السؤال .

ولكن دعونا من هذا . المهم أنه كان ثمة هدنة . لقد أدركت أن على أن أسترد عافيتى بأى ثمن ، وبأقصى سرعة ممكنة ، لأبدأ العمل فى أقرب

وقت ، كذلك قررت أن أعيش ملتزما قواعد الصحة ، وأن أطيع الطبيب (كيف كان) ، وأن أرجيء نيات القتال والعدوان بكل حكمة (وهذه ثمرة رحابة الفكر) الى أن أخرج ، اى الى ان اشفى • كيف امكن أن تجمع مشاعر المسالمة ومباهج الهدنة تلك كلها مع خفقات قلبي العارمة الجامحة الاليمة ألماً لذيذاً ، ومع توجس القرارات العاصفة الهوجاء التى أزمع أن أتخذها ؟ لا أدرى • ولكننى أعزو ذلك الى « رحابة الفكر » • أصبحت لا أشعر بالقلق الذى كنت أحسه من قبل • لقد أرجأت كل شيء الى وقته المعيّن ، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت أرتجف من قبل أيضاً ، وانما أنا الآن أمام المستقبل رجل غنى واثق بما يملك من موارد وقوى • وكانت مشاعر الغطرسة والتحدى تجاه المصير ما تنفك تزداد ، ولعل ذلك يرجع قليلاً الى شفائى الذى أصبح الآن واقعاً ملموساً ، والى اننى استرددت طاقاتى الحيوية • ومازلت الى الآن أتذكر ، بكثير من الانشراح والسرور ، تلك الأيام التى كنت قد شفيت فيها شفاء حاسماً بالفعل •

وكانوا قد غفروا لى كل شيء ، غفروا لى اندفاعتى العنيفة وأقوالى القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف ! هذا ما أحبه فى الناس ، هذا ما أسميه ذكاء القلب • أو قل اننى افتتنت بهذا الموقف على الفور ، بعض الافتتان طبعاً • فمع فرسيلوف مثلاً ظللت أتحدث كما يتحدث صديقان قديمان ، ولكن الى حد لا نتجاوزه : فمتى أسرفنا فى اظهار عواطفنا (وكان هذا يحدث) ، أمسكنا عن الكلام كلانا فوراً ، وشعرنا بشيء من الخجل • ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يمتنع عن الخجل من المغلوب ، لا لشيء الا لأنه غلبه • ولقد كنت أنا الغالب طبعاً ، فكنت أحمر من ذلك خجلاً •

وفى ذلك الصباح ، أعنى يوم نهضت عن سريرى بعد الانتكاس ،

جاء فرسيلوف الىّ • وعندئذ انما علمت منه أول مرة ما كانوا قد تواطئوا عليه في شـأن ماما و ماكار ايفانوفتش • وقد أضاف فرسيلوف أن الشيخ تحسنت صحته ولكن الطبيب لا يضمن شفاءه • فوعدته من كل قلبى بأن أكون في المستقبل أكثر حـذراً وترويًا • وحين كان فرسيلوف يروى لى هذا كله ، لاحظت فجـأةً ، أول مرة ، أنه كان هو نفســه قلقـاً على الشيخ ، وأن قلقه صادق لا اصـطناع فيه ، أى كان قلقه يفوق كثيراً ما كان يمكن أن أتوقعه من رجل مثله ، ولاحظت أنه يعده رجلاً عزيزاً ، عزيزاً عليه هو ، بغض النظر عن أمى • وقد تـساقنى هذا الأمـر ، بل أدهشنى تقريبـاً • فأنا أعترف باننى لولا فرسـيلوف لفاتتنى أشياء كثيرة ما كنت لأقدرها حق قدرها عند ذلك الشيخ الذى خلّف في قلبى ذكرى من أقوى الذكريات وأبقاها وأكثرها أصالةً •

وكان يبدو على فرسيلوف أنه قلق من علاقاتى بماكار ايفانوفتش ، أو قل انه كان لا يركن الى ذكائى ولا الى كياستى ، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أننى أيضـاً قادر في بعض الأحيـان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع انسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختـلاف ، أى اننى أستطيع عند اللزوم أن أكون انساناً مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة • وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسى فيما أظن) بأننى وجدت في هذا الانسان الآتى من صفوف الشعب شيئاً جديداً علىّ كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار ، شيئاً أجهله ، شيئاً هو أوضـح كثيراً وأدعى الى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبى في فهم الأشـياء من قبـل • ولكن كان يستحيل علىّ مع ذلك ألا أغضب في بعض الأحيان حين كنت أراه يتشبث بأوهام قاطعـة يؤمن بها ايماناً هادئاً ويطمئن اليها اطمئناناً ثابتاً لا يتزعزع • على أن ذلك انما يرجع طبعاً الى نقص ثقافتـه • أما نفسه فقد كانت في الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت أحداً يفوقه فيهما •

٢

ان ما كان يجذبنى اليه قبل كل شىء آخر ، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تاماً ، حتى ليحس المرء أن له قلباً بلا خطيئة تقريباً • كان قلبه عامراً« بالفرح » ، وعامراً اذن « بالجمال » • وكان يحب كلمة « الفرح » هذه حباً كثيراً ، وكان يستعملها فى كلامه كثيراً • صحيح أنه كان ينتابه فى بعض الأحيان نوع من هياج مرضى ، نوع من حنان مرضى لعله يرجع الى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة • ولكن ذلك كان لا يمنع الجمال الروحى من أن يتألق فيه • وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة : فالى جانب السذاجة الشديدة التى كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عجزاً تاماً (وكان هذا يحزننى)، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصةً فى المناوشات الجدلية • كان يحب الجدال ، ولكنه يحبه بين الفينة والفينة ، ويحبه على طريقته الخاصة • ان المرء يلاحظ أنه جاب فى أرجاء روسيا كثيراً ، وسمع كثيراً • ولكننى أعود فأقول انه يحب الحنان أكثر من أى شىء آخر ، ويحب اذن كل ما يؤدى الى الحنان ، ويحب أن يقص أموراً تثير الحنان • وكان يحب كثيراً أن يقص • لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن أسفاره ، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التى عاشها قدامى النساك • وهذه أمور ليست معروفة عندى أو مألوفة لى ، ولكننى أظن أنه كان يمزج بهذه الأساطير أشياء مختلفة كثيرة جاءه معظمها مما يتناقله شعبنا بالرواية • كان فى قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً • ولكن الى جانب هذه التحريفات

الواضـحة او التلفيقات البينة كان يشيع في قصصه الزاخرة بالعاطفة الشعبيه والمثيرة للحنان دائما ، شيء مضيء قوى راسخ • لقد حفظت من قصصه ، مثلاً ، تلك الحكاية الطويلة التي تسمى « حياة ماريا المصرية » • لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئا عن حياة ماريا المصرية هذه ، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً • ولكنني أستطيع أن أقول بصراحة : انه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريا المصرية دون أن تترقرق الدموع في عينيه ، لا بتأثير ما تثيره في النفس من حنان ، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة : ان المرء يحس في هذه القصة بشيء خارق حار كرمل الصحراء المحرقة التي تملؤها الأسود والتي كانت ماريا تجوبها • ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلم عنه ، ولست من أهل الاختصاص في هذا الميدان على كل حال •

ومما أعجبني في ماكار ايفانوفتش ، عدا الحنان ، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة في مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس في عصرنا هذا • ففي ذات يوم ، مثلاً ، روى لي قصة حديثة عن جندي انتهت خدمته ، وقد شهد ماكار الحادثة بنفسه تقريباً ، فقال ان هذا الجندي حين عاد الى بلده ، ووجد نفسه بين فلاحين ، لم يعجبوه ولا أعجبهم • فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه شيئاً بعد شيء ، وأخذ يشرب ويسرف في الشراب ، وقام ذات يوم بعمل سلب ونهب • ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة ، ولكنه اعتقل أثناء ذلك وحوكم • وقد أخذ المحامي يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة ، فاذا بالرجل الذي كان يصغي الى دفاع المحامي ينهض فجأة فيقاطع المحامي قائلاً : « لا ، انتظر قليلاً » ، ثم طفق يروي الوقائع من أولها الى آخرها ، ويعترف بذنبه باكياً نادماً • فانسحب المحلفون وأغلقوا عليهم باب القاعة ، ثم عادوا يخرجون ليعلنوا بأن « المتهم بريء » • فتعالت صيحات

الفرح من كل صوب • ولكن الجندى بقى جامداً فى مكانه كأنه استحال عموداً ، لأنه لم يفهم شيئاً ، لا ولا فهم ما قاله له رئيس المحكمة حين أفرج عنه • وانصرف الجندى أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث له • واستبد به الضجر ، وغرق فى التفكير والتأمل ، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً • وبعد خمسة أيام شنق نفسه • قال ماكار ايفانوفتش خاتماً حديثه : « فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على ضمير المرء خطيئة » • صحيح أن القصة لا قيمة لها ، وأن أعمدة جميع الصحف فى أيامنا هذه تمتلىء بحكايات من هذا النوع ، ولكن الشىء الذى أعجبنى انما هو اللهجة • ومما أعجبنى أكثر من اللهجة أيضاً ما كان يستعمله ماكار ايفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقاً • من ذلك أنه حين روى لى كيف لم يعجب الجندى الفلاحين عند عودته الى القرية قال : « معروف ما الجندى : الجندى فلاح فسد » ؟ وحين تكلم بعد ذلك عن المحامى الذى كاد يربح الدعوى قال أيضاً : « معروف ما المحامى : المحامى ضمير للتأجير » • لقد وقع ماكار ايفانوفتش على هذين التعبيرين عرضاً بدون أى عناء ، وبدون أن ينتبه هو نفسه اليهما • ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين ، وهو تصور ان كان لا يمثل رأى الشعب كله فانه يمثل رأى ماكار ايفانوفتش تمثيلاً رائعاً • ان هذه الأحكام الجاهزة التى يصدرها الشعب فى موضوع من الموضوعات تكون فى بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً •

سألته فى هذه المناسبة :

ـ ماكار ايفانوفتش ، ما رأيك فى خطيئة الانتحار ؟

فأجابنى وهو يتنهد :

ـ الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الانسان • ولكن الرب هو الحاكم الوحيد ، لأنه وحده يعرف كل شىء ، مقاييسَ وحدوداً • وواجبنا نحن

هو أن ندعو الله لأمثال هؤلاء الخطاة الكبار . فاذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة ، فادع لمرتكبها دعاءً حنوناً قبل أن تنام ، وتشفع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه ، واذا كنت لا تعرفه فان شفاعتك تكون أجدى أيضاً .

ـ هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه ؟

ـ ما يدريك ؟ ان ناساً كثيرين لا يؤمنون ، فيضلون من لا يعلمون . فلا تستمع لهؤلاء ، فانهم لا يعرفون الى أين هم ماضون . ان صلاة صادرة عن انسان حى من أجل انسان ميت تصل الى الرب فعلاً . ولكن ما عسى يصير اليه من ليس له أحد يصلى من أجله ؟ لذلك يجب عليك ، حين تصلى قبل النوم ، أن تضيف هذا الدعاء : « ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلى من أجلهم » . ان هذا الدعاء نافع جداً ، مبهج جداً . بل صلِّ كذلك من أجل الخطاة الذين لا يزالون أحياء . قل « ربِّ أنقذ جميع السادرين فى ذنوبهم بما تعرف من وسائل » . هذا أيضاً صلاة حسنة .

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات ، لأننى أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً . وقد سطع الفرح فى وجهه فعلاً حين قطعت له على نفسى هذا العهد . ولكن يجب علىَّ أن أسارع فأضيف أن ماكار ايفانوفتش كان فى مثل هذه الأحوال لا ينظر الىَّ من عل ، كناسك يخاطب مرهقا غراً . بالعكس : كان يحب فى كثير من الأحيان أن يصغى الىَّ ، وأن ينصت الى كلامى بدون كلال فى مواضيع شتى ، وكان يرى أنه اذا كان يتفوق علىَّ بالسن فاننى أتفوق عليه كثيراً بالثقافة . من ذلك مثلاً أنه كان يحب فى أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك ، وكان يضع « عزلة الصحراء » فى منزلة أعلى كثيراً من منزلة « جوب الآفاق » ، فكنت أوجه اليه اعتراضات شديدة حارة ، وألح على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم ، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للانسانية من خير ، لا لشىء الا خلاص

أنفسهم . فلم يفهمني في أول الأمر ، بل لعله لم يفهمني في لحظة من اللحظات ، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً : « ان المرء يشفق على نفسه في أول الأمر طبعاً (أي حين يستقر في الصحراء) ، ثم يغتبط يوماً بعد يوم ، ولا يزال يزداد اغتباطه الى أن يرى الرب آخر الأمر » . فأخذت أصور له تصويراً كاملاً ما يقوم به العالم والطبيب وصديق الانسانية عامة من عمل مفيد ، فاستطعت أن أصل به الى حماسة صادقة ، لأنه أخذ هو نفسه يتكلم عن هذا بحرارة ، وكان يؤيدني في بعض اللحظات قائلاً : « نعم يا بني نعم ، باركك الله ، انك على حق ! » . ولكنه ، حين فرغت من كلامي ، لم يوافقني مع ذلك موافقة تامة ، وقال متنهداً تنهداً عميقاً : « هذا كله حسن ، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين ؟ اذا لم يكن المال الهاً فهو نصف اله . انه اغراء كبير . ثم هناك المرأة أيضاً ، ثم هناك الشك ، ثم هناك الحسد . فاذا بالمرء ينسى القضية الأساسية ، ويمضي يهتم بالأمور الصغيرة . ولا كذلك في عزلة الصحراء . ففي عزلة الصحراء يقوى المرء نفسه للقيام بجميع المبرات والأعمال المقدسة . نعم يا صديقي . أما في العالم فماذا يحدث ؟ » ثم هتف يقول بعاطفة خارقة : « أليس العالم حلماً لا أكثر ؟ خذ رملاً وبذره على حصى ، فاذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك في العالم . » . هذا ما يقولونه عندنا . أما عند المسيح فيقال : « امض وزع ثروتك ، واجعل نفسك خادماً للجميع » ، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة . ذلك أن السعادة لا يصنعها الطعام وحده ، ولا الثياب الثمينة ، ولا الزهو والحسد ، وانما يصنعها حب لا نهاية له . ان ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة ، ولا مائة ألف ، ولا مليوناً ، وانما أنت ستكسب الكون بأسره ! نحن الآن نجمع المال بدون شبع ، ونتلفه بجنون . أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء ، لأن الجميع لي أنا ، لأن الجميع أقربائي،

كسبتهم جميعاً ، اشتريتهم الى آخرهم . ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم ، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات . أما حينذاك فان أيامك وساعاتك ستتضاعف ألف مرة ، لأنك لن تريد أن تضيّع دقيقة صغيرة واحدة ، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك . وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها ، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجهاً لوجه . وسوف تتألق الأرض عندئذ أكثر مما تتألق الشمس ، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه ، ولا يبقى الا جنة واحدة لا تقدر بثمن ... » .

تلك هي نوبات الحماسة التي كان يحبها فرسيلوف فيما أظن حباً عظيماً . ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في الغرفة .

قاطعت ماكار ايفانوفتش فجأة لأقول وقد فارت حماستي أنا أيضاً (انني أتذكر تلك السهرة) :

ـ ماكار ايفانوفتش ! ان ما تنادي به وتدعو اليه هو الشيوعية ، هو شيوعية حقيقية !

واذ كان لا يعرف أي شيء عن المذهب الشيوعي ، حتى انه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة ، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعي . اعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض ، وأنني حتى الآن لست حجةً في هذا الموضوع ، غير أن القليل الذي كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شيء . مازال يسرني أن أتذكر التأثر الخارق الذي أحدثته في الشيخ ، بل أستطيع أن أقول ان ما أحدثته فيه لم يكن تأثراً بل كاد يكون هزة . وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية ، فكان لا ينفك يسألني : «أين ؟ كيف من فعل هذا ؟ من قال هذا ؟ ..

وكنت قد لاحظت على كل حال ان هذه خاصة من خصائص الشعب : ان الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً ، لم يكتف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل حتماً . ولقد أربكتني التفاصيل وتهت في شعابها ، واذ كان فرسيلوف يستمع الى حديثي ، فقد خجلت منه قليلاً ، ولكنني ازددت من ذلك حماسة واندفاعاً . وأصبح ماكار ايفانوفتش في النهاية ، وقد ذاب حناناً ، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتي بقوله : « نعم نعم » ، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهم عني ولا يتابع سلسلة حديثي . وقد ضايقني هذا ، ولكن فرسيلوف قاطعني فجأة ، ونهض معلناً أنه آن أوان النوم . وكانت الأسرة كلها مجتمعة ، وقد طالت السهرة . وحين جاء فرسيلوف بعد بضع دقائق يلقي نظرة على غرفتي أسرعت أسأله عن نظرته الى ماكار ايفانوفتش ، وعن رأيه فيه عامة . فضحك ضحكة فرحة (ليست تهكماً على أخطائي في حديثي عن الشيوعية ، فانه لم يتكلم عن هذا الأمر) . أعود فأقول : ان فرسيلوف كان شديد الالتصاق بماكار ايفانوفتش ، وكثيراً ما فاجأت على وجهه ابتسامة فتانة حين كان ينصت الى الشيخ . ولكن هذه الابتسامة كانت لا تمنع النقد . بادر فرسيلوف يقول :

ـ قبل كل شيء ، ليس ماكار ايفانوفتش فلاحاً ، وانما هو قن خادم كان أبوه قناً خادماً . فهؤلاء الأقنان الخدم كانوا يشاركون أسيادهم جوانب كثيرة من حياتهم الخاصة الفكرية والروحية ، في العهد الماضي . لاحظ أن ماكار ايفانوفتش لايزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والارستقراطية . انك لا تعلم بعدُ مدى ولعه وشغفه ببعض الأحداث التي جرت في بلادنا في الآونة الأخيرة . هل تعلم أنه شديد الاهتمام بالسياسة ؟ هذا رجل لا يكفيه أن تحكي له كلاماً عاماً ، وانما يجب عليك أن تذكر له كل شيء : من الذي قام بالحرب ؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً .. ؟

ما أعظم البهجة التى هيأتهـا له فى الماضى بأحاديث من هـذا النوع ! وهو يحترم العلم كثيراً ؛ ومن بين جميع العلوم يفضّل علم الفلك • عـدا هذا يجب أن نذكر أن له فى الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها • ان له اقتناعات ثابتة وواضـحة ••• ومخلصة ! ورغم جهله فانه قادر على أن يدهشك فجـأةً بمعرفته بأمور ما كان لك أن تتصور أن يعرفها • هو يمدح لك عزلة الصـحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف فى الصحراء بحال من الأحوال ، لا ولن يدخل الدير ، فانما هو خاصةً « متشرد » ، كما سـماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمنوفتش الذى يجب أن أذكر لك فى هذه المناسبة أنك تخطىء اذا أنت آخذته وحقدت عليه • ماذا أيضاً ؟ هو كذلك فنان قليلاً ، له كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه • منطقه ليس سليماً كل السلامة • انه تارةً يسبح فى عالم مجرد ، وتارة يغوص فى عاطفية شديدة ، ولكن عاطفيته عاطفية شعبية صافية ، أو قل انها نوبات من ذلك الحنان الذى يتصف به شعبنا ويدخله فى شعوره الدينى ولن أتكلم عن نقـــاء قلبه وطيب نفســـه : فليس الحديث عن هـذا من شأننا نحن •••

٣

كى أنتهى من رسم صـورة ماكار ايفانوفتش ، سأنقل الآن قصة من قصصه ، مستمدةً من حياته الخاصة • ان لقصص ماكار ايفانوفتش طابعاً غريباً ، بل قل انها لا يجمعها طابع مشترك • يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو اتجاهاً عاماً ، اللهم الا كونها مثيرة للحنان جميعاً • غير أن بينها قصصـاً لا تتصف بهذه الصفة ، حتى ان بينها قصصاً مرحة فكهة تشتمل على سـخريات من بعض الرهبان الفاسدين ، وهذه قصص كانت روايتها تسىء الى فكرته ، وقد نبهته أنا الى هذا ، ولكنه لم يفهم ماذا أردت أن أقول • وكان يصعب على المرء أحياناً أن يحزر ما الذى كان يدفعه الى رواية هذه القصص ، حتى لقد استغربت منه هذا الاكثـار من الكلام ، فعزوته الى شيخوخته والى حالته المرضية •

همس فرسيلوف يقول لى يوماً :

ــ ليس الآن كما كان فى الماضى • ان وفاته قريبـة ، انهـا أقرب كثيراً مما نظن • فيجب أن نكون متأهبين •

نسيت أن أقول ان « سـهرات » مطـردة كانت قد اسـتقرت عادة عقدها عنـده ؛ فعدا ماما التى كانت لا تترك ماكار ايفانوفتش ، كان يأتى فرسيلوف الى غرفته كل مساء ، وكنت آتى أنا أيضاً ، ولم يكن ثمة مكان آخر أذهب اليه على كل حال ؛ وفى الأيام الأخـيرة أصبحت تأتى ليزا فى العادة ولو أنهـا تصـل متأخرة عن الآخرين وتظل صـامتةً طول الوقت

تقريباً ؛ وكانت تاتى تاتيانا بافلوفنا ، وكان يجيء الطبيب أيضاً ولكن مجيئه نادر . ولا أدرى كيف رأيتنى أصبح قريباً من الطبيب . صحيح أننى لم أقترب منه كثيراً ، ولكننى على كل حال أصبحت لا أثور عليه كما كنت من قبل . ان ما أعجبنى فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً ، ونوع من التعلق بأسرتنا ، فقررت أن أغفر له غروره الطبى ، وعلمته عدا ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره ، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك أمر لم أفلح فى أن أحمله عليه . وقد أفهمته أننى لا أطلب منه هذا حرصاً على الأناقة ، وتعلقاً « بالفنون الجميلة » ، وانما أنا أطلبه منه لأن النظافة جزء من وظائف الطبيب نفسها مبرهناً له على ذلك بالحجة الدامغة . وكانت لوكيريا تأتى من مطبخنا فى أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتةً الى ما يرويه ماكار ايفانوفتش . وقد دعاها فرسيلوف يوماً أن تدخل فتجلس معنا . فأعجبنى منه هذا . ولكنها انقطعت منذ ذلك اليوم عن المجيء . ان لها طبعها !

أحب أن أسوق الآن قصة من قصص ماكار ايفانوفتش وقع عليها اختيارى عرضاً لسبب واحد هو أننى أحفظها أكثر مما أحفظ القصص الأخرى . هى قصة تاجر أظن أن مدننا الكبيرة والصغيرة تجرى فيها آلاف من القصص تشبهها ، فيكفى أن تحسن النظر حتى نراها . وللقارىء أن يقفز فوق هذه القصة اذا شاء ، لا سيما وأننى أرويها بأسلوب صاحبها .

٤

حدث هذا عندنا ، بمدينة آفيميافو . سأحكى لكم الآن هذه المعجزة . كان يوجد تاجر اسمه سكوتوبوينيكوف ، مكسيم ايفانوفتش . لم يكن فى المقاطعة أحد أغنى منه . كان قد بنى مصنع نسيج يشغّل مئات من العمال . وهذا كبّر رأس الرجل . ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامره . وكانت السلطات لا تضع له العصى فى العجلات . وكان الأرشمندريت يشكر له همته وحماسته ، اذ كان يقدم للدير هبات كثيرة ، وكان فى بعض الأحيان ، اذا بدا له أن يفعل ذلك ، يتكلم كثيراً عن الروح ، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة . وكان أرمل ، ولم يكن له أولاد . عن زوجته كانت تجرى شائعات تقول انه أساء معاملتها كثيراً فى السنة الأولى من زواجهما ، مستعملاً قبضتى يديه فى أكثر الأحيان . أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال . وكان يحب الشراب أيضاً . فاذا شرب رآه الناس يركض فى أرجاء المدينة ثملاً ، خالعاً ثيابه ، صارخاً . والمدينة صغيرة ، فجميع الناس يعرف بعضهم بعضاً . حتى اذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً ، كلُّ رأى يراه فهو الصواب ، وكل أمر يصدره فهو يعرف كيف يصدره . مع الناس كان يصفى حساباته كما يشاء هواه . هاهو ذا يمسك عدادته ويضع نظارتيه ـ : « أنت يا فوما ، كم لك علىّ ؟ » فيجيبه فوما : « لم أقبض شيئاً منذ عيد الميلاد يا مكسيم ايفانوفتش . لى عليك تسعة وثلاثون روبلاً » . فيقول : « لا ، هذا كثير عليك ! أنت لا تساوى تسعة وثلاثين

روبلاً • هذا لا يناسبك أبداً ! يجب أن نخصص عشرة روبلات • خذ • هذه تسعة وعشرون ! » • فلا يقول فوما شيئاً • لا أحد يمكن أن يتفوه بكلمة • صمت عام •

ـ أنا أعرف كم يجب أن يُدفع له • هذا هو التصرف الواجب مع هؤلاء الناس • الناس هنا فاسدون لولاى أنا لماتوا جوعاً منذ زمن طويل • لماتوا كلهم بدون استثناء • أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص : عيونهم أكبر من بطونهم • وليس لهم قلوب تتحرك • زد على ذلك أنهم سكّيرون : متى دفعت لهم راتبهم حملوه الى الحانة ثم لم يخرجوا منها الا عرياً لا يستر جسمهم شيء ، عرياً كدودة • ثم انهم أوغاد : اجلس على صخرة أمام الحانة واسمع أنينهم وشكواهم : « لماذا ولدتنى يا أمى العزيزة ، أنا السكير المسكين ؟ لماذا ولدت هذا السكّير ؟ كان الأفضل أن تخنقيه منذ ولد ! » • أهذا انسان ؟ بل هو حيوان لا انسان • يجب أن نربيه أولاً ، وبعد ذلك نعطيه مالاً • أنا أعرف متى يجب أن يعطى أحدهم مالاً •

هكذا كان يتكلم مكسيم ايفانوفتش عن أهل آفيميافو • لم يكن ذلك حسناً منه • ولكنه ليس وحده مخطئاً • كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون قوة الارادة •

وكان يوجد فى تلك المدينة نفسها تاجر آخر • ولكن هذا التاجر الآخر مات • كان شاباً وطائشاً ، فأفلس وفقد كل رأس ماله • كان فى السنة الأخيرة يتخبط كسمكة على الرمل ، ولكن ساعته كانت قد حانت • وكانت علاقاته بمكسيم ايفانوفتش شجاراً مستمراً ، وكان مديناً له بمبالغ كبيرة • حتى وهو على فراش الموت ، حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، كان يلعن مكسيم ايفانوفتش • ومات الرجل تاركاً زوجة شابة وأطفالا خمسة وأما أرملة ؟ سنونو بلا مأوى • هذه محنة قاسية ، ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم • وكان كل ما بقى

لهم بيتا صغيراً من خشب انتزعه مكسيم ايفانوفتش سداداً لديونه • واليكم ما فعلته الأرملة : صفّت أطفالها الخمسة أمام باب الكنيسة : ان أكبرهم صبي عمره ثماني سنين ؛ والأطفال الآخرون كلهم بنات صغيرات • كبراهن عمرها أربع سنين ، صغراهن لاتزال ترضع • فلما انتهى القداس ، خرج مكسيم ايفانوفتش من الكنيسة ، فركع الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس) ، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً ، وانحنت الأم الى الأرض وهي تحمل الطفل الخامس على ذراعيها ، انحنت محيية مكسيم ايفانوفتش قائلةً له على مسمع من جميع الناس : « يا سيدي الطيب مكسيم ايفانوفتش ، ارحم أطفالاً يتامى ، ولا تنتزع منهم آخر لقمة ، لا تطردهم من عش أبيهم ! » • جميع الذين رأوا المشهد ذرفوا دموعاً • أحسنت الأم تعليم أطفالها الدرس • قدّرت أن مكسيم ايفانوفتش لابد أن يخجل أمام الناس ، فيغفر ويرد البيت الى اليتامى • ولكن حدث غير هذا • وقف مكسيم ايفانوفتش وقال : أيتها الأرملة الشابة ، أنت تريدين زوجاً ، وليس من أجل الأطفال تبكين • زوجك لعنني وهو على فراش الموت ! ومضى مكسيم ايفانوفتش ولم يردّ البيت • قال : « كيف تنطلي عليّ ألاعيبهم ؟ اذا أنت أكرمت اللئيم تمرد ! لا يفيد هذا كله في شيء ، ولا يؤدي الا الى فوضى ! » • وكان يتناقل الناس في المدينة أن مكسيم ايفانوفتش ، قبل عشر سنين ، قد عرض على هذه الأرملة التي كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال ، مبلغاً ضخماً من المال ، ناسياً أن هذه الخطيئة كخطيئة تدمير كنيسة من كنائس الرب • ولكنه لم يظفر منها بشيء • وكان قد ارتكب أعمالاً قذرة من هذا النوع في المدينة بل في المقاطعة كلها • ولكنه في هذه المرة جاوز الحدود •

أخذت المرأة تعول مع صغارها • وطرد مكسيم ايفانوفتش الأيتام من البيت ، لا حباً بالشر فحسب ، بل لأن المرء في بعض الأحيان يجهل

هو نفســه سبب عنــاده واصراره على فكرته • وقد هبَّ بعض الناس الى مساعدة الأرملة فى البــداية ، ثم مضت بعد ذلك تلتمس عملاً • ولكن ما عسى يجنى المرء من العمل عندنا فى غير المصنع ؟ تغســل أرضاً هنا ، وتعزق حديقة هناك ، وتوقد حماماً هنالك ، وعلى ذراعيها طفل يبكى وفى الشارع أربعة صغار يركضــون عراةً الا من قميص ؟ حين أركعتهم أمام الكنيســة كانوا لا يزالون ينتعلون أحذيتهــم الصــغيرة ، ويرتدون معاطفهم الصغيرة ، كأولاد التجار • أما الآن فانهم يركضون حفاة • تعلمون أن الثياب تبلى بسرعة أجســام الأطفال • وعلى كل حــال فالأطفــال لا يحتاجون الى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع • هم فى ذلك الفصل لا يحسون بالبؤس ، بل ينطلقون ســعداء ، يزقزقون كالعصافير ، وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة • كانت الأرملة تقول : « سيأتى الشتاء فما عسانى صانعة بكم ؟ » ليت الرب يأخــذكم اليه ! » ولكنها لم تضطر الى الانتظار حتى حلول الشــتاء • انتشر فى مقاطعتنا ســعال أطفال ، السعال الديكى ؟ فكان يسرى من طفل الى طفل • فماتت البنت الرضــيع أولاً ، ومرض الآخرون فماتت البنــات الأربع فى ذلك الخريف نفســه • ولكن واحدةً منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها فى الشارع • فماذا الذى تظن أنه حدث ؟ دفنت الأم بناتها باكية معولة • كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت ، فلمــا أخــذهن الرب اليه ؟ طفقت تنتحب وتتشنج • هكذا قلوب الأمهات !

لم يبق لها الا ابنها البكر • فكانت ترتعش خوفاً عليه ، حتى لتكاد تختنق اختناقاً • وكان الولد نحيــلاً رقيقاً ، وكان له وجه لطيف كأنه بنت • مضت بالولد الى المصنع ، فعهدت به الى عرابه الذى كان مديراً • وذهبت هى تعمل خادمةً فى بيت أحد الموظفين • وفى يوم من الأيام كان الولد يركض فى الحوش ، فاذا بمكسيم ايفانوفتش يصل راكباً عربته ،

وكان مخموراً كأنما بمصادفة ، وكان الولد قد هبط السلم ، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته ، ووضع كلتا يديه على بطنه ، فأمسك مكسيم شعر الولد ، وصاح يسأل : « لمن هذا الولد ؟ هاتوا السياط ! اجلدوه فورا ، أمامي . » كاد الولد أن يموت خوفا ، وأخذوا يجلدونه ، فكان يصرخ ، قال مكسيم : « تصرخ أيضا ؟ اجلدوه الى أن يكف عن الصراخ ! » ، جلدوه مزيدا من الجلد ، الى أن أشرف على الموت فعلاً ، فتوقفوا عن جلده ، وارتاعوا : أصبح الطفل لا يتنفس ، وظل راقداً مغشياً عليه ، لقد قيل فيما بعد انه لم يجلد كثيراً ، ولكنه كان طفلاً شديد الخوف جداً ، وارتاع مكسيم ايفانوفتش نفسه ، وسأل : « لمن هذا الولد ؟ » ، فقالوا له من هو ، فقال : « هكذا اذن ! احملوه الى أمه ، ماذا جاء به الى المصنع يسرح فيه ويمرح ؟ » ، وبعد يومين سأل : « ما أخبار الولد ؟ » ، وكانت الأخبار سيئة : كان الولد مريضاً ، راقداً في ركن عند أمه ، لأن أمه تركت عملها في هذه المناسبة ، كان الولد مصاباً باحتقان في الرئة ، قال مكسيم : « عجيب ! لماذا ؟ انه لم يُضرب كثيراً ، وانما خُوِّف تخويفاً فحسب ، لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته ، فلم يحدث شيء . » ، وكان يتوقع أن تشكو المرأة أمرها الى القضاء ، فكان يتكبر ويتعالى ، ولكن أنّى للمرأة أن تشتكي ! لم تجرؤ ، عندئذ أرسل اليها خمسة عشر روبلاً ، وأوفد لها طبيباً ، فعل هذا لا لأنه كان خائفاً ، بل فعله هكذا ، بعد تفكير ، ثم أصابته نوبة اقبال على الخمر ، فلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع ،

وانقضى الشتاء ، حتى اذا كان الفصح ، سأل في يوم العيد مرة أخرى : « ما أخبار الولد ؟ » ، لقد صمت طول الشتاء لايسأل أبداً ، قيل له : « الولد شفي ، وهو عند أمه ، والأم تعمل خادمة في النهار » ، ذهب مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة ، ولكنه لم يدخل البيت ، بل استدعاها

الى المدخل ، وبقي في عربته • قال لها : « اسمعي ايتها الارملة المحترمة ، انني أريد لابنك الخير ، أريد أن أكون المحسن اليه ، وأن أغدق عليه نعمي بغير حدود : آخذه الى منزلي منذ اليوم • فاذا أعجبني قليلاً تركت له مبلغاً كبيراً ، واذا أعجبني اعجاباً تاماً جعلته وريثي بعد موتي وتركت له كل ثروتي كأنه ابني ، ولكنني أفعل هذا بشرط واحد : أن لا تجيئي الى بيتي أبداً ، الا في الأعياد الكبيرة • قال هذا وانصرف • وبقيت الأم كالمجنونة • سمع الناس كلام مكسيم ، فقالوا للأم : « حين يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً اذا أنت حرمته من هذا الحظ » • فظلت الأم تبكي ابنها طول الليل ، حتى اذا طلع الصبح اصطحبته الى مكسيم • فكان الولد أقرب الى الموت منه الى الحياة •

ألبسه مكسيم ايفانوفتش كما يلبس سيد صغير ، وأستأجر له معلماً ، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة • أصبح لا يحوّل عنه بصره ، ويجلسه الى جانبه دائماً • فمتى تثاءب الطفل انبرى يقول له : « خذ كتاباً وادرس ! أريد أن أجعلك رجلاً » • ولكن الولد كان ضعيفاً هزيلاً منذ المرة الأولى ، منذ جُلد بالسياط • وكان يسعل • فكان مكسيم ايفانوفتش يقول مدهوشاً : « اذن فالحياة عندي لا تروقه • كان عند أمه يركض حافي القدمين ، ولا يأكل الا كسرات خبز ، ثم ها هو ذا الآن أشد هزالاً مما كان » • فقال له المعلم : « الأطفال يحتاجون الى الركض ، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله في الدرس ، فلابد لهم من الحركة ••• » • شرح له ذلك كله مدعوما بالحجج • فقال مكسيم ايفانوفتش : « ما تقوله حق » • المعلم هو بطرس ستيبانوفتش حفظه الله • رجل طيب يشبه أن يكون « مجذوبا » • كان يحب الشراب ، بل كان يسرف قليلاً في الشراب ، لذلك طرد من جميع الوظائف التي عين لها ، فكان يعيش على الصدقات تقريباً • ولكنه كان دماغاً كبيراً ، كان قوياً في

العلوم . حتى لقد كان يقول بينه وبين نفسه : « هذا ليس مكاني ، فانما يجب أن أكون استاذاً بالجامعة . أما هنا فأنا في الوحل » حتى صارت ثيابي تتقزز مني » . وهذا مكسيم ايفانوفتش ينادي الطفل صارخاً فيقول له: « هيّا اركض » ، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس أمامه . حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتمل صوته . فأخذ يرتجف . فازدادت دهشة مكسيم ايفانوفتش وقال : « أخرجته من الوحل ، وألبسته ناعم الثياب ، ونعلته بأحسن الجلد ، وجعلت له قميصاً مطرزاً ، وعاملته كما يعامل ابن جنرال ، ثم هو لايزال غير متعلق بي ! ما باله ينظر اليّ كما ينظر صغير الذئب ؟ » . منذ مدة طويلة أصبح لا يندهش أحد من صدور أي شيء عن مكسيم ايفانوفتش . ولكن الناس عادوا يدهشون : انه مرتبط بالولد أشد الارتباط ، لا يستطيع أن يفارقه ، ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله . وكان يقول : « اني أفضّل أن أُشنق على أن أعجز عن تغيير طبعه . لقد لعنني أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس . انه صورة أبيه ! » .

لم يجلده مرةً واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى) وكان الطفل مروّعاً بدون جلد ، فما الحاجة الى جلده ؟

حينئذ حدث الحادث . ففي ذات يوم ، بعد أن خرج مكسيم من الغرفة ، ترك الطفل كتابه وصعد على كرسي ، اذ كانت كرته قد وقعت على خزانة ملابس ، فأراد أن يلتقطها ، ولكن كمه اشتبكت بمصباح من الخزف كان على الخزانة ، فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة . دوّى صوت سقوط المصباح في المنزل كله ، وكان المصباح تحفة ثمينة من خزف ساكس . سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من الغرفة الثالثة ، فأخذ يزأر . ذعر الولد ذعراً شديداً ، وأسرع يولي هارباً الى الشرفة ، ثم اجتاز الحديقة ، وخرج من الباب الخلفي حتى

صار على رصيف النهر . كان هناك شارع تزينه شجيرات مزهرة . مكان رائع الجمال . وهرع الولد الى الماء ، ورآه النـاس ، حتى اذا صار على حافة النهر ، في الموضع الذي ترسو فيه معدية ، باعد ذراعيـه ، ثم لعله خاف من الماء فبقي جامداً في مكانه . المكان عريض ، والنهر سريع ، والقوارب تمر ؛ وفي الجهة الأخـرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قباب من ذهب يسطع . وفي تلك اللحظة كانت الكولونيله فرتسنج تهبط نحو النهر مع ابنتها . كان بمدينتنا كتيبة مدفعيـة . وابنـة الكولونيلة صبية في الثامنة من عمرها هي أيضـاً ، ترتدي فستاناً أبيض . نظـرت الى الولد وضحكت . وكانت تحمل بيدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ . قالت لأمها : « انظري الى الصبي كيف يتطلع الى قنفذي يا ماما » . فقالت الأم : « لا بل هو خائف من شيء ما . لماذا تبدو خائفاً هذا الخوف الشديد أيها الصبي اللطيف ؟ ما أحسن ثيـابه ! من أنت يا ابني ؟ » (هـذا ما رُوي فيما بعد) . ولم يـكن هو قد رأى قنفذاً من قبـل . فاقترب ونظـر . نسي ما كان فيه . هكذا الأولاد ! قال يسأل : « ما هذا الذي معك ؟ » . أجابت الآنسة : « قنفذ . اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده في الغابة » . قال الصبي : « وما القنفذ ؟ » . وضـحك . وأراد أن يلمسه باصـبعه ، فانتفش القنفذ ، وضـحكت البنت ، وقالت : « سـنأخـذه الى البيت فنؤنّسه » . قال الصبي « اعطيني قنفذك ! » طلب منها ذلك هكذا ، بلطف . ولكن ما ان أنهى جملته حتى كان مكسيم ايفانوفتش يصرخ من أعلى : « آ ... هذا أنت ! أوقفوه ! » (كان مكسيم قد بلغ من شـدة الغضب أنه خـرج من البيت بدون قبعـة) . تذكر الطفل كل شيء ، وصرخ ، وتقدم نحو الماء ضاماً يديه الصغيرتين الى صدره ، ونظر الى السماء (رأوه ينظر الى السـماء) ، وألقى نفسـه في النهـر . فتعالى الصراخ في كل صوب ، واندفع ناس من المعدية يلقون أنفسهم في النهر عسى أن ينتشلوه ، ولكن الماء كان قد جرفه ، فالنهـر سريع ، حتى اذا أخـرجوه كان قد

فارق الحياة • لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره • لم يحتج الى وقت طويل حتى يموت • ما يسمع الناس فى بلادنا قبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً • خطيئة كبرى ! ما عساها تقول للرب فى السماء ، هذه النفس الصغيرة ؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم ايفانوفتش يفكر فى المسألة • وتبدلت حاله ، حتى صار المرء ينكره ولا يعرفه • حزن حزناً كبيراً • وأخذ يشرب • أخذ يشرب كثيراً • ثم انقطع عن الشراب : لم ينفعه شيء • وانقطع أيضاً عن الذهاب الى المصنع • وأصبح لا يصغى الى أحد • اذا كلموه لم يجب ، أو حرك يده مشيراً الى أنهم يضجرونه • وانقضى شهران ، ثم صار يكلم نفسه • صار يسير وهو يكلم نفسه • وشبت النيران فى قرية فاسكوفا ، بقرب المدينة ، فالتهمت تسعة بيوت • ذهب مكسيم الى الحريق ليرى • أحدق به المصابون وأخذوا ينتحبون : فوعد بأن يمد اليهم يد المعونة ، وأصدر أمره بذلك ، حتى اذا رجع الى بيته استدعى وكيله وألغى كل ما وعد به ، قائلاً له : « لا تعطهم شيئاً » ،ولم يذكر السبب • قال يحدث نفسه : « ان الرب خلقنى شيطاناً ، وجعلنى بليةً لسائر البشر ، فليكن ذلك ! وقد طارت سمعتى فى الناس سريعة كالريح » • وجاءه الأرشمندريت بنفسه فى يوم من الأيام : انه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة • قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية : « ما هذا السلوك الذى تسلكه » ، فأجابه مكسيم : « هكذا ! » وفتح له كتاباً واشار له الى فقرة من الكتاب :

« من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخير له أن يعلَّق فى عنقه حجر الرحى ويُغرق فى لجة البحر » (انجيل متى ، الاصحاح الثامن عشر ، ٦) •

قال الأرشمندريت :

ـ نعم ، هذا لم يُذكر في هذه المناسبة ، رغم أن ثمة علاقة • ما أشقى الانسان الذي يتجاوز الحدود ! انه يضيع نفسه • وأنت قد أسرفت في الارتفاع •

تصلب مكسيم ايفانوفتش ، حتى لكأنه أصيب بداء التيتانوس •

قال له الأرشمندريت :

ـ اسمع واحفظ • لقد قيل : « كلام المكروب اليائس تحمله الرياح » • وتذكر أيضاً ما يلي : ملائكة السماء نفسها ليست كاملة ، والكامل الوحيد المبرأ من الخطيئة انما هو الرب ، يسوع المسيح ، الذي تخدمه الملائكة • ثم انك لم تشأ موت ذلك الطفل • كل ذنبك أنك كنت متهوراً قليل التبصر والتروي • غير أن هناك ما يملأ نفسي دهشة : لقد سبق أن ارتكبت سيئات كثيرة أخرى ؟ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين مستجدين ، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم ، ما أكثر الذين دفعتهم الى الموت دفعاً ، فكأنك قتلتهم ! وأولئك البنات الصغيرات ، وأخواته ، ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً ؟ فلماذا ينفرد هو بادخال الاضطراب الى نفسك ؟ أتراك نسيت جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها والندم عليها ؟ ما بالك ترتاع هذا الارتياع الشديد كله لموت هذا الطفل الذي لم تكن أنت مسئولاً عن موته كل المسئولية ؟

تمتم مكسيم ايفانوفتش يقول :

ـ لأنني أراه في المنام •

ـ ثم ماذا ؟

ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شيء ، وظل صامتاً • فدهش الأرشمندريت وانصرف : لا فائدة !

عندئذ أرسل مكسيم ايفانوفتش من يستدعي له المعلم ، بطرس سيتبانوفتش . انهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث .

قال له :

ـ هل تتذكر ؟

ـ أتذكر .

ـ سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم ، وأنك تنسخ الآن صورة للمطران . هل تقدر أن ترسم لي لوحة بالألوان ؟

ـ نعم ، أقدر . انني أملك جميع المواهب ، وأقدر على كل شيء .

ـ ارسم لي اذن لوحة ، أكبر لوحة ممكنة ، لوحة تحتل الجدار كله . ضع فيها النهر ، والمنحدر ، وجميع الناس الذين رأوا المشهد . ضع الكولونيلة وابنتها والقنفذ . وارسم الشاطيء الآخر كله بحيث يراه الناظر كما هو : الكنيسة والميدان والدكاكين والمكان الذي ترابط فيه العربات ، ارسم كل شيء كما هو في الواقع . وارسم الولد أمام المعدية ، على ضفة النهر ، في ذلك المكان نفسه ، واجعل يديه مضمومتين الى صدره . وأمامه ، على الشاطيء الآخر ، شقّ السماء ، وصوّر جميع الملائكة في النور السماوي وهم يطيرون الى لقائه . هل تقدر أن ترسم هذا ؟

ـ أقدر أن أفعل كل شيء .

ـ اسمع ، أستطيع أن استقدم أكبر رسّام من موسكو وحتى من لندن ، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك . غير أنك ، أنت ، تتذكر وجهه . فاذا جاءت صورة وجهه لا تشبهه ، أو لا تشبهه شبهاً كافياً أعطيتك خمسين روبلاً ، أما اذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيك مائتي روبل .

تذكر عينيه الصغيرتين الزرقاوين ••• ولتكن اللوحة أكبر لوحة ممكنة •

وأبرما اتفاقهما • وأخذ بطرس ستيبانوفتش يعمل ، ولكنه جاء الى التاجر يقول له في ذات يوم :

ـ لا سبيل الى رسم ما ذكرت •

ـ لماذا ؟

ـ لأن هذه الخطيئة ، خطيئة الانتحار ، هي أكبر الخطايا جميعاً ، فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة ؟

ـ لكنه طفل • ليس مسئولاً •

ـ لا ، لم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان عمره ثماني سنين حين حدث الحادث • فو مسئول قليلاً رغم كل شيء •

ازداد مكسيم ايفانوفتش ارتياعاً • قال :

ـ وجدت حلاً : لاتشق السماء ولا ترسم ملائكة ، حسبك أن تسقط عليه من السماء شعاعاً • هذا شيء على كل حال •

فعل الرسام ما تخيله مكسيم ايفانوفتش • أسقط على الطفل شعاعاً من السماء • وقد رأيت اللوحة بنفسي ، فيما بعد ، مع الشعاع والنهر الأزرق ، رأيتها تغطي الجدار كله • كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه الصغيرتين الى صدره ، وكان فيها الآنسة الصغيرة والقنفذ ، كان فيها كل شيء • ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يسمح لأحد برؤية اللوحة : أغلق عليها مكتبه بالمفتاح • هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة ، ولكنه طردهم جميعاً • وتكلم الناس في الأمر كثيراً • وتغيرت حال بطرس ستيبانوفتش حتى لكأنه شخص آخر • أصبح يقول لنفسه : « أنا الآن أقدر على كل شيء • مكاني الذي استحقه هو البلاط في بطرسبرج • • » •

ان بطرس ستيبانوفتش من أحب الناس الى القلب • ولكنه كان يحب أن

يعظم نفسه كثيراً • وسرعان ما وافته منيته : فانه بعد أن قبض المائتى روبل، هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تباهياً ، فقتل ذات ليلة ثملاً • قتله بورجوارى كان يشرب معـه ، وأخـذ ماله • واكتُشف هذا كله فى الصباح •

اما تتمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك : فى ذات يوم جاء مكسيم الى الأرملة راكباً عربتـه • كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً فى آخر المدينة • وقد دخل هذه المرة الى فناء البيت • وتسمـَّر أمامَ المرأة ثم حيـَّاها منحنياً حتى الأرض • وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك الأحداث كلها ، فهى لاتكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً • قال لها : « تعالى أيتها العزيزة ، أيتها الأرملة المحترمة ، تعالى تزوجينى رغم أننى شيطان رجيم ، ردّى الىّ القدرة على الحيـاة • نظـرت اليه المرأة لا حيـــةً ولا ميتة •قال لها : « أريد أن يـكون لنا صبى صغير آخر ، فاذا وُلد لنا صبى آخـر ، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا ، أنا وأنت • هو الذى أمرنى بذلك • » • لاحظت المرأة أن الرجـل لا يملك صوابه كاملاً ، وأنه خارج عن طوره ، ومع ذلك لم تطق صبراً فقالت له :

ـ هذه سخافات وحقارة • بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صغارى• لا أستطيع حتى أن أراك أمامى ، ناهيك عن أن أحـكم على نفسى بمثـل هذا العذاب الى الأبد ؟

انصرف مكسيم ايفانوفتش ، ولكنه لم يهدأ • ذُهلت المدينة كلها من هذه المعجزة • أرســل مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة نساءً يتشفعن له عندها • واســتدعى من بلده عمتين له ، قد تكونان عمتيـه وقد لا تكون عمتيه ، ولكنهما بورجوازيتان من قريبـاته على كل حال ، أى امرأتان لهما وزن وقيمة • أخـذت النساء تنصحها ، وتمدحها ، ولا تخرج من عندها • وأرسل أيضـاً أشـخاصاً من المدينـة : أرسل تجاراً ، وامرأة

الأرشمندريت ، وزوجات موظفين • المدينة كلها راحت تتقرب منها وتتزلف اليها • ولكنها احتقرتهم جميعاً • كانت تقول :« لو كان هذا يبعث يتاماى أحياء فقد أقبل ، أما وأنهم لن يبعثوا فعلام أفعل ؟ اذا رضيت لأثمت في حق أولادي اليتامى ! » •

وقد استطاع مكسيم ايفانوفتش ان يحمل الارشمندريت نفسه على الشفاعة لديها ، فقال لها الأرشمندريت : « سوف تخلقين منه انساناً جديداً » • فارتاعت • وكان الناس يدهشون من سلوكها : « كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة ؟ » • واليكم الطريقة التي استطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة : قال لها : « لقد قتل نفسه رغم كل شيء • ولم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان في سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف • فهو اذن مسئول عن خطيئة الانتحار بعض الشيء • فاذا تزوجتني نذرت لأبنينّ كنيسة جديدة لترتاح نفسه راحةً أبدية • » • أذعنت المرأة لهذه الحجة ، وارتضت أن تتزوج مكسيم ايفانوفتش ، وتمّ الزواج •

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج • لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول في وئام كامل صادق ، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً ، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين • وحملت المرأة في ذلك الشتاء نفسه ، وطفق الزوجان يزوران الكنائس ويتقون غضب الرب • وذهبا الى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات • وقام مكسيم ايفانوفتش ببناء الهيكل الذي وعد ببنائه ، وأنشأ في المدينة مستشفى وملجأ • ووهب جزءاً من ثروته لأرامل ويتامى • وتذكر جميع أولئك الذين أساء اليهم ، وحاول أن يرد اليهم ما اغتصبه منهم • ولكنه أخذ يبدد المال بغير اعتدال ، حتى ان امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصداه عن ذلك : « كفى ! ما فعلته كافٍ » • وانصاع مكسيم ايفانوفتش • لكنه قال : « لقد غششت قوما مرةً » •

ورد الى فوما حقه . وذرف فوما دموع التأثر ، وقال : « لاداعي الى هذا ... أخذنا منك كثيراً ، فنحن شاكرون لك فضلك الى الابد » . وتشبع جميع الناس بهذه الروح . حقاً ان الانسان يتأثر بالقدوة الصالحة . ان الناس في بلدنا طيبو القلب .

وتولت الزوجة ادارة المصنع ، بلغت من حسن ادارتها أن الناس لا يزالون يتذكرون ذلك . ولم ينقطع هو عن الشراب ، لكنها كانت تراقبه ، وحاولت أن تشفيه . وأصبحت أحاديثه رصينة حتى لقد تغير صوته . وصار رحيما رءوفاً حتى بالحيوانات : في ذات يوم رأى من نافذته رجلاً يضرب حصانه بالسوط ، فأرسل من يشتري الحصان بضعفي ثمنه . ووهبت له القدرة على البكاء : ففيما هو يتكلم مع أحد الناس ، تغرق عيناه بالدموع فجأة . ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فرزقهما غلاماً ، فاذا بمكسيم ايفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشقاء الذي أصابه . ووزع صدقات كثيرة ، وردّ ديوناً كثيرة ، ودعا المدينة كلها الى حفلة التعميد . ولكن وجهه كان في الغد مكفهراً .

ورأته زوجته مهموماً ، فجاءته بالوليد وقالت له : « ان ابني غفر لنا ، فدموعنا وصلواتنا أثرت في قلبه » . يجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السنة . وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه . نظر مكسيم ايفانوفتش اليها مظلم الوجه كالليل ، وقال لها : « اسمعي . انه لم يجئني طول هذه السنة . ولكنني رأيته في الحلم الليلة». وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما انتابها من شعور حينذاك فقالت : « عندما سمعت هذه الكلمات الغريبة ، نفذ الرعب في قلبي » .

لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم في الحلم . وما ان نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الوليد في تلك اللحظة نفسها . ودام مرضه ثمانية أيام ، فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع ، واستدعوا له الأطباء .

حتى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب • وقال الطبيب غاضباً : « اننى أكبر طبيب ، وموسكو كلها تنتظرنى • ووصف للمريض قطرات دواء وأسرع عائداً الى موسكو ، بعد أن قبض ثمانمائة روبل • ومات الطفل فى المساء •

ماذا حدث بعد ذلك ؟ ترك مكسيم ايفانوفتش ثروته كلهـا لزوجتـه العزيزة ، سلّمها جميع أمـواله وأوراقه ، متنـازلاً لها عن ذلك كله وفقاً للأصول المرعية والأنظمة الشرعية ، ثم وقف أمامها وانحنى يحييها حتى الأرض ، وقال لها : « يا زوجتى ، يا أغلى ما فى الحيـاة عندى ، دعينى أمضى لانقاذ روحى ما دمت أملك الآن سبيلاً الى ذلك • فاذا قضيت هذا الوقت دون أن أظفر بطائل ، فلن أعـود • لقد كنت قاسى القلب • ولقد سمت الآخرين سوء العذاب • ولكننى أظن أن الآلام التى سأتحملها فى المستقبل ، وحيـاة التجواب التى سأعيشها ، قد تشفع لى عنـد الرب فيهب لى رحمتـه ، ذلك أن ترك هذا كله ليس صليباً صـغيراً ولا ألماً صغيراً • » • حاولت زوجته أن تثنى عزمه بالدموع • قالت له : « ليس لى الآن على هذه الأرض أحـد غيرك ، فمن ذا الذى سـيرعانى ؟ لقد انفتح قلبى فى هذه السنة للمحبة والحنـان » • وظلت المدينة كلها تنصحه خلال شهر كامل • تضرعوا اليه ، قرروا أن يحتجزوه بالقوة • ولكنه لم يصغ الى أحد • وتسلل فجأة فى ذات ليلة ومضى ثم لم يعد • يقال انه لا يزال الى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العـذاب ، ويزور امرأته الغالية مـرةً كلّ شهر •

الفصل الرابع

١

الآن أصل الى الكارثة النهائية التى تختتم هذه المذكرات. ولكننى قبل أن أواصل الكتابة أرانى مضطراً الى أن استبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه فى حينه وانما أنا عرفته وأدركته بعد ذلك بمدة طويلة ، أى بعد أن انتهى كل شىء . واذا لم أفعل ذلك فلن يكون حديثى واضحاً ، بل سيكون ألغازاً لا تُفهم . ومن أجل هذا التوضيح التمهيدى سوف أضحى فى سبيل الوضوح والايجاز بكل ما يسمى اثارة فنية أو تشويقاً فنياً ، فكأن الذى يكتب ليس أنا ، وكأن قلبى لا يشارك فيه أية مشاركة . سيكون ما أقوله غير شخصى ، فهو أشبه « بمقالة صغيرة » فى جريدة .

كان فى وسع رفيق طفولتى ، لامبير ، أن ينتمى انتماءً تاما الى عصابة من تلك العصابات الرهيبة التى تتألف من متآمرين حقيرين يتواطئون على القيام بما يطلق عليه اليوم اسم « الابتزاز » ، وما يقع الآن تحت طائلة العقوبة فى بعض مواد القانون المدنى . والعصابة التى شارك لامبير فى أعمالها بعض المشاركة انما تكونت بموسكو ، وارتكبت عدداً كبيراً من المكائد (واكتشف شىء من أمرها فى النهاية) . وقد علمت فيما بعد أن أعضاءها كان لهم بموسكو ، خلال فترة من الزمن ، رئيس واسع الخبرة جداً ، ليس بالغبى ، وليس بالشاب اليافع ، وانما هو رجل متقدم فى السن . وكان أفراد العصابة ينفذون مشروعاتهم جماعةً واحدة فى بعض

الاحيان أو ينفذونها زمراً زمراً فى أحيان أخرى • وعدا الجرائم القذرة الكثيرة التى ارتكبوها (والتى تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد ، ماكرة أشـد المكر • وقد عرفت بعض هـذه الأعمال فيما بعد • لكننى لا أحب أن أدخـل فى التفاصيل • فحسبى أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم فى العمل : انهم يحاولون أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً فى بعض الأحيان ، وتكون لهم فى المجتمع منزلة عالية • فاذا عرفوا هـذه الأسرار ذهبوا الى أولئك الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهى وثائق ليست فى حوزتهـم أحياناً) ويطالبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم • ان هناك أمـوراً لا توجب العقاب ، وليس فيهـا شىء من اجرام ، ولكن أشرف الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها • وكان أفراد العصابة يستغلون الأسرار العائلية فى أكثر الأحيـان • فمن أجـل أن أُبيِّن للقارىء مدى الحذق والمكر فيما كانـوا يقومـون به من أعمـال ، سـأروى مكيدة من مكائدهم ، دون أن أدخـل فى التفاصـيل • لقد حدث فى أسرة كريمة من الأسر شىء يؤسف له حقاً ، بل شىء يمكن ان يوصف بأنه جريمة ، وهو أن زوجـة رجـل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غنى شاب • وقد ترامى هذا السر الى علم أفراد العصابة ، فاليكم ما فعلوه : ذهبوا الى الشـاب وهددوه بأنهم سيبلغون الزوج • لم يـكن لديهم أى برهان • ولكن كل حذقهـم فى اللجوء الى استعمال هـذا الأسلوب وكل براعتهم فى الحساب انما يقومان على أن الزوج ، اذا بلغه الأمر ، ولو لم يكن هنـاك براهين ، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعـة ، وسيتخذ الاجراءات التى يتخذها من توفرت له الأدلة الدامغـة • فهم قد بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة • وكان بين أفراد العصـابة شاب من المجتمع الراقى اسـتطاع أن يحصل سلفاً على معلومات مفيدة • فطالبوا العشيق بمبلغ ضخم من المال ، دون أن يتعرضوا

من ذلك لأى خطر ، لأن الضابط الذى وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهتم الا بكتمان الأمر •

ان لامبير ، رغم مشاركته فى أعمال تلك العصابة المسكوبيه ، لم يكن ينتمى اليها انتماء تاماً • لكنه وقد استطاب هذه الصنعة ، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً • يجب أن أبادر فأقول انه لم يكن قادراً على السير فى هذا الطريق كل القدرة • صحيح أنه لم يكن غبياً ، وصحيح أنه كان حيسوباً ، ولكنه كان شديد الاندفاع ، وكان عدا ذلك مسرفاً فى البساطة أو قل فى السذاجة : فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع • أظن مثلاً أنه كان لا يدرك الدور الذى يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو ، فكان يتخيل أن ادارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً • وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جبناء مثله ، فاذا لاحظ مثلاً أن فلاناً من الناس خاف فى ظرف خاص ، تخيَّل أنه سيخاف فى كل ظرف لأنه جبان • كان هذا عنده بديهية من البديهيات •

أحسب اننى لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله • وهذه الأمور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد • ولكننى أعتقد أن لامبير كان سيء الخلق ، فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة ، بل لا يخطر له وجودها على بال •

وقد جاء الى بطرسبرج لأنه كان يحلم منذ مدة طويلة بأن مجال العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو ، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج ، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضمر له أسوأ النيات • فلما وصل الى بطرسبرج أسرع يتصل برفيق من رفاقه القدامى • ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة • ثم اتسعت دائرة معارفه ، ولكنه لم يصل الى ثمرة • وقد قال لى فيما بعد:

« الناس هنا خرق بالية وصبية صغار لا أكثر » . وهاهو ذا في ذات صباح ، عند طلوع النهار ، يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار ، ثم يكتشف مما قلته اثناء هذياني انه وقع على « قضية هامة جداً » يمكن أن تدر عليها أرباحاً طائلة ، أو هذا ما قدّره .

لقد استخرج هذه القضية كلها مما رويته له حين كنت أتدفأ في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً . فمن كل ما أفلت من لساني ذلك اليوم كان يتضح أن الاهانة الكبرى انما وقعت عليّ من بيورنيج ، ومنها « هي » : والا لكان يمكن أن يدور هذري على ما جرى لي عند تسرشتشكوف . ولكنني لم أهذر الا في الأمر الأول ، وهذا ما عرفته بعد ذلك من لامبير نفسه . ثم انني كنت متحمساً ، وكنت في ذلك الصباح الرهيب أعد لامبير وآلفونسين منقذين ومحرّرين . وحين تساءلت بعد ذلك ، أثناء نقاهتي ، وأنا لا أزال في السرير : ما عسى عرف لامبير من أحاديثي ابان الهذيان ، والى أي مدى أفضيت اليه بأسراري ، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة ! صحيح أنني كنت أقدّر ـ وهذا ما تدل عليه مشاعر الندامة التي أخذت بخناقي ـ أنني قد أكثرت من الكلام حتماً ، ولكن أعود فأقول انني لم يدر في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله ! وقد أمّلت أيضاً ـ وكنت أعوّل على هذا ـ أن أكون قد عجزت في ذلك الوقت ، بسبب ضعفي ووهني ، عن النطق بكلام واضح . وهذا ما أتذكره الآن تذكراً واضحاً . ولكن تبيّن في الواقع أنني قلت كلاماً أوضح كثيراً مما كنت أقدّر وأؤمل . ولكن المهم أن هذا كله لم يتكشف لي الا بعد مدة طويلة ، وذلك كان سبب بلائي .

استطاع لامبير أثناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتماتي وحماساتي وما الى ذلك ، استطاع أن يعرف أولاً : جميع الأسماء تقريباً ، وحتى بعض العناوين ، معرفةً دقيقة . واستطاع ثانياً أن يكوّن لنفسه فكرة قريبة

من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز ، بيورنج ، هي ، آنا آندريفنا ، وحتى فرسيلوف) • واستطاع أن يعرف ثالثاً أنني ُأهنت وأنني هدّدت بالانتقام • واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن في حوزتي وثيقة سرية مخبأة هي رسالة يكفي أن ُيطلع عليها أمير عجوز نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بخط بنته التي تصفه في هذه الرسالة بأنه مجنون وتستشير فيها أناسا من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً عليه ، فاما أن يجنّ نهائياً واما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث أو يتزوج آنسة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له بتزوجها • الخلاصة أن لامبير عرف أشياء كثيرة • ولا شك أن هناك أشياء كثيرة بقيت غامضة في ذهنه ، ولكنه قد أمسك بالخيط ووضع قدمه في الطريق • وحين فررت بعد ذلك من عند آلفونسين استطاع أن يعرف عنواني فوراً (بأبسط وسيلة : مكتب العناوين) • ثم أسرع يجمع المعلومات اللازمة ، فعرف أن جميع الأشخاص الذين سميتهم موجودون فعلاً • فبادر عندئذ الى القيام بأول مسعى •

كان الشيء الأساسي هو أن هناك وثيقة ، وأن الوثيقة في حوزتي أنا • ولم يخامر لامبير أي شك في أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة • هنا أسكت عن ظرف يستحسن أن أرجيء ذكره الى أن يحين وقته • ولكنني أشير الى أن هذا الظرف قد عزز اقتناع لامبير بأن الوثيقة موجودة فعلاً وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالاً ان الظرف كان حاسماً ، ولم يكن في امكاني أن أتخيله في ذلك الوقت ، حتى ولا الى آخر القصة ، أي الى اللحظة التي انهار فيها كل شيء دفعةً واحدة واتضح من تلقاء نفسه) • حتى اذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مضى يزور آنا آندريفنا قبل كل شيء •

لايزال هنالك لغز يحيّرني : كيف استطاع هذا الرجل ، لامبير ، أن

يتسلل فيصل الى انسانة صعبة المأخذ رفيعة مثل انا اندريفنا ؟ صحيح أنه حصل على معلومات ، ولكن ما قيمة هذا ؟ وصحيح انه كان حسن الهندام وأنه كان يتكلم بلهجة باريسية ويسمى باسم فرنسى ، ولكن كيف لم تدرك آنا آندريفنا على الفور أنه وبش ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوبش نفسه هو الذى كانت محتاجة اليه فى ذلك الوقت ؟ هل هذا ممكن ؟

لم أشأ فى يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذى تم بينهما . ولكننى تصورت المشهد بعد ذلك مراراً كثيرة . أغلب الظن أن لامبير منذ البداية ، قد مثّل بأقواله وحركاته ، دور صديق الطفولة القلق على رفيق عزيز . وأغلب الظن أنه أشار فى الوقت نفسه اشارة واضحة الى « الوثيقة » التى فى حوزتى ، وأنه أفهم آنا آندريفنا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحد غيره ، هو لامبير ، وأننى أعوّل على هذه الوثيقة للانتقام من الجنرالة آخماكوفا ، الى آخر ما هنالك . واستطاع خاصةً أن يشرح لها ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمة عظيمة ، شرحاً فيه كل ما يجب من دقة ، وكانت آنا آندريفنا فى ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها فيه الا أن تتشبث بمثل هذا النبأ ، والا أن تنصت اليه بانتباه شديد .. والا أن تعلق بالفخ ـ انقياداً لدافع « الصراع من أجل البقاء » .

كانوا ، فى ذلك الأوان نفسه ، قد انتزعوا منها خطيبها ، ونقلوه الى تساركويا تحت الوصاية ، ووضعوها هى نفسها تحت الوصاية . ثم اذا بحظ موات يعرض لها : فالأمر الآن ليس أمر نمائم يهمس بها همساً ، ولا أمر شكاوى ترافقها دموع ، ولا أمر أقاويل ووشايات ، انما الأمر الآن أمر رسالة ، رسالة مكتوبة بالخط ، أى برهان قاطع على سوء ما تضمره ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة ، وما يضمره جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مثل هذه النيات . هو برهان قاطع على أنه ينبغى

للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب ، وأن يجيء اليها هي انا آندريفنا ، وأن يتزوجها في غضـــون أربع وعشرين ساعة ، والا أودعوه مستشفى للمجانين •

ومن الجائز أيضـــاً ألا يـكون لامبير قد عمـد الى المكر مع هذه الآنســة دقيقة واحدة ، وانما قال لها فجأة منذ أول كلمة : « يا آنســة ، اما أن تبقى عانســاً ، واما أن تصبحى أميرة ومليونيرة : هنـــاك وثيقة ، سأستلمها من ذلك الشــاب ، وأسلـّمها اليك •• فهـاتى ثلاثين ألفاً » • بل انى لأظن أن هذا هو ما حـدث • نعم ، لقد كان لامبير يتصور جميع الناس أوغاداً مثله • أكرر مرةً أخـرى أن لامبير يتصف بما يتصف به الوغد من سذاجة ، وبراءة • ومن الجائز جداً كذلك ، أن آنا آندريفنا لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة ، وعرفت كيف تسيطر على نفسها سيطرة تامة ، وكيف تصغى الى الرجـل المبتز الذى يتكلم بلغته اصغاء كاملاً ، وذلك بفضـل « رحابة الفكر » • ولعلها احمـرت فى أول الأمر قليلاً ، ولكنه تجلدت وأنصتت الى النهاية • ما أوضح الصورة التى أتخيلها لهذه المرأة الصعبة المأخذ ، ذات الكبرياء ، الرصينة حقاً ، التى تملك فكراً واســعاً ، وهى تمد يدها الى يد رجـل مثل لامبير ! نعم ••• فكراً واسـعاً ! فكراً روسـياً بعيد الأفق ، شغوفاً « بالرحابة » ، هو الى ذلك فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف •

سألخص الآن : لقد كان لامبير ، فى يوم خـروجى بعد المرض ، يقف الموقفين التاليين (الآن انما أعـرف هذا معـرفة اليقين) : فهو أولاً يريد أن يطلب من آنا آندريفنـا ثلاثين ألف روبـل على الأقل ، ثمنـاً للوثيقة • وهو يريد ثانياً أن يســـاعدها فى تخويف الأمير ، واختطافه ، وتزوجه فوراً ، أو فى شىء من هـذا القبيل • حتى لقد تم وضـع خطة مقررة • ولكن تنفيذ الخطة ينتظرنى أنا ، أى ينتظر الوثيقة •

ولكن لامبير كان فى ذهنه مشروع آخر أيضاً ؟ هو أن يخون آنا آندريفنا ، فيتركها ويبيع الوثيقة للجنرالة آخماكوفا ، اذا كان ذلك يعود عليه بربح أكبر . وفى هذه الحالة يكون التعويل على بيورنج . ولكن لامبير لم يكن قد لقى الجنرالة بعد ، وانما هو يتتبع خطاها . وهنا أيضاً يجب انتظارى أنا .

آه ... ما كان أشد حاجته الىّ ، لا الىّ أنا ، بل الى الوثيقة ! وكان لامبير يتصور أن يتبع معى احدى خطتين أيضاً . فأما الخطة الأولى فهى ، اذا لم يمكن سلوك سبيل آخر ، أن نتعاون معاً ، فنتقاسم الربح بعد أن يكون قد استولى علىّ جسماً وروحاً . وأما الخطة الثانية ــ وهى تغريه اغراءً أشد ــ فقوامها أن يغرّر بى كما يغرر بصبى صغير ، فيسرق منى الوثيقة ، أو ينتزعها منى عنوةً وقسراً . وكان يحب هذه الخطة الثانية ويداعبها فى أحلامه . أكرر مرةً أخرى أن ثمة ظرفاً معينا كان يجعله لا يشك فى نجاح هذه الخطة الثانية تقريباً ، ولكن سبق أن ذكرت أننى سأشرح هذا الظرف فيما بعد . ومهما يكن من أمر ، فقد كان لامبير ينتظرنى نافد الصبر ، فكل شيء متوقف علىّ : المساعى التى يجب أن يقوم بها ، والخطة التى يجب أن يختارها .

ويجب أن أنصفه فأقول : انه رغم نفاد صبره قد سيطر على نفسه الى اللحظة الأخيرة . فلم يجىء الىّ أثناء مرضى أبداً ، ولكنه مرّ بالبيت مرةً وكلّم فرسيلوف . لم يرهقنى ، ولم يخفنى ، حتى لقد ظلّ الى ساعة خروجى يظهر عدم المبالاة . وكان على يقين من أننى لن أكلم عن الوثيقة أحداً ، ولن أسلمها الى أحد ، ولن أتلفها بحال من الأحوال . لقد استطاع أن يستخلص من أقوالى نفسها فى بيته أننى أحتفظ بالوثيقة سراً مكتوماً ، بل أخاف أن يفتضح أمرها . وكان لا يشك فى أننى متى شفيت فسيكون هو أول من أسعى اليه فوراً ، وانتى لن أسعى الى أحد

قبله • وقد عادتني داريا أونيسيموفنـا تنفيذاً لأوامره ، فكان يعلم أنني خائف وأنني احترق شـوقاً الى معرفة ما حدث ، وأنني لن أصمد ••• وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير ، واستطاع أن يطلع حتى على اليوم الذي سأخرج فيه ، بحيث لا يمكنني أن أفلت منه ولو أردت •

ولكن اذا كان لامبير ينتظرني ، فلقد كانت آنا آندريفنـا تنتظرني أكثر منه أيضـاً • ويجب أن أقول بصراحـة ان لامبير كان على حق في تأهبه لخياناتها والغدر بها ، وكان الذنب في ذلك ذنبها هي • فرغم تفاهمهما المحقق (وأنا أجهل صـورة ذلك التفاهم ، لكنني أعـرف أنه حدث) ظلت آنا آندريفنا الى آخـر دقيقة لا تلتزم في تعاملها معه جانب الصراحة التامة ، ولم تكشف عمّا تضمره كشفاً كاملاً • وانما هي تكتفي بالاشارة والتلميح • لقد لمَّحت له بـكل أنواع الموافقـة ، ولمحت له بكل أنواع الوعود ، ولكن كلامهـا كان تلميحاً فحسب • لعلهـا أصغت الى جميع تفاصيل خطته ، ولكنها لم توافق عليها الا بالصمت • ان هناك أسباباً قوية تدفعني الى الاعتقاد بهذا • وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت « تنتظرني » • لابد أنهـا كانت تفضّل أن تتعامل معي على أن تتعامل مع وغد مثل لامبير ؟ وهذا أمر بديهي ومفهوم • ولكن المصيبة هي أن لامبير أدرك ذلك أخيراً • فلو أخـذت آنا آندريفنـا الوثيقة مني بالاتفاق معي رأسـاً ، لألحق ذلك به خسـارة كبيرة • وكان هو مقتنعاً بضـخامة « الصفقة » • ولو كان غيره في مكانه لخاف ولظلت تسـاوره الشكوك • ولكن لامبير شاب ، وجريء ، وظامىء الى الربح السريع ، ولا يعرف البشر كثيراً ، ويتصـور قلة الشرف في جميع الناس • فليس في وسع انسان مثله أن يشك ، لا سيما وأنه قد حصل من آنا آندريفنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه •

ثمة أمر آخر له شأن كبير : هل كان فرسيلوف ، في ذلك اليوم ،

يعرف شيئاً ما ؟ هل كان يشارك لامبير في بعض الخطط ولو من بعد ؟ كلا ، ثم كلا ! انه في « ذلك الوقت » لم يكن يشارك بعد . لعل كلمة طائشة قد أفلتت منه . ولكن كفى كفى ! حسبي استباقاً للأحداث !

ثم ماذا عني أنا ؟ هل كنت أعرف شيئاً يوم خروجي ؟ لقد ذكرت حين بدأت بكتابة هذه الزاوية من حديثي أنني كنت يوم خروجي لا أعرف شيئاً ، وأنني عرفت كل شيء فيما بعد . هذا صحيح . ولكن هل صحيح كل الصحة ؟ الحق أنني كنت أعرف شيئاً ما ، بل كنت أعرف أشياء كثيرة . ولكن كيف ؟ فليتذكر القارىء « حلمي » الذي رأيته . اذا كان حلم من هذا النوع قد أمكن أن أراه في نومي ، وأن ينبجس من نفسي في هذه الصورة ، فان هذا يدل على أني كنت لا أزال أجهل أموراً كثيرة ، ولكنه يدل على أنني كنت « أتوجس » هذه الأمور ، كما يستدل على ذلك مما شرحته هنا من أشياء لم أعرفها في الواقع الا بعد أن كان قد « انتهى كل شيء » . صحيح أنني كنت لا أعلم شيئاً علم اليقين ، ولكن قلبي كان يخفق بتوجسات تتنبأ بما سيحدث ، وكانت الأرواح الشريرة قد غزت أحلامي واستولت عليها . ذلكم هو الرجل الذي هرعت اليه وأنا أعرف من هو ، وأوجس جميع التفاصيل . لماذا هرعت اليه ؟ تخيلوا أنني ، الآن ، في هذه اللحظة ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، يبدو لي أنني منذ ذلك الحين ، كنت أعرف ، بأدق التفاصيل ، لماذا سعيت اليه مسرعاً ، رغم انني في واقع الأمر لم أكن أعرف شيئاً كما سبق أن ذكرت ذلك . قد يفهم القارىء عني هذا الكلام . ولننتقل الى الوقائع ، ولنذكرها بعضها وراء بعض .

٢

بدأ كل شيء هكذا : قبـل خـروجي الأول بيومين، دخلت ليزا مضطربةً أشد الاضطراب • كانت منزعجةً انزعاجاً شديداً • لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطاق •

سبق أن أشرت الى صلاتها بفاسين • لقد ذهبت اليه لا لتبيِّن لنا أنها في غير حاجة الينا فحسب ، بل لأنها كانت تقدره فعلاً • كانا قد تعارفا بمدينـة لوجا • وقد لاح لي دائمـا أن فاسين ليس غير مكترث بها وكان طبيعياً ، وهي فيما هي فيه من شـقاء ، أن ترغب في طلب النصـح من انسان يملك عقلاً راجحـاً ، ويتمتع بالهدوء ، ويتسم بسمو النفس ، وهذا كله كانت تفترضـه في فاسين • ثم ان النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يعجبهن • حتى لقد يرين في المفارقات الغريبـة آراء سديدة ، متى جاءت تلك المفارقة مطابقة لرغباتهن • ولقد كانت ليزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأمير ، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى • واذ كانت من جهـة أخـرى تحس بما يحمله لها من عواطف ، فقـد كان يستحيل عليهـا ألا تحترم فيـه تقديره لمنافســه والأمير ، حين باحت له هي نفسها بأنهـا تستشـير فاسين أحيـاناً ، أحس بقلق شديد ، وشعر بغيرة قوية عليها • فجـــرح هذا شـعور ليزا . وأصبحتْ تواصل زيارة فاسين متعمدةً منذ ذلك الحين • فسكت الأمير ، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه • وقد اعترفت لي ليزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يعجبها • لقد كان

هادئا ، وهذا الهدوء المستمر المطرد الذى أعجبها كثيراً فى البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك • صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً ، وأنه أسدى اليها فعلا بعدد من النصائح التى يوهم ظاهرها بأنها نصائح رائعة ، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبيّن بما يشبه المصادفة أنها لا يمكن تنفيذها • وكان في بعض الأحيان ينظر الى الأمور نظرة مسرفة في التعالى ، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شيئاً بعد شيء • وقد عزت هى ذلك الى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضاؤل على غير شعور منه • وفى ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلقانى ويحدثنى حديث الند للند رغم تفوقه علىّ فى الفكر (وهى بذلك قد أبلغته كلماتى نفسها) ، فما كان منه الا أن أجابها بقوله :

ــ ليس الأمر ما تظنين ، بل هو أبسط من ذلك كثيراً • فأنا لا أرى أىّ فرق بينه وبين سائر الناس • ولا أعده أغبى من الأذكياء ولا أسوأ من الأخيار • لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة ، لأنهم فى نظرى متماثلون لايختلف بعضهم عن بعض •

ــ كيف ؟ لا ترى بين الناس فروقاً ؟

ــ بلى • ان الناس يختلف أحدهم عن الآخر فى هذه النقطة أو تلك ، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها فى نظرى لأنها لا تتعلق بى ولا شأن لى بها • هم عندى متساوون جميعاً • والأمور كلها تستوى عندى • وذلك هو السبب فى أننى أعامل الناس كافةً معاملة حسنة •

ــ ولا تضجر من هذا ؟

ــ لا ، أنا راض عن نفسى دائماً •

ــ وليس لك رغبات ؟

ــ بلى ، ولكن رغباتى ليست كثيرة • لست فى حاجة الى شيء ،

أو لا أكاد أكون في حاجة الى شيء ، لست في حاجة حتى الى روبل واحد زيادة على ما معي • يستوى عندى أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا • الملابس الذهبية لا تضيف الى فاسين شيئا • والطعام الفاخر لا يغريني • وهل المناصب والأمجاد تساوى قيمتي ؟

لقد حلفت لي ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً • والحق أننا قبل أن نقطع برأى ، يجب أن نعرف الظروف التي قيلت فيها هذه الكلمات •

ان تسامح فاسين تجاه الأمير (وهو تسامح اقتنعت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع الى ما يحمله لها من عاطفة ، وانما يرجع الى قلة الاكتراث التي يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال الى نوع من سخرية فيها احتقار • وقد أحنق هذا ليزا ، ولكن فاسين أمعن فيه • وكان يعبر عن آرائه دائماً برقة ولطف ، بل كان يتهم ويدين بغير اظهار شيء من الاستياء أو الامتعاض ، وانما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل تافه لا قيمة له • وفي هذا المنطق انما كانت تثوى السخرية • وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير « يجافي العقل » ، وأنها تُكره نفسها عليه اكراهاً وتقسرها عليه قسراً • وختم كلامه قائلاً : « لقد ضلت في عواطفك ، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالاصلاح حتماً • » •

حدث هذا في ذلك اليوم • وقد استاءت ليزا، ونهضت لتنصرف ، فما الذي فعله واستنتجه هذا الانسان العاقل ؟ انبرى يعرض عليها الزواج بنبل ، وحتى بعاطفة ! فما كان من ليزا الا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبي أحمق ! قالت له ذلك وجهاً لوجه • وخرجت •

أن يعرض على امرأة أن تخون انساناً شقياً لأن هذا الانسان الشقي

« لا يستحقها » ، وأن يعرض هذا على امرأة حبلى من هذا الانسان الشقي ، ذلكم هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين ! انني أسمي هذا انحباساً في النظريات وجهلاً مطلقا بالحياة مردُّه الى زهو وغرور . وقد أدركت ليزا ، من جهة أخرى ، ادراكاً واضحاً كل الوضوح ، أن إعتزاز فاسين باقدامه على هذا العرض انما يرجع الى معرفته بأنها حامل . وسرعان ما ذهبت الى الأمير وقد فاض دمعها استياء واستنكاراً ، فاذا بالأمير يتفوق على فاسين سخافة . كان ينبغي له ، بعد الذي قصته عليه من أمر فاسين ، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها . ولكن نقيض هذا هو ما حدث . فقد طاش صوابه عندئذ تماماً . وكذلك شأن جميع الغيورين على كل حال ! لقد شاجرها شجاراً عنيفاً ، وصدّع رأسها تصديعا رهيباً ، وأثخن شعورها بالجراح وأهانها حتى أوشكت أن تقطع كل علاقة لها به على الفور .

ومع ذلك رجعت الى البيت كاظمةً غيظها مسيطرةً على نفسها ، ولكنها لم تستطع الا أن تبوح لأمها بما حدث . فذاب الجليد ، وعادت المرأتان الى سابق عهدهما ، فتعانقتا كما كانتا تتعانقان من قبل ، وبكت كل منهما في ذراعي الأخرى على عادتهما ، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وان ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس . وفي المساء بقيت جالسةً عند ماكار ايفانوفتش دون أن تنطق بكلمة ، ولكن دون أن تغادر الغرفة . وأصغت كثيراً الى ما كان يقوله ماكار ايفانوفتش . انها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شيء من خجل ، وان ظلت قليلة الكلام .

ولكن ماكار ايفانوفتش قد غير الحديث في هذه المرة تغييراً غريباً لم يكن في الحسبان . يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا في الصباح عن صحته ، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق . ويجب أن

أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذى سيكون موعده بعد خمسة أيام تماماً ، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال . ففى هذه المناسبة اندفع ماكار ايفانوفتش يستعيد ذكرياته فجأة ، وتذكر طفولة ماما ، أيام « كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد » . قال : « كنت لا أتركها أبداً . وكنت أعلمها المشى : أضعها فى ركن على بعد ثلاث خطوات منى ، ثم أناديها ، فتجتاز الغرفة مترنحة بلا خوف ، ضاحكة ، وتركض الىّ ، وترتمى بين ذراعى ، وتقبل عنقى . ثم كنت أقص عليك حكايات يا صوفيا آندريفنا ، اذ كنت تعشقين الحكايات عشقاً . كانت تبقى على ركبتىّ ساعتين ، تصغى الى . وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون : « انظروا ما أشد تعلقها بماكار » أو كنت أمضى بك الى الغابة يا صوفيا آندريفنا ، فأعثر على شجرة عليق ، فأجلسك هناك ، ثم أصنع لك صفارة من خشب . حتى اذا ارتوينا من النزهة ، عدنا الى البيت والطفل نائم على ذراعى . وفى ذات يوم ، خافت من الذئب ، فارتمت علىّ مرتجفة مرتعدة ، ولم يكن ثمة ذئب .

ــ قالت ماما :

ــ هذا أتذكره !

ــ تتذكرينه ؟ لا يمكن ...

ــ بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً .

وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً :

ــ كلما أوغلت فى تذكر الماضى وأيتك ورأيت ما كنت تحمله لى من حب وحنان .

انتظر ماكار ايفانوفتش لحظةً ثم قال :

ـ وداعاً يا أولادى ، أنا راحل • الآن حان حينى • لقد وجدت فى شيخوختى عزاء عن جميع آلامى • شكراً يا أصدقائى •

هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثر :

ـ دعك من هذا الكلام يا ماكار ايفانوفتش ، يا عزيزى • لقد قال لى الطبيب منذ قليل ان صحتك تحسنت تحسناً كبيراً •

وكانت أمى تصغى الى الحديث مرتاعة •

قال ماكار ايفانوفتش مبتسماً :

ـ وما يُدرى صاحبك الكسندر سيمينتش ؟ صحيح انه لطيف ، ولكن هذا كل شىء • أم تراكم تظنون يا أصدقائى أننى خائف أن أموت ؟ فى هذا الصباح ، بعد أن تلوت صلاتى ، راود قلبى احساس بأننى لن أخرج من هنا حياً • أحد قال لى هذا • هيا ! تبارك اسم الرب ! ولكننى أتمنى لو أظل أراكم جميعاً • كان أيوب المعذب يتعزى عن آلامه برؤية أحفاده الجدد ، ولكن هل كان ينسى أولاده السابقين ، وهل كان يستطيع أن ينساهم • كلا • ذلك مستحيل ! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما مضت السنون ، ثم يستحيل الى زفرة سعيدة • هكذا تجرى الأمور فى هذا العالم : كل نفس تُمتحن وتتعزى •

وأردف ماكار ايفانوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة جميلة لن أنساها ما حييت :

ـ قررت يا أولادى أن أقول لكم كلمة ، كلمة لا أكثر •••

ثم التفت نحوى فجأة وقال :

ـ أنت يا عزيزى ، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة ، ومت فى سبيلها اذا دعا الداعى •

ثم أضاف يقول ضاحكاً :

ـ ولكن انتظر • لا تخف ! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن • انك اليوم لا تفكر في هـذا الأمر ، وقد تفكر فيـه في المستقبل • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : اذا أردت أن تفعل خيراً ، فافعله في سبيل الله ، ولا تفعله انقياداً لنزوة • كن رابط الجأش صـلب العود ، ولا تدع لنفسـك أن تسترسـل في أنواع من الجبن • ولـكن تمهل في عملك ، ولا تتسرع ولا تهرع واثباً • ذلك هو كل ما انت في حاجة اليه • شيء آخر : تعود أن تتلو صلاتك كل يوم حتماً • أقول لك هذا عرضا ولعلك تتذكره في يوم من الأيام •

ثم التفت الى فرسيلوف فقال له :

ـ لك أيضاً يا آندره بتروفتش ، يا عزيزي ، أريد أن أقول بضع كلمـات • ان الرب سيهدي قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حـال • لقد كففنا عن الكلام في ذلك الأمر منذ مدة طويلة ، منذ أن نفذ ذلك السهم في قلبي • أما وأنني الآن راحـل فأحب أن أذكرك •• بالوعـد الذي قطعته لي على نفسك حينذاك •

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه ، وأردف يقول :

فهتف فرسيلوف متأثراً وهو ينهض :

ـ ماكار ايفانوفتش ! .

ـ طيب طيب ، لا تضطرب يا عزيزي • ما هذه الا ذكرى ••

ان أكبرنا اثما أمام الله في هذه القضية هو أنا • كان ينبغي ألا أسمح بما حـدث رغم أنك كنت مـولاي • فلا تضطربي أنت أيضـاً يا صوفيا ،

لا تدعى لنفسك أن تسرف في الاضطراب ، لأن الاثم اثمى أنا ، ولأننى أعتقد أنك كنت فى ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين .

هنا ابتسم ماكار ايفانوفتش واختلجت شفتاه من ألم . ثم تابع كلامه فقال :

ـ كان يمكنني يا زوجتي أن ألقنك درساً فى ذلك الحين ولو باستعمال العصا ، بل كان يجب عليّ أن أفعل . ولكنني أشفقت عليك حين ارتميت أمامى باكية ، واعترفت لى بكل شيء وأنت تقبّلين قدميّ . ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذة ، ولكنني أريد أن أذكر آندره بتروفتش ... وانك يا عزيزى لتتذكر عهد الشرف الذى قطعته على نفسك . ان الزواج يستر كل شيء . أقول لك هذا أمام أولادى ...

كان ماكار ايفانوفتش منفعلاً الى أقصى حدود الانفعال ، وكان ينظر الى فرسيلوف منتظراً منه أن يقول كلمة تأكيد . أكرر أن هذا كله لم يكن فى الحسبان ، فبقيت جالساً على كرسيى بلا حراك . وكان فرسيلوف لا يقل عنه انفعالاً بل يزيد عليه : وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبلها . وها هى ذى ماما تتقدم من ماكار ايفانوفتش ، صامتةً كذلك ، فتحييه بانحناءة شديدة .

الخلاصة أن المشهد كان يبعث فى النفس أشد التأثر . ولم يكن بالغرفة فى هذه المرة غريب ، ولا تاتيانا بافلوفنا . وكانت ليزا منتصبة الجذع فوق كرسيها تصغى صامتة . فهاهى ذى تنهض فجأة ، وتقول لماكار ايفانوفتش بلهجة ثابتة قوية : باركنى أنا أيضاً يا ماكار ايفانوفتش ، لأتحمل المحنة الكبيرة التى تنتظرنى . غداً يتقرر مصيرى كله . فادعُ اليوم لى .

قالت ليزا ذلك وخرجت . اننى أعرف أن ماكار ايفانوفتش كان على

علم بأمر ليزا ، فقد أطلعته ماما عليه • ولكنني في ذلك المساء رايت فرسيلوف وماما أول مرةً معاً • أما قبل ذلك فلم أكن أرى الى جانبه الا عبدة • ثمة أشياء كثيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذي كنت قد أدنته • لذلك رجعت الى غرفتي مضطرباً • يجب أن أذكر أنني في تلك اللحظة نفسها قد تكاثفت شكوكي فيه مزيداً من التكاثف • انه لم يبد لي في يوم من الأيام أقرب الى السر واللغز مما يبدو لي الآن • ولكن هذا هو كل القصة التي أكتبها : ولسوف يأتي كل شيء في حينه •

قلت محدثاً نفسي وأنا أرقد على سريري : « لقد قطع لماكار ايفانوفتش على نفسه عهد الشرف ليتزوجنَّ أمي متى ترمَّلت • ولكنه لم يقل لي شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمني عن ماكار ايفانوفتش » •

في الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار ، فلما عادت كان الوقت متأخراً ، فمضت الى غرفة ماكار ايفانوفتش رأساً • وكنت لا أريد أن أدخل حتى لا أضايقهما ، ولكنني لاحظت أن ماما وفرسيلوف كانا قد دخلا فدخلت • كانت ليزا جالسةً بجانب الشيخ تبكي على كتفه • وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه •

وقد شرح لي فرسيلوف (في غرفتي بعد ذلك) أن الأمير يلح على أن يتزوج ليزا متى أمكن ذلك ، حتى قبل صدور قرار المحكمة ؛ وأن ليزا مترددة لمَّا تعزم أمرها بعد رغم أنها لم يبق لها حق في التردد تقريباً • وكان ماكار ايفانوفتش « يأمرها » أيضاً بأن تتزوجه • وهذا كله كان ينبغي أن يتم من تلقاء نفسه فتوافق ليزا على الزواج من تلقاء نفسها أخيراً ، بلا تردد ولا أوامر ، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذي تحبه قد أهانها اهانة شديدة ، وأن حبها يذلها حتى في نظر نفسها ، فكان يصعب عليها

أن تعزم أمرها • ولكن هنــاك شــيئاً غير الاهانة ، قد تدخل فى الموضوع وما كان ليخطر لى ببال •

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة :

ـ هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس ؟

فهتفت :

ـ ماذا ؟ درجاتشيف ؟

ـ نعم • وفاسين أيضاً •

ذُهلت ، ولا سيما من سماع اسم فاسين •

ـ هل له دخل في شيء ؟ ما عساهم يصنعون بهم ! ورباه ! ويحدث هذا فى الوقت الذى تشتكى فيه ليزا من فاسين ! ما عسى يحدث لهم فى رأيك ؟ يميناً ان لستيبلكوف يداً فى الأمر !

قال فرسيلوف وهو يرشقنى بنظــرة خاصــة ، كما ينظر الى امرىء لا يفهم شيئاً ولا يحزر شيئاً :

ـ دعنــا من هذا الآن ! ما أدرانا بما وقع ، وما يدرينا بما سُيصنع بهـم ؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله : لقد علمت أنك تريد أن تخرج غداً • فهل تذهب الى الأمير سرجى بتروفتش ؟

ـ سأذهب اليه قطعاً ، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسى وتؤلمنى ، أعترف بذلك • هل تريد أن أنقل اليه شيئاً على لسانك ؟

ـ لا ، لا شيء • سأراه بنفسى • اننى أرثى لحال ليزا • أية نصيحة يستطيع ماكار ايفانوفتش أن يســديها اليها • انه هو نفســه لا يدرك شيئاً لا من أمور الناس ولا من أمور الحيــاة ! شيء آخــر يا عزيزى (كان منذ مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتى بقوله : « يا عزيزى ») • ان فى القضية

أيدى عدد من الشبان ... أحدهم رفيقك القديم لامبير . يخيل الى انهم جميعا أوغاد رهيبون .. أردت تنبيهك فحسب .. هذا شأنك وحدك . أنا أعلم أننى ليس من حقى أن ...

فرأيتنى أمسك يده فجأة دون أن أفكر ، مدفوعاً الى هذا بما يشبه الحماسة والالهام ، كما يحدث لى كثيرا (وقد حدث هذا كله فى ظلام كامل) ، ورأيتنى أقول له :

ـ آندره بتروفتش ، لقد صمت أنا حتى الآن ، وأنت تعرف لماذا صمت . صمت لأتحاشى أن أتدخل فى أسرارك التى قررت ألا أطلع عليها فى يوم من الأيام . اننى جبان . اننى أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار من قلبى انتزاعاً تاماً ، وذلك ما لا أريده . أفلا ينبغى لك والحالة هذه أن تعاملنى بمثل ما أعاملك به ، فتتركنى وشأنى أمضى حيث أريد ! أليس هذا صحيحاً ؟

فقال لى وهو يتركنى :

ـ انك على حق . ولكن أرجوك : لا تزد على هذا كلمة واحدة !

وهكذا تكاشفنا عرضاً . كانت مكاشفة ضئيلة جداً ، ولكنها كافية لمضاعفة اضطرابى ازاء الخطوة الجديدة التى سأقوم بها غداً . لذلك قضيت الليل متأرقاً . ولكننى تخففت من بعض ما كان يجثم على صدرى .

٣

حين خرجت في الغد من البيت ، كانت الساعة هي العاشرة • لكنني بذلت كل جهودي من أجل أن أنصرف خفيةً بدون وداع وبدون كلمة واحدة • تسللت تسللاً • لماذا ؟ لا أدري • ولكن لو اتفق أن رأتني أمي عند خروجي فحاولت أن تكلمني ، لكان يمكن أن أغلظ لها القول • فلما صرت في الشارع وتنسمت الهواء الطري ، رأيتني أهتز من احساس قوي جداً ، يكاد يكون حيوانياً ، وأستطيع أن أصفه بانه احساس « وحش ضار » • لماذا أذهب والى أين أذهب ؟ كان احساسي شيئاً لا يمكن تحديده ، ولكنه ضار شديد الضراوة • كنت خائفاً منه وفرحاً به في آن واحد •

ــ أأتدنس اليوم أم لا أتدنس ؟

كذلك تساءلت بيني وبين نفسي ، على علمي بأن الخطوة التي سأخطوها هذا النهار ستكون ، متى تمت ، حاسمة في حياتي كلها • ولكن لماذا الكلام بألغاز ؟

مضيت الى سجن الأمير رأساً • كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتيانا بافلوفنا الى مدير السجن ، فاستقبلني استقبالاً حسناً جداً • لا أدري أهو رجل طيب أم لا ، ولكنني أظن أن هذا السؤال نافل لا داعي اليه • المهم أن المدير أذن لي بلقاء الأمير ، بل تلطف فأخلى لنا غرفته ليتم فيها اللقاء • كانت الغرفة كجميع الغرف ، غرفةً عادية

لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة • أظن أن من نافل القول أيضاً أن أصف الغرفة • وهكذا خلوت الى الأمير •

طلع الأمير بلباس لا هو عسكرى ولا هو مدنى ، بل هو بين بين ، لكن قميصه نظيف ، ورباط عنقه أنيق ، وقد غسل وجهه ومشط شعره ، ولكنه نحل نحولاً رهيباً ، واصفر اصفراراً شديداً ، وقد لاحظت هذا الاصفرار حتى فى عينيه • الخلاصة أنه بلغ من التغير أننى وقفت مشدوها مذهولاً • وهتفت أقول :

ـ لشدما تغيرت !

فقال مزدهياً بعض الشىء :

ـ لا قيمة لهذا ! اجلس يا عزيزى !

واشار لى الى كرسى ، وجلس قبالتى • وأردف يقول :

ـ لنناقش النقطة الأساسية : هأنت ذا ترى يا عزيزى ألكسى ماكاروفتش •••

فقاطعته مصححاً :

ـ آركادى !

ـ ماذا ؟ آ •• نعم • طيب طيب • لا قيمة لهذا • آ •• نعم ••

أدرك خطأه فى تلك اللحظة ، فأضاف يقول :

ـ معذرة يا عزيزى • ولننتقل الى النقطة الأساسية •••

كان يتعجل الوصول الى غايته تعجلاً شديداً • لكأن فكرة أساسية كانت تتلبسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فهو يريد أن يعبر عنها وأن يعرضها • وكان يتكلم بغزارة ، وبسرعة ، وكان يبذل فى الكلام

جهداً ويعانى منه عذاباً ، ويستعين عليه بالاشـارات والحركات . ولكننى لم أفهم منه فى أول الأمر أى شىء اطلاقاً .

وختم يقول :

ـ الخلاصة ... (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات فى أقل تقدير) .. الخلاصة : لئن ازعجتك يا آركادى ماكاروفتش فالحت على ليزا بالأمس الحاحاً شديداً أن تأتى بك ، فلأن الأمر مستعجل . ولكن لما كان القرار الذى يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً ، فان علينا ...

قاطعته قائلاً :

ـ اسـمح لى يا أمير . تقول انك طلبت أمس أن أجىء اليك ؟ ان ليزا لم تبلغنى شيئاً .

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فجأة ، ويدهش دهشة شديدة ، حتى ليكاد يرتاع ارتياعاً :

ـ كيف ؟

ـ لم تبلغنى شـيئاً البتة . لقد عادت الى البيت بالأمس مضطـربة اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم تقل لى كلمة واحدة .

انتفض الأمير .

ـ هل تقول الحقيقة يا آركادى ماكاروفتش ؟ اذن ...

ـ ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من ... ؟ ما لى أراك قلقاً هذا القلق كله ، لابد أنها نسيت أن تبلغنى ، أو أن شيئاً ما قد ...

جلس الأمير ، ولكنه ظل كالأبله . لكأن هذا النبأ ، وهو أن ليزا لم تبلغنى رغبتـه ، قد سـحقه سـحقاً . ثم سرعان ما عاد يتكلم محركاً ذراعيه ، ولكن كلامه بقى مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه .

وقال فجأة :

ـ انتظر ! ...

ثم سكت رافعاً اصبعه فى الهواء . ثم استأنف كلامه مجمجماً ، فقال وهو يبتسم ابتسامة رجل مهووس :

ـ هذه .. هذه .. اذا لم يخطىء ظنى .. هذه مكائد ! .. معنى ذلك أن ..

قاطعته قائلاً :

ـ ليس لهذا كله أية قيمة ! ولست أفهم لماذا تقلق هذا القلق كله لأمر تافه . آه يا أمير ، منذ تلك الليلة ، هل تتذكر كيف ...

فصرخ يقول متضايقاً من مقاطعته :

ـ أية ليلة ؟ ماذا ؟

ـ عند تسرشتشيكوف ، حيث التقينا آخر مرة ، قبل رسالتك ... لقد كنت فى تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً . ولكن شتان بين اضطرابك فى تلك الليلة واضطرابك الآن . اننى الآن أراك فأرتعد خوفاً ... أم تراك لا تتذكر ...

فأجاب بصوت رجل من أبناء المجتمع الراقى وكأنه تذكر كل شىء فجأة :

ـ آ .. نعم .. نعم .. ذلك المساء .. لقد سمعت أن .. كيف صحتك الآن ، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا آركادى ماكاروفتش؟ ... ولكن فلنرجع الى النقطة الأساسية . ذلك أننى ألاحق ثلاثة أهداف . ان أمامى ثلاثة أغراض ، فأريد ...

وعاد يتكلم عن « نقطته الأساسية » ، فأدركت أخيراً أننى أمام رجل

يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فوراً، أو يجب اسعافه بالقصد حالا • كان حديثه المشوش يدور في أغلب الظن على الدعوى وما قد تنتهي اليه ، وعلى قيام الكتيبة بزيارته بنفسه ومحاولته ثني عزمه عن خطوة يريد ان يخطوها ولكنه لم يصغ اليه ، وعلى رسالة بعث بها الى جهة ما ، وعلى وكيل نيابة ، وعلى انه سينفى حتما الى مكان بشمال روسيا مجرداً من حقوقه ، وعلى أن من الممكن أن يستوطن طشقند مسترداً رتبته ، وعلى الدروس التي سيلقنها لابنه (ابنه الذي ستلده له ليزا) ، وما سيسلمه اياه هناك « في الفلاة ، في أرخارنجل ، وفي خولموجوري » • لئن أردت أن أعرف رأيك يا آركادي ايفانوفتش ، ثق كل الثقة أنني أقدر عاطفتك قدراً كبيراً ••• ليتك تعلم يا آركادي ايفانوفتش ، يا عزيزي ، يا أخي العزيز ، ليتك تعلم ما ليزا عندي ، ماذا كانت ليزا لي هنا طول هذا الوقت ! » كذلك صاح فجأة وهو يمسك رأسه بيديه •

ـ سرجي بتروفتش ، هل يُعقل أن تريد لها الموت باصطحابها الى خولموجوري !

أفلتت هذه الجملة من لساني برغم ارادتي • لقد تراءى لي ارتباط مصير ليزا بهذا المهووس مدى الحياة واضحاً كل الوضوح أول مرة ، فجزعت • فنظر اليّ ، ونهض مرةً أخرى ، ومشى خطوة ، وأدار ظهره ، ثم عاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً رأسه بيديه •

قال فجأة :

ـ انني أحلم دائماً بعناكب •

ـ أنت في اضطراب رهيب يا أمير • أنصحك بأن ترقد في سريرك وأن تستدعي الطبيب فوراً •

ـ لا ، اسمح لى ، فيما بعد . وانما استدعيتك خاصةً لأشرح لك .. مسألة الزواج . ان الزواج ، كما تعلم ، سيتم هنا ، سبق أن قلت هذا . لقد أُعطيت الاذن بالزواج ، حتى اننى أُشَجع عليه . أما ليزا ...

صحت أقول :

ـ ارحم ليزا يا أمير ، يا عزيزى : لا تعذبها بغيرتك ، الآن على الأقل !

فهتف قائلاً وهو يصوِّب الىَّ عينين محملقتين ، ويبتسم ابتسامة متشنجة فيها استفهام أبله :

ـ كيف ؟

كان واضحاً أن كلمة « الغيرة » قد فجأته فجأً شديداً .

ـ معذرة يا أمير ، قلت هذا الكلام برغم ارادتى . اسمع : لقد تعرفت فى الآونة الأخيرة الى شيخ عجوز ... هو أبى الشرعى ... لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءاً وسكينة . ان ليزا أيضا تقدره قدراً كبيراً .

ـ آ .. نعم .. ليزا .. آ .. نعم .. هو أبوك ؟ نعم .. معذرة يا عزيزى . هناك شىء .. أتذكر الآن .. حدثتنى ليزا عن هذا . شيخ طيب .. أنا متأكد ، أنا أيضاً عرفت شيخاً طيباً . ولكن دعنا من هذا الآن . ان الأمر الأساسى هو أن نوضح جوهر المسألة ، يجب ...

قمت لأنصرف . كان يؤلمنى منظره . فلما رآنى أهمُّ أن أنصرف ، قال بقسوة ووقار :

ـ لست أفهم !

فقلت :

ـ يؤلمني أن أراك على هذه الحال .

ـ كلمة أخرى يا آركادي ماكاروفتش ، كلمة أخرى .

وأمسك كتفيّ بحركة مختلفة كل الاختلاف ، وقد تبدلت هيئته كل التبدل ، وأجلسني على المقعد ، وأردف يقول وهو يميل عليّ :

ـ هل جاءك نبأ أولئك الناس ؟ أقصد ...

ـ نعم ، درجانشيف .

ولم أستطع أن أسيطر على نفسي فأضفت أقول صائحاً :

ـ لابد أن ستيبلكوف هو الواشي !

ـ نعم ، ستيبلكوف ... ألا تعلم ؟

وتوقف عن الكلام ، وحدّق اليّ مرة أخرى بعينين محملقتين وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله ، وما تنفك تزداد عرضاً . وأخذ وجهه يشحب شيئاً فشيئاً . فاذا برعدة تسري في جسمي على حين فجأة ، اذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنبأني أمس باعتقال فاسين . وهتفت أقول مذعوراً :

ـ هل يُعقل هذا ؟

ـ اسمع يا آركادي ماكاروفتش ، أنا انما استدعيتك لأشرح لك ..

وأضاف هامساً بصوت خافت :

ـ أردت أن ...

فصحت أقاطعه قائلاً :

ـ أنت الواشي بفاسين !

ـ لا ، وانما كان هناك مخطوطة ؛ وقد سلم فاسين المخطوطة الى

ليزا قبل اليوم الأخير ••• لتحفظها • وتركتهـا لى ليزا هنـا لأتصفحها ، وبعد ذلك حدث أن تخاصما فى اليوم التالى •••

ــ فأرسلت أنت المخطوطة الى السلطات ؟ •••

ــ آركادى ماكاروفتش ! آركادى ماكاروفتش !

صحت أقول واثباً من مكانى مقطعاً كلماتى :

ــ هكذا اذن ، بدون أى دافع آخــر ، وبدون أى هدف آخــر عدا الغيرة • لأن فاسين المسكين غريمك ، سلَّمت الى السلطان المخطوطة التى عُهد بها الى ليزا ! الى من سلَّمتها ؟ الى من ؟ الى وكيل النيابة ؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجيب عن أسئلتى • وبمـاذا كان يمكنه أن يجيب ؟ لقد تسمر أمامى كتمثال وهو لا يزال يبتســم تلك الابتســامة المرضية ، ويحملق تلك الحملقة الجامدة • وانه لكذلك اذا بالباب ينفتح فتدخــل ليزا • فلما رأتنا معاً كادت تسقط مغشياً عليها • وصرخت تقول وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يدىَّ :

ــ أنت هنا ؟ اذن ••• « علمت » ؟

لقد قرأت فى وجهى أننى « علمت » • وقبلتها بسرعة ، قبل أن تستطيع الاعتــراض ، قبَّلتهـا بقــوة ، بقــوة • لقد أدركتُ فى تلك اللحظة ، أول مرة ، ادراكاً كاملاً ، مدى الحزن القاتم الذى لا مخرج منه ولا حدود له ، مدى العذاب الرهيب الذى سيجثم الى الأبد على حياة هذه الانسانة ••• الباحثة عن الآلام !

قالت وهى تنتزع نفسها منى فجأة :

ــ ولكن هل يجوز للمرء أن يــكلمه الآن ؟ هــل يجوز للمرء أن يبقى معــه ؟ لماذا جئت الى هنـا ؟ انظر اليه ، انظر اليه ، هل يمــكن أن يدان ؟

كان وجهها يفيض ألما وشفقة لا حدود لهما ، حين أشارت لى بيدها الى الرجل المسكين وهى تهتف ذلك الهتاف . كان جالسا على المقعد دافنا وجهه فى يديه . انها على حق : لقد كان يعانى من حمى حارة ، فهو غير مسئول عن أعماله . ولعله كان غير مسئول عن أعماله منــذ ثلاثة أيام . وقد أودع المستشفى فى ذلك الصباح نفسه ، ولم يحل المساء حتى تكشفت اصابته فى الدماغ .

٤

تركت الأمير مع ليزا في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، ومضيت من هناك الى مسكني القديم . نسيتْ أن أذكر أن الجو كان رطباً ، معتماً ، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب ، وأن ريحـاً فاترة كانت تهب فتثير حتى أعصـاب فيـل . استقبلني المؤجر فرحاً ، وأخذ يسعى ويتحرك حولي كثيراً ، وهذا شيء أكرهه وأمقته في مثل هذه الأحوال . ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة ، واتجهت الى غرفتي رأساً ، ولكنه تبعني : كان لا يجرؤ أن يسألني عن شيء ، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع في عينيه ، وكانت هيئته هيئة انســان من حقه أن يستطلع . كان ينبغي لي أن ألاطفه ، في سبيل مصلحتي . ولكنني رغم حاجتي القصوى الى معرفة شيء ما (وكنت أعلم أنني لو لاطفتـه لعرفت شيئاً ما) ، كرهت أن استرسل في سؤال وجواب . واكتفيت بأن سألته عن صـحة زوجتـه ، ثم ذهبنـا اليهـا . فاستقبلتني بلطف ومـودة ، ولكنهـا حافظت على رصانتهـا وكانت قليلة الكلام . فهدأني هذا قليلاً . على أنني علمت في النهاية أموراً تثير أكبر الدهشة .

كان لامير قد جاء طبعاً ، ثم جاء مرتين أخريين ، « وطاف بجميع الغرف » ، قائلاً انه قد يسـتأجر غرفة . وجاءت داريا أونيسيموفنا عدة مرات . فكان أهل البيت يتساءلون : « لماذا تجيء ؟ » . وقد أضاف المؤجر قوله : « كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً » . غير أنني لم أسرّه فأسأله عن حب الاطلاع عنـدها ماذا كان ! وكنت على وجـه العموم لا ألقى على

الرجل سؤالاً ، وانما كان يتكلم وحده ، وكنت أتظاهر بأنني أنبش في حقيبتي (التي لم يكن قد بقي منها شيء تقريباً) . ولكن الشيء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يعمد الى السر والتعمية ، وأنه حين لاحظ امتناعي عن سؤاله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً ، حتى ليكاد كلامه أن يصبح ألغازاً .

أضاف يقول وهو يلقي عليّ نظرة غريبة :

ـ جاءت آنسة أيضاً .

ـ أية آنسة ؟

ـ آنا آندريفنا . جاءت مرتين . وتعرفت بزوجتي . انسانة لطيفة ، بشوشة . ان معرفة آنسة مثلها شيء ثمين يا آركادي ماكاروفتش ..

قال هذه الكلمة وهو يتقدم مني خطوة : كان يرغب رغبة قوية في أن يُفهمني شيئاً !

قلت مدهوشاً :

ـ مرتين ؟ غير معقول ...

ـ وكانت في المرة الثانية مع أخيها .

قلت في نفسي : « انه لامبير » .

ـ لا ، ليس هو لامبير ، بل هو أخوها .. شاب اسمه فرسيلوف . أظن أنه يعمل في البلاط .

لقد حزر الرجل ما تصورته ، كأن عينيه قد نفذتا الى قرارة نفسي .

اضطربت اضطراباً شديداً . وكان ينظر اليّ وهو يبتسم ابتسامة تودد كريه . ثم أضاف :

ـ آ .. نعم .. وجاءت آنسة أخرى تسأل عنك ، الآنسة الفرنسية ،

مدموازيل آلفونسين دو فردان . آه .. ما أحسن غناءها ! ما أجمل انشادها الشعر ! ولقد ذهبت خفيةً الى تسارسكويا لترى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، فتبيعه كلباً صغيراً نادراً ، حالك السواد ، لا يزيد حجمه على حجم قبضة الكف ...

رجوته أن يتركني وحيداً بحجة أنني أعاني من صداع . فأطاعني فوراً ، قبل أن ينهي جملته ، وبدون غضب ، بل بابتهاج ، محركاً يده باشارة غريبة كأنها تقول : « أفهم ، أفهم ! » . وخرج على رءوس الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة ، متيحاً لنفسه هذه المسرة . ان على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً !

بقيت وحدى أفكر ، ساعةً ونصف ساعة . بل قل انني لم أفكر ، وانما أخذت أحلم . كنت مضطرباً ، ولكنني لم أكن مدهوشاً . حتى لقد كنت أتوقع المزيد ، وأنتظر عجائب أكبر . قلت أحدث نفسي : « لابد أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن ! » . كنت مقتنعاً كل الاقتناع ، منذ مدة ، منذ كنت في البيت ، أن آلتهم قد تحركت وأنها تعمل بسرعة . وقلت لنفسي أيضاً ، وأنا أشعر بنوع من الرضى العصبي اللذيذ : «لا ينقصهم الآن الا أنا ، انهم ينتظرونني على أحر من الجمر ، انهم يريدون أن يدبروا أمراً في مسكني ، هذا واضح وضوح النهار ، أيكون الأمر الذي يدبرونه هو زواج الأمير العجوز ؟ انهم ينصبون له فخاً ، ولكن هل أسمح أنا بهذا ياسادة ؟ ذلكم هو السؤال » . كذلك ختمت حديثي الى نفسي مزدهياً .

« اذا دخلت في هذا الأمر ، فسرعان ما سيجرفني الاعصار كما يجرف قشة . أأنا حر في هذه اللحظة أم لم أبق حراً ؟ ألا أزال أستطيع حين أعود الى ماما في هذا المساء أن أقول لنفسي كما أقول في كل يوم : « أنا ما أنا » ؟ ».

ذلكم هو جوهر أسئلتي أو قولوا جوهر خفقات قلبي أثناء تلك المدة التي دامت ساعة ونصف ساعة ، والتي قضيتها في ركن على السرير ، واضعاً كوعيَّ على ركبتي ، جاعلاً رأسي في يديَّ ؟ ولقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلها ليست الا ترهات ، فانما كانت « هي » التي تجذبني وتجرني ، « هي » ، « هي » وحدها ! أخيراً أقول هذا واضحاً قاطعاً ، وأسجله على الورق بأحرف بارزة ؛ انني حتى في هذا اليوم ، وأنا أكتب بعد انقضاء سنة ، لا أزال أجهل الاسم الذي يجب أن أسمي به العاطفة التي كانت تختلج في نفسي آنذاك !

صحيح أنني كنت أشعر بشفقة على ليزا ، وكنت أعاني ألماً صادقاً ! وكان يمكن لهذا الألم وحده أن يطامن أو أن يمحو من نفسي ، ولو الى حين قصير ، ما كان يجيش فيها من شعور وحشي ضار (هأنا أستعمل هذا التعبير مرة أخرى) • ولكن كان يجرفني استطلاع رهيب وخوف غامض ، وكانت تجرفني عاطفة أخرى لا أعرف ما هي ، ولكنني كنت منذ ذلك الحين أعرف أنها ليست عاطفة طيبة ، بل هي عاطفة فاسدة • لعلني كنت أصبو الى أن أترامى عند قدميها ، ولعلني كنت أريد كذلك أن أغرقها في جميع أنواع العذاب وأن أبرهن لها على شيء ما « بسرعة » • فلم يكن لأي ألم أو أي عطف على ليزا أن يوقف اندفاعي • هيا ، هل أستطيع أن أنهض فأعود الى البيت ••• وأجلس الى ماكار ايفانوفتش ؟

« ولكن هل يستحيل عليَّ حقاً أن أذهب اليهم ، فأعرف منهم كل ما يُدبَّر ، ثم أتركهم فجأةً الى الأبد ، فأكون قد مررت بالعجائب والشياطين سليماً لم يمسسني سوء ؟ » •

في الساعة الثالثة ، اذ ثبت الى نفسي ورأيت أنني كدت أتأخر ، خرجت مسرعاً ، فركبت عربة وطرت الى آنا آندريفنا •

الفصل الخامس

١

ما ان أبلغوا آنا آندريفنا وصولى حتى تركت شغلها وأسرعت تستقبلنى فى الغرفة الأولى ، وتلك حفاوة لم ألق مثلها من قبل . وقد مدت الى يديها كلتيهما ، واحمر وجهها بسرعة . وقادتنى الى حجرتها صامتة ، وعادت تتناول شغلها ، وأجلستنى بجانبها . لكنها كفت عن التطريز ، وظلت تتفرس فى باهتمام حار دون أن تقول شيئاً .

قلت فجأة وقد تضايقت قليلاً من هذا الاهتمام المتصنع رغم أنه طاب لى كثيراً :

ـ أرسلت الى داريا أونيسيموفنا ؟ ...

فسرعان ما شرعت فى الكلام دون أن تجيب عن سؤالى ، فقالت :

ـ لقد قصوا على ما وقع لك ، فعرفت كل شىء . يالها من ليلة رهيبة ! ... ما أشد العذاب الذى لابد أنك عانيته ! هل صحيح ، هل صحيح أنهم وجدوك فى غيبوبة ، وكنت توشك أن تتجمد ؟

فجمجمت أقول وقد احمر وجهى :

ـ هل ... لامبير ... ؟

ـ حكى لى كل شىء فى ذلك الوقت . ولكننى كنت أنتظرك . لقد جاءنى مرتاعاً . عندك ... فى البيت الذى كنت راقداً فيه على سرير

المرض ، رفضوا أن يراك • وقد استقبلوه استقبالاً سخيفاً ••• لا أدرى في الواقع كيف وقع لك ما وقع • ولكنه حـدثني كثيراً عن تلك الليلة • وقال لى انك حين فتحت عينيك قد ذكرت اسـمى • فأثر هـذا في قلبي تأثيراً قوياً ، لقد ترقرقت الدموع في عينيّ من شـدة التأثر يا آركادى ماكاروفتش • وانى لا أدرى حقاً ماذا فعلتُ حتى استحق منك هذه العاطفة كلها ، ولاسيما في حالة كالحالة التي كنت فيها • قل لى : هل مسيو لامبير رفيق طفولتك ؟

ـ نعم ، ولكنني أعتـرف بأنني ••• في ذلك الحـادث ••• كنت متهوراً فلعلني قلت له أكثر مما كان ينبغي أن أقول •

ـ ولكنني كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهيبة دون أن يروى هو لى شيئاً ! لقد كنت أحس دائماً ، دائماً ، أنهم سيوصلونك الى هذا ! قل لى : هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك ؟

انها تتكلم كلام من يعتقد أنني لم يُعثر عليّ عند الجدار الا بسبب بيورنج وبسببها « هى » • وقد قلت لنفسى : « الواقع أنها على حق » • ولكننى انفجرت أقول مع ذلك :

ـ لو رفع عليّ يده لما تركته بغير عقـاب ، ولما وجدتنى الآن أمامك قبل أن أثأر لنفسى •

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظنى ، وأن تثير حنقى على شخص ما (أعرف من هو) ، ومع ذلك رأيتنى أنقاد لاستثارتها ، فقلت :

ـ تقولين انك كنت قد أدركت أننى بسببها سأصل الى ماوصلت اليه• فأحب أن أذكر لك أن ما وقع بينى وبين كاترين نيقولايفنا ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن صحيحاً أنها سرعان ما تغيرت عواطفها نحوى فى أعقاب سوء التفاهم •••

ـ تماماً . سرعان ما تغيرت عواطفها !

كذلك قالت آنا آندريفنا متعاطفة . ثم تابعت :

ـ آه ... ليتك تعرف المكيدة التي تُدبَّر الآن ! لاشك أن حالتك لا تساعدك في هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعي كل الادراك ...

قالت ذلك وقد احمر وجهها وغضَّت طرفها . واستطردت تقول :

ـ انني في ذلك الصباح نفسه الذي التقينا فيه آخر مرة ، قد خطوت خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدرها رجل له ذكاؤك السليم وقلبك المحب الغض الذي لم يفسد . ثق يا صديقي انني أحسن تقدير عاطفتك ، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشكر والامتنان الى الأبد . لاشك أن الناس في المجتمع الراقي سيرمونني بحجر ، بل لقد رموني بالحجر فعلاً . ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهيبة ، فمن ذا الذي يستطيع ، من ذا الذي يجرؤ منهم أن يدينني ؟ لقد هجرني أبي منذ طفولتي . اننا ، آل فرسيلوف ، الأسرة العريقة النبيلة ، أناس مغامرون ، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم واحساناً . أفليس طبيعياً اذن أن أتجه الى ذلك الذي كان لي منذ طفولتي بمنزلة الأب ، وأغرقني بحسناته سنين طويلة ؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف ، والله وحده يحق له أن يحكم على الخطوة التي خطوتها . انني لا أقبل حكم البشر على هذه الخطوة . وعدا ذلك ، حين تحاك أدنأ وأحقر مكيدة ، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحيةً لمؤامرة تدبرها له ابنته ، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا ؟ لا ، اني لأوثر أن أضيع سمعتي على ألا أنقذه . اني مستعدة أن أكون له خادماً وحارساً وممرضة ، ولكنني لن أدع لحساب دنيء وضيع كريه أن ينتصر !

كانت تتكلم بحــرارة شــديدة ، قد يكون نصفها مفتعلاً ، ولكنها حرارة صادقة رغم كل شيء ، فليس يخفى أن اهتمامها بهذه القضية اهتمام شديد • ولقد احسست بأنها كانت تكذب (تكذب كذباً صادقاً ، فالمرء يمكن ان يكذب كذباً صادقا) ، وأحسست بأن كل ما فيها زيف وزور • ولكن ما أغرب ما يحدث للمرء مع النساء : ان هذه النبرة الراقية ، وهذه الأنفة الشــماء ، وهذه العفة الفخــور ، ان هذا كله كان يذهلني عن نفسي ويحيرني في أمــري ، فاذا أنا أوافقها على جميع النقاط ، ما بقيت معها • لا شك أن الرجل تستعبد المرأة روحه ، ولا ســيما اذا كان رجلاً شهماً ذا أريحية ! ان امرأة كهذه المرأة تستطيع أن تنتصر على أي رجل كريم • قلت أحدث نفسي وأنا أنظر اليها مرتبكاً متحيراً : « هي و لامبير ! رباه ! »• على أنني سأقول كل شيء : انني لا أزال حتى هــذا اليوم عاجــزاً عن أن أقطع فيها برأي • ان الله وحده قادر على أن يرى عواطفها ، ثم ان الانسان جهاز يبلغ من التعقيد أن المرء لا يستطيع أن يفهم من أمره شيئاً ، ولاسيما اذا كان هذا الانسان امرأة •

سألتها بلهجة جازمة :

ـ فماذا تنتظرين مني يا آنا آندريفنا ؟

ـ ما تعني بهذا السؤال يا آركادي ماكاروفتش ؟

قلت مرتبكاً :

ـ يبــدو لي •• مما سمعته •• ومن اعتبارات أخرى أيضاً ، أنك انما أرسلت تستدعينني لأنك تنتظرين مني شيئاً • فما الذي تنتظرينــه مني على وجه التحديد ؟

ولكنها لم تجب عن سؤالي ، وانما سارعت تستأنف كلامها ، بمثل تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة :

ـ ولكننى لا أستطيع ، اننى أشد اباءً وكبرياءً من أن أدخل فى ايضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامبير . فأنت من كنت أنتظر ، لا مسيو لامبير . ان وضعى حرج رهيب ، يا آركادى ماكاروفتش! فأنا مضطرة الى الحيلة والمكر ، لأننى محاطة بمؤامرات تحوكها لى هذه المرأة . وهذا لايطاق . اننى أتدنى الى مستوى المكيدة ، فكنت انتظرك كما يُنتظر منقذ مخلِّص . ما ينبغى أن أُتهم لأننى أنظر فيما حولى بشراهة عسى أن اكتشف صديقاً واحداً على الأقل ، وهذا هو السبب فى أننى لم أستطع الا أن أفرح حين وقعت على هذا الصديق ؟ ان الذى أمكنه ، حتى فى تلك الليلة ، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد ، أن يتذكرنى وألا يردد الا اسمى لهو صديق مخلص حتماً . ذلك ما قلته لنفسى ، وهذا هو السبب فى أننى كنت أعوِّل عليك .

كانت تنظر فى عينىَّ نافدة الصبر شوقاً الى سماع جوابى . ومرةً أخرى أعوزتنى الشجاعة اللازمة لأبدد أوهامها ولاذكر لها بصراحة أن لامبير خدعها وأننى لم أزعم له أبداً أن صداقتى لها تبلغ هذا المبلغ كله من القوة ، واننى لم أردد اسمها وحدها . فكان صمتى بمثابة تأكيد لكذب لامبير . وأنا أعلم أنها كانت هى نفسها تدرك حق الادراك أن لامبير قد بالغ وغالى ، بل لعله كذب عليها أيضاً ، لا لشىء الا أن يجد عذراً كريما لمجيئه اليها وعقد صلة بينه وبينها . ولئن كانت تنظر فى عينىَّ نظرة الموقن بصدق أقوالى وقوة صداقتى ، فانما مرد ذلك طبعاً الى أنها كانت تعلم أننى لن أجرؤ على التكذيب ، بحكم ذوقى وأدبى ، وبحكم سنى أيضا . على أننى أتساءل : هل هذا الافتراض صحيح أم هو غير صحيح ، فلا أجد لهذا السؤال جواباً . ولعلنى أمرؤ فاسد فساداً رهيباً .

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت اننى لا أجيب :

ـ ان أخى سيدافع عنى .

تمتمت أقول مضطرباً :

ـ قيل لى انك جئت تزورينني معه •

ـ ذلك أن هذا المسكين ، الأمير نيقولا ايفانوفتش لم يكد يبقى له ملجا يعصمه من هذه المؤامرة أو قل يحميه من ابنته الا مسكنك ، اعنى الا مسكن صديق • ألا يحق له فعلاً أن يعدك صديقا ، أنت على الأقل ؟ فان كنت تستطيع أن تصنع له شيئا فاصنعه ، اصنعه اذا استطعت ، اذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة ، واذا كنت « قادرا على أن تصنع شيئا بالفعل » • انني لا أسألك هذا من أجلى • لا • لا أسألك هذا من أجلى ، بل من أجل شيخ تعيس أحبك وحده حبا صادقا ، وتعلق بك تعلقه بابنه ، ولا يزال يضجره بعدك عنه الى الآن • من أجلى أنا لا أنتظر شيئا ، لا أنتظر شيئا حتى منك ، بعد أن رأيت أن أبى نفسه قد دبر لى مكيدة دنيئة !

قلت :

ـ يخيل الى أن آندره بتروفتش •••

فقاطعتنى قائلة وهى تبتسم مرة :

ـ ان آندره بتروفتش قد أجاب عن سؤالى الصريح بأن حلف لى بشرفه أنه لم يضمر لكاترين نيقولايفنا شيئاً فى يوم من الأيام ، ولا طمع فى شىء منها أبداً ، فصدقته أنا كل التصديق فخطوت خطوتى • ثم اتضح أنه لم يحافظ على هدوئه الا الى الوقت الذى جاءه فيه ذلك النبأ عن رجل اسمه بيورنيج •

هتفت أقول :

ـ ليس هذا هو الأمر • أنا أيضاً ظننت فى لحظة من اللحظات أنه يحب تلك المرأة • ولكن ليس هذا هو الأمر ••• وحتى لو صدق أن

هذا هو الأمــر ، فان فى امكانه الآن أن يبقى هادئاً وألا يحـرك ســاكناً بعد أن انسحب ذلك السيد ٠

ــ أى سيد ؟

ــ بيورنبج ٠

فقالت وهى تضحك ضحكة ساخرة :

ــ من قال لك انه انسحب ؟ لعـل هذا السـيد لم يكن فى يوم من الأيام قوياً كقوته الآن ٠

وبدا لى الآن أنها كانت تحدجنى أنا أيضا بنظرة ساخرة ٠

تمتمت أقول وقد اضطربت اضطــراباً لم أقدر أن أخفيــه ولا شك أنها لاحظته :

ــ داريا أونيسيموفنا قالت لى هذا ٠

ــ داريا أوينسيموفنــا انســانة طيبة ، ولست أملك طبعاً أن أمنعها عن حبى ، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما لايتعلق بها ٠

انقبض صدرى ٠ وكما كانت تنوى أن تلهب اســـتيائى فقد التهب استيائى فعلا ، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة « الأخرى » بل انصب على آنا آندريفنا نفسها ، فنهضت وقلت :

ــ ان من واجبى ، كرجل شريف ، أن أنبهك يا آنا آندريفنا الى أن الآمال التى تعقدينها علىّ قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها ٠٠

فحدقت الى بنظرة ثابتة وقالت :

ــ اننى أنتظر أن تحمينى ٠٠ أن تحمى انسانة هجرها الجميع ٠٠ أن تحمى أختك يا آكارى ماكاروفتش !

وكادت أن تجهش باكية ٠

فتمتمت أقول وأنا أشعر بألم شديد :

ـ الأفضـــــل ألا نقول على هـذا ، لأن « من الجـائز » أن لا يحدث شيء .

ـ ماذا يجب أن أفهم من أقوالك هذه ؟

ألقت هذا السؤال بكثير من التروى والحذر . فاذا أنا أصرخ قائلاً بما يشبه الغضب :

ـ افهمى من أقوالى أننى سـأبتعد عنـكم جميعـاً ، وكفى ! أما « الوثيقة » ... فسوف أمزقها . استودعك الله !

حييتها وخرجت صامتـاً لا أجـرؤ حتى أن أنظـر اليهـا . ولكن ما ان بلغت أسفل السلم حتى أدركتنى داريا أونيسيموفنا وهى تحمل ورقة من ورق الرسـائل مطوية نصفين . من أين جـاءت داريا أونيسيموفنا ؟ أين كانت مختبئـة فيما كنت أكلم آنا آندريفنـا ؟ ذلك ما لم أستطع أن أفهمه . وقد أعطتنى الورقة دون أن تقول كلمة واحدة ، وعادت أدراجها مسرعة . وفضضت الورقة ، فاذا أنا أقرأ فيها عنوان لامبير مكتوباً بأحرف جلية دقيقة ، فكان واضحاً أن كل شيء قد تم اعداده وتحضيره منذ بضعة أيام . تذكرت فجأة أننى ، يوم جاءت الى داريا أونيسيموفنا ، قد أفلت منى أننى لا أعـرف أين يقيم لامبير ، ولكننى انما قلت هذا الكلام بمعنى أننى « لا أعرف ولا أريد أن أعرف » . وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن كلفت ليزا بالحصول عليه من « مكتب العناوين » . بدت لى هذه المبـادرة من آنا آندريفنا بليغة الدلالة بل شـديدة السخرية : فانهـا ، رغم رفضى

التعاون معها ، ترسلني الى لامير رأساً ، فكأنها تُفهمني أنها لا تصدقني أي تصديق . كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة « الوثيقة » كاملةً .
ومن عسى يعلمها بها غير لامير الذي ترسلني اليه ليتم التفاهم بيني وبينه ؟

قلت لنفسي مستاءً : « انهم جميعاً يعدونني صبياً صغيراً لا ارادة له ولا حزم عنده ، فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاءون ! » .

٢

مع ذلك ذهبت الى لامبير . وهل كان يمكنني أن أرضى حب الاطلاع الذى تملكنى الا عنده ؟ ان لامبير يسكن بعيداً جداً ، فى شارع كوسوى بيريؤلوك ، بقرب « حديقة الصيف » ، فى ذلك البيت المفروش نفسه . ولكننى حين ولّيت هارباً من عنده لم أنتبه الى طول المسافة ، حتى اذا زوّدتنى ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام ، دهشت ولم أكد أصدق أنه يسكن هناك . وفيما كنت أصعد السلم بصرت أمام باب البيت المفروش ، فى الطابق الثالث ، بشابين اعتقدتُ انهما قرعا الجرس قبلى فهما ينتظران أن يُفتح لهما الباب . وكانا كلاهما يتفرسان فىّ أثناء صعودى ، وقد أدارا للباب ظهرهما . قلت لنفسى حين وصلت اليهما : « هذا بيت مفروش ، فلابد أنهما آتيان الى مستأجرين آخرين غير لامبير » . كان يمكن أن يزعجنى جداً أن ألقى أحداً عنده . ومددت يدى الى الجرس لأقرعه ، محاولاً ألا أنظر اليهما . فاذا باحدهما يصيح قائلاً لى :

ـ انتظر !

وقال الآخر بصوت رنان رقيق ، ممطوط قليلاً :

ـ انتظر من فضلك . سنقرع الجرس معاً متى انتهينا ، اذا تكرمت .

فأمسكت عن قرع الجرس . انهما شابان فى ريعان الشباب ، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين ، قد وقفا أمام الباب منهمكين

فى عمل عريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً • ان الذى صاح يقول : « انتظر » ، مديد القامة جداً ، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمترا فى أقل تقدير ، وهو شديد النحول ، لكنه بارز العضلات ، الى رأس صغير جداً بالقياس الى طول القامة ، هذا عدا وجه مجدور قليلاً ، مكفهر اكفهراراً مضحكاً ، لكنه ينم عن ذكاء ، بل يكاد يكون محبباً • ان عينيه تحدقان تحديقاً ، بصلابة لا محل لها بل لا داعى اليها • وهو سىء الهندام ، يرتدى معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن ، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط ، معطفاً قصيراً مسرفاً فى القصر بالنسبة الى طول قامته — فلاشك أنه مستعار — وهو ينتعل حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين ، ويضع على رأسه قبعة عالية مشقرة ، بالية رهيبة البلى • هو على وجه الاجمال وسخ ، يداه اللتان لا يسترهما قفازان قذرتان ، وأظافره الطويلة مسودّتان • ولا كذلك رفيقه : فانه أنيق الى أبعد حدود الأناقة : معطف خفيف من فراء ابن عرس ، قبعة حلوة ، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة • انه فى مثل طولى ، على محيًّا فتان ووجه فتىٍ غض •

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافتته ، وهى شريط مهترىء كل الاهتراء ، متسخ بالدهن ، كاد يستحيل الى خيوط ؛ على حين اسل رفيقه من جيبه كرافتة أخرى سوداء ، جديدة كل الجدة ، اشتُريت من المتجر منذ هنيهة ، وراح يعقدها له على رقبته • فكان الأول يمد رقبته الطويلة طائعاً معبّراً بوجهه عن أكبر الجد ، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن جسمه •

قال الشاب الأنيق •

— لا ، مستحيل • القميص وسخ جداً • وسيظهر بالتضاد أشد اتساخاً • ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة ؟ لا أستطيع •••

ثم التفت الىّ وقال يسألنى :

ـ ألا تستطيع أنت ؟

ـ ماذا ؟

ـ أن تعقد له كرافتته منتفخةً بحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ ، والا فقدت كل قيمتها وتأثيرها • لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق فيليب ، ودفعت ثمنها روبلاً •

تمتم الطويل يقول :

ـ هل هو روبلك أنت ؟

ـ نعم • ولم يبق معي كوبك واحـد • هيـه ؟ ألا تستطيع ؟ يجب أن نسأل آلفونسين •

وسألني الطويل بغتةً في غلظة :

ـ هل أنت آتٍ الى لامبير ؟

فأجبته بمثل لهجته وأنا أحدق الى عينيه :

ـ نعم ، الى لامبير •

فعاد يسأل بتلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه :

ـ دولجورفكي ؟

فقلت أجيبه بفظاظة كفظاظته :

ـ لا ، لست كورفكين •

لقد سمعت خطأً •

فقال كمن يصرخ صراخاً ويتقدم نحوي خطوة كمن يهددني :

ـ دولجوروفكي ؟

فانفجر رفيقه ضاحكاً ، وقال شارحاً :

ـ انه يقول دولجوروفكي ولا يقول كوروفكين • انت تعلـــم ان الفرنسيين في « جريدة الجدال » يشوهون الأسماء الروسية دائماً •

فقال الطويل مصححاً مقرعاً :

ـ بل جريدة « الاستقلال » •

ـ ••• غير مهم • جريدة « الاستقلال » أيضاً • فاسم دولجوروكي مثـلاً يكتبونه دولجوروفكي • قرأت هذا بنفسي • واسـم فـ ••• سـوف يكتبونه دائماً كونت فالونييف •

صاح الطويل :

ـ دوبويني !

ـ نعم ، هناك أيضاً اسم دوبويني • قرأته بنفسي ، وضحكنا جميعاً : هي امرأة يقال لها مدام دوبويني ، روسية في الخارج •••

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى الطويل :

ـ ولكن علام ذكرهم جميعاً ؟

وعاد يكلمني فقال :

ـ معذرة • هل أنت السيد دولجوروكي ؟

ـ نعم ، دولجوروكي • ولكن من أين عرفت اسمي ؟

هنا همس الطويل في أذن رفيقه اللطيف ببعض الكلام ، فقطب هذا حاجبيه وحـرك يده باشـارة نفي • ولكن الطويل التفت الي فجأة وقال يسألني بالفرنسية :

ـ « سيدي الأمير ، هلاّ أعطيتنا روبلاً فضة ، لا روبلين ، بل روبلاً واحداً ! » •

فصرخ القصير يقول مؤنباً :

ـ يا للحيوان !

وعاد الطويل يكلمني فقال وهو ينطق الكلمات الفرنسية نطقاً رديئا أخرق :

ـ « سنرد اليك » .

وانفجر القصير يضحك ، وقال :

ـ هذ افتى رقيع ! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنسية ؟ انه ليتكلم كما يتكلم باريسي ، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقي الذين تتملكهم رغبة جنونية في التخاطب بلغة لا يجيدونها ...

فانبرى الطويل يقول مخصصاً :

ـ « في حافلات القطار » .

ـ طيب . في حافلات القطار أيضاً . انك لمضجر حقاً . ما الداعي الى مزيد من الشرح . أية لذة تجد في تمثيل دور الغبي ؟

في أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته الى الطويل . فقال وهو يضع الروبل في جيبه (بالفرنسية) :

ـ « سنرد اليك » .

ثم التفت فجأة الى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجد ، وأخذ يدقه بطرف حذائه الضخم ، ولكن بدون أي احتياج أو حنق . فقال له القصير قلقاً :

ـ سوف تتشاجر مرة أخرى مع لامبير . الأفضل أن تقرع الجرس .

وقرعت أنا الجرس ، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة دق الباب بقدمه .

وفجأة دوى صوت لامبير وراء الباب قائلاً :

ـ هوه ! يا للّعين !

وفتح لامبير البـاب بسرعة ، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية) :

ـ « قل لى ، أتراك تريد أن أهشم لك رأسك ؟ » .

فقال الطويل بجد ووقار وهو يواجه لامبير الذى احمر غضباً :

ـ « يا صديقى ، هذا دولجوروكى ! أما الثانى فهو صديقى ! » .

فما ان رآنى لامبير حتى تغير تغيرا كاملا وهتف يقول :

ـ هذا أنت يا آركادى ! أخيراً ! كيف صحتك ؟ هل شفيت ؟

وتناول يدىّ كلتيهما ، وشـدّ عليهما شداً قوياً . الخلاصـة أنه بلغ من صـدق الحماسـة للقائى أننى سرعان ما رقّ قلبى له ، وافتتنت به . قلت :

ـ هذه أول زيارة أقوم بها !

فصرخ لامبير منادياً :

ـ « آلفونسين » !

فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز ، فقال لها لامبير :

ـ « هو ذا ! » .

فصاحت آلفونسين مصفقةً بيديها :

ـ « انه هو » !

ثم عادت تبـاعد يديها واندفعت الىّ لتقبّلنى ، ولكن لامبير حمانى منها ، اذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلباً صغيراً :

ـ هيه ! هيه ! على مهلك !

ثم التفت الىّ فقال :

ـ اسمع يا آركادى ، لقد اتفقنا ، عدداً من الأشخاص ، على أن نتعشى اليوم فى مطعم " التتر " . فلن اتركك . ستصحبنا . ستتعشى معاً . وسأصرف هذين حالاً ، ثم نأخذ نتحدث . ادخل . سنخرج على الفور . دقيقة واحدة لا أكثر ...

دخلت ، وتسمرت فى وسط الغرفة ، أنظر الى ما حولى وأستعيد ذكرياتى . كان لامبير قد أخذ يرتدى ثيابه وراء الحاجز . وقد دخل الشاب الطويل ورفيقه وراءنا ، رغم ما قاله لامبير . فكنا نحن الثلاثة وقوفاً .

خار الطويل يقول لألفونسين :

ـ « مدموازيل آلفونسين ! بوسبنى ! » .

وقال الصغير وهو يتقدم ويريها الكرافتة الجديدة :

ـ « مدموازيل آلفونسين ! » .

ولكنها هجمت عليهما كليهما حانقة مسعورة وقالت :

ـ « آه ... يا للسافل ! لاتقترب منى ، لا توسخنى ! »

قالت هذا للشاب القصير ، فهو الذى كانت حاقدة عليه .

ثم اتجهت الى الطويل فقالت له :

ـ « وأنت أيها الأبله الطويل ! لسوف أطردكما كليكما ركلاً بقدمى ... هل تعرف هذا ؟ » .

ورغم أنها أشاحت عن القصير بازدراء واحتقار ، كأنها تخشى حقاً أن يوسخها (وهذا مالم أفهمه ، لأنه كان نظيفاً كل النظافة ، وقد ظهر حسن هندامه واضحاً حين خلع معطفه) ، رغم ذلك رجاها القصير ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافتته ، وأن تعيره قبل ذلك ياقة نظيفة

من ياقات لامبير • فأوشكت آلفونسين أن تضربهما استياءً من هذا الطلب ، ولكن لامبير الذى سمع الكلام ، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وان تعطيهما ما يريدان ، و « الا فلن يدعانا هادئين » ، فسرعان ما تناولت آلفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشابّ الطويل بدون أى اشمئزاز • ومدّ الطويل لها رقبته وهى تعقد له كرافتته ، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلم أمام الباب •

قال يسألها بغتةً :

ـ « مدموازيل آلفونسين ، هل بعت البولونيا الذى كان عندك » •

ـ « ما البولونيا هذا ؟ » .

فانبرى القصير يشرح لها أن « البولونيا » كلب صغير •

ـ « هه ! ما هذه الرطانة ؟ »

ـ « اننى أتكلم كما تتكلم سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية » •

بذلك أجابها « الطويل الأبله » وهو لا يزال ماداً رقبته • فقالت له :

ـ « ما سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية ؟ » •

ثم أضافت تخاطب القصير وهى تلتفت اليه فجأة :

ـ « و ••• أين ساعتك الجميلة التى أعطاك اياها لامبير ؟ » •

فصاح لامبير يقول من وراء الحاجز ساخطاً :

ـ ماذا ؟ بغير ساعة مرةً أخرى ؟

فدمدم « الأبله الطويل » قائلاً :

ـ أكلنا بثمنها !

وأضاف القصير يجيب لامبير مبرراً عمله بدون حرارة :

ـ بعتها بثمانية روبلات . هي من فضة مذهبة ، وليست ذهباً كما زعمت . أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلاً .

فتابع لامبير كلامه بمزيد من السخط قائلاً :

ـ يجب أن يوضع حد لهذا . يا صديقي ، اذا كنت أشترى لك ثياباً وأعطيك أشياء ثمينة ، فانني لا أفعل ذلك من أجل أن تبيعها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله ... ما قصة هذه الكرافتة التي اشتريتها له أيضاً ؟

ـ هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر . ولم أدفع ثمنها من مالك أنت . لم يكن عنده كرافتة ، ولا يزال يحتاج الى قبعة .

قال لامبير وقد استعر غضبه استعاراً رهيباً في هذه المرة :

ـ كفى حماقات ! لقد أعطيته ما يكفي لشراء قبعة أيضاً . ولكنه سرعان ما ينفق المال في أكل محار وشرب شمبانيا . ان رائحته عفنة . انه قذر . لا يستطيع المرء أن يصطحبه الى أي مكان . كيف أصطحبه الى العشاء ؟

جمجم « الطويل الأبله » يجيب قائلاً :

ـ في عربة ! « ان معنا روبلاً فضة اقترضناه من صديقنا الجديد » .

فصرخ لامبير يقول :

ـ لاتعطهما شيئاً يا آركادي ، لاتعطهما شيئاً البتة !

قال القصير فجأة وقد احمر احمراراً شديدا فتضاعف جماله :

ـ اسمح لى يا لامبير • اننى أطالبك بعشرة روبلات فوراً • ولا تقل سخافات كهذه التى قلتها الآن لدولجوروكى ! اطالبك بعشرة روبلات ، لأرد الروبل الى دولجوروكى حالاً ، ثم أشترى بالباقى قبعة لآندرييف ، وسترى •

خرج لامبير من وراء الحاجز ، وقال :

ـ اليك ثلاث ورقات صفر ، ثلاثة روبلات ، ولن أعطى شيئاً آخر قبل يوم الثلاثاء القادم ، ولا أحب أن أراكما قبل ذلك الموعد • والا •••

انتزع « الطويل الأبله » من يديه الورقات الثلاث • فمدّ روبلاً الى دولجوروكى قائلاً له :

ـ « دولجوروكى ، اليك روبلاً ، نرده شاكرين أجزل الشكر » •

ثم صاح يقول لرفيقه :

ـ هلمّ بنا يا بييرو !

وفجأة رفع الورقتين الأخريين يلوّح بهما فى الهواء ، وأنشد يقول بأعلى صوته وهو ينظر الى لامبير وجهاً لوجه :

ـ « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

فزأر لامبير ينهره بغضب رهيب :

ـ اسكت ! اسكت !

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجهلها كل الجهل ، فكنت أنظر الى المشهد مدهوشاً • ولكن الطويل لم يحدث له غضب لامبير أى خوف • بالعكس : أخذ يزأر منشداً بصوت أعلى : « أوهيه لامبير ! » الخ •

وخرج الشابان وصـارا فى السلم ، وركض لامبير يلاحقهما ، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه . وقال :

ـ لسوف أطردهما ! سوف أطردهما قريباً ! انهما يكلفانى نفقات أكبر مما يعودان علىّ به من أرباح . هلمّ بنا يا آركادى ! لقد تأخرت . ينتظرنى هنالك شخص ... شخص مفيد !

وهتف يقول مرة أخرى وهو يكز أسنانه :

ـ أوباش ! أوباش !

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فجأة . قال :

ـ يسعدنى أنك جئت أخيراً . يا آلفونسـين ! لا يخطرن ببـالك أن تخرجى ! هلمّ بنا يا آركادى !

أمام الباب ، كانت تنتظره عربة فخمة . ركبنـا العربة . ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح فى تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة . وقد أدهشنى أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجد الشديد ، وأدهشنى أن رأيتهما يعاملان لامبير بغير احترام ، حتى لقد كاد لامبير أن يرتعد أمامهما ارتعاداً . لقد كان يخيَّل الىّ دائماً ، بالاستناد الى شعور قديم من مشاعر الطفولة ، أن لامبير شخص لابد أن يخشاه جميع الناس ، حتى لقد كنت أنا نفسى ، رغم كل ما أتصف به من اسـتقلال ، أشعر بخوف منه فى تلك اللحظة قطعاً .

استمر لامبير يعبرّ عن غضبه ، فقال :

ـ أقول لك انهما وبشان رهيبان . صدقنى : ان هذا الطويل قد سامنى سـوء العذاب منذ ثلاثة أيام فى مجتمع راق . وقف أمامى ينشـد صائحـاً : « أوهيـه لامبير » . فى مجتمع راق . وأخـذ النـاس جميعاً يضحكون . كانوا يعلمون أنه انما يفعل ذلك لأعطيه مالاً . رأيت المشهد

هنـا بنفسـك . وقد أذعنت فأعطيته . آه ... انهـم أوغاد . كن تلميذاً ضابطاً . فطردوه من المدرسة . تستطيع أن تتصور . وهو مثقف . نشأ فى أسرة كريمة . فى أسرة كريمه ، صدقنى . وله أفكار . كان فى وسـعه أن ... ! ذلك أنه قوى قوة هرقل . انه يقـدم بعض الخدمات الصغيرة ، ولكن بغير همة وحماسـة . وقد رأيت بعينك : انه لا يغسـل يديه . ذات مرة أوصيت به سـيدة من السـيدات ، سيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية ، وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن ينتحر من شدة ما يلقى من عذاب الضمير . فذهب اليها ، وجلس عندها ، وطفق يصفر ! أما الآخـر ، الفتى ، فهو ابن جنرال . أسرته تخجل أن يكون ابنها . خلصته من المحكمة ، أنقذته . فانظر كيف يكافئنى ! ليس ههنا رجل! ولكننى سأطردهما ، سأشدهما من جلد الرقبة وأضعهما على الباب .

ـ انهما يعرفان اسمى . فهل أنت الذى حدثتهما عنى ؟

ـ ارتكبت هذه الحمـاقة . فى أثنـاء العشـاء ، سـيطر على نفسك ، أرجوك ، ابق فى مكانك . سـيجىء الى العشـــاء وغد آخـر رهيب . ذاك وبش فظيع ، ماكر مكراً فظيعاً . ليس ههنا الا سفلة على كل حال . مامن رجل واحد شريف ! ولكن سنتخلص منهم .. ثم ، ماذا تحب من طعام فاخر ؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال . جميع وجبـات العشـاء طيبة . أنا الذى سأدفع ، لا تهتـم ! من حسن الحظ أنك ترتدى ثيـاباً حسـنة . أسـتطيع أن أعطيك مالاً . ليس عليك الا أن تجىء وتطلب . تصور أننى أتخمتهما شراباً وطعاماً . فى كل يوم فطائر . وتلك الساعة التى باعها هى السـاعة الثانيـة . ذلك القصـير تريشاتوف ـ رأيت كيف تشمئز آلفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها ـ ما ان يجد نفسـه فى مطعم ، ومن حوله ضـباط ، حتى يأخـــذ يصرخ : « أريد حجلاً » . فأطلب له حجلاً ! لكننى سأنتقم .

ـ هل تذكر يا لامبير ••• يوم ذهبنا معك الى المطعم بموسكو ، فطعنتني هناك بشوكة في فخذي ! كان معك خمسمائة روبل في ذلك اليوم !

ـ نعم ، أذكر • طبعاً أذكر • انني أحبك • صدقني • لا أحد يحبك • لكنني أنا أحبك • أنا وحدي ، تذكر هذا • ان الرجل الذي سيجيء الى العشاء ، الرجل المجدور ، هو أمكر الأوغاد قاطبة • حذار منه • اذا كلمك فاصمت ، واذا أخذ يسألك فأجبه بسخافات ، لا تقل شيئاً ••

ان اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقي علي أسئلة أثناء الطريق • وقد جرح شعوري أن أراه واثقاً بي هذه الثقة كلها ، والا يخطر بباله أن يشكّ فيّ أي شك • انه يتصور ، استناداً الى طواعيتي القديمة له ، حين كنا في مدرسة توشار ، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرني فأصدع بأمره • وقلت لنفسي ونحن ندخل المطعم : « هو فوق ذلك كله جاهل جهلاً فظيعاً ، فلا أثر فيه لثقافة » •

٣

هذا المطعم ، فى شارع مورسكايا ، كنت قد ترددت اليه فى أيام سقوطى المخزى .. فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الخدم الذين حيُّونى وعرفوا فىَّ واحداً من رواد المطعم ؛ وأحسست بالغربة فى جو رفاق لامبير ، وفى جو هؤلاء الصحب الذين رأيتنى بينهم على حين فجأة وكأننى واحد منهم ؛ وخالجنى توجس غامض بأننى مقبل على أمور قذرة وأننى سأنتهى فى أغلب الظن الى ارتكاب عمل سيء ، شعرت بطعنة تنفذ فى قلبى دفعة واحدة ، حتى هممت فى لحظة من اللحظات أن أنصرف ، ولكن تلك اللحظة مرت ، وبقيت .

ان « المجدور » الذى يخشاه لامبير تلك الخشية كلما كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا . هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهماك غبى فى العمل ، والذين أكرههم كرهاً شديداً منذ أن كنت طفلاً . هو فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، متوسط القامة ، أشيب الشعر قليلاً ، أمرد الوجه الى حد الفحش ، مع عارضين شائبين مقصوصين حلقا ، كأنهما نقانق على خدين فى وجه مسطح كريه . وهو طبعا مضجر ، شديد الرصانة ، صموت ، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر . وقد تفرس فىَّ بانتباه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة . وشاءت خراقة لامبير وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرِّف أحدنا بالآخر . فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدنى واحداً من أولئك المبتزين الذين يرافقون لامبير . وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً ، فلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة

واحدة طول مدة العشاء ، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة وثيقة . لم يكلم الا لامبير ، بل لم يكلمه الا بما يشبه أن يكون همساً . وكان لامبير يكاد ينفرد بالكلام على كل حال ، أما المجدور فكان يكتفي باجابات مقتضبة وكلمات غاضبة مستفزة . كان هو متغطرساً متعجرفاً ، وكان لاذعاً وساخراً ، ولا كذلك لامبير ، فقد كان يبدو شديد الاهتياج ، وكان كأنه يستحثه على أمر من الأمور لاشك أنه الاشتراك فى مشروع من المشروعات . وقد مددت يدى الى قارورة النبيذ مرة ، فاذا بالمجدور يتناول زجاجة من خمر الخريز ، فيمدها الىّ . لم يكن قد خاطبنى قبل ذلك أبداً . وها هو ذا يقول لى الآن :

ـ جرِّب هذا !

فحزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عنى كل شىء ، اسمى وتاريخى ، وربما الخطط التى يعوِّل لامبير فى تنفيذها علىّ . فلما تصورت أنه يعدنى مستخدماً عند لامبير ، استعر حنقى مرة أخرى ؛ ومنذ أن كلمنى هذا الرجل المجدور ، قرأت فى وجه لامبير قلقاً شديداً فيه كثير من الحماقة . ولاحظ المجدور نفسه ذلك ، فانفجر يضحك . قلت لنفسى : « لا شك أن لامبير مستعبد لهم جميعاً » ، وكرهته عندئذ بكل قلبى . هكذا انقسمنا قسمين ، رغم أننا نجلس الى مائدة واحدة : قسماً هو المجدور ولامبير جلسا بقرب النافذة متقابلين ، وقسماً هو أنا والطويل الوسخ آندريف بجانبى وتريشاتوف أمامى . وكان لامبير يستعجل انتهاء العشاء فهو ماينفك يستحث الخادم : حتى اذا جىء بالشمبانيا ، قطع حديثه مع المجدور ، ومدّ كأسه نحوى قائلاً :

ـ نخب صحتك . فلندق الأقداح !

فعقّب تريشاتوف اللطيف قائلاً وهو يمد نحوى قدحه من فوق المائدة :

- اسمح لى أنا أيضاً أن أدق قدحي بقدحك .

وكان تريشاتوف ، الى حين وصول الشمبانيا ، واجماً صامتاً . أما « الأبله » فكان لا يقول شيئاً البتة ، وانما هو يأكل ساكتاً ويأكل كثيراً.

أجبت تريشاتوف بقولي :

- يسرني هذا !

ودققنا القدحين وشربنا . فقال « الأبله » فجأةً وهو يلتفت الىّ :

- أما أنا فلن أشرب نخب صحتك ، لا لأنني أتمنى لك الموت ، بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم .

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة . وتابع يقول :

- أنت تكفيك ثلاثة أقداح !

ثم أدرف وهو يضع قبضة يده على المائدة :

- أرى أنك تنظر الى قبضة يدى الوسخة . انني لا أغسلها ، بل أؤجرها على حالتها هذه غير مغسولة ، أؤجرها للامير ، لكسر رءوس الآخرين فى القضايا التى تفتح شهيته .

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت . وكان فى القاعة أربع موائد أخرى قد جلس اليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين . انه مطعم من المطاعم الرائجة . فاذا بجميع المحادثات تنقطع ، واذا بجميع الأنظار تتجه الى الركن الذى نحن فيه . وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على كل حال . اصطبغ وجه لامبير بحمرة شديدة . وقال بهمس حانق يخاطب آندرييف :

ـ آ ... ها هو ذا يستأنف أظن يا نيقولا سيمنوفتش أنني رجوتك أن تسيطر على نفسك .

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطيئة وقال :

ـ لا أريد لصديقي الجديد « دوبلجوروفكي » أن يسرف اليوم في شرب الخمر .

ازداد احمرار لامبير . وكان المجدور يصيخ بسمعه صامتاً ، ولكن كان واضحاً أنه راض مغتبط . لقد أعجبته ثورة آندريف . أنا وحدي لم أدرك لماذا كان يجب عليّ ألا أشرب .

قال لامبير وهو يكز أسنانه :

ـ انه لا يفعل هذا الا ليأخذ مالاً . سأعطيك سبعة روبلات . هل تسمع ؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء . ولكن دعنا نفرغ . لا تخزنا.

فزأر « الأبله » منتصراً :

ـ آ ... آ ...

وابتهج المجدور قطعاً ، فهاهو ذا يضحك .

وقال تريشاتوف لصديقه بقلق ، بل بما يشبه الألم ، راغباً في صدّه طبعاً :

ـ اسمع ، انك تسرف !

فصمت آندريف ، ولكن صمته لم يطل ، فان ما فعله لم يشف غليله . كان يتعشى على مائدة ثانية تبعد عنا خمس خطوات سيدان منهمكان في حديث حار . انهما سيدان متقدمان في السن ، يبدو عليهما أنهما حساسان سريعا التأذي . أحدهما طويل سمين جداً ، والثاني سمين أيضاً لكنه قصير . كان الرجلان يتكلمان باللغة البولندية عن الأحداث الأخيرة

التى وقعت بباريس • وكان « الابله » ينظر اليهما منذ مدة طويلة باستطلاع وفضول ، ويصيخ بسمعه الى حديثهما • وأغلب الظن ان البولندى القصير قد بدا له رجلاً سخيفاً مضحكاً ، فسرعان ما أبغضه ، شأنه فى ذلك شأن جميع الأشخاص الصفراويين المصابين بمرض فى الكبد ، الذين يحدث لهم هذا بغتةً بدون أى سبب • واتفق أن نطق البولندى القصير فجأةً باسم النائب مادييه دومونجو ، لكنه نطق الاسم بلكنة بولندية على عادة كثير من البولنديين ، أى انه شدَّد المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم ، فجاء نطق الاسم هكذا : مآديه دو موونجو • ولم يكن « الأبله » فى حاجة الى أكثر من ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى البولنديين ، ثم ينتصب بوقار ، ويقول بصوت عال واضح وكأنه يلقى سؤلاً :

ـ مآديه دو موونجو ؟

فالتفت البولنديان حانقين • وسأله البولندى الطويل السمين مهدداً :

ـ ماذا تريد ؟

وكان « الأبله » ينتظر هذه اللحظة • فكرَّر سؤاله بصوت عال جداً ليسمعه كل من بالصالة :

ـ مآديه دو موونجو ؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الايضاح ، تماماً كما فعل معى من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لى وهو يتقدم منى : « دولجوروفكى ؟ » فانتفض البولنديان • ونهض لامبير وهم أن يهجم على آندرييف ، لكنه سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات •

فأخذ البولندى القصير يقول باحتقار وقد احمر احمراراً شديداً حتى صار لون وجهه كلون جزرة :

ـ هؤلاء مهرجون ، يا سيد ، هؤلاء مهرّجون . قريباً سيستحيل على المرء أن يجيء الى هنا .

واضطربت الصالة كلها ، وسُمعت من كل مكان دمدمات تذمر ، ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات .

تمتم لامبير يقول وقد طاش صوابه ، محاولاً ان يدفع آندريف الى خارج الصالة :

ـ اخرج ، أرجوك ...

فوافق آندريف على الخروج بعد أن ألقى على لامبير نظرة فاحصة فأدرك أنه سيعطيه مالاً . لا شك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منه مالاً بهذا الأسلوب . وأراد تريشاتوف أن يركض وراءهما ، ولكنه نظر الىّ وتوقف . ثم قال وهو يخفي عينيه باصابعه اللطيفة الناعمة :

ـ آه .. شيء كريه !

فقال المجدور هامساً وقد ظهر الاستياء في وجهه هذه المرة :

ـ كريه فعلاً !

ورجع لامبير في أثناء ذلك مصفرّ الوجه ، وهمس في أذن المجدور ببعض الكلام محركاً يديه باشارات عنيفة ! وكان المجدور قد أمر أن يؤتى بالقهوة حالاً . وقد أصغى الى لامبير باحتقار . وكان واضحاً أنه يود الانصراف . ولم تكن القضية كلها مع ذلك الا عبثاً صبيانياً . وحمل تريشاتوف فنجان قهوته وجاء يجلس بجانبي . وأخذ يتكلم بهيئة صريحة كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً .

ـ انني أحبه كثيراً ، آندريف هذا . لا تستطيع أن تتصور مدى تعاسته . لقد بدّد مهر أخته في الشراب والطعام ، بل بدّد في الطعام

والشراب كل ما يملكه أهله في أثناء خدمته العسكرية • وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً • اذا كان لا يغتسل فانما مرد ذلك الى الكمد واليأس • تراوده أفكار جنونية : يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجلاً شريفاً ، فلا فرق بين الأمرين • يجب على المرء ألا يفعل شيئاً ، لا خيراً ولا شراً • في وسع المرء أن يفعل الخير وأن يفعل الشر ، فكلاهما سواء • ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه ، وانما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر • ولكن صدّق أن هذا الكلام كله انما يقوله بغير جد • بل انى لأعتقد أن ما فعله اليوم انما فعله لينتهى من لامبير ويقطع صلته به قطعاً تاما • بالأمس كان يحدثنى فى هذا • هل تصدّق أنه فى الليل ، أو حين يخلو الى نفسه مدة طويلة ، يأخذ يبكى • وهو اذا بكى فانما يبكى كما لا يبكى انسان آخر غيره • انه يعول عويلاً رهيباً ، وهذا أبعث على الشفقة • تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة ، ثم هو يبكى معولاً ! بائس ، أليس كذلك ؟ أريد أن أنقذه ، ولكننى أنا نفسى شخص حقير ، فتى ضائع ، لعلك لا تصدق ! هل تسمح لى بالدخول يادولجوروكى اذا أنا جئت أزورك أحياناً ؟

ـ طبعاً ! أنا أحبك كثيراً .

ـ لماذا تحبنى ؟ شكراً على كل حال ! اسمع • فلنشرب كأساً أخرى • ماذا أقول ؟ لا ، لا تشرب ! لقد صدقك القول : يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة •

قال ذلك وهو يلقى على نظرة معبرة • وأردف يقول :

ـ أما أنا فسأشرب مع ذلك • أصبح الشراب لا يحدث لى شيئاً ، وأصبحت لا أستطيع أن أمنع نفسى عن شىء • انصحنى اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء فى المطاعم ، تجدنى فى الغد مستعداً لكل شىء فى سبيل أن

أتعشى فى المطاعم . أؤكد لك أننا نود ، مخلصين ، أن نصبح شرفاء ، ولكننا نرجىء ذلك دائماً الى الغد . وما ينفك الغد يتراجع ،

وتمضي السنون تليها السنون ويغني ربيع القمر

ولكنى أخاف عليه هو . سوف يشنق نفسه . سوف يمضي يشنق نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً . هذه طبيعته . ما أكثر الذين يشنقون انفسهم فى هذه الأيام ! من يدرى ؟ لعل أمثالنا كثير . أنا مثلاً لا أستطيع أبداً أن أحيا بدون أن يكون معي فضل من المال . أنا أحوج الى المال الزائد منى الى المال اللازم . اسمع ، هل تحب الموسيقى؟ أنا أحبها حبا جنونيا . سأعزف لك شيئاً حين أجىء اليك . اننى أجيد العزف على البيانو اجادة كبيرة . درست العزف زمنا طويلاً . دراسة جادة . لو أتيح لى أن أؤلف أوبرا لاخترت موضوع « فاوست » . اننى أحب هذا الموضوع كثيراً . فتراني دائماً أبنى بخيالى مشهداً فى كاتدرائية : أتصور كاتدرائية قوطية ، وأتصور جوقات المغنين والأناشيد . وتدخل جرتشن . الجوقات من القرون الوسطى ، حتى يشعر المرء بجو القرن الخامس عشر . جرتشن حزينة مكتئبة ، فى البداية تُسمع تلاوة منغمة ، بصوت جهير ، لكنه صوت رهيب ، معذِّب . ثم يدوى صوت الجوقات بغناء قاتم ، قاس ، غير مكترث :

هذا يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يغنى الشيطان. انه لا يرى، ولكن يُسمع صوته ، الى جانب الأناشيد ، ينطبق عليها تقريباً ، ولكنه مختلف عنها كل الاختلاف . ذلك ما يجب التوصل اليه . وغناء الشيطان طويل ، لا يتعب ، وهو تينور ، تينور حتماً . يكون فى البداية رفيقاً ، رقيقاً : « هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريئة ، أيام كنت لا تزالين طفلة ، كيف كنت تجيئين مع أمك الى هذه الكاتدرائية وتتمتمين بصلوات

تفرئينها فى صـب عبيق ؟ » • ولكن الغنـاء يفوى ثم يقوى ، وما ينفك يزداد حرارة واندفاعا • أصبحت النغمات اعلى : يحس فيهـا السـامع دموعا ، يحس فيها ضـجرا ، ضـجراً لا ينتهي ، لا مخرج منه ، ثم ياتى الياس : « لا غفـران يا جرتشن ، لا نفران لك هنا ! » • وتريد جرتشن أن تصلّي وتدعو ، ولكن من صـدرها لا تخرج الا صرخات ـ اتعرف هذا النوع من الصرخات ؟ الصرخات التى تنطلق تشنجات من صدر أترع دموعا • ويظل الشـيطان يغني • انه لا يصمت ، ويظـل ينفذ فى النفس الى أعماق أبعد ، ثم اذا هو ، على حين فجأة ، ينقطع مرة واحدة بهذه الصرخة : « انتهى كل شيء ، انصبت عليك اللعنة ! » • وتتهاوى جرتشن على الأرض راكعة ، ضـامةً يديهـا أمامهـا • وتنطلق عندئذ صلاتها ، صلاة قصيرة جداً ، هى قراءة منغـَّمة ، ولكنهـا ساذجـة ، لا يُصطنع فيها فن ، هى تلاوة تترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية • أربعة أبيـات ، أربعـة أبيات فقط ـ عند ستراديلا نغمات كهذه ! ـ ثم الاغماء ، بعد آخـر نغمـة ! ويحدث هرج ومـرج • وتُرفع جرتشن ، وتنقل • فاذا بالجوقة يُرعد غناؤها فجأة • لكأنها صـاعقة تنزل • غناء فيه الهام، غناء ظافر، ساحق، شيء من نوع نشيدنا، نشيد الملائكة الصغار، يهتز كل شيء حتى آساسه ، ويفضى كل شيء الى تسبيحة « المجد لله ! » •. لكأنه صراخ الكون كله ، بينما هى تُحمل و تُنقل • تُنقل جرتشن ، وتسدل الستارة • حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما • ولكننى أصبحت لا أصلح لشيء • فانما أنا أكتفى بأن أحلم • أحلم بهـذا طول الوقت • أحلم • حياتى كلها ليست الآن الا حلماً • وفى الليل أحلم أيضاً • آه ! دولجوروكى ، هل قرأت كتاب ديكنز « مخزن العاديات » ؟ •

ـ نعم قرأته ، فماذا ؟

ـ لاشك أنك تتذكر ••• انتظر • سأفرغ كأساً أخرى • لاشك

أنك تتذكر ذلك الجزء من أواخر القصة ... الذى نراهما فيه ، ذلك الشيخ المجنون وتلك البنية الصغيرة ، حفيدته ، التى عمرها ثلاث عشرة سنة ، نراهما ، بعد هروبهما العجيب وتجوالهما الطويل ، يجدان ملجأ يأويان اليه بمكان فى أقاصى انجلترا ، قرب كاتدرائية قوطية قديمة ، وترى البنت الصغيرة تحصل هناك على وظيفة دليل ويرى الزائرين الكاتدرائية ، ففى ذات يوم تغرب الشمس ، فاذا بالطفلة ، والواقفة فى فناء الكاتدرائية ، وقد غمرتها أواخر أشعة النهار ، اذا بها تنظر الى الشمس الغاربة وقد امتلأت نفسها ، نفس الطفلة ، نفسها المدهوشة ، امتلأت تأملاً هادئاً وتفكراً عميقاً ، كأنما هى تقف أمام لغز من الألغاز ، لأن الشيئين كليهما ، الشمس التى هى فكر الله ، والكاتدرائية التى هى فكر البشر ، انما هما لغزان حقاً ؟ ... أليس هذا صحيحاً ؟ آه ... اننى لا أجيد التعبير . ولكن الرب يحب هذه الخواطر الأولى التى تملأ نفوس الأطفال . وهناك ، على مقربة منها ، فوق الدرجات ، كان ذلك الشيخ المجنون ، جدُّها ، يتأملها بنظرة جامدة . صحيح أن هذا كله ليس فيه شىء خارق ، هذا المشهد الذى رسمه ديكنز ، ولكن المرء لا يمكن أن ينساه أبداً . وقد بقى فى أوروبا كلها . لماذا ؟ لأن هذا هو الجمال . لأن فى هذا براءة . آه ... أنا لا أدرى ما الذى يشتمل عليه هذا ، ولكننى أحس فيه جمالاً . كنت فى المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات . ان لى أختاً فى الريف ، تكبرنى بسنة واحدة ... الآن بيع كل شىء هناك ، ولم يبق لنا أملاك ! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم ، نقرأ هذه الرواية ، تحت أشجار الزيزفون فى دارنا ، وكانت الشمس تغرب أيضاً ، فاذا نحن ننقطع عن القراءة ، ويقول كل منا للآخر : نحن أيضاً سنكون خيِّرين ، سنكون جميلين ... كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة . ان لكل انسان ذكرياته يا دولجوروكى ...

وفجأة مال برأسه الجميل على كتفي ، وطفق يذرف دموعاً غزيرة . فأشفقت عليه ، أشفقت عليه كثيراً . صحيح أنه كان قد شرب كثيراً ، ولكنه كان يكلمني بصدق كبير ، وأخوة خالصة ، وعاطفة طاهرة .

وفي تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة ، وسمعنا قرعات قوية على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج ، وكانت كبيرة ، وكانت في الطابق الأرضي ، فيستطيع المرء أن يبلغها من الشارع) . انه آندرييف الذي طُرد .

ـ « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » .

داهمتنا هذه الصرخة من الشـــارع . فهتف الفتى وهو يثب عن مكانه مندفعاً :

ـ لايزال اذن هنا ! انه اذن لم ينصرف !

وصاح لامبير يقول للخادم :

ـ الحساب !

وكانت يداه ترتجفان غضباً وهو يدفع الحســاب . ولــكن المجدور لم يسمح له بأن يدفع عنه .

ـ لماذا ؟ أنا الذي دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة .

ـ لا ، اسمح لي .

وأخــرج المجدور محفظة نقوده ، ودفع حصــته بعــد أن حسب ما عليه . قال له لامبير :

ـ انك تهينني يا سيمون سيدوروفتش !

ـ هذا ما أريده .

بذلك أجاب سيمون ســيدوروفتش . وتناول قبعته ، وخرج من

الصالة وحده دون أن يودع أحداً • فقدف لامبير باقى الحساب للخادم وأسرع يركض وراء المجدور ، حتى لقد نسينى من شدة اضطرابه • وجرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج • كان آندرييف متسمرا أمام الباب ، كنصب ، ينتظر تريشاتوف •

قال له لامبير الذى أصبح لا يستطيع كظم غيظه :

ـ سافل !

فاذا بآندرييف يزأر صائحاً :

ـ هيه !

ثم اذا هو يقلب له قبعته بقفا يده ، فتسقط القبعة على الرصيف • ويسرع لامبير الى التقاطها بمذلة •

ـ « خمسه وعشرون روبلاً » •

كذلك قال آندرييف لتريشاتوف وهو يريه الورقة النقدية التى استطاع أن ينتزعها من لامبير • فصرخ تريشاتوف قائلاً له :

ـ كفى ! لماذا الجرسة دائماً ؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين روبلاً ؟ انه لا يدين لك الا بسبعة روبلات •

ـ لماذا ؟ لأنه وعدنا بأن نتعشى وحدنا مع نساء ، فاذا هو يعشينا مع هذا المجدور بدلاً من النساء • هذا عدا أننى لم أفرغ من طعامى ، وقد تجمدت من البرد على الرصيف بما يساوى ثمانية عشر روبلاً ، فيكون المجموع خمسة وعشرين •

زأر لامبير يقول :

ـ شيطان يأخذكما ! اننى أطردكما كليكما ولسوف أريكما •••

فصرخ آندرييف قائلاً :

ـ لامبير ، أنا الذى اطردك ، وانا الذى سوف أريك ! ...
« الوداع يا أميرى » ! لاتزد على ما شربت . هلمّ يا بييرو ! الى الأمام ، سر ! « أوهيه لامبير ! أينَ لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » .

كذلك ردّد مرة أخيرة وهو يبتعد بخطى عملاق ! .

تمتم تريشاروف يقول لى بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه :

ـ اذن سأجيء اليك ، هل تسمح ؟

وبقيت وحدى مع لامبير . قال وهو لايكاد يستطيع أن يسترد أنفاسه ، وكأنه فقد صوابه :

ـ هيًّا بنا !

فأسرعت أصيح قائلا له بلهجة متحدية مستفزة :

ـ الى أين ؟ لا ، لن أصحبك الى أى مكان !

فسألنى قلقاً وقد ثاب الى نفسه فجأة :

ـ كيف هذا ؟ اننى لم أكن أنتظر الا أن نبقى وحدنا .

ـ الى أين ؟

يجب أن أعترف بأن رأسى كان يدور قليلاً بعد أن شربت ثلاث أقداح من الشمبانيا ، وكأسين من خمرة الحريز .

ـ الى هنا ، الى هنا ، هل ترى ؟

ـ ولكن فى هذا المحل محاراً طازجاً كما ترى . مكتوب ذلك . فالرائحة اذن كريهة .

ـ هذا ما يجب لنا بعد العشاء . انه محل ميليوتين . المحار لن نأكله . ولكننى سأقدم لك شمبانيا .

ـ مستحيل . أنت تريد أن تُسكرنى .

ـ هما اللذان قالا لك هذا . ضحكا عليك . أتصدق هذين الوغدين ؟

ـ لا ، ليس تريشاروف وغداً . ثم أنني أعرف بنفسي كيف أكون حذراً .

ـ فلك اذن ارادة قوية ؟

ـ نعم ، لي ارادة قوية ، أقوى من ارادتك على الأقل ، فأنت يستعبدك أول قادم ! لقد جللتنا بالعار . مضيت تعتذر لذينك البولنديين ذليلاً كخادم . لابد أنك كثيراً ما ضربت في المطاعم .

صاح يقول باحتقار وقد نفد صبره نفاداً معناه : « وأنت أيضاً ؟ » .

ـ ولكن بيننا كلام يا غبي ! أتراك خائفاً ؟ أأنت صديقي أم لا ؟

ـ لست صديقك ، ما أنت الا وش دنيء . على كل حال ، هيا بنا ! أريد أن أبرهن لك على أنني لست خائفاً منك . هوه ! ما أبشع هذه الرائحة ! رائحة جبن عفن ! ما أشدها قذارة !

الفصل السادس

١

أحبّ أن أذكرّ مرةً أخرى بأن رأسى كان يدور قليلاً • والا لكنت تصرفت وتكلمت على غير هذا النحو •

في قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محار فعلاً • وقد جلسنا الى مائدة عليها غطاء وسخ • وأمر لامبير بشامبانيا • فاذا أمامى قدح مملوءة بخمرة باردة لونها كلون الذهب ، تنظر الىّ وتغرينى بنفسها • لكننى كنت مستاءً مهموماً •

ـ هل تعلم يا لامبير ما الذى يسوءنى منك خاصة ؟ أنك تتصور نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرنى فأطيع ، كما كان الحال فى مدرسة توشار ، مع أنك أنت المستعبد لهم جميعاً هنا !

ـ غبى ! هيّا ! لندق الأقداح !

ـ لا تريد حتى أن تجبر نفسك على شىء • ليتك تحاول على الأقل أن تخفى عنى أنك تريد أن تسكرنى !

ـ انك تقول سخافات ، وانك لسكران • يجب أن تشرب المزيد فتصبح أكثر مرحاً • هيّا تناول قدحك • ما بالك لا تتناول قدحك ؟

ـ أتناول قدحى ؟ أنا منصرف • ذلك كل ما ستحصل عليه منى !

وهممت أن أنصرف فعلاً • ولكن هاهو ذا يغضب غضباً شديداً :

ـ ان تريشاتوف هو الذى أثارك علىّ : رأيتكما ، كنتما تتهامسان •

ما أنت الا غبي . ان آلفونسين تشمئز منه اذا هو أقترب منها ... انه مقزز . سأحكي لك عنه فتعرف ما قيمته !

ـ سبق أن حكيت لي . ليس في فمك الا اسم آلفونسين ! انك لمحدود العقل حقاً !

ـ محدود ؟

لم يفهم عني . وأردف يقول :

ـ هاهما الآن مع المجدور . ذلك هو السبب في أنني طردتهما . ان هذا المجدور رجل دنيء . سوف يفسدهما . أما أنا فكنت أطالبهما بأن يلتزما الشرف والنبل في سلوكهما دائماً .

جلست ، وتناولت القدح بغير شعور ، وجرعت جرعة . قلت له :

ـ أنا بثقافتي أعلى منك كثيراً !

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأنني عدت أجلس . وسرعان ما ملأ لي القدح مرة أخرى . تابعت كلامي لأغيظه (ولا شك أنني كنت عندئذ أبعث منه على الاشمئزاز) ، فقلت :

ـ ولكنك خائف منهما ، أليس كذلك ؟ أسقط آندرييف قبعتك عن رأسك ، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً .

ـ نعم ، ولكنه سينال عقابه . انهما يتمردان ، ولكنني سأعرف كيف أقتص ...

ـ والمجدور يعذبك . أظن أنك لم يبق لك أحد غيري . فجميع آمالك معقودة عليّ أنا الآن ، هه ؟

ـ نعم يا عزيزى آركادى • هذا صحيح جداً : لم يبق لى صديق غيرك • صدقت !

قال ذلك وربت على كتفى •

ما العمل برجل يبلغ هذا المبلغ من الغباء ! انه بعقله المحدود يحسب السخرية مديحاً •

تابع كلامه وهو ينظر الىّ برقة وعاطفة :

ـ فى وسعك أن تجنبنى كثيراً من المنغصات ، وأن تخلصنى من ورطة اذا كنت رفيقاً مخلصاً يا آركادى !

ـ كيف ذلك ؟

ـ أنت تعرف • ما لم أساعدك فستظل غبياً طول حياتك ، لكننى أستطيع أن أهيىء ثلاثين ألف روبل نقتسمها نصفين ، نصفاً لك ونصفاً لى • انظر ماذا أنت الآن : انك لا تملك شيئاً ، لا اسماً ولا أسرة • فاذا قبلت ما أعرضه عليك صرت غنياً فى طرفة عين • وبثروة كهذه الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً •••

ذهلت من هذا الأسلوب • كنت أتصور أنه سيعمد الى المكر والحيلة ، ثم هاهو ذا يمضى الى الهدف رأساً فيكلمنى بلا لف ولا دوران كما يكلمّ صبى صغير • قررت أن أصغى اليه ، من باب رحابة الفكر •• وبتأثير الفضول الشديد أيضاً !

قلت له بلهجة ثابتة صارمة :

ـ اسمع يا لامبير ، قد لاتفهم ما سأقوله لك ، لكننى سأقوله : اننى أقبل أن أصغى الى كلامك لأننى رحب الفكر •

وجرعت جرعة أخرى ، فسرعان ما عاد لامبير يكمل ملء الكأس . وقال :

ـ اسمع يا آركادى : لو أن رجلاً مثل بيورنج قد أباح لنفسه أن يشتمنى وأن يضربنى بحضور سيدة أعبدها ، لما عرفت ماذا كان يمكن أن أفعل ! أما أنت فقد تحملت . ولذلك أحتقرك : ما أنت الا خرقة بالية !

فهتفت أقول وقد اصطبغ وجهى بحمرة شديدة :

ـ تجرؤ أن تقول ان بيورنج ضربنى ؟ أنا الذى ضربته ، وليس هو الذى ضربنى !

ـ بل هو الذى ضربك ولست أنت الذى ضربته !

ـ كذاب ! حتى اننى دست على قدمه !

ـ لكنه دفعك عنه بيده وأمر الخدم أن يقتادوك ... وكانت هى فى العربة تنظر اليك وتضحك عليك ! هى تعلم أنك ليس لك أب ، وأنك تبلع كل اهانة !

ـ يخيل الىّ يا لامبير أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة . واننى لأشعر عنك بخزى وعار . أنت تقول هذا كله لتستثيرنى ، وتقوله بغلظة شديدة وفظاظة صريحة ... أتراك تحسبنى صبياً فى السادسة عشرة من عمرى ؟

ثم هتفت أقول وأنا أرتعش غضباً وأشرب كأسى جرعات بغير شعور :

ـ انك تفاهمت مع آنا آندريفنا !

ـ آنا آندريفنا وغدة ماكرة ، ستضحك علينا أنا وأنت والعالم بأسره ! وأنا انما انتظرتك لأنك تستطيع أن تتفق مع الأخرى .

ـ من الأخرى ؟

ـ السيدة آخماكوفا • انني أعـرف كل شيء • أنت نفسك قلت لى انها تخشى الرسالة التى فى حوزتك •••

ـ أية رسالة ؟ ••• أنت كذاب !

وتمتمت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

ـ هل رأيتها ؟

ـ رأيتها • جميلة ، « جميلة جداً » • ان لك ذوقاً رفيعاً !

ـ أعرف أنك رأيتها • ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها • ولا أريد أن تتكلم عنها •

ـ انك مازلت فتى غـراً ، وهى تضـحك عليك وتسـخر منك لا أكثر • عرفنـا فاضلة من هذا النوع بموسكو • ما كان أشد شموخها بأنفها ! ولكن ما ان هُدِّدت بفضـح كل شىء حتى أخـذت ترتجف ، وسرعان ما أصبحت طيِّعة ! فنلنـا منها كل ما أردنا : المال وغير المال • هل تفهـم ؟ لقد عادت الآن الى المجتمع ، وأصـبح الوصـول اليهـا مستحيلاً ، وصـارت تحلق عاليـاً • ما أفخم العربة التى تركبها ! ليتك رأيت الماخور الذى تمَّ فيـه هذا كله ! انك لم تعش بعد • ليتك تعرف المواخير التى لا يخشين فيها أن •••

تمتمت أقول بغير ارادة :

ـ خطر ببالى هذا !

ـ انهن فاسقات حتى نخاع العظام ! انك لا تعرف كيف لا يتورعن عن شيء ! لقد عاشت آلفونسين فى بيت من تلك البيوت ، فما كان أشد اشمئزازها !

فقلت أؤيده مرةً أخرى :

ـ فكرت فى هذا !

ـ أ تضرب ثم تأخذك شفقة ؟ ...

فأدركت قصده على الفور ، فصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً :

ـ لامبير ، أنت وغد ، أنت وبش لئيم ! لقد رأيت هذا كله فى المنام . حلمت بك جالساً بجانب آنا آندريفنا ... آه ... انك سافل دنىء ! أكنت تحسبنى حقيراً الى هذا الحد ؟ لقد رأيت هذا فى المنام لأننى كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثنى هذا الحديث . ثم ان الأمور ليست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثنى عنها بمثل هذه الصراحة ، وبمثل هذه البساطة !

ـ أرأيت ؟ ها هو ذا يغضب ! هىء هىء هىء ...

أخذ لامبير يضحك منتصراً . وتابع كلامه فقال :

ـ اسمع يا عزيزى آكاردى . عرفت الآن ما أنا فى حاجة اليه . لهذا انما كنت انتظرك ، استمع الى ما أقول : أنت تحبها ، وتريد أن تنتقم من بيورنيج . هذا ما كنت أريد أن أعرفه . ولقد كنت أقدّره أثناء هذا الانتظار . « اذا كان الأمر كذلك ، فقد تغيرت المسألة » (بالفرنسية) . وفى هذا خير . ذلك أنها تحبك هى أيضاً . فتزوجها بلا ابطاء . هذا خير ما تفعل . ثم انك لا تستطيع أن تفعل غير هذا . لقد اخترت أفضل حل . ثم اعلم يا آركادى أن لك صديقاً . أنا الصديق الذى تستطيع أن تفعل به ما تشاء . ان هذا الصديق سيساعدك وسيزوجك . سأجد كل شىء . سأمضى أبحث تحت الأرض عن كل ما تحتاجه ، يا عزيزى آركادى . وفى مقابل ذلك تعطى رفيقك القديم ثلاثين ألف روبل أجراً على ما بذل من جهد ، هه ؟ سأساعدك . لا تقلق . أنا فى مثل

هذه الأمـور أعرف جميع المداخل والمخارج .. ستنال المهر كله ، فاذا انت غنى ، واذا باب المستقبل اللامع ينفتح امامك .

كان راسي يدور . ولـكن هذا لا ينفى اننى كنت أنظـر الى لامبير مدهوشـا . لقد كان جـاداً فيما يقول ، او قـل اننى كنت ارى رؤية واضـحة أنه كان يصدّق هو نفسه أن فى امكانه أن يزوجنى ، بل انه يتبنى هذه الفكرة بحماسـة . وكنت أدرك كذلك طبعاً أنه يسـتدرجنى الى فخ كأننى طفل صغير (لاشك أننى قد أدركت هذا منذ ذلك الحين) . ولكن فكرة هذا الزواج بهـا كانت بلغت من قوة النفاذ الى كيـانى كله اننى رغم اندهاشى من أن يستطيع لامبير تصـديق هذا الخيـال ، قد اندفعت أنا نفسى الى تصديقه تصديقاً لا سـبيل الى مقاومتـه ، دون أن أفقد ، خلال لحظة واحدة ، شعورى بأن هذا أمر لا يمكن تحقيقه طبعاً . لا أدرى كيف أمكن أن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة فى نفسى معاً .

تمتمت أسأله :

ـ ولكن هل هذا ممكن ؟

ـ لم لا ؟ تريها الوثيقة فتخاف فتتزوجك حتى لا تضيّع الميراث .

قررت ألا أصـدّ لامبير عن المضى فى هـذه الحقارات ، لأنه كان يعرضـها أمامى بسذاجة كبيرة ، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يثور عليه حنقى فجأة . ومع ذلك دمدمت أقول له اننى لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها :

ـ مسـتحيل ، لن أتزوج عنـوةً . كيف يدور فى خلدك أن أكون من الخسة بحيث لا أتورع عن هذا ؟

ـ هوه ! ولكنها ستجىء اليك من تلقاء نفسها . لا أنت بل هى ستخاف فتتزوجك !

ثم استدرك يقول :

ـ ثم انها ستتزوجك لأنها تحبك •

ـ كذاب • أنت تسخر مني • كيف عرفت أنها تحبني ؟

ـ أعرف هذا طبعاً • آنا آندريفنا تفترضه أيضاً • انني جاد فيما أقول • انني أقول الحقيقة : آنا آندريفنا تتصور هذا • سأحكي لك شيئاً آخر حين تجيء الي ، فترى أنها تحبك • لقد ذهبت آلفونسين الى تساوسكويا • وحصلت هي أيضاً على معلومات •••

ـ ماذا استطاعت أن تعلم هناك ؟

ـ لنذهب الى البيت : ستحكي لك هي نفسها ، فيكون ذلك أمتع لك وأحلى • ثم هل أنت أقلّ من غيرك ؟ انك جميل ، ومتعلم •••

دمدمت أقول :

ـ نعم ، متعلم •••

كنت أتنفس بمشقة ، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد يتحطم ، ولم تكن الخمرة هي السبب الوحيد طبعاً •••

ـ أنت جميل وأنيق •

ـ نعم أنيق •

ـ وطيب •••

ـ نعم طيب •••

ـ فكيف لا ترضاك اذن زوجاً ؟ ان بيورنج لن يتزوجها بدون أن يكون لها مال ، وأنت تستطيع أن تحرمها من مالها ، فتخاف فتتزوجك • واذا تزوجتها فقد انتقمت من بيورنج في الوقت نفسه • لقد قلت لي في تلك الليلة ، حين كنت متجمداً من البرد ، انها تحبك •

ـ أنا قلت لك هذا ؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً !

ـ بلى بلى • قلت هذا الكلام بعينه •

ـ قلته أثناء الهذيان • ولابد انني حدثتك اذن عن الوثيقة ؟

ـ نعم ، ذكرت أن تلك الرسالة هي في حوزتك • فتساءلت أنا : اذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر ؟ كيف يضيِّع وقته ؟

تمتمت أقول :

ـ أضغاث أحلام • لست من الحماقة بحيث أصدِّق أن هذا الزواج يمكن أن يتم • هناك أولاً فرق السن • وهناك ثانياً أنني ليس لي اسم •

ـ أقول لك انها ستتزوجك • يستحيل ألا تتزوجك حين تكون مهدَّدة بفقد ميراث ضخم • وسوف أدبر هذا الأمر • ثم انها تحبك • هل تعلم ؟ ان هذا الأمير العجوز يحمل لك أطيب المشاعر • فما أكثر العلاقات التي تستطيع أن تعقدها برعايته ! أما عن الاسم ، فان المرء في هذا الزمان لا يحتاج الى اسم : متى ملكت المال فسوف تسير قدماً الى أمام ، وسوف تمضي بعيداً ، فما هي الا عشر سنين اذا أنت تملك من الملايين ما تهتز له روسيا كلها : ما حاجتك الى الاسم حينذاك ؟ ان في وسع المرء أن يشتري من النمسا لقب بارون • وحين تتزوج عليك أن تفرض ارادتك • يجب على الرجل أن يعرف كيف يعامل النساء • ان المرأة التي تحب رجلاً تريد أن يسيطر هذا الرجل عليها • المرأة تهوى في الرجل الصلابة •• وأنت متى أخفتها بالرسالة تكون قد برهنت لها في الوقت نفسه على صلابتك • ستقول : « آ ••• لا يزال في ريق الشباب ثم هو صلب العزيمة الى هذا الحد ! » •

بقيت على مقعدي كالمصعوق • ما كان لي أن أنقاد لمثل هذا الحديث

الأحمق مع اى انسان اخر • ولكن ظمأ لذيذا لا ادرى ما كنهه كان يدفعنى الى اطالة الحديث • ثم ان لامبير كان اشد غباء واشد حطة من أن يخجل المرء أمامه • قلت فجأة :

ـ اسمع يا لامبير • قل ما شئت • ولكن كلامك زاخر بالسخافات• ولئن كنت أكلمك فلأننا رفيقان ، فليس لأحدنا أن يخجل من الآخر • وما كان لى أن أنزل الى هذا المستوى لو كنت أكلم شخصاً آخر • ثم ما الذى يجعلك تجزم بأنها تحبنى ؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن المال • ولكنك يا لامبير لا تعرف المجتمع الراقى : ان كل شىء فى تلك البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة ، ويخضع لاعتبارات التمييز بين الطبقات • وهى الآن تجهل طاقاتى ، ولا تعرف المدى الذى يمكن أن أبلغه فى هذه الحياة ، فلا يمكن الا أن تشعر بالعار اذا هى تزوجتنى • لكننى لا أكتمك يا لامبير أن هناك نقطة تبعث على الأمل هى أنها قد تتزوجنى على سبيل الشكر والامتنان ، لأننى سأخلّصها عندئذ من كره يضمره لها رجل تخاف منه •

ـ أباك تعنى ؟ هل هى تحبه اذن كثيراً ؟

ألقى لامبير هذا السؤال وقد هزّه فضول شديد • هتفت أقول :

ـ لا ، لا • حقاً انك لفظيع وغبى فى آن واحد ، يا لامبير ! هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها ؟ الابن وأبوه ! سيكون هذا مخزياً رغم كل شىء ! ان أبى يحب ماما • لقد رأيته يقبّلها • ما كان أغبانى حين كنت أتصور فى الماضى أنه يحب كاترين نيقولايفنا ! صحيح أنه كان يحبها ، ولكنه أصبح يكرهها منذ مدة طويلة • انه يريد الانتقام ، وهى خائفة • ذلك أنه رهيب اذا هو أخذ ينتقم يا لامبير ! يكاد يصبح عندئذ مجنوناً • اذا غضب منها فانه يفقد صوابه فلا يتورع عن شىء ! هذا كره من نوع الكره الذى كان ينشب بين الأسر القديمة

ويقوم على اساس من مبادىء • الناس فى عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادىء • فى عصرنا هذا لا مبادىء بل حالات خاصة • اه ••• لامبير ! انك لاتفهم شيئاً • أنت غبى كقدميك • أنا أكلمك الآن عن المبادىء ، وأنت لا تفهم من أمر المبادىء شيئاً • أنت جاهل جهلاً رهيباً • هل تتذكر كيف كنت تضربنى ؟ ولكننى الآن أقوى منك • هل تعلم هذا ؟

ــ عزيزى آركادى ، لنذهب الى بيتى ! سنقضى السهرة معاً ، وسنشرب زجاجة أخرى ، وستغنى لنا آلفونسين عازفةً على القيثار •

ــ لا ، لن اذهب • اسمع يا لامبير • أنا لى « فكرتى » • فاذا لم ينجح المشروع ولم أتزوج ، فسوف أرتد الى فكرتى • أما أنت فليس لك فكرة •

ــ طيب طيب • ستحدثنى عن هذا • هيّا بنا !

ــ لن أذهب الى بيتك !

ونهضت ، وأنا لا أزال أقول :

ــ لا أريد أن أذهب ، ولن أذهب • سأجىء اليك ، ولكن ما أنت الا وغد • سأعطيك ثلاثين ألفاً • ليكن • لكننى أطهر منك وأنبل منك • أما هى ، فاننى أمنعك حتى من أن تفكر فيها : انها فوقنا جميعاً • ما خططك الا قذارات استغربها حتى منك أنت • أريد أن أتزوج • هذه قضية أخرى • ولكننى لست فى حاجة الى ثروة • أنا أحتقر الثروة • لن أقبل ولو قدمت لى ثروتها راكعة ••• أن أتزوج ؟ هذه مسألة أخرى • ثم ••• هل تعلم ؟ صدقت حين قلت ان على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن • حسن أن يحب الرجل ، أن يحب حباً قوياً مشبوباً ، بكل ما يقدر عليه الرجل وتعجز عنه المرأة من عظمة النفس ، ولكن يجب أن يكون الرجل طاغية مستبداً • ذلك أن المرأة ،

يا لامبير ، تحب الاستبداد • أنت يا لامبير تعرف النساء ، ولكنك في كل ما عدا ذلك غبي غباءً يثير الدهشة • ثم هل تعلم يا لامبير ؟ ما أنت بالمقزز الى الحد الذي يتصوره المرء حين يراك • أنت بسيط • أحبك يا لامبير • آه يا لامبير ، لماذا أنت وبش ؟ الحياة معك يمكن أن تكون ملأى بالفرح والمرح ! هل تعلم يا لامبير ؟ أنا أرى أن تريشاتوف لطيف وديع •

هذه الجمل الأخيرة المفككة التي لا يربطها رابط انما تمتمتها بعد أن صرنا في الشارع • انني أتذكر أيسر التفاصيل : يجب أن يرى القارىء كيف أمكنني عندئذ أن أسقط في مثل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شبّ في نفسي من حماسة ، وكل ما حلفته من أيمان ، وكل ما قطعته من عهود لأرجع الى الخير وأبحث عن الجمال • قسماً ما كنت لأعترف بهذه المخازي على أية حال من الأحوال ، على أية حال من الأحوال ، لولا اقتناعي الكامل التام بأن الحياة قد أحالتني انسانا آخر تعلم الحياة العملية وتعودها •

كنا قد خرجنا من الدكان ، وكان لامبير يسندني محيطاً بذراعه قامتي • ورفعت اليه بصري فجأة ، فرأيت في نظرته الثابتة المتفحصة اليقظة المختلسة ذلك التعبير نفسه الذي رأيته فيها يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح ، فقادني محيطا بذراعه قامتي ، على هذه الصورة تماماً ، الى أن أوصلني الى عربة ركبتها ، وكان يصغي بأذنيه وعينيه جميعاً الى تمتماتي المفككة التي لا يربطها رابط • ان الأشخاص الذين أثملهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكراً تاماً ، توافيهم على حين فجأة لحظات صحو كامل •

قلت له بصلابة وأنا ألقي عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عني :

ـ لن أصحبك الى بيتك بحال من الأحوال !

ـ طيب طيب • سآمر آلفونسين بأن تهيىء لنا شاياً •

كان مقتنعاً أعمق الاقتنـــاع بأنني لن أفلت منـــه • وكان يحيطني بذراعه ويسندني مغتبطاً أعظم الاغتباط ، لأنه أطبق على فريسته • لقد كان محتاجاً الي ّ في ذلك المساء ذاته ، وأنا على هذه الحـال نفسـها • وسترون سبب ذلك فيما بعد •

كررت أقول :

ـ لن أذهب معك ! يا حوذي !

وكانت زلاجة تمـر في تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها • فزأر لامبير خائفاً خوفاً رهيباً وهو يشدني من معطفي :

ـ الى أين تذهب ؟ ما هذا الذي تفعل ؟

فصحت أقول له :

ـ ولا تحاول أن تتبعني ، لا تجر ورائي !

وضرب الحوذي حصانه بسوطه ، فسارت العربة ، وأفلت معطفي من يدي لامبير • فصرخ لامبير ورائي يقول بصوت خبيث :

ـ سيان ! لسوف تجيء !

ـ أجيء اذا أردت •

كذلك أجبته من العربة وأنا التفت اليه •

٢

لم يلاحقنى ، ويرجع ذلك فى أغلب الظن أنه لم يقع على عربة فوراً ، فاستطعت أن أفلت منه . ولكن ما ان وصلت الى « سوق العلف » حتى نزلت من العربة وصرفتها . كان بى شوق جنونى الى المشى . لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد . وانما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة ، وبقدرة خارقة على القيام بأى عمل ، وبأفكار لذيذة لا نهاية لها تزدحم فى رأسى .

وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته . وكان كل شىء فى نظرى فاتناً وسهلاً . فلما وصلت الى أول مخفر بسوق العلف شبت فى نفسى رغبة قوية فى أن أمضى الى الخفير فأعانقه وأقبّله . وكان الجليد يذوب ، وكان الميدان مظلماً ، وكانت تفوح فيه روائح كريهة ؛ غير أن كل شىء كان يعجبنى ، حتى هذا الميدان .

قلت لنفسى : « سأسير الآن فى شارع أوبوخوف ، ثم التفت يسرةً فأمشى فى شارع سيمينوفسكى ، فأكون قد درت دورة . هذا لذيذ . وكانت أزرار معطفى محلولة : لا أحد يشد معطفى . أين هم اللصوص اذن ؟ يقال ان فى « ميدان العلف » لصوصاً . فما بالهم لا يتقدمون منى ! قد أعطيهم معطفى . ما حاجتى اليه ؟ المعطف تملك . و « كل تملك سرقة » . ولكن كفى بلاهة ! ما أجمل كل شىء ! ما أحلى أن يذوب الجليد . علام الجليد ؟ ما ينبغى أن يكون جليد . ما أحسن

ان يقول المرء سخافات . عجيب ، ماذا قلت للامبير عن المبادىء ؟ قلت انه لا مبادىء بل حالات خاصة . كذبت . كذبت أكبر الكذب . كذبت متعمدا ، لادهشه واذهله . هذا عيب ، هذا خزى . ولكن لا ضير . سأصلح الامر . لا تشعر بعار يا آركادى ماكاروفتش ، لا تعذب نفسك ! انك تعجبنى يا آركادى ماكاروفتش ، بل انك تعجبنى كثيراً يا صديقى الشاب . خسارة أن تكون وغداً صغيراً .. و .. و .. آه . آه .. » .

وقفت فجأة وانتشى قلبى من جديد .

« رباه ! ماذا قال ؟ قال انها تحبنى ! يا للسافل ! لقد كذب . قال ذلك لأصحبه فأقضى الليلة عنده . ولكن قد أكون مخطئاً . قال ان آنا آندريفنا تعتقد بهذا هى أيضاً ... هىء هىء ! لعل داريا أونيسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئاً : انها تحشر أنفها فى كل مكان . ثم لماذا لم أصحبه الى بيته ؟ لو صحبته لكان يمكن أن يحكى لى كل شىء . هم .. ان له خطته . أوجست هذا وتنبأت بجميع تفاصيله . حلم . انك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامبير . ولكنك تكذب . لن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن قد تجرى هذا المجرى ! قد تجرى ! هل هو يعجز عن تزويجى ؟ انه قادر على هذا قدرة تامة . هو ساذج وهو يصدّق . هو غبى وجرىء ، كجميع رجال الأعمال . اجتماع الغباء والجسارة قوة كبيرة . اعترف يا آركادى ايفانوفتش ، اعترف أنك خفت من لامبير ! وما حاجته الى رجال شرفاء ؟ انه قال هذا الكلام جاداً : ما من رجل شريف هنا ! ولكن ماذا أنت ؟ هوه ! ما هذا الذى أقوله ؟ أليس الأوغاد فى حاجة الى شرفاء ؟ ان الحاجة الى الشرفاء هى فى الأعمال السافلة أشد منها فى أى مجال آخر . هأهأهأ ! كنت لا تعرف هذا بعدُ يا آركادى ماكاروفتش ، من شدة براءتك ! يا رب ! ماذا لو زوجنى حقاً !

وتوقفت مـرةً أخـرى • يجب ان أعترف هنـــا بأمر سخيف (مادام هذا الامر يرجع عهده الى زمان بعيد) ، يجب ان اعترف بانني كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج • بل قل انني كنت لا أريد هذا ، وما كان لهذا أن يحـدث (وهو لن يحـدث أبداً ، أقســـم على ذلك بشرفي) ، لكنني كنت قد حلمت بالزواج مـــراراً كثيرة ، خلال مدة طويلة ، قلت لنفسي عـدداً لانهـاية له من المرات : ما أحلى أن أتزوج ! وكان يحدث لى هذا كل مساء حين أستلقى فى فراشى لأنام • بدأ ذلك عندى وأنا فى السادسة عشرة من العمر • كان لى فى المدرسة الثانويه رفيق اسمه لافروفسكى • هو فتى لطيف جداً ، وهادىء ، وجميل • ولكن هذه مزاياه كلها لا ميزة له غيرها • كنت لا أكاد أكلمه أبداً • ثم اذا نحن نجـد نفسينا فى ذات يوم وحيدين ، قد جلس كل منـا بجانب الآخـــر • كان غارقاً فى التفكير • وها هو ذا يقول لى فجـأة : « آه يا دولجوروكى ! ما رأيك ؟ ليتنـا نتزوج ! ومتى نتزوج اذا لم نتزوج الآن؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج• ومع ذلك يستحيل الزواج ! »• قال ما قاله صـــادقاً مخلصـــاً • فشعرت بانني أوافقـــه على رأيه بكل نفسى ، لأننى كنت أحلم هذا الحلم من قبـــل • والتقينا بعـد ذلك عـدة مرات متتالية ، فكنا نتكلم فى هذا الأمر دائماً ، متخفين متكتمين • وبعد ذلك انفصلنا ، لا أدرى لماذا ، وانقطعنـا عن التخاطب • فى ذلك الحين اذن انما أخـذت أحلم بالزواج • ولـكن علام أذكر كل شيء ؟ اننى ما تحدثت عن تلك الفترة الا لأبين كيف أن الأمـــور يرجع عهدها فى بعض الأحيان الى زمان بعيد •••

قلت لنفسى وأنا استمر فى المشى : « ليس هناك الا اعتراض هام واحد : ان فرقاً طفيفاً فى السن لن يكون عقبةً ، ولكنْ هى ارستقراطية ، وأنا دولجوروكى فحسب ! هذا سيء جداً ! همْ ••• يستطيع فرسيلوف

اذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبنانى ••• مكافأة للأب على خدماته • لقد خدم فى الوظيفة • فله اذن خدمات • كان وسيط صلح • آه ••• ما هذه الدناءة التى أنحط اليها ! » •

هتفت هذا الهتاف ، ووقفت مرة ثالثة على حين فجأة ، لكننى فى هذه المرة كنت كمن سحق فى مكانه سحقاً • أحسست بمذلة أليمة من هذه الفكرة التى أمكن أن تخطر ببالى وهى أن أغير اسمى بالتبنى فأخون كل طفولتى • وبدد هذا كل ما كنت أحسه من بهجة ، وطار فرحى دخاناً • قلت محدثاً نفسى وأنا أحمر احمراراً فظيعاً : « لن ، لن أفضى بهذا الى أحد ، ولئن انحططت الى هذه الدناءة كلها ، فذلك ••• فذلك لأننى عاشق وغبى • لا ، اذا صدق لامبير فى أمر ، فقد صدق حين قال ان المرء فى هذا الزمان لا يحتاج الى هذه السخافات ، وان الشىء الأساسى فى عصرنا انما هو الشخص ثم ماله • بل الشخص ثم قوته لا ماله • اننى أستطيع بهذه الثروة أن أنطلق فى تحقيق « فكرتى »، فما هى الا عشر سنين حتى يترجع ذكر اسمى فى روسيا كلها ، وأنتقم من الجميع • ولا حاجة بى معها الى هذا الاحتفال كله ! هنا صدق لامبير أيضاً : لسوف تخاف فتتزوجنى • الأمر بسيط • سوف توافق ببساطة تامة ، على أنفه نحو • وتذكرت أقوال لامبير : « انك لا تعرف فى أى ماخور تم هذا » ، فقلت أحدث نفسى مؤيداً كلام لامبير : « صحيح • ان لامبير على حق فى جميع النقاط • هو أصدق رأياً منى ألف مرة ، وأصدق رأياً من فرسيلوف ، ومن سائر هؤلاء المثاليين ! انه رجل واقعى • سوف ترى أن لى ارادة صلبة • وسوف تقول : ان له ارادة صلبة • » لامبير وغد • وهو لا يفكر الا فى أن يحصل منى على ثلاثين ألفاً • ولكنه صديقى الوحيد ، رغم كل شىء • ما من صداقة أخرى ممكنة • ان الذين تخيلوا هذا أناس عمليون • وأنا لا أذلها هى •

هل أنا اذلها ؟ ابدا • النساء جميعا سواء • هل فى الدنيا كلها امراة غير دنيئة ؟ لهذا هن فى حاجة الى الرجل • لقد خلقن عبيداً • المرأة رذيله وفضيحة ، والرجل نبل وكرم • وستبقى الحال على هذا المنوال الى اخر الدهر • اننى أفكر فى استغلال الوثيقة : أى ضير فى هذا ؟ هذا لا ينفى النبل ولا الكرم • ليس فى هذه الحياة شيللر كامل لا تشوبه شائبة • تلك صورة لفقها الخيال • لا قيمة للوسيلة الدنيئة اذا كانت الغاية نبيلة • ثم يُغسل كل شيء فلا يبقى أثر من وساخة • هذه رحابة الفكر ، هذه هى الحياة ، هذه هى الحقيقة العملية • كذلك يجب أن تسمى الأمور اليوم ! » •

أعود فأستغفر القارىء عن ذكر كل هذا الهذيان الذى دار فى رأس سكران ، استغفره عن ذكره كاملاً لم أسقط منه شيئاً • ان ما ذكرته هو زبدة الأفكار التى تلاحقت فى رأسى آنذاك ، لكننى أظن مع ذلك أننى استعملت هذه العبارات نفسها • وكان لابد لى أن أنقلها الآن ما دمت أكتب لأحكم على نفسى • والا لم يبق ما أحكم عليه • هل فى الحياة ماهو أخطر من هذا ؟ وليست الخمر بمبرر • فقديماً قال المثل اللاتينى : « الخمر تكشف » •

وفيما كنت مسترسلاً فى هذه الأحلام غارقاً فى هذه الأخيلة ، لاحظت أننى قد وصلت الى البيت ، أعنى بيت أمى • حتى أننى لم ألاحظ كيف دخلت • ولكن ما ان وضعت قدمى فى حجرة المدخل الصغيرة حتى أدركت فوراً أن شيئاً خارقاً قد حدث • ففى الغرف يُسمع كلام و يُطلق صراخ ، وأمى تبكى • وكادت لوكيريا أن تقلبنى وهى تمر كالاعصار من غرفة ماكار ايفانوفتش الى المطبخ • فخلعت معطفى ، ودخلت غرفة ماكار ايفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها •

كان فى الغرفة فرسيلوف وأمى • وكانت أمى متهالكة على ذراعى

فرسيلوف ، وكان فرسيلوف يشدها الى صدره شداً قوياً . وكان ماكار ايفانوفتش جالسا على المقعد كعادته ، لكنه يبدو منهارا لا قوة له . فكانت ليزا تسند كتفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط . وكان واضحاً أنه يوشك في كل لحظة أن يسقط . فلما تقدمت نحوه بخطوة سريعة ، ارتعدت وأدركت كل شيء : كان الشيخ ميتاً .

لقد مات منذ قليل ، ربما قبل وصولى بدقيقة واحدة . كان قبل عشر دقائق لا يحس بأى تغير فى حالته . ولم يكن عنده الا ليزا . كانت جالسةً بجانبه تحدثه عن حزنها وتفضى اليه بأشجانها ، وكان هو يلاعب رأسها كما فعل بالأمس . ثم اذا هو يرتجف على حين فجأة (هذا ما روته ليزا) ، وقد أراد أن ينهض ، وأراد أن يصرخ ، لكنه لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسر صامتا . قال فرسيلوف : «هو القلب !» . وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من فى البيت يهبون واقفين ، وهرع الجميع . حدث هذا كله ربما قبل وصولى بدقيقة واحدة !

صرخ فرسيلوف يقول لى :

ـ آركادى ! اركض فوراً الى تاتيانا بافلوفنا ! هى الآن فى بيتها حتماً . فقل لها أن تأتى فوراً . اركب عربة . أسرع ، أرجوك .

كانت عيناه تسطعان ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً . لم ألاحظ فى وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً . ان أمى وليزا ولوكيريا هنّ اللواتى كن يبكين . بل انى لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجأ بصرى فى وجهه انما هو اهتياج شديد ، نوع من حماسة . وركضت متجهاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا .

ليس الطريق طويلاً . تعلمون هذا مما سلف . لم أركب عربة ، وانما اجتزت المسافة راكضاً بغير توقف . كنت مضطرب الفكر ، حتى

لأكاد أكون متحمساً أنا أيضـاً • لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع • فلما وصلت الى بيت تاتيانا بافلوفنـا ، كان سكرى قد تبدد تماما ، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة •

فتحت الفنلندية الباب وقالت : « السيدة خرجت ! » ، وهمَّت أن تغلق ثانيةً •

فقلت وأنا أقتحم الباب الى حجرة المدخل اقتحاماً :

ـ خرجت ؟ كيف ؟ مستحيل • مات ماكار ايفانوفتش !

فاذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوِّى من خلال باب صالونها المغلق :

ـ ما ••• ذا ؟

مات ! ماكار ايفانوفتش ما مات ! يرجوك آندره بتروفتش أن تجيئى حالاً •

ـ كذاب !

وصرَّ المزلاج ، ولـكن الباب لم يفتح فتحاً وانما شقَّ بمقدار اصبع :

ـ « ماذا حدث ؟ قل ! » •

ـ لا أدرى • وصلت الى البيت فوجدت ماكار ايفانوفتش ميتـاً • آندره بتروفتش يقول : « هو القلب ! » •

ـ حالاً ، حالاً ! اركض • قل انى آتيـة فوراً • هيا اذهب • ما بالك لاتذهب ! ماذا ؟ ما بقاؤك واقفاً هنا ؟

لقد رأيت رؤية واضـحةً ، من خلال الباب المشقوق ، ان أحداً خرج من وراء الستارة التى تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا ، وتسمَّر فى قرارة الغرفة ، وراء تاتيانا بافلوفنا ، فوجدتنى أضع يدى على المزلاج آلياً ، غريزياً ، بحيث لا يمكن اغلاق الباب ثانية •

ـ آركادى ايفانوفتش ! هل صحيح أنه مات ؟

انه صوت أعرفه ، صوت رقيق عذب متسق ، يرن رنين المعدن ، هزّ أعماق نفسى منذ سمعته . وكان سؤالها يختلج بعاطفة وتأثر .

قالت تاتيانا فافلوفنا وهى تترك الباب فجأة :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان . أنت التى أردت هذا !

وولّت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً ، وتهرع الى السلم . وبقينا وحيدين . نضوت عنى معطفى ، وتقدمت خطوة ، وأغلقت الباب .

كانت واقفةً أمامى كما حدث فى لقائنا السابق ، مشرقة المحيا ، واضحة النظرة . .وكما فى المرة الماضية مدت الىّ كلتا يديها . وكأن منجلاً قطع ساقىّ ، فاذا أنا أهوى على قدميها .

٣

أخذت أبــكى ، لا أدرى لماذا • لقد نسيت الآن كيف أجلستنى بجانبها • ولكننى ـ وهذه ذكرى ثمينة ـ رأيتنا جالسين جنباً الى جنب ، قد أمسك كل منــا يد الآخر ، واندفعنا فى حديث سريع • سألتنى عن الشيخ وعن موته ، فحكيت لهــا ما أعرف ، فلو رآنى أحد أثناء ذلك لظننى أبكى على ماكار ايفانوفتش ، ولكان ذلك ذروة السخافة • وأنا أعلم على كل حــال أنهــا لا يمــكن أن تفترض فىَّ بلاهــةً كهذه البــلاهة الصبيانيــة • وثبت الى نفسى أخيراً على حين فجــأة ، وشــعرت بخزى وعار • أفترض الآن اننى انما بكيت حينذاك من فرط الحماسة ، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً ، فأنا من هذه الناحية مطمئن •

وبدا لى فجأة أن من المستغرب جداً أن تسألنى بمثل هذا الالحاح عن ماكار ايفانوفتش • فسألتها مدهوشاً :

ـ هل تعرفينه ؟

فأجابت :

ـ منذ مدة طويلة • اننى لم أره يوماً • ولكنه لعب فى حياتى دوراً • سمعت عنه أشــياء كثيرة فى الماضى من الرجــل الذى أخشــاه • تعرف من أعنى •

ـ أعرف الآن أن « ذلك الرجل » كان أقرب الى نفسك كثيراً مما أظهرت •

قلت لها ذلك وأنا لا أدرى ما الذى أردت أن أعبرّ عنه ، ولكننى قلته مؤاخذاً مقطب الجبين •

تابعت مساءلتى فقالت دون أن تصغى الى كلامى :

ـ تقول انك رأيته يقبِّل ماما منذ قليل ؟ قبَّلها ؟ رأيته بعينيك ؟

فأسرعت أجيب مؤكدا ، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً :

ـ نعم رأيته • وصدّقى أن ذلك كله كان صادقاً كل الصدق كريماً كل الكرم •

قالت وهى ترسم اشارة الصليب :

ـ الحمد لله • الآن تحلل من أغلاله • كان هذا الشيخ يكبل حياة آندره بتروفتش بالأصفاد • ولسوف ينبعث الشعور بالواجب والشعور بالكرامة فى نفسه من جديد ، كما حدث هذا مرةً من قبل • ذلك أنه رجل كريم قبل كل شىء • وسوف يهدىء قلب ماما التى يحبها أكثر مما يحب أى شىء فى هذه الحياة ، وسيهدأ هو نفسه أخيراً • الحمد لله • آن الأوان •

ـ هل هو عزيز عليك ؟

ـ نعم ، عزيز جداً ، ولكن ليس بالمعنى الذى يريده هو وتقصده أنت •

سألتها فجأة :

ـ ولكن الآن ، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه ؟

ـ هذه أسئلة صعبة • لنتركها !

ـ لنتركها ، نعم • ولكنني كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً ، ولعل هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل • مهما يكن من أمر ، أنت على حق • لقد تبدل الآن كل شيء ، واذا كان أحد قد بُعث بعثاً جديداً فهو أنا • لقد انحططت بتصوراتي وأفكاري انحطاطاً شديداً تجاهك يا كاترين نيقولايفنا ؟ ولعلني ، منذ ساعة لا أكثر ، قد ارتكبت عملاً دنيئاً في حقك • ولكن اعلمي أنني الآن ، وأنا جالس بجنبك ، لا أحس بشيء من عذاب الضمير • ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك أن كل شيء قد تبدل ؟ والرجل الذي كان منذ ساعة يضمر لك شراً أنا لا أعرفه ، ولا أريد أن أعرفه •

ابتسمت وقالت :

ـ أفقْ • لكأنك تهذي قليلاً •

تابعت كلامي قائلاً :

ـ وهل يستطيع المرء أن يتحكم على نفسه حين يكون معك ؟ سواء أكان حقيراً أم كان شريفاً فانك تظلين كالشمس لا يمكن الوصول اليك • ولكن ليتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة ، منذ ساعة لا أكثر • يا للحلم الذي كان بصدد التحقق !

قالت وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة :

ـ أظن أنني أعرف كل شيء • لقد أردت منذ قليل أن تنتقم مني ، وحلفت لتضيّعنّي • ولا شك مع ذلك في أنك لو سمعت أحداً يتجرأ فيقول كلمة سوء في حقي أمامك لقتلته أو لألحقت به أذى •

صحيح أنها ابتسمت وكانت تمزح • ولكن مردّ ذلك الى طيبة قلبها ، فقد عرفت فيما بعد أنها في تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة بهم شخصي ضخم وبعاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث

معي ولا تجيب عن أسئلتي الجوفاء المحنقة الا كما يجيب المرء في بعض الأحيان عن أسئلة سخيفة يصرُّ طفل صغير على القائها اصراراً عنيداً ، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح • وقد أدركت ذلك فجأة ، فشعرت بخجل وخزى ، ولكننى كنت لا أستطيع أن أتوقف •

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتى على نفسى :

ـ لا ، لم أقتل الشخص الذى قال فى حقك سوءاً ، بل أيَّدته وشجعته !

ـ أرجوك ، ناشدتك الله ، لا تقصص على شيئا ، لا فائدة فى هذا ، لا يجب هذا •

ومدَّت يدها لوقفى عن الكلام ، حتى لقد ظهر فى وجهها ألم • ولكننى كنت قد وثبت ووقفت أمامها لأروى لها كل شىء • ولو قد فعلت لما حدث ما حدث بعد ذلك • لأننى كنت سأنتهى حتماً الى الاعتراف لها بكل شىء ، والى تسليمها الوثيقة • ولكنها انفجرت تضحك على حين فجأة قائلة :

ـ لا داعى الى الكلام • ما أنا فى حاجة الى شىء • دعك من التفاصيل ! جرائمك كلها ، أنا أعرفها • أراهن أنك أردت أن تتزوجنى، أو أردت شيئاً من هذا القبيل ، وأنك قد تواطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك ، هو رفيق من رفاقك القدامى فى المدرسة ••• أظن أننى حزرت !

بهذا هتفتْ وهى تحدِّق الىَّ •

فقلت لها متمتماً كما يتمتم أبله ، وقد اعترانى شده وذهول :

ـ كيف ••• كيف أمكنك أن تحزرى ؟

ـ أين الصعوبة فى هذا ؟ ولكن كفى كفى ! انى أغفر لك ، ولكن كف عن الكلام فى هذا الأمر .

حتى لقد حركت يدها باشارة تنم عن شدة التململ . وأردفت تقول :

ـ أنا أيضاً أحب أن أحلم . ليتك تعلم الأساليب التى ألجأ اليها فى أحلامى ، حين لا يصدنى شىء ! كفى ! انك لا تزيد على أن تبث الاضطراب فى نفسى . يسرنى جداً أن تاتيانا بافلوفنا خرجت . كنت أريد كثيراً أن أراك ، فلو بقيت لما استطعنا أن تتكلم كما تتكلم الآن . أظن أننى مذنبة فى حقك ، مسئولة عما وقع لك حينذاك . أليس كذلك ؟

ـ أنت ؟ مذنبة ؟ ولكننى أنا الذى أسلمتك « اليه » . ترى ما عساك قلت عنى ؟ لقد ظللت أفكر فى هذا الأمر طول الوقت ، فى جميع هذه الأيام ، كل لحظة ، أفكر فيه وأحس به .

لم أكذب عليها . قالت :

ـ أخطأت اذ عذبت نفسك هذا التعذيب . لقد أدركت أنا على الفور كيف حدث كل شىء . لقد كشفت له ، بكل بساطة ، وأنت فى غمرة الفرح ، أنك تحبنى و ... أننى ، وأننى كنت أدع لك أن تتكلم وأصغى اليك . ذلك أنك لم تتجاوز من عمرك العشرين . أنت تحبه أكثر مما تحب الكون بأسره ، وتبحث فيه عن صديق ، عن مثل أعلى ، وقد أدركت أنا هذا حق الادراك . ولكن بعد فوات الأوان . صحيح أننى أخطأت أنا أيضاً ، لا شك فى هذا ، لكننى كنت معتكرة المزاج مكفهرة النفس ، فأمرت بألا تقبل فى البيت بعد ذلك . وعندئذ انما وقع ذلك المشهد أمام الباب ، ثم كانت تلك الليلة .

اعلم انني طول هذا الوقت كنت أحلم ، مثلك ، بأن أراك خفيـةً ، لكنني كنت لا أعـرف السبيل الى تحقيق هذه الأمنيـة . وما الذى كنت أخشاه أكثر من أى شيء آخر فيما تظن ؟ لقد كنت أخشى أن تصدّق نمائمه عنى وأقاويله في حقى .

هتفت أقول :

ــ أبداً !

ــ انني أقدّر لقاءاتنا الماضية . وما أحبه فيك هو الفتى المراهق ، وربما هذا الصـدق أيضاً .. ذلك أن لى طبعاً يتصف بالجد . أعلم انني بين نساء عصرى أكثرهن صرامة وجداً . هأ هأ هأ ! لسوف يتاح لنا أن نتحادث كثيراً ، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البـال . انني الآن منفعلة انفعالاً شـديداً ... بل انني فى حـالة هستريا . ولكن ، أخيراً ، أخيراً ، سوف يتركنى وشأنى أعيش فى سلام !

أفلتت منها هذه الجملة الأخيرة بغـير ارادة . وقد فهمتها أنا فوراً ولم أشأ أن أتلبث عليها . لكننى كنت أرتجف ارتجافاً شديداً .

ثم عادت تهتف من جديد كأنها تحدث نفسها :

ــ هو يعلم أننى غفرت له !

فلم أتمالك نفسى فهتفت أسألها :

ــ كيف أمكنك أن تغفرى له تلك الرسالة . وكيف يستطيع أن يعرف هو أنك غفرت له ؟

فتابعت كلامها تجيبنى ، ولكن كأنهـا لاتخاطبنى وانما هى تحدث نفسـها :

ــ انه يعرف ! لقد استرد صـوابه الآن . كيف لا يدرك انني

غفرت له وهو يعرف نفسى كلهـا على ظهر القلب ؟ انه ليعلم حق العلم أننى من نوعه تقريباً •

ـ أنت ؟

ـ نعم ، وهو يعرف ذلك • أنا لست مشبوبة العاطفـة بل هادئة ، لكننى أنا أيضاً أحب أن يـكون جميع النـاس أخياراً طيبين ••• ليس عبثاً أنه افتتن بى حباً !

ـ فلماذا قال اذن انك تتصفين بجميع العيوب والنقائص ؟

ـ قال هذا كلاماً لا أكثر • أما رأيه الذى يكتمه سراً فى قرارة نفسـه فيختلف عن هدا الكلام كل الاختـلاف • ولكن أليس صحيحاً أن رسالته كانت مضحكة ؟

ـ مضحكة ؟

كنت أصغى اليها بكل ما أملك من قوة الانتباه • وأظن أنها كانت تعانى نوبة هستريا حقـاً ، و ••• أنهـا ربمـا كانت لا تتكلم من أجلى أنا أبداً • ولكننى لم أستطع أن أمسك عن مساءلتها • قالت :

ـ مضحكة قطعاً • ولشدما كان يمكن أن أضحك لولا ••• لولا أننى كنت خائفةً خوفاً شـديداً • لست مع ذلك جبانة • لا يذهبن بك الظن الى أننى جبانة • لكن رسالته قد حرمتنى من النوم تلك الليلة• لكأنهـا كتبت بدم ، بدم رجل مريض • ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعـد رسالة كتلك الرسالة ؟ اننى أحب الحياة ، وأخاف على حيـاتى كثيراً • فى هذه النقطة أنا جبانة حقاً •

وهتفت فجأة تقول :

ـ اذهب اليه • هو الآن وحيد • أغلب الظن أنه لم يبق هناك • لابد أنه مضى الى مكان آخر • فأدركه بأقصى سرعة ، يجب أن تدركه ،

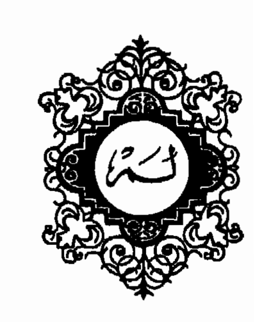
اركض اليه ، وأظهـر له انك ابنه المحب ، وبرهن له على أنك فتى طيب لطيف ، يا عزيزى الطالب ، وعلى أمى .. لا .. اننى أسأل الله أن يهب لك السـعادة . أنا لا أحب أحـدا ، ذلك أفضل ، ولكننى أتمنى السعادة للجميع ، للجميع ، وأتمناها له قبل أى انسان آخر. ألا فليعرف هذا ... فيعرفه حالاً . سيسره كثيراً أن يعرف ...

ونهضتْ ، واختفت فجـأة وراء الستارة . كانت دموع تلتمع فى وجهها حينـذاك (دمـوع هسترية بعد الضحك) . بقيت وحيـداً ، مضطرباً . كنت لا أعرف حقـاً الى أى شىء يجب أن أعزو مثـل هذا الانفعال الشديد الذى ما كان لى أن أفترضه فيها . وانقبض صدرى .

انتظـرت خمس دقائـق ، ثم عشراً . وأدهشنى الصمت العميق فجأة ، فقررت أن أنظر من الباب وأن أنادى . فلما ناديت ظهرت لى ماريا فأعلنت لى بلهجة هادئة ، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة ، وغادرت البيت خارجة من سلم الخدم .

الفصل السابع

١



يكن ينقصني الا هذا . تناولت معطفي ، ولبسته بسرعة ، وهرعت أخرج وأنا أتساءل : « انها تسريد أن أذهب اليه ، فأين يمكنني أن أجده ؟ » .

غير أن هناك ، عدا هذا كله ، سؤالاً كان يحيّرني : « لماذا تتصور أن الزمان قد تبدل الآن ، وأنه سيدعها وشأنها تعيش في سلام ؟ لأنه سيتزوج ماما قطعاً . ولكن ما علاقتها هي بهذا ؟ أيبهجها أن يتزوج ماما أم يشقيها ؟ أليس هذا هو ما يجعلها في حالة هستريا ؟ ما أعجزني عن حل هذه المشكلة ! » .

انني اسجل هذا الخاطر الثاني الذي لمع في ذهني سريعاً كالبرق ، أسجله للتذكرة . ان له شأناً كبيراً . كان ذلك المساء حاسماً . ان المرء مضطر أن يصدق أخيراً بالقدر : فانني ما ان قطعت مائة خطوة متجهاً الى بيت ماما ، حتى اصطدمت بالرجل الذي كنت أبحث عنه . وضع يده على كتفي ووقف ، وهتفت يقول فرحاً مدهوشاً في آن واحد :

ـ أنت ؟

وأضاف مسرعاً في الكلام :

ـ تصور أنني ذهبت الى بيتك ساعياً اليك ، وسألت عنك : أنت وحدك من أحتاج اليه الآن فى الكون كله ! لا أدرى بماذا أجابنى صاحبك الموظف ، مؤجر بيتك ، لقد طفق يقول أشياء كثيرة المهم أنك لم تكن هناك ، فانصرفت من عنده ، ناسياً حتى أن أطلب منه ابلاغك أن تجيء الىّ فوراً . وفيما أنا أمشى راجعاً ، كنت مقتنعاً اقتناعاً لا يتزعزع بأن القدر لا يمكن الا أن يضعك فى طريقى فى هذا الوقت الذى أحتاج فيه اليك هذا الاحتياج الشديد كله . فكنت أول شخص ألقاه . هلمّ بنا الى بيتى . انك لم تزرنى حتى الآن فى يوم من الأيام ...

الخلاصة أن كلاّ منا كان يسعى الى الآخر ويبحث عنه ، فوقعت لنا كلينا مصادفة واحدة . وحثثنا الخطى . فى الطريق لم يوجّه الىّ الا بضع جمل قصيرة : انه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا ، الخ الخ . وكان يقودنى ممسكاً ذراعى . لم يكن بيته بعيداً ، فسرعان ما وصلنا . لم أزره قبل اليوم فعلاً . هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قل استأجرته تاتيانا بافلوفنا) لسكنى « الطفل الرضيع » لا أكثر . وقد كانت تاتيانا بافلوفنا هى التى تشرف على البيت مع خادم للطفل (هى الآن داريا أونيسيموفنا) . ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هى الغرفة الأولى التى تقع على يمينك حين تدخل . انها غرفة واسعة حسنة الأثاث ، هى نوع من حجرة للقراءة والعمل . فعلى المائدة وفى الخزانة وفوق الرفوف ، يرى المرء كتباً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً) ، وأوراقاً فيها كتابة ، وحزم رسائل . الخلاصة أن هذا كله يشير الى أن المكان ركن مسكون منذ مدة طويلة ، وكنت أعرف أن فرسيلوف كان ينتقل الى هذا البيت من وقت الى آخر (ولو نادراً) ، فيمكث فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع فى بعض الأحيان .

ان أول شيء لفت انتباهى صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب

ضمن اطار رائع من خشب محفور • واضح أن الصورة قد أخذت لها فى الخارج ، وانها بحكم كبرها النادر شىء ثمين • لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الان ، ولا سمعت عنها، غير أن ما خطف بصرى خاصة هو شبهها الكبير بماما • انه شبه روحى ان صح التعبير : لكأنها صورة رسمتها يد فنان صناع ، ولم يلتقطها جهاز آلى • فما ان دخلت حتى رأيتنى أقف أمام الصورة جامداً رغم ارادتى •

قال فرسيلوف :

ـ أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كان يريد أن يقول : « أليست تشبهها حقاً ؟ » • فالتفت اليه ، ففجأنى تعبير وجهه • كان شاحب اللون قليلاً ، غير أن نظرته المشدودة الحارة كانت تسطع سعادةً وقوة : لم أعهد فى وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن •

قلت متحمساً على حين فجأة :

ـ ما كنت أعرف أنك أحببت ماما هذا الحب كله !

فابتسم ابتسامة سعيدة ، فيها مع ذلك ألم ، أو قل فيها عاطفة انسانية أعلى ••• لا أعرف كيف أعبر ! ولكن يبدو لى أن الانسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة ، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة منتصرة ظافرة • وهاهو ذا ، بدون أن يجيبنى ، يرفع الصورة بكلتا يديه ، فيقربها منه ، ويقبّلها ، ثم يعود فيعلقها بالحائط • قال :

ـ لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على شبه • وسبب ذلك واضح : فالأصل ، أعنى كل واحد منا ، يندر أن يشبه نفسه • هناك لحظات نادرة يعبّر فيها الوجه عن السمة الأساسية فى الانسان وعن فكره الذى يميزه • ان الفنان يدرس الوجه ، فيدرك

ذلك الفكر الأساسى ، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزا فى الوجـه اثناء الرسم . اما الفوتوغرافيا فانها تفاجىء الشخص كما هو فى اللحظة التى تلتقط له فيها الصورة . ومن الجائز جـداً أن يفاجأ نابوليون فى لحظه من اللحظات غبياً ، وأن يفاجأ بسمارك فى لحظة من اللحظات رقيقا حنوناً . ولكن هنا ، فى هذه الصورة ، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صونيا فى لحظتها الأساسية ، فظهرت على حقيقتها ، امرأةً ذات خفر ، تفيض حبـاً رقيقاً ، ويشع منها عفاف فيه وجـل . ما أعظم السعادة التى ملأت جوانحها حين اقتنعت بأننى أرغب كثيرا فى الحصـول على صورتها هذه ! ان هذه الصـورة لا يرجع عهدها الى زمن بعيد . ولكن صـونيا كانت فى تلك الأيام أفتى وأجمل ! ومع ذلك كان خداها منذ ذلك الحين خاسفين ، وكانت لها هذه الغضون فى الجبين ، وكان فى نظرتها هذا الحياء الوجل ، وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبرز مزيداً من البروز شيئاً بعد شىء . هل تصدق يا صغيرى ؟ انى لأكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر ! ومع ذلك كانت ، هى أيضـاً ، شـابة وفاتنة ! ان النساء الروسيات تدب اليهن الدمامة بسرعة ، وينقضى جمالهن ، ولاشك فى أن هذا لا يرجع الى خصائص فى طبيعة الجنس الروسى فحسب ، وانما يرجع أيضـاً الى أن النساء الروسـيات يعرفن كيف يندفعن فى الحب بـلا تحفظ . اذا أحبت المرأة الروسية ، فانها تهب كل شىء دفعةً واحدة : تهب اللحظة والمصير ، الحاضر والمستقبل : انهن لا يستطعن الاقتصاد والتوفير ، انهن لا يدّخرن . فسرعان ما ينتقل جمالهن الى من يحببن . هاتان الخدان الخاسفتان هما أيضاً جمال ضحت لى به من أجل متعة قصيرة . أنت يسرك أننى أحببت أمك ، ولعلك كنت لا تصدّق أن أكون قد أحببتها ، أليس كذلك ؟ بلى يا صديقى بلى ! أحببتها كثيراً . لكننى لم أجلب لهـا فى يوم من الأيام الا السوء . هناك صورة أخرى . خذ . انظر فى هذه أيضاً .

تناول الصورة من على المكتب ومدّها الىّ . هي صورة فوتوغرافية أيضاً ، أصغر من صـورة ماما كثيراً ، قد وضعت في اطار بيضوى من خشب نحيل : وجه فتاة هزيلة مصدورة ، لكنها جميلة . ان الفتاة تفكر ، ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً . قسمات متسقة . طلعة تصفّت وراقت بتعاقب الأجيال ، ولكنها تشعرك بأن فيها مرضاً : فكأن هذه الانسانة قد فاجأتها فكرة ثابتة ، فنالتها بعذاب شديد لأنها فوق طاقة قواها .

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الخجل :

ـ هذه ... هذه هي الفتاة التي أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت بالسل ، أليس كذلك ؟ بنت زوجها « هي » .

ـ نعم ، أردت أن أتزوجها . ماتت بالسـل . بنت زوجها . كنت أعلم أنك تعلم . تلك نمائم . على كل حال ، ما كان يمكنك أن تعرف هنا شيئاً ، بغض النظر عن النمائم . دع هذه الصورة في مكانها يا صديقي . هي مجنونة شقية لا أكثر .

ـ مجنونة تماماً ؟

ـ أو معتوهة . لكنني أظن أنها مجنونة أيضاً . لقد ولدت ولداً من الأمير سرجى بتروفتش (عن جنـون ، لا عن حب ، وهـذا عمل من أدنأ وأحقر أعمال الأمير سرجى بتروفتش) : والطفل هنا الآن ، في هذه الغرفة . انني منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل . والأمير سرجى بتروفتش لم يجرؤ أن يجيء الى هنا ليرى ولده . هذا اتفاق أبرمناه معاً في الخارج . ضممت الطفل الىّ باذن من أمك . وباذن من أمك ، أردت أيضاً أن أتزوج تلك .. البائسة ..

قلت بحرارة :

ـ كيف يمكن اذنْ كهذا ؟

ـ يمكن . ما كان لأمك أن تغار ! ليست تلك المختلة بامرأة !

هتفت أقول :

ـ في نظر الآخرين ليست امرأة . ولكنها في نظر أمي امرأة . لن أصدق أبدا أن أمي لم تغر !

صدقت . لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء ، أي بعد أن أذنت أمك . ولكن دعنا من هذا . ان الأمر لم يتم ، لأن ليديا ماتت . ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية . على كل حال ، أنا لا أدع لأمك أن تأتي الى الطفل ، حتى في هذا الحين . ذلك حادث عارض مضى . يا عزيزي ، انني أنتظرك هنا منذ مدة طويلة . انني أحلم بلقاء بيننا هنا منذ زمن طويل . هل تقدّر طول هذا الزمن ؟ سنتان .

قال ذلك وهو يلقي عليّ نظرة يتجلى فيها الصدق ، وتعبر عن اندفاع من القلب حار . فتناولت يده ، وهتفت أسأله :

ـ لماذا تأخرت ؟ لماذا لم تنادني ؟ لو علمت ما حدث ، فأشرت لي بأصبعك أن أجيء اليك ، لما وقع الذي وقع ...

في تلك اللحظة جيء بالسماور ، ثم اذا بداريا أونيسيموفنا تدخل حاملةً الطفل . وكان الطفل نائماً .

قال فرسيلوف :

ـ انظر اليه . انني أحبه . ولقد أمرت باحضاره لتراه أنت . والآن أرجعيه يا داريا أونيسيموفنا . أجلس الى جانب السماور . سأتخيّل أننا عشنا دائماً هكذا ، أنا وأنت ، وأننا اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع ، دون أن ننفصل في يوم من الأيام . دعني أنظر اليك : اجلس هكذا لأرى وجهك . كم أحبه ، هذا الوجه ، وجهك ! لطالما تصورته وتخيلته ! لطالما انتظرتك وأنا بموسكو ! تسألني لماذا لم أرسل من يجيئني بك منذ مدة طويلة ؟ انتظر . لعلك ستفهم الآن .

ـ أيكون موت ذلك الشيخ هو الذى حل عقدة لسانك ؟ غريب ...

نطقت بتلك الجملة ، ولكن ذلك لا ينفى أننى كنت أنظر اليه بحب . وتحدثنا كما يتحدث صديقان ، بأكمل وأسمى معانى هذه الكلمة . لقد جاء بى الى هنا ليشرح لى ، ليحكى لى ، ليبرر نفسه ... ولكن كل شيء قد اتضح وتبرر قبل كل كلام . مهما أسمع منه الآن ، فان الهدف قد تم بلوغه . وكنا كلانا نعرف ذلك ، وكان كل منا ينظر الى الآخر بسعادة .

أجابنى يقول :

ـ لا ، ليس موت الشيخ هو الذى حل عقدة لسانى ، ليس هذا الموت وحده هو الذى حل عقدة لسانى . هناك شيء آخر كان له تأثيره فى هذا الاتجاه نفسه . بورك فى هذه اللحظة ، وفى حياتنا ، منذ الآن ، والى الأبد. لنتحدث ياعزيزى . اننى أبتعد دائما عن الموضوع، وأشرد الى غيره . أهمُّ أن أتكلم فى شيء ، فاذا أنا أتوه فى تفاصيل شيء آخر . ذلك يحدث دائماً حين يكون القلب طافحاً . ولكن فلنتحدث . آن الأوان ، وانى لموله حباً بك منذ مدة طويلة يا صغيرى .

ارتد فرسيلوف الى ظهر مقعده ، وجعل يتأملنى مرةً أخرى من الرأس الى القدمين .

قلت وأنا غارق فى افتتانى :

ـ ما أغرب أن أسمع هذا ، ما أغرب أن أسمعه ! ...

ولكن هأنذا أرى الغضن المألوف الذى يعبِّر عن الأسى والسخرية معاً ، هأنذا أرى هذا الغضن الذى أعرفه حق معرفته ، يظهر فى وجهه من جديد . اننى أتذكر هذا تذكراً واضحاً . ولكن فرسيلوف تجلد . وبجهد ، بدأ يتكلم .

٢

ـ اسمع يا أركادى ، ما عسى كنت أقول لك لو ناديتك قبل الآن ؟

كان ذلك جوابه كله .

ـ هل تريد أن تقول انك اليوم زوج أمى وانك أبى ... وانك ما كنت تستطيع أن تقول لى شيئاً عن وضعى الاجتماعى ؟ هل هذا ما تعنيه ؟

ـ لا هذا وحده . هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر الى السكوت عنها . هناك أشياء مضحكة ، بل مُذلة ، لأنها تشبه أن تكون مكائد مشعبذين ، وألعاب مهرّجين . كيف كان يمكن أن يفهم أحدنا عن الآخر ، اذا كنت أنا نفسى لم أفهم نفسى الا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، أى قبل موت ماكار ايفانوفتش بساعتين تماماً ؟ أراك تنظر الىّ بارتباك واضح وحيرة أليمة . لاتقلق ! سأشرح لك الأمر . غير أن ما قلته صحيح كل الصحة . حياة كاملة تنقضى فى ترحال وشك ، ثم اذا بالحل يأتى فجأة ، فى يوم معين ، فى الساعة الخامسة بعد الظهر . شىء مُذل ، أليس كذلك ؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة ، لكان يمكن أن أشعر منه بمهانة حقاً .

كنت أصغى بحيرة أليمة فعلاً . وكنت أرى الغضن القديم فى وجه

فرسيلوف ، بارزاً بروزاً قوياً ، الغضن الذى كنت أتمنى ألا أراه فيه ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام . وفجأة رأيتنى أهتف قائلاً :

ـ هل وصلك « منها » شيء ، هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة ؟

فنظر الىّ محدقاً ، وكان واضحاً أنه فوجىء بهتافى بل لعله فوجىء أيضاً بقولى « منها » ، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتسامةً يمازجها تفكر :

ـ ستعلم كل شيء . ولن أخفى عنك شيئاً مما يجب أن تعلمه ، فمن أجل هذا انما جئت بك الى هنا . ولكن فلنؤجل هذا الى وقت آخر . اننى يا صديقى أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرتهم منذ طفولتهم ، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة فى آبائهم وفى بيئتهم . وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد تمتلىء قلوبهم قلقاً منذ يكونون فى المدرسة ، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبل الأوان . وبعد ذلك عددت نفسى واحداً منهم . ولكن ... معذرة يا عزيزى ، اننى أشرد شرودا غريباً . كنت أريد أن أقول اننى خفت عليك دائماً هنا ، طوال هذا الوقت تقريباً . كنت أراك دائماً كواحد من أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتصمون بالعزلة . أنا أيضاً ، مثلك ، لم أحبّ رفاقى فى يوم من الأيام . ما أكبر شقاء هؤلاء الصغار الذين يُتركون لقواهم وحدها ، ويُتركون لأحلامهم ، وقد أوتوا ظمأ مشبوباً الى الجمال ، ظمأ سابقاً لأوانه ، يكاد يكون مشبعاً بروح الانتقام ، نعم ، بروح « الانتقام » . ولكن كفى يا عزيزى ، لقد شردت مرةً أخرى . اننى حتى قبل أن يبدأ حبى لك ، كنت أتخيلك أنت وأحلامك ، أحلام المعتزل المتوحش . ولكن كفى . لقد نسيت حقاً عمّ كنت أريد أن أتكلم ... على كل حال ، هذا كله أيضاً كان يجب أن يقال . ماذا كان يمكننى أن أقول لك من قبل ؟ الآن أرى نظرتك ترمقنى ، فأعرف أن « ابنى » هو الذى ينظر الىّ . وما كان لى بالأمس ،

بالأمس فقط ، أن أصدّق أنني سأجد نفسي في يوم من الأيام متحدثاً مع ابني كما أفعل اليوم .

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شديداً بالفعل ، ولكنه كان يبدو في الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً .

قلت مسلماً له نفسي كلها :

ـ الآن لم أعد في حاجة الى أن أحلم ؛ الآن يكفيني أن تكون لي . لسوف أتبعك !

ـ تتبعني أنا ؟ ولكن ترحالي قد انتهى ، انتهى في هذا اليوم نفسه : لقد وصلت متأخراً يا عزيزي . اليوم ينتهي الفصل الأخير ، وتسدل الستارة . طال هذا الفصل الأخير كثيراً . لقد بدأ منذ زمن بعيد ، بدأ حين فررت الى الخارج آخر مرة . تركت يومئذ كل شيء . واعلم أنني تركت يومئذ أمك ، وأعلنت لها أنني تاركها . يجب أن تعلم هذا . قلت لها انني راحل الى الأبد ، وانها لن تراني بعدئذ قط . وأسوأ من ذلك أنني نسيت حتى أن أترك لها شيئاً من مال . وأنت أيضا لم تخطر ببالي لحظة واحدة . رحلت منتوياً أن أبقى في أوروبا يا عزيزي ، وألا أعود الى البيت أبداً . هاجرت .

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي :

ـ ذهبت الى هرتسن ؟ ذهبت لتكون داعية في الخارج ؟ لابد أنك ساهمت طيلة حياتك في مؤامرة من المؤامرات !

ـ لا ياصديقي ، لم أشارك في أية مؤامرة . أرى عينيك تلتمعان . أحب صيحاتك يا عزيزي . لا ، لقد سافرت سأماً لا أكثر . سافرت في أعقاب ضجر تملكني فجأة . هو ضجر سيد روسي . لا أجد في تعريف هذا الضجر تعبيراً أنسب . ضجر سيد روسي لا أكثر .

جمجمت أقول لاهثاً :

ـ القناة ... تحرير الأقنان ؟

ـ لا ، لا يا صديقي ! أتظن أنني آسف على نظام القناة ؟ أتظن أنني لم أحتمل تحرير الاقنان ؟ لا ، لا يا صديقي . ثم اننا نحن الذين حررناهم . لقد هاجرت بدون أي حقد . كنت قبل قليل وسيط صلح ، وقد بذلت جميع جهودي . اندفعت أعمل باخلاص وتفان . ولئن كوفئت على لبراليتي مكافأة سيئة ، فان هذا نفسه لم يكن سبب رحيلي . لا أحد منا كوفيء حينذاك ، أقصد لا أحد من أمثالي . كانت العزة هي التي تدفعني الى الرحيل ، لا الندامة . هاجرت بلا غضب ، بلا حقد ، بلا حسرة . صدّق أنني لا أعتقد بأنه آن لي أن أختم حياتي حذاءً . « أنا سيد قبل كل شيء ، وسوف أموت سيداً . لكن هذا لا ينفي أنني كنت حزيناً . لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعي . ألف رجل لا أكثر . ولكن هذا العدد يكفي حتى لا تموت الفكرة . نحن حملة الفكرة يا عزيزي . يا صديقي ، انني أكلمك وفي نفسي أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملتبس . لقد جئت بك الى هنا لا انقياداً لنزوة في قلبي ... انني منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك .. نعم لك .. لك أنت ! .. على كل حال ، على كل حال ...

هتفت أقول :

ـ بل تكلم ، تكلم ، انني أقرأ في وجهك الصدق .. ماذا عن أوروبا ؟ هل بعثتك أوروبا بعثاً جديداً ! ... وماذا كان ذلك الضجر ، « ضجر السيد » ؟ سامحني ... انني لمّا أفهم بعد .

ـ تسألني هل بعثتني أوروبا بعثاً جديداً ؟ فاعلم انني انما سافرت لأدفنها !

قلت مدهوشاً :

ـ لتدفنها ؟

فابتسم • وقال :

ـ آركادي ، صـديقي ، الآن نفسي رقَّت وفكري اضطرب • لن أنسى أبداً لحظاتي الأولى بأوروبا • كنت قد عشت في أوروبا من قبـل ، ولكن ذلك كان في عهد خاص ، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل ذلك الحزن •• ولا بمثل ذلك الحب • سأصف لك واحداً من مشاعري الأولى حينذاك • هو حلم رأيته ، حلم حقيقي •

« حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيـا • كنت قد غادرت درسـدن ، ثم تجاوزت المحطة التي كان ينبغي أن أغيِّر فيها القطار ، تجاوزتها سهواً وغفلة فسرت في غير الاتجاه الذي كنت أريد أن أسير فيه • فما ان وصلت الى أول محطة تالية ، حتى نزلت • كان الجو صـحواً • هي مدينة ألمانية صغيرة • دلوني على فندق • كان يجب عليَّ أن أنتظر : ان القطار التالي يمر في الساعة الحادية عشرة من المساء • ولقد سررت بهذه المغامرة سروراً كبيراً ، فلا شيء كان يستعجلني • الفندق صـغير رديء ، لكنه غارق في الخضرة وشرائط الأزهار ، على عادة القوم هنـاك • أعطيت غرفة صغيرة • ولما كنت قد قضيت الليلة كلهـا في القطار ، فسرعان ما نمت بعد الغداء ، في نحو الساعة الرابعة من الأصيل •

« فحلمت حلماً غير مألوف البتة ، ما رأيت مثله من قبل أبداً • ان في متحف درسدن لوحة للرسام كلود لوران ُجعل عنوانها في الكاتالوج « آسيس و جالاتي » • أما أنا فقد سميت هذه اللوحـة دائمـاً « العصر الذهبي » ، لا أدري لماذا ! لقد سـبق أن رأيت هذه اللوحـة • وقبـل ثلاثة أيام لاحظتها مرةً أخرى عابراً •

« فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم . لكنني لم ارها صورةً ، بل رأيتها واقعاً . انني لا أتذكر على وجه الدقة ما الذي رأيته في الحلم هذه الرؤية . ولكنني رأيت ، كما في اللوحة ، ركناً من الأرخبيل اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة : أمواجاً زرقاء هادئة ، جزراً وصخوراً ، شاطئاً مزهراً ؛ وفي بعيد ، منظراً كأنه السحر ، شمساً غاربة تفتن النظر . يستحيل على المرء أن يصف هذا بألفاظ . انها الانسانية الأوربية تتذكر مهدها : ملأت هذه الفكرة شعاب نفسي بحب كحب الابن أبويه . **هذا هو الفردوس الأرضي للانسانية : الآلهة تهبط من السماء** لتؤاخي البشر .. اه .. ما كان أجملهم ، أولئك البشر ! كانوا يفيقون وينامون سعداء أبرياء . المروج والحراج الصغيرة تمتلىء بأغانيهم وصيحاتهم الجذلى . فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً . الشمس تغمرهم بدفئها وضيائها ، معجبةً بهؤلاء الأطفال الرائعين .. انه حلم أخاذ ، طالما فتنت روعته الانسانية عن نفسها وأزاغت بصرها ! ان العصر الذهبي هو الحلم المستحيل الذي حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض ، ولكنه على استحالته رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلها ، وقواهم كلها ، وفي سبيله مات أنبياء و'قتل أنبياء ، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش ، ولا تريد حتى أن تموت ! هذا الاحساس كله ، قد عشته في ذلك الحلم . والصخور والبحر ، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب ، ذلك كله بدا لي أنني لا أزال أراه حين أفقت من نومي وفتحت عينيَّ المغرورقتين بالدموع . كنت سعيداً . أتذكر هذا . ان احساساً بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل ، قد اختلج في قلبي حتى كاد أن يكون ألماً . كان ذلك حباً للانسانية كلها .

« وكان المساء قد حل . ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على النافذة ، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتي الصغيرة فتغمرني بضيائها . ثم ماذا يا صديقي ؟ ان تلك الشمس الغاربة في أول أيام الانسانية الغربية ، التي كنت أراها في الحلم قد استحالت في نظري فجأة

منذ أن استيقظت شمسا غاربة في اخـر ايام الانسـانية الاوروبية ! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينئذ أصوات نواقيس جنازة . لست أعني الحرب وحريق التويلري فحسب . لقد كنت أعلم ، بدون الحرب وبدون حريق التويلري ، أن كل شيء سينقضي ، عاجـلاً أو آجلاً ، وأن كل وجـه العالم الأوروبي القديم سيندرس . ولكنني ، أنا الأوروبي الروسي ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا . نعم ، كانوا قد حرقوا التويلري ! لا ، مهلاً ، أنا أعرف أن هذا كان « منطقياً » . وأنا أدرك تماماً ما كان للفكرة التي راجت آنئذ من قوة لا تقاوم . ولـكنني ، كممثل للفكر الروسي الرفيع، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا ، لأن الفكر الروسي الرفيع يصالح بين جميع الأفكار المتعارضة مصالحة عامة شاملة . ومن ذا الذي كان يمكنه حينذاك ، في العالم بأسره ، أن يفهم هذا الفكر ؟ لقد كنت أطوف وحيداً . لست أتكلم عن نفسي ، بل عن الفكر الروسي . هنـاك ، كان الاقتتال والمنطق العنيد . هنـاك ، كان الفرنسي ليس الا فرنسـياً ، وكان الألماني ليس الا ألمانياً ، وذلك بعنف لم يشهد تاريخهـم كله عنفاً أقوى منه ؛ أي ان الفرنسي ما أساء الى فرنسا يوماً كما أساء اليها في هذه الفترة ، ولا الألماني أساء الى ألمانيا يوماً كما أساء اليها في هذه الفترة ! لم يكن في أوروبا كلها عندئذ أوروبي واحد ! أنا وحدي بين جميع مشعلي الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه ان اقدامهم على احراق التويلري خطأ ؛ وأنا وحدي بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أسـتطيع أن أقول لهـم ان احـراق التويلري ان كان خطأ فهو منطقي . وذلك ، يا عزيزي ، لأنني ، كروسي ، كنت عندئذ ، في أوروبا ، « الأوروبي الوحيد » . لست أتكلم عن نفسي ، بل عن الفكر الروسي كله . كنت أضرب في الأرض يا صـديقي ، كنت أضرب في الأرض ، ولا أعرف أنني لم يبق لي الا أن أسكت وأن أضرب في الأرض ... ولكنني كنت حزيناً رغم كل شيء . ذلك لأنني ، يا ابني ، لا أملك الا أن أحترم نبالتي . تضحك ، أليس كذلك ؟

قلت بصوت متأثر :

ـ لا ، لا أضحك . لا أضحك البتة . انك برؤياك « العصر الذهبي » قد بثثت الاضطراب في قلبي ؛ ثق كل الثقة أنني بدأت أفهمك . غير أن ما يسعدني أكثر من أي شيء آخر هو أنك تحترم نفسك هذا الاحترام كله . أسارع فأصارحك بذلك . ما كنت لأتوقع منك هذا أبداً !

ـ سبق أن قلت لك انني أحب صيحات تعجبك يا عزيزي !

قال ذلك وابتسم لملاحظتي الساذجة مرةً أخرى ، ثم نهض عن مقعده ؛ وبدون أن يعي ما يفعل ، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً . فنهضت أنا أيضاً . وتابع هو كلامه بلغته العجيبة الغريبة ، الزاخرة بالفكر مع ذلك .

٣

ـ نعم يابنى ، أعود فأكرر لك أننى لا أملك الا أن أحترم نبالتى • لقد نشأ عندنا ، خلال القرون ، نموذج حضارى أعلى لم يشـاهد فى أى مكان آخر فى الكون ، هو نموذج التألم للبشر كافة • هذا نموذج روسى • ولكن لما كان هذا النموذج انما خلقه الجزء الأعلى ثقـافة بين مجمـوع الشعب الروسى ، فاننى أحمل شرف الانتماء اليه • انه يحتوى مسـتقبل روسـيا • ان عددنا لا يربو على ألف رجـل ، قد نكون أكثر من ذلك قليلاً وقد نكون أقل من ذلك قليلاً ولكن روسيا كلها انما عاشت حتى الآن لتنجبنا • رب قائل يقول ان هـذا العدد ضئيل جداً ، وانها لفضيحة أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحى بملايين كثيرة من أبنائها فى سبيل أن تنجب هذه الصفوة • أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلاً •

كنت أصغى الى كلامه بجهد شـاق ، فأرى تعبيراً عن اقتناع تكوّن خلال حياة بأسرها • ان كلامه هذا عن « الألف رجل » يكشف النقاب عن نفسـه كلهـا • وقدّرت أن انطلاقه هذا فى مكاشفتى انما مردُّه الى صـدمة خارجيـة ، وأنه يقول لى هذا الكلام الحار كله حباً بى • ولكن السبب الذى من أجله أخذ يتكلم فجأة ، والذى من أجله كان يريد أن يتحدث الىّ ، الىّ أنا خاصةً ، ظل مجهولاً عندى •

وتابع كلامه يقول :

ـ هاجرت غير آسف على شيء مما خلفت ورائي • كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما املك من قوى • وحين سافرت ظللت أخدمها ، لكنني وسعت فكرني • هل كان يجب على أن ابقى روسيا ضيقاً ، مثلما كان كل فرنسي فرنسيا ، وكل ألماني ألمانيا ؟ في اوروبا لن يفهموا هذا الكلام • ان أوروبا قد خلقت النماذج النبيلة للفرنسي والانجليزي والالماني• أما انسانها في المستقبل فانها لاتزال تجهل عنه كل شيء تقريباً • وأظن أنها لا تريد ان تعرف عنه شيئاً حتى الآن • وذلك أمر يمكن فهمه : انهم ليسوا أحراراً ، أما نحن فأحرار • أنا وحدى في أوروبا ، مع ضجرى الروسى ، كنت حراً • .

لاحظ يا صديقى هذا الشيء الغريب : ان كل فرنسي يستطيع أن يخدم الانسانية مع بلده فرنسا ، ولكن بشرط أن يبقى فرنسياً خاصة • ويصدق هذا على الانجليزي وعلى الألماني • والروسى وحده ، حتى في عصرنا هذا ، أى قبل أن تتحقق له صورته النهائية ، قد وهب له أن يكون روسياً أكثر لأنه أوتى القدرة على أن يكون أوروبياً أكثر • هذا هو الفارق القومى الأساسى الذى يميزنا عن سائر الناس ، فنحن من هذه الناحية لا يشبهنا أحد • أنا في فرنسا فرنسي ، ومع الألماني ألماني ، ويوناني مع يوناني العصر القديم ، وأنا بهذا نفسه روسى دائماً الى الحد الأقصى • أنا بهذا نفسه روسى حقاً ، أقدم لروسيا أكبر قدر من الخدمات ، لأننى أجسِّد فكرها الأساسى • أنا رائد هذا الفكر • لقد هاجرت ، ولكن هل تركت روسيا ؟ لا ، لم أتركها • ظللت أخدمها • وهبنى لم أعمل شيئاً في أوروبا ، هبنى لم أذهب اليها الا لأتجول وأترحل وأضرب في الأرض (ولقد كنت أعرف أننى لا أرحل اليها الا لهذا الغرض) فحسبى هذا لأذهب اليها مع فكرى وضميرى • لقد نقلت الى أوروبا سأمى

الروسى • لا ، ليس الدم الذى كان يســـيل حينئذ هو الذى روّعنى ، حتى ولا احراق التويلرى ، بل ما كان لابد ان يتبع ذلك • بأن محكوماً عليهم أن يظلوا يقتتلون زمناً طويلاً أيضاً ، لأنهم لا يزالون ألمانا وفرنسيين أكثر مما يجب ، ولانهـم لم ينتهوا من عملهم فى تمثيل هذا الدور • كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار • ان أوروبا عزيزة على الروسى كروسـيا سواء بسواء ، كل حجر فى أوروبا حبيب الى قلب الروسى غالٍ فيه • كانت أوروبا للروسى وطناً كروسيا ، بل كانت له وطناً أكثر من روسيا • يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحبها ، ولكننى لم ألم نفسى فى يوم من الأيام على أننى وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ ، أحبّ الىّ من روسيا • آه ••• ان قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية ، لتلك الروائع التى تنتمى الى العالم القديم ، تلك البقايا من المعجزات المقدسة • بل ان هذا كله أعزّ على نفوســـنا منه على نفوسهم ! ان لهم الآن أفكاراً أخرى وعواطف أخرى ، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة ! ••• هناك لا يكافح المحافظ الا فى سبيل البقاء • ومشعل الحرائق لا يعمل الا ليطالب بحقه فى قطعة خبز • روسـيا وحدها لا تحيا من أجـل نفسها ، بل من أجل الفكر • اعترفْ يا صـديقى بهذه الحقيقة الواضحة : أن روسيا منذ قرابة قرن لا تحيـا من أجـل نفسها بل من أجل أوروبا فقط ! أما هم ، فقد نُذروا لآلام رهيبة قبل أن يصلوا الى ملكوت الرب •

كنت أصغى اليه مضطرباً أشد الاضطراب • أعترف بذلك • حتى لهجة كلامه كانت تروّعنى ، رغم أننى لم أملك الا أن أفاجـأ بأفكاره • وكان يخيفنى اخافةً رهيبة أن يكون فيما يقول كاذباً • فرأيتنى ألقى عليه هذا السؤال فجأة بلهجة قاسية :

ـ قلت « ملكوت الرب » . وقد علمت أنك عملت هنالك داعيةً ومبشراً ، وأنك كنت تثقل جسمك بأصفاد . هل هذا صحيح ؟

فابتسم وقال :

ـ دعك من أصفادي . تلك مسألة أخرى . في ذلك العهد لم أكن أبشرّ بشيء بعد . ولكنني كنت أتوق الى الههم . هذا صحيح . كانوا قد نادوا بالالحاد .. نادى به نفر منهم ، نادت به طليعة منهم ، ولكن ذلك كان الخطوة الأولى نحو « التنفيذ » ، وهذا هو الأمر الخطير . كان سلاحهم المنطق دائماً . وحيث يكون المنطق يكون الضجر . كنت أنا أنتمي الى حضارة أخرى ، فكان قلبي يرفض هذا . كان ذلك العقوق في انفصالهم عن فكرة ، وكانت تلك الأصوات التي تنطلق من الصفارات ، وكان ذلك التلويث والتلطيخ بالوحل ، كان ذلك كله أموراً لا أطيق احتمالها . كانت أساليب الاسكافيين هذه ترعبني . صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً رائحة النعال ، حتى حين يصبو المرء الى المثل الأعلى صبوة لألاءة . ولقد كان عليّ أن أعرف ذلك . لكنني كنت طرازاً آخر من البشر : كنت حراً في اختياري ، ولم يكونوا هم أحراراً . فكنت أبكي ، أبكي عليهم ، أبكي على الفكرة القديمة . ولعلني بدموع صادقة انما كنت أبكي ، من غير كلام مزّوق .

سألته غير مصدق :

ـ هل كنت تؤمن بالله هذا الايمان القوى حقاً ؟

ـ يا صديقي ، هذا سؤال لعله نافل . هب أني لم أكن أومن هذا الايمان القوى . ذلك لا ينفي أنني كنت لا أملك الا أن أتحسر على فكرة وأن أحنّ اليها . كنت في بعض اللحظات لا أفلح في أن أتصور كيف يستطيع الانسان أن يحيا بدون اله ، ولا أن أتصور هل يصبح هذا

ممكنا في يوم من الايام • كان قلبي يجيب دائما بأن هذا مستحيل • قد يحدث هذا في عهد من العهود الى حين • واني لأشـــك في أن يأتي هذا العهد • ولكنني كنت أتخيـل عندئذ لوحـة أخـــرى مختلفة كل الاختلاف •••

ـ ما هي ؟

لقد سـبق أن صرّح لي طبعاً بأنه كان سعيداً • وواضح أن أقواله كانت تشتمل على حماسة كثيرة • ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ ، ونظرت اليه بهذا المنظار • واني لما أحمله لهذا الرجل من احترام ، لن أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك • غير أن خطوطاً معينة من اللوحة الغريبـة التي حملته على أن يرسمها لي ينبغي أن تذكر هنا • ولقد كانت مسـألة « الأصفاد » خاصـةً هي التي تشغل بالي وتعذبني ، فكنت أريد أن تتضـح لي ، فلذلك ألححت • ان أفكاراً تبلغ غاية الغرابة والعجب مما قاله في ذلك اليوم قد بقيت منقوشة في قلبي الى الأبد •

بدأ يتكلم وهو يبتسم ابتسامةً يمازجها تفكير ، فقال :

ـ اليك اللوحة التي أتخيلها يا عزيزي • أتخيل أن القتال انتهى ، وأن الصراع هدأ • فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير ، عمّ الهدوء ، وبقي البشر « وحيـدين » كمـا كانوا يريدون : هجرتهم الفكرة الكبيرة التي كانت تعيش معهـم ، وغاب ينبوع الطاقة الذي كان الى ذلك الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة ، كتلك الشمس الرائعة الآسرة التي نراها في لوحة كلود لوران • ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الانسانية • فاذا بالبشر يدركون أنهـم أصبحوا وحيدين تماماً ، ويحسـون فجأة أنهـم مهجورون هجر اليتامى • يا صغيري العزيز ، انني لم أستطع في يوم من الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغبياء • فلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون

ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفة والمحبة • وأمسك بعضهم بأيدى بعض ، لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر • ان فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت ، فلابد أن يعتاضوا عنها بغيرها • فاذا بذلك الفيض من الحب الذى كانوا يحملونه لمن هو الخلود ، يتحول الآن الى الطبيعة ، الى العالم ، الى البشر ، الى كل عشبة • سوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة ، وسوف يحبونها حباً لا سبيل الى مقاومته ، على قدر شعورهم شيئاً فشيئاً بأن حياتهم عرض زائل ، وبأن زمنها محدود ، وسوف يكون حبهم حباً خاصاً ليس هو الحب الذى كانوا يحسونه من قبل • سوف يلاحظون فى الحياة ويكتشفون فيها ظاهرات وأسرارا لم تخطر لهم الى ذلك الحين على بال ، لأنهم سينظرون اليها بعين جديدة ، سينظرون اليها نظرة الحبيب الى حبيبته • سوف يستيقظون فيسارع بعضهم الى بعض يتعانقون ، ويتحابون ، لعلمهم بأن أيامهم زائلة ، وأن ذلك هو كل ما بقى لهم • سيعمل بعضهم فى سبيل بعض ، وسيعطى كلٌ منهم شيء لكل الناس ، فيكون بذلك سعيداً • سيعلم كل طفل وسيحس أن كل انسان على هذه الأرض هو له أب وأم• سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر الى غروب الشمس : « ليكن الغد آخر أيامى • سأموت • ولكن لا أضير : لأنهم سيبقون هم جميعاً ، وبعدهم سيبقى أولادهم » • وهذه الفكرة ، فكرة أنهم سيبقون وسيظلون متحابين متعاطفين يخاف بعضهم على بعض ، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت • لشد ما سيسارعون الى التحاب ، من أجل أن يخنقوا الحزن الكبير الذى فى قلوبهم • سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم ، ولكنهم سيكونون خجلين وجلين أمام الآخرين • سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر • سيحن بعضهم على بعض • ولن يشعروا بما يشعرون به اليوم من خجل وخزى • سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال • وحين يلتقون

سيتبادلون نظرات عميقة زاخرة بالذكاء ، وسيكون في نظراتهم حب وأسى .

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف :

ـ يا عزيزي ، ليس هذا كله الا خيالاً ، بل هو خيال لا يمكن أن يتحقق في الواقع . لكنني كثيراً ما تخيلت هذه الصور ، لانني لم أستطع في يوم من الأيام أن أحيا بدونها ، ولا أن أمتنع عن التفكير فيها . ولست أتكلم عن ايماني ، فايماني ليس كبيراً . أنا رجل يؤمن بوجود الله ، ولكنه لا يؤمن بالدين ؟ رجل يؤمن بوجود الله ايمان فلاسفة ، كسائر أولئك الألف من الرجال ، أو هذا ما افترضه . ولكن ... ولكن الشيء الذي يلفت النظر هو أنني كنت أنهي لوحتي دائماً برؤيا « المسيح على بحر البلطيق » ، كما نرى ذلك عند الشاعر هايني . انني لم أستطع الا أن أراه أخيرا بين البشر الذين أصبحوا يتامى . يجيء اليهم ، ويمد لهم ذراعيه ، ويقول : « كيف نسيتموني ؟ » . فاذا بنوع من حجاب يسقط عن جميع الأبصار ، واذا بنشيد حماسي هو نشيد الانبعاث الجديد الأخير ، يأخذ يترجع مدويا .

« دعنا من هذا يا صديقي ؟ أما عن « أصفادي » ، فتلك سخافة . لا يشغلن أمرها بالك . هناك شيء آخر : أنت تعرف أن لساني خجول ومقتضب . فلئن استرسلت اليوم في الكلام ، فذلك ... بسبب عواطف مختلفة ، وبسبب أنني معك . لغيرك لن أقول شيئاً أبداً . أضيف هذا لأطمئنك .

كنت متأثراً منفعلاً . ان الكذب الذي كنت أخشاه لا وجود له . ولقد أسعدني خاصةً أن أرى رؤية واضحةً بعد الآن أنه كان يعاني من ضجر حقاً ، وأنه كان يتألم ويتعذب ، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك:

وهـذا ما أثر في نفسي أكثر من أي شيء آخـر . وقد أعلنت له ذلك بحماسة . ثم أضفت أسأله فجأة :

ـ ولكن يبدو لي أنك ، رغم كل ضـجرك ، كنت سعيداً أقصى السعادة في ذلك الأوان ، أليس هذا صحيحاً ؟

فقـال :

ـ انك اليوم مصيب في ملاحظاتك . نعـم . كنت سـعيداً . وهل كان يمكن أن أكون شـقياً وأنا في مثـل ذلك الضجر ؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المترحل الروسي الأوروبي الذي ينتمي الى أولئك الألف من الأفراد . أقول لك هذا بدون أن أضحك ، وفي كلامي كثير من الجد . نعم ، ما كنت لأبيع ضجري بأية سعادة . يا عزيزي . ومن السعادة أنني أحببت حينئذ أمك أول حب في حياتي . نعم ، فيما كنت أضرب في الأرض وأعاني الضجر ، أحببتها فجأة كما لم أحب من قبل ، وسرعان ما أرسلت أستدعيها .

قال :

ـ آ ... اقصص على هذا ... كلمني عن ماما .

ثم أضاف يقول وهو يبتسم فرحاً :

ـ وقد خشيت أن تعفيني من هذا الحديث مستعيضاً عنه بالكلام عن هرتسن أو عن مؤامرة ما ...

ـ ما جئت بك الى هنا الا لأحدثك عن هذا .

الفصل الثامن

١



في الحديث كل المساء وسطراً من الليل ، فلن أروى كل ما قيل ، بل اكتفى بما أوضح لى فى النهاية نقطة من حياته كانت عندى لغزاً •

وأبدأ بما يلى : ليس يخامرنى أى شك فى أنه أحب ماما ، فاذا هجرها وانفصل عنها حين سافر الى الخارج ، فلأنه كان مرهقاً بالضجر ، أو لسبب آخر من هذا القبيل ، وذلك أمر يحدث لجميع الناس فى هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله • ثم انه فى الخارج ، بعد انقضاء زمن غير قصير ، قد عاوده حب ماما فجأةً ، من بعيد ، بالفكر ، فأرسل يستدعيها • رب قائل يقول : « هذه نزوة » • ولكننى أقول غير ذلك ، ففى رأيى أن ما فعله كان فيه أكبر الجد رغم ما تتصف به طبيعته من تناقضات أسلم بوجودها • ولكننى أحلف أن ضجره الأوروبى أمر لاشك فيه ، وأنه يساوى بل يفوق كثيراً أى شكل من أشكال النشاط العملى فى هذا الزمان ، كانشاء سكك حديدية مثلاً • وأنا أرى فى حبه للانسانية عاطفة صادقة كل الصدق ، عميقة كل العمق ، بريئة من كل كذب أو تزييف • وأرى فى حبه لماما أمراً لا يمكن الجدال فيه اطلاقاً ، وان كان جائزاً أنه يشتمل على شىء من غرابة • انه فى الخارج ، بينما هو فى « ضجر وسعادة » ، وبينما هو فى عزلة كعزلة النسّاك (أضيف

هذه الواقعة الخاصة التى أمدتنى بها تانيانا بافلوفنا فيما بعد) ، تذكر ماما على حين فجأة ، وتذكر خديها الخاسفتين خاصة ، فأسرع يستدعيها فوراً •

قال لى (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلت غيرها) :

ـ يا صديقى ، لقد أحسست فجأة أن خدمة الفكرة لا تعفينى أبداً ، كانسان أخلاقى وعاقل ، من أن أسعد فى أثناء حياتى انساناً واحداً على الأقل ، اسعاداً عملياً •

فسألته متحيراً :

ـ أتكون فكرة مستمدة من الكتب ، كهذه الفكرة ، هى التى جعلتك تعزم أمرك ؟

ـ ليست هذه فكرة مستمدة من الكتب • وقد تكون كذلك فعلاً • ان الأشياء يختلط بعضها ببعض • ولكننى كنت أحب أمك فعلاً ، كنت أحبها حباً صادقاً ، حباً لا شأن له بالكتب البتة • ولولا أننى كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها ، بل عمدت الى اسعاد أول ألمانى أو أول ألمانية ألقاها بعد اهتدائى الى تلك الفكرة • أما عن ضرورة اسعاد انسان واحد على الأقل أثناء الحياة اسعاداً عملياً ، أى اسعاداً فعلياً ، فهذه فكرة أنصبها قاعدةً يؤمر بالتزامها كل انسان مثقف ، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يغرس شجرة واحدة على الأقل أثناء حياته ، لأن الأشجار يقل عددها فى روسيا الآن • بل ان شجرة واحدة لا تكفى • فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يغرس شجرة فى كل سنة • ان الانسان المتفوق المثقف الذى يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحيانا ، فيصبح سخيفاً مضحكا ، ويصبح صاحب نزوات ، ويصبح بارداً ، بل أقول بصراحة انه يصبح غبياً ، فى الحياة العملية طبعاً ، بل يصبح آخر الأمر غبياً حتى فى

نظرياته . وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية ، واسعاد انسان واقعي واحد على الأقل اسعاداً واقعياً ، أن يشفي وأن يجدد نضارة الشخص الذي يحسن هذا الاحسان . قد يكون هذا الرأي سخيفاً من حيث هو نظرية ، لكنه متى طُبِّق وأصبح عادة مستحكمة ، لا يكون رأياً غبياً الى الحد الذي قد يتوهمه المرء .. لقد جربت هـذا بنفسي : فانني منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأي ـ على سبيل التسلية في أول الأمر ، طبعا ـ بدأت أدرك مدى الحب الذي يحمله قلبي لأمك .. ولم أكن قد أدركت أبداً ، حتى ذلك الحين ، أنني كنت أحبها . حين كنت أعيش معها ، كنت أتمتع بها في ابان جمالها ، ثم تستبد بي النزوات . ولم أدرك أنني أحبها الا في ألمانيا . بدأ ذلك بخديهـا الخاسـفين اللذين كنت لا أسـتطيع أبداً أن اتصورها الا واراهما ، حتى لأشـعر بألم يهصر قلبي ، ألم حقيقي ، ألم جسمي . هناك يا عزيزي ذكريات أليمة تحدث وجعاً واقعياً . ان جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات ، ولكنهم ينسونها ، ثم يتفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسمات الوجه أحياناً ، فاذا هو ينشد اليها ولا يستطيع منها فكاكاً . أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتي مع صونيا . وأصبحت هذه التفاصيل توافيني أخيراً من تلقاء نفسها ، وتحاصرني جمهرة غفيرة . وكادت هذه الذكريات أن تقتلني عذاباً بينما كنت أنتظر وصولها . غير أن الشيء الذي كان يعذبني خاصة انما هو ذكرى مذلتها الأبدية لي ، واعتقادها بأنها أدنى مني كثيراً في كل أمر من الأمور ، وأنني أفوقها كثيراً حتى في الجسم ! تصور ! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمـرة قانيـة حين كنت أنظـر أحياناً الى يديها وأصابعها التي لم يكن فيها شيء من ارستقراطية . بل انها لم تكن تخجل

من أصابعها وحدها بل من جسمها كله ، رغم أنني أحببت جماله . كانت تشعر معي بحياء دائم يبلغ حد التوحش . وأسوأ ما في الأمر أن هذا الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع . الخلاصة أنها كانت تعدّ نفسها بالقياس اليّ شيئاً لا وجود له ، أو شيئاً يكاد يكون غير لائق . وكنت في البداية أظن أنها لا تزال ترى فيّ سيدها ، وأنها كانت تهابني وتخشاني . ولكن الأمر لم يكن كذلك . واني لأحلف لك مع ذلك أنها كانت أقدر من أي انسان على معرفة عيوبي ونقائصي ، وأنني ما رأيت في حياتي امرأةً لها مثل قلبها رهافة ونفاذ ادراك . لشدما كانت تشعر بالشقاء حين كنت اضطرها في البداية ، أيام كانت لاتزال جميلة جمالا فاتنا ، أن تتزين . كان ذلك منها يشتمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التأذي : كانت تدرك أنها لن تصبح بالتزين سيدة ، وأنها لن تكون بلباس أجنبي الا مضحكة . وهي لا تريد أن يكون لباسها مضحكاً ، وتدرك أن لكل امرأة ثياباً تناسبها ، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مئات الألوف من النساء اللواتي يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفى ! كانت تخاف من نظرة ساخرة قد ألقيها عليها . وما أشد الألم الذي كنت أشعر به حين أتذكر عينيها المدهوشتين اللتين كثيراً ما فاجأتهما محدقتين اليّ أثناء حياتنا المشتركة : لقد كنت أحس أنها تدرك مصيرها ادراكاً كاملاً ، وتعرف المستقبل الذي ينتظرها ، حتى لقد كان ذلك يحزنني ، وان لم أكلمها في هذا الأمر ، وانما ظللت أترفع عن الخوض في حديث عنه . ولكن هل تعلم ؟ انها لم تكن في جميع الأحيان خائفة متوحشة كما هي الآن . وهي حتى هذا اليوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأةً وأن تتزين كما تفعل امرأة في العشرين من عمرها . لكنها في ذلك الوقت ،

ابان صباها ، كانت تعشق الثرثرة والضحك أحياناً ، في بيتها طبعاً ، مع الخادمات مثلا • ولشدما كانت ترتجف اذا أنا باغتها ضاحكة على حين فجأة ، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص اليّ ببصرها خائفة ! في ذات يوم لا يسبق رحيلي الى الخارج بمدة طويلة ، بل هو تقريباً عشية انفصالي عنها ، دخلت الى غرفتها فوجدتها وحيدة بلا شغل ، قد وضعت كوعيها على المائدة واسترسلت في تأمل عميق • لم يسبق لها أن بقيت من قبل عاطلة عن العمل في أي يوم من الأيام تقريباً • وكنت في ذلك الأوان قد انقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة • فاستطعت أن أقترب منها برفق ماشياً على رءوس الأصابع ، فامسكتها فجأةً وقبّلتها • انتفضت : لن أنسى في حياتي ما ارتسم على وجهها عندئذ من آيات الافتتان والسعادة • ولكن ذلك لم يلبث أن حل محله احمرار سريع ، وقدحت عيناها شرراً • هل تعلم ماذا قرأت في ذلك الشرر ؟ « انك تعطيني صدقة ! » وانفجرت تبكي كمن أصابتها نوبة هستريا ، زاعمةً أنني روّعتها • ووقفت أنا واجماً أفكر • ان هذه الذكريات شاقة على النفس يا صديقي • هذا ما نجده لدى كبار الفنانين : ان قصائدهم تصور في بعض الأحيان مشاهد « أليمة » تظل تقبض صدرك طول حياتك كلما تذكرتها • من ذلك مناجاة « عطيل » الأخيرة ، ومشهد « أوجين » على قدمي تاتيانا ، ولقاء السجين الهارب والطفلة الصغيرة في « بؤساء » فكتور هوجو • ان هذه المشاهد تطعن قلبك مرةً ، ثم يبقى الجرح نازفاً الى الأبد • آه ••• ما كان أشد نفاد صبري وأنا انتظر وصول صونيا ، ولم كنت أود أن أقبّلها في أقرب وقت ؟ لقد أخذت أضع برنامجاً كاملاً لحياة جديدة • أخذت أفكر في الوسائل التي سأعمد اليها لأزيل من نفسها ، شيئاً بعد شيء ، بجهد متصل منظم ، خوفها الدائم مني ، ولأفهمها قيمتها الكبيرة ، ولأجعلها تدرك أنها تفوقني كثيراً • آه ••• لقد كنت أعلم ، حتى منذ ذلك الحين ، أنني أحب أمك متى

انفصلت عنها ، فاذا اجتمعنا من جديد ، فتر حبي وبرد • ولكن شيئاً آخر حدث حينذاك •

كنت مدهوشاً • وهذا سؤال يبرق في ذهني : ماذا عنها « هي » ؟ وسألته في حذر •

ـ وكيف تم اللقاء ؟

ـ في ذلك الوقت ؟ لم يتم لقاء • وصلتْ الى مدينة كونجسبرج بعد عناء شديد ، وبقيت بهـا ، وكنت أنا على نهر الراين • لم أذهب اليها ، بل أرسلت آمرها بأن تبقى حيث هي • التقينا بعد ذلك بمدة طويلة ••• مدة طويلة جداً ••• حين ذهبت استأذنها في أن أتزوج •

٢

لن أذكر هنـا الا الأشياء الأسـاسية ، أى ما استطعت أن أحفظه . زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسـل ولا ترابط ، وتضـاعف تفكك أقواله وتشوشـها واضطرابهـا عشر مرات منـذ بلغ من حديثـه هذا الموضع .

لقد لقى كاترين نيقولايفنا مصـادفةً ، حينما كان ينتظر ماما ، بل حينما كان نفاد صبره أثنـاء هذا الانتظار قد بلغ قمته . كانوا يومئذ جميعاً على نهر الراين ، يقضون موسم المياه المعدنية . وكان زوج كاترين ايفانوفنا يحتضر تقريبـاً ، أو قل على الأقل ان الأطباء كانوا يائسين منه فهو بحكم المحتضر .

خطفت كاترين ايفانوفنـا بصر أبى منذ أول لقاء ، حتى لكأنها رمته بسحر . كان ذلك قدراً محتوماً . لاحظوا أننى ، وأنا أسـجل وأتذكر الآن هذا كله ، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل فى حديثه كلمة « الحب » مرة واحـدة ، ولا قال انه « شغف » ، وانما استعمل كلمة « القدر » ، فحفظت هذه الكلمة .

ولقد كان الأمـر قدراً بالفعل . انه « لم يرد » ذلك ، لم يـرد أن يحب . لا أدرى هل أقدر أن أعبر عن هذا تعبيراً واضحاً . المهم أنه كان مستاءً بكل نفسه من أن هذا الأمر قد أمكن أن يقع له . ان كل

ما كان يملكه من حرية قد زال دفعه واحدة حين كان ذلك اللقاء ، ووجد الرجل نفسه مشدودا حتى الأبد الى امرأة ليس بينه وبينها شيء مشترك • انه لم يرغب في ان يستعبده الهوى هـذا الاستعباد • يجب ان اقول اليوم بصراحة : ان كاترين نيقولايفنـا نموذج نادر في نساء المجتمع الراقي ، نموذج لعل المرء لا يقع عليه في تلك البيئات • هي نموذج امرأة بسيطة صريحة الى أقصى حدود البساطة والصراحة • ولقد سمعت ، بل علمت من مصـدر موثوق به ، أن هذا بعينـه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل الى مقاومتها حين تظهـر في المجتمع (وكانت في كثير من الأحيـان تبتعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً) • وكان فرسيلوف ، أثناء ذلك اللقاء الأول ، لا يظن أن لها هذه المزايا ، حتى لقد ظن نقيض ذلك ، أي اعتقد انها امرأة متصنعة منافقة • وسأسـتبق الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هي فيه • لقد قالت ان رجلاً مثاليـاً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم ، لأن المثالي حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سـائر الناس على افتراض جميع أنواع العيوب » • لا أدري هل يصدق هذا الرأي على المثاليين عامةً ، ولكنني أعرف أنه يصدق عليه • وأحب أن أضيف هنا رأيي أنا ، وهو رأي تكوّن في ذهني بينما كنت أصغي اليه : لقد قلت لنفسي انه كان يحب ماما حبـاً انسانياً شـاملاً ان صـح التعبير ، لا ذلك الحب العادي الذي يشتعل في نفس المرء حين يحب نساءً ، وانه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادي ، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضـه ، بسبب عدم التعود في أغلب الظن • على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ • وأنا لم أعبرّ له عنها على كل حال • ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً • لا سيما وأنه كان في حالة توجب على المرء أن يداريه • لقد كان مضطرباً اضـطراباً رهيبـاً • حتى انه في بعض المواضـع من حديثـه كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحيـاناً ، ويبقى صامتـاً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة •••

ولم تلبث كاترين نيقولايفنــا ان نفذت الى سره ، ولعلها تغنجت له
ان الأنثى لا تتنازل عن القيــام بدورها ، حتى اطهر النساء • هذه عندهم
غريزة لا يستطعن مقاومتهــا • ثم انتهى كل شيء بقطيعة عنيفة ، بل أظ
أنه أراد أن يقتلها • لقد اخافها ، ولعله كان يمكن أن يقتلها • « لكن ذلك
كله اســتحال فجأة الى كره » • ثم جاءت مرحلة أخــرى عجيبة • لق
تملكته فكرة غريبة على حين فجأة : ان يعذّب نفسه باتبــاع رياضة نفس
قاســية هي « تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان • فباتباع هذ
الرياضة اتباعاً تدريجياً منظماً مطرداً تتوصل الى التغلب على ارادتك ، باد
بأتفه الأشياء وأيسرها ، منتهياً بتحقيق انتصــار كامل على ارادتك ، فتصبح
حراً » • وأضاف أن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتعذيب
النفس ليست لعباً ، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة • على أ
أهم ما في الأمر هو أن فكرة « ترويض » النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عن
رغبة في التحرر من كاترين نيقولايفنا ، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يحب
كاترين نيقولايفنا وانما هو يكرهها • وقد بلغ من قوة الاعتقاد بهذا الكر
أنه زُيِّن له فجأة أن يحب ابنة زوجها ، التي أغواها الأمير وتركها ، وأن
يتزوجها ، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد ، واجتذب اليــ
حبَّ تلك البلهــاء المســكينة التي هيأ لها هذا الحب في الأشهر الأخير
من حياتهــا ســعادة كاملة • لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لاتزال تنتظر
بمدينة كونجسبرج ، بدلا من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندي
بلا جواب ! ••• لقد نسي ماما نســياناً مباغتــاً تاماً ، حتى لقد انقطع عن
ارسال شيء من المال اليها لتعيش ، فاضطرت أن تستنجد بتاتيانا بافلوفنا التي
أغاثتها وكفلت لهــا الخلاص • ولكنه ذهب الى ماما فجأة ليطلب منها « اذ
بتزوج تلك الفتاة » ، متعللاً بأن « خطيبةً كهذه ليست امرأة » • قد تكون
هذه الصورة كلهــا صورة رجل « مستمد من الكتب » كما وصفته بذلك
كاترين نيقولايفنا فيما بعد ، ولكن لماذا يكون هؤلاء « الرجال المستمدون

من الكتب ، (اذا صح أنهم كذلك) قادرين على ان يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء ، وأن يصلوا الى مآسى كهذه المآسى ؟ على أننى فى ذلك المساء قد فكرت فى الأمر تفكيرا يختلف عن هذا قليلاً ، وبرقت فى ذهنى فكرة أخرى :

ـ ان ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتاك عذاباً ومعارك ظللت تخوضها طول حياتك ، أما هى فقد تلقت الكمال مجاناً . وهذا ليس من المساواة فى شيء . ذلك ما يثير الحنق فى المرأة .

قلت له هذا لا لأرضيه ، وانما قلته بحرارة وحتى باستياء . فقال مدهوشاً من كلماتى :

ـ الكمال ؟ كمالها ؟ ألا انها محرومة من أى كمال ! انها امرأة عادية جداً . امرأة لاقيمة لها بتاتاً ... ولكنها مضطرة أن تحصّل كل أنواع الكمال .

قلت :

ـ لماذا مضطرة ؟

فصاح غاضباً :

ـ لأنها تملك قوةً كهذه القوة ، فهى مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال .

ـ الأمر المحزن أنك معذَّب حتى الآن .

أفلتت منى هذه الجملة بغير ارادة . فوقف أمامى متحيراً ، وقال مردداً :

ـ حتى الآن ؟ معذَّب ؟

وأضاءت وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة ، ورفع

أصبعه كمن قرر أمراً . حتى اذا ناب الى نفسه تماماً تناول من على المائ
رسالة مفضوضة ورماها أمامى قائلاً :

ـ خـذ ! اقرأ ! يجب أن تعـرف كل شيء على الاطلاق ... لم
تركتنى انبش هـذه الحماقات كلها طول هذه المدة ؟ ان هذا لا يزيد ع
أن يحنق قلبى ! ...

لن استطيع أن أعبر عما اعترانى من دهشـة ! لقد وصـلته هـ
الرساله منها « هى » ، فى هذا اليوم نفسـه ، الساعة الخامسة من المساء
قرأت الرسالة وأنا أرتعش من الانفعال تقريباً . لم تكن الرسالة طويلة
لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أننى كنت ، وأنا أقرؤها ، أتمثل كاتبة
أمامى وأسـمع صـوتها متكلمة . ان كاترين نيقولايفنا تعبر له فى هـ
الرسالة تعبيراً مخلصاً كل الاخلاص (أى تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه
ثم تتوسـل اليه أن « يدعهـا وشأنها تعيش فى سلام » ، وتبلغه فى خـ
الرسـالة أنها ستتزوج بيورنج فعـلاً . ولم تكن قد كتبت اليه قبـ
اليوم أبداً .

واليكم ما فهمته من أقواله :

ماكاد يفرغ من قراءة هذه الرسـالة حتى أحس فى نفسـه فجـ
بأمر لم يـكن يتوقعه قط : لقد شـعر ، لأول مرة خـلال هاتين السنتين
المشئومتين ، بأنه لا يحمل لهـا أى كره ، ولا تهتز لها نفسه أى اهتزاز
هو الذى « فقد صوابه » منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنج . حتى ا
قال لى بعاطفة عميقة : « بالعكس : باركتها من كل قلبى » . سمعت م
هذه الكلمات معجباً . هكذا زايله كل ما كان يضطرم فى قلبه من هو
ومن عذاب ، زايله دفعةً واحدة ، من تلقاء نفسه ، كأنه كان حلماً ، كأ
كان مساً ثم مضى ! وقد دهش هو من نفسـه ، فأسرع يذهب الى أمى
فدخـل عليها لحظة أصبحت « حرة » ، أى لحظة مات الشيخ الذى أوصـ

بالأمس أن يتزوجها • ولقد هزته هاتان المصادفتان هزاً قوياً • وبعد قليل ، خرج يبحث عنى • لن انسى ابدا اننى سرعان ما خطرت بباله •

لا ولن انسى نهاية تلك السهرة • ان هذا الرجل قد تبدل مرةً أخرى تبدلاً كبيراً مباغتاً • بقينا معاً الى ساعة متأخرة من الليل • سأتحدث فيما بعد عن الاثر الذى أحدثه فينا « النبأ » ، سأتحدث عنه فى حينه • أما الآن فسوف أقتصر على بضع كلمات أختم بها كلامى عنه هو • اننى لأدرك ، حين أفكر الآن ، أن ما فتننى فيه حينذاك هو ذلك النوع من الانقياد لى ، ذلك الاخلاص الصادق فى مخاطبة فتى مثلى ! لقد هتف يقول : « كان ذلك ضلالاً • ولكن بورك ذلك الضلال ! فلولاه لكان يمكن ألا أهتدى فى قلبى ، اهتداءً كاملاً أبدياً ، الى ملكتى الوحيدة ، الى شهيدتى ، أمك » • هذه الكلمات الحارة التى أفلتت منه بقوة لاتقاوم ، انما أسجلها هنا من أجل تتمة القصة • ولكنه كان قد غزا قلبى وأسر نفسى •

أذكر أننا صرنا فى النهاية الى مرح جنونى • أمر بشمبانيا ، فشربنا « نخب » ماما ، و « نخب » المستقبل • وكان يزخر حياة ، ويفيض تأهباً وتهيؤاً للحياة ! ولكن مرحنا الجنونى لم يكن سببه الخمر : فلم يشرب كل منا الا كأسين اثنين • لا أدرى لماذا أصبحنا فى النهاية نضحك عاجزين عن كبح ضحكنا • أخذنا نتكلم فى أمور لا قيمة لها • روى نكات • ورويت نكات • وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة ، خالية من أية سخرية ، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً • وكان لا يريد أن يخلى سبيلى فهو ما ينفك يقول : « ابق ، ابق » ؟ وبقيت • حتى اذا خرجت صحبنى •

كان الليل رائعاً ، وكان جليد خفيف •

سألته فجأة بدون سابق تفكير ، وأنا أصافحه مرة أخيرة عند منعطف :

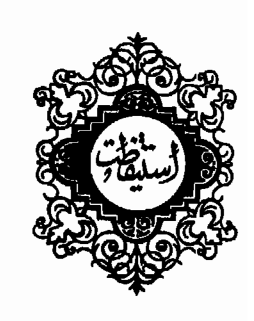
ـ قل لي : هل أجبتها ؟

ـ لا، لم أجبها بعد. ولكن لاقيمة لهذا . تعال غدا، تعال فيوقت أبكر . آ ... شيء آخر : اترك لامير نهائياً ، ومزّق « الوثيقة » بأقصى سرعة . استودعك الله .

قال ذلك ومضى فجاة . فبقيت مسمّرا في مكاني وقد بلغت من الاضطراب انني لم أجرؤ أن أناديه . هزّتني كلمة « الوثيقة » خاصة : من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لامير ؟ وعدت الى البيت قلقاً أشد القلق . وبرق في ذهني سؤال : كيف يمكن أن يزايله في مثل لمح البصر « مس دام سنتين » ، ثم اذا هو يختفي كحلم ، يتبدد كدخان ، يغيب كرؤيا ؟

الفصـــل التاسع

١



فى الغـداة أنضر همـة وأحسن حالا . حتى لقد رأيتنى آخذ على نفسى ، بغير غضب، شيئا من الخفة ونوعاً من التعالى ظهرا على أمس حين كنت أصغى الى بعض الفقرات من « اعترافه » .

لقد كان اعترافه مفككاً فى بعض الأحيـان ، وكان عدد من أقواله غامضاً مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه . ولكن هل كان قد أعـد خطاب خطيب حين دعانى الى بيتـه ؟ حسبى أنه شرفنى باللجوء الى كما يلجأ صـديق الى صـديقه الوحيد فى مثل اللحظة التى كان فيها . لن أنسى له هـذا ما حييت . بل لقد كان اعترافه « مؤثراً فى القلب » ، أقول هذا ولو سـخر من هذا التعبير ساخرون . ولئن اشتمل هذا الاعتراف على عناصر مستهترة ، أو حتى مضحكة قليلا ، فلقد كنت أرحب صـدراً وأوسـع أفقاً من ألا أفهـم أو ألا أقبل الواقعية ـ دون أن ألطخ المثالية على كل حال . أخيراً فهمت هذا الرجـل ؟ ولقد ساءنى وأحزننى قليلا أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة : هذا الانسان ، كنت فى قرارة قلبى أنزله أعلى منزلة ، وأضـعه فوق السـحب . فكان لابد لى حتماً أن ألفع مصـيره برداء من السر ، وكنت أتمنى طبعـاً ألا ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة . ثم لقد كان هنـاك ، فى لقائه « معها » ، وخلال هاتين السنتين من العذاب ، أشـياء أخرى كثيرة معقدة :

« لم يرد ذلك القدر . كان فى حاجة الى الحرية لا الى عبودية القدر . عبوديه القدر هذه هى التى اضطرته ان يجرح شعور ماما التى كانت تنتظره فى لونجسبرج ... » . وعدا ذلك ، كان هذا الانسان فى نظرى داعية ومبشراً على كل حال : كان يحمل فى قلبه العصر الذهبى ، ويعرف مستقبل الالحاد . ثم اذا بلقائه معها قد حطم كل شىء ، وشوّه كل شىء . أنا لم أخنها طبعاً ، ولكننى مع ذلك قد انحزت اليه . كنت أقول لنفسى : ما كان لماما مثلاً أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجته . وكنت أحس أن لقاءه مع « الأخرى » أمر مختلف كل الاختلاف . صحيح أن ماما ما كانت لتجيئه بالهدوء والسكينة . ولكن هذا أفضل . ان أمثال هؤلاء الرجال ما ينبغى أن يُحكم عليهم بالمقاييس التى يُحكم بها على غيرهم . ان لهم شأناً خاصاً . ان حياتهم ستنقضى دائماً على هذا النحو . وليس فى ذلك شذوذ . بالعكس : فانما الشذوذ أن يجدوا الهدوء ، أو أن يصبحوا كسائر الناس المتوسطين . ان افتخاره بالنبالة وقوله « سأموت سيداً » لم يقلقانى . لقد أدركت ما السيد الذى كان يعنيه : انه السيد الذى يهب كل شىء ، ويبشر بمواطن الكون ، ويشيع الفكرة الروسية الداعية الى « لقاء الأفكار لقاءً شاملاً » . لعل هذا كله كان سخافات وحماقات ، أعنى « لقاء الأفكار لقاء شاملاً » (مع أنه لا غنى عنه طبعاً) ، ولكن ألم يكن حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب ؟ ولكن أنا ... رباه ... هى أنا انحنيت لعجل الذهب حين تصورت فكرتى ؟ هل المال هو ما كنت فى حاجة اليه ؟ يميناً لم أكن فى حاجة الا الى الفكرة ! يميناً لو ملكت المال لما تجدّدت كرسياً واحداً ولا ديواناً واحداً بالقطيفة ، ولما أكلت غير صحن الحساء الذى آكله اليوم مع مائة مليون !

لبست ثيابى ، وشعرت بقوة تدفعنى اليه ولا أستطيع مغالبتها . يجب أن أضيف هنا أننى فيما يتعلق باشارته الى الوثيقة أمس ، قد وجدتنى

اهدأ بالا • قلت لنفسي أنني قد أبحث هذا الموضـوع معـه • واي ضير في أن يكون لامبير قد تسلل اليه وحدثه عن شيء ؟ وكانت فرحتي الكبرى هي احســاسي الغريب بأنه أصبح لا « يحبها » • كنت مقتنعاً بهذا اقتناعاً مطلقاً • وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبي • حتى انني أتذكر افتراضاً مرّ بخاطـري : ان ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ عجيب رهيب حين جاءه نبأ بيورنيج ، وما لجا اليه عندئذ من ارسال رسالته تلك التي احتوت على سب وشـتم ، أقول ان ذلك العنف كله ربمـا كان ايذاناً بتغير جذري في عواطفـه وعودة سريعـة الى الحس السليم والعقل الراجح • قلت لنفسي : ان هذا لابد أن يكون شبيهاً بالنوبة التي تحدث في مرض ثم يعقبها نقيضها ! فما ذلك الا مرحلة طيبـة ! وقد أسـعدتني هذه الفكرة •

وهتفت أقول : « الآن فلتتصرف في مصـيرها كما تشاء ، ولتتزوج بيورنيج ما حلا لهـا ذلك ، فانمـا المهم أنه هو ، أبي ، صـديقي ، قد زال حبه لهـا • » • على أن عواطفي أنا قد كان فيها سر • ولست أريد في مذكراتي هنا أن ألحّ عليه أو اكشف عنه •

ولكن كفى ! الآن سأروي جميع الأهوال التي تعاقبت ، بدون أي مداراة في هذه المرة •

٢

في الساعة العاشرة ، فيما كنت أتهيأ للخروج (لأذهب اليه طبعاً) جاءت داريا أونيسيموفنا . فسألتها مرحباً هل هو أرسلها الىّ ، فأحزنني أن أعلم أنه ليس هو الذى أرسلها ، وانما أرسلتها آنا آندريفنا ، وأنها — هى داريا أونيسيموفنا — « قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح » .

— أى بيت ؟

— البيت نفسه ، بيت الأمس . ان البيت الذى كنت فيه أمس ، أعنى بيت الطفل ، مستأجر الآن باسمى أنا ، ولكن تاتيانا بافلوفنا هى التى تدفع ...

قاطعتها غاضباً أقول :

— ما شأنى أنا وهذا ! ولكن هو ، هل هو فى البيت ؟ هل أجده اذا ذهبت اليه ؟

فما كان أشد دهشتى حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هى ، فاذا كانت قد خرجت هى عند طلوع النهار ، فقد خرج هو قبل طلوع النهار .

— لعله يكون قد رجع الى البيت الآن ؟

— لا ، انه لم يرجع حتماً ، وربما لا يرجع أبداً .

قالت ذلك وهى تحـدّق الىّ بنظرتهـا الحادة الماكرة التى سبق أن ضقت بها وانزعجت منها حين زارتنى مريضاً فى السرير • ان ما أحنقنى بخاصـة هو هذه الأسرار وهذه السـخافات التى تعود الى الظهور : ان هؤلاء الناس يصرون على ألا يستغنوا عن السر والمكر •

ـ لماذا قلت « ربما لا يرجـع أبداً » ؟ ماذا تعنين بهذا ؟ لقد ذهب الى ماما وهذا كل شىء !

ـ لا أدرى •

ـ ولكن ما جاء بك أنت ؟

فقالت لى انهـا الآن آتيـة من عنـد آنا آندريفنـا ، وان آنا آندريفنا تدعونى أن أجىء اليها حالاً ، والا « فات الأوان » • فأحنقنى هذا الكلام الملغز مرة أخرى وأخرجنى عن طورى :

ـ لماذا يفوت الأوان ؟ لا أريد أن أذهب اليها ولن أذهب ! لن أنقاد للتضليل مرة جديدة ! اننى لا أعبأ بلامبير ! قولى لها هذا • فاذا أرسلت لى لامبير ، فلأطردنّه ركلاً بقدمى •

ارتاعت داريا ارتياعاً رهيباً •

قالت وهى تتقدم منى خطوةً وتضـم يديها احداهما الى الأخـرى ضارعة متوسلة :

ـ لا ، انتظـر • لا تسرع الى الغضب هـذا الاسراع • ان الأمر خطير ، بل خطير جداً بالنسبة اليك ، واليهم أيضاً ، الى آندره بتروفتش ، والى أمك ، والى الجميع • فاذهب الى آنا آندريفنا حالاً ، لأنها لا تستطيع أن تنتظرك مدة أطول •• أحلف لك بشرفى • وبعد ذلك تتخذ قراراً •

نظرت اليها مدهوشاً مشمئزاً • وهتفت أقول بعناد وعداوة :

ـ سخافات • لن يحدث شيء • لن اذهب • تغير الآن كل شيء • هل أنت قادرة على أن تفهمي ؟ مع السلامة يا داريا أونيسيموفنا • لن أذهب • عمداً لن أذهب • وعمداً لن أسألك عن شيء • والا أفقدتني صوابي • لا أريد أن أحشر أنفي في أسراركم •

ولكنها لم تنصرف ، بل ظلت متسمرة في مكانها ، فلم يسعني الا أن أتناول معطفي وطاقيتي ، وأن أخرج تاركاً اياها في وسط الغرفة • لم يكن في غرفتي رسائل ولا أوراق ، ولا كنت أقفلها بالمفتاح في أي يوم من الأيام تقريباً حين أخرج • ولكن ما كدت أصل الى الباب المفضي الى الشارع حتى رأيت مؤجر غرفتي بطرس هيبوليتوفتش يركض ورائي بدون قبعة وبدون سترة •

ـ آركادي ماكاروفتش ! آركادي ماكاروفتش !

ـ ما بك أنت أيضاً ؟

ـ ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج ؟

ـ لا •

فنظر اليّ نظرة نافذةً فيها قلق واضح ، وقال يسأل :

ـ فيما يتعلق بالبيت مثلاً ؟

ـ فيما يتعلق بالبيت ؟ ألم تستلم الأجرة ؟

ـ ليس الأمر أمر الأجرة •••

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة طويلة على حين فجأة ، ويظل يتفحصني بنظرته • فصحت أقول غاضباً :

ـ ولكن ماذا حدث لكم جميعاً ؟ ماذا تريد أنت ؟

فانتظر بضع ثوان ، كأنه لا يزال يأمل مني شيئاً • ثم دمدم يقول وهو يبتسم ابتسامة أطول :

ـ اذن تأمرني فيما بعد ، مادمت الآن معتكر المزاج • طيب • مع السلامة • أنا أيضاً يجب أن أذهب الى المكتب •

وعاد يصعد السلم راكضاً • ان هذا كله يبعث على التفكير طبعاً • وأنا أتعمد ألا أغفل أى تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة ، لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد في مجموعها المتشابك • هذه حقيقة • ولئن ضقت ذلك الضيق كله ، وحنقت ذلك الحنق كله ، فلأنني عدت أجد في أقوالهم لهجة المكر واللغز تلك التي كنت أتقزز منها وكانت تذكرني بالماضي •

ولكن فلأتابع حديثي •

لم أجد فرسيلوف في البيت : كان قد خرج فعلاً مع طلوع النهار • وقفت أقول لنفسي : «سأجده عند ماما حتما» • ولم أسأل الخادمة عن شيء • انها امرأة غبية • ولم يكن في البيت أحد غيرها • ركضت متجهاً الى بيت ماما • أعترف بأنني كنت قلقاً غاية القلق • حتى لقد ركبت عربة بعد أن قطعت نصف الطريق • فعرفت هناك « أنه لم يجيء الى بيت ماما منذ مساء الأمس » • لم يكن مع ماما الا تاتيانا بافلوفنا و ليزا • وما ان دخلت حتى تأهبت ليزا للخروج •

لاتزالان تقيمان فوق، في «تابوتي» • وتحت، في الصالون، كان جثمان ماكار ايفانوفتش مسجى على المائدة ، وكان شيخ مجهول يقرأ عليه المزامير • لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالقضية اتصالاً مباشراً • لكنني أحب أن أسجل أن النعش الذى صُنع له و وُضع في الغرفة لم يكن نعشاً مبتذلاً : صحيح أنه أسود ، ولكنه مفروش بقطيفة ؟ والكفن ثمين : ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته • ولكن تلك كانت رغبة ماما و تاتيانا بافلوفنا ، حرصتا عليها أشد الحرص •

لم أكن أنتظر طبعاً أن أراهنّ في مرح • لكنني ما ان رأيت الحزن الساحق والقلق الشديد والهم الثقيل في أعينهن حتى قدّرت أن « هناك شيئاً آخر غير المتوفى قطعاً » • اعود فأكرر انني أتذكر هذا تذكراً واضحاً •

ومع ذلك قبلت ماما بحنان ، ثم لم ألبث أن سألتها « عنه » • فسرعان ما اشتعل في نظرتها استطلاع قلق • فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة معاً الى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنني لم أجده اليوم في البيت ، فقد خرج مع طلوع النهار ، رغم أنه طلب مني في الليلة البارحة ، حين افترقنا ، أن أجيء اليه في أبكر وقت • لم تجب ماما بشيء ، ولكن تاتيانا بافلوفنا انتهزت فرصةً فلوحت لي بأصبعها مهدّدة •

وقالت ليزا فجأة بلهجة قاطعة وهي تخرج من الغرفة مسرعة :

ـ استودعك الله ، أخي •

وبادرت ألحق بها طبعاً ، فوجدتها واقفةً تنتظرني عند الباب • قالت لي بهمس سريع :

ـ قدّرت أنك ستنزل •

ـ ماذا حدث يا ليزا ؟

ـ أنا نفسي لا أعلم • ولكن لابد أن أشياء كثيرة قد حدثت • لابد أنها خاتمة هذه « القصة الأبدية » • لم يجيء • ولكن وصلتهم أخبار عنه • لن يحكوا لك شيئاً • فكن هادئاً ، ولا تسألهم أي سؤال اذا كنت تملك بعض الذكاء • أنا أيضاً لم أسأل • ماما مرهقة • الى اللقاء !

وفتحت الباب • قلت :

ـ ليزا ! وأنت ، أليس بك شيء ؟

ووثبت أدركها في الدهليز • ان هيئتها المهدودة المكروبة اليائسة قد

طعنت قلبي • فنظرت الىّ نظرة لم تكن غاضبة فحسب ، بل كانت كاسرة أيضاً • ثم ابتسمت ابتسامة مرة ، وحركت يدها باشارة يأس •

وفيما كانت تهبط السلم منصرفةً ، هتفت تقول :

ـ اذا مات فيجب أن نحمد الله •

كانت تعني الأمير سرجي بتروفتش الذي كان راقـداً مع حمى وغيبوبة • حدثت نفسي محنقاً : « القصة الأبدية ؟ أية قصة أبدية ؟ » وسرعان ما ساورتني رغبـة قوية في أن أحدثهم عن جزء ـ على الأقل ـ مما أحسست به بعد سماع « اعترافه » في الليلة البارحة ، وأن أذكر لهم ذلك الاعتراف ذاته • « انهم يحملون آراء سيئة فيه • ألا فيلعلموا اذن كل شيء ! » • تلك هي الفكرة التي لمعت في خاطري •

أذكر انني بدأت الكلام بغير خـراقة ، فسرعان ما أثرت اهتمامهما واجتذبت انتباههما • حتى ان تاتيانا بافلوفنـا كانت تشرب أقوالي شرباً ، وذلك شيء لم يسـبق أن حـدث من قبـل • وكانت أمي أكثر تحفظاً • كانت رصينة جداً ، ولكن ابتسامة خفيفة رائعة ، وان تكن يائسـة كل اليأس ، قد أضاءت وجهها ولازمتـه الى نهاية الحديث • واسترسلت في الكلام ، رغم علمي بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول • وقد أدهشني كل الادهاش أن تاتيانا بافلوفنـا لم تحاول أن تناكدني ، فلا سألتني توضيحات ولا نصبت لي فخاخاً ، كما كان من عادتها أن تفعل حين أتكلم • وكانت تقتصر على أن تزم شفتيها وتغمض عينيها نصف اغماض من حين الى حين كأنما هي تجهد أن تفهم • حتى لقد بدا لي في بعض اللحظات أنهما كانتا تدركان كل شيء • غير أن ذلك كان مستحيلاً في الواقع • تحـدثت مثلاً عن اعتقاداته وآرائه ، وعن حماسـته أمس ، عن حماسـته لماما خاصةً ، عن حبه لماما ، ورويت كيف قبَّل صورتها ••• فكانتا ، وهمـا تصغيان الى كلامي ، تتبادلان نظرات سريعة صـامتتين • واحمرت ماما

احمـــراراً شـــديداً ٠ وظلتـــا كلتاهما لا تقولان شيئاً ٠ ثم ٠٠٠ ثم ٠٠ كنت لا أستطيع طبعاً ، بحضور ماما ، أن ألمس النقطة الأساسية ، أعنى لقاءه مع الأخرى ، و « انبعاثه » الروحي بعد تلقيه تلك الرسالة ٠ وكان ذلك هو الأمر الجوهرى فى الواقع ٠ وهكذا فان جميع عواطفه التى عبر عنها فى الليلة البارحة والتى كنت آمل أن أبهج بهـــا ماما كثيراً ، بقيت غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال ، ولم يكن الذنب فى ذلك ذنبى ، لأن كل ما كان يمكننى أن أقوله ، قد قلته بل أحسنت قوله جداً ٠ فلما انتهيت كنت مرتبكاً أشد الارتباك ٠ واستمر صمتهما ٠ فوجدت نفسى معهما فى ضيق شديد ٠ فقلت وأنا أنهض لأنصرف :

ـ لابد أنه رجع الى البيت الآن ٠ أو لعـله ذهب الى بيتى فهـــو ينتظرنى هناك ٠

فقالت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة بلهجة قاطعة :

ـ طيب ٠ اذهب اليه ، اذهب اليه !

وسألتنى ماما بهمس :

ـ هل ذهبت الى تحت ؟

ـ نعم ، حييت جثمانه ، وصلّيت له ٠ ما أجمله من وجه هادىء يا ماما ! شكراً لأنك لم تقصّرى فى أمر النعش أىّ تقصـــير ٠ لقـــد استغربت ذلك فى أول الأمر ، ولكننى سرعان ما أدركت أننى لو كنت فى مكانك لفعلت ما فعلته أنت ٠

سألتنى أمى مختلجة الشفتين :

ـ هل تأتى غداً الى الكنيسة للجنازة ؟

فقلت مدهوشاً :

ـ كيف لا يا ماما ؟ سأحضر قداس اليوم ، وآتى غداً أيضـــاً ٠ وغداً عيد ميلادك يا ماما ، يا صديقتى الغالية ! لم ينقصه الا ثلاثة أيام !

وانصرفت مدهوشاً دهشة أليمة : يا له من سؤال سخيف ! كيف تسألني هل آتي الى الكنيسة أم لا ؟

واذا كانتا تخشيان ألا آتي أنا ، فما عسى تكون خشيتهما من ألا يأتي « هو » ؟

وكنت أعلم أن تاتيانا بافلوفنا قد تلحق بي ، فتعمدت أن أقف عند العتبة . وأدركتني فعلاً ، لكنها دفعتني بيدها الى السلم ، وخرجت بعدي وأغلقت الباب .

ـ تاتيانا بافلوفنا ! هل تتوقعان اذن ألا يجيء آندره بتروفتش لا اليوم ولا غداً ؟ انني خائف ...

ـ اسكت . يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً !!... قل : انك لم تذكر كلّ شيء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة ، أليس كذلك؟

لم أجد داعياً الى الكتمان ، فحكيت لها ـ وأنا شبه غاضب على فرسيلوف ـ حكاية الرسالة التي وصلته من كاترين نيقولايفنا ، والأثر الذي أحدثته تلك الرسالة في نفسه اذ بعثته بعثاً جديداً . فما كان أشد استغرابي حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها ، فأدركت أنها على علم بأمرها .

ـ ألا تكذب فيما تقول ؟

ـ لا ، لا أكذب .

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر ، ثم قالت :

ـ هه ! بُعث بعثاً جديداً ! لا ينقص الا هذا ! هل صحيح أنه قبّل الصورة ؟

ـ صحيح يا تاتيانا بافلوفنا .

ـ قبّلها بعاطفة ، أم تظاهر تظاهراً ؟

ـ تظاهر تظاهراً ؟ هل يتظاهر أحياناً ؟ عيب يا تاتيانا بافلوفنا ! ان لك نفساً قاسية ، نفس امرأة !

قلت ذلك بحرارة ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعنى • كانت قد عادت تغرق فى أفكارها رغم شدة البرد على السلم • كنت أنا مرتديا معطفى ، أما هى فكانت بفستانها فقط •

قالت باحتقار وتململ :

ـ كان يمكن أن أعهد اليك بمهمة ، ولكن المؤسف أنك غبى غباء شديداً • اسمع : اذهب الى آنا آندريفنا ، وانظر ماذا يحدث عندها • لا بل لا تذهب ! فلن تكون هناك الا غبياً • امش • ما بقاؤك هنا متسمراً كنصب ؟

ـ لا ، لن أذهب الى آنا آندريفنا ! ومع ذلك فان آنا آندريفنا هى التى أرسلت تستدعينى اليها اليوم •

ـ هى نفسها ؟ أرسلت داريا أونيسيموفنا ؟

كانت تاتيانا بافلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتنصرف، لكنها ما أن سمعت كلامى حتى التفتت الى ثانية وألقت علىّ ذلك السؤال وهى تغلق الباب من جديد •

كررت أقول متلذذاً :

ـ لن أذهب الى آنا آندريفنا بحال من الأحوال • لن أذهب اليها ، لأننى وُصفت منذ هنيهة بأننى غبى ، مع أننى لم أكن فى حياتى ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم • ان قضاياكم كلها موضوعة على راحة كفى ، أراها رؤية واضحة أكبر الوضوح ! على كل حال ، لن أذهب الى آنا آندريفنا •

فهتفت تقول وهى لا تزال تفكر :

ـ كنت أعرف هذا ! لسوف يوثقونها الآن ويضعونها في الكيس •

ـ آنا آندريفنا ؟

ـ غبى !

ـ من تعنين اذن ؟ كاترين نيقولايفنا ؟ أى كيس ؟

جزعت جزعاً رهيباً • ان فكرة غامضة ، لكنها فظيعة ، قد برقت فى نفسى كلها • وألقت علىّ تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقبة ، وسألتنى فجأة :

ـ وأنت ما شأنك وهذا كله ؟ ما دورك فى هذا الأمر ؟ لقد سمعت شيئا عنك أنت أيضا • حذار.

ـ اسمعى يا تاتيانا بافلوفنا • سوف أكشف لك سرا رهيبا • ولكن لا الآن • الآن لا يتسع الوقت • غداً سأكشفه لك عن ذلك السر ، على انفراد • ولكن قولى لى الحقيقة كلها فوراً : ما هذا الكيس الذى تتحدثين عنه ؟ ذلك أن جسمى كله يرتعد ارتعاداً شديداً •••

صاحت تقول :

ـ لا يهمنى أن يرتعد جسمك أو ألا يرتعد • ما هذا السر الذى تريد أن تبوح لى به فى الغد أيضاً ؟ هل تعرف شيئاً بالفعل ؟ قل ما تعرفه بصراحة •••

وعادت تلقى علىّ نظرتها الفاحصة • ثم قالت تسألنى :

ـ ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت ؟

وتابعت أنا أيضاً كلامى دون أن أجيب عن سؤالها لأننى كنت خارجاً عن طورى :

ـ تاتيانا بافلوفنا ، أكرر لك •• لا تعذبينى •• انتبهى يا تاتيانا

بافلوفنا .. فبسبب ما تخفينه عني قد تقع مصيبة أكبر . لقد كان أمس في حالة انبعاث كامل .

ـ امش يا مهرِّج ! أنت أيضاً هائم حباً .. الأب والابن مولَّهان بحب امرأة واحدة ! تفو ! انكما لمقززان !

واختفت . وصفقت الباب وراءها استياءً وامتعاضاً وشعرت أنا بغضب شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذي لا يمكن أن تصل اليه الا امرأة ، فخرجت راكضاً وقد جُرح شعوري جرحاً عميقاً . ولكنني لن أحدثكم عن مشاعري المضطربة : فقد عاهدتكم على ذلك . لن أحكي الا الوقائع التي ستضع في أيديكم الآن مفتاح كل شيء .

وقد انطلقت اليه طبعا ، فأخبرتني الخادمة مرة أخرى بأنه لم يرجع . سألتها :

ـ ولن يرجع ؟

ـ الله أعلم !

٣

الواقائع ، الوقائع ! ولـكن ما الذى سيستطيع أن يفهمه القـارىء ؟ أتذكر أننى ، أنا نفسى ، وقد سحقتنى تلك الوقائع ذاتها ، كنت لا أستطيع أن أفهمها ، فما انتهى النهار الا كان عقلى قد انقلب رأساً على عقب فعلاً ! لذلك سأسبق الأحداث ببضع كلمات •

اليكم ما كان يدور عليه قلقى وعذابى : اذا كان قد بعث بالأمس بعثاً جـديداً فكف عن « حبها » فأين يجب أن يـكون اليوم ؟ الجواب : أولاً ، عندى ، أنا الذى قبّلنى البارحـة ، ثم فوراً عند أمى ، التى قبّل صـورتها • ولكنه بدلاً من أن يقوم بهـاتين الخطوتين ، غادر البيت عند « طلوع النهار » ، واختفى لا يدرى أحـد أين ، وتقول داريا أونيسيموفنا انه فى أغلب الظن لن يعود • أكثر من ذلك : ان ليزا تتحدث عن خاتمة « القصة الأبدية » ، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه ، أحدث من هذه الأخبار أيضاً • وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التى بعثتها اليه كاترين نيقولايفنا (لاحظت أنا هذا) ، ولكنهم رغم كل شىء لا يصـدقون أنه « بعث بعثاً جديداً » ، وان كانوا قد أصغوا الى بانتباه شديد • كانت ماما مهدمة تهديماً ، وكانت تاتيانا بافلوفنـا تبتسم ابتسامة ساخرة حين أنطق بكلمة « الانبعاث » هذه • معنى ذلك اذن أنه قد وقعت له فى الليل ثورة أخرى ، وقعت له نوبة أخرى ، بعد كل حماسته وحنانه وتأثره بالأمس ! ومعنى ذلك اذن أن هذا « الانبعاث » كله قد تبدد كفقاعة صابون ! ولعله

الآن يعاني ذلك الاهتياج المسعور نفسه الذى أصابه حين جاءه نبأ بيورنج ! فاذا صحّ هذا فما عسى يحدث لماما ؟ وما عسى يحدث لى أنا ، ولنا جميعاً .. وما عسى يحدث لها « هى » خاصة ؟ ما الكيس الذى كانت تعنيه تاتيانا حين أمرتنى أن أذهب الى آنا آندريفنا ؟ لابد أن « الكيس » اذن عند آنا آندريفنا ؟ ولماذا عند آنا آندريفنا ؟

وهُرعت الى آنا آندريفنا طبعاً . كنت تعمدت عن غضبٍ أن أقول اننى لن أذهب اليها . ثم هُرعت الآن . ولكن ما الذى قالته تاتيانا بافلوفنا عن الوثيقة ؟ أليس هو الذى قال لى أمس : « احرق الوثيقة » ؟

تلكم كانت خواطرى . ذلكم ما كان يخنقنى . ولكننى كنت فى حاجة اليه « هو » خاصة . معه يمكن أن أحل كل شىء فى طرفة عين ، يمكن أن أتفاهم ببضع كلمات : آخذ يديه ، وأشد عليهما ، وأجد فى قلبى الأقوال الحارة المناسبة . كذلك كنت أحلم . ان فى وسعى أن أنتصر على جنونه ! .. ولكن أين هو ؟ أين هو ؟ وما كان ينقصنى فى مثل تلك اللحظة الا أن ألقى لامبير ، بينما أنا فى مثل ذلك الفوران ! وكدت أصل الى البيت ، فاذا أنا أقع على لامبير فجأة . فأخذ يطلق صيحات فرح اذ رآنى . وتناول يدى .

ـ هذه هى المرة الثالثة التى أجىء اليك فيها . « أخيراً » ! هلمّ بنا نتغدى .

ـ انتظر . أنت آت من بيتى ؟ هل آندره بتروفتش هناك ؟

ـ لا ، ليس أحد هناك . دعهم جميعاً ! أنت زعلت أمس يا أحمق ! كنت سكران . هناك حديث جرى بينى وبينك . علمتُ اليوم أنباء رائعة عمّا كنا نتكلم فيه أمس ...

قاطعته أقول لاهثاً متعجلاً ، صائحاً بعض الصياح برغم ارادتى :

ـ لامبير ، لئن وقفت فاننى لم أقف الا لأقطع صلتى بك قطعاً نهائياً .
وقد قلت لك هذا بالأمس ، غير أنك تصر على أن لا تفهم . لامبير ، أنت صبى وغبى فى أن واحد ، كفرنسى . تتخيل دائما انك لا تزال عند توشار واننى لا أزال أحمق كما كنت عند توشار .. ولكننى الآن غير ما كنت عند توشار . كنت امس سكران ، ولكن سبب سكرى لم يكن الخمر بل أنى كنت مهتاجاً من قبل أن أشرب . ولئن أيدت ما كنت تقوله ،فقد كنت أتظاهر تظاهراً لأعرف تفكيرك . لقد خدعتك ، فسررت أنت وصدقتنى واستمررت فى الثرثرة . اعلم أن زواجى بها حماقة لن يصدقها تلميذ من تلاميذ الصف الاعدادى فى يوم من الأيام . هل يمكن أن يتخيل أحد أن أصدّق هذا الكلام ؟ لكنك تخيلته أنت ! مرد ذلك الى أنك لا تُستقبل فى المجتمع الراقى ، ولا تعرف ما يجرى فيه . ان الأمور لا تجرى عندهم بمثل هذه السهولة . ليست الأمور بسيطة هذه البساطة فى المجتمع العالى . ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تتزوجنى . سأقول لك بوضوح ماذا تريد أنت : تريد أن تجتذبنى فتسقينى الى أن أسكر فأسلمك الوثيقة وأشاركك فى مؤامرة حقيرة على كاترين نيقولايفنا ! اعلم اذن أنك مخطىء . لن أجىء اليك أبداً . واعلم أيضاً أن الورقة ستكون بين يديها غداً أو بعد غد ، لأن تلك الورقة ملك لها ، لأنها هى التى كتبتها ، وسأسلّمها اليها بنفسى ، فاذا أردت أن تعرف أين سأسلّمها اياها فاعلم أن ذلك سيكون فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ، وبحضور تاتيانا بافلوفنا ، صديقتها ، وأننى لن أطالب بشىء ثمناً . والآن : الى الأمام ، سر ! والا ، والا يا لامبير ، فسأكون أقل أدباً ...

قلت ذلك وأخذت أرتجف . ان أسوأ عادة لدى كل انسان وأضر عادة بكل انسان ، فى كل ظرف ، هى أن يصطنع وضع التعاظم . ما كان أغنانى عن هذا الاندفاع الحار أمامه ! ما كان أغنانى عن هذا الخطاب الذى

كنت أوقّع كلماته مترنماً وأرفع صوتي فيه أكثر فأكثر ، ثم أنهيه بذكر تلك النقطه التفصلية النافلة ، فاقول أني ساسلمها الوثيقه بنفسى فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ؟ لقد احسست فجأة برغبة قوية فى ادهاشه واذهاله ! فحين تكلمت عن الوثيقة بتلك الفظاظة فرأيت جزعاً غبياً يعتريه بغتة ، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل ! فكانت هذه الثرثرة المغرورة التى تلاحظ فى النساء سبباً فى وقوع كوارث رهيبة ، لأن هذه النقطة التفصيلية . المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا ومسكنها سرعان ما نقشت فى ذهنه الذى هو ذهن انسان حقير ورجل عملى فى الأمور الصغيرة . انه فى الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً ، أما فى هذه التفاصيل الجزئية فانه حاضر البديهة دائماً . فلو أننى لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا ، لتجنبت وقوع مصائب كثيرة . ومع ذلك فانه بعد أن أصغى الىّ بدا كمن فقد صوابه . قال مجمجماً :

ـ اسمع . آلفونسين ستغنى .. آلفونسين ذهبت « اليها » .. اسمع . عندى رسالة ، أو رسالة تقريباً ، تتحدث فيها آخماكوفا عنك .. المجدور هو الذى زوّدنى بهذه الرسالة . هل تتذكر المجدور ؟ سترى ، سترى ! هلمّ بنا !

ـ كذاب ! أرنى الرسالة !

ـ هى فى البيت ، عند آلفونسين . هيّا بنا الى البيت !

كان يكذب طبعاً ، كان يهذى ، مخافة أن أفلت منه . لكننى تركته فجأة فى وسط الشارع ، وحين همّ أن يتبعنى ، وقفت أهدّده بأصبعى . فتردد لحظةً فأتيح لى أن أختفى : لعل خطةً أخرى كانت قد نبتت فى رأسه منذ ذلك الحين . لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة الىّ . اننى حين أتذكر ذلك اليوم الحافل بالشقاء ، يبدو لى دائماً أن تلك المفاجآت واللقاءات انما كانت على موعد لتنهلّ علىّ غزيرة رهيبة . اننى

ما ان فتحت باب مسـكني حتى اصطدمت في حجرة المدخل بشاب طويل القامة له وجه بيضوى شاحب ، ومشية مهيبـة « راقيـة » ، يرتدى معطفاً رائعاً ، ويزين وجهـه بنظارة أنف . كانت له نظارة أنف . ولكنه حين رآنى خلعها (من قبيل المجاملة الأنيقة) ، وقال لى وهو يبتسـم ابتسـامة رقيقـة و'ينهض قبعته الطويلة بأدب وتهذيب ، ولـكن دون أن يقف : « آ ... مساء الخير !) (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السـلم . لقد عرف كل منا الآخـر على الفور ، رغم أننى لم أره الا مرة واحـدة سريعـة بموسكو . انه أخو آنا آندريفنا ، الحاجب بالبـلاط ، الشـاب فرسيلوف ، ابن فرسيلوف، أى أخى تقريبا، وكانت المؤجرة تصحبه مشيعة (لم يكن زوجها قد عاد من المكتب بعد) . فلما انصرف هجمت أسألها :

ـ ماذا يعمل هنا ؟ هل كان في غرفتى ؟

ـ لا ، لم يكن فى غرفتك . جاء يزورنى أنا ...

كذلك أجابتنى بلهجة قاطعـة خشنة وهى تدير ظهـرها . فهتفت أقول صارخاً :

ـ لا ، لن يمـر الأمـر هكذا . أجيبى من فضـلك ماذا جاء يعمل هنـا ؟

ـ أوه ! هل من واجبى أن أحكى لك لماذا يجىء الناس ؟ أظن أن من حقنا ، نحن أيضاً ، أن تكون لنا شئون خاصة . لعل هذا الشاب جاء يقترض مالاً ، أو جاء يسـألنى عن عنوان ، أو لعلنى وعدته فى المرة السابقة أن ...

ـ فى المرة السابقة ؟

ـ آ ... طبعاً ! فى المرة السابقة . انه لم يجىء اليوم أول مرة ! وانصرفت . أدركت أن اللهجة فى البيت تغيرت : أخذوا يغلظون لى

القول ! هذا سر جديد ! الاسرار تتراكم عند كل خطوة ، في كل ساعة ! في المرة الاولى جاء الشاب فرسيلوف مع أخته ، آنا اندريفنا ، حينما كنت مريضاً . تذكرت هذا تذكراً واضحاً . وتذكرت كذلك جملةً قصيرة مدهشة أفلتت أمس من آنا آندريفنا : وهي أن الأمير العجوز سيقف عندي . ولكن هذا كله كان يبلغ من الغرابة أنني لم أستطع أن أفهم شيئاً . فرأيتني ألطم جبيني ، وأهرع الى بيت آنا آندريفنا حتى دون أن أجلس لأستريح . ولم أجد آنا آندريفنا في بيتها ، لكن البواب السويسري أجابني بأنها « سافرت الى تسارسكويا ، وأنها لن ترجع الا غداً في مثل هذه الساعة تقريباً » .

ـ سافرت الى تسارسكويا ! ذهبت الى الأمير العجوز حتماً ، وذهب أخوها الى مسكني يفتشه ! لا ، هذا مستحيل !

وصررت بأسناني قائلاً : « اذا كان هناك تهديد حقاً ، فسوف أدافع عن « المرأة المسكينة » ! » .

ومن بيت آنا آندريفنا لم أرجع الى بيتي ، لأن رأسي الملتهب قد انبجست فيه ، على حين فجأة ، ذكرى المطعم الذي يقع تحت مستوى الأرض ، والذي اعتاد آندره بتروفتش أن يذهب اليه في ساعات حزنه . فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً ، وهرعت الى المطعم فوراً . كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة ، وكان المساء يهبط . قيل لي في المطعم انه جاء ، « فلبث لحظةً ثم انصرف ، وقد يعود » . فقررت فجأة ، بكل ما أملك من طاقة ، أن أنتظره ، فأمرت لنفسي بغداء . هناك أمل على الأقل !

وتغديت بل ظللت آكل طبقاً بعد طبق حتى يحق لي البقاء أطول مدة . أظن أنني مكثت زهاء أربع ساعات . لا أصف حزني ، وتلهفي

المحمـــوم . لقد كان كل شيء في يهتز ويرتعش . ان هـذا الأرغن البرباري ، وهؤلاء الشاربين ، وهذا الضجر ، ان هذا كله قد نُقش في نفسي ، ولعله نُقش فيها الى الأبد ! لا ولا أصف الأفكار التي كانت تعلو في رأسي كغمامة من أوراق أشجار يابسة في فصل الخريف بعد اعصار . كان في رأسي شيء من هـذا القبيل حقـاً ، وكنت في بعض اللحظـات أحس بأن عقلي قد بارحني فعلاً . أعترف بهذا .

غير أن ما كان يعذبني خاصـة (عدا عذابي الرئيسي طبعاً) انما هو ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً في يوم من الأيام .. كانت هذه الذكرى كذبابة سـامة من ذباب الخريف تدور ، وتئز ، وتصمت ، وتحـاصر ، ثم تلسع لسعاً موجعاً على حين فجأة . فاليكم حكاية هذه الذكرى ، لأنها ، هي أيضاً ، يجب أن تُروى في موضع ما من هذه القصة .

٤

حينما كنت بموسكو فتقرر أن أسافر الى بطرسبرج ، أبلغنى نيقولا سيمونوفتش أن هنـاك مالاً سيصلنى من بطرسبرج نفقات للسفر لم أسال من الذى سيرسل الىّ المال ، اذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذى سيرسله • وكنت فى ذلك الحين أحلم بلقائى مع فرسيلوف ليلاً ونهاراً ، خافقَ القلب طموحَ المشـاريع ، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث فى هذا الأمر حتى الى ماريا ايفانوفنا • يجب أن أذكّر من جهة أخرى أننى كنت أملك مالاً أنفقـه على الرحلة • ولكننى قررت رغـم كل شىء أن أنتظر ! وكنت أقدر أن المال سيصلنى بالبريد •

ولكن ها هو ذا نيقولا سيمونوفتش يعود الى البيت ذات يوم فيبلغنى (باختصار ، على عادته ، وبدون الحاح) أن علىّ أن أذهب غداً الى بيت الأمير فـ ••• سكى بشارع مياسنتسكايا ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، فهناك سيسلمنى حاجب البلاط ، فرسيلوف ، ابن آندره بتروفتش، الذى وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقـه فى المدرسة الثانوية ، الأمير فـ ••• سكى ، هناك سيسلمنى المبلغ المرسل الىّ نفقاتٍ للرحلة • بدت لى المسألة بسيطة غاية البساطة : فمن الجائز جداً أن يكون آندره بتروفتش قد عهد بهذه المهمة الى ابنه ، بدلاً من ارسال المبلغ بالبريد • ومع ذلك فان هذا النبأ قد أمسك بخناقى وأخافنى اخافة غير طبيعية • لاشك فى أن

فرسيلوف قد أراد أن يعرفني بابنه ، الذى هو أخى . كذلك تصورت نيات الرجل الذى كنت أحلم به ، وتصورت عواطفه . ولكن سؤالاً ضخما قد انتصب أمامى : كيف أتصرف وكيف يجب أن أتصرف فى هذا اللقاء الذى لم أتوقعه البتة ، وهلاّ يجرح هذا اللقاء كرامتى ؟

وفى الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد ، دخلت بيت الأمير فـ ... سكى . هو شقة عازب . ولكنه بدا لى فاخر الأثاث . وكان فيه خدم بالملابس الرسمية . وقفت فى حجرة المدخل . فكانت تصل الىّ من الداخل اصوات حديث حار وضحكات . ان لدى الامير فـ ... سكى ضيوفا آخرين غير حاجب البلاط . ذكرت للخادم اسمى وطلبت منه أن يبلغ عن وصولى . وأغلب الظن أنى فعلت ذلك بشىء من الخيلاء . المهم أننى لاحظت أن الخادم حين انصرف عنى قد نظر الىّ نظرة غريبة ، بل انه لم يولنى حقى من الاحترام فيما بدا لى . وما كان أشد دهشتى حين رأيته يغيب مدة طويلة ، زهاء خمس دقائق ، كنت أسمع خلالها رنين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها !

وقد انتظرت واقفاً بطبيعة الحال ، لأننى ، وأنا « سيد مثله » ، لا يليق بى بل يستحيل علىّ أن أجلس فى حجرة المدخل التى يرابط فيها الخدم . وجهة أخرى لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسى ، بدون دعوة خاصة ، فأدخل الصالون ، فذلك لا يتفق وكبريائى . لعلها كانت كبرياء مغالية ، ولكن هذا ما كان ! وقد أدهشنى أن أرى الخدم الذين بقوا (وعددهم اثنان) يسمحون لأنفسهم أن يجلسوا بحضورى . فأشحت عنهم متظاهراً بأننى لم أر ذلك منهم ، ولكن أخذ جسمى كله يرتجف . ثم التفت فجأة ، ودنوت من أحد الخادمين « فأمرته » بأن يمضى يبلغ عنى مرةً أخرى على الفور . ولكن الخادم ، رغم قسوة نظرتى وشدة اهتياجى ، نظر الىّ فى كسل دون أن ينهض ، وأجابنى الآخر نيابة عنه :

ـ تم الابلاغ عن وصولك . اطمئن !

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة ، واحدة فقط ، أو أقلّ من ذلك ، ثم « أنصرف » . لقد كانت ثيابى حسنة : فبدلتى جديدة ، ومعطفى جديد ، وقميصى نضر كل النضارة عنيت به ماريا ايفانوفنا عنايةً خاصة لهذا اللقاء . ولكن الخدم ، كما علمت بعد مدة طويلة ، ببطرسبرج ، من « مصدر موثوق به » ، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف ، أنه سيجىء الى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً . الآن أعرف هذا معرفة اليقين .

انقضت الدقيقة . ان ذلك الاحساس الذى يحسه المرء حين يريد أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك : « أأمضى أم لا ؟ أأنصرف أم لا ؟ » ، كنت أحسه فى كل ثانية من الثوانى وأنا أكاد أرتعش . وفجأة رجع الخادم الذى ذهب يبلغ عن وصولى . كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء ، أى أربعين روبلاً . فقال لى :

ـ خذ . اليك هذه الأربعين روبلاً !

غلى دمى وفار . يالها من اهانة ! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذى هيأه فرسيلوف للأخوين ، لبثت أحلم به طوال الليل . وطوال الليل ظللت أتساءل محموماً : كيف يجب أن يكون سلوكى حتى لا أخفض قدر نفسى ، وحتى لا أسىء الى ذلك الصرح كله من الأفكار الذى بنيته فى عزلتى وأستطيع أن أعتز وأن أفخر به فى أية بيئة . كنت أقول لنفسى : سأظهر نبلاً ، وكبرياء ، وقد أظهر شيئاً من الحزن والأسى أيضاً ، بل قد أظهر قدراً من الخشونة والجفوة حتى فى صحبة الأمير فـ ..سكى ، فبذلك أدخل هذا المجتمع دخولاً مهيباً . آه ... لا أحب أن أدارى نفسى ، فعلى هذا النحو انما يجب أن تُسجَّل هذه التفاصيل الأليمة كلها ! وفجأة : أربعون روبلاً ، تُرسل الىّ مع خادم ، الى حجرة المدخل ، بعد

انتظار دام عشر دقائق ، ويقدّمها الىّ الخادم رأساً ، بيده ، بأصابعه ، لا موضوعة على صحن ، ولا مودعة فى ظرف ! ...

صرخت فى وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع القهقرى ، وأمرته بأن يعيد المال الى سيده حالاً « ليحمله سيده الىّ بنفسه ! » أى اننى طلبت طلباً لاشك أنه كان فى نظر الخادم غير معقول ولا مفهوم . ولكن صراخى قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر . هذا عدا أن صرخاتى سُمعت فى الصالون ، فسرعان ما توقفت أصوات الأحاديث والضحك فوراً .

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة ، ثم اذا أنا أرى قامة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لى يومئذ أشد شحوباً ونحولاً منه فى هذا اللقاء الثانى) تظهر فى العتبة أو قل تقف على مسافة بضعة سنتمترات من العتبة . كان يرتدى ثوباً للمنزل رائعاً مصنوعاً من حرير أحمر ، وينتعل بابوجين ويضع على عينيه نظارة أنف . وها هو ذا يتفرس فىّ من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة ، فتقدمت منه خطوةً ، كوحش كاسر ، ووقفت أمامه متحدياً ، أحدّق اليه بنظرة ثابتة . ولكنه لم يتأملنى هذا التأمل الا برهة قصيرة لا تزيد على عشر ثوان ، ثم اذا بسخرية خفيفة لا تكاد تُرى تظهر على شفتيه ، ولكنها مع ذلك سخرية جارحة جداً ، جارحة لأنها لاتكاد تُرى . ثم ها هو ذا يدور على كعبيه ، ثم يرجع الى حيث كان ، دون تعجل ، بل بهدوء ورفق وخطى موزونة كما جاء . آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون اهانة الناس منذ طفولتهم ، فى أسرتهم ، من أمهاتهم ! وقد فقدت حضور بديهتى طبعاً . آه ... لماذا فقدتها ؟

وفى تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الخادم نفسه حاملاً بيديه تلك الورقات نفسها ، وقال :

ـ تفضل بقبولها • انها مرسلة من بطرسبرج • لا يمكن استقبالك • « ربما استقبلك « السيد » في مرة أخـرى ، حين يـكون لديه متسع من الوقت أكبر » •

أحسست أن الكلمـات الأخيرة قد أضافهـا هو • ولكن اضطرابى استمر فى اضعاف نفسى • فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب • فبسبب ذلك الاضـطراب انما أخـذت المـال ، وكان ينبغى فى الواقع أن أرفضه • ولم يفت الخادم ، من أجل اهانتى طبعاً ، أن يغضب غضبة جديرة بخادم حقـاً فأسرع يفتح البـاب أمامى واسعاً ، حتى اذا مررت قال بوقار ولهجة خاصة :

ـ تفضل !

فزأرت أقول وأنا أرفع يدى ولكن دون أن أهوى بها :

ـ أنت وغد • وسيدك وغد آخر ، فقل له هذا فوراً •

أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلم مسرعاً •

ـ لا يحق لك ! ولو نقلت كلامك الى « السـيد » فوراً ، لاستطاع « السيد » أن يرسلك الى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه • أما تهديدى أنا ، فلا يحق لك •••

هبطت السلم • انه سلم مترف عريض مكشوف • فيمكن أن أُرى من أعلى نازلاً على السـجادة الحمراء • فكان الخدم الثـلاثة قد خرجوا واتكئوا بأكواعهم على قمة الدربزين ينظرون الى انسحابى • وقد قررت أن ألزم الصمت طبعاً : كيف أشاجر خدماً ؟ ووصلت الى تحت ، دون أن أتعجل الخطى ، وانما أتعمد البطء فيما أظن •

رب حكماء (شطان يأخذهم !) يقولون ان هذا كله حساسية لا داعى

اليها ، وتأذ في غير محله ، وحنق لا يصدر الا عن أغرار ! قد يكون هذا الكلام صحيحا . غير أن الأمـر كان بالنسبة الىّ جرحاً عميقاً ، جرحـاً لم يمكن ان يندمـل حتى الآن ، حتى في هذه اللحظة التي أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء ، بل انتقـم لكل شيء . يمينـاً يمينـاً ما أنا بالحقود ولا بمن يتحرق الى الانتقام . صحيح أنني أشتهي دائماً ، الى حد التألم ، أن أنتقم ممن ينالني باهانة . ولكنني أحلف لكم أنني بالسـماحه أنتقم . انني أرد على الاهانة رداً فيه سماحه ، فيكفيني أن يشعر المسيء وأن يدرك أنني كنت سمحاً كريماً ، حتى أحس أنني انتقمت منه . يجب أن أضيف في هذه المناسـبة أنني لا أتحـرق الى الانتقام ، ولكنني حقود وان أكن سـمحاً كريماً : هل يشبهني في هـذا جميع الناس ؟ لقد وصلت الى بيت الأمير فـ .. سكي فيّاض النفس بعواطف كريمـة .. قد تكون عواطف مضحكة .. لا مانع .. ولكن لأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة ، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءة ووضاعة !

لم أحدث أحـداً عن هذا اللقاء الذى تمّ بيني وبين « أخي » ، ولم أكاشف به حتى ماريا ايفانوفنا ، ولم أبح بسرّه حتى لليزا حين جئت الى بطرسبرج . كان ذلك اللقاء بمثابة صفعة أليمة جللتني بالخزى والعار . ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد في ظروف يا لها من ظروف عجيبة ! وها هو ذا يبتسم لى ، ويرفع قبعته احتراماً ، وينزع حتى نظارته تودداً ، ويقول لى فجأة بلهجة فيها صداقة : « مساء الخير » (بالفرنسية) . ان هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً ... ولكن الجرح انتكأ ونزف !

٥

بعد الانتظار فى المطعم مدةً تزيد على أربع ساعات وجدتنى كمن أصابته نوبة على حين فجـأة ، فاذا أنا أخـرج واتجه مسرعاً الى بيت فرسيلوف • انه لم يرجع الى البيت • وكانت الخادمة سأمانة ، فرجتنى أن أرسل اليها داريا أونيسيموفنا بسرعة• هه! هذا ماكان يشغل بالى! وذهبت الى بيت ماما أيضـاً ، ولكننى لم أدخـل ، وانما استدعيت لوكيريا الى الدهليز ، فعلمت منهـا أنه لم يجىء ، وأن ليزا غابت • ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألنى أيضاً ، بل لعلها ودَّت لو تعهد الىَّ بمهمة ، ولكن هل كان يمكننى أن أصغى اليها ؟ هنـــاك أمـل أخير : لعله ذهب الى بيتى • ولكننى لم أصدِّق أن يكون قد ذهب الى بيتى !

سبق أن قلت ان عقلى كان اضطرب واختل تقريباً • وهأنذا أجد فى غرفتى : آلفونسين والمؤجر • بل قل اننى وجدتهما يخرجان من غرفتى • وكان بطرس هيبوليتوفتش يحمل شمعة •

صرخت أقول له :

ـ ما هذا ؟ كيف تجاسرت أن تُدخل الى غرفتى هذه التافهة ؟

فهتفت آلفونسين تقول بالفرنسية :

ـ « غريب ••• والأصدقاء ؟ » •

فزأرت قائلاً :

ـ اخرجى من هنا •

ـ « دب حقاً » •

وفرت الى الممـر متظاهرةً بالخوف ، واختفت فى غـرفة صاحبـه البيت • واقترب منى بطـرس هيبوليتوفتش بهيئة قاسـية وهو يحمل شمعدانه :

ـ اسمح لى أن ألفت نظـرك يا آركادى ماكاروفتش الى أنك قد أسرفت فى الاندفاع • ومهما يـكن احترامنا لك ، فاننـا لا يسعنا الا أن نذكّرك بأن مدموازيل آلفونسين لا توصف بالتافهة • بالعكس ! انها لم تجىء لتزورك أنت بل لتزور زوجتى • لقد تعارفتا منذ بعض الوقت •

فكررت سـؤالى وأنا أمسـك رأسى الذى أصـابه ما يشبه الصداع فجـأة :

ـ ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتى ؟

ـ مصادفة ! •• دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التى كنت قد فتحتها لتهوية الغرفة ، واذ كنا مستمرين فى الحديث الذى بدأناه أنا وآلفونسين كارلوفنا ، فقد دخلت الغرفة معى متابعةً كلامها ، دون أن تشعر •

ـ هذا كذب • آلفونسين جاسوسة • ولامبير جاسوس • وربما كنت أنت أيضاً جاسوساً • لقد جاءت لتسرق شيئاً •

ـ قل ما شئت • اليوم تقول شـيئاً ، وغدا تقول شيئاً آخر • أريد أن أبلغك أننى أجرت مسـكنى الشخصى ، أجـرته الى حين ، وسنقيم أنا وامرأتى فى حجـرة المكتب • ويترتب على هذا أن آلفونسين كارلوفنا هى الآن من سكان البيت تقريباً ، مثلك •

هتفت أسأله مرتاعاً :

ـ أجرت مسكنك للامبير ؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التى لاحت فى وجهه عند الصباح ولكن فيها الآن ثباتاً لم يكن لها حينذاك ، وقال :

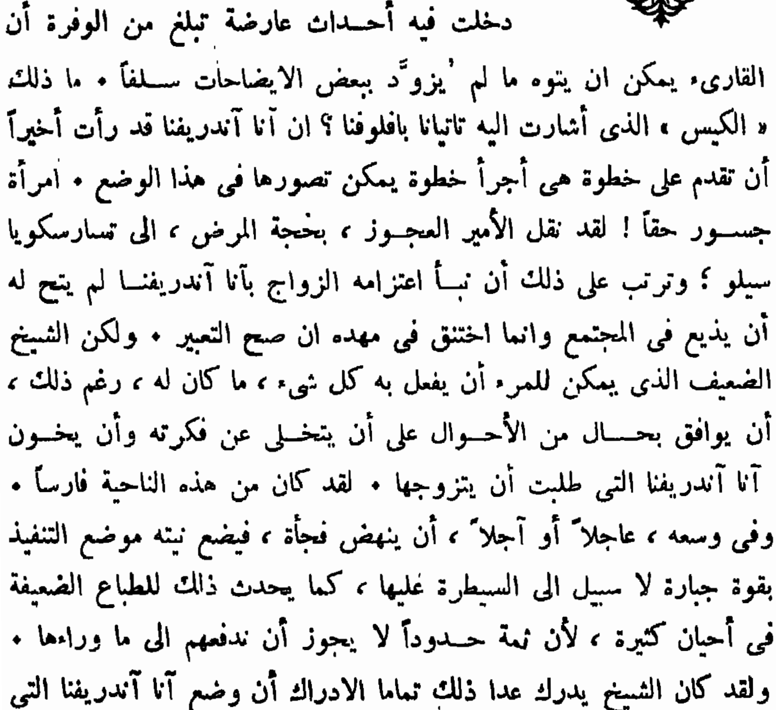
ـ لا ، لم أؤجره للامبير • أظن أنك تعرف لمن أجرته ، وانما أنت تتظاهر بالجهل تفكهاً وتسلية ! واذا غضبت فمن باب التقيد بالشكل • ليلتك سعيدة •

ـ نعم ، نعم ، دعنى هادئاً •

وحركت يدىّ متململاً ، وكدت أبكى من شدة ضيقى ، فلم يسعه الا أن يدهش وهو ينظر الىّ • ولكنه خرج • فدفعت المزلاج ، وتهالكت على سريرى ، ودفنت وجهى فى الوسادة • كذلك انقضى ذلك اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشئومة التى تختم مذكراتى •

الفصل العاشر

١



ولكنني سأستبق الأحداث مرةً أخرى . انى أرى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القارىء ببعض المعلومات ، لأن المجرى الأساسى لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن القارىء يمكن ان يتوه ما لم يُزوَّد ببعض الايضاحات سلفاً . ما ذلك « الكيس » الذى أشارت اليه تاتيانا بافلوفنا ؟ ان آنا آندريفنا قد رأت أخيراً أن تقدم على خطوة هى أجرأ خطوة يمكن تصورها فى هذا الوضع . امرأة جسور حقاً ! لقد نقل الأمير العجوز ، بحجة المرض ، الى تسارسكويا سيلو ؛ وترتب على ذلك أن نبأ اعتزامه الزواج بآنا آندريفنا لم يتح له أن يذيع فى المجتمع وانما اختنق فى مهده ان صح التعبير . ولكن الشيخ الضعيف الذى يمكن للمرء أن يفعل به كل شىء ، ما كان له ، رغم ذلك ، أن يوافق بحال من الأحوال على أن يتخلى عن فكرته وأن يخون آنا آندريفنا التى طلبت أن يتزوجها . لقد كان من هذه الناحية فارساً . وفى وسعه ، عاجلاً أو آجلاً ، أن ينهض فجأة ، فيضع نيته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل الى السيطرة عليها ، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة فى أحيان كثيرة ، لأن ثمة حدوداً لا يجوز أن ندفعهم الى ما وراءها . ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماما الادراك أن وضع آنا آندريفنا التى يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج ، كما يدرك أيضاً أن هناك نمائم يمكن أن تذاع ، وسخريات يمكن أن تنطلق ، وشائعات أن تروج . والشىء

الذى كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كاترين نيقولايفنا لم تسمح لنفسها أبداً ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ، أن تقول أمامه أى رأى سىء فى آنا آندريفنا ، ولا أن تبدى أى اعتراض على اعتزامه الزواج بها • بالعكس : كانت تبدى فرحاً كبيراً ، وكانت تحيط خطيبة أبيها باكبر الرعاية وأعظم الاهتمام • وهكذا كانت آنا آندريفنا فى موقف دقيق غاية الدقة ، فهى بما تملكه من رهافة الحس ، تدرك أنها اذا قامت بأى هجوم على كاترين نيقولايفنا التى يحبها الأمير أعظم الحب أيضاً ، ويحبها اليوم أكثر مما أحبها فى أى يوم ، لاسيما وأنها سمحت له بالزواج مبرهنةً على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام ، فانها ستجرح أرق مشاعرها ، وستجعلها تشك فيها بل تستاء منها • على هذا الميدان اذن انما كان يقوم القتال الآن : فالخصمان ـ أى آنا ندريفنا و كاترين نيقولايفنا ـ انما يحاربان بسلاح المجاملة والصبر • والأمير ، من جهته ، لا يدرى أى المرأتين أروع من الأخرى وأدعى الى الاعجاب ! وعلى عادة جميع الرجال الضعاف ، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقة ، انتهى به الأمر الى التألم واتهام نفسه بكل شىء • ويقال ان كآبته قد وصلت الى حد المرض ، وان أعصابه تهدمت ، فبدلاً من أن يجد فى تسارسكويا الشفاء ، أوشك أن يلزم فيها الفراش فيما قيل •

أحب أن أشير هنا ، مستطرداً ، الى شىء لم أعلم به الا بعد مدة طويلة ، هو أن بيورنج ، فيما يقال ، قد اقترح على كاترين نيقولايفنا أن يقتادا العجوز الى الخارج ، بعد أن يهيئاه لذلك بحيلة من الحيل ، ثم يكون من السهل عليهما هناك ، فى الخارج ، أن يحصلا على شهادة من أطباء • ولكن هذا ما لا تقبله كاترين نيقولايفنا بحال من الأحوال • أو ذلك ما قيل فيما بعد ، حتى ليقال انها رفضت الاقتراح مستاءة • وتلك شائعة بعيد عهدها ، لكننى أصدّقها •

فلما صارت القضية الى هذا الطريق المسدود ، علمت آنا آندريفنا من لامير ان هناك رسالة تسأل فيها البنت أحد رجال القانون عن وسيلة يمكن أن تعمد اليها لاعلان أن أباها مجنون . فاذا بروحها المتكبرة الانتقامية تهتاج أشد الاهتياج على حين فجأة . وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها من أحاديث ، وقرّبت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث الصغيرة فلم يخامرك شك فى أن هذا النبأ صحيح .فاذا بخطة للهجوم تنضج فى قلبها ، قلب المرأة الصلبة التى لا تلين ، واذا هى تجد نفسها مدفوعة الى تنفيذ هذه الخطة دفعاً لا سبيل الى مقاومته . وكانت الخطة هى أن تكشف للأمير فجأة، بدون مداراة ومراءاة ، وبدون لف ودوران عن القصة كلها ، فترعبه وتهزه هزاً قوياً ، وتبيّن له أن مستشفى المجانين ينتظره حتماً . فاذا عند واستاء ورفض أن يصدّق ، كشفت له عن قصة رسالة ابنته قائلةً له : « ان نية اعلان أنك مجنون قد سبق أن وُجدت فى الماضى ، فكيف لا توجد الآن من باب أولى لمنعك من الزواج ! » . وبعد ذلك تنقل الشيخ العجوز الى بطرسبرج مروّعاً مهدّماً مقتولاً ، وتجىء به الى « بيتى أنا رأساً » .

هذه مجازفة رهيبة . ولكن آنا آندريفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً ثابتاً لا يتزعزع . ويجب أن أقول هنا ، مبتعداً عن الموضوع لحظةً ، ومستبقاً الأحداث استباقاً كبيراً ، ان ظنها لم يخطىء كثيراً فيما يتعلق بقوة هذه الضربة . فان هذا النبأ كان له من التأثير فى الأمير الشيخ أكثر مما تصورت هى وتصورنا نحن أن يكون له من تأثير . ولم أكن علمت أبداً الى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامى الى سمعه شىء عن تلك الوثيقة ، ولكنه ، على ما هو معهود فى جميع الرجال الضعاف الهيابين ، لم يصدّق تلك الشائعة بل دفعها عنه بكل ما يملك من قوة ، حفاظاً على هدوئه وطمأنينته . ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر فى

كاترين نيقولايفنا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك ! ... الخلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطر شأناً مما كنت أظن أنا الذى كنت أحملها مخيطةً فى جيبى . ولكننى أرى أننى أسرف فى استباق الأحداث .

رب سائل يسأل : ولكن لماذا تجيء به الى بيتى رأساً ؟ لماذا تنقل الأمير الى غرفنا البائسة فترعبه فى هذا الجو التعيس ؟ اذا كان نقله الى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن يُحبط المشروع كله هناك) ، فلماذا لا تهيىء له مسكناً « ثرياً » كما كان يقترح لامبير ؟ هنا تكمن كل مجازفة الخطوة الخارقة التى قامت بها آنا آندريفنا !

كان الأمر الأساسى هو أن تطلع الأمير على الوثيقة منذ يصل . وكنت أنا لا أسلّم الوثيقة بحال من الأحوال . ولأن على آنا آندريفنا ألا تضيع شيئاً من الوقت ، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً ، فقد قررت أن تشرع فى تنفيذ الخطة قبل أن تملك الوثيقة ، على أن تجيء بالأمير الى بيتى رأساً . لماذا ؟ لكى تنقض علىّ أنا أيضاً ، فتقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل . كانت تريد أن تعمد الى أسلوب الصدمة والهزة والمباغتة معى أنا أيضاً . كانت تقدّر أننى متى رأيت الشيخ فى بيتى ، ورأيت ارتياعه وحزنه ، وسمعت رجاءه ورجاءها ، فقد أستسلم فأظهر الوثيقة . يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذقاً وذكياً ، وكان يقوم على معرفة بالنفس الانسانية ، واذا لم يكن قد نجح فقد أوشك . أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأيمان تحلفها ، وأعلنت له أنها ستمضى به الى « بيتى أنا » . ذلك كله قد عرفته فيما بعد . ان مجرد ابلاغه أن الوثيقة عندى قد أزال من قلبه الوجل آخر شكوكه فى صحة الواقعة : فالى هذا الحد كان يحبنى ويحترمنى !

يجب أن أذكر أيضاً أن آنا آندريفنا نفسها لم تشك لحظة واحدة

فى أن الوثيقة لا تزال عندى ، وأننى لم أتخلص منها بعد • والحق أنها قد أساءت فهم طبعى ، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتى وبراءتى وبساطتى، وحتى على فرط حساسيتى، وقد قدرت من جهة أخرى أننى اذا قررت أن أسلِّم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا مثلاً ، فلابد أن يكون هذا التسليم فى ظروف خاصة ، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها ، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة •

ثم أن لامبير قد طمأنها عن هذا كله • سبق أن قلت ان وضع لامبير كان فى ذلك الحين حرجاً غاية الحرج ، دقيقاً أشد الدقة : لقد كان ، هو الخائن ، يريد أن يصرفنى عن آنا آندريفنا ، ويحملنى على بيع الوثيقة لآخماكوفا بالاتفاق معه ، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر • لكنه وقد لاحظ أننى ظللت أرفض الى آخر لحظة أن أسلم شيئاً بحال من الأحوال ، قرر أن يساعد حتى آنا آندريفنا من أجل ألا يفقد أى ربح • لذلك أخذ يستميت فى تقديم خدماته لها ، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجيئها بكاهن عند اللزوم ••• ولكن آنا آندريفنا ابتسمت له ابتسامة احتقار ، ورجته أن يخفف من قوة حماسته ونشاطه • كان لامبير يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً ، ولا يوقظ فى نفسها الا اشمئزازاً وتقززاً • لكنها قبلت خدماته على سبيل الحكمة والروية والحذر • وكانت هذه الخدمات هى أن يتجسس لها مثلاً ! يجب أن أقول فى هذه المناسبة اننى لا أدرى حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بطرس هيبوليتوفتش أم لا ، وهل قبض منهم أى شىء ثمناً لخدماته أم هو دخل شركتهم ببساطة من باب حب المغامرة • ولكنه كان يتجسس علىَّ • أما امرأته فأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس •

سيدرك القارىء الآن أننى ، رغم تحسبى قليلاً ، لم يكن فى وسعى أن أحزر أنى سأجد الأمير العجوز فى بيتى غداً أو بعد غد • اننى ما كان

لى أن افترض لدى آنا آندريفنا جسارة كهذه الجسارة ! ان المرء يستطيع أن يقول بالكلام ما يريد ، وأن يشير بالكلام الى أى شىء . أما أن يقرر ، ويشرع ، وينفذ ... فهذا يحتاج الى طبع خاص وشكيمة قوية !

٢

أتابع :

استيقظت في الغداة ضحى . لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام . فلما أفقت أحسست براحــة كبيرة في جسمي ونفسي على السواء ، حتى لكأن الأمس لم يوجــد . قررت ألا أذهب الى بيت ماما ، وانما أمضي الى كنيسة المقبرة رأســاً . حتى اذا انتهت الجنــازة رجعت الى أمي فلم أتركها النهار كله . وكنت واثقاً ثقة تامة بأنني سألقاه عند ماما على كل حال ، في ساعة متقدمة أو في ساعة متأخرة من النهار ، ولكنني سألقاه .

لم يكن في البيت لا آلفونسين ولا المؤجر . لقد خرجا منذ وقت غير قصير . ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر ، وكنت قد قررت على كل حال أن أقطع جميع صلاتي بهم ، وأن أترك هذا البيت في أقرب وقت . لذلك ما ان أُتيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسي الباب . ولكن الباب لم يلبث أن قُرع . فدهشت . وكان القارع تريشاروف .

فتحت له فوراً ، ودعوته أن يدخـــل وسرني أن أراه . ولكنــه رفض أن يدخل وقال :

ــ كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على العتبة ... أم الأفضل أن أدخل ؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً . ولكنني لن أجلس . أراك تنظر الى معطفي الرديء . لقد استرد لامبير مني المعطف .

كان يرتدى معطفاً عتيقاً بالياً طويلاً على قامته فعلاً . وقد وقف أمامى متسمراً ، متجهم الوجه مهموماً ، واضعاً يديه في جيبه ، دون أن يخلع قبعته :

ـ لن أجلس ! لن أجلس ! اسمع يا دولجوروكى ! لا أعرف تفاصيل . لكنى أعرف أن لامبير يدبر لك مكيدة ، وهذه المكيدة قريبة توشك أن تتم حتماً . أعلم هذا علم اليقين . فكن يقظاً . ان المجدور هو الذى زلّ لسانه فألمع الى هذا الأمر . هل تتذكر المجدور ؟ انه لم يذكر لى نوع المكيدة ، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت . أنا لم أجىء اليك الا لأنبهك . الى اللقاء !

ـ ولكن هلاّ جلست يا عزيزى تريشاتوف ؟ صحيح أننى على عجلة من أمرى ، ولكن يسعدنى أن أراك ...

ـ لا ، لا ، لن أجلس . ولكننى سأتذكر طول حياتى أنك أحسنت استقبالى . آه يا دولجوروكى ؟ لماذا خداع الناس ؟ انى قد ارتضيت لنفسى عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات ، وأن أقوم بأعمال تبلغ من الدناءة أننى أستحى أن أسميها لك . نحن الآن نعمل مع المجدور ... استودعك الله ... اننى لا أستحق أن أجلس عندك .

ـ كفى يا تريشاتوف ، يا عزيزى ..

ـ لا يا دولجوروكى ... أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسخة ، وسألهو بعد ذلك وأقصف . وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفى السابق أيضاً ... وسأمضى أتنزه راكباً عربة . ولكنى سأظل أعرف بينى وبين نفسى أننى خجلت أن أجلس عندك لاعتقادى بأننى لا أستحق ذلك ، وبأننى أمامك دنىء سافل . سوف أحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل ، حين أمضى أتبذل فى القصف واللهو بحقارة ونذالة . استودعك الله .

هيّا . استودعك الله . لن أناولك يدى أيضاً . ان آلفونسين لا ترضى أن تصافحنى . وأرجوك ألا تسعى الى ، وألا تحـاول رؤيتى . هذا شرط بيننا .

واسـتدار الفتى العجيب على كعبيه ومضى . ليس يتسع وقتى الآن للبحث عنـه ، ولكننى قطعت على نفسى عهداً لأكتشفن مكانه بأقصى سرعة مهما كلف الأمر ، متى فرغت من تدبير أمورى وحل مشاكلى .

لن أصف وقائع ذلك الصباح تفصيلاً ، رغم أن هناك ذكريات كثيرة ينبغى حفظها . لم يجىء فرسيلوف الى الكنيسـة . حتى لقد كان يمكن للمرء أن يستنتج من النظـر الى وجوههـم أنهم كانوا ، حتى قبل حمل الجثمان ، لا يتوقعون أن يجىء الى الكنيسة . وقد صلّت أمى بحرارة ، بل كانت غارقة فى صلاتها غرقاً كاملاً . ولم يكن أحـد بجانب الجثمان الا تاتيانا بافلوفنـا وليزا . لكننى لا أصف ، لا أصف شيئاً . بعد الدفن ، عاد الجميع الى البيت ، وجلسـوا الى المائدة . فاستنتجت مرة أخـرى من النظر الى وجوههن أنهن كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً . حتى اذا نهضنا ، اقتربت من ماما ، وقبّلتها بحرارة ، وتمنيت لها عيداً سعيداً ؛ واقتدت بى ليزا ، ففعلت مثلى .

وهمست تقول خفية :

ـ اسمع يا أخى ، انهن ينتظرنه .

ـ أدركت هذا يا ليزا ، رأيته .

ـ سيأتى حتماً .

قلت لنفسى : لابد أن لديهن معلومات دقيقـة . لكننى لم أسأل . رغم اننى لا أصف عواطفى ، يجب أن أذكر أن هذا اللغز قد جثم ثقيلاً على قلبى ، رغم كل ما كنت فيـه من حسن المزاج . جلسـنا جميعاً فى

الصالون ، الى المائدة المستديرة ، حول ماما . آه .. ما كان أعظم سعادتي بوجودي معها ونظري اليها ! وطلبت مني ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الانجيل . فقرأت لها اصحاحاً من انجيل القديس لوقا . لم تكن تبكي ، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن ، ولكن وجهها لم يكن روحانياً في يوم من الأيام بمقدار ما هو روحاني في هذا اليوم . وكانت تسطع في نظرتها اللطيفة فكرة ، ولكن لم يكن في هذه النظرة أي شيء من نفاد الصبر في انتظار أمر من الأمور . وجرت الأحاديث ثرةً لاينضب لها معين . قيلت ذكريات كثيرة عن المتوفى . وذكرت عنه تاتيانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها الى ذلك الحين كل الجهل . فلو سجلت مادار في ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً . حتى تاتيانا بافلوفنا تغيرت حالها : فهي الآن رقيقة جداً ، ملاطفة جداً ، بل هي هادئة جداً ، رغم أنها تكلمت كثيراً لتسلّي ماما . لكن هناك أمراً تفصيلياً أتذكره تذكراً واضحاً : كانت ماما جالسةً على الديوان ، وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورةٌ يبدو أنها وُضعت هنالك عمداً ، وهي أيقونة قديمة بدون مسند من معدن ، تمثل قديسين فوق رأسيهما هالتان . ان هذه الأيقونة كانت لماكار ايفانوفتش : كنت أعلم ذلك ، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لايفارقها أبداً وكان يعدها ذات معجزات .

نظرت تاتيانا بافلوفنا الى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأةً وهي تغيرً موضوع الحديث :

ـ اسمعي يا صونيا ، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندةً الى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة ؟

قالت :

ـ بل هي على هذا الوضع أحسن .

ـ حقاً . والا كنا نسرف في الاحتفال ...

لم أفهم حينئذ شيئاً ، ولكن واقع الأمر أن ماكار ايفانوفتش قد أعلن جهاراً منذ مدة طويلة أنه يورث آندره بتروفتش هذه الصورة ، فكانت ماما تستعد لتسليمها اليه •

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل • وطال الحديث • فاذا أنا ألاحظ فى وجه ماما نوعاً من الارتعاش ، واذا هى تنصب جذعها بسرعة وتصيخ بسمعها على حين كانت تاتيانا بافلوفنا مستمرةً فى كلامها لم تلاحظ شيئاً • فأسرعتُ التفتُ الى جهة الباب ، فما انقضت لحظة حتى رأيت آندره بتروفتش فى العتبة • انه لم يسلك طريق درج المدخل ، وانما جاء من جهة سلم الخدم ، فمرّ بالمطبخ فالدهليز ، وكانت أمى وحدها هى التى سمعت وقع خطاه • سأصف الآن كل مشهد الجنون الذى أعقب ذلك ، حركةً حركة ، وكلمةً كلمة •

فى البداية ، لم ألاحظ على وجهه ، من أول نظرة على الأقل ، أىّ تغير • كان هندامه هو هندامه المألوف ، أى هنداماً اقرب الى الأناقة • وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة ، باقةً صغيرة لكنها ثمينة • وقد اقترب من ماما ومدّ اليها الباقة مبتسماً فنظرت اليه ماما بدهشة وجلة ، لكنها قبلت الباقة ، ثم اذا بحمرة تنعش خديها الشاحبين فجأة ، واذا بفرح يسطع فى عينيها •

قال :

ــ كنت أعرف أنك ستستقبليننى هذا الاستقبال يا صونيا •

واذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة ، فجلس على المقعد الذى كانت تجلس عليه ليزا ، والذى يقع على يسار ماما ، دون أن ينتبه الى أنه يأخذ مكان شخص آخر • وهكذا كان موقعه بجانب المنضدة التى كانت عليها الأيقونة •

ـ سلام على الجميع • يا صونيا ، لقد أصررت اصراراً مطلقاً على أن أحمل اليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك • ولئن لم أجيء الى الجنازة ، فلكى لا أظهر أمام ميت بباقة أزهار • لكننى أعلم أنك كنت لا تنتظـرين مجيئى الى الجنازة • ولن يحقد علىّ الشيخ لأننى جئت بأزهار ، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح ؟ أعتقد أنه الآن فى مكان ما بهذه الغرفة •

نظرت اليه ماما مستغربة • وكانت تاتيانا بافلوفنا كمن طار صوابها • فسألته :

ـ من بهذه الغرفة ؟

ـ المتوفى • ولكن فلندع هذا الأمـر • تعرفون ان الانسـان الذى لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره الى الايمان بالأوهام والخرافات • ولكن فلنجعل كلامنـا يدور على باقة الأزهار : كيف حملتهـا الى هنا ؟ لا أدرى • لقد اشتهيت عدة مرات أن أرميهـا على الثلج وأن أدوسـها بقدمى •

ارتعدت ماما • وتابع هو كلامه يقول :

ـ اشتهيتُ ذلك بقوة جنونيـة • رحمـةً بى يا صونيا ، ورحمةً برأسى المسكين • لقد اشتهيت ذلك لأن الباقة جميلة مسرفة فى الجمال • هل فى العالم أجمل من زهرة ؟ حملتها والثلج والجليد فى كل مكان • جليدنا والأزهار : تعارض ! ولكن ليس هذا ما يهمنى : فانما أنا اشتهيت أن أدوسها بقدمىّ لأنها جميلة • يا صونيا ، سأغيب من جديد ، ولكننى سـأعود بسرعة ، لأننى سـأخاف ، فيما يخيَّل الىّ • سـأخاف : ومن يشفينى من الخوف الا صونيا ؟ أين أجد ملاكاً مثل صونيا ؟ ولكن ما تلك الصورة هناك ؟ آ ••• أيقونة المتوفى ! تذكرت • ورثهـا عن أسرته ، عن جده • لم ينفصل عنها طول حياته • أنا أعلم هذا • وأتذكر أنه أورثنى

اياها • نعم ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً •• وأظن أنها أيقونة من أيقونات « قدامى المؤمنين » •• أرنى !

وتناول الأيقونة بيديه ، وقرّبها من الشمعة ، وأخذ يتأملها • ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط ، وضعها على المائدة ، أمامه فى هذه المرة • كنت مدهوشاً مذهولاً • لقد أطلق هذه الجمل كلها على نحو ما كان لأحد أن يتوقعه ، فكنت لا أستطيع أن أجمع شتات فكرى • ولكننى أتذكر أن هلعاً يشبه المرض قد نفذ فى قلبى • وانقلب ذعر أمى الى حيرة وارتباك ، والى شفقة وعطف • كانت ترى فيه انساناً بائسا قبل أى شيء آخر • لقد سبق له أن كان حديثه غريباً هذه الغرابة قبل الآن • وشحب لون ليزا شحوباً هائلاً على حين فجأة ، وأومأت لى برأسها اليه • ولكن تاتيانا بافلوفنا هى التى كانت أكثرهن جزعاً • قالت تسأله بحذر :

ـ ولكن ماذا بك يا عزيزى آندره بتروفتش ؟

ـ حقاً لا أدرى ماذا بى يا تاتيانا بافلوفنا العزيزة • هدئى روعك • لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفنا ، وأنك طيبة رائعة • ولكننى لم أجيء الا لأمكث دقيقة واحدة • اننى أود أن أقول لليزا شيئاً حسناً ، وأبحث عن كلمة أقولها فلا أفلح ، مع أن قلبى مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهى كلمات غريبة فى الواقع • يخيّل الىّ أننى إزدوج فأصبح اثنين ، أصبح مثلين •

قال ذلك وهو ينظر الينا جميعاً بوجه جاد الى أقصى حدود الجد ، وبرغبة صادقة فى الافصاح عما فى نفسه • وتابع كلامه يقول :

ـ الحقيقة أن فكرى يزدوج فيصبح فكرين اثنين ، وهذا ما أخشاه كثيراً • لكأن لى مثلاً يجلس الى جانبى • فأنا رجل عاقل معتدل ، ولكن الآخر الذى بجانبى يصرُ على أن يقوم بعمل مستحيل ، أو عمل سخيف

جداً ، ثم اذا بى أشـعر فجأةً أننى أنا الذى أريد أن أقوم بهذا العمل ، لا يدرى الا الله لماذا ! اريد ! اريد أن أقوم به رغم أنفى ، واريد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة • عرفت ذات مرة طبيبا أخذ يصفر فى الكنيسة فجأة أثناء الاحتفال بجنازة أبنه • حقاً لقد خفت أن أجىء اليوم الى الجنازة ، لأننى قد رسخ فى عقلى اعتقاد جازم ويقين مطلق بأننى سأنطلق صافراً أو ضاحكاً أثنـاء الجنـازة على حين فجأة ، كما فعل ذلك الطبيب المسكين الذى كانت نهايته سيئة • وحقاً لا أدرى لماذا لازمتنى ذكرى ذلك الطبيب طوال هذا اليوم ، لازمتنى ملازمة لم أستطيع منها فكاكاً • اسمعى يا صونيا ، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانيةً وأخذ يقلّبها بين يديه) ، فهل تعلمين أننى ، فى هذه اللحظـة بعينها ، تستبد بى رغبة جنونية فى أن أقذفها الى زاوية المدفأة ، فاذا هى تتكسر على الفور نصفين ، نصفين لا أكثر ولا أقل ؟

قال هذا بدون أى تصنع ، بدون أية رغبـة فى الظهور • بل كان يتكلم ببساطة ، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً • لكأنه خائف فعلاً من شىء • ولاحظت فجأة أن يديه ترتجفان قليلاً •

هتفت ماما ضامةً يديها ضارعة :

ــ آندره بتروفتش !

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهى تنتفض :

ــ اترك ، اترك الصـورة يا آندره بتروفتش ! اتركهـا ! ضعها فى مكانهـا ! واخلع ثيـابك ، وارقـد فى سريرك • يا آركادى ، اذهب فاستدع الطبيب !

قال برفق وهو يشملنا جميعاً بنظرة واحدة :

ــ مع ذلك ••• مع ذلك ، ما أشد اضطرابكم !

ثم وضع كوعيه على المائدة ، وتناول رأسه بيديه ، وقال :

ــ اننى أخيفكم . ولكن اسمعوا يا أصدقائى . هلاّ سررتمونى قليلاً ، فعدتم تجلسون ، وهدأتم جميعاً ، دقيقةً واحدة ! صونيا ، ليس هذا ما جئت من أجل أن أقوله لك . أنا جئت لأبلغك شيئاً ، لكنه شيء مختلف عن هذا كل الاختلاف . استودعك الله يا صونيا . أنا راحل من جديد ، كما سبق أن رحلت مراراً . لاشك فى أننى سأعود اليك فى يوم من الأيام . بهذا أنت لابد منك ، ولا غنى عنك . لمن عسى أرجع ، حين يكون كل شيء قد انتهى ؟ صدّقى يا صونيا أننى جئت اليك اليوم كما يجيء المرء الى ملاك لا الى عدو : هل يمكن أن تكونى عدوتى ؟ كيف يمكن أن تكونى عدوتى ؟ لا تصدقى اننى أريد أن أحطم هذه الصورة ، لأننى فى الواقع ، يا صونيا ، تستبد بى ، رغم كل شيء ، رغبة قوية فى تحطيمها ...

حين هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً له منذ قليل : « اترك الصورة » ، فانها كانت قد انتزعت الصورة من يديه ، وظلت تمسكها بيدها . فهاهو ذا آندره بتروفتش ، بعد أن نطق بآخر كلمة ، يثب من مكانه فجأةً ، ويخطف الصورة من يدى تاتيانا بافلوفنا فوراً ، ويشهرها بوحشية ، ثم يهوى بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتى من قوة ، فاذا بالأيقونة تنكسر نصفين تماماً . وعاد يلتفت الينا بغتةً ، فكان وجهه الشاحب قد احمر احمراراً شديداً ، وكانت كل قسمة من قسمات وجهه تختلج :

ــ لا تنظرى الى عملى نظرتك الى رمز يا صونيا . ليس ميراث ماكار هو ما حطمته ، وانما حطمت بدون هدف غير التحطيم ... ولكننى سأعود اليك رغم كل شيء ، سأرجع الى ملاكى الأخير . على كل حال ، عُدّى عملى رمزاً اذا شئت ، فانه رمز أيضاً ! ...

وخرج من الغرفة بخطى متعجلة ، ومضى عن طريق المطبخ فى

هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقيته) . لن أقص عليكم ما حدث لماما تفصيلاً . لقد هبّت واقفة وقد اعتراها رعب قاتل ، ورفعت يديها فعقدتهما على رأسها ، وصرخت تقول له فجأة :

ـ آندره بتروفتش ، تعال ودّع على الأقل يا عزيزى !

فصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول لها وقد أخذت ترتعش ارتعاشاً شديداً ، واعترتها نوبة حنق رهيب ، حنق حيوانى :

ـ سيرجع يا صونيا ، سيرجع . أما سمعت ما قاله ؟ لقد وعد بأن يرجع . دعى للمجنون المسكين أن يتجول مرةً أخيرة ! حين يدب اليه الهرم ، وحين يصبح كسيحاً ، فمن ذا الذى سيدلله غيرك يا خادمته القديمة ؟ انه يعلن هذا جهاراً ، لا يساوره خجل ...

أما عنا نحن ، فان ليزا قد أغمى عليها ؛ وأنا أردت أن أركض وراءه ، لكننى ارتميت على ماما أضمها بذراعىّ . وهرعت لوكيريا لتأتى الى ليزا بكأس ماء . ولكن ماما لم تلبث أن أفاقت من اغمائها ، فتهاوت على الديوان ، وغطت وجهها بيديها ، وطفقت تبكى .

وصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول بأعلى صوتها :

ـ أدركه ، أدركه على كل حال . هيّا .. أدركه ، لا تتركه خطوة واحدة ، هلمّ ... ماذا تنتظر ؟ هل أنا التى يجب أن أركض وراءه اذن ؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لانتزاعى من ماما .

وصرخت أمى تقول هى أيضاً على حين فجأة :

ـ بنىّ آركادى ، هلمّ اركض وراءه ، أسرع !

فخرجت مسرعاً ، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً . لكننى لم أجده

في أي مكان . كان قد اختفى . وعلى الرصيف في بعيد ، كانت تتراءى في الظلام بقع سوداء هي قامات المارة ، فاندفعت أدركها ، وأخذت أتفرس في وجه كل واحـد متى وصلت اليه ، ثم أمضى أتفرس في وجه آخر ، وهكذا دواليك ، الى أن بلغت منعطفاً .

« لا يغضب أحـد من مجنون . واذا كانت تاتيانا بافلوفنـا مستعرة الغضب منه ، فمعنى ذلك أنه ليس بمجنون البتة ... » تلكم هي الفكرة التي برقت في ذهني . بدا لى أن ذلك كله كان « رمزاً » ، وأنه انما أراد أن ينتهى من شيء ما ، كمـا انتهى من تلك الأيقونة . ولكن لاشك أن « مثْله » كان بجانبه أيضاً ...

٣

لم أقع عليه في أى مكان . ولا يُعقل أن أركض الى بيته ، فمن الصعب على المرء أن يتصور أنه رجع الى بيته وكفى ! وعرضت لى فكرة على حين بغتة ، فهرعت الى بيت آنا آندريفنا .

كانت آنا آندريفنـا قد عادت الى البيت ، فأدخلت عليها فوراً . وقد دخلت عليها محـاولاً أن أسيطر على نفسى ما أمكننى ذلك . وبدون أن أجلس ، قصصت عليها المشهد الذى رأيته كله ، أى حكاية « المثل » تلك . فلن أنسى ما حييت ، ولن أغفر لهـا ما حييت أنها كانت تصغى الى كلامى بشراهة شديدة ، ولكن بهدوء لا رحمـة فيه ، وطمأنينة لا تعكر صفوها عاطفة . ولقد أصغت الى حديثى واقفةً هى أيضاً .

ختمت حديثى أسألها ملحاً :

ـ أين هو ؟ لعلك تعلمين ؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنـا أن ترسلنى اليك أمس ...

ـ ذلك أننى كنت أريد أمس أن أراك . أمس ذهب الى تسارسكوياه وجاء الىّ أيضاً . أما الآن ...

قالت ذلك ونظرت الى ساعتها وأردفت :

ـ الساعة الآنَ هى السابعة . فلابد أنه فى بيته حتماً .

ـ أرى أنك تعلمين كل شىء . فتكلمى ، تكلمى !

ـ أعرف أشياء كثيرة ، لكنني لا أعرف كل شيء • ليس هناك ما أخفيه عنك طبعاً •••

وشغلتني بنظرة غريبة وهي تبتسم وتتظاهر بالتفكير • وأردفت :

ـ رداً على رسالة كاترين نيقولايفنا ، كتب اليها بالأمس يخطبها رسمياً •

فحملقت عيني قائلاً :

ـ لا يمكن !

ـ عن طريقي وصلتها الرسالة • أنا التي سلّمتها اليها مختومةً • في هذه المرة تصرف كما يتصرف « فارس » ولم يكتم عني شيئاً •

ـ آنا آندريفنا ! لا أفهم !

طبعاً • أمر يصعب فهمه • ولكن مثله في هذا كمثل مقامر يرمي على المائدة آخر قرش ، ويمسك في جيبه مسدساً مهيأً • ذلك هو معنى العرض الذي تقدم اليها به • احتمال الرفض تسعة حظوظ من عشرة • ولكنه يعتمد على الحظ العاشر • ولا أكتمك أنني استغربت ••• لعله كان خارجاً عن طوره : لعل « المثْل » الذي وصفته أُحسن وصف كان بقربه !

ـ وتضحكين أيضاً ؟ كيف يمكن أن أصدّق أنك أنت التي أوصلت الرسالة ؟ ألست خطيبة أبيها ؟ رحماك آنا آندريفنا !

ـ رجاني ان أضحي لسعادته بسعادتي • بل قل انه لم يرجني رجاء صريحا ، فانما تمّ الامر بصمت ، لكنني قرأت في عينيه كل شيء • وما استغرابك ؟ ألم يذهب الى أمك بمدينة كونجسبرج يطلب منها أن تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخماكوفا ؟ ذلك شبيه بما عمد اليه أمس ، اذ اختارني مندوبة عنه ونجية له •

كانت شاحبةً بعض الشحوب . ولكن هدوءها كان يعزّز سخريتها . وقد غفرتُ لها كثيراً في تلك اللحظة ، حين أُخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً. واسترسلت في التفكير دقيقة ، فكانت صامتة تنتظر .

قلت ضاحكاً على حين فجأة :

ـ اسمعي ، لقد أوصلت أنت الرسالة لأنك لاتجازفين بشيء ، فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو ؟ وهي ؟ لاشك أنها لن تلتفت الى طلبه ، وحينئذ .. حينئذ ، ماذا يمكن أن يحدث ؟ أين هو الآن يا آنا آندرويفنا ؟ ان كل دقيقة لثمينة ، وفي كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة !

ـ قلت لك انه في بيته . ففي رسالته التي سلّمتها أمس الى كاترين نيقولايفنا ، رجاها « على كل حال » أن تمن عليه بلقاء في بيته ، الساعة السابعة من هذا المساء . وقد وعدته بأن تجيء اليه في الموعد المضروب .

ـ هي ، في بيته ؟

ـ لمَ لا ؟ البيت بيت داريا أونيسيموفنا . ففي امكانهما أن يلتقيا فيه زائرين لها .

ـ لكنها تخاف منه ... قد يقتلها !

ـ ان كاترين نيقولايفنا رغم كل خوفها الذى لاحظته بنفسى قد أضمرت دائماً ، حتى في الماضي ، شيئاً من الاعجاب بنبل المبادىء وسمو الفكر لدى آندره بتروفتش . وقد وثقت به هذه المرة لتنتهي منه الى الأبد . كما أنه ، من جهته ، قد حلف لها يمين الفروسية أنه لن ينالها بسوء فما يجب أن تخشى شيئاً . لا أتذكر نص التعابير التى استعملها . وانما المهم أنها وثقت به واطمأنت اليه ... لأول مرة ان صح القول . ولأول مرة ردت على مشاعره بمثلها ، فكأن اندفاعة بطولية قد تحققت لهما كليهما .

هتفت أقول :

ـ والمثْل ، والمثْل ! ذلك أنه فقد عقله !

ـ لاشك أن كاترين نيقولايفنا ، حين وعدته أمس بالمجيء الى الموعد ، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع .

أدرت ظهرى فجأة ، وولّيت هارباً .. اليه .. اليهما طبعاً ! ولكننى لم ألبث أن رجعت من حجرة المدخل ثانيةً ، وتفرست فى وجه آنا آندريفنا ، أختى ، وقلت صارخاً :

ـ أم تراك تريدين أن يقتلها ؟

أطلقت هذه الصرخة ، وخرجت من البيت راكضاً .

ورغم أننى كنت أرتعش ارتعاشاً شديداً كمن هو فى نوبة حمى ، فقد دخلت الشقة بغير ضجة ، من المطبخ ، وطلبت من الخادمة أن تأتينى داريا أونيسيموفنا بصوت خافت . ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها ، فرشقتنى صامتةً بنظرة مستفهمة رهيبة ، وقالت :

ـ ليس مولاى فى البيت .

لكننى ذكرت لها بوضوح ودقة ، هامساً همساً سريعاً ، أننى أعرف كل شيء من آنا آندريفنا ، وأننى آتٍ من عندها .

ـ أين هما يا داريا أونيسيموفنا ؟

ـ فى الصالون ، حيث كنتما بالأمس جالسين الى المائدة ...

ـ داريا أونيسيموفنا ، دعينى أذهب الى هناك ...

ـ كيف يمكننى هذا ؟

ـ لا أذهب الى هناك ، بل الى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسيموفنا .

ان آنا آندريفنـا تريد هذا أيضـاً • فلو كانت لا تريده لما قالت لى انهما هنا • لن يسمعانى • هى نفسها تريد هذا •••

قالت داريا أونيسيموفنا دون أن تحول عنى بصرها :

ـ واذا كانت لا تريده ؟

فقلت مستعطفاً :

ـ داريا أونيسيموفنا ، اننى أتذكر ابنتك أوليا ••• دعينى أدخل •

فاذا بذقنها وشفتيها تأخذ بالاختلاج فجأة ، وقالت لى :

ـ يا عزيزى •• اكـراماً لذكرى أوليـا •• تقديراً لعواطفك •• ولكن لا تتخلّ عن آنا آندريفنـا يا عزيزى ! لن تتخلى عنهـا ، أليس كذلك ؟ لن تتخلى عنها ؟

ـ لا ، لن أتخلى عنها •

ـ عاهدنى عهد الشرف أنك لن تدخـل الصالون ، ولن تصرخ ، اذا أنا خبأتك هناك •

ـ أحلف لك بشرفى يا داريا أونيسيموفنا !

فأمسـكت ردنجوتى ، وقادتنى الى حجـرة مظلمة ، مجاورة للغرفة التى كانا فيها ، وسارت بى على سـجادة طرية بدون ضـجة الى ان بلغنا الستارة ، فأجلستنى هنـاك ، وأزاحت ركنـاً من السـتارة ، فكنت أراهما كليهما •

انصرفت هى وبقيت أنا • طبعا بقيت • لقد أدركت اننى أتصنت بغير حق ، وأننى أتجسس على أسرار غيرى ، ولكننى بقيت • كيف لا أبقى وأنا أعرف أن المثْل موجود ؟ ألم يسـبق لهذا المثْل أن حطـم الأيقونة على مرأى منى ؟

٤

كانا جالسين الى تلك المائدة نفسـها التى شربنا عليها بالأمس نخب « انبعاثه » معاً . وكانا متقابلين . اننى أميز وجهيهما تمييزاً واضحاً . كانت ترتدى فستاناً أسـود ، وكانت جميلة هادئة المظهر على عادتها . وكان يتكلم ، فكانت تصغى اليه باتنبـاه شديد بشوش . حتى ليمكن أن يكتشف المرء فى وجهها شيئاً من خجـل . ولا كذلك هو . فقد كان مهتاجـاً اهتياجاً شديداً . لقد وصلت وهما من الحديث فى قلبه ، لذلك لبثت برهةً لا أفهم شيئاً . أتذكر أنها سألته فجأة :

ــ وهل أنا السبب فى ذلك ؟

فأجابها :

ــ بل أنا . أنت مذنبة بدون أن تكونى مذنبة . هذه أمور تحدث . وتلك هى الأخطاء التى لا تغتفر ، ومرتكبـوها يعاقبـون فى جميع الأحيان تقريباً .

أضافت ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة . وتابع كلامه يقول :

ــ لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أننى نسيتك نسياناً تاماً ، فكنت أضحك فعلاً من هواى الأحمق ... ولكنك تعرفين هذا ! على كل حال ، فلم يعنينى أن تتزوجى فلاناً أو فلاناً من الناس . لقد بعثت اليك بالأمس رسالةً أطلب منك فيها أن تتزوج . فلا تؤاخذينى . كانت تلك غباوة .

ولكن لم يكن لها عندى بديل . ما الذى كان يمكننى أن أفعله غير تلك الغباوة ؟ لا أدرى .

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه اليها فجأة بعد أن كان يكلمها ناظراً الى جانب . لو كنت فى مكانها لأخافتنى تلك الضحكة . أحسست بهذا . ونهض عن كرسيه فجأة وقال يسألها بغتة كأنما هو تذكر الأمر الجوهرى :

ـ قولى : كيف أمكنك أن توافقى على المجىء الى هنا ؟ ان دعوتى ورسالتى كلهما ما كانتا الا حماقة ... انتظرى : أظن أننى أستطيع أن أحزر كيف وافقت على المجىء . ولكن لماذا جئت ؟ ذلك هو السؤال . أتراك جئت عن خوف فحسب ؟

فقالت وهى تنظر اليه بحذر :

ـ جئت لأراك .

وصمت الاثنان كلاهما نصف دقيقة . وعاد فرسيلوف يجلس ، ثم أخذ يتكلم بصوت رقيق ، لكنه مؤثر ، يكاد يكون متهدجاً ، فقال :

ـ منذ مدة طويلة لم أرك يا كاترين نيقولايفنا ... منذ مدة بلغت من الطول أننى أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدنى فى ذات يوم ، كما أجدنى الآن ، جالساً بقربك أنظر الى وجهك وأسمع صوتك .. منذ سنتين لم ير أحدنا الآخر ، منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر . كنت لا أقدّر أن أكلمك فى يوم من الأيام . على كل حال ، ما مضى فقد مضى ، وما بقى اليوم سيزول غداً كدخان . ليكن ! اننى أقبل هذا ، اذ ليس عندى له بديل .

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة :

ـ ولكن لا تنصرفى الآن بدون أن تقولى لى شيئاً . لقد نفحتنى

صدفة حين قبلت أن تجيئي ، فلا تنصرفي قبل أن تجيبيني عن سؤال سألقيه عليك !

ـ ما السؤال ؟

ـ لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم أبداً . فماذا تخسرين اذا قلت لي الحقيقة كلها مرةً واحدة الى الأبد ؟ أجيبيني عن سؤال لا يلقيه العقلاء أبدا : هل أحببتني في لحظة واحدة على الأقل ... أم أراني أخطأت الظن ؟

احمرت كاترين نيقولايفنا احمراراً شديداً . وقالت تجيبه :

ـ بل أحببتك .

توقعت أن تقول هذا : يا للصادقة ، يا للصريحة ، يا للمستقيمة التي تقول الحقيقة !

وتابع يسألها :

ـ والآن ؟

ـ الآن لا أحبك .

ـ وتضحكين ؟

ـ لا . لئن ضحكت فوراً فقد كان ذلك برغم ارادتي ، لأنني كنت أتوقع أن تسألني « والآن ؟ » ، فلما صدق توقعي ابتسمت ، لأن المرء يبتسم دائماً حين يصدق توقعه ...

شيء غريب . ما رأيتها قبل اليوم في مثل هذه الحصافة وهذا الاحتراس ، ولا رأيتها قبل اليوم شبه خجلى وشبه مستحية الى هذا الحد ! وكان هو يلتهمها بعينيه التهاماً .

ـ أعلم أنك لا تحبينني ... ولكن ألا تحبينني البتة !

ـ ربما البتة ؟

ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة ، دون أن تبتسم ودون أن تحمر :

ـ لا أحبك . صحيح أننى أحببتك ، ولكن حبى لم يطل . فما لبثت أن كففت عن حبك ..

ـ أعرف ، أعرف . رأيت أن هذا ليس ما كنت فى حاجة اليه .. قولى : ما الذى أنت فى حاجة اليه ؟ اشرحى لى مرةً أخرى ...

ـ هل شرحت لك هذا من قبل ؟ ما أنا فى حاجة اليه ؟ اننى امرأة عادية جداً . اننى امرأة هادئة .. أحب .. أحب الناس المرحين .

ـ المرحين ؟

ـ هأنت ذا ترى أننى عاجزة حتى عن التحدث معك . يخيَّل الىَّ أنك لو أحببتنى حباً أقل ، لأحببتك .

وابتسمت خجلى مرة أخرى . كان يلتمع فى جوابها أكبر الصدق . كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التى تحـدد علاقاتهما تحديداً حاسماً ، وتفسر كل شىء ، وتقطع بكل شىء ؟ وكم كان يجدر به ، هو ، أن يفهم ذلك . ولكنه نظر وابتسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل :

ـ هل بيورنج مرح ؟

فأسرعت تجيبه :

ـ اطمئن . ما هو بالمرح البتة ! وانما أنا أتزوجه لأننى سأكون معه أهدأ مما أكون مع آخر . ثم تبقى نفسى كلها لى أنا .

ـ يقال انك عدت تحبين حياة المجتمع وتشغفين بها ؟

ـ لا حياة المجتمع . فأنا أعرف أن مجتمعنا تسوده الفوضى كما تسود كل ما عداه . ولكن المظاهر الخارجية تظل فيه أحلى ، فاذا كان المرء يحب أن يعيش وكفى ، فالمعيشة فى المجتمع أمتع من المعيشة فى غيره .

ـ سمعت كلمة « الفوضى » هذه كثيرا ، فلا شك أنك خفت كثيرا من الفوضى التى كانت تسود حياتى ••• أصفاد ، وأفكار ، وسخافات •••

ـ لا ، ليس الأمر ذاك أبدا •••

ـ ما هو اذن ؟ قوليه بصراحة ، ناشدتك الله !

ـ طيب ، سأقوله بصراحة ، لأننى أعدك ذا فكر عظيم • اليك الحقيقة : اننى لم أستطع أن لا أرى فيك شيئاً مضحكا بغير انقطاع •

قالت ذلك واحمرت فجأة ، كأنما هى أحست أنها تورطت فى قلة الاحتراس تورطا كبيرا •

قال آندره بتروفتش :

ـ لهذه الكلمة التى قلتها ، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة •

فأسرعت تضيف وهى تزداد احمرارا :

ـ لم أكمل كلامى • أنا المضحكة فى الواقع ••• لا شىء الا لأننى أكلمك كحمقاء •

ـ لا ، ما أنت بمضحكة ، وانما أنت امرأة من نساء المجتمع فاسدة •

قال ذلك واصفر اصفرارا رهيبا • وتابع كلامه فقال :

ـ أنا أيضا لم أكمل كلامى حين سألتك لماذا جئت • فهل تريدين أن أنهيه ؟ ان ثمة رسالة ، ان ثمة وثيقة تخلع قلبك هلعا ؟ لأن أباك اذا وقعت هذه الرسالة بين يديه ، يمكن أن يلعنك أثناء حياته ، وان يحرمك من ميراثه شرعا فى وصيته • أنت خائفة من هذه الرسالة ••• وقد جئتنى بحثا عنها وسعيا اليها •••

نطق بهذه الكلمات وهو يرتجف من رأسه الى قدميه ، حتى لتكاد تصطك أسنانه .

فكانت تصغى اليه معبرة بوجهها عن سأم وألم . وقالت مدافعة عن نفسها :

ـ أعلم أنك تستطيع أن تحدث لى أكدارا كثيرة ، ولكننى لم أجىء لأقنعك بالكف عن اضطهادى وتعذيبى بقدر ما جئت لأراك . بل لقد كانت نفسى تضطرم رغبة فى لقائك منذ مدة طويلة ...

وأضافت تقول فجـأة ، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة مباغتة :

ـ غير أننى رأيتك على عهدى بك ...

ـ هل كنت تتوقعين أن تجدينى انسانا آخر بعد الرسالة التى تكلمت فيها عن فساد خلقك ؟ هل جئت الى هنا بغير خوف البتة ؟

ـ جئت لاننى أحببتك فى الماضى . ولكن لا تهـددنى ، أرجوك . ما بقينا معا ، فلا تذكرنى بأفكارى السيئة وعواطفى الرديئة . اذا أمكنك أن تكلمنى فى غير هذا فسأكون سـعيدة جدا . قد يأتى دور التهديد ، أما الآن فقل لى شيئا آخر ، أرجوك ! حقا لقد جئت لأراك وأنصت لك دقيقة . فاذا كنت عاجزا عن هذا فاقتلنى فورا ولكن لا تهددنى ولا تعذب نفسك أمامى ...

بهذا ختمت كلامها وهى تنظر اليه مترقبة ترقبا غريبا ، كأنما هى تفترض حقا أنه قد يقتلها .

ونهض آندره بتروفتش من جديد ، وراح يتأملها بنظرات حارة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

ـ سوف تخرجين من هنا بغير أية اساءة •

فابتسمت وقالت :

ـ نعم ، هذا عهد قطعته على نفسك •

ـ لا لأنى قطعت على نفسى عهدا فى الرسالة ، بل لأننى أريد أن أفكر فيك طول الليل •••

ـ تعذيبا لنفسك ؟

ـ اننى استحضر صـورتك دائما حـين أخلو الى نفسى • وأظل أتحدث معك • وأذهب الى حانات ومواخير فاذا أنت تظهرين لى أيضا • ولكنك تضحكين منى دائما ، كما تفعلين الآن •

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره • فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد ارتسم على وجهها عطف قوى :

ـ أبدا ، أبدا ما ضحكت منك • واذا كنت قد جئت فلأننى حاولت بكل الوسائل ألا أجرح شعورك فى أمر من الأمور •

وأضافت تقول فجأة :

ـ لقد جئت الى هنا لأقول لك انى أحبك تقريبا •

ثم أسرعت تتدارك :

ـ معذرة ••• لعلنى لم أحسن التعبير عما أردت عنه •

فضحك وقال :

ـ لماذا لا تجيدين التظاهر ؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة ؟ لماذا لست كسائر الناس ؟ ••• كيف يمكن أن يطرد أحد أحدا ثم يقول له : « أحبك تقريبا » ؟ •••

ـ ذلك أننى لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه • ذلك أننى

ما وجـدت يوما أمامك الا شـعرت بخجـل ولم أحسن الكلام ، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك : « أحبك تقريبا » ، فذلك لأن الأمر كان غامضا في ذهني أيضا . هذا هو السبب في اني قلت تلك الجملة ، رغم انني في الواقع أحبـك ... أحبـك ذلك الحب « المشترك » الذي يحمله المرء لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبدا ...

كان يصيخ بسمعه اليها صامتـا ولا يحول عنهـا نظرته الحارة ، ثم استأنف كلامه فقال :

ـ لا شك أنني أسيء اليك . هذا هو عيب الهوى الشديد . اني لأعرف شيئا واحدا هو انني اذا كنت معك فقد انتهيت ، واذا غبت عنك فقد انتهيت أيضا . سـيان أن أكون معك وأن أكون بدونك ، فأنت معي دائما حيثما تكوني . وأعلم كذلك أنني أستطيع أن أكرهك أكثر ممـا أستطيع أن أحبك ... ثم اني منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر في شيء . وأصبحت تستوي عندي جميع الأمور . كل ما آسف له هو أنني أحببت امرأة مثلك ...

كان قد وهن صوته ، وتابع كلامه يقول كالمختنق وهو يبتسم ابتسامة صـفراء :

ـ ماذا تريدين ؟ انه لجنون مني أن أقول لك هـذا الكلام . أظن أنني مستعد أن أقف مسـمرا على ساق واحـدة مدة ثلاثين سنة اذا كان هذا يرضيك . أرى أنك تشعرين نحوي بشفقة . وجهك يقول : « لو استطعت لأحببتك ، لكنني لا أستطيع ... » . أليس هـذا صحيحا ؟ لا ضير . لست بذي كبرياء . انني مستعد لأن أقبـل منك أية صـدقة ، كشـحاذ ، هل تسـمعين ؟ أية صـدقة ... أني لشـحاذ أن يـكون ذا كبرياء ؟ ...

فنهضت كاترين نيقولايفنا واقتربت منه ، ثم قالت وهى تلامس بيدها كتفه وقد لاحت فى وجهها عاطفة لا يمكن التعبير عنها :

ـ صديقى ! اننى لا أستطيع أن أسمع مثل هذه الأقوال ! سأظل أفكر فيك طول حياتى تفكيرى فى أغلى انسان وأنبل قلب وأقدس شىء يمكن أن أحبه وأحترمه . آندره بتروفتش ! افهمنى ... اننى لم أجىء الى هنا عبثا يا عزيزى ، يا من كنت وما تزال عزيزا على قلبى . لن أنسى أبدا ما أثرته فى نفسى من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولى . فلننفصل صديقين ، ولسوف تظل فى حياتى أجلّ خواطرى شأنا وأحلاها مذاقا !

قال آندره بتروفتش :

ـ « فلننفصل ثم أحبك » . سوف أحبك ولكن فلننفصل ...

ثم قال وقد شحب لونه شحوبا شديدا :

ـ اسمعى . هبى لى صدقة أخرى : لا تحبينى ، ولا تعيشى معى ، ولننقطع عن أن يرى أحدنا الآخر الى الأبد . سوف أختفى متى أصبحت لا تريدين أن ترينى ، ولا أن تسمعينى .. ولكن .. ولكن .. « لا تتزوجى » .

انقبض صدرى الى حد الألم حين سمعت كلامه . ان هذا الرجاء الساذج الذليل يوقظ الشفقة فى النفس ويطعن القلب طعنا قويا بمقدار ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة . نعم ، انه يطلب صدقة حقا ! هل كان يستطيع أن يظن حقا أن رجاءه يمكن أن يلبى ؟ مع ذلك . نزل بنفسه الى حيث يرجو هذا الرجاء ، وحرص على طلب هذه الصدقة . ان هذا الدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه ! أما هى فان جميع قسمات وجهها قد تشوهت ألما . ولكنه قبل أن تنطق هى بكلمة واحدة ، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فجأة فكأنه ليس صوته :

ــ سوف أدمرك تدميراً !

ولكنها اجابته بكلام لا يقل عن كلامه غرابة ، وبصوت كصوته تبدل تبديلا غير متوقع حتى لكأنه ليس صوتها ، فقالت :

ــ اذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم فى المستقبل انتقاما أقسى من الانتقام الذى تهددنى به الآن لأنك لن تنسى أبدا أنك استجديتنى صدقة وكنت أمامى شحاذا ...

وختمت كلامها وهى تقذفه بنظرة تحد :

ــ لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك !

فأجابها برفق مبتسماً :

ــ « تهديدات من فمك » ، أى من فم شحاذ مثلك ! لقد كنت أمزح . لن أصنع بك شيئاً . لا تخافى . انصرفى . أما تلك الوثيقة فسأبذل جميع جهودى لأرسلها اليك . ولكن اذهبى ... اذهبى ! ... لقد بعثت اليك رسالة حمقاء ، واستجبت أنت لتلك الرسالة الحمقاء ، فجئت : فها نحن سواء : لا دائن ولا مدين !

وأضاف يقول لها ليدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق الغرفة التى كنت مختبئاً فيها وراء الستارة :

ــ من هنا !

قالت وهى تقف على العتبة :

ــ اغفر لى اذا استطعت .

فقال فجأة :

ــ اذا كتب لنا أن نلتقى صديقين فى يوم من الأيام ، فسنتذكر هذا المشهد ضاحكين .

ولكن قسمات وجهها كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة .

هتفت تقول ضارعة الى الله وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى ، ولكنها تنظر الى وجهه وجلة كأنما هى تحزر ماذا أراد أن يقول :

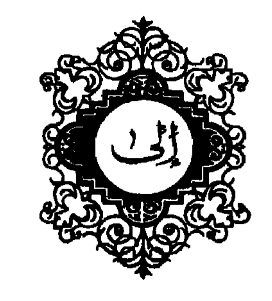
ـ أسأل الله أن يحدث هذا .

ـ انصرفى ! كلانا مفرط فى الذكاء . ولكنك ... آه ... أنت من طينتى ! بعثت اليك رسالة مجنونة ، فارتضيت أن تجيئى لتقولى انك « تحبيننى تقريبا » . لا ، لا ، ان بنا جنونا واحدا ! كلانا شاذ . ابقى مجنونة دائما ، لا تتغيرى ، وسنعود نلتقى صديقين . اننى أتنبأ بهذا . يميناً !

خرجت كاترين نيقولايفنا . فأسرعت الى المطبخ دون ضجة . ومن غير أن أنظر تقريبا الى داريا أو نيسموفنا التى كانت تنتظرنى ، وثبت الى الشارع نازلاً على سلم الخدم ماراً بالفناء . ولكن حين وصلت أنا الشارع كانت هى قد ركبت العربة التى كانت تنتظرها أمام الباب . فأخذت أركض .

الفصل الحادي عشر

١



أين ؟ الى بيت لامبير !

مهما أشأ أن أسبغ طابعا منطقيا على سلوكي في ذلك المساء وفي تلك الليلة ، ومهما أشأ أن اكتشف فيه شيئا من سلامة العقل ، فانني حتى في هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرى الأحداث كلها جملةً واحدة ، أجدني عاجزا عن أن أعرضها بما يجب لها من تسلسل ووضوح . لابد أنني كنت تائها في عاطفة أو قل في سديم مضطرب من العواطف . بل لا شك أن ثمة عاطفة أساسية كانت تسحقني وتسيطر على جميع العواطف الأخرى ، ولكن ... هل يجب أن أعترف بها ؟ لا سيما وانني غير واثق كل الثقة ...

اقتحمت بيت لامبير ، خارجاً عن طوري طبعاً ، حتى لقد أخفته هو وصاحبته آلفونسين . لطالما لاحظت لدى الفرنسيين ، حتى لدى أشدهم طيشاً وأكثرهم فجوراً ، أنهم في داخل بيوتهم حريصون أشدّ الحرص على نوع من النظام البورجوازي ، وعلى طراز من الحياة مطرد رتيب تافه يجري على وتيرة واحدة ولا يحبون أن يخرجوا عنه مرة . ولكن لامبير سرعان ما أدرك أن شيئاً قد حدث ، فسره أن يراني في بيته وأن « يقبض على ناصيتي » أخيراً . لقد كان لا يحلم الا بهذا طوال هذه الأيام ليل نهار . ألا ما كان أحوجه الي ! ثم هأنذا ، بعد أن فقد هو كل أمل ،

أجيئه فجاةً ، من تلقاء نفسى ، بل اجيئه وأنا على هذه الحالة من الجنون ، اى على الحالة التى يريدها !

صرخت أقول :

ــ خمــراً يا لامبير ! اسقنى ! دعنى أعربد ! آلفونســين ، أين قيثارتك ؟

لن أصف المشهد ، فلا داعى الى ذلك . المهم أننا شربنا ، وقصصت عليه كل شىء ، كل شىء . فكان يصغى الى كلامى بشراهة . وقمت أنا بالخطوة الأولى فاقترحت عليه تدبير مؤامرة ، اشعال حريق : نستدعى أولاً كاترين نيقولايفنا برسالة ...

قال لامبير مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها :

ــ هذا ممكن ...

قلت :

ــ وزيادةً فى ضمان نجاح المؤامرة ، يجب أن نبعث اليها فى تلك الرسالة صورة عن « وثيقتها » لتستطيع أن تدرك أننا لا نغشها .

فقال لامبير مؤيداً وهو لا ينفك يتبادل النظرات مع آلفونسين :

ــ تماما ! هذا ما يجب أن نفعله .

قلت :

ــ وثالثاً ، يجب أن يكون لامبير هو الذى يدعوها ، لشأن يخصه ، منتحلاً صــفة رجل مجهول آت من موسكو . وأجىء أنا بفرسيلوف .

فقال لامبير :

ــ ربما نحضر فرسيلوف أيضا ، نعم !

فصحت أقول معترضاً على قوله « ربما »

ـ لا ، لا « ربما » ، بل حتماً . هذا لا غنى عنه .

وأضفت موضحاً وأنا أجرع جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة ، لكنني أعتقد انني شربت زجاجة الشمبانيا كلها وحدى ، أما هما فكانا يتظاهران) :

ـ هذا كله من أجله هو . نجلس أنا وفرسيلوف في الغرفة الأخرى . يجب الحصول على غرفة ثانية يا لامبير ! حتى اذا جاءت اللحظة التي توافق فيها على كل شيء ، أي على الفدية المالية والفدية « الأخرى » ، لأنهن جميعاً حقيرات ، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا وداهمناها فأقنعناها بحقارتها . وحينئذ يُشفى فرسيلوف ويطردها ركلا بقدميه . ولكننا في حاجة الى بيورنج ، ليراها هو أيضاً !

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً . فقال لامبير :

ـ لا ، بيورنج لا داعي اليه !

فصرخت أقول :

ـ بلى بلى ! أنت لا تفهم من الأمر شيئا لأنك غبي يا لامبير ! بالعكس : يجب أن تحدث فضيحة في المجتمع الراقي : بذلك ننتقم من المجتمع الراقي ، ومنها . يجب أن تعاقب ! لامبير ، سوف تعطيك كمبيالة ... أنا لا حاجة لى الى المال ، أنا أبصق على المال ! أما أنت فسوف تنزل فتدس المال في جيبك مخلوطا ببصاقي . وأكون أنا قد وضعت أنفها في التراب !

كان لامبير لا ينفك يقول مؤيداً :

ـ نعم ، نعم .

ويتبادل النظرات مع آلفونسين •

قلت متمتماً :

ـ لامبير ، انها تعبد فرسيلوف • رأيت هـذا بنفسي منذ هنيهة ، وأيقنت به •

ـ من حسن الحظ أنك رأيت كل شيء : ما كنت لأتصور أن لك كل هـذه الموهبة في التجسس ، ولا أنك تملك كل هـذا القـدر من الذكـاء •

ـ أنت كاذب يا فرنسي • أنا لست جاسوساً ولكنني ذكي جدا •

ثم تابعت كلامي جاهداً أن أعبر عن فكرتي بمشقة وعناء :

ـ هل تعلم يا لامبير ؟ انهـا لن تتزوجـه ، لأن بيورنج ضابط في الحـرس ، أما فرسيلوف فليس الا رجلاً كريماً سمحاً محباً للانسانية ، أي هو في نظرهم انسان مضحك لا أكثر ! آه ••• انها تفهم هذا الوله وتفتتن به سروراً ، وتتغنج لفرسيلوف وتجتـذبه وتغـريه ، لكنهـا لن تتزوجه ! انها امرأة ، انها أفعى ! كل امرأة أفعى ، وكل أفعى امرأة ! يجب أن نشفيه • يجب أن نسقط عن عينيه الغشاوة فيراها على حقيقتها فيشفى • سأجيء به الى عندك يا لامبير •

فكان لامبير لا يزال يؤمن على كلامي ويملأ كأسي في كل لحظة :

ـ حسن ، حسن !

كان يخشى أن أستاء منه أي استياء ، كان يخاف أن يعارضني ، وكان يحرص على أن يسقيني مزيدا من الخمر ! وكان ذلك منه واضحاً أشدّ الوضـوح ، فلم أملك أنا نفسي الا أن ألاحظه • لكنني ما كـان لي أن أنصرف بحال من الأحوال • وظللت أشرب وظللت أتكلم • كنت أحترق رغبة في الافصاح مرةً عما يعتمل في نفسي ! وحين خرج لامبير ليجيء

برجاجة ثانية ، عزفت آلفونسين على قيثارتها لحناً اسبانياً . فكادت تنهمر دموعى ، وقلت مخاطباً لامبير بعاطفة عميقة :

ـ يجب انقاذ هذا الرجـل حتماً يا لامبير ، لأنه ... مسـحور ! لو تزوجها ، فلسـوف يطردها ركلاً بالقـدمين منذ الصباح ، بعد الليلة الأولى . فهذا ما يحـدث دائما . ان هذا الحب الوحشى المسعور يوافى المرء كما توافيه نوبة ، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض ، فما ان يتهيأ له الارتواء ، حتى تسقط الغشـاوة وتنبجس العاطفـة المناقضة : الاشمئزاز والكره والرغبة فى الابادة والسحق . هل تعرف قصة آبيساج يا لامبير ؟ هل قرأتها ؟

ـ لا ، لا أتذكر . أهذه رواية ؟

ـ ذلك أنك لاتعرف شـيئا يا لامبير . أنت جاهل جهـلاً رهيباً ، جهلاً فظيعا ! ولكن لا يهمنى أن تكون جاهلاً أو أن تكون عالماً ! أوه ! انه يحب ماما ؟ لقد قبّل صورتها . ولكن سيكون الأوان قد فات . لذلك يجب انقاذه منذ الآن ...

وأخيراً طفقت أبكى بكاءً مراً . لكننى ظللت أهذر وأشرب . ما أكثر ما شربت ! الشيء الأساسى الذى يجب أن أذكره هو أن لامبير لم يسألنى عن الوثيقة مرةً واحدة ، طوال السهرة ، أقصد لم يسألنى : أين هى ؟ لم يطلب منى أن أريه اياها ، أن أبسطها له على المائدة . ألم يكن طبيعياً مع ذلك أن يلقى علىّ هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك ؟ شيء آخر : لقد اتفقنا على أن نعمل كيت وكيت ، وقلنا اننا سنقوم بالعمل حتماً ، ولكن أين ، ومتى ، وكيف ؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة ! كان لامبير لا يزيد على أن يؤيد كلامى ويتبادل النظرات مع آلفونسين . لا شيء عدا هذا ! صحيح أننى كنت فى ذلك الحين عاجزاً عن ادراك ذلك ، ولكننى أتذكره تذكراً واضحاً .

وفي النهايه نمت على الديوان ، بدون أن أخلع ثيابى • نمت مدةً طويله جدا، واستيقظت فى وقت متاخر جدا • اذكر أننى حين استيقظت، ظللت متمــددا على الديوان زمناً كالمشــدوه ، أحاول أن أجمع أفكارى وذكرياتى ، وأتظاهر بأننى ما زلت نائما • ولكن لامبير كان قد خــرج من البيت • كانت الساعة قد تجاوزت التاسعه • النار فى المدفأة تسمع طقطقتها ، تماماً كالمرة الماضية ، حين فتحت عينىَّ فى بيت لامبير بعد تلك الليلة المشئومة ! ولكن آلفونسين كانت ترصدنى وراء الحاجز : لاحظت ذلك فوراً ، لأنها نظرت الىَّ وتفرست فىَّ مرتين ، غير أننى كنت أغمض عينى وأتظاهر بالنوم • كنت أفعل ذلك لأننى أحس باكتئاب وأريد أن أعرف أين أنا من الأمر ؟ فما كان أشد عذابى حين تذكرت ، فأدركت فظاعة وحقــارة ما أقدمت عليه فى الليل من اعتراف للامبير ، واتفــاق معه ••• وأدركت مدى خطئى وضلالى اذ جئت اليه أصــلا • ولكننى حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معى ، لا تزال مخيطة فى جيبى • لقد جسستها بيدى ، فأحسست بها ! فليس علىَّ اذن الا أن أثب وثبة واحدة ، فأولى هارباً • ولا داعى الى الخجل بعد ذلك من لامبير ؟ فليس لامبير بمن يستحق ذلك !

ولكننى كنت خجلان من نفسى ! لقد نصبت نفسى قاضياً أحاكم نفسى! ما أشــد الألم الذى كان يعصر قلبى ! على أننى لن أصف ذلك الشعور الجهنمى ، الذى لا يطاق ، لن أصف ذلك الاحساس بالخزى والتلطخ والدناءة • ومع ذلك يجب علىَّ أن أعترف • فقد آن أوان الاعتراف فيما أعتقد • ويجب أن أســجل هــذا الاعتراف فى مذكراتى • ألا فاعلموا أننى اذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار ، واذا كنت قد هيأت نفسى لرؤية المشهد الذى ستدفع فيه الفدية للامبير (آه ••• يا للسفالة !) ، فان هذا لم يكن فى سبيل انقاذ ذلك المجنون فرسيلوف ، ولا فى سبيل

أن أردّه الى ماما ، وانما ... لأنني ... ربما كنت أنا نفسي مولهاً بحبها ، غيوراً عليها ! ممن كنت غيوراً ؟ ... من بيورنيج ؟ من فرسيلوف ؟ من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم في حفلة الرقص ، على حين أكون أنا قابعاً في ركني ، شاعراً بالخزي من نفسي ؟ آه ... يا للقذارة !

الخلاصة أنني لا أعرف ممن كنت غيوراً . لكنني كنت أشعر ، بل كنت قد أيقنت منذ مساء أمس ، كيقيني بأن اثنين واثنين أربعة ، أنني فقدتها الى الأبد ، وأن هذه المرأة سوف تنبذني وسوف تسخر من زيفي ومن سخافتي . فهي امرأة صادقة ومستقيمة ، وأنا امرؤ متجسس ومخبىء وثائق !

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة ، وقد آن لي أن أعترف بها الآن ... هأنذا أعترف بها . لكنني أكرر مرةً أخرى ، ومرةً أخيرة ، أن نصف هذا الاعتراف ، وربما ثلاثة أرباعه ، قد يكون تجنياً على نفسي ! انني في تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير مسئول عن أعماله ، ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق يتكلم كمن أصابه مس . وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً من العواطف والاحساسات كان قد أغرقني اغراقاً ، فلا أستطيع أن أعي ما بقلبي ولا أن أدرك ما يعصف بنفسي عصفاً . ولكن لا بد لي مع ذلك من هذا الاعتراف ، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ نفسي حتماً .

وثبت عن الديوان مشمئزاً اشمئزازاً لا يغالب ، عازماً عزماً قوياً على أن أمحو كل شيء . ولكن ما ان وثبت عن ديواني ذلك الوثوب حتى هرعت الىّ آلفونسين . تناولت معطفي وقبعتي ، وقلت لها أن تبلغ لامبير أنني كنت بالأمس أهذي ، وأنني تجنيت على تلك المرأة ، وانني كنت

أمزح ، فحذار أن يبيح لنفســه أن تطأ قدماه بيتى فى يوم من الايام .
قلت لها ذلك كله بالفرنسية متعجلاً كيفما أتفق ، وأغلب الظن اننى قلته غامضاً مشوشاً ، فما كان أشد دهشتى حين رأيت آلفونسين تفهم عنى فهماً كاملاً ؟ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مغتبطة بكلامى ، مهللة له .
قالت مؤيدة :

ـ « نعم نعم . ذلك عيب . سيدة محترمة . أنت رجـل كريم !
اطمئن . سأوضح الأمر للامير ! » .

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجىء فى عواطف آلفونسين، وربما فى عواطف لامبير تبعاً لذلك ، أن يثير فى نفسى الشبهات . لكننى خرجت صامتاً . لقد كنت مضطرب النفس ، وكنت لا أحسن التفكير .
ولقد أعدت النظر فى الأمر كله بعد ذلك ، ولكن كان قد فات الأوان !
يا للمــكيدة الجهنميــة التى حيكت لى ! اننى أتلبث هنا قليــلاً لأشرح ما حدث ، والا عجز القارىء عن الفهم !

الواقع هو اننى منذ أن لقيت لامبير أول مرة ، فى تلك الليلة التى تدفأت عنده بعد تجلدى من البرد ، قد حكيت له (يا لغبــاوتى !) أن الوثيقة مخيطة فى جيبى . ولقد نمت على ديوانه فى تلك الليلة بعــض الوقت فجأة ، فلم يلبث لامبير أن جس جيبى ، فأيقن أن الورقة مخيطة فيها فعلاً . واستطاع بعد ذلك مراراً أن يتأكد من أن الورقة لا تزال فى مكانها . فأثناء عشائنا فى مطعم التتر مثلاً ، أتذكر أنه حضننى عدة مرات؟
فلما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر ببالى قط . لقد كنت أتخيل دائماً (كما يفعل غبى أحمق) أنه ان كان يدعونى الى بيته دائماً بحماسة شديدة واصرار كبير ، فهو انما يفعل ذلك ليستدرجنى الى الدخول فى عصابته والمشاركة فى عملها . ولكن الحقيقة المؤسفة هى انه كان يدعونى الى بيته لغرض آخر ! كان يدعونى ليسكرنى

سكراً شديداً ، حتى اذا رقدت غائباً عن شعورى وأخذت أشخر ، قصّ جيبى واستولى على الوثيقة • وذلك ما فعلاه فى تلك الليلة هو وآلفونسين • قامت الفونسين بقص جيبى • فلما صارت الرسالة فى حوزتها ، أعنى « رسالتها » ، أعنى وثيقتى التى جئت بها من موسكو ، تناولا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه ، فوضعاها فى مكان الرسالة ، ثم أعادا خياطة الجيب فى مكانه فكأن شيأ لم يحدث ، فلم ألاحظ أنا شيئاً • ان آلفونسين هى التى أعادت خياطة الجيب • وظللت أنا ، انا الأحمق ، ظللت الى النهاية ، خلال يوم ونصف يوم ، أظن أننى ما زلت أملك السر ، وظلت أعتقد بأن مصير كاترين لا يزال بين يدىّ •

كلمة أخيرة : ان سرقة الوثيقة كان سبب كل شىء ، كان سبب جميع المصائب الأخرى !

٢

اليكم الآن آخر أيام مذكراتى • انى أصل الى نهاية النهاية •

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت الى مسكنى مهتاج الأعصاب ، ذاهلاً أكبر الذهول ، عاقداً عزمى على فرار حاسم • ولم أتعجل الخطى ، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل • ولكن ما ان وطئت قدماى الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة : كان العجوز قد نُقل من تسارسكوريا سيلو منذ قليل ، فهو الآن فى بيتنا ، وبقربه آنا آندريفنا !

لم يسكنوه غرفتى ، بل الغرفتين المجاورتين لها ، أعنى غرفتى المؤجر • وقد أحدثت بالأمس فى هاتين الغرفتين تغييرات وتجميلات ، وان تكن طفيفة • وكان المؤجر قد نقل امرأته الى حجرة المستأجر المجدور المتذمر الذى سبق أن تكلمت عنه ، كما نُقل هذا لا أدرى الى أى مكان •

لم يلبث المؤجر أن تسلل الى غرفتى ليستقبلنى • ان هيئته لا تنم عما كانت تنم عنه بالأمس من حزم ، ولكنه كان فى اهتياج شديد ، اهتياج من مستوى الأحداث ان صح التعبير • لم أكلمه ، بل انسحبت الى زاوية الغرفة ، ووضعت رأسى بين يدى ، ولبثت على هذه الحال دقيقة • فقدّر فى أول الأمر أننى أصطنع « وضعاً » ، ولكنه فى النهاية لم يطق صبراً ، واعتراه الفزع ، فتمتم يسألنى :

ـ هل هناك شيء ؟

واذ لم أجبه أردف يقول :

ـ كنت أنتظرك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون اتصال غرفتك بغرفتي الأمير مباشرا ••• بدلا من المرور بالدهليز •

قال ذلك وهو يريني بابا جانبيا مغلقا ، يصل غرفتي بغرفته ، أي بما هو الآن مسكن الأمير •

فقلت له برصانة ووقار :

ـ بطرس هيبوليتوفتش ، أرجو أن تتفضل فتمضي الى آنا آندريفنا فورا ، فتدعوها ان تجيء الى هنا لتتحدث معي قليلاً • هل وصلا منذ مدة طويلة ؟

ـ منذ زهاء ساعة

ـ طيب • اذهب الى آنا آندريفنا وقل لها ما أوصيتك به •

فذهب ثم عاد يحمل اليّ هذا الجواب الغريب ، وهو أن آنا آندريفنا والأمير ينتظران أن أجيء اليهما بصبر فارغ • اذن لم تشأ آنا آندريفنا أن تأتي • فعدلت ردنجوتي الذي تجعّد في الليل ، ونظفته بالفرشاة • وغسلت وجهي ، ومشطت شعري • فعلت ذلك كله بغير تعجل • ثم مضيت الى الشيخ مدركاً مدى ما يجب التزامه من حذر وروية •

كان الأمير جالساً على ديوان أمام مائدة مستديرة ، أما آنا آندريفنا فكانت في ركن آخر ، أمام مائدة أخرى عليها غطاء وفوقها سماور البيت مجلوا كما لم يسبق أن جلي في يوم من الأيام ، وكان ماء السماور يغلي ، وكانت آنا آندريفنا تهييء الشاي •

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها ، فلاحظ العجوز المسكين ذلك

فورا ، فارتجف • وسرعان ما حل محل ابتسامته فزع حقا • لكنني لم ألح ، بل أخذت أضحك ، ومددت له يدى ، فارتمى المسكين فى أحضانى •

وقد أدركت فوراً ما صار الرجل اليه ، دون ريب • كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذى كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم بشىء من سلامه العقل رغم كل شىء ، ولا يخلو من بعض الارادة والصلابة ، قد أحالوه بعد آخر لقاء بينى وبينه الى نوع من مومياء ، وجعلوا منه طفلاً شديد الخوف ، كثير الحذر والشك • يجب أن أضيف الى هذا أنه كان يعلم لماذا جىء به الى هنا ، وقد جرى كل شىء على النحو الذى ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث • لقد فاجأوه بخيانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين ، فصعقوه وحطموه وسحقوه سحقاً ، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعى ماذا يفعل • قالوا له ان الوثيقة فى حوزتى وهى « مفتاح الموقف » ، فاذا رآها كان فى وسعه أن يتخذ قراره النهائى • يجب أن أبادر فأقول سلفاً ان رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان يرعبه تصورهما أكثر مما يرعبه أى شىء فى هذا العالم ••• لقد كان يتوقع أن يرانى داخلاً عليه بالقرار فى جيبى والورقة فى يدى • فما كان أعظم فرحه حين رآنى ، بانتظار ذلك ، مستعداً لأن أضحك وأن أثرثر فى موضوع آخر • وقد انسكبت دموعه غزيرةً حين تعانقنا • ولا أكتمكم أننى ذرفت أنا أيضاً بعض العبرات • لقد شعرت فجأة بشفقه كبيرة عليه • وكان كلب آلفونسين الصغير ينبح نباحا نحيلاً كرنين جرس صغير ، ويندفع من الديوان نحوى • ان هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشيخ منذ صار عنده ، حتى لقد كان ينام معه •

هتف يقول وهو يومىء لآنا آندريفنا الىّ :

ـ « قلت انه صاحب قلب نبيل » (بالفرنسية) •

فقلت له :

ـ لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير ! هيئتك الآن مزهرة نضرة !

ولكن نقيض قولى كان هو الصحيح وا أســفاه ! لقد كان الشيخ أشبه بمومياء . وما قلت له ذلك الا لأشجعه .

فأخذ يردد بفرح :

ـ « أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) .

ـ ولكن هلاّ شربت شايك . اذا قدمت لى فنجاناً فسوف يسعدنى أن أحسوه فى صحبتك .

ـ فكرة عظيمة . « فلنشرب ولنفرح » . هناك قصيدة بهذا المعنى . أليس كذلك ؟ آنا آندريفنا ، أعطيه شاياً . « انه يفتن دائماً بالعواطف » (بالفرنسية) . أعطينا شاياً يا عزيزتى .

سكبت لى آنا آندريفنا شاياً . ولكنها التفتت نحوى فجأة ، وأخذت تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار ، فقالت :

ـ آركادى ماكاروفتش ، انا ـ أنا والمحسن الىّ الأمـير نيقـولا ايفانوفتش ، قد جئنا الى بيتك لاجئين . جئنا اليك أنت ، لا الى غيرك ، جئنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ . تذكر أن كل مصير هذا الانسان القديس ، النبيل ، المحزون ، هو بين يديك ... اننا ننتظر القرار الذى يمليه عليك قلبك بالحق والعدل !

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها . فقد اعترى الأمير رعب شديد ، حتى كاد يرتعش من فرط الذعر ، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه نحوها :

ـ « فيما بعد ، فيما بعد ، أليس كذلك يا صديقتى العزيزة ؟ » (بالفرنسية) .

لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذى أحدثتــه فى نفسى مقاطعته هذه لحديثها • ولم أجب بشىء ، وانما اكتفيت بتحيــة فاترة رصينة • ثم جلست الى المائدة عامداً ، وطفقت أتحدث فى مواضــيع أخــرى تافهة ، وأخذت أضحك وأمزح ••• فكان واضحاً أن الشيخ شكر لى ذلك ، وأنه اغتبط اغتباطا شديداً • ولكن فرحه كان رغم شدته مهيأ لأن يتبدد سريعا وان يحــل محله اكتئــاب ويأس • كان هــذا واضــحا من أول نظرة •

ــ « بنى العزيز » (بالفرنسية) • بلغنى أنك كنت مريضاً • • آ ••• معذرة ••• قيل لى انك كنت طول هذه المدة منشغلاً بتحضير الأرواح ، أهذا صحيح ؟

أجبته مبتسماً :

ــ ما خطر لى مثل هذا على بال •

ــ لا ؟ من كلمنى اذن عن تحضير ••• الأر••واح ؟

انبرت آنا آندريفنا تشرح فقالت :

ــ ان الموظف ، صاحبَ البيت ، بطرس هيبوليتوفتش ، هو الذى كان يحدثه عن هذه الأمور منذ قليل • انه رجل مرح ، يعرف نكات كثيرة • هل تريد أن أناديه ؟

ــ « نعم ، نعم ، رجل طيب » (بالفرنسية) • يعرف نكات كثيرة • ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد • سوف ندعوه • وسوف يحكى لنا كل شىء • « ولكن فيما بعد » (بالفرنسية) • تصور أنه منذ قليل ، حين اعداد المائدة ، قال لى : اطمئن ، فهى لن تطير ! نحن لا نحضر الأرواح ! هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح ؟

ــ لا أدرى • يُقال انها ترتفع بجميع أرجلها •

فقال وهو يرشقني بنظرة مرتاعة :

ـ ولكن هذا الذى تقوله رهيب ! » (بالفرنسية) .

ـ اطمئن . هذه سخافات !

ـ ذلك ما أقوله أنا أيضاً . ان ناستاسيا ستيبانوفنا سالوميافا ... أنت تعرفها طبعاً .. لا .. لا لاتعرفها .. الخلاصة .. تصور أنها هى أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح ...

والتفت الأمير الى آنا آندريفنا وقال مكملاً كلامه :

ـ تخيلى هـذا « يا ابنتى » (بالفرنسـية) ! قلت لها يوماً : ان فى الوزارات موائد أيضاً ، وعلى كل مائدة ثمانى أيدٍ من أيدى الموظفين تكتب و لاتنقطع عن الكتابة ، فلماذا لا تتراقص تلك الموائد ؟ تخيليها وقد أخذت ترقص فجأة ! شغب تقوم به الموائد فى وزارة المالية ، أو وزارة التعليم العام ... لم يكن ينقص الا هذا ! ...

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق :

ـ ما ألطف الأشياء التى تقولها دائماً يا أمير !

ـ « أليس كذلك ؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكننى أحسن القول » (بالفرنسية) .

قالت آنا آندريفنا وهى تنهض :

ـ سأجىء ببطرس هيبوليتوفتش .

وكانت الغبطة تتلألأ فى وجهها. فقد أبهجها كثيراً أن رأتنى ألاطف الأمير هذه الملاطفة كلها . ولكن ما ان خرجت حتى تبدل وجه الشيخ فجأة . ونظر بسرعة الى الباب ، وأجال بصره فيما حوله ، ثم مال من ديوانه علىّ ، وهمس يقول لى بصوت مروَّع :

ـ « يا صديقي العزيز » ، ليتني أستطيع أن أراهما كلتيهما هنـا ! « آه بنيّ الغالي ! » .

ـ هدىء نفسك يا أمير !

ـ نعم نعم ، لكننا سنصلح بينهما ، أليس كذلك ؟ انه لشجار صغير محزن بين امرأتين تفيضـان كرماً وشـهامة ، أليس كذلك ؟ ليس لى من أمل الا فيك ... سنسوّى هذا كله هنا ...

ثم أضاف يقول وهو يلقى نظرة يكاد يكون فيها خوف :

ـ ولكن يا له من مسكن غريب ! وهذا المؤجر ! ان له عقـلا عجيباً . قل لى : أليس خطراً ؟

ـ المؤجر ؟ لا ! فيم يمكنه أن يكون خطراً ؟

ـ حسن ! عظيم ! « يبدو غبياً ، هذا السيد » ! ابنى ! أستحلفك بيسـوع المسيح لا تقل لأنا آندريفنا انى خائف من كل شى هنا . لقد أجزلتَ المديح لكل شيء منـذ أن وطئت هذا المكان ، حتى لقد مدحت المؤجر نفسه . اسمع ، أنت تعرف قصة فون سون ، هل تتذكر ؟

ـ نعم أتذكر ، فماذا ؟

ـ « لا شيء ... لا شيء البتة ... ولكننى حـــر هنا ، أليس كذلك ؟ » . ما رأيك ؟ لا يمـكن أن يحدث هنـــا شيء ... من ذلك النوع ؟

ـ لا ، لا ، يا عزيزى ، اطمئن ، أحلف لك ...

هتف فجأة يقول وهو يصم يديه أمامى ولا يخفى عنى شيئاً من جـزعه :

ـ « صديقى ، ابنى » ... اذا كان فى حوزتك شيء حقاً ...

وثائق مثلاً .. اذا كان ثمة ما يمكن أن تقوله لى .. فلا تقله .. لا تقله . لا تقل شيئاً ، ناشدتك الله ... لا تتكلم ... الزم الصمت أطول مدة ممكنة ، لا تتكلم ...

وأراد أن يحضننى بذراعيه . وسالت الدموع على خديه . لن أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبى : كان الشيخ المسكين أشبه بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه، وأخذنه الى أجانب . ولكن لم يُسمح لنا بأن نتعانق : فقد فُتح الباب ودخلت آنا آندريفنا ، ولكن الشخص الذى يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها ، حاجب البلاط . فصعقنى هذا الشىء الجديد صعقاً ، فسرعان ما نهضت واتجهت نحو الباب .

قالت آنا آندريفنا بصوت عال :

ـ آركادى ماكاروفتش ، اسمح لى أن أعرّف كلاً منكما بالآخر ...

فلم يسعنى الا أن أتوقف . وقلت مقطعاً كلماتى مبرزاً منها كلمة « أحسن » :

ـ أعرف أخاك « أحسن » المعرفة !

فجمجم الشاب وهو يقترب منى طلق الهيئة ، ويتناول يدى بحرية فلا أملك أن أسحبها :

ـ أوه ! ما كان أكبرها غلطة ... وانى لمذنب يا عزيزى آند .. آندره ماكاروفتش . ولكن خادمى ستيفان هو سبب كل شىء . لقد أساء الابلاغ عنك فحسبتك شخصاً آخر .

وأردف يشرح لأخته :

ـ حدث هذا بموسكو •••

ثم عاد يكمل كلامه لى :

ـ وقد بذلت بعد ذلك جميع جهـــودى لأعثر عليك وأشرح لك الأمر • ولكننى مرضت ••• اساله ! « يا أمير يجب أن نكون صديقين حتى بحكم النسب •• » •

وتجرأ الفتى الوقح الى حيث وضع يده على كتفى، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة • فأسرعت أخلّص كتفى من يده بوثبة الى جانب ، ولكننى خجلت أن أزيد على ذلك شـيئاً ، فاكتفيت بأن خرجت صـامتاً ، ومضيت الى غرفتى ، فجلست على سريرى مفكراً قلقاً مضـطرباً • كانت هـذه المكيدة تخنقنى خنقاً ، ولكننى لا أستطيع أن أُطيش صواب آنا آندريفنا وأن أسحقها سحقاً • لقد شعرت فجأة أنها هى أيضاً عزيزة على نفسى ، وأحسست أنها فى وضع رهيب •

٣

كما كنت أتوقع ، جاءت الى غرفتى ، تاركةً الأمير مع أخيها الذى أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نمائم المجتمع الراقى الجديدة، فسرعان ما استطاع بذلك أن يأسر وأن يفرح الأمير المسكين الذى يسهل التأثير فيه .

نهضت عن سريرى صامتاً مستفهماً . فبادرتنى آنا آندريفنا قائلة بلهجة جازمة :

ـ قلت لك كل شىء يا آركادى ماكاروفتش . ان مصيرنا بين يديك .

ـ لكننى نبَّهتك أيضاً الى أننى لا أستطيع ... ان واجباتى المقدسة تمنعنى من الاقدام على ما تعتمدين علىَّ فيه ...

ـ حقاً ؟ أهذا جوابك ؟ أنا لا يهمنى أن أهلك . ولكن الشيخ ؟ أعلمْ أنه سيُجنُّ منذ هذا المساء !

هتفت أجيبها بحرارة :

ـ بل سيجنُّ اذا أنا أطلعته على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يُعلن جنون أبيها . ذلك ما لن يستطيع أن يتحمله . هو قال لى هذا .

الحق اننى كذبت اذ ادعيت أنه قال لى ذلك . ولكن الكذب كان فى محله .

ـ قال لك هـذا ؟ قدّرت أن يقوله لك • فانا الهـالكة اذن • حتى لقد بكى منذ قليل ، وطلب ان يرجع الى البيت •

سألتها بالحاح :

ـ قولى لى : ما خطتك على وجه الدقة ؟

فاحمر وجهها من جرح كبريائها ان صح التعبير ، ولكنها كابرت وتجلدت ، فقالت :

ـ ان هذه الرسالة التى بين أيدينا تبرئنا فى نظر الناس • سوف أبادر فورا فأنبىء الأمير « ف ••• » و بوريس ميخائيلوفتش بلتشيف ، صديقى طفولته • هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ ، وأنا أعلم أنهما أبديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجشعة التى لا ترحم • ولاشك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبى ، وسألح أنا نفسى على طلب هذه المصالحة • ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً تاماً • وعدا ذلك سيدعمنى أقربائى من جهة أمى ، آل فاناريوتوف ؛ غير أن الشىء الذى يهمنى خاصةً انما هو سعادته • يجب أن يعرف أخيراً من ذا الذى كان مخلصاً له حق الاخلاص ، فيقدره قدره الذى يستحقه • وانى لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فيـه من تأثير يا آركادى ماكاروفتش • انك تحبه كثيراً ••• ولكن هل يحبه أحد غيرى وغيرك ؟ انه لم ينقطع عن ذكرك فى هذه الأيام الأخيرة • وكان يحنُّ اليك حنيناً شديداً ، ويشعر من بعدك عنه بضجر قوى • وكان يسميك « صديقه الشاب » • وطبيعى أن شكرى لك وامتنانى منك لن يكون لهما حدود ما حييت •••

ها ••• ها هى ذى الآن تعدنى بمكافأة ••• لعلها مكافأة مالية ! فقاطعتها قائلاً بلهجة خشنة ونبرة جازمة لا تنثنى ولا تلين :

ـ مهما تقولى ... فلن أتزحزح عن رفضى قيد شعرة ! لكننى أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعاملينني به من صراحة ، فأصارحك بآخر ما عقدت العزم عليه : بعد مدة قصيرة سأسلّم الرسالة المشئومة الى كاترين نيقولايفنا يداً بيد ، ولكننى سأشترط عليها بسبب كل ما حدث الآن ألا تقوم بفضيحة ، وأن تقطع لى على نفسها عهداً بألا تحول بينك وبين تحقيق سعادتك . هذا كل ما أستطيع أن أفعله .

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً :

ـ مستحيل !

لقد أثار استياءها أن تتصور أن كاترين نيقولايفنا سوف « تداريها » وتحميها .

قلت :

ـ لن أغيّر قرارى يا آنا آندريفنا .

ـ قد تغيّره .

ـ الجئى الى لامبير !

ـ آركادى ماكاروفتش ، انك لا تعرف المصائب التى يمكن أن تنتج عن عنادك .

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد . فأجبتها :

ـ جائز جداً أن تنتج مصائب ... اننى أشعر بدوار ! كفى الآن : لقد قررت وانتهى الأمر . ولكننى أرجوك ، بل أستحلفك بالله ، ألا تأتينى بأخيك .

ـ ولكنه يريد أن يمحو ما ...

ـ ليس هناك شيء يجب محوه ! ••• ما أنا في حاجة الى أن يمحو شيئاً • لا أريد ، لا أريد !

كذلك صحت وأنا أمسك رأسي بيدي • ولعلني قد عاملتها باستعلاء •

وأردفت أسألها :

ـ قولي لي : أين سيبيت الأمير ؟ هنا ؟

ـ سيبيت هنا ، عندك ومعك •

ـ اني تارك هذا البيت منذ الليلة •

وما ان نطقت بهذه الكلمات التي لا رحمة فيها ، حتى تناولت قبعتي وأخذت ألبس معطفي • فكانت آنا آندريفنا ترقبني صامتة مكفهرة الوجه • وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة ، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً • ومع ذلك خرجت دون أن أترك لها كلمة أمل واحدة •

٤

سأحاول أن أوجز . بعد أن اتخذت قراري قاطعاً لا رجعة عنه ، اتجهت قُدُماً الى بيت تاتيانا بافلوفنا . وا أسفاه ! لقد كان يمكن اتقاء مصيبة كبيرة لو أننى وجدتها . ولكن سوء الحظ كان يلاحقنى فى ذلك اليـوم . فلم أجـد تاتيانا بافلوفنا . فذهبت الى ماما ، أولاً لأزور أمى المريضـة ، وثانياً لأننى قدرت أننى سـوف أجد عندها تاتيانا بافلوفنا فى أغلب الظن . ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد تركت أمى منذ برهة وجيزة . وكانت أمى راقدة فى سريرها ، وقد بقيت ليزا وحدها معها . رجتنى ليزا ألا أدخـــل وألا أوقظ ماما من نومهـا قائلةً لى : « انهـا لم تنم الليل كله ، وظلت تتألم وتتعذب . فمن حسن الحظ أنها غفت الآن . » . قبّلت ليزا ، وقلت لها بكلمتين اننى اتخذت قراراً ضخماً حاسماً ، واننى مقدم على تنفيذه حالاً . فأصغت ليزا الى كلامى بدون دهشة كما يصغى المرء الى كلام عادى جدا ، ذلك أنهم جميعا قد ألفوا كثيرا أن يسمعوا منى كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها ، كقولى « قرارات أخيرة » ، ثم رأونى أرتخى فأتركهـا . ولكننى الآن .. الآن .. لن يكون شـأنى كما كان . ومن أجل أن أترك لتاتيانا مهلةً تعود أثناءها الى بيتها ، ذهبت الى المطعم الذى يقع تحت مسـتوى الشـارع ، والذى تروج فيه أغنية « لوسيا » رواجاً كبيراً . وسأشرح السبب الذى جعلنى فى حاجة شديدة الى تاتيانا بافلوفنا فجأة . لقد كنت أنوى أن أرسلها الى كاترين نيقولايفنا فوراً ، فتأتى بها الى بيتها ، فأردّ الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا بحضور تلك

المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة الى الأبد . الخلاصة انني كنت أريد أن أفعل الخير : أريد أولاً ان أبرىء نفسي تبرئة حاسمة ، وأحرص على هذه التبرئة وأعدُّها حقاً لي . حتى اذا فرغت من ذلك أخذت أدافع عن آنا آندريفنا وأقول فيها قولا حسناً ، ثم اصطحبت كاترين نيقولايفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهدا) الى بيتي ، أي الى الامير ، فأصلحت ما بين المرأتين المتعاديتين هناك ، وأردّ الحياة الى الأمير .. و .. و .. في نطاق هذه الطائفة الصغيرة ، أجعل الجميع سعداء ، منذ هذا اليوم ، ثم لا يبقى بعد ذلك الا فرسيلوف وماما . ولم يخالجني شك في نجاح مسعاي : فان كاترين نيقولايفنا ستكون ممتنةً من ردّ الرسالة اليها رداً لا أطالب أن أكافأ عليه بشيء ، فلن تستطيع أن ترفض تلبية رجائي . وا أسفاه ! كنت لا أزال أتصور أن الوثيقة في حوزتي . آه ما كان أغبى وأحقر الوضع الذي كنت فيه بدون أن أشعر ! ...

كان الظلام قد هبط ، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى . فقالت لي ماري بفظاظة « انها لم ترجع » . اني لأتذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكرا واضحاً . ولكنني في تلك اللحظة لم تراودني أية شبهة . حتى لقد خطرت لي هذه الفكرة الأخرى : ففيما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً مثبَّط العزيمة، تذكرت الأمير المسكين الذي مدّ اليّ ذراعيه منذ قليل ، فلمت نفسي لوماً لاذعاً لأنني تركته من غضب ؟ وأخذت أتصور ، قلقاً أشد القلق ، ما لعله حدث عندهم أثناء غيابي من أمور قد تكون سيئة غاية السوء ، فأسرعت أعود الى البيت . فعلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية :

ان آنا آندريفنا التي أغلظت لها القول وأغضبتها ، لم تفقد شجاعتها . يجب أن أذكر أنها كانت منذ الصباح قد أرسلت الى لامير مرةً أولى فمرة ثانية ، فلما لم يعثر عليه في بيته ، بعثت أخاها يبحث عنه . كانت المسكينة

بعد أن رأت صمودى وعنادى تعقد أملها كله على لامبير وتأثيره فىَّ • فكانت تنتظره نافدة الصبر • ولكن كان يدهشها أن تراه يهجرها فجأة ويختفى ، وهو الذى كان الى هذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم حولها • مسكينة ! كان لا يمكن أن يخطر لها على بال أن لامبير الذى يستولى الآن على الوثيقة ، قد اتخذ قرارات أخرى ، وأن من الطبيعى أن يتوارى عن الأنظار ، وأن يتوارى عن نظرها هى خاصة •

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان فى نفس آنا آندريفنا ، فكان طبيعياً أن تصبح عاجزة عن تسلية الأمير الشيخ ، وكان قلق الشيخ من جهته يشتد اشتداداً يدعو الى الخوف والفزع • كان يلقى أسئلة غريبة وجلة ، وكان ينظر الى آنا آندريفنا مشتبهاً مرتاباً ، حتى لقد أجهش باكياً عدة مرات • ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة • فاستدعت آنا آندريفنا ، بعد انصرافه ، بطرس هيبوليتوفتش الذى كانت تعوِّل عليه كثيراً • ولكن بطرس هيبوليتوفتش لم يحدث فى نفس الأمير الا الاشمئزاز بدلاً من أن يسليه ويسرِّى عنه • وكان الأمير ، على كل حال ، ينظر الى بطرس هيبوليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتياب ما ينفك يزداد • وقد شاءت المصادفة أن يستأنف بطرس هيبوليتوفتش ثرثرته عن تحضير الأرواح ، وعن ألاعيب أخرى قال انه شهدها بنفسه : منها أن مشعوذا مرَّ بالمدينة يوماً ، فكان يقطع رءوساً على مرأى من الناس ، فتسيل الدماء من الأعناق ، ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه ، ثم يعود الرجل فيتناول الرءوس المقطوعة ويردُّها الى مكانها فوق الرقاب فتلتصق على مرأى من جميع الناس أيضاً ، وقد حدث هذا كله سنة ١٨٥٩ ؛ فحين سمع الأمير هذا الكلام بلغ من شدة الهلع ومن شدة الاستياء فى الوقت نفسه أن آنا آندريفنا اضطرت أن تطرد القصاص • ومن حسن الحظ أن وصل الغداء فى ذلك الوقت ، وهو غداء عُنى به لامبير و آلفونسين أوصيا باعداده طباخاً فرنسياً حاذقاً يسكن فى بيت قريب ، ولكنه لا يعمل الآن فى مكان وانما

هو يبحث عن عمل فى منزل أسرة ارستقراطيــة أو فى أحد النوادى ٠ فكان من شأن هذا الغداء مع الشمبانيـا أن أفرح العجوز جداً ، فأكل كثيراً وفرح كثيراً ؛ وكان طبيعياً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغبة فى النوم ٠ واذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً ، فان آنا آندريفنا كانت قد أعــدّت له سريراً ٠ فكان وهو يرقد على السرير يقبّل يديها ويقول لهـا انها جنته ، وانهـا أمله ، وانهـا حوريتــه ، وانها « زهرته الذهبيــة » ، الى ما هنالك من تعابير شرقيــة ٠ ونام أخيراً ٠ وعندئذ انما وصلت أنا ٠

أسرعت آنا آندريفنـا تدخـل علىّ ، فضمّت يديها أمامى ضارعةً مبتهلة ، وقالت انهـا تتوسـل الىّ (لا من أجلهـا بل من أجل الأمير) ألا أخرج ، وأن أذهب اليه متى استيقظ من نومه ٠ « اذا لم تكن أنت معه فقد هلك ٠ لسوف يصاب بنوبة ٠ أخشى ألا يقاوم الى آخر اليوم ٠٠ » ٠ وأضافت تقول انهـا مضطرة أن تغيب عن البيت اضـطراراً لا ســبيل الى دفعــه ، « وان غيابهـا قد يطول ســاعتين ، فهى اذن تترك الأمير تحت حراستى » ٠ فقطعت لها على نفسى عهداً حاراً بأن أبقى الى المساء ، فاذا استيقظ بذلت كل ما أستطيع بذله من جهود لأسلّيه وأسرّى عنه ٠

فقالت تختم كلامها بقوة :

ـ وأنا سأقوم بواجبى ٠

وانصرفت ٠ يجب أن أذكر مستبقاً الوقائع أنها انما مضت تبحث عن لامبير ٠ انه آخـــر أمـــل لهـا ٠ وعـدا ذلك زارت أخـاها وأقرباءها آل فاناريوتوف ٠ فتستطيعون الآن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها النفسـية حين رجعت !

استيقظ الأمير بعد انصرافهـا بنحو ساعة ٠ وسمعت صوت أنينه من وراء الجدار ، فأسرعتُ اليه فوراً ٠ فوجدته جالســاً على سريره بثوب

المنزل ، ولكنه كان قد بلغ من شـدة الفزع من الوحدة وضوء المصباح الوحيـد الخافت وهـذه الغرفة الغريبـة أنه حين دخلت عليـه ارتعش وانتفض وصرخ . فهرعت اليه ، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا ، أخذ يقبّلنى ودموع الفرح تنهمر من عينيه .

ـ قيل لى انك تركت هذا البيت ، قيل لى انك خفت ففررت !

ـ من قال لك هذا ؟

ـ من ؟ دعنا ! لعلنى أنا الذى تخيلته . ولعل أحداً قاله لى أيضاً . لقد حلمت منذ قليل حلماً : رأيت شيخاً ملتحياً يدخل علىّ فجأة وفى يده أيقونة محطومة نصفين ، ويقول لى : « هكذا ستتحطم حياتك ! » .

ـ لابد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة !

ـ « أليس كذلك ؟ » ، نعم ، نعم ، علمت هـذا . علمته فى هـذا الصباح من داريا أونيسيموفنا . لقد نقلت الى هنا حقيبتى وكلبى .

ـ يا له من حلم غريب !

ـ وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهـددنى بأصبعه . ولكن أين آنا آندريفنا ؟

ـ ستأتى حالاً .

هتف يسأله بألم :

ـ من أين ؟ الى أين ذهبت ؟

ـ لا ، لا ، ستكون هنـا حالاً . لقد طلبت منى أن أبقى معك لحظة .

ـ « نعم » ، ستجىء . اذن جُنّ صاحبنـا آندره بتروفتش ، « وبهذه المباغتة ، وبهذه السرعة ! » . لطالما تنبأت له بأنه سينتهى هـذه النهاية . اسمع يا صديقى ...

قال ذلك وأمسك ردنجوتي وشدني اليه ، وهمس :

ـ جاءني المؤجر منذ قليل بصور فوتوغرافية ، صور فوتوغرافية قذرة ، صور نساء .. نساء عاريات .. بأوضاع شرقية مختلفة .. وأخذ يريني الصور في الضوء . فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً ، على مضض وكره . ولكن تلك هي الطريقة التي استعملوها مع ذلك المسكين ليجيئوه بنساء سيئات ، فيسكروه بسهولة أكبر ...

ـ تقصد فون سون أيضاً ! دعنا من هذا يا أمير ! ان المؤجر رجل غبي لا أكثر .

ـ غبي لا أكثر ! « هذا رأيي » . يا صديقي ، انقذني من هذا المكان ان استطعت !

قال ذلك وهو يضم يديه أمامي ضارعاً على حين فجأة . قلت :

ـ سأفعل كل ما أستطيع يا أمير ! أنا لك ... عزيزي الأمير ، انتظر ، قد أدبر جميع الأمور .

ـ « أليس كذلك ؟ » ، سوف نهرب ، تاركين الحقيبة هنا ، حتى يتخيلوا أننا سنعود .

ـ الى أين نهرب ؟ وآنا آندريفنا ؟

ـ لا ، لا ، سنهرب مع آنا آندريفنا .. « آه .. عزيزي » .. أحس بغليان في رأسي . اسمع : ان هناك ، في الكيس الذي على اليمين ، صورة لكاتيا . لقد دسست الصورة في الكيس خفية منذ قليل ، حتى لا تراها آنا آندريفنا ، وحتى لا تراها هذه المرأة داريا أونيسيموفنا خاصة ! .. أخرج الصورة بسرعة ، ناشدتك الله ، وأحرص على ألا يفاجئنا أحد .. ألا يمكن شد المزلاج فلا ينفتح الباب ؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صورة فوتوغرافية لكاترين نيقولايفنا

فعلاً ، صورةٌ ذات اطار بيضوى ، أخذها الشيخ منى ، وحملها الى الضوء ، فأخذت تسيل دموع غزيرة على خديه الهزيلتين الشاحبتين ، وهتف يقول :

ـ « ملاك ، ملاك من السماء ! » . أذنبت فى حقها طول حياتى . والآن أيضاً ! « ابنتى العزيزة » أنا لا أصدّق شيئاً ، لا أصدق شيئاً ! قل لى يا صديقى : هل صحيح أنه يراد ايداعى فى ملجأ للمجانين ؟ « أقول أشياء حلوة ، فيضحك الناس كافة » .. ثم يؤخذ هذا الرجل فجأة الى ملجأ للمجانين .

صحت أقول :

ـ مستحيل . هذا الكلام خطأ . أنا أعرف عواطفها .

ـ أنت أيضاً تعرف عواطفها ؟ رائع ! ... أحييتنى يا صديقى ! ما أكثر الكلام الذى قالوه لى عنك ! استدع كاتيا الى هنا ، ولتتعانقا كلتاهما أمامى ، فآخذهما الى البيت ، ونطرد المؤجر .

قال ذلك ونهض وضمّ يديه ضارعاً ، ثم ركع أمامى على الأرض فجأة ، وأضاف يهمس بجزع مسعور ، مرتعشاً كورقة فى مهب الريح :

ـ « عزيزى » ، أين سيحشروننى الآن ؟

فهتفت أقول وأنا أُنهضه وأُجلسه على السرير :

ـ ألا تصدقنى أنا أيضاً ؟ هل تظن أننى أنا أيضاً مشارك فى المؤامرة ؟ ألا اننى لن أسمح لأحد هنا أن يلمسك بأصبعه .

فتمتم يقول وهو يشدُّ على كوعىّ بيديه شداً قوياً وما يزال يرتعش :

ـ « نعم » ، لا تسمح لأحد ! لا تسلمنى الى أحد ! وأنت أيضاً

لا تكذب عليّ .. لأنه .. هل يمكن أن يقتادونى من هنا ؟ اسمع : هذا المؤجر هيبوليت ... أو ما اسمه ؟ هل هو ... طبيب ؟

ـ دكتور ؟

ـ وهنا ... أليس هنا ملجأ مجانين ، هنا ، فى هذه الغرفة ؟

ولكن البـاب فُتح فى تلك اللحظة و دخلت آنا آندريفنا . لاشك أنهـا كانت تتصنت وراء الباب ، ثم نفد صبرها ففتحت فجأة ، فاذا بالأمير الذى كان يرتجف من أيسر صرير ، اذا به يصرخ فجأة ويغطس رأسه فى وسـادته ، ثم اذا هو يعانى ما يشـبه أن يكون نوبة عصبية انتهت ببكاء يصحبه نشيج . قلت لها وأنا أشير الى الشيخ :

ـ انظرى الى ثمرة عملك الجميل !

فقالت رافعةً صوتها :

ـ بل هذه ثمرة عملك أنت . انى أتوجه اليك آخر مرة يا آركادى ماكاروفتش : هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التى دُبّرت لهذا الشيخ الذى لا يملك ما يدافع به عن نفســه ، وأن تضحى « باحلام حب جنونى صبيانى » فى سبيل أن تنقذ « أختك أنت » ؟

ـ سأنقذكم جميعاً ، ولكن على الوجه الذى ذكرته لك من قبل ! اخـرج الآن بسرعة ، فقد أستطيع أن أجىء بكاترين نيقولايفنا الى هنـا بعد ساعة ، فأصلح ما بينكم جميعاً ، وتسعدون جميعاً !

كذلك هتفت كالملهم .

قال الأمير وقد ثاب الى نفسه أخيراً :

ـ جىء بهـا ، جىء بها الى هنـا . خذنى الى بيتها ! أريد كاتيا ، أريد أن أرى كاتيا وأن أباركها .

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيـــه ، وينهض عن سرير
فقلت لآنا آندريفنا وأنا أشير اليه :

ـ هل ترين ؟ هل تسمعين ما يقول ؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة ،
يكن من أمر !

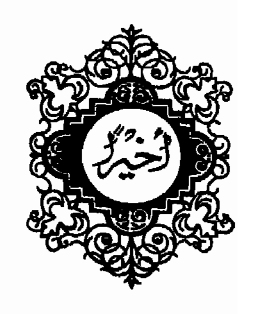
ـ أرى . ولكن الوثيقة لا تزال تستطيع أن تسوّغ سلوكي في
المجتمع ، أما الآن فأنا مجللة بالخزي والعار ! على أن ضميري نقي .
تركني الجميع ، حتى أخي الذي خشي الاخفـاق ... لكنني ســأ
بواجبي ، وسأبقى بقرب هذا المسكين خادمةً وممرضة .

ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته . فخرجت من الغرفة مسرع
وصرخت من العتبة قائلاً :

ـ سأرجع بعد ساعة ، ولن أرجع وحيداً .

الفصل الثاني عشر

١



وجدت تاتيانا بافلوفنا! فاندفعت أروى كل شيء دفعة واحدة ، فحكيت لها قصة الوثيقة من أولها الى آخرها ، وحدثتها عما يجرى عندنا تفصيلا . وقد استغرق هذا العرض زهاء عشر دقائق رغم أنها فهمت من تلقاء نفسها فهما كاملا، وأنها كانت قادرة على أن تدرك القضية بكلمتين. كنت وحدى أتكلم ، فقلت الحقيقة كلهاولم أخجل . وكانت هي صامتة ساكنة منتصبة الجذع كـوتد ، وبقيت جالسة على كرسيها مزمومة الشفتين لا تحول عنى عينيها ، وتصغى الى كلامى بكل ما تملك من قوة الاصغاء . ولكن ما أن أنهيت حديثى حتى وثبت عن مكانها فجأة ، وبلغت من سرعة الوثوب أننى وثبت أنا أيضا ، وانطلقت تقول :

ــ آ ... يا وغد ! ... اذن كانت تلك الرسالة مخيطة فى جيبك .. خاطتها تلك البنية الحمقاء ماريا ايفانوفنا ! آه يا نذل ، يا سافل ! اذن جئت الى هنا لتسيطر على القلوب ، ولتغزو المجتمع الراقى ، ولتلحق الأذى بأى انسان انتقاما لكونك ابن زنا .

صحت أقول لها :

ــ تاتيانا بافلوفنا، اننى أمنعك من شتمى، ولعلك أنت، بشتائمك، منذ البداية ، كنت سبب استعار نفسى هنا. نعم، أنا ابن زنا ، ولعلنى أردت فعلا أن انتقم لنفسى من ذلك بايذاء أى انسان ، مادام الشيطان

نفسه عاجزاً عن معرفة المذنب فى هذا ! ولكن تذكرى أننى نبذت تحالفى مع الأوغاد ، وأننى انتصرت على أهوائى الجامحة ! سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة ، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هى كلمة ، وستكونين على ذلك شاهدة .

أعطنيها ، أعطنى الرسالة ، واعطنيها حالا ، ضعها هنا على المائدة ! من يدرى ؟ لعلك تكذب !

ـ هى مخيطة فى جيبى . ماريا ايفانوفنا خاطتها بيدها . فلما صُنع لى هنا ردنجوت جديد ، سللتها من الردنجوت القديم وأعدت خياطتها بنفسى فى هذا الردنجوت . هى ذى ، هنا ، أمسكيها ، جسِّيها ، لست أكذب !

فأجابت تاتيانا بافلوفنا تقول بحماسة :

ـ أعطنيها اذن ! اسحبها !

ـ مستحيل . سأضعها أمامها بحضورك ، وسأنصرف بدون أن انتظر منها كلمة واحدة . ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينيها أننى أنا ، أنا نفسى ، الذى أردُّها اليها ، بارادتى ، من غير اكراه ، وبدون جزاء .

ـ افتخاراً بنفسك ! انك لاتزال مولَّها بالحب أيها الغر !

ـ صفينى بما تشائين من نعوت سيئة . اننى استحق ذلك كله . ولن أزعل . لتحسبنى صبياً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها . لتحسبنى ما تشاء . ولكن فلتعترف بأننى سيطرت على نفسى ، وفضَّلت سعادتها « هى » على كل شىء فى هذا العالم ! سيان يا تاتيانا بافلوفنا ، سيان ! اننى أهيب بنفسى قائلاً : عليك بالشجاعة وعليك بالأمل ! لعل هذه خطوتى الأولى فى الحياة ، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة ، نهاية نبيلة !

وتابعت أقول كالملهم وقد سطعت عيناى :

ـ ثم ... هبى أننى أحبها . لست أشعر من هـذا بخجل : ان ماما ملاك من السماء ، و « هى » ملكة فى الأرض ! وسيعود فرسيلوف الى ماما ... فلست فى حاجـة الى الخجل . لقد سمعت ما قالاه هناك ـ « هى » وفرسيلوف ـ فقد كنت وراء الستارة . آه .. نعم .. اننا نحن الثلاثة « مصابون بجنون واحـد » . هل تعلمين من قال هـذه الجملة ؟ انه هو ، آندره بتروفتش ! وهل تعلمين أننـا قد نكون هنـا أكثر من ثلاثة ، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسـه ؟ نعـم ، أراهن أنك الرابعة ! هل تريدين أن أقول لك ما أعتقد به : أراهن أنك أنت أيضاً قد تولهت طـوال حيـاتك بحب آندره بتروفتش ، وأنك ما تزالين مولّهةً بحبه الى اليوم ...

أعود فأقول اننى كنت أتكلم كالملهم تدفقاً ، وكنت سعيداً ، ولكننى لم أستطع أن أتمّ كلامى ، فهاهى ذى تاتيانا بافلوفنـا تمسك شعرى بحركة سريعـة سرعة خـارقة ، فتحنى رأسى الى الأرض مرتين ، بكل ما تملك من قوة ... ثم تتركنى حيث أنا ، وتنسـحب الى ركن ، فتضع وجهها على الجدار مغطى بمنديلها ، وتقول لى باكية :

ـ سافل ! لا تقل لى مثل هذه الأشياء بعد الآن .

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه ، فشدهت أشد الشده . وبقيت متسمراً فى مكانى أنظر اليها ولا أدرى ماذا يجب أن أعمل .

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكيةً فى آن واحد :

ـ غبى ! تعال ! تعال قبّل صديقتك العجوز البلهاء ! ولا تكرر هذه الأشـياء بعد اليوم أبداً . انى أحبك أنت ، ولقد أحببتك طول حياتى .. يا أبله !

قبّلتها • وأحب أن أقول مستطرداً اننا ـ أنا وتاتيانا بافلوفنا ـ قد أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين •

وهتفت تقول فجأة وهى تلطم جبينها :

ـ ولكن ما بقائى هنــا ؟ قلت لى ان الأمير العجــوز فى بيتــك ؟ هذا صحيح ؟

ـ أؤكد لك •

فجمجمت تقول وهى تركض فى الغرفة كفأرة :

ـ آه ••• رباه ! لشــدما يوجع قلبى ! هكذا يعاملونه اذن منــذ الصباح ! ان البلهاء لا يعاقبون اذن قط ! هل ارتاحت الآن آنا آندريفنا ؟ يا لها من راهبة ! والأخرى ، الـ « ميليتريا » ، لا تعرف شيئاً !

ـ ما ميليتريا ؟

ـ الملكة فى الأرض ، المثل الأعلى ! ما العمل الآن ؟

هتفت أقول وقد ثبت الى رشدى :

ـ تاتيانا بافلوفنــا • لقد استرسلنــا فى ســخافات ، ونسينا الشىء الأســاسى : لقد جئت باحثــاً عن كاترين نيقولايفنــا ، وهم ينتظروننى هناك !

وشرحت لهــا أننى سأسلّم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا مشترطاً عليها أن تعدنى بمصـــالحة آنا آندريفنــا فوراً ، بل بالموافقة لهـــا على زواجها •••

فقاطعتنى تاتيانا بافلوفنا قائلة :

ـ هذا حسن جداً • أنا أيضاً كررت عليها هذا مائة مرة • ذلك أنه سيموت قبــل أن يتم الزواج ؛ انه لن يتزوجهــا ، واذا أورثها فى وصيته بعض المال ، فلاشك أن هذا كتب فى الوصية منذ الآن •••

ـ هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترين نيقولايفنا ؟

ـ لا ، وانمـا هي كانت تخشى دائمـاً أن تكون الوثيقـة عندها ، عند آنا ، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً • فكنا نراقبها هي • كانت البنت لا تريد أن تصـدم أباها الشيخ • أما فيما يتعلق بالألماني بيورنـج ، فان المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً •

ـ وبعد هذا ، هل يمكن أن تتزوج بيورنج ؟

ـ ما حيلتنا مع غبية ؟ الغبي يبقى غبياً طول حياته • على كل حال ، سيهيء لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة • « لابد أنْ أتزوج أحداً ، فأي فرق بينه وبين غيره ؟ » • هـذا ما تقوله • وسـوف نرى ما يحدث • لسوف تعض على أصابعها ندماً ، ولكن بعد فوات الأوان •

ـ فلمـاذا تسمحين لها بهذا ؟ انك تحبينها ، حتى لقد أعلنت لها أنك مغرمة بها •

ـ مغرمة ، نعم ••• انني أحبها أكثر مما أحبـكم مجتمعين ••• ولكن هذا لا ينفي أنها بلهاء جداً !

ـ هلمي اليها حالاً • سنتخذ قراراً ونقودها الى أبيها •

ـ ولكن هذا مستحيـل ، مستحيـل يا غبي ! هذا بعينـه ما هو مستحيل ! آه ••• ما العمل ؟ انني أشعر بدوار •

وطفقت تتحرك في الغرفة مضطربة ، ولكنها تناولت معطفها •

قالت :

ـ آه ••• لو أنك أتيت قبـل أربع ساعات ••• الساعة الآن هي السـابعة وتزيد قليلاً • لقد ذهبت الى آل بلتشيف تتغدى عندهم ، ثم تصحبهم الى الأوبرا •

ـ فماذا لو ركضنا الى الأوبرا ؟ •• لا •• هذا مستحيل • ولكن ما عسى يحدث للعجوز ؟ انه قد يموت في هذه الليلة •

ـ اسمع • لاتذهب الى هناك ، بل اذهب الى ماما ، وغداً ، فى ساعة مبكرة من الصباح •••

ـ لا ، مستحيل ، لن أترك الأمير بحال من الأحوال مهما يحدث !

ـ انك على حق • لا تتركه • ولكننى أنا ••• سأجرى اليها رغم كل شيء ، فأترك لها كلمة ••• سأكتب برموزنا الخاصة (وستفهم هى) أن الوثيقة موجودة ، وأن عليها أن تجيء الىَّ حتماً فى الساعة العاشرة تماماً من صباح الغد • اطمئن • ستجيء • ستسمع لى • وعندئذ سنسوِّى كل شيء • اذهب أنت الآن الى هناك ، ودبِّر أمرك مع العجوز ••• أرقده ••• فقد يقاوم الموت الى الغد • ولا ترعب آنا آندريفنا • ذلك أننى أحبها هى أيضاً • أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم : لقد أوذيت وأهينت ، أوذيت وأهينت منذ طفولتها • آه •• ما أكثر ما رأيت منكم جميعاً ! ولكن لا تنس أن تقول لها على لسانى انى سأتولى الأمر بنفسى ، فأمسكه بيدى سعيدة بذلك ، ولتطمئن بالاً فلن تصاب كبرياؤها بسوء • ذلك أننا تشاجرنا فى الأيام الأخيرة ، وتشاتمنا ! فاركض اليها •• بل انتظر •• أرنى جيبك •• هل ما قلته صحيح ؟ صحيح حقاً ؟ هـه ؟ هل هو صحيح حقاً ؟ أعطنى الرسالة اذن ، أبقيها معى هذه الليلة فحسب • هل فى هذا ما يضرك ؟ اتركها عندى • لن آكلها • من الجائز أن تضيِّعها فى هذه الليلة •• أو أن تغيِّر رأيك !

ـ مستحيل ! أمسكى ، جسِّى ، شوفى ! لكننى لن أتركها لك بحال من الأحوال •

جسَّت تاتيانا بافلوفنا جيبى بأصابعها ، فقالت :

ـ ثمة ورقة حقاً • طيب • اذهب • هيَّا • وسأذهب أنا الى المسرح• فكرتك تلك حسنة • ولكن اركض ، ما بالك لا تركض •

ـ تاتيانا بافلوفنا ، لحظة ! كيف حال أمى ؟

ـ حسنة •

ـ وآندره بتروفتش ؟

فحركت يدها باشارة تهرُّب ثم قالت :

ـ سيسترد عقله •

فانصرفت مسرعاً وقد تشجعت وامتلأت نفسى رجاءً وأملاً ، رغم أن النتيجة كانت غير ما توقعت •

ولكن القدر كان قد شاء أن تجرى الأمور مجرى آخر ، وكنت أجهل ما هيأه لى • حقاً ان على هذه الأرض قدراً •

٢

سمعت فى بيتنا جلبة وأنا على السلم • كان باب البيت مفتوح
وفى الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية • وكان بطرس هيبوليتوف
وامرأته واقفين كذلك فى الدهليز ينظران مذعورين • ان باب غـ
الأمير مفتوح : وفى داخل الغرفة يجلجل صوت راعد سرعان ما عرفـ
انه صوت بيورنج • وما ان خطوت خطوتين حتى رأيت بيورنج يجـ
الأمير الى الدهليز ، هو ورفيقه البارون « ر ••• » الذى سبق أن
يفاوض فرسيلوف • كان الأمير غارقاً بدموعه ، يرتجف ويشهق ويعـ
بيورنج ويقبّله • وكان بيورنج يزعق صارخاً فى وجه آنا آندريفنا ا
خرجت هى أيضاً الى الدهليز تتبع الأمير • وكان بيورنج يهدد
ويتوعدها ، وأظن أنه كان يضرب الأرض بقدمه • الخلاصة أنه
يتصرف تصرف جندى ألمانى فظ ، رغم كل « المجتمع الراقى الذ
ينتمى اليه » • وقد عُرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندريفنا قد ارتكـ
جريمة من جرائم الحق العام ، وأنها يجب أن تحاسب الآن على هـ
الجريمة أمام القضاء • كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها ، كـ
يحدث هذا لكثير من الناس ، لذلك كان يرى أن من حقه أن يتصر
دون اكتراث بأى شىء ، ودون مراعاة لأى اعتبار • لا سيما وأنه
يتح له الوقت الكافى لتعمق المسألة : لقد وصلته رسالة غير مذيلة بتوقـ
صاحبها ، تبلغه كل شىء ، كما ظهر ذلك من بعد (وكما سأذكر بـ
قليل) ، فهرع وهو على هذه الحالة من الغضب المسعور التى يمكـ
أن ينحدر اليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألمانى

فاذا هم لا يفوقون في سلوكهم اسكافياً من الاسكافيين • وقد استقبلت آنا آندريفنا هذه الهجمة بوقار كبير ، لكنني لم أشهد هذا • وانما رأيت بيورنيج ، بعد أن جرّ العجوز الى الدهليز ، يسلّمه فجأة الى البارون « ر ••• » ، ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندريفنا فيرشقها بالجملة التالية (ربما جواباً على ملاحظة منها) :

ـ أنت محتالة متآمرة • ان ما تريدينه هو ماله ! فاعلمي أنك منذ هذه اللحظة قد تلطخ شرفك في المجتمع ، وأنك ستحاسَبين أمام القضاء ! •••

ـ أنت الذي تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفعتموه الى الجنون دفعاً ••• ثم تجيء تنتقم مني لأنني امرأة ليس لها من يدافع عنها •••

فقال بيورنيج ساخراً غاضباً ، بلهجة سيئة :

ـ آ •• نعم •• أنت خطيبته ، خطيبته ! ••

قال الأمير دامع العينين :

ـ بارون ••• بارون •••

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندريفنا :

ـ « أحبك يا ابنتي العزيزة » !

فصرخ بيورنيج قائلاً :

ـ دعك يا أمير ، ان هناك مؤامرة عليك ، وربما على حياتك !

ـ « نعم ، نعم ، أفهم ، فهمت منذ البداية » •••

قالت آنا آندريفنا رافعةً صوتها :

ـ أمير ، انك تهينني ، وتسمح لغيرك بأن يهينني !

فصرخ بيورنيج قائلا لها فجأة :

ـ اخرجي من هنا !

فلم أستطع صبراً . فزأرت أقول له :

ـ وغد .

وأضفت أخاطبها :

ـ أنا آندريفنا ، أنا أدافع عنك .

ليس في نيتي ولا في وسعي أن أسجل جميع التفاصيل . لقد كان مشهداً رهيباً دنيئاً . فقدت صوابي فجأة . أظن انني هجمت عليه فضربته ، أو صدمته صدمة قوية على الأقل . فضربني على رأسي بكل ما أوتي من قوة ، فاذا أنا أسقط على الأرض . فلما ثبت الى نفسي ، اندفعت اطاردهم على السلم . أذكر أن الدم كان يسيل من أنفي . وكانت تنتظرهم عند الباب عربة ففيما كانوا 'يركبون الأمير ، وثبت الى العربة ، وهجمت مرة أخرى على بيورنيج رغم أن الخادم كان يبعدني وينحيني . لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة . ولكن بيورنيج أمسك ياقتي وأصدر الى الشرطي أمراً صارماً بأن يقتادني الى المخفر . فصرخت أقول ان من الواجب أن يجيء هو أيضاً الى المخفر لتسجيل محضر ، وانه ليس من الحق أن 'أعتقل وأنا في بيتي تقريباً . ولكن لما كان المشهد قد حدث في الشارع لا في البيت ، ولما كنت أصرخ وأشتم وأتخبط كسكران ، ولما كان بيورنيج مرتدياً بزته العسكرية ، فقد قبض عليّ الشرطي ، فاذا أنا يجن جنوني فعلاً ، فأقاوم الشرطي بكل ما أملك من قوة ، حتى لقد ضربته فيما أظن . وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك ، فاقتاداني . ولكنني لا أكاد أتذكر كيف 'أدخلت الى غرفة يملؤها الدخان ، وتفسد جوّها رائحة التبغ ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضهم واقف ، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب . وهناك أيضاً ظللت أزعق مطالباً بكتابة محضر ، فبذلك تعقدت القضية اذ دخلها

عنصر مقاومة السلطة والتمرد عليها . وكان هندامي قد ساء كثيراً . ونهرني أحدهم نهراً عنيفاً . وأخذ شرطي يتهمني بمشاجرة استعملت فيها الضرب ، وطفق يحكي القصة فقال : كان كولونيل ... الخ ...

صرخ أحدهم يسألني :

ـ ما اسمك ؟

فزعقت أقول :

ـ دولجوروكي .

ـ الأمير دولجوروكي ؟

فأخرجني هذا السؤال عن طوري وأفقدني رشدي ، فأجبت بشتائم فاحشة .. ثم .. ثم .. أتذكر أنني جُررت الى حجرة مظلمة « لأفيق من سكري » . لا ، لست أحتج . لقد قرأ جميع الناس في الصحف في الآونة الأخيرة شكوى سيد قضى ليلة كاملة في المخفر ، وكبِّل بالسلاسل في غرفة « الصحو من السكر » ، وكان ذلك الرجل بريئاً براءة تامة ، أما أنا فقد كنت مذنباً . تهالكت على مرقد الى جانب شخصين كانا نائمين كجثتين هامدتين من فرط السكر . كنت مصاباً بصداع ، وكان صدغاي ينبضان ، وكان قلبي يدق دقاً قوياً . وأغلب الظن أنني قد أغمي عليّ ، وأخذت أهذي . لكنني أتذكر انني استيقظت في وسط الليل ، فجلست على المرقد ، فتذكرت فجأة كل شيء ، وأدركت كل شيء ، فجعلت كوعيّ على ركبتيّ ، ووضعت رأسي بين يدي ، وغرقت في تفكير عميق .

لا ، لن أصف هنا عواطفي ، فليس في الوقت متسع لذلك . ولكنني أريد أن أسجل ما يلي : لعلني لم أعش في حياتي كلها لحظات أحفل بالفرح من تلك الدقائق التي قضيتها مفكراً ، في الليل العميق ، على المرقد الحجري ، بمخفر الشرطة . قد يبدو هذا للقارىء أمراً غريبا

شاذاً ، وقد يحسبه تبجحا وتفاخراً ، وقد يعده رغبة في الاغتراب والتفرد .ولكن ما أقوله هو الحقيقة . تلك لحظة من اللحظات التي قد يمر بها كل انسان ، ولكن مرةً واحدة في حياته . ففي تلك اللحظة يقرر مصيره ، ويحدد آراءه ، ويقول لنفسه الى الأبد : « انظر أين هي الحقيقة ، وانظر أين يجب أن تنشدها » . نعم ، لقد أضاءت تلك اللحظة نفسي . كنت أعلم حق العلم ، بعد أن أهانني ذلك الرجل الوقح بيورنيج، وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التي تنتمي الى المجتمع الراقي ستهينني أيضاً في الغد ، كنت أعلم حق العلم أنني أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً ، ولكنني قررت ألا أنتقم . وقررت ، رغم الاغراء ، ألا أكشف عن الوثيقة ، وألا أطلع عليها الناس (كما كانت تدور هذه الفكرة في رأسي) ، وأخذت أكرر على نفسي أنني سأضع الوثيقة أمامها منذ الغد ، وأنني قد لا أحظى منها بكلمة شكر بل بابتسامة سخر ، غير أنني ، رغم كل شيء ، لن أقول كلمة واحدة ، وسأتركها الى الأبد ... ولكن لا داعي الى الالحاح . أما ما سيحدث غداً حين أساق الى السلطات ، وما سيصنع بي ، فذلك أمر نسيت تقريباً أن أفكر فيه . ورسمت على نفسي اشارة الصليب بارتياح ومحبة ، واضطجعت على المرقد ، ونمت نوماً مضيئاً كنوم الأطفال .

ولم أستيقظ في الغد الا ضحى . أنا الآن في الحجرة وحيد . جلست . وأخذت أنتظر صامتاً . انتظرت مدة طويلة . قرابة ساعة . وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة حين نوديت . في وسعي أن أذكر تفاصيل كثيرة . ولكن لا داعي الى ذلك ، مادامت هذه القصة كلها قد انتهت الآن . وحسبي أن أشير الى الشيء الأساسي . ما كان أشد دهشتي حين رأيتهم يعاملونني بدماثة غير معهودة : ألقوا عليَّ بضعة أسئلة ، أجبت عنها بما لا أتذكره الآن ، ثم أطلقوا سراحي فوراً . خرجت صامتاً . وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت في أعينهم دهشتهم من رجل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره في مثل الظرف الذي هو

فيه • لقد رأيت هذه الدهشـة ، ولولا أننى رأيتها لما سجلتها • وكانت تاتيانا بافلوفنـا تنتظرنى أمام البـاب • وسأشرح الآن كيف أمكن اخلاء سبيلى بمثل هذه السهولة •

في ساعة مبكرة من الصـباح ، فى نحو السـاعة الثامنة ، هرعت تاتيانا بافلوفنـا الى بيتى ، أعنى الى بيت بطرس هيبوليتوفتش ، آملةً أن تجد الأمير هناك ، فاذا هى تعلم بكل ما وقع فى الليلة البارحة من أهوال ، واذا هى تعلم خاصةً بأننى اعتقلت • فما هى الا طرفة عين حتى كانت عند كاترين نيقولايفنـا (التى التقت بأبيها منذ الليلة البارحة عند عودتها من المسرح ، اذ جيء به الى بيتها) ، فأيقظتها من نومها ، وأخافتها ، وطالبت بالافراج عنى فوراً • فزوّدتهـا كاترين نيقولايفنا ببطاقة طارت بها فوراً الى بيورنيج تطلب منه بطاقة أخـرى فى الحال ، موجهـةً الى « من يهمه الأمر » ، مشتملةً على « رجاء الافراج عنى بغير ابطاء لأننى اعتقلتُ خطأ » • وبهذه البطاقة وصلت الى مخفر الشرطة ، فتمت تلبية الرجاء •

٣

الآن أعود الى النقطة الأساسية •

أمسكت تاتيانا بافلوفنا ذراعى ، وأركبتى عربة ، وقادتنى الى بيتها • وهنـــاك أمرت بســـماور الشـــاى حالاً ، ورتبت هندامى ، ونظفتنى فى المطبخ • وفى ذلك المطبخ نفسه قالت لى بصوت عال ان كاترين نيقولايفنا ستصل اليها بنفسها فى الساعة الحادية عشرة والنصف لترانى (اتفقنا على ذلك منذ قليل) • وقد سمعت مارى هذه الكلمـات • فجاءتنـا بالســماور بعد دقيقـــة ، ولكن حين نادتهـــا تاتيانا بافلوفنـــا بعـد دقيقتين ، لم تجب ، اذ كانت قد خرجت من البيت • أرجـو القارىء أن يُبقى هـذا الأمر ماثلاً فى ذهنه • أظن أن الساعة كانت فى نحو العاشرة الا ربعاً • وقد غضبت تاتيانا بافلوفنـا من غيـاب مارى بدون اذن منها • ولكنهـا قالت لنفسها انها ذهبت الى المتجر ، ثم لم تخطر لها على بال • كان لدينا أشياء أخرى نفكر فيها • كنا نتكلم بدون توقف ، لأن هناك ما نتكلم فيه ، حتى اننى لم أنتبه الى اختفاء مارى • ولكنى أرجو القارىء أن يُبقى هذا الأمر ماثلا فى ذهنه •

كنت كالمخبول طبعاً • وكنت أتحـدث عن عواطفى • وكنا ننتظر كاترين نيقولايفنا خاصة • وكنت أرتعش حين أتصور أننى سألقاها بعد ساعة ، وأننى سألقاها فى مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتى • وأخيراً ، بعد أن حسوت فنجانين من الشاى نهضت تاتيانا بافلوفنا فجأة ، وتناولت المقص من على الطاولة وقالت لى :

ـ هات جيبك • يجب سحب الرسالة الآن • فليس يمكننا أن نقص الجيب بحضورها !

فهتفت أقول وأنا أحل أزرار ردنجوتي :

ـ نعم •

ـ ما هذه الخياطة المشربكة ؟ من خاط هذه الخياطة ؟

ـ أنا يا تاتيانا بافلوفنا ، أنا نفسي !

ـ واضح أنك الذي خطت !

وسحبت الرسالة • كان الظرف هو الظرف نفسه • ولكن لم يكن في الظرف الا ورقة بيضاء •

هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً وهي تقلب الورقة على جميع الوجوه :

ـ ما معنى هذا ؟ ما هذا الذي معك ؟

كنت واقفاً مشلول اللسان ، أصفر الوجه ••• وتهالكت على الكرسي خائر القوى فجأةً وكاد يُغمى عليَّ :

أعولت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ـ وما معنى هذا أيضاً ؟ أين الرسالة ؟

فصرخت أقول بغتةً وأنا انتفض :

ـ لامبير !

لقد حزرتُ أخيراً ، ولطمت جبيني بيدي • وأخذت أشرح لها بسرعة كلَّ شيء ، وأنا متقطع الأنفاس ، فحدثتها عن الليلة التي بت فيها عند لامبير ، وعن المؤامرة التي حكناها حينذاك • وكنت على كل حال قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس •

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدميَّ وأشد شعر رأسي بيدي :

ـ سرقوها منى ! سرقوها منى !

فقالت تاتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:

ـ يا للمصيبة ! كم الساعة الآن ؟

ـ الحادية عشرة تقريباً .

ـ ومارى التى ليست هنا ! يا مارى ! مارى !

فأجابت مارى فجأة من قرارة المطبخ :

ـ ماذا تريد مولاتى ؟

ـ أنت هنـا ؟ ولكن ما العمل الآن ؟ سأثب الى عندها .. وأنت يا من لا تصلح لشىء !

ـ انا أذهب الى لامبير . لأذبحنَّه اذا لزم الأمر .

ولكن مارى صاحت تقول من المطبخ :

ـ مولاتى ، ان « واحدة » تسأل عنك .

وما كادت مارى تنهى جملتها حتى دهمتنا تلك « الواحدة » من تلقاء نفسها صارخةً معولة . انها آلفونسين . لن أصف المشهد بجميع تفاصيله . كانت تلك خدعة وأكذوبة ، ولكن يجب أن نعرف لآلفونسين بأنها أجادت التمثيل اجادة هائلة . ردت آلفونسين ، وهى تذرف دموع الندم وتحـرك يديها باشـارات محمومة ، ردت (بالفرنسية طبعاً) أنها هى التى سرقت الرسـالة ، وان الرسـالة الآن عند لامبير ، وأن لامبير ، بالتواطؤ مع ذلك « الرجل الأسود » ، « قاطع الطرق » ، يريد استدراج « السيدة الجنرالة » الى بيته ، ليقتلها فوراً ، بعد ساعة ... وأنها سمعت هذا كله من فميهما ، فاعتراها ذعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس ، فهرعت الى هنـا ، الينا ، لنذهب معها ، لننقذ كاترين نيقولايفنـا ، لنوقيها القتل ... « ذلك الرجل الأسود » ...

الخلاصــة أن ذلك كله بدا لنـا جائزاً جـداً ، حتى ان السخافة والحماقة فى بعض شروح آلفونسين كانت تقوّى جوازه •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها :

ـ أى « رجل أسود » ؟

ـ « نسيت اسمه •• رجل فظيع •• نعم •• اسمه فرسيلوف » •

فهنفت :

ـ فرسيلوف ؟ مستحيل !

فصرخت تاتيانا بافلوفنا :

ـ بل يمكن أن يفعلها ! ولكن قولى لى يا « سيدة » ، بدون وثب ونط ، وبدون تحـريك الذراعين والرجلين ، ماذا يريدان أن يفعــلا ؟ اشرحى شرحاً معقولاً : اننى لا أستطيع أن أصدّق أنهما يريدان أن يطلقا عليها الرصاص •••

فأخذت « السيدة » تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً كما سـبق أن نبّهت) ، قالت ان فرسيلوف سـيبقى وراء البـاب ، وان لامبير سيريها هذه الرسالة ، متى دخلت ، وعندئذ يثب فرسيلوف فـ ••• « فينتقمان منها » • وانها ، هى آلفونسين ، تخشى أن تحل بها كارثة ، لأنها كانت شريكة متواطئة ، ولأن تلك « السيدة الجنرالة » ستأتى حتماً ، « على الفور ، على الفور » ، لأنهما أرسلا اليها نسخة من الرسالة ، فسوف ترى حالاً أن الأصل فى حوزتهما فعلاً ، فلا بد أن تأتى • ولامبير وحده هو الذى كتب لهـا الرسالة ، فهى لا تعرف شـيئاً عن فرسيليف • وقد عرّف لامبير نفســه بأنه رجـل أوفدته من موسكو ، سيدة بموسكو (لاحظوا : ماريا ايفانوفنا !) •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ـ آه •• أشعر بألم فى قلبى •• أحسن بتدهور فى صحتى ! ••

وصرخت آلفونسين :

ـ « أنقذوها ! أنقذوها ! » •

لاشك أن هذا النبأ المجنون يشتمل على كثير من التفكك يدركه المرء حتى من أول نظرة ، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه ، لأنه كان يبدو جائزاً كل الجواز حقاً • وكان فى وسعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترين نيقولايفنا بنا أولاً ، أى أن تجىء أولاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لامبير ، لتستجلى الأمر • ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث ، فقد تذهب اليها رأساً ، فتهلك ! •• وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصدّق أن ترتمى هذا الارتماء على رجل مجهول مثل لامبير ، استجابةً لأول نداء منه • ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً ، بعد أن ترى نسخة الرسالة ، فتقتنع بأن الأصل موجود عنده فعلاً ، فتذهب اليه فتقع الكارثة • وكان الوقت شديد الضيق خاصةً ، فما ينبغى أن نضيع منه دقيقة واحدة فى التفكير •

وهتفت أقول :

ـ لسوف يقتلها فرسيلوف ! اذا كان قد هبط الى حيث يتصل بلامبير ، فلسوف يقتلها حتماً ! انه المثْل !

قالت تاتيانا بافلوفنا وهى تعقف يديها :

ـ آه ! ••• هو « المثْل » • هلمَّ بنا • لابد ! خذ قبعتك ومعطفك ، ولنذهب الى هناك معاً • قودينا يا سيدة • آه •• ما أبعد المكان ! يا مارى ، مارى ! اذا جاءت كاترين نيقولايفنا فقولى لها اننى راجعة حالاً ، فلتجلس ولتنتظرنى ، واذا أبت أن تنتظر فأقفلى الباب بالمفتاح ، واحبسيها عن الخروج عنوةً • قولى لها اننى أنا التى أمرت بهذا • سأعطيك مائة روبل يامارى اذا أنت صنعت لى هذا المعروف •

واندفعنا الى السلم • لاشك أن هذا خير ما يمكن عمله ، لأن البلاء الأكبر عند لامبير ، فاذا اتفق أن جاءت كاترين نيقولايفنا الى تاتيانا بافلوفنا أولاً ، فسيكون في وسع مارى أن تحتجزها • ومع ذلك فان بافلوفنا غيرّت رأيها فجأة ، رغم أنها كانت قد نادت حوذياً • قالت وهي تتركني مع آلفونسين :

ـ اذهب أنت معها • ومت هناك اذا لزم الأمر ، هل تفهم ؟ وسألحق أنا بك • أما الآن فانني سأثب الى بيتها ، فقد أجدها هناك ، لأن الشكوك لا تزال تساورني ، مهما تقل !

وطارت الى بيت كاترين نيقولايفنا • وركضنا أنا وآلفونسين الى بيت لامبير • كنت أستحث الحوذى على الاسراع ، وأستمر في القاء الأسئلة على آلفونسين في الوقت نفسه ، ولكن آلفونسين أصبحت لا تجيب الا بصيحات وتأوهات ، وطفقت تبكي آخر الأمر • ولكن القدر كان يحرسنا ، فحمانا جميعاً حين كان كل شيء معلقاً بخيط واهن • فما ان قطعنا ربع الطريق حتى سمعت صرخة ورائي تناديني باسمي على حين فجأة ، فالتفت ، فاذا أنا أرى دتريشاتوف يلحقنا بعربة • صاح مرتاعاً :

ـ الى أين ؟ ومعها ، مع آلفونسين ؟

فصحت أقول له :

ـ لقد صدقت فيما قلت يا تريشاتوف : ان كارثة ستقع ! انني ذاهب الى ذلك الوغد السافل لامبير ! فتعال معي ، فيكون عددنا أكبر !

فصرخ تريشاتوف قائلاً :

ـ بل ارجع ، ارجع حالاً • لامبير يكذب ، وآلفونسين تكذب أيضاً • المجدور هو الذي أرسلني • ليسا في البيت : لقد لقيت لامبير وفرسيلوف منذ هنيهة • لقد ذهبا الى بيت تاتيانا بافلوفنا ••• وهما الآن هناك •••

أوقفت العربة ، وقفزت الى عربة تريشـاتوف • مازلت لا أدرى كيف اتخذت ذلك القرار فجأة ، ولكننى صدقت تريشاوف ، فسرعان ما عزمت أمرى • أخذت آلفونسـين تطلق صرخات رهيبـة ، ولكننـا تركناها فلا أدرى هل تبعتنـا أم هى رجعت الى بيتها • ولكننى لم أرها بعد ذلك على كل حال •

وفى العربة ، أفضى الىّ تريشـاتوف ، كيفما اتفق ، وهو يلهث ، بأن مكيدة قد دُبّرت ، وأن لامبير اتفق مع المجـدور ، ولكن المجدور خان لامبير فى آخـر دقيقة ، فأرسله ، هو تريشاتوف ، الى تاتيانا بافلوفنا ليبلغها أن عليهـا ألا تصـدّق لامبير وآلفونسـين • وأضـاف تريشاتوف أنه لا يعرف غير هذا ، لأن المجـدور لم يزد على ذلك شـيئاً ، لأن وقته لم يتسع لمزيد من الايضـاح ، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضـاً ، لأن القضية كلها توجب الاسراع • وتابع تريشاتوف كلامه فقال : « رأيت أنك ذهبت فجريت أتبعك » • كان واضحاً اذن أن المجدور يعرف كل شيء هو أيضاً ، مادام قد أرسل تريشاتوف الى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً • ولكن هذا كان لغزاً آخر •

ومن أجل ألا تختلط الأفكار ، سـوف أعمد الآن ، قبل وصف الكارثة ، الى شرح الحقيقة الصادقة كلها ، مستبقاً الأحداث آخر مرة •

٤

بعد أن سرق لامبير الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف • أما كيف أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبير ، فهذا ما لا أقوله الآن ، وانما أرجئه الى حينه • انه « المثل » على كل حال ! ولكن كان على لامبير ، بعد أن تحالف مع فرسيلوف ، أن يستدرج كاترين نيقولايفنا بأسلوب حاذق بارع •• لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتى • ولكن لامبير ، منذ أن لقيته فى الشارع امس الأول ، وأعلنت له متباهيا متفاخراً أننى سأرد الرسالة الى كاترين نيقولايفنا فى بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تاتيانا بافلوفنا ، قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا فافلوفنا : اذ اشترى مارى بعشرين روبلا • وغداة غد ، بعد ان تمت سرقة الرسالة ، زار مارى مرة أخرى ، وتفاهم معها تفاهما كاملا ، اذ وعدها بمائتى روبل ثمنا لما ستقدمه له من خدمات •

ذلكم هو السبب فى أن مارى ما ان سمعت أن كاترين نيقولايفنا ستكون عند تاتيانا بافلوفنا فى الساعة الحادية عشرة والنصف وأننى سأكون أنا أيضاً عندها ، حتى وثبت خارجة من البيت وركبت عربة وأسرعت تحمل النبأ الى لامبير •• هذا بعينه هو ما كان عليها أن تخبر به لامبير ، هذه هى الخدمات التى كان يجب عليها أن تقدمها له • واتفق أن كان فرسيلوف فى تلك اللحظة ذاتها عند لامبير • فما هى الا طرفة عين حتى تخيل تلك الخطة الجهنمية • يقال ان المجانين يكونون فى بعض اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكراً •

وكانت الخطة هي أن نستدرج ، أنا وتاتيانا ، الى خارج المسكن بأية وسيلة من الوسائل ، ولو ربع ساعة فقط ، ولكن قبل وصول كاترين نيقولايفنا ؛ وأن ينتظراهما في الشارع ، فمتى خرجنا أنا وتاتيانا بافلوفنا دخلا الى البيت الذي ستفتحه لهما ماري ، وانتظرا وصول كاترين نيقولايفنا . وفي أثناء ذلك يكون على آلفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت من قوة في أي مكان تشاء ، وبأية وسيلة تراها . واذ أن كاترين نيقولايفنا ستصل في الساعة الحادية عشرة والنصف ، كما وعدت بذلك ، فانها ستصل اذن قبل أن نستطيع نحن أن نعود (طبعاً لم تتلق كاترين نيقولايفنا أية دعوة من لامبير ، لقد كذبت آلفونسين : ان هذه القصة كلها انما كانت من اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها . ولم تزد آلفونسين على أن مثّلت دور الخائن الذي يخون من شدة فزعه) . ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان للاخفاق ، ولكن تفكيرهما كان سليماً : « اذا نجحت الخطة كان بها ، واذا لم تنجح فلا نفقد شيئاً لأن الوثيقة تبقى معنا » . ولكن الخطة نجحت ، وكان لايمكن الا أن تنجح ، لأننا كنا لا نستطيع الا أن نركض وراء آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض : « ماذا لو صحّ ما تقوله ؟ » . أعود فأقول : ان وقتنا لم يتسع للتفكير .

٥

داهمنا المطبخ أنا وتريشاتوف ، فوجدنا ماري شبه ميتة من الخوف • لقد أرعبها ، حين أدخلت لامبير وفرسيلوف ، أن رأت بين يدي لامبير مسدسا على حين فجأة • لئن قبلت من لامبير مالا ، فان المسدس لم يدخل في حسابها قط • فكانت مضطربة أشد الاضطراب ، فما ان وأتتني حتى ارتمت عليّ وقالت :

ـ الجنرالة جاءت ، ومعهما مسدس !

قلت آمر تريشاتوف :

ـ تريشاتوف ، ابق أنت هنا في المطبخ • فمتى صرخْتُ أناديك هرعتَ الى نجدتي بكل ما أوتيت من قوة •

وفتحت لي ماري باب الدهليز ، فتسللت الى غرفة تاتيانا بافلوفنا ، الى تلك الغرفة الصغيرة التي ليس فيها مكان الا لسرير تاتيانا بافلوفنا ، والتي سبق لي ذات مرة أن تنصتُّ منها على حديث • جلست على السرير ، وأسرعت أزيح الستارة قليلا •

وكان في الغرفة جلبة منذ ذلك الوقت ، وكان الحديث يجري بصوت عال • يجب أن أذكر أن كاترين نيقولايفنا قد وصلت بعدهما بدقيقة واحدة • وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن دخلت المطبخ •

كان الصياح يصدر عن لامبير • كانت هي جالسة على الديوان وكان هو متسمرا أمامها يصرخ كأبله • انني أعلم الآن لماذا فقد هدوءه

بهذا الغباء : لقد كان على عجلة من أمره ، كان يخشى ان يفاجأ • وكانت الرسالة فى يده • لكن فرسيلوف لم يكن بالغرفة • وقد تأهبت للوثوب عند أول خطر • وهأنذا أروى معنى الأحاديث التي جرت بينهما ، معناها فحسب • ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أتذكرها تذكراً واضحاً • ولكنني كنت عندئذ أشد انفعالا واضطراباً من أن أستطيع حفظها بدقة •

ـ هذه الرسالة تساوى ثلاثين ألف روبل • هل تدهشين ؟ الحق أنها تساوى مائة ألف ، لكنني لا أطلب الا ثلاثين ألفاً •

كذلك قال لامبير بصوت عال ، مندفعاً اندفاعاً رهيباً • فكانت كاترين نيقولايفنا ، رغم ذعرها الواضح ، تنظر اليه بازدراء واحتقار • قالت :

ـ واضح أن ههنا فخاً ، فلست أفهم شيئاً • ولكن اذا كانت تلك الرسالة معك حقاً ••

فقاطعها لامبير قائلا :

ـ خذى ! هى ذى ! انظرى اليها ! انظرى اليها ! ألست هى نفسها ؟ ثلاثون ألف روبل لا تنقص كوبكاً واحداً ••

ـ لست أحمل مالا •

ـ اكتبى سنداً • اليك ورقة • وبعد ذلك تجيئننى بالمال ، وسوف أنتظر أسبوعاً لا أكثر • فمتى جئتنى بالمال رددت اليك السند والرسالة •

ـ انك تكلمنى بلهجة سخيفة • وانك لمخطىء • سوف تؤخذ منك هذه الوثيقة متى شكوتك ••

ـ لمن ؟ هأ هأ هأ ! والفضيحة ؟ والرسالة التى سنطلع عليها الأمير ؟ وكيف يمكن أن تؤخذ منى ؟ اننى لا أحتفظ بوثائق فى بيتى • وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث • لا تعندى يا سيدتى ، اشكرى

لى اننى لا أطلب الا مبلغاً زهيداً • لو كان فى مكانى رجل آخر لطلب منك خدمات أخـرى تعرفين ما هى ! انهـا الخدمات التى لا ترفض أية امرأة جميلة أن تقدمها فى حالة صعبة وظرف حرج • أعرفت ما هى تلك الخدمات ؟ هأ هأ هأ ! • « أنت امرأة جميلة ! » •

لم تزد كاترين نيقولايفنـا على أن وثبت وثبة واحدة وقد احمرت احمراراً شديداً ، فبصقت فى وجهه • ثم اتجهت بسرعة نحو الباب • فاذا بالأحمق يشهر مسدسه • انه ، وهو الأبله المحدود العقل ، كان مؤمنـا ايمانا أعمى بما سـيكون للوثيقة من أثر ، فلم يدخل فى حسـابه نوع المرأة التى يخاطبها ، وذلك لأنه ، كما سبق أن قلت ، يتصور لدى جميع الناس وجود تلك العواطف الدنيئة نفسـها التى تملأ قلبه • لقد أثار بفظاظتـه حنق كاترين نيقولايفنـا منذ أول كلمة ، ولعلها ما كانت لترفض تسوية مالية •

أعول يقول وقد ثارت ثائرته من البصقة :

ـ لا تتحركى !

وأمسكها من كتفها وأراها المسدس ، ليخيفها طبعاً • فصرخت وتهالكت على الديوان • فاندفعت أنا الى الغرفة • ولكن ، فى تلك اللحظة نفسها ، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدهليز (كان ينتظر هناك) ، فلم أكد ألقى نظرة واحـدة حتى كان قد انتزع المسـدس من لامبير ، وأخذ يضربه على رأسـه بكل ما أوتى من قوة • فترنح لامبير ، وسـقط مغشياً عليه • وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السجادة •

أما هى فانها حين أبصرت فرسيلوف ، قد اصفر وجهها اصفراراً شـديداً ، وشخصت اليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياع ، ثم لم تلبث أن أغمى عليها • فارتمى عليها • هذا كله يبدو لى أننى لا أزال

أراه . أتذكر أنني ذعرت حين رأيت وجهه الأحمر الذى يشبه أن يكون بلون القرمز ، وحين رأيت عينيه المحتقنتين . وانى لأظن أنه ، وقد رآنى فى الغرفة ، لم يعرفنى . ارتمى عليها ، فتناول جسمها الهامد ، وأنهضه بقوة خارقة ، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة ، وأخذ يجول بها فى الغرفة ، وقد لاح فى وجهه الجنون . كانت الغرفة صغيرة ، ولكنه كان يطوف من ركن الى آخر ، دون أن يدرك لماذا يفعل ذلك . لقد فقد عقله فى لحظة . وكان لا ينقطع عن النظر اليها ، عن النظر الى وجهها . وكنت أنا أركض وراءه . كنت خائفاً من المسدس خاصة : لقد نسيه فى يده اليمنى مصوباً الى رأسها .

ولكنه دفعنى مرة بكوعه ، وركلنى مرة أخرى برجله . وقد أردت أن أنادى تريشاتوف ، ولكننى خفت أيضا أن أحنق المجنون . واخيرا أزحت الستارة ازاحة تامة على حين فجأة ، وتوسلت اليه أن يرقدها على السرير . فاقترب ووضعها على السرير ، لكنه تسمر أمامها وحدق الى عينها تحديقا ثابتا مدة دقيقة ، ثم اذا هو يميل عليها فجأة فيقبل شفتيها الشاحبتين مرتين . فأدركت أنه قد فقد عقله فقدا تاما ثم اذا هو يرفع مسدسه ويهم أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه ، فصوب المسدس الى وجهها ليطلق النار . فأمسكت ذراعه فورا بكل ما أملك من قوة ، وناديت تريشاتوف . أتذكر أننا صارعناه كلانا ، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه . لقد كان يريد أن يقتلها ، ثم يقتل نفسه . لكنه ، وقد منعناه من قتلها هى ، صوّب المسدس الى قلبه هو . ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه الى أعلى ، فاستقرت الرصاصة فى كتفه . وفى تلك اللحظة علت صرخة . انها تاتيانا بافلوفنا تدهم الغرفة . ولكن فرسيلوف كان قد رقد على الأرض مغمى عليه الى جانب لامبير .

الفصل الثالث عشر

١

خاتمة

انقضت على ذلك المشهد قرابة ستة اشهر ، ان مياها كثيرة قد جرت تحت الجسور ، وأن أشياء كثيرة قد أثيرت ، وبدأت أنا حياة جديدة ، وسوف أخلص القارىء من حديثي أنا أيضا .

ان سؤالا قد شغل فكري حينذاك وظل يشغله مدة طويلة : كيف أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشخص مثل لامبير ؟ وما الهدف الذي كان يرمي اليه ؟ وقد انتهيت الى تفسير الأمور على النحو التالي : انه أثناء تلك الفترة الفاجعة القصيرة ، أعني اليوم الأخير واليوم الذي سبقه ، كان لا يرمي الى أي هدف محدد ، وانما كان يعصف به ويستولي على عقله اعصار من العواطف المتناقضة . لا أعتقد أنه أصيب بجنون حقيقي ، لا سيما وأنه اليوم ليس مجنونا قط . ولكنني أومن بالمثْل دون تردد . فما « المثْل » ؟ لقد قرأت في الآونة الأخيرة كتابا لطبيب اختصاصي ، فعرفت أن « المثل » درجة أولى من درجات اختلال عقلي خطير يمكن أن يؤدي الى نهاية محزنة . ولقد أوضح فرسيلوف ، يوم حطم الأيقونة عند ماما ، أوضح بصدق هائل ، آلية « ازدواج » ارادته وعواطفه . انني ألح على ذلك المشهد . بالمشهد الذي حدث في بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث بتأثير « المثل » حتما . ومع ذلك أظل أتساءل : ألا يمتزج بفعل التحطيم ذاك ، رمز شرير ما ؟ وأراني أجيب على هذا السؤال بنعم ، وأعتقد أن

ثمة رمزا الى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال ، وما كن يؤمن به من حقوق ، وما كان يقوم فى أذهانهن من رأى . فبالاتفاق مع « المثل » انما حطم الأيقونة . فكأنه كان يقول : « هكذا سيتحطم توقعكن » . نعم ، كان هناك « المثل » ، ولكن كانت هنالك نزوة أيضا . على كل حال ، ذلك تخمين منى .

انه رغم عبادته لكاترين نيقولايفنا كان قد ترسخ فى قرارة نفسه شك صادق وعميق فى مزاياها الأخلاقية . فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذل نفسها أمام لامبير . ولكن اذا كان يتوقع ذلك ، فهل كان يريده ؟ أعود فأقول : اننى أومن ايمانا جازما بأنه كان لا يريد شيئا ، بل كان لا يفكر البتة . كانت رغبته كلها هى أن يوجد هناك ، وأن يثبت بعد ذلك ، وأن يقول لها شيئا ما .. وربما .. ربما أن يهينها ، وربما أيضا أن يقتلها ! ... لقد كان كل شىء فى تلك اللحظة جائزا وممكنا . ولكنه حين وصل مع لامبير كان لايعرف شيئا مما قد يحدث . يجب أن أضيف أن المسدس كان للامبير ، وأن فرسيلوف جاء بغير سلاح . فلما راى ما رأى من كبرياء كاترين وشممها ، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل حقارة لامبير الذى كان يهددها ، اندفع الى الغرفة ، وعندئذ انما فقد عقله . هل كان يريد أن يطلق عليها الرصاص فى تلك اللحظة ؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئا هو نفسه ، ولكن لا شك فى أنه كان سيطلق النار لولا أننا أمسكنا ذراعه .

ولم يكن الجرح الذى أصيب به قاتلا . . فقد شفى ، ولكن بعد أن بقى فى السرير مدة طويلة ، عند ماما طبعا . نحن الآن ، أثناء كتابة هذه الكلمات ، فى فصل الربيع ، فى منتصف شهر أيار (مايو) . النهار رائع . ونوافذنا مفتوحة . ماما جالسة الى جانبه . وهو يلاعب خديها وشعرها وينظر الى عينيها بحنان . ليس هو الآن الا نصف ما كان فرسيلوف من قبل . أصبح لا يترك ماما ، ولن يتركها أبدا . حتى لقد أوتى « موهبة

ذرف الدموع » ، على حـــد تعبير ماكار ايفانوفتش الذى لا يُنسى ، فى قصته عن التاجر • ويخيل الىّ من جهة أخرى أن فرسيلوف سيعمر طويلا• هو الآن معنا بسيط كل البساطة ، صادق كل الصـــدق ، كطفل ، ولكن بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة ، وبدون أن يفرط فى الكلام • لقد احتفظ بذكائه كاملا ، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقى ، غير أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزا • يجب أن أقول جازما اننى ما أحببته يوما كمـا أحبه الآن ، واننى يؤسفنى ألا أملك من فسحة الوقت والمكان ما يمكننى من الاسهاب فى الكلام عنه • ومع ذلك ســوف أروى قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع) : فى أثنـــاء الصوم الكبير كان قد شـفى من جرحه ، فاذا هو يعلن فى الأســـبوع السادس أنه سيتناول القربان المقدس • لم يسبق له أن تناول القربان منذ ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن • سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة • وأصبحوا فى البيت لا يحضرون من الطعام الا أطباقا بغير دسم ، ولكنها أطباق غالية الثمن فاخرة الصنف • وقد سمعته فى الغرفة المجـاورة ، يومى الاثنين والأحد ، يغنى أغنية « هاهو ذا العريس يأتى » ، متحمسا للحن والكلمات جميعا • وقد اتفق له فى ذينـك اليومين أن انطلق يتكلم فى الدين فقال كلاما رائعا • غير أن كل شىء انقطع يوم الأربعاء • اذ انتابه حنق مفاجىء أو « تناقض مضحك » كمــا قال ضاحكا • ان شيئا ما فى أفعال الكاهن وحركاته واشاراته قد بدا له غليظا • فلما عاد فى ذات يوم من الكنيسة قال وهو يبتسم ابتسامة لطيفة : « يا أصدقائى ، اننى أحب الله كثيرا ، لكن هناك أشياء تضايقنى ، لذلك لست مستعدا •• » وفى مساء ذلك اليوم كان طعـــام العشاء يضم شرائح لحم مقلى • ولكننى أعرف أن ماما تجلس الى جانبـه فى كثير من الأحيـان حتى اليوم ، فتحادثه بصوت عذب وابتسامة حلوة فى موضوعات مجردة جدا • انها الآن جريئة معه • لا أدرى كيف حدث هذا • تجلس الى جانبه وتكلمه ، ويجرى الحديث فى أكثر الأحيان

بصوت خافت • انه يصغي اليها مبتسما ، ويلاعب شعرها ، ويقبل يديها ، وتسطع على وجهه أكبر سعادة • وقد تعتريه في بعض الأحيـــان نوبات تكاد تكون هسترية ، فيتناول صورتها الفوتوغرافية ، تلك التى قبلها فى ذلك المساء المشهود ، فينظر اليها دامع العينين ، ويقبلها ، ويتذكر ، ويدعونا اليه جميعا • ولكنه فى مثل هذه اللحظات لا يتكلم الا قليلا ! •• ويبدو أنه نسى نيقولايفنا نسيانا تاما ، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة • أما عن زواجه بماما ، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث • وكانوا يريدون أن يسافروا به فى الصيف الى الخارج ، ولكن تاتيـانا بافلوفنا ألحت على ألا يفعلوا ، وهو نفسه لم يشأ على كل حال • فسوف يقضون الصيف فى الريف بمكان ما من مقاطعة بطرسبرج • يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أن تاتيانا بافلوفنا هى التى تنفق الآن على معيشتنا جميعا • ويجب أن أضيف شيئا آخر هو أننى حزين أشد الحزن من أننى ، طوال هذه المذكرات ، قد أبحت لنفسى أن أعامل هذه الانسانة بغير احترام ، وأن أنظر اليها من علٍ • ولكننى كتبت ما كتبته وأنا أتصـــور تصـــورا مسرفا فى الدقة كيف كانت حالتى فى كل لحظة من اللحظات التى وصفتها • وبعد أن فرغت من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أننى بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل لذكرياتى قد ربيت نفسى تربية جديدة • صحيح أننى أنكر كثيرا ممـــا كتبت ، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات ، ولكننى لا أريد أن أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة •

قلت انه أصبح لايتكلم عن كاترين نيقولايفنا البتة • بل انى لأعتقد أنه شفى شفاء تاما • عن كاترين نيقولايفنا أصبحنا وحدنا ، أنا وتاتيانا بافلوفنا ، نتكلم فى بعض الأحيان ، ونتكلم خفية • ان كاترين نيقولايفنا هى الآن فى الخارج • رأيتها قبل سفرها ، وزرتها فى بيتها عدة مرات ، ومن الخارج بعثت لى حتى الآن رسالتين أجبت عنهما • لن أقول شيئا عن مضمون الرسالتين ولا عن الموضوعات التى عالجناها حين تركتنا قبل سفرها : فهذه

قصة أخرى ، قصة « جديدة » كل الجدة ، لعلها لا تزال قائمة كلها فى المستقبل • حتى مع تاتيانا بافلوفنا هناك موضوعات معينة لا أقاربها • ولكن كفى هذا • أريد أن أضيف فقط أن كاترين نيقولايفنا لم تتزوج ، وهى مسافرة الآن مع بلشتشيف • لقد مات أبوها ، فهى أغنى الأرامل • انها الآن بباريس • لقد تمت القطيعة بينها وبين بيورنج بسرعة ، وكأنما تمت من تلقاء نفسها ، على نحو طبيعى جدا وسأحكى هذا على كل حال •

ففى الصباح من يوم ذلك الحادث الرهيب ، استطاع المجـــدور ، أعنى ذلك الذى انتقل تريشاتوف وصديقه الى خدمته ، أن يبلغ بيورنج بالمؤامرة التى تحاك • اليكم كيف حدث ذلك : كان لامبير قد جعـــل المجدور يقرر الاشتراك فى المؤامرة ، وأطلعه بعد أن صارت الوثيقة فى حوزته ، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه ، وأطلعه أخيرا على الخطة الأخيرة ، أى الخطة التى تخيلهـا فرسيلوف لخداع تاتيانا بافلوفنـا • ولكن المجدور آثر فى اللحظة الحاســـمة أن يخون لامبير ، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعا ، اذ تخيل فى هذه المشروعات كلهـا امكان حدوث جريمة ، ورأى خاصة أن الحظوة بعرفان بيورنج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضعها رجل أهوج أخرق مثل لامبير ورجل جعله الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف • ذلك كله علمته بعدئذ من تريشاتوف • يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أننى أجهل ولا أفهم العلاقات التى كانت قائمة بين لامبير والمجدور ، ولماذا كان لامبير لا يستطيع الاســـتغناء عن المجدور • ولكن المسألة التى كانت تثير عجبى أكثر من سائر ما عداها هى التالية : ما كانت حاجة لامبير الى فرسيلوف ، مع أنه بعد حصـــوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاما ؟ ولقد أصبح الجواب واضحا الآن : كان لامبير فى حاجة الى فرسيلوف أولا لأن فرسيلوف عالم بالظروف ، وثانيا لأنه يستطيع فى حالة الخطر أو فى حالة

وقوع مصيبة أن يلقى على فرسيلوف جميع التبعات • ولما كان فرسيلوف في غير حاجـة الى المال ، فقد رأى لامبير أن مشـــاركته مفيدة الى أقصى حد •

ولكن بيورنج لم يصل فى اللحظة المطلوبة • وانما وصل بعد اطلاق النار بساعة ، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً • فبعد خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه ، نهض لامبير ، وكنا نظنه ميتاً ، فأجال بصره فيما حوله ، فأدرك فى الحال كل شيء ، ومضى الى المطبخ بدون أن يقول كلمة ، فارتدى معطفه واختفى الى الأبد • وبقيت « الوثيقة » على المائدة • وقد سمعت أنه لم يصب حتى بمرض ، ولم يعان الا شـيئاً من أوجاع طفيفة • لقد جنـدلته الضربة ، وأنزفت دمه ، ولكنها لم تنله بأذى •

وفى أثناء ذلك ركض تريشاتوف يستدعى الطبيب • ولكن فرسيلوف أفاق من غيبوبته قبل وصـول الطبيب ، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترين نيقولايفنا الى الحياة وأن تعيدها الى منزلها • وهكذا ••• حين دهم بيورنج بيت تاتيانا بافلوفنـا لم يكن هنـاك أحـد الا أنا والطبيب وفرسيلوف الجريح وماما التى كانت لا تزال مريضة ولكنها هرعت الى فرسيلوف كالمجنونة اذ أنبأها تريشاتوف ذلك نفسه • نظر بيورنج مدهوشاً ؟ وما ان عرف أن كاترين نيقولايفنا قد مضت حتى ذهب الى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة •

كان مضطـرباً ، اذ رأى رؤية واضـحة أن الفضيحة وذيوع النبأ أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما • ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى ، وكل ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتهـا الألسن • صـحيح أن طلقة المسدس قد استحال اخفاء أمرها ، ولكن الجزء الأساسى من القصة كلها ظل شـبه مجهول • ولم يقرر التحقيق الا أن رجلاً عاشقاً اسـمه « فـ ••• » ، وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسـين من العمـر ، قد أطلق

النار على نفسه من مسدس فى نوبة جنون ، بينما كان يعلن غرامه لسيدة جديرة بأعظم الاحترام ، لكنها لا تبادله عواطفه . لم 'يعلم شيء أكثر من هذا . وفى هذه الصورة انما انتقل الخبر الى الجرائد غامضاً ، بدون ذكر الأسماء ، الا أحرفها الأولى . أعلم مثلاً أن لامبير لم يقلق أبداً . ولكن بيورنج الذى كان يعرف الحقيقة خاف خوفاً شـديداً . ولقد علم فجأة ، بما يشـبه المصادفة ، أن لقاء تم قبل الكارثة بيومين بين كاترين نيقولايفنا وفرسيلوف الذى يحبها . فأحنقه ذلك حنقاً قوياً ، فأباح لنفسه بغير تروٍ ولا حـذر أن يقول لكاترين نيقولايفنا انه لا يدهشه أن تقع لها أحداث فظيعة كهذه . فلم تلبث كاترين نيقولايفنا أن صرفته فوراً ، بدون غضب ، ولكن بدون تردد ؟ ان ما كانت تقدره من أن زواجها بمثل هذا الرجل زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار . ولعلها كانت قد كشفته وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة . ولعلها أيضاً ، بعد الهزة القوية التى أصابتها ، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بغتة . يجب أن أضيف أن لامبير فر الى موسكو ، وقد علمت أنه قبض عليه هنالك فى قضية أخرى . أما تريشاتوف فاننى منذ مدة طويلة ، بل منذ وقوع تلك الأحداث تقريبـاً ، قد غاب عن بصرى فلم أره رغم جميع الجهود التى لا أزال أبذلهـا لأقع على آثاره . لقد اختفى بعـد موت صـديقه « الأبله الطويل » الذى أطلق على رأسه الرصاص .

٢

ذكرت موت الأمير العجوز نيقولا ايفانوفتش . ان هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة ، بعد نحو شهر ، في الليل ، على سريره ، من سكتة قلبية . ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذي قضاه في بيتي . وقد رُوى عنه في أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً ، وأنه صار امرأ جاداً كثير الجد ، فهو لا يخاف ، ولا يبكي ، حتى انه لم يقل كلمة واحدة عن آنا آندريفنا طوال تلك المدة . وقد انصب حبه كله على ابنته . وقبل وفاته بأسبوع ، اقترحت عليه كاترين نيقولايفنا أن يستدعيني لأسليه وأسرّي عنه ، ولكنه قطب حاجبيه . انني أذكر هذه الواقعة بدون أن أحاول تفسيرها وتعليلها . وكانت أطيانه مزدهرة ، وكان يملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال . وقد أمر في وصيته بأن يوزّع ثلث هذا المال تقريباً على أولاده بالمعمودية وما أكثرهم ! ولكن الأمر الذي أدهش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر الى آنا آندريفنا ، وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً . اليكم مع ذلك ما أعلمه علم اليقين : ان الشيخ ، قبل وفاته ببضعة أيام فقط ، استدعى ابنته وصديقيه بلشتشيف والأمير « ف ... » ، فأمر كاترين نيقولايفنا بأن تقتطع من هذا المال عند وفاته القريبة مبلغ ستين ألف روبل تخص بها آنا آندريفنا . لقد عبّر الشيخ عن ارادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضباً دقيقاً ، دون أن يبيح لنفسه أي تعليق أو تعقيب . وبعد وفاته ، حين أضحى كل شيء واضحاً ، عهدت كاترين نيقولايفنا الى مصرّف أعمالها بابلاغ آنا آندريفنا أن في وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبل متى شاءت . ولكن

آنا آندريفنــا رفضت العرض بجفاء وبغير كلام زائد : رفضت قبض المبلغ رغم كل ما 'أكدّ' لها من أن هذه هي ارادة الأمير فعلاً • ولا يزال المبلغ موقوفا ينتظر أن تقضبه آنا آندريفنا، ولا تزال كاترين نيقولايفنا تأمل أن تغيرّ آنا آندريفنا رأيها • ولكن آنا آندريفنا لن تغير رأيها • فهذا ما أعلمه يقيناً ، لأنني اليوم من أقرب أصــدقاء آنا آندريفنا اليها • وقد أثار رفضها ضجة ، وتحدث عنه الناس • وكان من شأن هذا أن خالتها فاناريا توفا التي ساءتها منها فضيحتها مع الأمير في البداية ، قد غيرّت رأيها فيها بعد رفضها المال ، فأعربت لها عن احترامها جهاراً • ولا كذلك أخوها ، فقد شاجرها بسبب هذا الرفض شــجاراً شديداً • على أنني لا أستطيع أن أقول ، رغم كثرة ترددي على آنا آندريفنــا ، هل العلاقة التي بيني وبينها علاقة حميمة وثيقة • عن الماضي نحن لا نتحدث اليوم أبداً • انها 'تسر' باستقبالي ، ولكن حديثها معي حديث مجــرد • ولقد قالت لي فيما قالت انهــا مصممة على دخول الدير حتماً • قالت لي هذا منذ مدة غير طويلة • ولكنني لا أصدّق أن تفعل ، ولا أرى في قولها هذا الا تعبيراً عن مرارة •

على أن المرارة الكبرى انما هي في حــديثي الآن عن أختي ليزا • ذلكم هو الشقاء الحقيقي ! ما أهون أنواع الاخفاق التي منيت' بها اذا هي قيست بمصيرها الحزين ! أولاً : لم يشف الأمير سرجي بتروفتش ، ومات في المستشفى قبــل صدور الحكم • مات قبــل الأمير نيقولا ايفانوفتش • وبقيت ليزا وحيدة مع جنينها • كانت لا تبــكي • حتى لقد كانت تبــدو هادئة • وصارت لينة دمثة عذبة طيعة • غير أن ما كان يزخر به قلبها في الماضي من حــرارة كان كأنه 'دفن في أعماق نفسها • كانت تســاعد ماما بمذلة ، وتعنى بآندره بتروفتش المريض • ولكنها أصبحت صموتاً صمتاً رهيباً ، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر الى شيء ولا أن ترى أحداً ، فكأن جميع الأمــور عندها ســواء ، وكأنها لا تكترث بشيء من الأشياء • وقد هزلت هزالاً مخيفاً • كنت لا أجرؤ أن أواسيها ، رغم أني

كثيراً ما جئت اليها عاقداً نيتي على ذلك • فما ان ألقها حتى أجدني عاجزاً عن مقاربتها ، وحتى تعوزني الكلمات اللازمة لمواجهة هذا الموضوع • وامتد ذلك الى أن وقع حادث رهيب : زلت قدمها على السلم فسقطت ، لا من أعلى السلم ، بل من ثلاث درجات فقط ، لكنها أجهضت واستمر مرضها الشتاء كله تقريباً • وقد نهضت الآن ، ولكنها في أعقاب ضربة كهذه الضربة لن تسترد صحتها الا بعد مدة طويلة • ولا تزال معنا شديدة الصمت كثيرة الوجوم والتفكير ، ولكنها مع ماما عادت تتكلم قليلاً • وقد طلعت علينا في هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة ، عالية رائقة ؛ ولا أزال أتذكر بيني وبين نفسي تلك الصبيحة المشمسة من أيام الخريف الماضي حين تنزهنا معاً وقد امتلأ قلبانا كلانا بالفرح والأمل ، وأحب كل منا الآخر حباً كثيراً ! يا حسرتاه ! ماذا وقع من بعد ؟ لست أتشكى • فأنا قد بدأت حياة جديدة • ولكن هي ؟ ان مستقبلها لغز • ولا أستطيع أن أراها الا ويعصر قلبي الألم •

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أثير اهتمامها اذ حدثتها عن فاسين • لقد أطلق سراحه أخيراً ، وأفرج عنه افراجاً نهائياً • و'روى أن هذا الرجل الزاخر برجاحة العقل وحصافة الرأى قد استطاع أن يقدم أدق الايضاحات وأهم المعلومات ، فبرأ نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره رهناً برأيهم فيه • وقد تبينّ على كل حال أن المخطوطة التي أثارت ذلك اللغط كله لم تكن الا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده ، على نية أن يعتمد عليها في كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات في المستقبل• وقد سافر الآن الى اقليم « ••• » ؛ أما زوج أمه ستيبلكوف فلا يزال في السجن بسبب قضيته الخاصة التي علمت أنها ما تنفك تكبر وتتسع • لقد أصغت ليزا الى حديثي هذا عن فاسين وهي تبتسم ابتسامة غريبة، وقالت ان ذلك هو ما كان لابد أن يقع له • ولكن كان واضحاً أنها 'سرّت بما رويته لها ، وأغلب الظن أن مردّ سرورها الى أن المرحوم الأمير سرجي بتروفتش لم 'يلحق تدخله ضرراً بفاسين ، ولم يصبه

بأذى • أما درجاتشيف والآخرون ، فليس عندي ما أقوله عنهم هنا •

انتهيت • لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث فأقول لهم ماذا صارت اليه « فكرتي » ، وما هي تلك الحياة الجديدة التي بدأتها والتي أشرت اليها اشارة ملفعة بالسر ؟ فأقول ان هذه الحياة الجديدة التي تنفتح أمامي هي بعينها « فكرتي » ، هي « فكرتي » السابقة نفسها ، ولكن في صورة مختلفة كل الاختلاف حتى لينكرها المرء ولا يعرفها • ذلك كله لا يدخل في نطاق هذه المذكرات لأنه شيء آخر • انتهت الحياة القديمة ، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت • ومع ذلك سأضيف ما لا غنى عن اضافته • ان صديقتي المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضني كل يوم تقريباً على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً ، وتقول : « فمتى أتممت دراستك رايت ماذا يجب أن تفعل • أما الآن فأتمم دراستك • » • أعترف بأن هذا العرض يحملني على التفكير ، لكني أجهل القرار الذي سأتخذه كل الجهل • وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً اني الآن لا يجوز لي أن أتابع دراستي ، اذ يجب عليّ أن أعمل لأعول ماما وليزا • ولكنها تعرض عليّ ثروتها مؤكدةً أنها تكفي لمدة دراستي كلها • وقد قررت أخيراً أن ألتمس نصيحة أحد الناس • فبعد أن استعرضت مَنْ حولي وقع اختياري على هذا الرجل ، نيقولا سيمنوفتش ، معلمي السابق بموسكو ، زوج ماريا ايفانوفنا ؟ لا لأني في حاجة شديدة الى نصائح ، الا أن رغبة قوية لا سبيل الى مغالبتها قد دفعتني الى معرفة رأي هذا الرجل الأناني ، الغريب كل الغرابة عن الأحداث التي وصفتها ، ذي القلب الذي يتصف بالبرود ، ولكنه ذكي ذكاء لا يمكن جحوده • فأرسلت اليه مخطوطتي ، طالباً منه أن يبقيَ أمرها سراً مكتوماً ، لأنني لم أطلع عليها أحداً بعد ، ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة • وقد عادت اليّ المخطوطة بعد خمسة عشر يوماً ، مصحوبة برسالة طويلة • وهأناذا أسرد فيما يلي مقتطفات من تلك الرسالة ، لأنني أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تعليلية • اليكم هذه المقتطفات :

٣

« عزيزى آركادى ماكاروفتش الذى لا يُنسى ، انك لم تستطع فى يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات ! لقد حصلت لنفسك على ادراك واعٍ لخطاك الأولى العاصفة المحفوفة بالمخاطر فى درب الحياة . وانى لأعتقد جازماً بأن هذا الاستعراض قد أتاح لك فعلاً ، فى كثير من النقاط ، أن « تربى نفسك تربيـة جديدة » كما تقول أنت نفسك . لن أسمح لنفسى بأى نقد حقيقى ، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعى ملاحظـات . من ذلك أن حرصـك الشديد العنيد المصر على الاحتفاظ « بالوثيقـة » طول تلك المدة شىء بارز الى أبعد حد . على أن هذه الملاحظة التى أبحتها لنفسى ليست الا واحدة من ألف . وانى لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبـوح لى ـ أنا وحـدى فى أغلب الظن ـ بسرٍّ « فكرتك » ، على حد تعبيرك . ولكن حين تسـألنى أن أعرب لك عن رأيى فى هذه الفكرة ، فاننى أكون مضطـراً الى الامتنـاع عن ذلك قطعاً . أولاً لأن الاعراب عن هذا الرأى يحتـل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة . وثانياً لأننى غير متأهب للاجابة فما زلت فى حاجة الى هضم هذا كله . ولكننى أقول ان « فكرتك » تتميز بأصالتها ، على حين أن كثيراً من شباب الجيل الحالى ينقادون فى أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تنبع من أنفسهم ، وعددها محدود جداً ، وكثيراً ما تكون خطرة . ان « فكرتك » قد حمتك مثلاً ، خلال زمنٍ على الأقل ، من أفكار السادة درجاتشيف وشركاه ، التى هى أقل أصالةً ولا شك . وأخيراً فاننى موافق كل الموافقة على رأى المحترمة

تاتيانا بافلوفنا التى عرفتها شخصياً ، ولكن لم يتح لى حتى الآن أن اقدرها القدر الذى تستحقه • ان رأيهـا فى ادخالك الجامعـة سيعود عليك بخير كثير • فلا شك أن العلم والحياة ، خـلال ثلاث سنين أو أربع ، سـوف يوسّعان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك ، فاذا أردت بعد الجامعه أن تعود الى « فكرتك » فلن يمنعك عن ذلك شيء •

« واسـمح لى الآن ، رغم أنك لم تطلب منى هذا ، أن أعرض لك بصراحـة بعض آرائى أو انطباعاتى التى كوّنتهـا فى نفس قراءة هذه المذكرات الصادقة جداً • نعم ، اننى أوافق آندره بتروفتش على أن هناك ما يدعو حقاً الى الخوف عليك وعلى شبابك « المعتزل » • ما أكثر أمثالك من الشـبان الذين تتعرض مواهبهم فعـلاً لأن تنمو فى الاتجـاه السيء : فاما عبودية على طريقة مولتشالين ، واما رغبـة خبيثة فى الفوضى • وهذه الرغبة فى الفوضى انما تنشأ ــ ربما فى أكثر الأحيان ــ عن ظمأ خفى الى النظام ، « الجمال » (اننى أستعمل كلمتك) • ان الشباب طاهر نقى لمجرد أنه شباب • ولعل تلك الاندفاعات المبكّرة الى الجنون انما تشتمل على ذلك الظمأ الى النظـام وعلى ذلك البحث عـن الحقيقة • فمن المذنب اذا كان بعض الشباب فى عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام فى نظريات تبلغ من الحماقة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها ! أحب أن أقول فى هذه المناسبة ان المرء كان يمكن فى الماضى ــ فى عصر ليس بعيداً ، فى عهد لا يبعد عنـا أكثر من جيل واحـد ــ ألا يأخذه بأمثال هؤلاء الشبان ما يأخذه بهم الآن من شفقة ورحمة ، لأن أمثالهم فى ذلك كانوا ينتهون فى جميع الأحيان تقريباً الى الانضمام الى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف انضماماً ناجحاً ، وأن يصبحوا جزءاً من تلك الطبقة • فاذا شعروا مثلاً ، فى بداية الطريق ، بما فى بيئتهم العائلية من فوضى وعبث وافتقاد النبالة وغياب التقاليد والأشكال الجميلة ، كان فى هذا خير لهم ، لأنهم بعد ذلك يتوقون الى هذه الأمور كلها توقاً واعياً ، ويألفون بهذا نفسه أن يقدروها •

أما الآن فان الأمور تجرى مجرى مختلفاً بعض الاختلاف ، لأنهم أصبحوا لا يعرفون الى من ينضمون !

« سأوضح رأيى بمقارنة أو قل بمشابهة . لو كنت روائياً روسياً وكانت لى موهبة ، لما اخترت أبطال رواياتى الا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة ، لأن هذه البيئة التى تضم أفراداً مثقفين هى البيئة الوحيدة التى يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والاحساس الجميل اللذين لاغنى عنهما لرواية تريد أن تحدث فى القارىء شعوراً بالروعة . لا أقول هذا الكلام مازحاً ، رغم اننى لا أنتمى الى الطبقة النبيلة كما تعلم . لقد سبق أن أشار فى « تقاليد أسرة روسية » الى موضوعات الروايات التى حال الموت بينه وبين كتابتها . فهناك انما نقع فعلاً على كل ما بلغناه حتى الآن من جمال . هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا اليه من توازن وكمال . واذا قلت هذا فليس معناه اننى أرى ذلك الجمال خالياً من العيوب ، أو أرى ذلك التوازن مستقراً استقراراً تاماً . غير أن ثمة أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملةً بل لا تجدها البتة فى أى مكان بروسيا خارج النبالة . اننى أتكلم كما يتكلم انسان هادىء يبحث عن الهدوء .

فاذا سألتنى عن ذلك الشرف هل هو أصيل ، وعن ذلك الواجب هل هو حق ، قلت لك ان هذه مسألة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها . ولكن الشىء الهام فى نظرى هو أن تلك الأشكال مكتملة ، وأن ثمة نظاماً لم يُفرض فرضاً وانما هو نابع من حياة تلك النبالة . ألا وان ما يهمنا أكثر من أى شىء آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام ، أياً كان هذا النظام ، على شرط أن يكون نظاماً لنا نحن ! ذلك هو الأمل ، وتلك هى الراحة ان صح التعبير : شىء مكتمل البناء أخيراً ، لا هذا التقويض الأبدى ، وهذه النشارات التى تتطاير فى كل مكان ، وهذه

النفايات وهذه القاذورات التى لا يخـرج منهـا شيء منـذ ما يقرب من مائتى سنة •

« لا تتهمنى بالتعصب السلافى ، فانما أنا أتكلم الآن كلام رجل استبد به كره البشر ، وأصبح مثقل القلب حزنا ؛ اننا منذ بعض الوقت نشهد حركة تعارض ما أتيت على وصـفه الآن كل المعارضـة • فالآن أصبحت القذارة لا تصعد الى الطبقة العليا من المجتمع ، وانما يحدث نقيض هذا ، فنرى أجزاء بل كتلاً تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج فى أناس الفوضى والكره • ليست حالاتٍ فريدة معزولة تلك الحالات التى نرى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسخر الآن من أشياء ربما كان ابنـاؤهم لا يزالون يرغبـون فى الايمان بهـا • أكثر من ذلك أنهـم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملكوا الحق فى التخلى عن الشرف فجأة ، وهو حق يشعرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة لا أدرى كيف ! لست أتكلم عن التقدميين الحقيقيين ، يا صديقى العزيز جداً آركادى ماكاروفتش ، وانما أتكلم عن تلك الجمهرة الكبيرة التى لا يُحصى اليوم عددها ، والتى قيل فى حقها : « اقشر الروسى فترى التترى » • صدّق أن اللبراليين الحقيقيين ، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للانسانية ليس عددهم بيننا كبيراً الى الحد الذى توهمناه فجأة •

« ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً • فلنعد الى الروائى الذى تخيلناه • ان موقف صاحبنا الروائى هذا سيكون فى هذه الحالة موقفاً محدداً : انه لن يستطيع أن يكتب الا روايات من نوع الروايات التاريخية ، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود فى عصرنا هـذا ، واذا كان لا يزال منـه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم ، فان هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها • ولاشك أن الكاتب سيستطيع فى الروايات التاريخيـة أيضـاً أن يتصـور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزى القلب • حتى ليمكنه أن يأسر لبّ القارىء أسراً يبلغ من القوة أن يحسب القارىء اللوحة التاريخية

واقعاً لا يزال قادراً على الحياة اليوم • ومثل هذه الرواية ، اذا كانت موهبة الكاتب عظيمة ، سوف تنتمي الى الأدب الروسى اقلّ مما تنتمى الى التاريخ • سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفنى تمثل السراب الروسى الذى وجد فعلاً الى اليوم الذى رئى فيه أنه كان سراباً • ان حفيد أبطال اللوحة التى تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط بالتاريخ الروسى ، ان حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره فى نموذجه المعاصر الا انساناً مبغضاً للبشر ، معتزلاً الناس ، صموتاً حزيناً • بل لابد كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارىء أن يحكم عليه منذ النظرة الأولى بأنه قد ابتعد عن الطريق الممهّدة وأن ليس تحت قدميه أرض • وما هى الا فترة حتى يختفى هذا الحفيد المبغض للبشر هو أيضاً • وتأتى شخصيات جديدة ، لا تزال مجهولة ، ويأتى سراب جديد • ولكن أية شخصيات ؟ اذا لم تكن شخصيات جميلة ، لم يبق ثمة أدب روسى ممكن • ولكن واحسرتاه ! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك ؟

« لا أريد أن أوغل مزيداً من الايغال • ولنعد الى مخطوطتك • انظر مثلاً الى أسرتى السيد فرسيلوف (اسمح لى هذه المرة أن أكون صريحاً كل الصراحة) • لن أسهب فى الكلام عن آندره بتروفتش نفسه • انه رب أسرة على كل حال ، رغم كل شىء • هو نبيل من أسرة عريقة جداً وهو فى الوقت نفسه من أنصار كومون باريس • هو شاعر حق يحب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها • هو امرؤ لا دين له ، مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً فى سبيل شىء غير محدد يعجز عن تسميته ولكنه يؤمن به ايماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدنية الأوروبية فى العهد البطرسبرجى من التاريخ الروسى • ولكن كفى هذا عنه • لننظر الى أسرته الحقيقية : عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف • ان الذين لهم أعين يعرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطائشين والى أين يقودون غيرهم • ولكن لننظر الى ابنته آنا آندريفنا • هذه فتاة ذات

شكيمة ، أليس كذلك ؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا ، دون أن أتنبأ لها بشيء من الاجرام طبعا ، والا كنت ظالما . قل لى الآن يا آركادى ماكاروفتش ان هذه الأسرة استثناء وشذوذ ، فأبتهج اعظم الابتهاج . ولكن الأمر ليس كذلك . الأصح أن نقول ان هناك كثرة من هذه الاسر الروسية التى لا يجحد المرء نبالتها والتى تتحول بقوة لا تقاوم الى اسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه فى السديم الشامل والفوضى العامة . انك فى مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه . نعم يا آركادى ماكاروفتش ، انك « فرد من أفراد أسرة مصادفة » ، فى مقابل نماذج لا تزال حديثة لأبناء نبلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف .

« أعترف لك بأننى لا أتمنى أن أكون روائيا يصوّر بطلاً هو فرد فى أسرة مصادفة !

« جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه . ان تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال ، فهى لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية . كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والاغفالات ؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارىء ان يخمّن ويسرف فى التخمين . ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية ... وانما تستبد به الرغبة فى الكتابة عما هو واقع حالى ؟ أن يخمّن و ... أن يخطىء .

« غير أن « مذكرات » كالتى كتبتها أنت يمكن فى رأيى أن تكون مواد لعمل فنى يخلق فى المستقبل ، مواد للوحة ترسم فى المستقبل وتكون فوضى لكنها تصوّر عهداً مضى . نعم ، فبفضل التقهقر فى الزمان الى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضى

والفوضى الذى انقضى عهدها . فى ذلك الوقت ستكون الحاجة الى مذكرات كمذكراتك . حسبها أنها صادقة : فهى رغم ما تتصف به من فوضى ، تشتمل على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء فى ضوئها أن يدرك ما كان لابد أن يختبىء فى نفس مراهق ينتمى الى ذلك العصر المضطرب ، وهذا بحث لا تغمط قيمته ، ما دام المراهقون هم الذين تتألف منهم الأجيال ... » .

بوبرك
١٨٧٢

فى هذه المرة سأنشر «مذكرات أحـــد الناس» . ماهى مذكراتى انا . بل مذكرات شخص آخر . ولا حاجة الى اى تمهيد .

مذكرات أحد الناس



يومين سألني سيميون آرداليونوفتش في وقت مناسب جدا :

ـ رحماك ايفان ايفانوفتش ، متى سيتفق لك مرة ألا تكون سكران ؟

سؤال غريب ! لن أغتاظ بلا داع ، لأنني امرؤ خجول ، ولكن هاهم أولاء يعدونني مجنوناً . في ذات مرة ، رسم أحد الرسامين صورة لوجهي عرضاً . ثم اذا هو يقول « انك لأديب مع ذلك » . ووافقت على أن يعرض الصورة على الجمهور . فاليكم ما قرأته : « اذهبوا فانظروا الى ذلك الشخص المريض الذي يوشك أن يهوى الى قاع الجنون » .

هبني مجنوناً . ولكن لماذا نشر هذا الكلام في الجرائد ؟ ان الجرائد في حاجة الى موضوعات نبيلة ، في حاجة الى المثل الأعلى ، أما هنا ...

ثمة طريقة للتلميح : فلهذا انما وجد الأسلوب ولكن لا ... ليس يُسمح لك بالتلميح . اختفت اليوم روح النكتة واختفى الأسلوب الجميل ، وأصبحت الشتائم تُعدّ رهافة فكر ولطافة ذوق . ولكنني لن أستاء ، فما أنا أديب كأي أديب حتى أصدِّع رأسي . كتبت قصة ،

فلم ينشروها . وكتبت مقالة فرفضوها . وأرسلت مقالات الى جرائد مختلفة فلم يقبلوها ، وقالوا لى : « يعوزك الظرف » . سألتهم ساخراً :

ـ أى ظرف تعنون ؟ الظرف الأثيني ؟

لم يفهمونى . وأنا أترجم خاصةً عن اللغة الفرنسية لأصحاب المكتبات . وأحرر اعلانات للتجار : « فرصة نادرة ! ... اشربوا الشاى الذى تنتجه مزارعنا الخاصة ... » . وان تأبينى لصاحب المعالى بطرس ماتفئتش لم يمرَّ بغير صدى فى الأوساط العليا من المجتمع . وقد ألّفت ، تلبيةً لطلب أصحاب المكتبات ، كتاباً بعنوان : « كيف تحظى باعجاب النساء » . واتفق لى أثناء حياتى أن ألقيت الى السوق ستة كتيبات من هذا النوع . وفى نيتى أن أجمع باقة من أقوال فولتير يضمها كتاب . لكننى أخشى أن يبدو هذا غير ذى مذاق لأهل زمانى . ان هذا العصر هو للهراوة لا لفولتير ، فليكسِّر الناس بعضهم أفواه بعض ! تلكم هى مهنتى الأدبية كلها . هل عن عبثٍ ترانى أغرق ادارات تحرير الجرائد برسائل لا أنسى أن أمهرها بتوقيعى ؟ اننى أقضى وقتى فى اغداق التنبيهات والنصائح . أنقد ، وأدل على الطريق الواجب اتباعها . فى الأسبوع الماضى دبَّجت الرسالة الأربعين من رسائلى التى أبعثها الى صحيفة من الصحف منذ سنتين . ان طوابع البريد التى استعملتها قد كلفتنى حتى الآن أربعة روبلات . طبعى سىء . هذا هو الأمر .

أعتقد أن الرسام لم يرسم وجهى اهتماماً منه بالأدب ، ولكن بسبب ثؤلولين متناظرين يزدان بهما جبينى . هذا حدث ، أليس كذلك ؟ ان الناس يتهافتون اليوم على الأحداث ، لعدم وجود فكرة يهتمون بها . لشدما أحسن هذان الثؤلولان الى الصورة ! لكأنهما يحيان ! ذلكم ما يسمى بالواقعية .

أما عن الجنون فان عدداً كبيراً من الكتاب عندنا قد وصموا فى

السنة الماضية بالاختلال العقلي .. قيل عنهم : « موهبة أصيلة جداً ... فانظروا ماذا كانت النتيجة ! ولقد كان ينبغي التنبؤ بهذا منذ مدة طويلة على كل حال ... » . ليس يخلو هذا الكلام من مكر ، حتى ليمكننا أن نصفق له من وجهة نظر الفن المحض . فبه يصبح الآخرون أذكى مرتين . ولكن لئن كان سهلاً عندنا افقاد أحد الناس عقله ، فليس هناك مثال قيس العقل عليه .

أذكى الناس في رأيي هو ذلك الذي يصف نفسه بالغباء مرةً كل شهر . وما من أحد يقدر أن يفعل ذلك في هذه الأيام ! في الماضي كان الغبي يدرك عند اللزوم مرة في السنة على الأقل أنه ليس الا غبياً . أما الآن ، فلا ، لا ، كلا ! لقد اختلط الحابل بالنابل حتى صار الانسان الذكي لا يتميز عن الانسان الغبي . وكان هذا مقصوداً .

تحضرني نكتة أصلها أسباني . حين بنى الفرنسيون في بلادهم أول ملجأ للمجانين منذ نصف قرن ، قيل يومئذ : « لقد حبسوا جميع مجانينهم في منزل خاص حتى يصفوا أنفسهم بأنهم هم عقلاء » . القول صادق . لست تبرهن على أنك عاقل اذا أنت حبست قرينك في بيمارستان . « فلانٌ أصبح مجنوناً ... معنى هذا أننا نتمتع بجميع قوانا العقلية » . لا ، أبداً ، ذلك لا يعني هذا بعد .

على كل حال ، ليذهب هذا الكلام كله الى الشيطان ! ما بالي أحدث هذه الجلبة كلها . ما لي ولهذا التذمر ! ما لي ولهذه البرطمة ! لقد أضجرت حتى طباختي . في مساء أمس جاءني صديق . قال لي : « أسلوبك يفسد . صار مفروماً . أنت تفرم أسلوبك ، تهرسه هرسا .. جمل عارضة ، ثم في الجمل العارضة جملة أخرى عارضة ، ثم جملة طارئة تضعها بين قوسين ، وتستأنف الفرم ... » .

صديقي على حق . في نفسي يحدث شيء غير عادي . طبعي أيضاً يطرأ عليه تغير ، ورأسي يصيبه صداع . أخذت أرى وأسمع أشياء

غريبة ... ما هي أصـوات تماماً ... كأن أحدا يدندن على مقربة منى : « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ! » .

ما « بوبوك » هذه ؟ يجب أن أحاول تسلية نفسى .

خرجت لأسلى نفسى . فوقعت على جنازة . جنازة شخص يمت الىّ بقرابة بعيدة . موظف فى الدرجـة السـابعة . مات تاركاً زوجته وخمس بنات يجب تزويجهن . يا للنحس ! كان المتوفى يستطيع أن يجنى رزقاً . أما الآن فيجب الاكتفاء بمعاش هزيل . يجب شد الحزام على البطون . كان أفراد هذه الأسرة يستقبلوننى دائماً على مضض . على كل حال ، ماكنت لأشهد الجنازة فى ذلك اليوم لولا المناسبة الطارئة . صحبت الموكب الى المقبرة . بعجرفة نحُّونى . كان ردنجوتى مفرطاً فى الاهتراء حقاً . أظن أننى لم أذهب الى المقبرة منذ خمس وعشرين سنة . المكان غير جذاب كثيراً .

الرائحة أولاً . لقد جىء الى المكان بنحو خمسة عشر ميتاً . أكفان من درجات متفاوتة . بل ثمة نعشان أحدهما نعش جنرال والآخر نعش سيدة . عدد من الوجوه الحزينة ، غير قليل من الأسى المتصنع ، كثير من فرح صريح . أضيف أنه لا داعى الى التشكى من هذا : يجب علينا أن نحسب حساب الأرباح الصغيرة . ولكن الرائحة ! الرائحة ! ألا اننى لا أحب أن أكون شحاذاً فى مقبرة .

تفرست فى وجوه الأموات متأنيـاً ، غير منقاد لطبيعتى الشـديدة التأثر . ثمة وجوه لطيفة ، وثمة وجوه لا يحلو النظر اليها . الابتسامات عامةً ليست جميلة ، ولا سـيما لدى بعضهم . لا أحب هـذا . يحدث للمرء أن يراه فى منامه .

أثناء القداس خرجت من الكنيسـة لأتنشـق الهواء . كان النهار أشهب ، لكنه جاف ، وهو بارد بعض البرودة طبعاً ، فنحن فى شـهر

أكتوبر • قمت بجولة بين القبور • القبور طبقات • الطبقة الثالثة تكلف ثلاثين روبلاً : لائقة وغير باهظة الثمن • الطبقتان الأوليان لهما حق في الكنيسة وحوشها • ولكن ما أبهظ الثمن ! كان في ذلك اليوم ست جنازات من الطبقة الثالثة ، بينهم جنازة الجنرال وجنازة السيدة المذكورة !

ألقيت نظرة على القبور : شيء مقرز • ماء • وأي ماء ! ماء آسن أخضر • نعم • وفي كل لحظة يمتح الحفار الماء لفرغ القبر • خرجت • واذ لم يكن القداس قد انتهى ، جعلت أتجول خارج السور المصنوع من حديد مشبَّك • غير بعيد عن السور كانت هناك مضيفة • وبعدها بقليل كان هناك مطعم • ليس سيئاً كل السوء ، ذلك المطعم • أكلت قطعة ولوازمها ! ••• ولم يلبث المطعم أن امتلأ بالناس الذين شهدوا المأتم • لاحظت كثيراً من الانتعاش والنشاط • أكلت وشربت •

ثم ساعدت بيديَّ في جرجرة التابوت من الكنيسة الى القبر • لماذا يصبح الميت ثقيلاً هذا الثقل كله في التابوت ؟ يقال ان سبب ذلك هو قوة العطل ، وأن الجسم يفقد القدرة على التحكم بنفسه •• أو يقال سخف آخر من هذا القبيل • هذا الكلام يناقض الميكانيكا والعقل في آن واحد • أنا لا أحب لامرىء حصَّل ثقافة عامة في أكثر تقدير أن يقحم نفسه فيما لا علم له به ، وأن ينصب نفسه اخصائياً • وما أكثر أمثال هذه الحالة في بلادنا ! المدنيون يعشقون الاهتمام بالشئون العسكرية ، حتى ما تعلق منها بالاستراتيجية العليا ؟ والمهندسون يعشقون أن يهتموا بالفلسفة والاقتصاد السياسي •

لم أحضر « الصلاة » • وأنا امرؤ ذو كبرياء ، فاذا كانوا لا يطيقونني الا في حالات الضرورة القصوى ، فعلام أجر نفسي الى ولائمهم ، حتى تلك التي يقيمونها بعد الجنازات ؟ لا أدري لماذا بقيت في المقبرة على كل حال • جلست على قبر ، وغرقت في أحلام شتى •

فكرت أولاً في معرض موسكو . ثم انتقلت الى مشكلة « الاندهاش » التى كانت موضوع تأملى . فاليكم ما خلصت اليه فى أمر « الاندهاش » :

« لا شك أن الاندهاش من كل شيء غباء وحماقة ، ولا شك أن عدم الاندهاش من أى شيء أعظم أناقة ، بل هو علامة رقى . ولكن ليس من الجائز كثيراً أن يكون الأمر كذلك فى التحليل الأخير . وعندى أن عدم الاندهاش من أى شيء أغبى كثيراً من الاندهاش لكل شيء . بل أكثر من ذلك أن عدم الاندهاش من أى شيء يكاد يساوى عدم تقدير شيء . والغبى لا يستطيع أن يقدر شيئاً » .

منذ بضعة أيام قال لى شخص أعرفه :

ـ نعم ، اننى أحرص على التقدير أكثر من حرصى على أى شيء .

الحاجـة الى التقدير ! قلت بينى وبين نفسى : هه ! لسوف تعـرف هذه الحاجـة الى التقدير اذا خطـر ببالك أن تطبع شـيئاً فى يـوم من الأيام !

عندئذ انقطعت سلســلة أفكارى . اننى لا أحب قراءة ما يُكتب على شاهدات القبور . هذه الكتابات كلها متشابهة . رأيت على بلاطة قبر غير بعيدة عنى سندويشة أُكل نصفها . قلت لنفسى : « هذا غباء . ليست السندويشة فى مكانها . » . كنستها الى الأرض ، لأنها ليست خبزاً وانما هى سندويشـة لا أكثر . ثم ان تفتيت خبز على التراب ليس بالاثم فيما أظن ، وانما الاثم تفتيته على أرض غـرفة . يُستحسن أن أسـأل عن هذا الأمر .

لابد أننى مكثت زمناً طويلاً ، بل زمناً طويلاً جداً . أعنى أننى اضطجعت على حجر كبير له شكل تابوت من مرمر . كيف حدث أنى سمعت أشياء كثيرة على حين فجأة ؟ لم أنتبه الى ذلك فى أول الأمر كان موقفى موقف الاستخفاف الكامل . سمعت أصواتاً جشاء ، كأنها صادرة

عن أفواه مكمومة بوسائد ، لكنها مع ذلك متميزة وقريبة جداً . فتحت عينيّ ، وجلست ، وأخذت أصغي بانتباه .

ــ صاحب المعالي ، حقاً ليس هذا بالممكن . أعلنت كباً ، فألّفت الهويست ، فاذا أنت تلعب بالسبعة الديناري . كان ينبغي لك أن تقول من قبل ان معك الديناري .

ــ ولكن الاعتماد على الذاكرة في اللعب ليس بالشيء المسّلي أيضا .

ــ صاحب المعالي ، لا يمكن اللعب بغير ضمانات . لابد لنا من لاعب لا يلعب ؟ يجب منح توزيعة بغير مقابل .

ــ ولكن أنّى لنا هنا لاعب لا يلعب !

يا لها من أحاديث في غير محلها ! لا أقل من أن يوصف هذا بأنه غريب وغير متوقع في آن واحد . الصوت رصين رزين . والصوت الثاني أميل الى التعاذب . ما كنت لأصدّق لولا أن سمعت بأذني . ما معنى القمار في مثل هذا المكان ، ومن هو ذلك الجنرال ؟ أما أن الجلبة كانت صادرة عن القبور فذلك أمر لا مجال للشك فيه . ملت على شاهدة القبر لأقرأ : « هنا يرقد جثمان الجنرال ميجر برفويادوف ، حامل أوسمة كذا وكذا » . همْ ! ... « توفي في شهر أغسطس (آب) .. في السابعة والخمسين من العمر . ارقد في سلام ، أيها الرماد الغالي ، الى طلوع الفجر الفرح ! » .

عجباً ! هو اذن جنرال حقاً ! أما القبر الآخر الذي كان يصدر عنه الصوت المتعاذب ، فليس له بعد ضريح . لا شيء الا بلاطة موضوعة عليه ، فلابد أن نزيله قادم جديد . ان الصوت يدل على أن صاحبه موظف في الدرجة السابعة .

قال صوت لم أسمعه من قبل ، على مسافة بضعة أمتار من مكان الجنرال ، تحت قبر يبدو جديداً :

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

هو صوت رجل من عامة الشعب ، يحاول صاحبه أن يخفف حدته أدباً .

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

فزعق صوت عصبي فيه احتقار ، هو صوت سيدة من المجتمع الراقي فيما يبدو ، زعق يقول :

ـ آ ... ها هو ذا تأخذه الحازوقة مرةً أخرى ! ألا انه لقصاص شديد أن أكون بجانب هذا الدكاني !

ـ ليس بي حازوقة ، ولم آكل شيئاً . ذلك كله يأتي من تلقاء نفسه طبيعةً . ماذا يا سيدتي الجميلة ؟ ألا سبيل اذن الى تخليك عن نزواتك ؟

ـ ما اضطجاعك هنا ؟

ـ دسوني في هذا المكان دساً . أولادي وامرأتي هم الذين حشروني هنا . لم أجيء بارادتي . ذلك هو سر الموت ! لولا الموت ما كنت لأرضى أن أرقد الى جانبك ولو أعطيت ذهب الأرض كله . وقد جئت الى هذا المكان بعد دفع آخر ما كنت أملك من نقود . نحن أيضاً نملك ما ندفعه نفقاتٍ لجنازة من الطبقة الثالثة .

ـ جمعت ذلك من سرقة أموال الناس ؟

ـ كيف أسرق وأنت لم تدفعي لي قرشاً واحداً منذ شهر كانون الثاني ، مع أن لدكاني عليك ديناً !

ـ هه ! ما أشدَّها بلاهة في نظري أن يطالب المرء هنا بديون له ! اذهب الى فوق ، وطالب بدينك بنت أخي التي ورثتني .

ـ كيف أطالب الآن ، وأين لى أن أذهب ؟ لقد اجتزنا الحفرة كلانا ، ونحن أمام محكمة الرب متساويان فى خطايانا .

ـ يالها من لهجة عامية ! لا تسمح لنفسك بأن تكلمنى بعد الآن !

كذلك أجابته المتوفاة باستعلاء وتكبر . فانبرى يصيت من جديد :

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

ـ انظر ، انظر ! أطاع الدكانى السيدة يا صاحب المعالى .

ـ لم لا يطيعها ؟

ـ ولكنك تعلم يا صاحب المعالى أن نظاماً جديداً يسود هنا .

ـ ما هو هذا النظام الجديد ؟

ـ نحن يا صاحب المعالى أموات ان صح التعبير .

ألا انه لعزاء ! اذا كان هذا هو ما يحدث فى مثل هذا المكان ، فلا داعى أن يتساءل المرء عما ذا يحدث فى الطابق الأعلى ! يالها من أحاديث سخيفة ! ومع ذلك ظللت أصغى ، رغم أن غضبى بلغ ذروته .

هذا صوت ينبعث من مكان آخر فى المسافة بين الجنرال والسيدة الثائرة أعصابها :

ـ أوه ! وددت لو أعيش زمناً أطول ! لا ، لا ، اننى أود كثيراً لو أحيا ...

ـ هل تسمع يا صاحب المعالى ؟ ها هو ذا يستأنف ! ... يظل مصراً على الصمت بعناد شديد ثلاثة أيام ، ثم يعود يهتف فجأة : « وددت لو أعيش ، أود لو أحيا » . وهو فوق ذلك يلح الحاحاً شديداً . هأ هأ هأ هأ !

ـ خفة عقل !

ـ يعتريه هذا فجأة يا صاحب المعالى ، ويستولى عليه استيلاءً تاماً . انه هنا منذ شهر نيسان (أبريل) ، ثم اذا هو يصيح بغتة : « أود أن أحيا ! » .

قال صاحب المعالى :

ـ هذا مضجر أخيراً !

ـ مضجر يا صاحب المعالى . ما رأيك فى أن نستأنف اغاظة آفدوتيا اجناتيفنا ؟ هأ هأ هأ !

ـ لا ، اعفنا من هذا ! لا أستطيع احتمال هذه المرأة السليطة اللسان ، الفظيعة !

قالت المرأة السليطة باشمئزاز :

ـ أنا أيضاً لا أستطيع احتمال أحد منكما ! انكما تنضحان ضجراً ، وتعجزان عن اجراء أى حديث رفيع . اياك أخاطب يا صاحب المعالى ، أؤكد لك أنك لا تملك ما يجيز لك اصطناع الكبرياء . أعرف عنك قصة صغيرة ، أعرف كيف أن خادماً لوَّث وجهك بمقشته ذات صباح ، حين كنت مختبئاً تحت سرير عشيقتك ...

دمدم الجنرال يقول من بين أسنانه :

ـ امرأة قذرة ...

وعاد الدكانى يعول فقال :

ـ عزيزتى الشهمة آفدوتيا اجناتيفنا ، قولى لى : أأنا أبتلى الآن بالمحن الأولى من عذاب الآخرة ، أم هذا شىء آخر ...

ـ آ ... عاد الى هوسه ! أوجست ذلك من الرائحة التى تخرج منه . هو ذا يستدير .

ـ لست أستدير يا عزيزتي ، وليس في رائحتي أي شيء خاص ، لأن جسمي لا يزال محفوظاً ، أما أنت ياجميلة فقد نتن لحمك نتنا حلواً • لذلك تفوح منك رائحة لا تطاق ، بصرف النظر عن المكان • واذا كنت لا أقول شيئاً ، فذلك أدب مني •

ـ آ ••• الوقح ! هو الذي تفوح منه رائحة كريهة ، ثم يدعى أنني أنا الذي تفوح مني هذه الرائحة •

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه ! ليت اليوم الأربعين يسرع مجيئه ، فأسمع فوقي أصواتاً محزونة : أسمع انتحاب زوجتي وتساقط عبرات أولادي •

ـ تتكلم عن البكاء ؟ هه ••• لسوف يأكلون ثم ينصرفون •

ـ آه ••• ليت أحداً على الأقل يصحو !

قال الصوت المتعاذب :

آفدوتيا اجناتيفنا ، انتظري لحظة ، سوف يتكلم الجدد •

ـ هل بينهم شبان ؟

ـ نعم ، بينهم شبان يا آفدوتيا اجناتيفنا ؛ بل بينهم فتية •

ـ ها ••• هذا في أوانه •

سأل صاحب المعالي :

ـ لماذا لم يبدأوا حتى الآن ؟

ـ ••• لم يفيقوا يا صاحب المعالي • أنت نفسك تعلم أنهم قد يصمتون في بعض الأحيان أسبوعاً كاملا • من حسن الحظ أننا قد أتينا بأموات جدد ، أمس الأول ، وأمس ، واليوم • ولولا ذلك لبقيت الدائرة حولنا ، الى مسافة عشرين متراً ، أمواتاً من السنة الماضية •

ـ شيء شائق حقاً •

ـ فاليوم يا صاحب المعالى دفن تاراسفنتش ، الموظف فى الدرجة الثالثة • أدركت ذلك من أصواتهم • وأنا أعرف ابن أخيه • لقد أنزل تابوت تاراسفنتش منذ قليل •

ـ اين هو ؟

ـ على مسافة خمس خطوات منك يا صاحب المعالى ، يسرةً • يكاد يكون عند قدميك • هذه فرصة لتتعرف اليه يا صاحب المعالى •

ـ ماذا ؟ ليس علىّ أنا أن أخطو الخطوة الأولى •

ـ بل هو الذى سيبدأ • سيشرفه هذا كثيراً يا صاحب المعالى ؛ ثق أننى •••

حشرج صوت آخر مرتاع على حين فجأة قائلاً :

ـ آه ! آه ••• آه ! ••• ماذا جرى لى ؟

ـ هذا قادم جديد ياصاحب المعالى ، قادم جديد • الحمد لله • سرعان ما أفاق ! الصمت يدوم فى بعض الأحيان أسبوعاً •

هتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

ـ آه ••• يبدو لى أنه شاب !

فتمتم الشاب يقول :

ـ حدث •• حدثت الوفاة فى أعقاب اختلاط ، بغتةً • قال لى الدكتور شولتس أمس : عندك اختلاط ، وفجأة مت فى الصباح • آه ! آه !

قال الجنرال باشا مرحباً ، وقد سرّه هذا الحادث الجديد :

ـ لا يملك الانسان أن يفعل شيئاً أيها الشاب • يجب علينا أن نسيطر

على أنفسنا ، وأن نغلب العقل فى سلوكنا • أهلاً وسهلاً بك عندنا ، فى وادى جوزافات • نحن ناس طيبون ، وسترى ذلك بنفسك ، فتعرف كيف تقدرنا • الجنرال ميجر فاسيلى فاسيلفتش برفويادوف ، فى خدمتك •

ـ آه ••• لا ، لا ، لن آلف ما حدث أبداً ! ذهبت الى الدكتور شولتس ، أصابنى اختلاط : أصيب الصدر أولاً فصرت أسعل ، ثم أصابنى برد : الصدر وأنفلونزة ••• وفجأة ••• وقع ما لم يكن بالمتوقع أبداً •• أسوأ ما فى الأمر أنه لم يكن فى الحسبان اطلاقاً •

عاد الموظف الصغير يقول بصوت مشفق كأنما هو يريد أن يشجع الشاب المسكين :

ـ تقول ان الصدر هو الذى أصيب أولاً •••

ـ نعم ، الصدر • ونشأ بلغم • ثم انقطع البلغم فجأة ! •• آه •• الصدر •• أصبحت لا أستطيع التنفس ! •• ولعلك تعلم ••

ـ أعلم ، أعلم ؟ ولكن اذا كان المرض فى الصدر ، فقد كان ينبغى أن تستشير الدكتور ايك ، بدلاً من الدكتور شولتس •

ـ لكننى كنت أتأهب للذهاب الى الدكتور بوتكين ، وفجـــأة •••

قال الجنرال :

ـ عجيب ! ان بوتكين يسلخ سلخاً •••

ـ لا ، انه لا يســلخ البتة • سمعت أنه يحسن التشخيص بعنــاية كبيرة ، ويتنبأ دائماً بما سيقع •

قال الموظف الصغير مصححاً :

ـ ملاحظة صاحب المعالى تتناول مسألة السعر •

ـ ما هذا الكلام ؟ ثلاثة روبلات فى أكثر تقدير ••• وهو يحسن

الفحص ويعنى به أشد العناية ... ناهيك عن وصفاته ... لقد حرصت عليه حرصاً مطلقاً لأنني حدّثت عنه ... قولوا لى اذن ياسادة : أأذهب الى ايك أم الى بوتكين ؟

ـ ماذا ؟ الى من تريد أن تذهب ؟

سأله الجنرال هذا السؤال ، وانفجر ضاحكاً ، فكان جثمانه يهتز من الضحك متلذذاً ، واقتدى به الموظف الصغير .

وهتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

ـ عزيزى الشـاب ، عزيزى الشـاب الطيب ، كم أحبك ! ليتهم ، على الأقل ، يضعون بجانبى واحداً مثله !

عندئذ نفد صبرى ! ماذا ؟ أهذا ما يسمى بالميت العصرى ؟ ولكن كان يجب على أن أصغى ، وألا أتسرع كثيراً فى اسـتخلاص النتائج واصدار الآراء . تذكرت اننى قد رأيت هذا الغبى فى تابوته منذ قليل . كانت هيئته هيئة صوص مرتاع ، وكان تعبير وجهه أبشع ما يمكن أن يكون التعبير فى وجه ! ومع ذلك انتظرت التتمة .

غير أن الفوضى التى قامت قد بلغت من الشدة أننى لا أتذكر الآن شيئاً . استيقظ عدد كبير من الأموات فى آن واحد : منهم موظف الدرجة السابعـة الذى أسرع يشرح للجنرال مشروعاً يتعلق بلجنـة جديدة فى الوزارة ، ويحدثه عن ترقية مرتقبة لكبار الموظفين ترتبط بذلك المشروع ، فأثار هذا اهتمام الجنرال كثيراً . أعترف أننى بهذا الاصـغاء اطلعت على أمور كثيرة ، فعجبت أشد العجب لتلك الطرق العجيبة التى يسلكها أبنـاء الادارات الحكومية لتذيع فى العاصمة . ثم صحا مهندس نصف صحو ، وأخذ يجتر خلال مدة طويلة سخافات تبلغ من الحماقة أن أحداً لم يشأ أن يصغى اليه ، فاضطر أن يبقى مهملاً فى ركنه . ثم جاء دور السيدة

المعروفة التى كانت ترقد فى الصباح على النعش ، فأخذت تتحرك فى رمسها وتضطرب . وقد استغرب لبزياتنيكوف (اتضح ان اسم موظف الدرجة السابعة ذى الصوت المتعاذب ، المسجّى بجانب الجنرال برفويادوف ، كان اسمه لبزياتنيكوف) أن يستيقظ الجميع فى هذه المرة بهذه السرعة . وانى لأعترف بأننى استغربت ذلك أنا نفسى . على أن بعضهم كان قد دُفن أمس الأول ، فكذلك شأن تلك الفتاة الشابة التى تبلغ من العمر ستة عشر ربيعاً ، والتى كانت لا تنفك تضحك ... بل قل لانتى تقهقه قهقهة ساخرة ضارية غير لائقة .

رفع لبزياتنيكوف صوته يقول معلناً على حين فجأة بلهجة فيها تعجل شديد :

ـ صاحب المعالى ، صحا تاراسفتش ، موظف الدرجة الثالثة .

فقال تاراسفتش باحتقار :

ـ فماذا ؟

كان فى لهجته شىء من نزوة وتسلط فى آن واحد . أصخت بسمعى منتبهاً ، لأننى قد سمعت فى الآونة الأخيرة عن تاراسفتش هذا حكايات مشهية مذهلة معاً .

ـ هذا أنا يا صاحب المعالى ، أو قل ...

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا شىء الا الاستفسار عن صحة معاليك . ان الجميع يشعرون هنا فى البداية بشىء من التضايق لعدم التعود . ان الجنرال برفويادوف يود أن يتشرف بالتعرف الى معاليك ، ويأمل أن ...

ـ لم أسمع بهذا الاسم .

ـ أرجوك أن تتذكر يا صاحب المعالى ، انه الجنرال برفويادوف ، فاسيلى فاسيلفتش برفويادوف .

ـ أنت الجنرال برفويادوف ؟

ـ لا يا صاحب المعالى ، ما أنا الا لبزياتنيكوف ، موظف فى الدرجة السابعة ، فى خدمتك ؛ أما الجنرال برفويادوف ...

ـ كفى سخافات ! أرجوك أن تدعنى وشأنى !

قال الجنرال برفويادوف مقاطعاً من أجل أن يضع حداً لشراسة هذا النزيل الجديد المتكبر :

ـ دعه !

ـ انهم لم يفيقوا افاقة تامة يا صاحب المعـــالى . يجب ألا نغفل عن هذا الأمر . انهم لم يتعودوا بعد . سوف يفيقون ، فينظرون الى الأمور عندئذ بأعين أخرى .

فكرر الجنرال قوله :

ـ دعه !

وفجأة هتف صوت بقرب آفدوتيا اجناتيفنا ، صوت حانقٌ لم ُيسمع من قبـل ـ صـوت فتى من أسرة كريمة ، متهدج اللهجة مرتخى النبرة كثير التقطع ، هتف يقول مخاطباً الجنرال :

ـ فاســيلى فاسيلفتش ! صاحب المعالى ! اننى أرقبك منذ ساعتين . وقد أودعتُ هذا المكان قبل ثلاثة أيام . هل تتذكرنى يا فاسيلى فاسيلفتش ؟ أنا كلنيافتش ، التقينا عند آل فولوكونسكى الذين كانوا يستقبلونك أنت أيضاً ، لا أدرى لماذا .

ـ كيف ؟ الكونت بطرس بتروفتش ... هل يعقل أن تكون أنت .. فى مقتبل العمر .. ما أشد أسفى ! ..

ـ أنا أيضاً آسف .. وان كان يستوى عندى الأمران . اننى أريد

أن أستفيد أكبر استفادة من كل ما يعرض لى • ثم اننى لست كونتاً بل بارونا ، لست الا بارونا • نحن بارونات صغار لا أكثر ، أحفاد خدم • وهذا كله لا يهمنى فى قليل ولا كثير على كل حال • ما أنا الا نجس من أنجاس المجتمع الراقى المزيف ، يعد نفسه « خليعاً لطيفاً محبباً » • كان أبى جنرالا ، وكانت أمى تُستقبل فى « أعلى مجتمع » • وقد قمت فى السنة الماضية ، أنا واليهودى زيفل ، بطرح خمسين ألف ورقه من الأوراق المالية المزوّرة فى التداول ، ثم وشيت بزميلى اليهودى ، ولكن جولييت شاربانتييه دو لوزجنان هى التى مضت بالمال الى بوردو • وتصور أننى كنت قد تعاهدت على الزواج ••• مع شتيفالفسكايا ••• فتاة عمرها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر ، ومهرها تسعون ألف روبل ! ••• يا آفدوتيا اجناتفنا هل تذكرين كيف أفسقتنى منذ خمسة عشر عاماً حين كنت غلاماً فى السنة الرابعة عشرة من العمر ؟

ـ ها ! ••• هذا أنت اذن يا شيطان ! لقد أحسن الرب بارسالك الى هنا •

ـ ظلمت جارك التاجر حين ظننت أنه أخرج رائحة كريهة ••• لقد سكت أنا وأخذت أضحك • الرائحة صادرة عنى • وضعونى فى تابوت مسمّر •

ـ آه ! ••• يا للخبيث ! لكننى مسرورة مع ذلك • لن تصدقنى اذا وصفت شدة افتقارنا الى الحياة والنشاط يا كلينافتش !

ـ بلى ! بلى ! أصدّقك • وفى نيتى أن أهيء هنا شيئاً طريفاً • صاحب المعالى ! لست أخاطبك أنت يا برفويادوف ، بل أخاطبك أنت الآخر يا صاحب المعالى تاراسفتش ! ما بالك لا تجيب ؟ أنا كليناقتش الذى قدتك فى الصوم الكبير الى عند الآنسة فورى ، هل تسمع ؟

ـ أسمع يا كليناقتش • وانى لسعت بك ، صدقنى •••

ـ لا أصدق من كلامك شيئاً . كل ما أريده أيها الشيخ اللطيف هو أن أقبّلك . ولكنني لا أستطيع ذلك ولله الحمد . هل تعرفون ، يا سادة ، ما فعله هذا « الجد » ؟ لقد مات منذ يومين أو ثلاثة ، مديناً بأربعمائة ألف روبل . وكان هذا المبلغ لأرامل ويتيمات ، وكان يتولى وحده ـ لا أدرى لماذا ـ تصريف شئون هذه الثروة ، فلم يُسأل أن يؤدى أى حساب خلال ثمانى سنين . اننى لأتصور كيف تستطيل وجوه أولئك الذين يدركون الآن حقيقة الرجل الذين وثقوا به . أليس صاحب خيال ثرى ؟ كنت منذ سنة أدهش وأتساءل كيف يتاح لهذا الشيخ الذى يبلغ من العمر سبعين عاماً ، ويعانى من داء النقرس فى القدمين واليدين ، أن يملك من القوة ما يؤهله للاسترسال فى الدعارة والفسق ... فهل عرفتم الآن السر ؟ تلكم الأرامل واليتيمات . كان ذلك الخيال وحده يكفيه لشحذ قوته وانعاش حماسته ! ... علمت بذلك منذ مدة ، فما ان علمته ـ والآنسة شاربانتيه هى التى أعلمتنى به ـ حتى هرعت اليه وأسديت له نصيحة صديق لصديقه ، قلت له : « تدفع خمسة وعشرين ألف روبل فى الحال ، والا تؤدى حساباً فى الغد » . ولكن لم يكن معه الا ثلاثة عشر ألف روبل . فلعل الموت قد وافاه اذن فى الوقت المناسب . هل تسمع ، يا جد ، يا جد ؟

ـ عزيزى كلينافتش ، أنا موافق على رأيك كل الموافقة ، ولم تكن بك حاجة الى الدخول فى هذه التفاصيل . ان الحياة زاخرة بآلام وتمزقات كثيرة ، وليس فيها الا قليل من التسليات ... كنت أود لو أهدأ فى النهاية ، وانى لآمل ، فيما أرى ، أن أستمد من هذا المكان كلّ ...

ـ أراهن أنه شمّ وجود كاتيش بيروستوفا !

ـ وجود من ؟ كاتيش ماذا ؟

كذلك هتف الشيخ سائلاً بصوت يرعشه الهوى .

ـ آ ... آ ... كاتيش ماذا ؟ انها هنا ، على مسافة خمس خطوات

منى الى اليسار ، وعلى مسافة عشر خطوات منك . هى هنا منذ أربعة أيام . وليتك تعلم ، يا جد ، أية شيطانة صغيرة هى ! انهـا من أسرة كريمة ، حسنة التهذيب ... هى على الجملة شـيطانة ، شيطانة الى أقصى حـد ! لم أتح لأحد هناك أن يراها . أنا وحدى أعرفها . كاتيش ، أجيبينى !

فأجاب صوت صارخ رنان فيه شيء حاد كأنه ابرة ، هو صوت فتاة صغيرة :

ـ هيء هيء هيء !

تمتم الشيخ يسأل بصوت لاهث :

ـ هل هى شق...را....؟

ـ هيء هيء هيء !

وتمتم الشيخ يقول أيضاً مختنق الأنفاس :

ـ أحلم منذ مدة طويلة بشقراء صغيرة ... فى الخامسة عشرة من عمرها ... وفى هذا الاطار بعينه ...

صاحت آفدوتيا اجناتفنا تقول :

ـ يا للشذوذ !

قال كلينافتش بصوت حازم :

ـ يكفى هذا . أرى أن جملة الأمـر حسنة . سـندبر شئوننا هنا على أحسن وجه ، وبغير ابطاء . فانما الشيء الأساسى أن نقضى بقية الوقت فى متعة ومسرة . ولكن كم بقى لنا من وقت ؟ قل أنت يا لبزياتنيكوف ، مادام هذا اسمك فيما سمعت ...

ـ اسمى لبزياتنيكوف ، سيميون افزئتش لبزياتنيكوف ، موظف فى الدرجة السابعة ، سعيد جداً بأن أنفذ أوامرك ...

ـ لا يهمني أن تكون سعيداً أو ألا تكون ، ولكن يبدو أنك هنا الشخص الوحيد الذي يعرف كل شيء . قل لي أولاً (كنت لا أزال دهشاً من الأمر منذ أمس) : كيف يمكن أن نتكلم ونحن في هذا المكان ؟ ذلك أننا أموات ، ومع ذلك نتكلم ، ويبدو كأننا نتحرك ، لكننا لا نتكلم ولا نتحرك ، فما هذه المهزلة ؟

ـ هذا أمر ، اذا شئت يا بارون ، يستطيع أن يشرحه لك أفلاطون نيقولايفتش خيراً مني .

ـ من أفلاطون نيقولاينتش هذا ؟ لننتقل الى الوقائع ، بغير بهرج ولا زخرف !

ـ أفلاطون نيقولايفتش هو فيلسوفنا الرسمي ، يؤمن بالمذهب الطبيعي ، أستاذ كبير . نشر عدة كتب فلسفية ، ولكنه نائم منذ ثلاثة أشهر ، فلا سبيل الى هزّه . ينطق مرةً واحدة في الأسبوع ببضع كلمات لا تمت الى الأمر بصلة من الصلات .

ـ الى الوقائع ! الى الوقائع !

ـ هو يشرح ذلك بأننا ، فوق الأرض ، حين كنا أحياء ، كنا نرتكب خطأ ، فنظن الموت ، تحت الأرض ، موتاً ، والحقيقة خلاف ذلك . فالجسم هنا يحيا مرة أخرى ان صح التعبير ، لأن نتفاً من الحياة تتجمع وتتركز ، ولكنها تتجمع وتتركز في الشعور فحسب . لا أدري كيف أعبرّ لك . قل ان شئت ان الحياة تستمر هنا بحكم ما يشبه أن يكون قانون العطالة . وفي رأي فيلسوفنا أن كل شيء متجمع ومتركز في الشعور ، وهو يظل على هذه الحال شهرين أو ثلاثة أشهر ... وربما ستة أشهر في بعض الأحيان . على سبيل المثال ، هنا شخص كاد يتحلل جسمه تحللاً كاملاً ، ومع ذلك نسمعه ، في كل ستة أسابيع ، يدمدم فجأة بكلمة ، كلمة واحدة

صغيرة ، لا معنى لها طبعاً « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك » . هذا دليل على أنه لا يزال فيه قبس خفي من حياة .

ـ سخف ! غباء ! ولكن قل لى : كيف أشم رائحة النتن وقد فقدت حاسة الشم ؟

ـ مرد ذلك ... هيء هيء ... هنا يسبح فيلسوفنا فى ضباب كثيف . فيما يتعلق بالشم خاصة ، يرى فيلسوفنا أن النتن الذى نشمه هنا نتن روحى بمعنى من المعانى ... هيء هيء ! ... نتن يصدر عن الروح ، من أجل أن يتسع وقت المرء ، خلال هذين الشهرين أو هذه الأشهر الثلاثة ، أن يثوب الى نفسه ... وفى رأى فيلسوفنا أن هذه آخر نعمة . ولكننى أرى مع ذلك يا بارون أن هذا الكلام هذيان صوفى غيبى يجب أن نغفره لمن كان فى مثل وضعه ...

ـ كفى .. الباقى معروف .. سخافات ! .. ان الشيء الثابت المحقق أن الحياة ستستمر شهرين أو ثلاثة ، ثم « بوبوك » . اقترح عليكم جميعاً أن تقضوا هذين الشهرين على نحو ممتع ما أمكن ذلك ، وأن تنتظموا من أجل هذا على أسس جديدة . سيداتى سادتى ! أقترح عليكم أن تتخلوا منذ الآن عن كل حياء أو حشمة .

فرددت أصوات تقول مؤيدة :

ـ نعم ، نعم ، يجب أن نتخلى عن كل حياء أو حشمة !

والغريب أن أصواتاً جديدة قد اشتركت فى ترديد هذا الكلام ، فهى أصوات أشخاص أفاقوا اذن فى تلك اللحظة نفسها .

وهتفت آفدوتيا اجناتفنا تقول بحماسة :

ـ آه ... لشدما أحب أن أتخلص من الخفر !

ـ هل تسمعون ؟ ••• ان آفدوتيا اجناتفنا نفسها تريد أن تتخلص من الحفر !

ـ لا يا كلينافتش ، لا ، لا ، لقد كنت استحى هناك ، فى الماضى ، أما هنا فان رغبة رهيبة فى التخلص من هذا الحياء تضطرم فى نفسى وتتلظى •

قال المهندس :

ـ أفهم من كلامك أنك تقترح أن ننظم لأنفسنا هنا حياة قائمة على أسس جديدة ، أسس عقلية فى هذه المرة •

ـ لا يهمنى هذا ! بالمناسبة ، يجب أن ننتظر كودايااروف الذى جىء به أمس • فمتى صحا شرح لكم كل شىء•• وفى الغد سيجيؤننا بعالم من علماء الطبيعة ، وربما جاءونا بضابط ، واذا لم يخطىء تقديرى فسوف يجيئوننا بكاتب ينشر مقالات فى احدى الجرائد وسوف يجيئوننا معه بمدير الجريدة فيما أعتقد • على كل حال ، لا يهمنا أمر هؤلاء جميعاً ، فليأخذهم الشيطان ، وحسبنا أن نكوّن جماعتنا ، فينتظم كل شىء من تلقاء نفسه بيننا • ولكننى أطالب قبل كل شىء بأن لا نكذب • على الأرض تستحيل الحياة بدون كذب ، فالحياة والكذب مترادفان : أما هنا فلن نكذب ، وذلك من أجل أن نضحك قليلاً • لا أقلّ من أن ينفعنا القبر فى شىء ! سوف يقص كل منا قصة حياته جهاراً بدون أقل تحفظ ! وسأكون أنا أول من يروى قصة حياته • اننى كما تعلمون من صنف الضوارى • فوق الأرض ، كان كل شىء تحركه أسلاك عفنة • أفٍ من الأسلاك • لنقض هذين الشهرين فى رحاب الحقيقة المكشوفة بغير حياء ولا خجل ! لنخلع الأقنعة ، ولنظهر عراةً عرياً تاماً •

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

ـ عرياً تاماً ، عرياً تاماً !

ـ آه ... لشدما أحب أن أتعرى تماماً !

كذلك قالت آفدوتيا اجناتفنا بصوت مزمجر .

ـ آ ... أرى أن الجو سيكون مرحاً هنا . فلا أريد أن أذهب الى الدكتور ايك !

ـ أما أنا فأريد أن أحيا أيضاً ، أود لو أعيش مدةً أطول .

وضحكت كاتيش ساخرة :

ـ هيء هيء هيء !

ـ الشيء الأساسي هو أن أحداً لا يستطيع أن يمنعنا من أن نفعل ما عقدنا العزم عليه ؟ ان برفويادوف ، رغم أنه غاضب فيما أرى ، لن يستطيع أن يبلغنى . هل أنت موافق يا جد ؟

ـ كل الموافقة ، وبأعظم سرور ، ولكن على شرط أن تكون كاتيش هى البادئة بقص قصة حياتها .

قال الجنرال برفويادوف :

ـ أحتج ! أحتج أشد الاحتجاج .

فأسرع ذلك الوغد لبزياتنيكوف يحاول اقناع الجنرال متعجلاً تعجلاً محموماً ، فقال له همساً وهو يخفض صوته :

ـ صاحب المعالى ، سيكون فى هذا نفع كبير لنا اذا نحن وافقنا . هناك هذه الفتاة الصغيرة كما تعلم ... ثم هناك تلك القصص الصغيرة كلها ...

ـ لنسلم بأن هناك الفتاة الصغيرة ... ولكن ...

ـ سيكون لنا نفع كبير ، يا صاحب المعالى ، نفع كبير ، أؤكد لك ! ... فليبدأوا على الأقل ، من باب التجربة ...

ـ حتى في القبر لا أُتركُ مرتاحاً ...

قال كليناقتش :

ـ يا جنرال ، أنت أولاً تلعب هنا بالورق ، ثم اننا لا يهمنا أمرك ، ولا نكترث بك .

ـ أيها السيد العزيز ، أرجوك على الأقل ألا تنسى نفسك فتقول ما ليس ينبغي أن يقال ...

ـ هه ؟ ماذا ؟ انك لن تستطيع أن تنالني على كل حال ... ففي وسعي أن أغيظك ما شاء لي هواي أن أغيظك . ثم ماذا يجديه هنا أن يكون له لقب جنرال ؟ هناك كان جنرالاً أما هنا فليس الا جيفة !

ـ لا ، لست جيفة ... أنا هنا ...

ـ أنت هنا تتفسخ في تابوتك ، ولن يبقى منك الا ستة أزرار نحاسية .

أعولت الأصوات تصيح :

ـ مرحى كليناقتش ! هأ هأ هأ ! ...

ـ لقد خدمت قيصري ... ولي سيف ...

ـ سيفك لا ينفع الا في تسفيد فئران ، ثم انك لم تستله في يوم من الأيام .

ـ لا قيمة لهذا ، فلقد كنت جزءاً من كل .

ـ كثيرون هنا كانوا جزءاً من كل .

ـ مرحى كليناقتش ، مرحى ! هأ هأ هأ ! ...

قال المهندس :

ـ أنا لا أعرف ما السيف .

وصاح من بعيد صوت لا أعرفه لكنه بدا لى فى ذروة الحماسة :

ـ سنهرب كالفئران أمام البروسيين ، وسيجعلوننا نطير فى الهواء غباراً .

قال الجنرال بصوت خافت متلعثم لا يكاد يُسمع ولا يُفهم :

ـ السيف شرف يا سيد .

ولكننى سمعته وفهمته .

وتعالت جلبة طويلة . كان الجميع يصخبون ويصيحون ، فلا يستطيع المرء أن يسمع الا عويل التململ الهسترى الذى يصدر عن آفدوتيا اجناتفنا معبراً عن نفاد صبرها :

ـ آه .. أسرعوا .. أسرعوا .. متى نبدأ أخيراً فى التخلص من الحياء ! ...

وقال الدكانى فجأة :

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه الحق أن نفسى أخذت تواجه البراهين ...
وفجأة عطست . عطست على حين بغتة دون أن أريد ذلك . ولكن الأثر كان مذهلاً : أصبح كل شيء هادئاً ساكناً كما يكون فى مقبرة . تبدد كل شيء . أصبح الصمت صمت قبور حقاً . لا أظن أنهم تحرجوا من حضورى : فلقد قرروا ألا يشعروا من شيء بحياء . لا ولا يمكن أن أفترض أنهم خافوا أن أشى بهم الى الشرطة . فما مجيء الشرطة الى هذا المكان وما عساها تفعل هنا ؟ لذلك ترانى أستنتج ، على غير ارادة منى ، أنه لابد أن لهم سراً يجهله الأحياء ، وأنهم يحرصون أشد الحرص على ألا يذيع هذا السر .

قلت لنفسي : « هيا يا أصدقائي ، سأجيء أزوركم مرة أخرى » • وغادرت المقبرة •

لا ، لا أستطيع أن أسلّم بهذا في الواقع ، لا أستطيع أن أقبله ! ان بوبوك لا يخيفني ولا يبث الاضطـراب والقلق في نفسي (ذلك اذن ما كان يريد أن يصل اليه « بوبوك ») •

دعارة في مثل هذا المكان ! دعارة يسترسل فيها من ُتعقد عليهم أقصى الآمال ! دعارة تقوم بها جثث متحللة متفسخة نتنة ! دعارة لا تعفُ حتى في أواخر لحظات الشعور والضمير ! لقد أتيحت لهم ، أتيحت لهم تلك اللحظات الأخيرة ، و ••• و ••• لكن كيف يفعلون هذا في مثل هذا المكان خاصة ؟ لا ، لا ، انني لا أستطيع أن أقبل ذلك وأن أسلّم به •••

وطفت على الصفوف الأخـرى ، وأصغيت الى جهة من الجهات ، ذلك أنه كان يجب عليّ أن أصغي الى كل جهة من الجهات ، لا الى جهة واحدة ، حتى أستطيع أن أقطع برأي وأن أقضي بحكم • أتراني ألقى في آخر المطاف ما يبعث على عزاء ؟

لكنني سأعود حتماً الى هؤلاء • لقد تعاهدوا على أن يرووا قصص حياتهم ونوادر شتى • أف • لكنني سأعود ، سأعود حتماً ، فتلك أزمة ضمير •

وسأحمل مقالتي الى جريدة « المواطن » • لقد ُنشرت فيها صـورة محرر • فمن الجائز أن ينشروا لي أنا أيضاً •

الطفل عند يسوع

في عيد الميلاد

١٨٧٦

« الطفل عند المسيح فى عيد الميلاد » ، ظهرت أول مرة فى كراسة كانون الثانى (يناير) ١٨٧٦ من «يوميات كاتب» (الفصل الثانى ، ٢) .

... أحلم دائماً أن هذا حدث بمكان ما ، في زمن غير محدّد ، عشية عيد الميلاد تماماً ، في مدينة كبيرة من المدن ، أثناء جو جليدي فظيع .

أحلم أن طفلاً لا يزال صغيراً جداً ، طفلاً عمره ست سنين ، وربما أقل من ذلك ، قد استيقظ ذات صباح في قبوٍ ينضح رطوبة . انه يرتدي نوعاً من قميص أو مئزر ، ويرتجف من شدة البرد ، وأنفاسه تنتشر بخاراً أبيض ، وقد قبع هو في ركن جالساً على صندوق ، وأخذ يرسل هذا البخار عامداً يخادع به ضجره ، ويتسلى عن سأمه بالنظر اليه كيف يطير . ولكنه جائع يتمنى لو يصيب شيئاً من طعام . لقد دنا في هذا اليوم عدة مرات من السرير الحقير الذي ترقد عليه أمه المريضة فوق فراش من قش ، متوسدةً صرّة . ما الذي جاء بها الى هذا المكان ؟ أغلب الظن أنها وافدة من مدينة أخرى مع ابنها الصغير ، وأنها قد وافاها المرض بغتةً . وقد اقتادت الشرطةُ أمس صاحبة القبو التي تؤجر غرفه ، وجلا السكان عن جميع أركان القبو متفرقين هنا وهناك ، فاليوم عيد ، ولم يبق في القبو الا لمّام خرقٍ أخذ السكر منه كل مأخذ ، لأنه ظل يشرب منذ أربع وعشرين ساعة غير منتظر أن يحلّ يومُ العيد .

وفي الطرف الآخر من الغرفة تئنُّ عجوز صغيرة أقعدها مرض الروماتزم ، ولابد أن عمرها ثمانون سنة . لقد كانت في أزمنة غير هذه الأزمنة وأمكنة غير هذه الأمكنة « مربية أطفال » ، ولكنها تموت الآن وحيدةً ، تئن وتتنهد وتنهر الصبي الصغير . لذلك يخاف الصبي الآن أن يدنو كثيراً من ذلك الركن .

ولقد استطاع أن يجد في الدهليز ما يشربه ، ولكنه لم يتمكن من العثور على أية كسرة خبز يأكلها ؛ وهذه هي المرة العاشرة ، على الأقل ، التي يقترب فيها من أمه ليوقظها . وقد اعتراه أخيراً شيء من الخوف في هذا الظلام . لقد هبط الليل منذ مدة طويلة . ولكن لم يُشعل أحد ضوءاً

حتى الآن . وحين جسّ الصبي وجـه أمه أدهشـه أن الوجه ظل ساكناً لا يتحرك ، وأنه بارد كبرودة الجدار . قال يحدث نفسه : « البرد شديد حقاً هنا » . وارتاحت يده على كتف المريضة من تلقاء نفسها ، ثم أخذ ينفخ على أصابعه ليدفئها . ثم اذا هو ينبش السرير فجأة ليعثر على كسكيتته ، ويخرج من القبو متلمسـاً طريقه فى الظلمة الحالكة بغير ضجة . ولقد كان يمكن أن ينصرف قبـل ذلك بمدة طويلة لولا خوفه من أن يلتقى فى أعلى السلم بكلب ضخم ظل ينبح أمام باب المنزل المجاور طوال اليوم . ولكن الكلب كان قد بارح مكانه ، ورأى الصبي نفسه فى الشارع فجأة .

رباه ! يا لهـا من مدينة ! انه لم يشهد فى حياته شيئاً كالذى يشهده الآن . هناك ، فى البلد الذى جاء منه ، يكون الظلام شديداً فى الليل ، فالشارع لا ينيره الا مصباح واحد . والمنازل الخشبية الصغيرة مختفية وراء مصاريعها . ومتى هبط الليل لا يُرى أحد فى الشوارع . فالناس جميعاً يأوون الى بيوتهم . ولا يبقى فى الشوارع الا كلاب ، مئات من الكلاب ، ألوف من الكلاب ، أسراب كبيرة من الكلاب تظل تعوى وتنبـح طـوال الليل . ولكن الجو دافىء جداً هناك ، وهناك كان يعطى طعاماً يأكله ... أما هنـا ... يارب ! ليته يستطيع أن يأكل فقط ... ثم ما أشـد الجلبة والضجة هنـا ! وما أسـطع الضـياء ! ما أكثر النـاس ! وما أوفر الخيل والعربات ! ... وهذا الجليد ! هذا الجليد !

وخرج بخار متجلد من خياشيم الأفراس المسرعة . ورنّت حدوات حوافرها على بلاط الشارع تحت الثلج الهش . وهؤلاء الناس كلهم ما أكثر ما يتصادمون ، و .. رباه .. ما أشد جوعه .. ما أشد رغبته فى أن يأكل ولو لقمة من أى شيء . وما أشد الألم الذى يشعر به فى أصابعه فجأة ! ومرّ بقرب الصبي رجل من شرطة المدينة ، فسرعان ما أشاح وجهه عنه متظاهرا بأنه لم يلمحه .

هذا شارع آخر . أوه ! ما أعرضه ! هنا سيُداس حتماً . ما أكثر

ما يصبح هؤلاء الناس كلهم ، وما أشد ما يسرعون في سيرهم ! وما أكثر الضياء ! ما أسطع النور ! ثم ما هذا ؟ آ ... زجاج نافذة واسعة . ووراء الزجاج غرفة ، وفي الغرفة شجرة عالية تبلغ السقف . انها شجرة صنوبر ، شجرة عيد الميلاد . ما أكثر ما تحمل من أنوار ، وأشرطة مذهبة ، وتفاحات . وقد أحيطت بلعب صغيرة ، وأفراس صغيرة . وفي الغرفة أولاد يركضون : انهم يرتدون ثياب العيد . ما أنظفهم ! وهم يضحكون . هذه بنت أخذت تراقص صبياً صغيراً . ما ألطفها ! ما أحلاها ! حتى ان موسيقى تسمع من خلال الزجاج .

ينظر الصبي الصغير ويعجب ويدهش . ثم هاهو ذا يضحك ، بينا هو يشعر بألم في أصابع رجليه الصغيرة ، وبينا تحمر أصابع يديه احمراراً شديداً وتأبى أن تنثني وتوجعه اذا هو حركها . عندئذ تذكر الصبي فجأة أن أصابعه تؤلمه ، فأخذ يبكي ، وركض مبتعداً . ولكن ها هو ذا يرى زجاج نافذة أخرى ، ويرى غرفة أخرى فيها شجرة أيضاً . غير أنه يلمح في هذه المرة موائد ، ويرى على الموائد أصنافاً من الحلوى ، أصنافاً كثيرة من الحلوى : أقراصاً باللوز ، أقراصاً حمراء وأقراصاً صفراء ؟ ويرى أربع سيدات غنيات قد جلسن يوزعن الحلوى . ويدخل ناس كثير في أجمل الحلل ، آتين من الشارع .

اقترب الصبي خلسة ، وفتح الباب ، ودخل فجأة . آه ... لكم أخذوا يسبونه شاهرين أيديهم ! وأسرعت سيدة تدنو منه فتدس في يده قرشاً ثم تفتح له باب الشارع بنفسها . لشدما خاف ! وسرعان ما تدحرج القرش على الدرجات فرن رنيناً واضحاً . لم يستطع الطفل أن يثني أصابعه الصغيرة المحمرة ليقبض على القرش ! وأسرع يركض ماضياً في سبيله قدماً دون أن يعرف الى أين يذهب . ان به حاجة الى البكاء من جديد ، ولكنه في هذه المرة خائف . وأخذ يركض وهو ينفخ

على يديه . واستولى عليه قلق وفزع ، اذ أحس فجأة بأنه وحيد جداً .
وفيما كان يشتد رعبه ، اذا هو ... ما هذا أيضاً يا رب ؟ ... هؤلاء
جماعة من الناس قد وقفوا مدهوشين . ان وراء زجاج نافذة من النوافد
ثلاث دمى . ليست الدمى كبيرة . وقد ألبست فساتين حمراء وخضراء .
ولكنها تشبه أن تكون حية ، تشبه أن تكون حيةً تماماً ! هذا شيخ جالس
كأنه يعزف على كمان ، على كمان كبير . وهذان شيخان آخران يعزفان على
كمانين صغيرين ، صغيرين جداً ، ويرجّحان رأسيهما الدقيقين على ايقاع
العزف . وتنظر الدمى بعضها الى بعض ، بينما تتحرك شفاهها وتتكلم ...
نعم ... لكأنها تتكلم حقاً ... أليست كمن يتكلم فعلاً ؟ ولكن الزجاج
يحجب صوتها فلا يُسمع كلامها .

ظن الصبي في أول الأمر أنها أشخاص أحياء . لكنه حين أدرك أنها
دمى انفجر يضحك فجأة . لم يسبق له أن رأى مثل هذه الدمى
في يوم من الأيام ، بل لم يكن يتصور أن في الامكان أن توجد أمثال
هذه الدمى . صحيح أنه كانت به حاجة الى البكاء . ولكن منظر هذه
الدمى يبعث على الضحك ، يبعث على الضحك جداً .

وبدا له بغتةً أن أحداً أمسك قفاه . ان صبياً طويلاً شريراً كان
واقفاً الى جانبه ، فاذا به يضربه على رأسه ، ويخطف كسكيتته ، ثم يشبك
ساقه بساقه فيسقطه على الأرض . تدحرج الصبي الصغير . وأخذ الناس
يصيحون . واعترى الصبيَّ رعب شديد ، فقام وولّى هارباً بخطى عريضة
وهو لا يدري ماذا يفعل ، ودخل بوابة أحد المنازل فصار في فنائه ، ووجد
كومة من خشب فأقعى وراءها وهو يقول لنفسه : « هنا ... على الأقل ...
لن يكتشفوا مخبئي .. فالظلام في هذا المخبأ شديد » .

أقعى وطوى بعض جسمه على بعضه وهو لا يستطيع أن يتنفس من
شدة خوفه . ولكنه لم يلبث أن شعر براحة على حين فجأة . نعم على
حين فجأة . أصبحت يداه وقدماه لا توجعه ، وأحس بدفء ، بدفء

شـديد ، كأنه قريب من مدفأة • وارتعش بغتـة • آه ••• لقد حرم من النوم مدة طويلة • ما أحلى أن ينام هنا !

قال الصبي الصغير يحدث نفسه : « سوف أمكث هنا لحظة ، ثم أمضى أرى الدمى مرةً أخرى » ، وابتسم حين تصوَّرها من جديد • لكأنها كانت حيـة !

وبدا له فجـأة أنه يسمع صـوت أمه تغنى له أغنية صغيرة وهى مائلة عليه •

ـ ماما ! اننى أنام ! آه ••• ما أحلى النوم هنا !

وفجأة سمع الصبي صوتاً رقيقاً يقول له فوقه :

ـ تعال انظر الى شجرة عيد الميلاد عندى يا بنى •

فتصوَّر الصبي فى أول الأمر أن أمه هى التى تكلمه ، ولكن لا •• ما هى أمه • فمن ذا الذى ناداه اذن ذلك النداء ؟ لم يبصر الصبي شيئاً ، لكن أحـداً قد مال عليه مع ذلك ، وضمَّه بذراعيه فى الظلام • وقد مدَّ هو ذراعيه •• وها هو ذا يرى نفسه فجأة فى مكان آخر ••• يا للضياء الساطع ! أوه ••• ما أروعها شجرةً من أشجار عيد الميلاد ! لكنها ليست شجرة صنوبر • ومع ذلك لم ير فى حياته شجرات كهذه الشجرة • أين هو الآن ؟ كل شىء يشع ، كل شىء يتلألأ • وما أكثر الدمى الصغيرة التى تحيط به من كل جهة • ولكن لا ! ما هذه دمى ، بل صبية صغار ، وصبايا صغيرات • ولكنهم يشعون ويتألقون • وهم يرقصون من حوله وقد تشابكت أيديهم ، وهم يطيرون ، وهم يقبِّلونه ، وهم يحملونه ويأخـذونه معهم فيطير هو أيضـاً • واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنظـر اليه ، وتبتسم له فرحة • فيصيح الصبي الصغير قائلاً لأمه :

ـ ماما ! ماما ! آه ••• ما أحلى هذا المكان وما أشهاه !

وعاد يقبّل الأطفال ، واشتهى أن يروى لهم قصة الدمى التى رآها وراء زجاج النافذة ، أن يروى لهم هذه القصة بأقصى سرعة .

قال يسألهم وهو يضحك ويلاطفهم :

ـ من أنتم أيها الصبية الصغار ؟ من أنتن أيتها الصبايا الصغيرات ؟

فأجابوه :

ـ هذه شـجرة عيد الميلاد عند يسوع المسيح . ان المسيح ينصب شجرة فى مثل هذا اليوم من كل سنة للأطفال الصغار الذين لم يكن لهم شجرة على الأرض ...

هكذا علم أن جميع هؤلاء الصبية الصغار والبنات الصغيرات كانوا أطفالاً مثله ، ولكن بعضهـم ماتوا من البرد فى سلال تُركوا فيهـا على أبواب قصور سـان بطرسبرج ، وبعضهم ماتوا رُضّـعاً فى دار حضانة بفنلندة ، وبعضهم ماتوا على أثداء أمهاتهم الناضبة ابان المجاعة التى عمت بلاد سـمارا ، وبعضهم ماتوا مختنقين بالهواء المسموم فى حافلات الدرجة الثالثة من القطار . ولكنهم كلهم مجتمعون الآن هنا كالملائكة . انهم عند يسـوع المسيح . وان يسـوع المسيح هو الآن معهم يمد يديه ليباركهم وليبارك أمهاتهم أيضاً ... ان الأمهات قد انتحين جانباً ، وأخذن يبكين . وكل واحدة منهن تتعرف ابنها الصغير أو ابنتها الصغرى فتطير الى جانبه أو الى جانبها . والأولاد يقبّلون أمهاتهم ، ويمسحون دموعهن ، ويضرعون اليهن ألا يبكين ، لأنهن الآن سعداء .

فى فناء ذلك المنزل ، عثر البوابون فى الصباح على جثة طفل دخل الفناء مسرعاً وتجلّد وراء كومة من خشب . وأمكن العثور على أمه فى النهاية . كانت قد ماتت قبله .

والتقى الاثنان فى السماء عند الرب .

الفلاح ماراي
١٨٧٦

« الفلاح ماراى » : ظهرت أول مرة في كراسة شــهر شباط (فبراير) ١٨٧٦ « يوميات كاتب » (الفصل الثالث ، ٣) .

ولكنني أعتقد أن جميع أنواع هذا « الجهر بالرأي » تبعث قراءتها على الملل والضجر . لذلك سوف أكتفي برواية حكاية ، بل ما هي بحكاية أيضاً ، وانما هي ذكرى لا أكثر ، ذكرى تحرقني الرغبة في بسطها هنا ، هذه اللحظة ، ختاماً لحديثنا عن الشعب . كنت في التاسعة من عمري ... ولكن لا ... ان من الأفضل أن أبدأ بالعهد الذي كنت أدخل فيه التاسعة والعشرين .

في يوم الاثنين من عيد الفصح كان الهواء مشبعاً بالرطوبة ، وكانت السماء صافية زرقاء ، وكانت الشمس قوية دافئة ، ولكن نفسي ظلت غارقة في الظلمات . كنت أطوّف وراء الثكنات ، أعدُّ أوتاد السياج الضخم الذي كان سوراً للسجن . ولكن لم تكن بي أية رغبة في عدّ الأوتاد ، رغم أن هذا كان لي شاغلاً معتاداً مألوفاً . كان السجناء « في راحة » بمناسبة اليوم الثاني من العيد . وكان كثير منهم قد سكروا سكراً شديداً ، ففي كل لحظة من اللحظات تُتبادل شتائم ولكلمات في جميع الأركان . وكان آخرون يدندنون أغنيات بذيئة ، أو يلعبون بالورق تحت الحواجز . وكان السجناء الذين صرعهم رفاقهم بضربهم على رءوسهم لفرط ما أحدثوا من جلبة ، راقدين على سُررهم تغطيهم فرواتهم بانتظار أن يفيقوا من غيبوبتهم . وقد لمعت نصال السكاكين مراراً حتى الآن . وكان ذلك كله ، خلال هذا اليومين من العيد ، يعذّبني تعذيباً شديداً الى حدّ المرض . ثم انني لم أحتمل في حياتي أن أرى منظر افراط الشعب في الشراب والطعام دون أن أشعر من ذلك باشمئزاز ، ولا سيما في هذا المكان . وكانت المراقبة قد قلّت أثناء تلك الأيام . كان المراقبون يمتنعون عن التنبيش بحثاً عن خمرة يكون السجناء قد أخفوها، لادراكهم أن من الخير أن يرخوا الحبل على غاربه مرة في السنة حتى لهؤلاء الأشرار ، والا ازداد الأمر سوءاً. وشعرت بالكره والبغض يشتعلان في قلبي آخر الأمر . لقد صادفت سجيناً سياسياً بولنديا اسمه م ... سكي ، فرشقني بنظرة شزراء ،

ملتمع العينين مرتجف الشفتين ، وقال لى بصـوت خافت صارفاً بأسنانه : « اننى أكره هؤلاء اللصـــوص » ، ثم مضى • رجعت الى الثكنة التى بارحتها منذ ربع ساعة فى أكثر تقدير ، كالمجنون ، حين رأيت ستة فلاحين ضخاما يهجمون دفعة واحدة على تترى سـكران اسمه جازين ، ليردوه الى الصواب ، وينهالون عليه بضرب وحشى لو أصاب جملا لقتله • ولكنهم كانوا يعلمون أنه يصعب أن يموت هذا الهرقل ، فكانوا يضربونه ضربا لا رحمة فيه • فلما عدت الآن الى الثكنة رأيت جازين مسجى على الحاجز فى ركن بآخر الغرفة وكأنه جثة هامدة لا حياة فيها ، وقد غُطى بفروة ، ورأيت جميع السجناء يمرون بقربه صامتين • انهم يأملون أن يستيقظ فى الغد ، ولكنهـم يقولون : « من الجـائز مع ذلك أن يفطس » • عدت الى مكانى ، ورقدت على ظهرى ، واضـعاً يدىّ وراء رأسى ، مغمضـاً عينىّ • لقد كنت أحب أن أستلقى هذا الاستلقاء • فلا أحد يضايق من ينام ، فأستطيع بذلك أن استرسل فى أحلام اليقظة على ما أحب وأهوى • ولكننى لم أسترسل هذه المرة فى الأحلام ؛ لقد كان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، وكنت أشـعر بغمٍ شـــديد ، وكانت لا تفارق سـمعى كلمـات م••••ـكى : « اننى أكره هؤلاء اللصـوص ! » • ولـكن عـلام وصفُ تلك المشـاعر التى انتابتنى فى تلك اللحظة • انهـا ما زالت توافينى فى الحلم ليلا ، فلا أعرف أن هناك كوابيس أشدّ منها هولاً • لعلكم لاحظتم أننى حتى هذا اليوم لم أكد أتكلم عن حيـاتى فى السجن • أما كتـابى « ذكريات من منزل الأموات » ، فقد نشرته منذ خمسـة عشر عاماً على أنه ذكريات شخص خيالى هو رجل قتل زوجته • وأضيف الى ذلك أن كثيراً من الناس يعتقدون ويؤكدون حتى الآن أننى نُفيت الى سيبريا لأننى قتلت زوجتى •

هبطت شيئاً فشـيئاً الى نوع من الخدر ، وانقدت لسلسلة ذكرياتى • اننى خلال السنين الأربع التى قضيتها فى السـجن ، كنت أتذكر الأيام

الماضية بغير انقطاع ، حتى لكأنني عشت حياتي بهذه الذكريات مرتين •
قلما استحضرت هذه الذكريات عامداً • وانما كان يبدأ التذكر في أكثر الأحيان بأمر تافه من الأمور ، وربما بدأ بأمر لم أكن قد انتبهت اليه ولا تلبثت عليه ، ثم اذا هو يتسع شيئاً فشيئاً فيصبح صورة واضحة ، أو يغدو احساساً قوياً كاملاً • فكنت أحلل تلك الاحساسات ، ثم أضيف لمسات جديدة الى تلك المادة التي عشهتا منذ زمن طويل ، بل كنت كذلك أصحح فيها ، وأبدل منها بغير انقطاع • وكانت تلك هي لذتي ومتعتي في الأمر كله •

ففي تلك المرة تذكرت ، على حين فجأة ، ساعة من طفولتي الصغيرة لا يقف عليها الادراك ، أيام كنت في السنة التاسعة من عمري • كنت أظن أنني قد نسيت تلك الساعة نسياناً تاماً • ولكن كان يسرني ويبهجني ويمتعني في ذلك الحين أن أستعيد ذكريات طفولتي الأولى • تذكرت شهر آب (أغسطس) الذي قضيته في الريف • كان الجو في ذلك الشهر جافاً مضيئاً ، ولكنه كان بارداً بسبب الريح • كان الصيف يشارف على نهايته • وسوف ينبغي أن أعود الى موسكو قريباً ، فأقضي شتاءً كاملاً مضجراً في تعلم اللغة الفرنسية • لذلك أحسست بانقباض في صدري حين تصورت أنني سأغادر الريف • اجتزت البيدر الذي تتكدس عنده مساحق القمح • ثم اجتزت وادياً وصعدت صوب حرجة كثيفة اسمها لوسك تمتد وراء الوادي وتبلغ الغابة • وفيما كنت أوغل في الحرجة ، سمعت غير بعيد مني ، على مسافة ثلاثين خطوة من حافة الحرجة ، فلاحاً يحرث وحيداً • وكنت أعلم أنه يحرث أرضاً وعرة يلقى الحصان عناء شديداً في جرّ المحراث عليها ، لأنني كنت أسمع الفلاح من حين الى حين يصرخ مهيباً بالحصان أن يبذل مزيداً من الجهد : هوه ! هوه ! وكنت أعرف جميع فلاحينا تقريباً ، ولكنني لم أتبيَّن مَنْ هذا الذي يحرث الآن • وكان لا يهمني أن أعرف ذلك على كل حال ، لأن العمل الذي كنت عاكفاً عليه كان يشغلني عن سائر ما عداه • لقد

كنت مشغولاً أنا أيضاً : كنت أقطع لنفسى قضباناً من شجر البندق لأجلد بها الضفادع . ان قضبان شجر البندق جميلة جداً ، وهى أصلب وأمتن من قضبان شجر السندر . وكانت الخنافس والجعلان تشد انتباهى أيضا ، لأننى كنت مولعاً بجمعها لكثرة أنواعها وألوانها . وكنت الى ذلك أحب الجراذين الصغيرة النشطة التى تضرب سمرتها الى حمرة وتزينها بقع صغيرة سود . ولكننى كنت أخاف الثعابين . وكان ما ألقاه من ثعابين أقل كثيراً مما ألقاه من جراذين على كل حال . ولا تقع عين المرء على كثير من الفطر هناك . فمن أجل أن تجنى فطراً يجب عليك أن تمضى الى جهة أشجار السندر . ولقد كنت أتهيأ للذهاب الى تلك الجهة . ما أحببت فى حياتى شيئاً كما أحببت الغابة بأنواع فطورها وثمارها البرية وحشراتها وطيورها ، وقنافذها وسناجبها ، والرائحة الرطبة التى تفوح من أوراق أشجارها الساقطة المتعفنة . اننى وأنا أكتب هذه الأسطر الآن أشمُّ كل شذى غابتنا هناك فى القرية . ان هذه الاحساسات ستبقى حية ما حييت .

فى وسط ذلك الصمت الشامل سمعت على حين فجأة هذا النداء واضحاً كل الوضوح : « الذئب ! » . فاذا أنا أصرخ وقد جُننت رعباً ، وأهرول متجهاً الى حافة الغابة ، وأمضى قُدُماً الى الفلاح الذى كان يحرث .

انه فلاحنا ماراى . لا أدرى هل يسمى أحد بهذا الاسم . ولكن جميع الناس كانوا يدعونه ماراى . هو فلاح فى نحو الخمسين من عمره ، قوى البنية فارع الطول له لحية حمراء كثيفة وخطها الشيب . كنت أعرفه ، وان لم أكن قد كلمته تقريباً حتى ذلك اليوم . كان حين سمع صراخى قد أوقف حصانه . فلما وصلت اليه فتشبثت باحدى يدىّ بالمحراث ، وأمسكت بيدى الأخرى كمَّه ، أدرك مدى ما أنا فيه من

ذعر . وصحت أقول له لاهثاً :

ـ ذئب !

فرفع رأسه ونظر فيما حوله على غير ارادة منه ، وخيِّل اليه خلال لحظة أنني أوشك أن أكون ...

قال يسألني :

ـ أين الذئب ؟

فتمتمت أجيبه :

ـ صاح أحد ... صاح أحد قائلاً : « الذئب ! » .

فدمدم يقول ليطمئنني :

ـ هيَّا هيَّا ! لا ذئب هنا . لقد خيل لك . ما مجيء الذئب الى هذا المكان ؟

ولكنني ظللت أرتعد ارتعاداً شديداً ، وتمسكت بقميصه مزيداً من التمسك . وأظن أن شحوبي كان شديداً جداً . نظر اليَّ ماراي وهو يبتسم ابتسامة قلقة . كان خائفا عليَّ . وكان واضحاً أنه قلق أشد القلق من الحالة التي كنت فيها .

قال وهو يهز رأسه :

ـ ما أشد ما انتابك من خوف ! هيَّا . كفى يا صغيري ! لا ، لا ، انك جسور حقاً .

ومدَّ يده يلاطف خدي فجأة . وكرر قوله :

ـ هيَّا ! كفى ! كان يسوع المسيح معك . ارسم اشارة الصليب .

لكنني لم أرسم اشارة الصليب . كانت شفتاي متقلصتين في طرفيهما . وأظن أن هذا هو ما شدهه أكثر من أي شيء سواه . فقرب اصبعه الضخمة ذات الظفر الأسود ، المتسخة بالتراب ، ومسَّ شفتيَّ

المتشنجتين مساً رفيقاً هادئاً • وقال لى وهو يبتسم ابتسامة طويلة تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها :

ـ ما بالك ؟ ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ هأنت ذا ترى أن ليس ههنا ذئب ! آه ••• آه •••

أدركت أخيراً أن ليس ثمة ذئب ، وأن الصرخة التى سمعتها تنادى « الذئب ! » انما كانت وهماً • وكانت الصرخة قد دوّت مع ذلك واضحة أشد الوضوح • غير أن هذه الصرخات (التى لا تتصل بالذئاب وحدها) قد سبق أن سمعت مثلها مرةً أو مرتين ، فكنت أعلم أنها نوع من أوهام الحواس (وقد زالت عنى هذه الظاهرة بعد ذلك حين كبرت) •

قلت وأنا ألقى عليه نظرة استفهام خجلى :

ـ أنا ذاهب •

فأجابنى وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة التى تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها :

ـ هيّا ، اذهب ، سأتابعك بنظرى • لن أدع للذئب أن يهاجمك • كان يسوع المسيح معك • اذهب •

ورسم علىّ اشارة الصليب ، ثم رسمها على نفسه •

وانصرفت فكنت ألقى نظرةً الى الخلف كلما سرت عشر خطوات • وفيما كنت أبتعد بقى ماراى واقفاً هو وحصانه ، متجهاً ببصره الى ناحيتى ، يهزّ لى رأسه كلما التفت نحوه • يجب أن أعترف أننى كنت أشعر بخجل من اظهارى ذلك الرعب كله ، ولكن هذا لا ينفى اننى ظللت خائفاً خوفاً شديدا من الذئب الى أن صعدت الجانب الآخر من الوادى ، وصرت قريباً من أول بيدر • وهناك زال خوفى ولم يبق منه أى أثر ؛ ورأيت كلبى لوبيو يندفع الىّ فجأة • فأحسست من حضور لوبيو بطمأنينة كاملة وثقة تامة • والتفت نحو ماراى مرةً أخيرة ، فلم أستطع عندئذ أن

أميز وجهه ، ولكنني أحسست أنه لا يزال الى تلك النظرة الرقيقة نفسها ، وأنه يهزُّ لي رأسه مشجعاً . ولوحت له بيدي ، فرأيت يده ترتفع في الهواء ملوِّحة لي ، ورأيته يستأنف عمله في حرث الأرض . وسمعته من بعيد يصيح مستحثاً حصانه :

ـ هوه ! هوه !

ورأيت الحصان يجرُّ العربة على الأرض الوعرة في غير قليل من العناء .

ذلك كله عاد الى ذاكرتي ، لا أدري لماذا ، ولكنه عاد بأدق التفاصيل وأوضح الصور . ورأيتني أفتح عينيَّ فجأةً وأجلس على الحاجز . فألاحظ ان الابتسامة الهادئة الوادعة التي أنبتتها هذه الذكريات على شفتي لا تزال مرتسمة عليهما . ولبثت دقيقة كاملة أستعرض صور تلك الذكريات .

بعد أن تركت ماراي ورجعت الى الدار لم أحدِّث أحداً بشيء عن « المغامرة » التي وقعت لي . وهل كانت تلك مغامرة حقاً ؟ ثم لم ألبث أن نسيت ماراي . وحين لقيته بعد ذلك في مناسبات نادرة ، كنت لا أذكره بحكاية الذئب ، بل كنت لا أخاطبه بشيء البتة ، ثم هأنذا بعد انقضاء عشرين سنة على ذلك اللقاء ، أتذكره وأنا في سيبريا بأدق التفاصيل واوضح الصور . فلابد أن ذلك اللقاء قد نُقش في نفسي من تلقاء نفسه دون أن أدرك أنا ذلك ، ودون أن أريده ، ثم اذا هو تستيقظ ذكراه في خيالي حين احتجت اليها . تذكرت الابتسامة الرقيقة الحنون يغمرني بحنانها الفلاح المسكين الذي كان قناً من أقناننا . وتذكرت اشارات الصليب التي رسمها في ورع وتقوى ، وتذكرت كيف كان يهزُّ لي رأسه مشجعاً ، وتذكرت ما قاله لي : « ما أشد الخوف الذي انتابك يا صغيري ! » . وتذكرت خاصةً تلك الاصبع الضخمة المتسخة بالتراب التي لامس بها طرف فمي ملامسة رقيقة تكاد تشتمل على خجل . صحيح أن أي انسان ما كان ليفوته

أن يطمئن طفلاً • ولكن ذلك اللقاء في الخلاء قد اكتسى في نظرى معنى خاصاً • لا أظن أنه كان سينظر الىَّ نظرةً تعبرُ عن حب يبلغ هـذا المبلغ كله من النقاء ، لو أنني كنت ابنه وفلذة كبده ؟ ما الذى أجبره على هذا الحب كله ؟ لقد كان قناً لنا ، وكنت أنا ابن مولاه • لا أحد كان سيعلم بأنه لاطفنى ولامس خدى ، ولا أحد كان سيكافئه على ذلك أبداً • فهل كان اذن يحب الأطفال الصغار هـذا الحب كله ؟ ان لبعض النـاس طبيعة كهذه • لقد حدث اللقاء في مكان منعزل ، في البرية ؛ والله وحده رأى من علياء سمائه ما يزخر به قلب فلاح روسى بسيط جاهل متوحش لا يزال مستعبداً للأرض ولا يزال لا يلمح في الأفق فجـر تحرره ، ما يزخر به قلبه من عاطفة انسانية عميقة متألقة ومن حنان يشبه أن يكون حنان امرأة •

قولوا لى : أليس هذا ما كان يعنيه كونستانتان آكساكوف حين تحدث عن التربية الرفيعة فى شعبنا ؟

وأحسست فجـأة ، وأنا أغادر سريرى الحقير وألقى نظـرةً على ما حولى ، أن فى وسعى بعد الآن أن أرى هؤلاء الأشقياء رؤية جديدة كل الجدة ، ثم اذا بكل كره وكل غضب يزايلان نفسى ويَّمحيان منها بغتةً بما يشبه السحر • ورحت أتفرس فى نظـرات رفاق السجن • فأسـأل نفسى : هذا الفلاح المحلوق شعر رأسه ، الساقط خلقه ، الممتلىء وجهه بالندبات ، الذى كان فى سـكره يعول بأغانٍ بذيئة ، ألا يمكن أن يكون ماراى ثانياً ؟ أين لى أن أعرف فى الواقع ما بنفســه ؟ أعود فأقول اننى فى ذلك المساء صادفت البولندى م••••ـكى ! مسكين هذا الرجل ! انه لم يتذكر فلاحاً اســمه ماراى ، فكان كل ما يستطيع أن يقوله عن هؤلاء الناس : « اننى أكره هؤلاء اللصـوص ! » • نعـم ، لابد أن البولنديين يقاسون أكثر مما نقاسى •

عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
١٨٧٦

« فى السنة المائة والرابعة من العمر » ، نشرت اول مرة فى عدد شهر آذار (مارس) ١٨٧٦ من « يوميات كاتب » (الفصل الأول ، ٢) ٠

١

حدثتنى سيدة فقالت :

« خرجت من منزلى فى نحو الظهــر . كان علىّ أن أنجز أعمالاً كثيرة ، وكنت متأخــرة تأخرا كبيرا . فاذا أنا ألقى على باب أحد المنازل امرأة عجوزاً ، طاعنةً فى السن كثيراً ، هرمةً هرماً شديداً ، متوكئة على عصا . يستحيل على المرء أن يحزر ما سُنها . كانت جالسةً بقرب بوابة فناء المنزل ، على الدكة التى يجلس عليها البواب . كانت تستريح من عناء السير . وكنت أنا ذاهبة الى منزل آخر يبعد عن ذلك المكان بضع خطوات. ودخلت المنزل الذى كنت ذاهبة اليه ، فلمّا خرجت منه رأيت العجوز جالسةً الآن على دكة بواب هذا المنزل الآخر . ونظرت الىّ ، فابتسمت لهـا ، ودخلتُ متجراً كان علىّ أن أشترى منه حذاءين لابنتى صونيا . وبعد أربع دقائق أو خمس رأيت العجوز مرةً أخرى فى شارع نفسكى ، جالسةً هذه المرة لا على دكة ، اذ لا دكة هنـــاك ، بل على حجر بقرب الباب . فرأيتنى أقف أمامها رغم ارادتى ، قائلةً لنفسى : « لماذا تجلس هذا الجلوس أمام جميع المنازل ؟ » .

وسألتها :

ـ أأنت متعبة يا جدة ؟

ـ نعم يا ابنتى ، متعبة ، متعبة دائماً . قلت لنفسى : « الجو دافىء ، والشمس ساطعة ، فسأمضى أتغدى عند أحفادى » .

ـ أنت ذاهبة للغداء اذن يا جدة ؟

ـ للغداء يا ابنتى ، للغداء .

ـ ولكنك لن تقطعى بهذا السير مسافة طويلة !

ـ بلى ! استريح ، ثم انهض ، فأمشى بضع خطوات ، ثم استريح مرة أخرى ، وهكذا دواليك .

نظرت اليها . بدا لى أمرها عجيباً . انها عجوز قصـــيرة ، نظيفة المظهر ، بالية الثياب . لعلهـا من البورجوازية الصغيرة . وجهها ذابـل ، أصفر ، معروق ؛ شفتاها باهتتان ، لا لون لهما . تشبه أن تكون مومياء . ولكن هذه المومياء تبتسم ، والشمس تسطع لها كما تسطع لسائر الأحياء .

قلت لها مبتسمة :

ـ لابد أنك مسنة جداً يا جدة !

ـ مائة وأربع سنين يا ابنتى ، مائة وأربع سنين ، لا أكثر . وأنت ، الى أين تُراك ذاهبة ؟

ألقت علىّ هذا السؤال وهى تنظر الىّ ضاحكةً ، ربما من فرحها بانها تحدث أحداً . ولكننى استغربت من عجوز تجاوزت المائة أن تسأل الى أين أنا ذاهبة ، حتى لكأن الأمر يهمها .

قلت وأنا أضحك أيضاً :

ـ اشتريت لابنتى حذاءين يا جدة ، وأنا الآن عائدة بهما الى الدار .

ـ ما أصغرهما ! أرأيت ما أصغرهما ؟ لابد أن ابنتك صغيرة جداً . هل لك أولاد أخر ؟

وعادت تضحك وهى تسائلنى بنظرها . ان عينيها كابيتان ، باهتتان ، ولكن نوعاً من حرارة داخلية تنعشهما أحياناً .

قلت لها :

ـ هل تأخذين منى هذه الكوبكات الخمسة يا جدة ؟ سوف تشترين بها رغيفاً صغيراً ٠

ـ ماذا ؟ خمسة كوبكات ؟ شكراً ٠ آخذها ٠

ـ خذيها بدون أن تستائى ياجدة ٠

أخذتها ٠ كان واضحاً أنها ليست متسولة ٠ هيهات أن تكون متسولة ٠ لقد أخذت الكوبكات الخمسة بكثير من اللباقة والكياسة ، لا كما تؤخذ صدقة ، بل كما تؤخذ هدية يقبلها من تُهدى اليه لطفاً وطيبة ٠ ولعلها كانت الى ذلك مسرورة مغتبطة : من ذا الذى يكلم العجوز المسكينة يوماً ؟ وهى الآن لا تُكلَّم فحسب ، وانما يُهتم بها ، و يُحدب عليها ، ويشعر أحد نحوها بعاطفة مودة ٠

قلت لها :

ـ استودعك الله يا جدة ٠ أتمنى لك أن تصلى بصحة جيدة وعافية تامة ٠

ـ سأصل يا ابنتى ، سأصل ٠٠٠ سأصل ٠ واذهبى أنت الى حفيدتك ٠

كذلك قالت لى العجوز ناسيةً أننى لمَّا أصبح بعد جدةً ، متخيلةً فى أغلب الظن أن جميع النساء جدَّات ٠

وانصرفت عنها ٠ فلما التفتُ لأراها مرة أخرى ، كانت تنهض عن مكانها ببطء ومشقة ، ثم تسير بضع خطوات جارَّةً نفسها جراً ، ضاربة بعصاها الصغيرة الأرض ٠ لعلها ستحتاج الى أن تستريح عشر مرات أخرى قبل أن تصل الى مسكن ذويها الذين ستتغدى عندهم ٠ الى أين عساها ذاهبة ؟ يا لها من عجوز صغيرة غريبة ! » ٠

ذلكم ما روته لى السيدة ٠

٢

روت لى السيدة هذه القصة فى ذات صباح • والحق أنها ليست قصة بل هى انطباع لا أكثر • وفى ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن قرأت مقالة فى احدى المجلات ، وكنت قد نسيت ما روته لى السيدة ، تذكّرت تلك العجوز الهرمة ، فاذا أنا أكمل القصــة فى خيالى ، فأرى المرأة التى تبلغ من العمر مائة وأربع سنين ، تصل الى ذويها للغداء ، واذا بما أتخيله يرتسم أمامى لوحةً صغيرة تبدو لى مستمدةً من الواقع فعلاً •

ان أحفاد العجوز ، وربما أولاد أحفـادها ــ لكنها تسـميهم جميعـاً أحفادها ــ هم صُنّاع يعيشــون أسرةً واحـدة فى قبو تحت الأرض ، أو يديرون دكان حلاقة • هم أناس فقراء ولكنهم توصلوا الى أن يعيشوا حياةً لائقة • وصلت العجوز اليهـم فى نحو السـاعة الثانيـة • وكانوا لا يتوقعون مجيئها ، لكنهم استقبلوها مسرورين بقدومها •

ــ آ ••• هأنت ذى أيضـاً ، ماريا مكسيموفنا ! ادخلى ، ادخلى ، أهلاً وسهلاً بخادمة الرب !

دخلت العجوز مبتسمة ، بعد أن رنّ جرس البـاب مدةً طـويلة بصوت حاد طنّان • ان حفيدتها امرأة الحلاق ، لا تزال فى شرخ الشباب كزوجها الذى لم يتجاوز الخامســة والثلاثين ، وهو رجل رصين المظهر ، رغم خفة المهنة التى يعمل فيها • انه يرتدى ردنجوتاً يلتمع دسمه كالتماع

الدسم فى قرص من الحوى ، ربما بسبب ما يستعمله فى مهنته من دهن . ما عساى أقول ؟ اننى لم أر فى حياتى حلاقاً نظيفاً . وكانت ياقة ردنجوته كالمغطوسة فى طحين .

وسرعان ماهرع الى جدة أمهم ثلاثة أطفال صغار ، صبى وبنتان . ان العجائز اللواتى بلغن مثـل هذا السن يتعاطفن والأطفال : فهنّ وهم يتشابهون نفساً ، ويتشابهون فى كل شىء .

جلست العجـوز . وكان عنـد رب البيت ضيف جـاء لعمل من الأعمال . انه فى نحو الأربعين من عمره . وهو يهمّ الآن ان ينصرف . وكان عند الحلاق أيضاً ابن أخته : فتى فى السابعة عشرة يعمل فى مطبعة . رسمت العجوز اشارة الصليب ، ونظرت الى الغريب . قالت :

ـ آه ... ما أشد ما أحس به من تعب ! وهذا ، من هذا ؟

فانبرى الغريب يقول مبتسماً :

ـ هذا أنا ، كيف يا ماريا مكسيموفنا ؟ أأصبحت لا تتعرفيننى ؟ منذ سنتين كان علينا أن نذهب الى الغابة معاً لقطاف الفطر .

ـ آ ... أعرفك يا عفريت ! اننى أتذكر . ولكننى نسيت اسمك . آه ... ما أشد ما أشعر به من اعياء !

قال الغريب مازحاً :

ـ ماذا يا ماريا مكسيموفنـا ، أيتهـا الجدة المحترمة ؟ ... أرى أنك أصبحت لا تكبرين .

فأجابته العجوز وهى تضحك :

ـ دعك من هذا الكلام ، دعك ! ...

كان سرورها بمزاحه واضحاً .

وأردف الرجل يقول :

ـ أنا يا ماريا مكسيموفنا رجل طيب .

ـ يحلو الحديث مع رجل طيب ! آه ... اننى لا أكاد أستطيع التنفس ! أرى أنكم اشتريتم لسيريوجنكا معطفاً جديداً .

قالت ذلك وهى تومىء الى ابن الأخت .

فابتسم ابن الأخت كاشفاً عن كل أسنانه ، وأقبل على العجوز . انه فتى قوى الجسم يفيض نشاطاً وهو يرتدى معطفاً رمادياً جديداً لا يزال يزهو به ولا يرتديه بغير اكتراث : لابد من أسبوع آخر ، فاذا هو يعتاده فيلبسه بعد ذلك دون أن يحفل به . أما الآن فهو لا يكف عن الاعجاب بنفسه ، ولا يمل من النظر الى صورته فى المرآة ؟ وكل حركة من حركاته تدل على أنه يقدر ذاته قدراً كبيراً .

قالت له زوجة الحلاق مدمدمة :

ـ تقدم . استدر !

وأردفت تقول مخاطبةً العجوز :

ـ انظرى ما صنعنا له يا مكسيموفنا ! لقد كلَّفنا المعطف خمسة روبلات دفعناها كأنها كوبك واحد . قالوا لنا عند بروخوروتش : الرخيص أغلى ، ذلك أن الرخيص ما تكاد تنقضى ثمانية أيام حتى يهترىء فتأسفوا على ما دفعتم ثمناً له . أما هذا ، فلا يبلى ! انظرى الى قماشه ما أجوده ! استدر قليلاً . وما أحسن بطانته ! ما أمتنها ! هلاً استدرت ! فانظرى كيف يذهب المال يا مكسيموفنا . أصبحت جيوبنا خاوية . لا بأس !

ـ آه يا عزيزتى . صار كل شىء باهظ الثمن فى هذه الأيام . جنَّت الأسعار جنوناً . الأفضل ألا تحدثينى عن هذا بشىء . فان الحديث عنه يؤلمنى كثيراً .

كذلك عقّبت مكسيموفنا على كلام زوجة الحلاق ، وكان في كلامها عاطفة صادقة وتأثر واضح ، وكانت لا تزال تلهث لهاثاً شديداً حتى لكأنها تختنق .

قال رب الدار :

ـ دعونا من هذا ! كفى ! آن لنا أن نأكل . أرى انك متعبة جداً يا ماريا مكسيموفنا !

ـ اه ... نعـم يا عزيزى الشهم ، متعبة ... رأيت الجو دافئاً ، والشمس ساطعةً .. فقلت لنفسى : « هلمى زوريهم ! علام تبقين راقدة فى السرير ؟ » . آه ... وفى الطريق صادفت سيدة شابة كانت تشترى لأولادها أحذية ، فقالت لى : « ما بك يا جدة ! أراك متعبة ! خذى هذه الكوبكات الخمسة ، فتشترى بها رغيفاً صغيراً ... » . فأخذت الكوبكات الخمسة فعلاً ...

قال رب الدار وقد اعتراه قلق واضح :

ـ ارتاحى قليـلاً يا جـدة . ما بالك تلهثين اليوم هذا اللهـاث الشديد ؟

ـ أخذتهـا حقاً ... اشـــتروا حلوى للأولاد ... بالكوبـكات الخمسة ...

وتوقفت عن الكلام مرةً أخرى . وحاولت من جديد أن تتنفس . وصمت الجميع خلال خمس ثوان .

وقال رب الدار وهو يميل عليها :

ـ ماذا يا جدة ؟

ولكن الجدة لم تجب . وخيمً الصمت خمس ثوان أخرى . شحب

لون العجوز ، وانقلبت سحنتها أكثر فأكثر ، ثبتت عيناها ، وتجمدت ابتسامتها على شفتيها • انها تنظر ، ولكن المرء يحس أنها أصبحت لا ترى •

انبرى الغريب يقول فجأة :

ــ يجب استدعاء الكاهن •

فدمدم رب الدار يقول :

ــ ولكن ••• هل ••• ألم يفت الأوان ؟

وهتفت امرأة الحلاق تنادي وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

ــ يا جدة ! يا جدة !

ولكن الجدة ظلت جامدة وقد مال رأسها الى جانب • وكانت يدها اليمنى الموضوعة على المائدة ممسكة بقطعة النقد ، الكوبكات الخمسة ، وكانت اليد اليسرى لا تزال على كتف ميشا ، ابن حفيدتها ، وهو طفل في السادسة من عمره • كان الطفل واقفاً لا يتحرك ، ينظر الى جدة أمه بعينين واسعتين مدهوشتين •

قال رب البيت وهو ينحني لها ويرسم اشارة الصليب ، قال بصوت رصين مهيب :

ــ فارقت •

وعقّب الرجل الغريب مذهولاً وهو يطوف ببصره على الحضور :

ــ أمر عجيب • لاحظت فعلاً أنها كانت ما تنفك تميل ثم تميل •

ودمدمت ربة البيت مضطربة مرتاعة تقول :

ــ آه ••• رباه ! ما العمل يا ماكاريتش ؟ هل يجب أن نحملها الى هناك ؟

فسألها رب البيت :

ــ هناك ؟ أين ؟ لا بل سوف ندبّر أمرنا هنا ! أليست جدتك ؟ يجب أن نبلغ عن وفاتها .

قال الرجل الغريب وهو يراوح فى مكانه وتزداد عاطفته رقةً وحناناً ، ويشتد احمرار وجهه :

ــ مائة وأربع سنين !

وعقّب رب البيت برصانة وهو يتناول كسكيتته ومعطفه :

ــ لقد أخذت تنسى الحياة فى الآونة الأخيرة !

ــ منذ لحظة لا أكثر ، كانت لا تزال تضحك ! انظر ! انها لا تزال قابضة على قطعة الخمسة كوبكات . قالت « اشتروا للأولاد حلوى » . واحسرتاه على حياتنا !

وقاطعه رب الدار قائلاً :

ــ هيا بنا يا بطرس ستيبانوفتش .

وخرج مع الرجل الغريب .

ليس يُبكى على متوفاة كهذه . مائة وأربع سنين ! « ماتت امنةً مطمئنةً بغير مرض » .

وأرسلت ربة الدار تدعو جاراتها ليساعدنها . فسرعان ما هرعن اليها وقد أحدث النبأ فى نفوسهن من المسرة أكثر مما أحدث فيها من الألم . وطفقن يطلقن من صدورهن آهات وأوهات ! وكان طبيعياً أن يُبدأ بغلى الماء فى السماور قبل أن يُفعل أى شىء آخر . واختبأ الأطفال فى ركن مدهوشين ، وجعلوا ينظرون الى الميتة من بعيد . ان ميشا لن ينسى ــ ما ظل حياً ــ أن العجوز ماتت وهى واضعة يدها على كتفه ؟ وحين

سيموت لن يكون أحد متذكراً أن الجدة العجوز عاشت مائة وأربع سنين : لماذا وكيف ؟ لا أحـد يعرف • ولا قيمة لهذا على كل حال • ان ملايين من الناس يموتون هكذا : يعيشون دون أن يفطن اليهم أحد ويموتون على هذا النحو أيضاً • ثمة شيء واضـح : هو أن الانسان ، حين يموت شخص بلغ من العمر مائة سـنة أو تزيد ، يشعر بنوع من الحنان والهدوء والوقار والعزاء • مائة سنة ان هذا الرقم لا يزال يحدث في نفس الانسان أثراً غريباً عجيباً •

بارك الله حياة وممات الناس الطيبين السطاء !

العذبة
١٨٧٦

« العذبة » نشرت لأول مرة كراسة كاملة من « يوميات كاتب » (تشرين الثاني – نوفمبر ١٨٧٦ الفصل الأول والثاني

حكاية خيالية

مقدمة المؤلف

أعتذر الى قرائى عن أننى لا أقدم اليهم « اليوميات » فى صورتها المعتادة المألوفة هذه المرة ، وانما أقدم اليهم حكاية خيالية . صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطراً كبيراً من الشهر ، ومع ذلك استميحهم عذراً وألتمس منهم العفو والتسامح .

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أننى أعدها واقعية قبل كل شىء . ولكن الخيال قائم فيها حقاً بحكم أننى أقدمها فى صورة قصة . فرأيت أن من المفيد أن أشير الى هذا منذ البداية .

الواقع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات . تخيلوا زوجاً ترقد على مائدته جثة امرأته التى انتحرت منذ بضع ساعات بالقاء نفسها من النافذة . انه يعانى انفعالاً عنيفاً شديداً ، ولمّا يستطع أن يثوب الى رشده وأن يسترد صوابه . فهو ينتقل من غرفة الى غرفة ، محاولاً أن يتصور ما حدث ، وأن يتخيل ما جرى ، وأن « يركّز أفكاره فى نقطة » . ثم ان هذا الرجل سوداوى المزاج فى أعماق نفسه ، لا ينفك يجتر أفكاراً ثابتة ، ولا يفتأ يناجى نفسه فى السر ، ويكلمها بغير انقطاع . انه اذن يتحدث الى نفسه ، فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية ، ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه » جاهداً . ورغم ما يلوح فى قصته من

اتصال ظاهرى وتسلسل طبيعى ، فانه يرتكب مخالفات منطقية ، ويقع فى تناقضات عاطفية . انه يبرىء نفسه ويدينها فى آن واحد ، كما أنه ينزلق الى تأويلات خاطئة ، والى ذلك يضاف شيء من غلظة فى الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة . وقد استطاع شيئاً فشيئاً أن « يفسر الأمر لنفسه » ، وتوصّل الى « تركيز أفكاره على نقطة » ، اذ ساقته سلسلة من الذكريات الى الحقيقة سوقاً لا سبيل الى مقاومته : فبثت هذه الحقيقة حماسة وحمية فى فكره وقلبه . فاذا لهجته نفسها تتغير فى نهاية القصة اذا قيست بما اشتملت عليه البداية من فوضى وبلبلة . لقد انكشفت الحقيقة واضحةً جليةً لهذا الشقى البائس ، انكشفت له هو على الأقل ...

ذلكم هو الموضوع . والقصة تتابع عدة ساعات ، وتتخللها انقطاعات ووقفات ، وتعتورها صدمات : فالرجل تارةً يتحدث الى نفسه ، وتارةً يخاطب شخصاً لا يُرى هو بمثابة قاض .

ولو استطاع مختزل أن يسمع ويسجل كل ما يقوله ، لجاءت القصة أشد وعورةً وخشونةً مما أرويه أنا . ولكن الحياة النفسية تبقى فيها على حالها فيما يغلب على ظنى . ان هذا الافتراض الذى افترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل الا بعد ذلك) هو ما جعلنى أصف هذه القصة بأنها خيالية . على أن هذا الأسلوب لا يظهر فى الفن هنا لأول مرة تماماً : لقد استعمله فكتور هوجو ، مثلاً ، فى رائعته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه بالموت » . ولئن لم يعتمد على مختزل ، فقد أجاز لنفسه أمراً أشد ايغالاً فى البعد عن الواقع والنأى عن الاحتمال ، وذلك حين افترض أن رجلاً محكوماً عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا فى آخر يوم من أيامه فحسب ، بل فى آخر ساعة ، بل فى آخر دقيقة . فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة ، لما أتيح لهذا الأثر من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال الحدوث .

الفصل الأول

من كنت ومن كانت

... هى ذى هنا الآن ـ فما زال الأمر حسناً . اننى أجىء فأنظر اليها فى كل لحظة . ولكنها ستُحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ هى الآن فى الصالون ، مسجّاة على مائدة صُنعت من ضمّ طاولتين احداهما الى الأخرى . ولكن تابوتها سيكون فى الغد أبيض بياضاً تاماً ، وسيكون كفنها أبيض . على أن الأمر ليس هو هذا ... اننى ما أنفك أذهب وأجىء محاولاً أن أفسر المسألة لنفسى : ها قد انقضت ساعات ست وأنا أحاول أن أفسر المسألة لنفسى ، فلا أفلح فى تركيز شتات أفكارى . الحق أننى لا أزيد على أن أذهب وأجىء ، أن أذهب وأجىء ... اليكم كيف جرى الأمر ... سأسرد لكم الحوادث متسلسلةً منظمة (لابد من النظام !) آه .. رباه .. ما أنا بكاتب .. انكم تلاحظون ذلك .. ولكن لاضير . سأقص الأمر على نحو ما أفهمه . ذلك أن أفظع ما فى القضية فى نظرى هو أننى فهمت كل شىء .

اذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا ، أى اذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية ، فاعلموا أنها انما جاءت الىّ لتقترض منى بعض المال برهن بعض الأشياء . كانت تريد أن تدفع أجر اعلان فى جريدة « الصوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمةً ، أو للمجىء الى البيوت تعطى دروساً ، الخ ، الخ . ذلك فى بداية الأمر . فلم أميّزها عن كثيرات

مثلها • كانت تأتى كما يأتى سائر الناس ، بل كانت تأتى ببساطة أكبر من بساطة سائر الناس • وقد لفتت انتباهى فيما بعد • كانت نحيفة القامة ، شقراء ، ربعة الطول • وكانت شديدة البطء والتهيب فى مخاطبتى، كما تكون امرأة خائفة • (أظن أن حالها هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها ، وطبيعى أننى لم أكن فى نظرها الا رجلاً كسائر الرجال ، أى لم أكن فى نظرها مرابياً يُقرض برهون ، بل رجلاً كأى رجل آخر) • كانت ما ان تأخذ المال حتى تدير ظهرها وتنصرف ، دون أن تقول شيئاً فى أية مرة ان بين المقترضات من يناقشن ويلححن ويساومن للحصول على مبلغ أكبر • أما هذه فلا • لقد كانت تقبل ما تُعطاه • يخيَّل الىَّ أننى أهذر هذراً مضطرباً لا يُفهم • الخلاصة ... هناك تفاصيل لفتت انتباهى اليها فى أول الأمر : القرطان الصغيران اللذان يزينان أذنيها وهما من فضة مطلية بذهب ، حليتها الصغيرة التافهة التى لا تساوى قرشاً ، وما الى ذلك • كانت هى نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوى قروشاً • ولكننى كنت ألاحظ من النظر الى وجهها أنها تعدُّها أشياء ثمينة • ذلك أن هذه الجواهر هى كل ما بقى لها من أبيها وأمها ، كما عرفت هذا فيما بعد • مرةً واحدة أبحت لنفسى أن أبتسم استهزاءً بهذه الأشياء • والحق أننى فى العادة لا أبيح هذا لنفسى أبداً • اننى أعامل الزبائن معاملة رجل مهذب ، ولا أعبِّر عما أريد التعبير عنه الا بكلمات قليلة ، أقولها بلهجة مؤدبة جافة ، « جافة ، جافة جافة » • غير أنها جاءتنى ذات مرة ببقايا (نعم بقايا) معطف قديم من فراء الأرنب — فلم أستطع أن أكظم ما قام فى نفسى ، فقلت لها كلاماً فيه شىء من التندر • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حالمتين ، فما أسرع ما اتقدتا فكأن شرراً يخرج منهما !

ولم تقل كلمة واحدة بل لمت « خرقها » وخرجت • وعندئذ انما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصة » ، وفكرت فيها • نعم ، فكرت فيها تفكيراً

خاصاً أيضاً . أجل ، هذا ما حدث . انني لا أزال أتذكر الاحساس الذى قام فى نفسى ، أو قولوا الاحساس الرئيسى الذى هو مركّب جميع الاحساسات الأخرى : انها فى ميعة الصبا فلا يقدّر المرء أن تكون سنّها أكثر من أربعة عشر عاماً . ومع ذلك كانت سنها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر . على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ، ليس هذا مركّبَ الاحساسات الذى قام فى نفسى . ولقد عادت فى الغد . وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت الى دوبرونرانوف ، والى موزير ، حاملةً معطفها الخلق البالى ، ولكن هذين المرابيين لا يقبلان الا الذهب رهناً ، فلم يحمّلا نفسهما حتى عناء اجابتها . وكنت قبلت منها قبل ذلك حجراً قد يُعدُّ من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له فى الواقع) ، فلما فكرت فيما فعلت دُهشت من نفسى وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر رهناً ، أنا الذى لا يقبل الا الذهب والفضة أيضاً ؟ تلكم ، فيما أذكر ، هى الفكرة الثانية التى قامت فى ذهنى تجاهها .

وفى هذه المرة ، أى يوم عودتها من عند موزير ، جاءت تحمل الىّ « مشرب سيجارة » من خشب العنبر ، وهو شىء قد يحبه هواة ، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل الا ذهباً ! ولما كان مجيئها الىّ تلك المرة غداة « العصيان » ، فقد استقبلتها استقبالاً شرساً . والشراسة عندى هى أن أكون خشناً . ومع ذلك لم يسعنى حين نقدتها روبلين الا أن أقول هذه العبارة بشىء من الحنق والغيظ : « انما فعلت هذا اكراماً لك .. ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه » . وقد خاطبتها فى هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزاً ذلك ابرازاً خاصاً ، قاصداً منه الى غرض معين « أنتويه » . كنت شريراً . فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! أدركت أننى آلمتها . فقلت لنفسى حين خرجت : « هل كان يجوز أن أذلّها من أجل روبلين ؟ » . ولم ألبث أن أجبت عن سؤالى بأننى أحسنت صنعاً ، فأخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين . ولكن

ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة منى : فقد كنت أخفى فى رأسى نية ٠ ذلكم كان موقفى الثالث منها ٠

٠٠٠ ومنذ تلك اللحظة انما بدأ الأمر ٠٠ طبيعى أننى سرعان ما جهدت أن أعرف تفاصيل حياتها الخاصة ٠ وأخذت انتظر مجيئها نافد الصبر ٠ فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه منى ٠ اننى لا تعوزنى الثقافه ، ولا أجهل آداب السلوك الراقى ٠ لاحظت عندئذ أنها طيبة ، متواضعة ، عذبة ٠ ومن كان طيباً عذباً لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة ، واذا كان لا يستسلم بسهولة ، فانه لا يعرف كيف يتهرب من المحادثة أو يتملص منها ٠ صحيح أنه يجيب بكلمات مفردة ، ولكنه يجيب ، وكلما ازددت عليه الحاحاً ، ازداد لك اذعاناً ٠ وعليك أنت انما يقع عبء منعه من الافلات اذا أنت أحببت ذلك ٠ على أنها لم تشرح لى شيئاً حينذاك ٠ ومن قراءة جريدة « الصوت » انما عرفت بعد ذلك كل شىء ٠ ان الاعلانات الأخيرة تدل على أن مواردها نضبت نضوباً تاماً ٠ كانت الاعلانات الأولى أكثر طلاقة ٠ كانت تقول مثلاً : « معلمة ، مستعدة للسفر ، لتقديم عروض » ؛ ثم صارت تقول بعد برهة : « تعمل كل شىء ، تعلّم ، تصحب الأولاد ، تراقب أعمال المنزل ، تعنى بمريض ، تحسن الخياطة » ، الى آخر ما هنالك مما هو معروف جداً ٠ ولقد نشرت هذه الاعلانات مراراً الى أن ساءت حالها كثيراً ، فكان الاعلان الأخير يقول : « لا تطلب راتباً ، تكتفى بطعامها أجراً » ٠ ومع ذلك لم تعثر على عمل ! قررت أن أمتحنها مرة أخيرة ٠ فأخذت عدد اليوم من جريدة « الصوت » ، وأريتها اعلانا جاء فيه : « فتاة يتيمة ، تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صغار ، تفضّل العمل عند أرملة مسنة قليلاً ٠ وتعنى بأعمال المنزل » ٠ وقلت لها :

ـ انظرى ٠ هذه نشرت الاعلان فى هذا الصباح وقد تجد عملاً فى المساء ٠ فى هذه الصورة انما يجب على المرء أن يقدم نفسه ٠

فتخضب وجهها بالحمرة من جديد ، واشتعلت عيناها ، واستدارت ،

وخرجت فوراً • سر نى ذلك كثيراً • وكان رأيى فى تلك اللحظـة قد استقر وترسخ على كل حال ، وكنت مطمئناً هادىء البـال غير خائف : لا أحـد سـيقبل أن يرهن « مشرب السيجارة » ، حتى أن « مشرب السيجارة » نفسـه لم يبق لها • ولم يخطىء ظنى • فهاهى ذى تأتى غداة غد وقد لاح فى وجهها شـقاء كبير ، واضطراب شـديد • فقدّرت أن شيئاً ما قد حدث لها فى البيت • ولم يخطىء تقديرى • سأحكى لكم بعد قليل ما حـدث • أما الآن فان همى منصرف الى تجميع ذكرياتى • لقد بلغت فى معاملتها غاية اللطف والكياسة ، فسرعان ما كبرت فى نظرها • تلكم هى الخطة التى رسمتها • وكان ذلك بسبب الأيقونة • (لقد عزمت أمرها أخيراً على أن تجىء بها لترهنها) •• آه •• اسـمعوا ! اسـمعوا ! الآن يبدأ الأمر • أما قبـل ذلك فكنت أخلط بين الأشياء وأرتبك ارتباكاً شديداً • الآن أريد أن أتذكر كل شىء ، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل وأدقّ الجزيئات • اننى أحاول أن أجمع شتات أفكارى فى نقطة ، ثم •• ثم لا أفلح فى ذلك ولا أظفر بطائل • هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة ! آه ••• انها أمور دقيقة جداً ، يسيرة جداً •••

كانت الأيقونة صـورة للعذراء ، العذراء مع ابنهـا يسـوع • هى أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب • لاحظت أن هذه الأيقونة عزيزة على نفسها • وهى مع ذلك تجىء بالأيقونة لترهنها كاملةً دون أن تنزع عنها المعدن الذى يغطيها • قلت لها : « الأفضل أن تنزعى المعدن ، وأن تأخـذى الأيقـونة • ان الأيقـونة شىء لطيف سريع العطب » • قالت :

ـ هل يحظر عليك أن تفعل هذا ؟

ـ لا ، ليس الأمر أمر حظـر • ولكن لعلك تدركين أنت نفسك أن •••

ـ فانزع اذن ...

قلت بعد تفكير :

ـ لا . اعلمي انني لن انزع المعدن . بل أضع الأيقونة كلها هناك ، في المشكاة ، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت في كل صباح أشعل أحسن سراج عندي منذ أن أفتح المكتب) ، وخذي هذه العشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة .

ـ لست في حاجة الى عشرة روبلات . أعطني خمسة . وسوف أسترد الأيقونة حتماً .

أضفت أقول بعد أن لاحظت أن عينيها أخذتا ترسلان شرراً من جديد :

ـ لا تريدين العشرة روبلات ؟ ان الأيقونة تساوي هذا المبلغ .

فلزمت الصمت . ومددت اليها خمسة روبلات . وقلت :

ـ لا تحتقري أحداً ... أنا أيضاً كنت في عسر وضيق ، بل كنت أسوأ حالاً . واذا رأيتني أزاول الآن هذه المهنة ، فذلك لكثرة ما عانيت في حياتي من ألم وعذاب ...

فقاطعتني تقول وهي تبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ فأنت تثأر لنفسك اذن من المجتمع ، أليس كذلك ؟

كانت ابتسامتها ساخرة ، ولكن هذه الابتسامة كانت تشتمل في الحق على غير قليل من حسن السريرة وسلامة الطوية ، وهي لا تزيد على أن تشبهني بسائر زملائي ، فلا يكاد يكون في كلامها شيء يسوؤني أو يجرح شعوري أو يهين كرامتي . ولكنني قلت محدثاً نفسي : « ها ... هأنت ذي أنت ! لقد انكشف طبعك انكشافاً جديداً ! » .

وقلت لها فجأة ، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تعمية وسر :

ــ أنا جزء من ذلك الجزء من الكل ، الذى يريد أن يصنع شراً فيصنع خيراً !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى نظرت الىّ مستطلعة مدهوشة ، بكثير من روح الطفولة مع ذلك ، وقالت تسألنى :

ــ اسمع ... ما هذه الفكرة ؟ من أين أخذتها ؟ يخيَّل الىّ أننى سمعتها قبل الآن فى مكان ما ...

ــ لا تجهدى نفسك فى التذكر . بهذه الكلمات انما زكىّ مفستوفيليس نفسه لفاوست . هل قرأت قصة « فاوست » ؟

ــ لم أقرأها ... بانتباه كبير .

ــ أى أنك لم تقرئيها البتة . يجب الاعتراف بهذا .

ثم اننى مازلت ألمح فى طرفى شفتيك تلك البسمة الساخرة . فأرجوك ألا تحكمى علىّ بأننى من فساد الذوق بحيث أردت أن أقدِّم اليك نفسى فى صورة مفستوفيليس . ان مرابياً يقرض برهن ، يظل مرابياً يقرض برهن . ذلك أمر نعرفه .

ــ ما أغرب أمرك ... اننى ما أردت أن أقول لك هذا البتة ...

كانت تريد أن تقول : ما كنت أتوقع أن أجدك رجلاً مثقفاً ، ثم لم تقله ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أحزر أنها أرادت أن تقوله . وسررت منها أعظم السرور . وقلت :

ــ فى جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيراً . لا أقول هذا لأمدح نفسى . فمن الواضح أننى لا أصنع شيئاً من خير ، وربما كنت أصنع شراً ... ومع ذلك ...

قالت وهى ترمقنى بنظرة سريعة عميقة :

ـ لا شك أن المرء يستطيع أن يصنع خيراً فى أى ظرف ومن أى موقع .

ثم أسرعت تردف قولها :

ـ هذا كلام حق : فى أى ظرف ومن أى موقع .

آه ... اننى أتذكر كل تلك اللحظات ، أتذكر كل تلك اللحظات !. ويهمنى أن أضيف الى ذلك أن هذا الشباب ، هذا الشباب الغالى ، اذا أراد أن يقول شيئاً فيه ذكاء وفيه اقتناع ، لا يعوزه أن يتخذ على الفور هيئة صريحة جداً ، ساذجة جداً ، وأن تقول لك قسمات وجهه : « انظر الى قوة الذكاء وشدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا ! » ، وذلك لا من باب الغرور وحب الظهور كما يفعل اقراننا ، فان المرء يلاحظ أن هذا الشباب متعلق بما يقوله أشد التعلق ، وأنه يحبه أكبر الحب ، وأنه يؤمن به أعظم الايمان ، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه كما يحترمه . يالها من صراحة ! وبذلك انما يحقق النصر . ما كان أجمل هذا كله فيها !

اننى أتذكر تذكراً واضحاً . لم أنس أى شىء ! وحين خرجت كنت قد عزمت أمرى واتخذت قرارى . ففى ذلك اليوم نفسه مضيت أتقصى أخبارها ، فعرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفته حتى ذلك الوقت ، وعرفت خفايا قصتها الراهنة . كنت علمت خفايا حياتها الماضية قبل ذلك من لوكيريا التى كانت خادماً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أيام . انها خفايا تبلغ من الهول أننى لا أفهم كيف أمكنها أن تظل تضحك كما ضحكت أمس ، وأن تهتم بأقوال مفستوفيليس ، بينما هى تحيا فريسة أهوال رهيبة . ولكنه سن الشباب أيضاً ! وقد فكّرت فيها عندئذ مزهواً فرحاً ، لأننى رأيت فى ذلك علامة على عظمة نفسها وسمو روحها . حتى

على حافة الهاوية ، تتألق كلمة الشاعر جوته ! ان الشباب سمح كريم دائماً ، حتى في أخطائه • والحق أننى أقصدها هى ، أقصدها وحدها • والعجيب فى الأمر أننى كنت أكلم نفسى عنها منذ ذلك الوقت وكأنها صارت « لى » ، وأننى أصبحت لا يراودنى شك فى قدرتى وسلطانى • انكم تعرفون مدى المتعة التى يذوقها المرء حين لا يشك •

ولكن ما هذا الذى أفعله ؟ اذا سرت هذا السير ، فمتى أجمع شتات أفكارى ؟ ألا فلأسرع ، فلأسرع • ليس هذا هو الأمر !

٢

طلب الزواج

الخفايا التى عرفتها عنها سأوجزها فى كلمات قليلة : لقد مات أبواها منذ مدة طويلة ـ منذ ثلاث سنين ـ فبقيت وحيدةً عند عمتين لها شريرتين، بل ان وصفهما بأنهما « شريرتان » ، لا يفيهما حقهما من الذم • ان احدى هاتين العمتين أرملة مثقلة بأسرة فلهـا ستة أولاد ؛ والثانية ـ وهى أقصر من الأولى قليلاً ـ عانس شرسـة الطبع مشاكسـة • هما امرأتان سيئتان خبيثتان كلتاهما • ولقد كان أبو الفتاة موظفاً • كان كاتباً فى دائرة من دوائر الدولة ، لا مـورد الا راتبـه • ان مستواى أنا أعلى من مسـتواه على كل حـال : فأنا كابتن متقاعـد ، خدمت فى فوج مرموق من أفواج الجيش ، وأنتمى الى أسرة نبيلة المحتـد ، وأعيش حيـاة ليس فيهـا عوز • أما أنى أقرض بالربا ، فان العمتين لن تعدما أن تنظرا الى هذا الأمر نظرة استحسان واعجاب • عاشت الفتاه خلال ثلاث سنين عبدةً لعمتيها ، ومع ذلك نجحت فى امتحاناتها بفضل ما بذلت من جهد فى الدراسة رغم ضيق الوقت • نجحت فى امتحاناتهـا ، رغم قيامها بأعمال يومية قاسـية قسـوةً لا ترحم ، وهذا يدل على أنها تتصف بسـمو عقلى وتفوق روحى لا سـبيل الى الشـك فيهما • ولماذا رغبت أنا فى أن أتزوج ؟ دعونا مما حدث لى أنا • سوف نرى ذلك فيما بعد ••• ولكن الأمر هو هذا • كانت الفتاة تعلم أولاد عمتها القراءة ، وكانت ترقّع الملابس ، وصارت فى المدة الأخيرة لا تغسـل الغسيل فحسب ، بل تغسل أرض الغرف أيضاً ، رغم

ضعف صدرها . وشيئاً فشيئاً أخذت العجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب أية لقمة تأكلها . ثم قررتا أن تبيعاها . آه ... لن أدخل في تفاصيل هذا الحمأ . وهي لم تقصص عليّ كل شيء تفصيلاً الا فيما بعد . لقد كان رجل سمين بقّال ينظر اليها ويطمع فيها منذ سنة . وكان قد « قبر » امرأتين حتى ذلك الحين ، فهو يبحث الآن عن ثالثة . لذلك وضعها نصب عينيه ، واتخذها هدفاً يريد الوصول اليه . كان يقول لنفسه : « انها مناسبة مريحة ، فقد ولدت فقيرة ؛ واذا كنت أريد أن أتزوج ، فذلك من أجل الأولاد » . ذلك أنه كان له أولاد . وأخذ يستعجل الأمر . فباحث العمتين . وكان في نحو الخمسين من العمر . وكرهته الفتاة ونفرت منه نفوراً رهيباً . فأخذت تنشر اعلانات في جريدة « الصوت » . ثم ابتهلت الى عمتيها أن تمهلاها مدة قصيرة يتاح لها فيها أن تفكر . فأمهلتاها مدة قصيرة ، مدةً قصيرةً لا يجوز أن تطول . كانتا تقولان : « نحن نفسنا لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل ، فلسنا نطيق أن يشاركنا لقمتنا فمٌ آخر . » جاء البقّال الى دار العجوزين حاملاً رطل حلوى ثمنه خمسون كوبكاً . وكانت الفتاة معه . ناديت لوكيريا من المطبخ ، ورجوتها أن تذهب الى الفتاة فتهمس في أذنها انني أنتظرها أمام الباب لأبلغها أمراً مستعجلاً جداً . كنت راضياً عن نفسي كل الرضى مسروراً بها كل السرور . وكنت مسروراً طوال النهار على كل حال .

وهناك ، عند الباب ، بحضور لوكيريا ، بينما كانت مدهوشةً من أنني استدعيتها ، ذكرتُ لها ما كنت أعده سعادةً وشرفاً ... ولابد أنها لم تدهش عندئذ من الطريقة التي عمدت اليها ، ولا من قولي لها : « انني رجل مستقيم ، وقد فكّرت في جميع ظروف القضية ، وقلّبت الأمر على كل وجوهه » . والحق أنني لم أكذب حين وصفت لها نفسي بأنني رجل مستقيم . ولكن لا قيمة لهذا . وانما يجب أن أذكر أن كلامي في مخاطبتها لم يكن مهذباً فحسب ، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب ، وانما كان

يشتمل على أصالة أيضاً • وهذا هو الأمر الأساسى • أهى جريمة أن أعترف ؟ اننى حريص على أن أحكم على نفسى ، وانى لأحكم عليها • فعلىّ اذن أن أقول ما لى وما علىّ • وهذا ما فعلته • ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد ، فتلذذت كثيراً ، رغم أنه غباء • كاشفتها صراحةً حينذاك، دون أن تحرج ، بأننى أولاً لست صاحب مواهب ، واننى امرؤ أنانى سىء (أتذكر هذا اللفظ ، فلقد أعددته وأنا فى طريقى الى بيتها ورضيت عنه) ، وان لى فى أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة • قلت ذلك كله بنوع من الزهو • ولعلكم تتصورون اللهجة التى قلته بها • لكننى بعد أن ذكرت سيئاتى بصدق ونبل ، لم أغفل طبعاً عن الانتقال الى تعداد حسناتى ، فقلت لها : « اننى أمتاز بكيت وكيت وكيت ••• » • رأيت أنها مرتاعة جداً • ولكننى لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئاً • بالعكس : فاننى حين رأيت خوفها أخذت أقوّى النغمة عامداً • قلت لها بغير تحرج اننى لن أبخل عليها بالطعام ، فستأكل عندى ما تشتهى ، أما الفساتين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص ، فلا شىء منها البتة ، الآن على الأقل ، وانما قد أسمح بها فى المستقبل ، حين أكون قد بلغت هدفى • كانت هذه اللهجة القاسية تفتننى فتنة كبيرة • وأضفت أقول بغير الحاح كثير اننى اذا كنت قد اخترت هذه المهنة ، اذا كنت قد فتحت هذا المكتب ، فان ذلك يرجع الى ظرف معين • والحق أننى كان من حقى جداً أن أقول هذا الكلام : فالهدف الذى أشرت اليه قائم فى ذهنى ، والظرف الذى ذكرته قد وقع فعلاً • اسمعوا يا سادتى : ثقوا أننى كنت طوال حياتى أبغض صندوق الاقراض بالربا أكثر مما يبغضه سائر الناس • لكننى وان يكن مضحكاً وسخيفاً أن يستعمل المرء تعابير معمّاة أؤكد لكم أننى « أثأر لنفسى من المجتمع » • هذا صحيح • هذا هو الحق • وبذلك يكون تندرها علىّ فى ذلك الصباح يعوزه الانصاف • حتى أنها كانت ستنفجر ضاحكةً كما ضحكت فى المرة الأولى لو عبّرت عما يعتمل فى نفسى بتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها : « نعم اننى أنتقم لنفسى من المجتمع » • ولكن

بدا لى فجأة أننى أستطيع أن أكسب خيالها اذا أنا أشرت اشارة متخفية ، وقلت جملة سرية معمَّاة . ثم اننى كنت قد أصبحت فى تلك اللحظـــة غير خائف من شىء : كنت أعلم أن البقال الضخم ينفـِّرها أكثر مما أنفـِّرها أنا على كل حال ، وأن وجودى على بابها مادام الأمر كذلك أشبه بوجود منقذ أو محـِّرر . كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً . آه ... ان الرجل يدرك كل ما هو خسة ودناءة أكثر من ادراكه أى شىء آخر . ولكن هل كان ذلك خسة ودناءة ؟ كيف يجرؤ المرء أن يحكم على انسان ؟

ألم أكن أحبها حتى منذ ذلك الحين ؟

انتظروا يا سادة ، اننى لم أشر بطبيعة الحال أية اشارة الى اننى أحسن اليها . اننى لم أمنّ عليهـا . أبداً . بالعكس ، بالعكس : قلت لهـا : « أنا الذى سأكون مديناً لك بالشكر لا أنت . وأنت التى تطوقين عنقى بجميلك لا أنا » . بل لقد قلت لها هذا كلمةً كلمة . لم أستطع أن أمسك عن قوله . ولعل ذلك كان منى حماقة ، لأن شيئاً من الانقباض قد ألمَّ عندئذ بوجهها . ولكننى حققت ظفـراً حاسـماً وانتصـاراً قاطعاً على كل حال .

انتظروا . ما دمت قد حـَّركت هذا الحمأ كله ، فاسمحوا لى أن أذكر لكم آخر حقارة صدرت عنى . فحينما كنت واقفاً هناك على العتبة ، كنت أجتر هذا الكلام محدثاً نفسى : « انك فارع الطول مونق القامة ، مثقف ؛ ثم انك لست دميم الوجه على كل حال ، وليس فى هذا أى ادعاء أو تبجح أو مباهاة » . ذلك ما كان يدور فى رأسى ويجول فى خاطرى . ولقد وافقت على طلبى فى ذلك الوقت عنـد البـاب فقالت : « نعـم » . وافقت طبعاً . ولكن ... يجب أن أضيف هذه الحقيقة : انهـا فكرت طويـلاً وملياً ، هناك عند الباب ، قبل أن تنطق بكلمة « نعم » تلك . حتى لقد بلغتْ من طول التفكير أننى أخذت أتساءل : « فماذا ؟ » ، لم أستطع أن أمسك عن القاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة .

وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجد أنني كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه ! ولكنني شعرت مع ذلك بخيبة الأمل . قلت أحدث نفسي : « هل يمكن أن تتردد في التخير بيني وبين صاحب الدكان ؟ » آه .. عندئذ لم أفهم . لم أفهم شيئاً البتة . وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئاً . أتذكر أن لوكيريا ركضت ورائي حين انصرفت ، واستوقفتني في الطريق وقالت لي : « جزاك الله خيراً يا سيدي على أنك أخذت آنستنا الطيبة . ولكن لا تجرح شعورها فانها ذات شمم وكبرياء » .

ذات شمم وكبرياء ؟ انني أحب أولئك اللواتي يتصفن بالشمم والكبرياء . ان اللواتي يتصفن بالشمم والكبرياء يكنّ طيبات عامةً حين .. نعم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان . أهذا حق ؟ أوه ! يا للرجل ما أكبر دناءته ، وما أشد خراقته ! هل كنت راضيا رضا كافيا ؟ هل كنت مغتبطا اغتباطا كافيا؟ وحين أخذت تفكر أمام الباب طويلاً و ملياً لتقول لي « نعم » ، وكنت أنا مدهوشاً من ذلك ، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذ هو ما يلي : « شقاء فوق شقاء ، أفلا يحسن أن أختار الرجل الأسوأ ، أي صاحب الدكان ، فسى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لي الضربات تلو الضربات الى أن أموت ؟ » . آه .. ما رأيكم ؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هي التي دارت في خلدها حينذاك ؟

نعم ، وانني الى هذا اليوم لا أفهم ، لا أفهم من الأمر شيئاً . قلت منذ لحظة ان من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة : أن تختار الأسوأ ، أي أن تختار البقال .. ولكن أينا كان في نظرها هو الأسوأ ، أنا أم البقّال ؟ البقّال أم المرابي الذي يستطيع أن يستشهد بالشاعر

جوته ؟ ذلكم سـؤال آخر • أى سؤال ؟ هيه ، ماذا ؟ أما زلت لا تفهم ؟ انك لتتكلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك ! ولست أهتم بأمرى أنا على كل حال • ولكن ماذا حقاً ؟ هل اهتمامى منصرف الى نفسى أم هو منصرف الى آخر ؟ ذلكم ما يستحيل علىّ أن أقطع فيه برأى جازم • ان الأفضل أن أضطجع وأنام • اننى أحس بصداع •

٣

ابنل الرجال وهو نفسه الاصدق من الاثر شيئا

لم أستطع أن أنام • وأين لى أن أنام ! كنت أشعر بمطرقة تسقط على جمجمتى ضرباً • أود لو أستطيع أن أتعود هذا كله ، أن آلف هذا الوحل كله • آه ••• الوحل ! يا للوحل الذى أخرجتها منه ! كان ينبغى لها أن تفهم ذلك ، وأن تعرف كيف تقدر عملى حق قدره ! وكان يحلو لى أن استرسل فى بعض الأفكار ، منها هذه الفكرة مثلاً : ان سنى واحد وثلاثون عاماً ، ولا تتجاوز سنها هى ست عشرة سنة • ما كان أعظم افتتانى بذلك ! ان هذا الاحساس بعدم التوازن والتكافؤ شىء لذيذ ، لذيذ جداً •

وقد تمنيت مثلاً أن نحتفل بزفافنا « على الطريقة الانجليزية » ، أى ألا يكون فى حفلة القران الا نحن والشاهدان اللذان لابد منهما ، واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما • ثم نركب القطار فوراً ، فنسافر ولو الى موسكو (وكان لى بموسكو عمل يجب أن أنجزه) ، وننزل أحد الفنادق فنمكث فيه أسبوعاً أو أسبوعين ولكنها اعترضت على هذه الفكرة ، ورفضتها ، واضطررت أن أذهب الى العمتين أحييهما وأعبر لهما عن احترامى بحجة أنهما الأسرة التى أخذت الفتاة من بين أحضانها • أذعنت لمشيئتها ، وأديت للعمتين واجب الاجلال والتبجيل • حتى لقد وهبت لهاتين المخلوقتين مائة روبل ، وأضفت الى ذلك وعوداً بذلتها لهما •

وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعاً ، حتى لا يتأذى شعورها من هوان بيئتها • وسرعان ما أبدت العمتان كثيراً من المودة والملاطفة • ونشب خلاف على جهاز العرس : لم يكن عندها ثياب ، ولكنها رفضت أن تشترى ثياباً • ثم ألححتُ فى أن أفهمها أنها لا يمكن أن تكتفى بالثياب البالية التى عندها ، وقلت لها اننى أنا الذى أتولى أمر جهازها ، والا فمن عسى يتولاه غيرى ! على أن الشىء المهم هو أمرى أنا ! لقد أسرعت أفضى اليها بافكار شتى كانت قد دارت فى خاطرى ، على الأقل لتنظر اليها بعين الاعتبار بعض النظر ، ولعلنى نجحت فى هذا وبلغت ما أردت • بل أكثر من ذلك أنها فى البداية ، رغم مقاومتها ، أصبحت تقبل على اقبالا فيه حب ، وتستقبلنى حين عودتى فى المساء استقبالاً زاخراً بالحماسة ، وتأخذ تهذر هذرها البرىء ، فتقص علىَّ حكاية طفولتها كاملةً ، وسنى صباها التى قضتها فى دار أبيها ، وما كانت تعرفه عن أبيها وأمها • لكننى كنت أعرف كيف أصب ماءً بارداً على هذه النشوة وهذا السكر • وتلك كانت فكرتى • كنت أرد على حماستها بصمت ، بصمت متسامح طبعاً •• فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض ، وما أسرع ما نظرت الىَّ نظرتها الى لغز مستغلق • وعلى هذه الالغاز انما كنت أبنى أنا حساباتى وأعقد آمالى ! بل لعلنى من أجل أن تحلَّ هى هذا اللغز المستغلق انما اندفعت الى فعل ما هو سخف واستحالة • عمدت فى أول الأمر الى القسوة • أدخلت القسوة الى بيتى نظاماً ثابتاً • وتمَّ هذا من تلقاء نفسه بدون أى جهد • لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل • ولقد تخيلت هذا النظام فى ظرف مستقل عن ارادتى ، فلا يد لى فيه • دعونا ! لماذا أقدح فى نفسى ؟ لقد كان ثمة نظام حقاً • ولكن اسمعونى : مادام الأمر أمر حكم على انسان ، فيجب ألا يتم الحكم عليه الا مبنياً على معرفة كاملة بالأمر ••• اصغوا الىَّ •

من أين أبدأ ؟ ذلك أن البدء صعب جداً • متى أراد المرء أن يبرىء نفسه ، اصطدم بعقبات ولقى صعاباً • اليكم هذا المثال : ان الشباب يحتقر

المال • فسرعان ما ألححت على المال ، وجعلت كل شيء رهناً به ، مبنياً عليه • وبلغت من شدة الالحاح أنها غدت تصمت مزيداً من الصمت شيئاً بعد شيء • كانت تحملق وتصغى وتنظر وتسكت • وهذا مثال آخر : ان الشباب يحب المروءة والنخوة ، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة ، كانت متقدة الحماسة شديدة الحمية ، ولكنها كانت ضئيلة الحظ من الصبر ، فما ان تعارضها حتى يستبد بها شعور الاحتقار • وكنت أنا أحب رحابة الصدر وسعة الفكر ، وكنت أحب أن أعلّمها هذه الرحابة وهذه السعة ، أليس هذا حقاً ؟ سأختار لكم مثالاً مبتذلاً : ما عساني أفعل من أجل أن أشرح لطبع كطبعها مسألة الاقراض بالربا على رهن ؟ لم أواجه المسألة رأساً بطبيعة الحال ، والا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل ، وانما أنا عمدت الى الزهو ، فتكلمت بما يشبه الصمت • انني أستاذ بارع في فن الكلام بغير كلام ، فن الكلام بالصمت • كنت طول حياتي أتكلم صامتاً ، وعشت في داخل نفسي كل مأساة صمتي • آه ••• ما كان أشقاني ! انفضّ عني الجميع ، انفضوا عني وهجروني ، دون أن يعلم بذلك أحد في يوم من الأيام • وها هي ذي الصبية التي تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تتخيل فجأة ، بعد أن سمعت عني كلاماً من أشخاص ليسوا شرفاء ، ها هي ذي تتخيل أنها تعرف كل شيء ، انها على علم بكل شيء ، في حين أن سرّي ظل محبوساً في قرارة نفسي ، نفس الرجل ! وظللت صامتاً ، صامتاً معها خاصة ، الى أن كان الأمس • فاذا سألتموني لماذا صمت ، قلت لأنني متكبر صلف • لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها ، دون أن أقوله أنا لها ، ولكن دون أن تعتمد أيضاً على نمائم دنيئة ووشايات خسيسة ، أردت أن تحزر من أنا ، وما أنا ، وان تدرك ذلك حق ادراكه • حين استقبلتها في بيتي أردت أن أحظى باعتبارها كاملاً • أردت أن تقف مني موقف الضارع المبتهل بسبب ما قاسيت من آلام ، وكنت أستحق منها هذا الموقف فعلاً • آه ••• لقد كنت شديد الكبرياء دائماً ، فاما أن أنال كل شيء واما

ألا أنال شيئاً . ولأنني كرهت دائماً أنصاف الحلول في أمور السعادة ، ولأنني أردت دائماً أن أبدو صلب العود قوي الارادة ، انما اضطررت في ذلك الأوان أن أعمد الى تلك الطريقة : « عليك أنت أن تحزري وأن تقدري ! » . ذلك أنني — ويجب أن نسلّم بهذا — لو أخذت أشرح لها الأمر وأقص عليها الحكاية ، وأخذت أتحايل وألتمس منها الاحترام ، لكنت كمن يسألها صدقة .. ولكن .. ولكن .. ما لي ولهذا الكلام كله ؟

هذا سخف ! سخف وألف سخف ! المهم أنني شرحت لها فجأةً ، بكلمتين ، من غير رحمة ، نعم من غير رحمة ، (يجب أن الحّ على ذكر هذا الحلو من الرحمة) ان المروءة عند الشباب شيء خليق بالاعجاب ، ولكنه لا يساوي قرشاً صغيراً . لماذا ؟ لأن اكتساب المروءة سهل أشد السهولة ، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش ، لأن هذه الأمور هي « أولى انطباعات الحياة » ان صح التعبير . وانما ينبغي أن تنظر الى الانسان وهو يضطرب في جنبات الحياة ويعمل . ان هذه المروءة لا تكلف كثيراً . وهي ان كلّفت المرء شيئاً فانما تكلفه أن يهب حياته ، وهو لا يحتاج من أجل هذا الا الى شيء من فرط حرارة الدم وفيض القوة ، وهو ظامىء الى الجمال أشد الظمأ دائماً ! لا ، ما هذه هي الشجاعة . حاول أن تختار لنفسك مأثرة صعبة ، مأثرة لا تحدث جلبة كثيرة ، ولا يكون لها بريق وتألق ؛ مأثرة ترافقها النميمة والشتيمة ، وتتطلب تضحية كبيرة ، ولا تؤدي الى أي مجد ؛ مأثرة تظهر فيها — أنت الرجل اللامع — بمظهر الجبان الحقير في نظر جميع الناس ، مع أنك أشجع أهل الأرض طراً ، حاول أن تحقق هذه المأثرة فترى ألا تعدل عنها وتنكص على عقبيك ؟ أما أنا فانني لم أزد طوال حياتي على أن أحمل ثقل أعمال كهذه الأعمال .

كانت في أول الأمر تناقش ، بل تناقش كثيراً ! ثم قررت أن تصمت ، وأن تصمت صمتاً تاماً . أصبحت تكتفي بأن تحملق حين تسمع

كلامى ، تحملق حملقة شديدة وهى تنصت الى أقوالى انصاتاً فيه انتباه رهيب ! ••• و ••• مع ذلك ، لمحت فى وجهها ، على حين فجـأة ، ابتسامة تنم عن أنها لا تصدق ، ابتسامة صامتة ، ساخرة • وكانت تبتسم هذه الابتسامة حين أدخلتها بيتى •

صحيح أنها لم يكن لها أى مكان تذهب اليه •••

٤

خطط وخطط أخرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك ؟

لا أحد ٠ لا أنا ولا هي ٠ لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى ٠ قلت قبل الآن انني أدخلتها بيتي على نيـة القسـوة ٠ ومع ذلك لم ألبث أن رققت ٠ كنت قد شرحت لها حين كنا خطيبين لا أكثر ، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقى الأشياء المرهونة وأن تؤدى مبالغ الاقراض ، ولم تعترض في ذلك الحين (لاحظوا هذا) ٠ وأكثر من ذلك أنها أكبّت على العمل بهمة ونشاط ٠ يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقى كما كان في الماضي ٠ هو بيت يتـألف من حجرتين : احداهما صـالة كبـيرة جعلت هي المكتب ؛ والثانية صالة واسعة هي الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة ٠ وكان أثاث بيتي ليس فيه شيء من بريق ، حتى ان أثاث مسكن العمتين كان أحسن منـه ٠ وفي صـالة المكتب انما توجد الايقونات مع السراج ، أي في الصالة التي فيها صندوق الاقراض ٠ وفي غرفة النوم توجد خزانتي ، وهي تضم عدداً من الكتب ، وحقيبة كنت أحمل مفاتيحها دائماً ؛ ويوجد سرير وموائد وكراس ٠ وكنت قد أبلغت خطيبتي أننا سنقتصر على طعامنـا ، أي على طعامي وطعامها وطعام لوكيريا التي اسـتخدمتها ، روبلاً واحداً في اليوم ، لا أكثر من ذلك ٠ فلم تعترض بشيء ٠ ولكنني زدت المبلغ من تلقاء نفسي ثلاثين كوبكاً للانفاق على حاجات البيت ٠ وكان هناك المسرح أيضـاً ٠ وكنت قد قلت لخطيبتي اننـا لن نذهب الى المسرح

أبداً • لكننى مع ذلك سمحت بأن نذهب الى المسرح مرةً كلَّ شهر ، وتمّ ذلك على نحو لائق ، فكنا نحجز مقاعد فى مكان حسن من الصالة • وكنا نذهب الى المسرح معاً • ذهبنا ثلاث مرات ، فشاهدنا مسرحية « سباق السعادة » ومسرحية « الطيور المغردة » فيما أظن • (ولكن ما قيمة هذا ؟ لست أهتم بهذا الأمر أى اهتمام !) • كنا نذهب الى المسرح صامتين ، ونعود منه صامتين • لماذا ؟ لماذا التزمنا جانب الصمت منذ أول يوم ؟ على أننا لم ينشب بيننا أى شجار فى البداية •

لم نتشاجر فى الآونة الأولى ، ومع ذلك خيَّم بيننا الصمت • وانى لأذكر كيف كانت تختلس النظر الىَّ من تحت ، فلما لاحظت ذلك اشتد صمتى • حقاً اننى أنا الذى ألححت على الصمت • لقد انفجرت هى مرةً أو مرتين ، فاندفعت الىَّ تريد أن تعانقنى وتقبّلنى ، ولكننى استقبلت اندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هسترية ، ولأننى كنت فى حاجة الى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها احترام من جانبها وتبجيل • نعم ، وكنت على حق • وكان يعقب الانفجار يوم ملىء بالشجار •

أقصد ••• لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر ، وانما كنا نصمت ، وكان كل واحد منا يقف من الآخر موقفاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد • « تمرد وعصيان » ، ذلك ما كان يحدث • ولكنها لم تكن تحسن التصرف فى الأمر والاحتيال عليه • نعم ، كان ذلك الوجه العذب يتخذ هيئة تزداد تجهماً وشراسةً شيئاً بعد شىء • حتى لقد أصبحت تنفر منى وتكرهنى • هل تصدقون ؟ لقد أتيح لى أن ألاحظ هذا • وكانت تلك النوبات تخرجها عن طورها ، لا شك فى ذلك • ولكن حين تخرج فتاة من وحل كالوحل الذى كانت فيه ، وحين تتخلص من بؤس كالذى الذى كانت تعانيه اذ كانت تغسل بلاط الأرض ، فهل يجوز لها أن تشكى من فقرنا ؟ ولاحظوا أن الأمر لم يكن فقراً بل كان اقتصاداً ، حتى لقد كنا

لا نضنّ على نفسنا بشيء من الترف اذا وجب الترف : مثال ذلك اننى كنت حريصاً على نظافة الملابس الداخلية • وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائماً أن نظافة الرجـل ترضى المرأة • على أنها لم تكن تغضب من الفقر فى الواقع ، وانما كانت تغضب من هذا الذى تراه فىّ من الحرص على التوفير والاقتصـــاد فى أعقاب الشموع مثـلاً • وكانت تقول لنفسها : لابد أن لهذا أسبابه وعلله • انه رجل سيء الطبع ، • وامتنعت فجأة عن الذهاب الى المسرح • وازدادت شـدة اللذع فى ابتسامتها الساخرة ••• وضاعفتُ الصمت من جهتى •

ألا يجب علىّ أن أبرىء نفسى ؟ ان صـــندوق الاقراض ذاك هو الذى كان أخطر ما فى الأمر • اسمحوا لى : لقد كنت أعلم أن المرأة ، ولا سيما اذا كانت سنُّها ستة عشر عاماً ، لا تملك الا أن تطيع زوجها • ان النساء ليس لهن شخصية • تلك بديهية • ومازلت الى اليوم وحتى فى هذه اللحظة أعدها بديهية !

لا قيمة ولا شأن لما هو الآن فى الصالة • ان الحقيقة هى الحقيقة ، وليس يستطيع حتى ستوارت مل أن يـكون له فى الأمر حيلة ! فالمرأة التى تحب ، نعـم ، المرأة التى تحب ، تعشـق فيمن تحبـه حتى عيـوبه وسيئاته • وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التســامح من جانبها فى حق نقائصه • ذلك منها كرم وســـماحة • ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية • انافتقاد الشخصية هو ما ضيّع النساء • أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن فى الصـالة ، أعنى الجثة المسجّاة على المائدة • هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية ؟ لا ، دعوكم من هذا الكلام !

اسمعوا • لقد كنت واثقـاً بحبها حينـذاك • ألم تكن ترتمى علىّ لتعانقنى ؟ اذن كانت تحبنى ، أو قولوا كانت تريد أن تحبنى • نعم ، هذا هو التعبير الصحيح : كانت تريد أن تحب ، كانت تسعى الى أن تحب • والشيء الأســاسى هو أنه لم يـكن ثمة عيوب من تلك العيوب التى يجب

عليها ان تحاول تبريرها وتسويغها . لعلكم تقولون انى مراب اقرض برهن . والناس جميعاً يكررون هذا . ولكن ما شأن أن أكون مرابياً يقرض برهن ؟ لا شك فى أن هنـاك أسباباً قد تدفع أكرم انسان الى أن يصبح مرابياً يقرض على رهون . اسمعوا أيها القراء الأصدقاء : هناك أفكار بل هناك فكرة تبدو غبية غباءً رهيباً حين يُنطق بها ، أى حين يعبرَّ عنها بألفاظ ، حتى ليستحى صاحبها نفسه منها ، فهى تقع من النفس موقعاً سيئاً ، ويكون لها رنين ردىء يؤذى السمع . ومع ذلك تكون هى الحقيقة ، الحقيقة بعينها ! نعـم ، لقد « كان من حقى » أن أخـرج من المأزق بفتح مكتب اقـراض . « لقد نبذتمـونى يا معشر البشر ، أى طردتمـونى بصمتكم الذى يفيض ازدراءً ، ورددتم على اندفاعاتى التى كانت تحملنى اليكم باساءة لن أنساها فى يوم من الأيام أبداً . فكان من حقى اذن أن أحمى نفسى منكم بجدار ، أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، ثم أمضى الى مكان بالقرم على الشاطىء الجنوبى أقضى فيه حياتى على تلال مزروعة بأشجار الكرمة أكون قد اشتريتها بالثلاثين ألف روبل ، فأحيا بعيداً عنكم ، ولكن دون أن أبغضكم ، واحتفظ بمثلى الأعلى فى نفسى ، تصحبنى زوجتى مع أولادي اذا رزقنى الله أولاداً ، وأحـاول أن أسـاعد الفلاحين الذين يجاوروننى » . الحق أن من الأفضـل أن اعترف لنفسى بكل هذا فى هذه اللحظة . والا فهل يتخيل المرء شيئاً أشد غباوة وحماقة من قصة كهذه القصة أرويها لهـا بصوت عال ؟ هذا هو السبب فى ذلك الصمت المتكبر الصلف . هذا هو السبب فى أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام . ثم ما الذى كان يمكن أن تفهمه من الأمـر ؟ ان سنَّها ستة عشر عاماً ، فهى فى مطلع الصبا ... نعم ، ما الذى كان يمكن أن تفهمه من تبريراتى ومن تباريحى وعذاباتى ؟ ان طبعها بسيط ساذج ، وانها جاهلة بالحياة ، وان رأسها فوق ذلك كله مترع بالآراء السهلة التى هى من خصـائص الشـباب ، وهى تتصف بما تتصف به « النفوس الجميلة » من عمـاوة .

ثم هي ترى صندوق الاقراض بالربا ولا ترى سواه ! فأنّى لها أن تدرك !
(ولكن هل كنت مرابياً جشعاً لا يرحم ؟ ألم تر بنفسها أنني لا أغتني كثيراً ؟) . آه ... يا للحقيقة ما أشدها هولاً في هذا العالم ! الحقيقة شيء رهيب ! ان تلك اللؤلؤة ، تلك الطفلة العذبة ، كانت طاغية مستبدة ، كانت طاغية تسوم نفسي عذاباً لا يطاق . كانت لي جلاداً لا يرحم ! أتظنون أنني كنت لا أحبها ؟ من يستطيع أن يزعم أنني كنت لا أحبها ؟ يا لسخرية القدر والطبيعة ! ان اللعنة تطارد حياة البشر ، حياة البشر عامةً ، وحياتي أنا خاصة . انني أدرك الآن أن هناك أمراً أخطأت فيه التقدير ! ان هناك شيئاً لم يحدث كما كان ينبغي أن يحدث . لقد كان كل شيء واضحاً أشد الوضوح ، كانت خطتي صافية صفاء النهار : « هو قاس ، صلف ، لا تواسيه تعزيات غيره ، فيتألم ويتعذب صامتاً » . كذلك كان الأمر . أنا لم أكذب ! لم أكذب ! كنت أقول لنفسي : « لسوف ترى بنفسها أنني أصدر عن سمو في النفس ، وأنها لم تلاحظ ذلك . حتى اذا أدركت ، قدرتني عشرة أضعاف قدرها لي الآن ، وارتمت على التراب ضامةً ذراعيها ضراعةً وابتهالاً » . تلكم كانت خطتي . ولكنني نسيت شيئاً ، أو غاب عن بصري شيء . هناك أمر غفلت عن تلبيته .

كفى ! كفى ! من أستغفر ، وممن أطلب العفو ؟ لقد انتهى كل شيء . انتهى كل شيء . أيها الرجل الجسور ، كن متكبراً صلفاً ! لست أنت المذنب !

لسوف أقول الحقيقة ؛ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهاً لوجه : انها « هي » المذنبة ... « هي » !

٥

العزبة تتمرد

بدأت المشــاجرات لأنها ارتأت فجأة ً أن تدفع للمقترضين ما تشاء هي ، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيراً ، حتى لتعطى المقترض ضعفي قيمة الرهن ، وقررت أن تعاندني في هذا . ولقد خالفتها في الرأي . وعندئذ انما تدخلت حكاية امرأة الكابتن ...

في ذات يوم جاءت امرأة عجوز هي زوجة كابتن ، جاءت ترهن حلية مي هــدية أهداها اليها المرحوم زوجها ... فهي كمــا ترون ذكرى . فقدمت اليها قرضاً قدره ثلاثون روبلاً . وقد أخذت المرأة تئن بصــوت شــاك طالبة ً الينــا أن نحافظ على الحلية . وكنا سنحافظ عليها طبعاً ! ثم انقضت خمسة أيام فاذا بالمرأة العجوز تعود الينا لتستبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوي قيمته ثمانية روبلات . فرفضت ذلك طبعاً . ولابد أنها لاحظت في نظرة زوجتي شيئاً حينذاك ، فجاءت ذات يوم أثناء غيابي فقبلت زوجتي أن ترد اليها الحلية وأن تأخذ منها السوار .

فلما علمت بالأمر في ذلك اليوم نفسه ، قلت بضع كلمات مقتضبة ، ولكنني قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردّها الى الصواب . كانت جالسة ً على السرير تنظر الى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيهــا) ، وكانت شــفتاها تتقلصــان بابتسامة ساخرة سيئة . لم أرفع صوتي صائحــاً في تلك المناســبة ، وانما

نبّهتها بهدوء الى أن المال « مالى أنا » ، وأن من حقى أن أنظر الى الحياة نظرتى الخاصة ، وأننى حين دعوتها الى بيتى لم أخف عنها شيئاً • فما ان سمعت هذا الكلام حتى وثبت واقفةً على حين فجأة ، وأخذت ترتجف وترتعد ، بل أخذت ـ مارأيكم ؟ ـ تضرب الأرض بقدميها غضباً وحنقاً • وحش كاسر • نوبة عصبية ! وحش كاسر اعترته نوبة عصبية ! ذُهلت • لم أكن أتوقع غضبة كهذه الغضبة أبداً • ولكننى لم أفقد سيطرتى على نفسى ، ولم أقم بأية حركة ، وانما أعلنت لها بذلك الصوت الهادىء نفسه اننى أحظر عليها أن تشارك فى عملى منذ اليوم • فانفجرت تضحك ، وخرجت من المسكن •

الواقع أنها لم يكن من حقها أن تترك بيت الزوجية • ولقد اتفق رأينا منذ الخطوبة على ألا تذهب الى أى مكان الا بصحبتى •

وعادت فى المساء • ولم أنطق بكلمة •

وخرجت فى الغد ، وخرجت فى غداة الغد • فأغلقت مكتبى ، ومضيت الى بيت عمّتيها • كنت قد قطعت جميع علاقاتى بهما منذ يوم زواجنا : فلا هما تأتيان الىّ ، ولا أنا أذهب اليهما فعلمت هناك أنها لم تجىء الى عمّتيها • وقد أصغت العمتان الىّ مستطلعتين ، بل لم يفتهما أن تضحكا علىّ ، وقالتا لى : « تستحق ! » • ولم أكن أتوقع أن تستهزئا بى وتتهكما علىّ • ولكننى رشوت احداهما ـ وهى العانس ـ بمائة روبل دفعت لها منها خمسة وعشرين روبلاً على الحساب • فما انقضى يومان حتى جاءتنى العمة العانس تقول لى : « ان لضابط من الضباط هو الليوتنان يافيموفتش الذى كان أحد رفاقك فى الجيش ضلعاً فى الأمر » • صعقنى هذا الكلام صعقاً • ان يافيموف هذا هو الرجل الذى ألحق بى الأذى والضرر فى الجيش أكثر من أى شخص آخر • وقد تجاسر منذ شهر فجاء الى مكتبى مرتين بحجة أنه يريد ايداع رهن واقتراض مال • وانى لأتذكر أيضاً أنه أخذ يمازح زوجتى • فاقتربت منه وأمرته بألا تطأ

قدماء بيتى بعد الآن بحكم طبيعة العلاقات التى بيننـا . ولكن لم تساورنى أية شبهة ولم يخـامرنى أى ظن ؟ وكل ما انصرف اليه ذهنى أن الرجل سيىء الخلق قليـل الحيـاء . ولكن هاهى ذى العمة تنبئنى الآن أنهما قد تواعدا ، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت فى الماضى من صاحبـات العمتين ، وهى أرملة اسمها جوليا سامسونوفنا كان زوجها كولونيلاً . وقالت لى العمة العانس : « اليها انما تذهب الآن زوجتك » .

لا داعى الى سرد التفاصيل . حسبى أن أذكر أننى ضيَّعت ثلاثمائة روبل ، ولكننى توصـلت بعد يومين الى تدبير كل شىء على النحـو الذى يكفل لى أن أكون فى الغرفة المجاورة للغرفة التى سيختلى فيها يافيموف بامرأتى لأول مرة ، فأتنصت عليهما . وقبل أن يحين الموعد بيوم ، حدث بينى وبين زوجتى شجار قصير كان لابد أن يبدو لى بليغ الدلالة .

لقد رجعت الى البيت فى نحو المساء ، فجلست على حافة السرير ، ونظرت الىَّ ساخرةً بينما هى تضرب السـجادة بنعل حذائها . فاذا أنا يخطر ببالى على حين فجأة وقد وقع بصرى عليها أنها قد أصبحت فى هذا الشهر غير ما كانت ، حتى لقد اصبحت نقيض ذاتهـا . فهى الآن شديدة الحنق ، وشرسة الخلق كثيرة التعدى ، ولا أقول وقحة ، وانما أقول مضطربة زاخرة بروح التمرد . وكانت هى تحاول أن تستثير فى نفسها روح التمرد هذه . ومع ذلك كانت عذوبتها ورقتها ودماثتها تمنعها من الانقياد للتمرد . ان المرأة العذبة الرقيقة الدمثة مهما تتجاوز الحدود فى انتقالها من الدماثة الى التمرد ، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هى هـذه الطبيعة ، وانما هى تكره نفسها على العصيان اكراهاً ، ولا تفلح أبداً فى التغلب على كل خفر وكل تحفظ . وهذا النوع من المزايا هو الذى يحيِّر الخصـم ويفل سلاحه أكثر من سائر المزايا ، لأنه يجعله هو نفسـه متردداً فى تصديق ما تراه عيناه . ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة ، فانها تستطيع دائماً أن

تكون أكثر قصداً واعتدالاً ، وتعرف كيف توغل في الدناءة متسترةً بمظهر الأدب والحشمة ، فتُضلُّك بذلك عن نفسها وتخدعك .

كسرت امرأتي الجليد فجأةً فقالت تسألني ملتمعة العينين :

ـ هل صحيح أنك طُردت من الجيش لأنك خفت من الاقتتال في مبارزة ؟

ـ صحيح . رُجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط ، رغم أنني قدمت طلب تسريحي قبل ذلك .

ـ أطردوك اذن بسبب جبنك ؟

ـ نعم ، عدُّوا ذلك مني جبناً . والواقع انني لم أرفض المبارزة جبناً ، وانما رفضتها لأنني لم أشأ أن أخضع لحكمهم الباغي المستبد ، فأدعو الى المبارزة على اعتقادي بأنني لم تنلني اهانة .

ولم أستطع أن أكظم غيظي فأردفت أقول لها :

ـ هل تعلمين أن مقاومة هذا الاستبداد الباغي ورفض ما يترتب عليه من نتائج دليل على شجاعة أكبر كثيراً من شجاعة الاقتتال في أية مبارزة ؟

لم أستطع أن أسيطر على نفسي فأمسك عن اطلاق هذه الجملة ، فكأنني أردت بذلك أن أبرر سلوكي . وهذا بعينه هو كل ما كانت تريده : أعني هذه المذلة الجديدة من جانبي . فاذا هي تضحك ضحكة كاسرة . وأردفت تسأل :

ـ وهل صحيح أنك كنت بعد ثلاث سنين تتشرد في شوارع بطرسبرج ، وتستعطي الصدقات ، وتنام ليلك على موائد البلياردو .

ـ وكنت أنام أيضاً في « سوق العلف » بمنزل فيازمسكي . هذا

صحيح : فبعد خروجي من الجيش عشت فترة طويلة من الخزى والعار ، والفاقة والبؤس ، ولكن أخلاقى لم تسقط ، لأننى كنت أول من يأسف لما يصدر عنى من أعمال . لقد كان بؤسى بؤس ارادة وعقل ، ولم يكن لهذا البؤس من مصدر الا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد . ولكن هذا أمر مضى وانقضى ...

ـ آ ... طبعاً ! أنت الآن شخص مرموق ، أنت الآن من رجال المال !

وكان ذلك اشارةً منها الى أننى مراب طبعاً . ولكننى استطعت أن أسيطر على نفسى وأن أتحكم بسلوكى . لقد رأيت أنها شديدة الرغبة فى أن تحصل منى على ايضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتى . لذلك حاذرت أن أقول لها شيئاً . وواتانى الحظ فدقّ الجرس زبون فمضيت الى الصالة للقائه . وبعد ساعة ، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأة لتخرج ، تسمرت أمامى وقالت لى :

ـ ذلك لا ينفى أنك لم تحدثنى بشىء من هذا كله قبل زواجنا .

فلم أجبها . وخرجتْ .

وفى الغد كنت لاطياً فى تلك الغرفة أتنصّت عليهما وأنتظر مصيرى واضعاً مسدسى فى جيبى . كانت هى جالسة بقرب الطاولة ، وكان يافيموف يتفنج أمامها . فماذا حدث ؟ (ان ما أقوله هنا يشرّفنى الى أقصى حد) . لقد حدث ما كنت توقعته وافترضته دون أن أكون واعياً ذلك التوقع وذلك الافتراض . لا أدرى هل أحسن التعبير ، فأجعلكم تفهمون ما أريد أن أقول .

اليكم ما حدث . لقد ظللت أنصت ساعة كاملة ، فشهدت خلال هذه الساعة مبارزة بين أنبل وأشرف امرأة وبين مخلوق حقير متصنع فاسق خسيس النفس نذل . قلت أسائل نفسى مدهوشاً مذهولاً ! « كيف تعلمت

هذه المرأة الساذجة ، هذه المرأة العذبة ، هذه المرأة التي لا تتكلم الا قليلاً جداً ، كيف تعلمت هذا كله ؟ ان أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزلية لا يستطيع أن يتفتق خياله عن مشهد فيه مثل هذه السخريات وهذا الضحك ، عن مشهد تعبث فيه الفضيلة أبدع العبث بالرذيلة ، وتحتقرها أحسن الاحتقار • ما كان أحذقها في حديثها ، وحتى في أيسر ألفاظها ، وما كان أرهف ذكاءها في أجوبتها السريعة ، وما كان أصوب أحكامها في آرائها السديدة ! • وكانت في الوقت تدل على براءة بكر وسذاجة عذراء • كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بحبه ، ومن حركاته واشاراته ، ومما يقدمه لها من عروض • لقد جاء الى هذا المكان وهو ينتوى أن يعمد الى هجوم مباغت ، وكان لا يتصور أن يصطدم بمقاومة ، فاذا بظنونه كلها تذهب بدداً • كان يمكن أن أفترض في أول الأمر أن ذلك لم يكن منها الا دلالاً هو دلال امرأة لا يعوزها الذكاء في فجورها ولا تنقصها الفكاهة في خلاعتها ، فهي تحب أن تبديهما وتظهرهما معتزةً بهما • ولكن لا • لقد كانت الحقيقة تسطع سطوع الشمس • فلا سبيل الى الشك فيها • كل ما في الأمر أنها من بغضها لي ، وهو بغض متصنع مردُّه الى الحنق والغيظ ، قد أمكنها لقلة خبرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء • ولكن ما ان حان حين الانتقال الى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور • كانت تريد أن تهينني بجميع الوسائل ، ولكنها رغم أنها قررت أن تتدحرج في الوحل لم تحتمل رؤية مثل هذا الفساد • ثم هل يستطيع رجل مثل يافيموف أو أي شخص سخيف تافه من نوعه أن يفتنها هي البريئة الطاهرة التي تسعى الى مثل أعلى ؟ بالعكس : ما كان لرجل مثله الا أن يثير فيها الضحك • كانت الحقيقة كلها تعصى وتتمرد في نفسها ، وكان الغضب يجعلها ساخرة متهكمة • أعود فأقول ان هذا الشخص السخيف المضحك قد شُده من ذلك شدهاً شديداً ، وجلس في آخر الأمر كالح الهيئة متجهم الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها ، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ

بشتمها ارضاءً لحقده الدنيء • وأعود فأكرر مرةً أخرى أن رؤيتى هذا المشهد بغير دهشة أمر يشرّفنى ، لقد كنت كمن التقى بوجه يعرفه بعد أن غاب عنه زمناً ، وتعمَّد أن يجيء الآن ليلقاه • لقد جئت وأنا لا أعرف شيئاً ، ولا أحمل فى نفسى أى اتهام ، رغم تسلحى بمسدس فى جيبى • تلكم هى الحقيقة • وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك ؟ لماذا كنت قد أحببتها ؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها ؟ لماذا كنت قد تزوجتها ؟ صحيح أننى كنت مقتنعاً أشد الاقتناع بكرهها لى ، ولكننى كنت مقتنعاً كذلك ببراءتها وطهارتها •

هأنذا أنهى المشهد ، فأفتح الباب فجأة ، وأدخل عليهما • انتفض يافيموف • وأمسكت يدها ودعوتها أن تخرج معى • وثاب الى يافيموف رشده ، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكاً مجلجلاً متدفقاً ، وقال :

ـ آ ••• خذها ، خذها ، لا اعتراض لى على قداسة الواجبات الزوجية •

وصاح يقول ورائى :

ـ واعلم أننى رهن اشارتك ، رغم أنه لا يسع رجلاً شريفاً أن يبارزك دون أن يخفض قدره ، ويفقد حشمته ••• هذا اذا كان لك من الشجاعة ما يدفعك الى طلب المبارزة •••

قلت لزوجتى وأنا أجبرها على التوقف لحظةً فى العتبة :

ـ سمعت ؟

ثم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا • وكنت قد قبضت على ذراعها ، فلم تبد أية مقاومة • حتى لقد كانت مشدوهة مذهولة • غير أن ذلك لم يطل كثيراً ، فما ان وصلنا الى البيت ودخلنا حتى

جلست على كرسى ، وأخذت تحدجنى بنظرة ملحة • كانت شاحبة اللون شحوباً رهيباً • ورغم أن شفتيها قد عادت اليهما ابتسامتهما الساخرة فوراً ، فان نظرتها كانت تتحدانى تحدياً يحمل معنى الانتصار ؟ وأظن أنها لبثت عدة دقائق موقنــةً بأننى سأقتلهــا برصاصــة مسدس • ولكننى أخرجت سلاحى من جيبى بهدوء ، ووضعته على المائدة • (لاحظوا أن هذا المسدس مألوف لها ، وأننى لقمته منذ فتحت مكتبى ، اذ كنت قد قررت حين فتحت هذا المكتب أن أستغنى عن كلب حراســة وعن خادم قوى الجســم شديد البأس كمــا يفعل موزير • وكانت الطباخة عندى هى التى تفتح البـــاب للزبائن • ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم ، فمن باب الاحتياط لكل طارىء انما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقوماً على الدوام • وقد اهتمت هى نفسها اهتماماً كبيراً بهذا المسدس فى الآونة الأولى من دخولها بيتى ، وسألتنى عن أجزائه واستعماله ، حتى لقد أقنعتها ذات يوم بأن تسدّد الى الهدف وتطلق رصاصة • لاحظوا هذا كله) • واستلقيت على سريرى دون أن أخلع الا نصف ثيـابى ، ودون ان أنتبه الى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة • كانت الساعة هى الحادية عشرة تقريباً • وظلت فى مكانها ساكنةً جامدة زهاء ساعة • ثم أطفأت الشمعة ، واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هى أيضاً ، متجهةً بوجهها الى الحائط • تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد • لاحظوا هذا أيضاً •

٦

ذكرى فظيعة

هنا مكان ذكرى فظيعة ...

استيقظت صباحاً فى نحو الساعة الثامنة فيما أظن ، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريباً . استيقظت دفعة واحدة ، واعياً كل الوعى صاحياً كل الصحو ، وفتحت عينىّ فجأة ، فرأيتها واقفة بقرب المائدة ، ممسكةً المسدس بين يديها . لم ترَ أننى استيقظت وأننى كنت أنظر اليها . ورأيتها تقبل علىّ بغتةً والمسدس بيدها . فأغمضت عينىّ فوراً ، وتظاهرت بأننى نائم نوماً عميقاً .

وصلت الى سريرى ، ومالت علىّ . وكنت أسمع كل شىء . ورغم أن صمتاً كصمت الموت خيم ، فقد كنت أسمع هذا الصمت . وحدثت عندئذ حركة متشنجة جعلتنى أفتح عينىّ مرةً ثانية على حين فجأة . فنظرت محدقةً الى عينىّ بنظرة ثابتة ، بينما استقرت فوهة المسدس على صدغى . التقى بصرانا . ولكننا لم ينظر أحدنا الى الآخر الا لحظة واحدة . وأجبرت نفسى على أن أعود الى الاغماض ، واستجمعت شتات فكرى ، فعملت جاهداً على ألا أتحرك البتة ، وعلى ألا أعود الى فتح عينىّ مهما يحدث من أمر .

انه ليحدث فعلاً أن يكون امرؤ نائماً نوماً عميقاً ، فاذا هو يفتح عينيه فجأةً ، أو حتى ينهض رأسه لحظةً وينظر حواليه ، ثم اذا هو

يهوى برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئاً •

انني بعد أن التقى بصري ببصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغي ، قد أغمضت عينيّ فجأة ، ولم أتحرك بعد ذلك البته ، فكأنني كنت نائماً نوماً عميقاً ، وكان في امكانها أن تفترض أنني كنت نائماً بالفعل وأنني لم أبصر شيئاً ، ولا سيما أن اغماض عينيّ بعد أن رأيت الأمر يكون شيئاً لا يعقل ان يحدث ، أو لا يحتمل أن يقع •••

نعم ، لا يُعقل أن يحدث ، لا يحتمل أن يقع • ولكنها مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة • خطرت هذه الفكرة في ذهني كالبرق • آه ••• يا لزوبعة الأفكار والاحساسات التي عصفت في نفسي ابان لحظة واحدة ! ان علينا أن نعجب أشد الاعجاب بهذه الكهرباء في فكر الانسان • وأحسست في تلك اللحظة أنها اذا حزرت الحقيقة وعرفت أنني غير نائم ، فلابد أن يكون رضاى بالموت قد سحقها سحقا ، ولعل يدها قد أخذت ترتجف • ولعل صدمة هذا الشعور الجديد الخارق قد حطمت ما كانت قد اتخذت من قرار • يقال ان الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلقاء أنفسهم بانجذاب الى الهاوية • وأحسب أن كثيراً من حوادث الانتحار وجرائم القتل لم تقع الا لأن المسدس كان في اليد • ثمة هوة هنا أيضاً ، ثمة انحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحاذيه الا أن ينزلق الى تحت • ان نداءً لا يقاوم ولا يغالب يهيب بنا أن نضغط على الزناد • ولكن شعورها بأنني رأيت كل شيء ، وأنني أعلم كل شيء ، وانني أنتظر صامتاً أن تأتيني منها الضربة القاتلة ، كان يمكن أن تعصمها من الانزلاق •

وطال الصمت • وأحسست على صدغي وعلى شعري ببرودة ملمس الحديد • قد تسألونني هل كنت آمل أملاً جازماً قاطعاً في أن أنجو مرةً أخرى • فاعلموا ــ والله على ما أقول شهيد ــ أنني كنت قد فقدت

كل أمل ، أو لو يكن أملي يزيد على واحد من مائة • فلماذا ارتضيت ان أموت ؟ انى لأسألكم : ما عسى تكون قيمة الحياة فى نظرى بعد المسدس الذى صوّبه الىّ انسان أعبده عبادة ؟ ثم اننى كنت أعرف معرفةً لا يتسرب اليها الشك ان صراعاً قد نشب بيننا فى تلك اللحظة ، صراعاً هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت ، مبارزة من نوع المبارزة التى حضّنى عليها رفاقى فى الماضى ، ثم طردونى لاعراضى عنها جبناً • كنت أعلم ذلك ، وكانت هى تعلمه • هذا اذا صحّ أنها حزرت أننى لم أكن نائماً •

ومن الجائز ألا يكون شيء من هذا قد جرى ، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينذاك فى ذلك كله ، ولكن أغلب الظن أن يكون هذا هو ما جرى ، لاننى منذ ذلك الحين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظةً فى ساعة من حياتى •

ولكن قد تسألوننى أيضاً : « لماذا لم تمنعها من اقتراف جرم فظيع ؟ » • فاعلموا أن هذا هو السؤال الذى ألقيته على نفسى ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسرى فى ظهرى رعدة • لقد كانت نفسى ممتلئة حينذاك بيأس مظلم : كنت أنا نفسى هالكاً ، فمن ذا الذى كان فى وسعى أن أنقذه ؟ ثم ما أدراكم ! هل كنت أحرص فعلاً على أن أنقذ أحداً فى تلك اللحظة ؟ من ذا يعلم ما الذى كنت أحسه ؟

ولكن شعورى كان مع ذلك يقظاً • ومرّت الثوانى ، وران صمت كصمت الموت • ولا تزال هى مائلة علىّ • ثم اذا أنا أرتعش أملاً • فأفتح عينىّ • فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة • نهضت عن سريرى • وخرجت منتصراً غالباً ، بينما أصبحت هى منهزمة مغلوبة الى الأبد •

مضيت أجلس بقرب السماور • كان الشاى يشرب عندنا دائماً فى الغرفة الأولى ، وكانت زوجتى هى التى تصبّه • جلست صامتاً ، وتناولت من يديها كأس الشاى • وألقيت عليها نظرة بعد خمس دقائق • كانت

شاحبة شحوباً رهيباً مخيفاً ، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس .
وكانت تنظر الىّ . فلما لاحظت نظرتي اليها اذا بشفتيها اللتين زال عنهما
لونهما تلمُّ بهما ابتسامة باهتة ، واذا بعينيها تعبرّان عن سؤال . قلت
لنفسي : « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتتســاءل : أيعلم أم لا يعلم .
أرأى أم أنه ما رأى ؟ » . أشحت نظري مصطنعاً قلة الاهتمام . حتى اذا
فرغنا من الشــاي ، أغلقت المكتب ، ومضيت الى السوق فاشتريت سريراً
من حديد ، وحاجزاً . ورجعت الى البيت ، فوضعت السرير في الصالة
وراء الحاجز . انه سرير لها ، ولكنني لم أقل لها عن ذلك كلمة واحدة .
فأدركت هي من وجود هذا السرير « أنني رأيت كل شيء ، وعلمت كل
شيء » ، ما في ذلك ريب . وفي تلك الليلة تركت المســدس على المائدة
كعادتي في كل ليلة . ورقدت هي صامتةً على سريرها الجديد : لقد انحل
الزواج . « وغلبت هي لكنهــا لم يُغفر لهــا » . وانتابها في تلك الليلة
هذيان . وظهر في الصباح أنها أصيبت بحمى حارة . فبقيت راقدة ستة
أسابيع .

الفصل الثاني

١

حلم خيلاء وصلف

أبلغتني لوكيريا منذ قليل أنها لن تبقى عندي ، وأنها ستمضي متى تمّ دفن مولاتها . فركعت على ركبتيّ وصلّيت خمس دقائق . كنت أريد أن أصلي ساعة ، ولكنني لم أزد على أن أفكّر ثم أفكر مريض العقل مريض الرأس ؛ وما فائدة الصلاة والنفس غارقة كلها في الاثم ؟ والشيء العجيب أنني لم أشعر برغبة في النوم أيضاً . ان المرء حين يعاني حزناً كبيراً ، حين يكابد كرباً هائلاً بعد العنف الشديد في الانفجارات الأولى ، لا يشتهي الا أن ينام . يقال ان المحكوم عليهم بالاعدام ينامون نوماً عميقاً أشد العمق في ليلتهم الأخيرة . ولابد أن يكون الأمر كذلك ، فهذا يوافق الطبيعة ، والا لما استطاعت قوى الانسان أن تصمد ...

اضطجعت على الديوان ، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني .

... أثناء مرضها الذي دام ستة أسابيع كنا نتناوب القيام عليها نهاراً وليلاً أنا ولوكيريا وممرّضة محترفة جئت بها من المستشفى . لم أحفل بالنفقات . حتى لقد كنت لا أنشد الا أن أنفق من أجلها . واستدعيت الدكتور شرودر ، ودفعت له أجراً قدره عشرة روبلات . وحين عاد اليها وعيها ، أصبحت لا أظهر لها الا من حين الى حين . ولكن ما حاجتي الى ذكر هذا كله ؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسةً في غرفتي قربَ مائدة صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة ، وكانت تبقى جالسةً

بهدوء لا تنطق بكلمة ... نعم ، كنا نصمت . هذا صحيح . بل قل اننا قد بدأنا نتبادل بعض الكلام ، ولكن أحاديثنا لا تتناول الا أموراً تافهة مبتذلة . وكنت أتعمد طبعاً ألا أبتعد في كلامي عن هذه الأمور المبتذلة . وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ . كنت أقول لنفسي : « انها مهتزة أشد الاهتزاز ، مهدَّمة أكبر التهدم ، فيحسن أن أتيح لها الوقت اللازم للنسيان واسترداد قوتها » . فعلى هذا النحو كنا نلتزم الصمت . ولكنني كنت في كل لحظة متأهباً لكل ما قد يطرأ . وكنت أقدِّر أن حالها كحالي ، وكان يعصف بي شغف شديد رهيب بأن أتساءل : « تُرى في أي شيء تفكر الآن ؟ » .

سأقول لكم شيئاً آخر . لا يتصور أحد طبعاً مدى ما عانيت من ألم حين كنت أئنُّ وأنتحب أثناء مرضها . ولكنني كنت أنتحب بيني وبين نفسي ، وأكظم أنيني في صدري ، وأخفي شكاتي حتى عن لوكيريا . وكنت لا أستطيع أن أتصور ، لا أستطيع أن افترض أنها قد تموت دون أن تعلم شيئاً . واني لأتذكر أنني حين زال عنها الخطر وارتدت اليها العافية ، قد هدأت نفسي هدوءاً كاملاً بسرعة . وأكثر من ذلك أنني قررت « أن أرجىء مسألة مستقبلنا » ما استطعت ارجاءها ، وأن أدع الأمور على حالتها الراهنة بانتظار أن تنجلي في المستقبل الذي أرجو أن يبقى بعيداً . نعم ، ان ما يحدث لي في ذلك الحين كان شيئاً عجيباً غريباً لا أجد كلمةً تصفه الا أن أقول انني كنت « أنتصر » ، وكان شعوري بهذا الانتصار يبدو لي كافياً كل الكفاية . هكذا انقضى الشتاء كله . آ ... كنت راضياً مسروراً كما لم أكن راضياً ولا مسروراً في أي يوم من أيام حياتي حتى ذلك الحين ... ودام رضاي وسروري الشتاء كله .

اسمعوا . لقد مررت في حياتي بظرف أليم كان الى ذلك اليوم ، أي الى يوم تلك المصيبة التي نزلت بزوجتي ، جاثماً على صدري يخنقني خنقاً في جميع الأيام ، وفي كل ساعة من ساعات اليوم ، ألا وهو –

باختصار ـ فقداني سمعتي وطردي من الجيش • وكان ذلك الأمر ظلماً لي ، ظلماً مليئاً بالطغيان والاستبداد ، وخالياً من الرأفة والرحمة • هناك حقيقة يجب أن أذكرها ، هي أن رفاقي كانوا لا يحبونني بسبب طبعي الذي كان صعب المراس ، وربما كان باعثا على الضحك ، وان كان يحدث في كثير من الأحيان أن ما يبدو لامرىء من الناس رائعاً سامياً ثميناً مجيداً داعياً الى الفخر مشرّفاً يمكن أن يحمل على الضحك والقهقهة عصبة بأسرها من الرفاق ، لا تدري لماذا ولا كيف !

المهم أنني أنا لم أكن محبوباً في يوم من الأيام ، حتى في المدرسة • ما أحبني أحد في أي مكان ولا أي زمان • لوكيريا أيضاً لا تستطيع أن تحبني • ولكن ما وقع لي في الجيش ، على أنه يرتبط بما يحمله لي رفاقي من عواطف الكره ، انما كان مردُّه الى مصادفة صرف • ويهمني كثيراً أن أكرر أنه لا شيء يسيء الى المرء ولا شيء يفوق طاقة المرء على الاحتمال كأن يضيع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا تحدث ، أو بتضافر عدد من الظروف تضافراً مشئوماً ، وهي ظروف كان يمكن أن تتبدد كالدخان • ذلك في نظر الانسان الذكي اذلال لا يضارعه اذلال • واليكم تلك المصادفة :

أثناء حضوري مسرحية من المسرحيات ، وفي فترة الاستراحة بين فصلين من فصول المسرحية ، مضيت الى البوفيه لأصيب شيئاً من شراب • فاذا بالضابط « آ ••• وف » ، وهو ضابط في سلاح الفرسان ، يدخل الى البوفيه بسرعة كسرعة الريح ، ويقول لرفيقين من رفاقه بصوت عالٍ على مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضباط آخرين ، ان قائد فوجنا بيزومتسيف قد أثار فضيحة في دهاليز المسرح ، وأنه ربما كان ثملاً قد « أخذ السكر منه كل مأخذ » • ولم يتصل الحديث • وكان عدا ذلك خطأً • لأن الكابتن بيزومتسيف لم يكن سكراناً ، ولا كان الأمر الذي حدث خليقاً بأن يُعدّ فضيحة • وجرى الحديث بين ضباط سلاح الفرسان على شيء آخر ،

ووقف الأمر عند هذا الحد • ولكن فوجنا كان في الغد على علم بالقصة ، وسرعان ما راج أنه لم يكن في البوفيه أحد من ضباط الفوج غيري ، وانني لم أحتجّ على « آ ••• وف » حين قال ذلك الكلام الوقح عن الكابتن بيزومتسيف ، ولا اتجهتُ اليه بأي تقريع لأسكته • وفيم كان ينفع الاحتجاج أو التقريع ؟ اذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقداً على بيزومتسيف لسبب من الأسباب ، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لي بها ، ولا داعي الى تدخلي فيها • ولكن ضباط فوجي لم يعدّوا الأمر أمراً شخصياً ، واعتقدوا أن الاهانة قد لحقت بالفوج كله ؛ واذ لم يكن في البوفيه أحد من ضباط الفوج غيري حينذاك ، فانني بسكوتي قد برهنت للجمهور والضباط الذين كانوا في البوفيه أنه يمكن أن يضمّ فوجنا ضباطاً لا تثيرهم اهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم • وكان لا يمكن أن أسلّم بهذا الرأي • وأبلغوني أنني مازلت أستطيع اصلاح الأمر ، اذا أنا ارتضيت ، رغم تأخري ، أن أدعو الضابط « آ ••• وف » الى المبارزة غسلاً للعار ، فلم أحبب ذلك ، وكنت محتداً فرفضت العرض بتكبر واستعلاء ، وسرعان ما قدمت استقالتي • تلكم هي القصة • لقد خرجت متغطرساً ، ولكنْ محطماً • وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون زوج أختي ، الذي يقيم بموسكو ، قد بدّد ارثنا المتواضع وحصتي من هذا الارث ، فاذا أنا أجد نفسي في الشارع لا أملك قرشاً •

ولقد كان يمكن أن ألتمس وظيفة مدنية وأن أحصل عليها ، لكنني لم أرتض لنفسي هذا : فكيف يمكن أن أقبل وظيفة من الوظائف في السكة الحديدية ، بعد أن كنت أرتدي بزة عسكرية لألاءة متألقة • وأخذت أتدهور : فمن دناءة الى دناءة ، ومن خزي الى خزي ، ومن اسفاف الى اسفاف ، اذ اخترت أن يكون شعاري هو : كلما ازددت سوءاً وشراً ، كان ذلك أفضل وأحسن • قضيت على هذه الحال ثلاث سنين

ما أبشع ذكراها ! ثلاث سنين انجرفت فيها حتى الى منزل فيازمسكى .
ومنذ سنة ونصف سنة ، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هى عرّابتى ،
فاذا هى تورثنى فى وصيتها مبلغ ثلاثة الاف روبل . ففكرت فى أمرى ،
واتخـذت قرارى فيمـا يجب علىّ أن أسـلك من سبيل وأن أحترف من
مهنة . عزمت على أن أفتح مكتب اقراض برهون ، لا أستغفر احـداً
ولا أطلب من أحد عفواً أو صفحاً . قلت لنفسى : بذلك أجنى مالاً ،
وأبنى أسرة ، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضى . تلكم كانت
مشاريعى . ولكن ذلك الماضى المشئوم وتلك السمعة التى ثلمت شرفى الى
الأبد كانا لا ينفكان يعذبانى فى كل لحظة وفى كل دقيقة . وفى أثناء ذلك
تزوجت . فان سألتمونى هل كان ذلك مصـــادفة أم لا ، قلت اننى
لا أعرف . ولكننى كنت أعتقد حين أدخلتها الى بيتى أننى أدخل صديقة ،
فما كان أشد حاجتى الى صديقة ! وكان لا يفوت بصرى مع ذلك أن هذه
الصديقة كان ينبغى لى أن أهيئها وأن أعمل فيها بل أن أنتصر عليها أيضاً .
فهل كان يمكننى أن أشرح الأمـور دفعـة واحدة ، لهذه المرأة الشابة
التى لا تتجاوز سنُّها ستة عشر عاماً ، والتى تزخر نفسها بأفكار مستقرة
راسخة ؟ كيف كان يمكننى مثلاً ، لولا أن أسعفتنى المصادفة التى أدَّت
الى الكارثة الرهيبة ، أعنى مصادفة المسدس ، أن أقنعها بأننى لست جباناً
رعديداً ، وأن اتهـامى فى الجيش بالجبن كان ظلمـاً . ولكن الكارثة قد
أوضحت كل شىء . فحين تحملت ملامسة المسدس لصدغى ، ثأرتُ لكل
ماضىَّ المشئوم . واذا لم يكن أحـد قد عرف بذلك فقد عرفته « هى » ،
وكان هذا حسبى ، فقد كانت عندى كلَّ شىء ، وكانت كلَّ أمل مستقبلى
على نحو ما كنت أراه فى أحـلامى ! ولو أردت أن أختار لهذا أحداً ، لما
اخترت غيرها ، فلم أكن فى حاجة الى أحد سواها ، وها هى ذى قد عرفت
كل شىء ، أو عرفت على الأقل أنهـا أفرطت فى التسرع والتعجـل حين
انضمت الى أعدائى . فلا يمكن أن أكون بعد الآن فى نظرها جباناً ، بل
انسان غريب الأطوار فى أكثر تقدير ، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءنى

كثيراً بعد كل ما حدث : فليس عيباً أن يكون الرجل غريب الأطوار ، حتى ان هذه الصفة تعجب مزاج النســاء فى بعض الأحيــان . الخلاصة أننى تعمدت أن أرجىء انتهاء الأمر الى أية خاتمة : فما حــدث كان يكفينى ، كان يكفينى فى ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطرى وتطمئن نفسى ، وكان الى ذلك يغذى أحلام يقظتى بصور كثيرة . ان أسوأ صفة مشئومة من صفات طبعى هى أننى امرؤ حالم ، فكانت لا تعوزنى موضوعات تدور عليها أحلامى فى اليقظة . أما هى فأظن أنها « كانت تنتظر » .

على هذه الحال انما انقضى الشــتاء كله انتظــاراً . وكنت أحب أن أتأملها خلسةً حين تجلس بقرب المائدة . كانت تعمل فى تطريز بعض الأغطية . وكانت فى بعض الأحيان تقرأ كتباً تأخذها من مكتبتى . فكان اختيارها كتباً من مكتبتى خليقاً هو أيضاً بأن يشهد لى بالفضل والتميز . وكانت لا تكاد تخرج أبداً . فكنت أصطحبها كل يوم عند الغسق بعد العشــاء فى نزهة ، فنتروض قليلاً ، ولكننا لا نبقى صامتين كل الصمت كما كنا فى الماضى . كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصمت ، فكأن تفاهماً تاماً قد قام بيننا . ولكننا ، كما ســبق أن قلت ، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث . وكنت أفعل ذلك عامداً ، لاعتقادى بأن علىَّ أن أترك لها « فســحة من الوقت » . ولا شك أنه أمر غريب أننى لم يخطر ببالى مرةً واحدة حتى نهاية الشتاء ، أننى ان كنت أحب أن أتأملها خلسة من حين الى حين ، لم أفاجئها تلقى علىَّ نظرة طوال تلك المدة ! وقد عزوت غضَّها الطرف الى خجلها وحيائها . هذا الى أن هيئتها كانت زاخرة بمعانى المذلة والدماثة والعذوبة ، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنةً أكبر الوهن منذ مرضها ! فكان الأفضل أن أنتظر ، وكنت أقول لنفسى : « لسوف ترجع اليك من تلقاء ذاتها يوماً » ..

وقد اتفق لى فى ذلك الشــتاء أن قمت ببعض الحســـنات متعمداً . فألغيت دينــين ، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن ؟ ولم أذكر

ذلك لزوجتى ، ولا فعلته لتعلم به ، ولكن المرأة جاءت تشكر لى صنيعى وهى تكاد تجثو على ركبتيها تعبيراً عن امتنانها . فشاع الأمر . وبدا لى أن امرأتى شعرت بسرور صادق حين علمت به .

ولكن الربيع كان يقبل ، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل)، ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة ، وأخذت الشمس ترسل الى داخل غرفتينا الصامتتين أشعة دافئة قوية . ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على فكرى وتبث فيه الاضطراب . غشاوة قاتلة رهيبة ! فكيف حدث أن زالت تلك الغشاوة فجأة ، فاذا أنا أرى كل شىء وأفهم كل شىء ؟ أكان ذلك بمصادفة محضة ؟ أكان ذلك هو اليوم الذى حدّده القدر ؟ هل جاء شعاع من شمس فأشعل فى فكرى المخبول تلك الفكرة ، وأنبت ذلك الاكتشاف ؟ لا ، لم يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافاً ، ولابد أن شرياناً كان ساكناً فتحرك ، أو أن وتراً كان جامداً فاهتز ، فاذا هو يضىء نفسى كلها على حين فجأة ، واذا هو يستثير كل خيلائى الشيطانية . لقد انتفضت عندئذ انتفاضة مباغتة ، مفاجئة ، لم تكن فى الحسبان أبداً . وقع الحادث فى المساء ، الساعة الخامسة ، بعد العشاء ...

٢

الغشاوة التي سقطت

اليكم أولاً هاتين الكلمتين . كنت قد لاحظت لديها منذ شهر اكتئاباً غريباً . لم يبق الأمر صمتاً بل صار اكتئاباً . ذلك أيضاً قد انكشف لي فجأة . كانت جالسة تطرّز مائلة على شغلها برأسها ، فلا ترى أنني أنظر اليها . فما كان أشد استغرابي ، على حين غرة ، حين رأيتها مهزولة ذلك الهزال كله ، نحيلةً ذلك النحول كله ! كان وجهها شاحباً ، وكانت شفتاها باهتتين لالون لهما . ذلك كله شدهني بغتةً الى أقصى حد ، وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسىً وحزن وكآبة . وكنت قد سمعت ذلك السعال القصير الجاف يخرج من صدرها قبل الآن ، ولا سيما في الليل . فما ان رأيتها هذه المرة على هذه الحال حتى مضيت الى الدكتور شرودر فوراً دون أن أقول لها كلمة واحدة .

وجاء الدكتور شرودر في الغد . فدهشت هي من مجيئه دهشةً كبيرة ، فكانت نظراتها تتجه اليه تارة ، وتتجه اليّ تارة أخرى . وقالت وهي تبتسم ابتسامة لا يمكن تحديد معناها :

ـ ولكنني بخير .

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلاً (ان لهؤلاء الأطباء أسلوباً في التعالي عليك أحياناً) ، واكتفى بأن قال لي في الغرفة الأخرى ان هذا من بقايا مرضها ، وانها لن يضرها أن تسافر في الربيع الى البحر تستنشق

هواءه ، أو أن تمضى الى الريف فى أقل تقدير . أى انه لم يقل شيئاً ، سوى أنها تعانى من فقر فى الدم ، أو شيء من هذا القبيل .

وحين انصرف شرودر عادت تقول لى وقد لاح فى وجهها جد شديد صارم :

ـ أنا بخير وعافية ، لست مريضة .

ولكنها حين قالت هذا الكلام اصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل مردّها الى الخجل ، بل ان مردّها الى الخجل قطعاً ، فقد كان ذلك واضحا . آه .. اننى أدرك هذا الآن : كانت تشعر بخجل من أننى لاأزال « زوجها » ، وأننى ما زلت أهتم بها اهتمام زوج حقيقى . ولكننى لم أفهم من ذلك شيئاً حينذاك ، ونسبت احمرار وجهها الى شعورها بالمذلة (آه من الغشاوة !) .

وهأنذا ، بعد انقضاء شهر على ذلك ، فى نحو الساعة الخامسة من الأصيل ، فى يوم ساطعة شمسه من أيام شهر نيسان (أبريل) ، كنت جالساً فى مكتبى أجرى بعض الحسابات ، فاذا أنا أسمعها تدندن فى الغرفة المجاورة ، أثناء عكوفها على تطريزها ، أغنيةً من الأغنيات بصوت رقيق خافت . فكان من شأن هذا الشيء الجديد الذى لا عهد لى به منها أن هزنى هزاً قوياً . نعم ، واننى لم أفلح فى فهم هذا الأمر حتى هذا اليوم . لم أكن قد سمعتها تغنى قبل ذلك ، اللهم الا فى الأيام الأولى من دخولها بيتى حين كنا لا نزال نتسلى بتصويب المسدس واطلاق النار على هدف . وكان صوتها فى ذلك الحين قوياً رخيماً ، وكان سليما ومطرباً رغم ما يدل عليه من ضعف الثقة بالنفس . أما الآن فان غناءها ضعيف أشدّ الضعف ! لن أقول انه غناءُ حداد (ولقد كانت الأغنية احدى الرومانسات) ، غير أن من يسمعه يحس أن صوتها مهشم ، وكأنه لا يستطيع أن يخرج من صدرها ، وكأن الأغنية نفسها مريضة . كانت تغنى بصوت

خافت ، فما ان يرتفع صوتها فجأة حتى يتحطم ، وكان من شدة النحول والفقر أنه يتحطم تحطماً يعبرّ عن الانتحاب ويثير الاشفاق . واعترتها نوبة سعال قصيرة ، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته ...

لسوف تضحكون تهكماً على اهتياجى . ولكن لن يفهم أحد فى يوم من الأيام لماذا استبد بى انفعال شديد ! ان ما شعرت به لم يكن شفقة بعد . وانما كان ، فى اللحظات الأولى على الأقل ، حيرة مفاجئة ، ودهشة رهيبة ، دهشة رهيبة عجيبة ، فيها ألم ، وفيها ما يشبه أن يكون حقداً ورغبة فى الانتقام : « ماذا ؟ أتغنى بحضورى ؟ أنسيت اذن أننى هنا ؟ » .

بقيت فى مكانى جامداً مضطرباً متحيراً ، ثم نهضت فجأة ، وخرجت كأننى ثبت الى رشدى . والحق أننى لا أعرف لماذا قمت ولا ماذا أنوى أن أعمل . ومدّت الىّ لوكيريا معطفى .

قلت أسأل لوكيريا بغير ارادة :

ـ أهى تغنى ؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت الىّ مرتبكة . وكان من حقها ألا تفهم ، فالواقع أنه ما كان لأحد أن يفهم ما بى . وأردفت أسأل لوكيريا :

ـ أهى تغنى أول مرة ؟

فأجابت لوكيريا بقولها :

ـ بل يتفق لها أن تغنى أثناء غيابك عن البيت .

لا يزال الباقى كله ماثلاً فى ذاكرتى . نزلت السلم ، وخرجت الى الشارع لأمضى الى أى مكان . سرت حتى زاوية الشارع ، وسرّحت طرفى . كان يمر ناس فيصدموننى ، فلا أحس بشىء . وناديت حوذياً ، وأردت أن يقودنى الى « جسر الشرطة » ، لا أدرى لماذا . لكننى سرعان

ما عدلت عن هـذه الفكرة ، فنقدت الحوذى عشرين كوبكاً وأنا أقول له مبتسماً ابتسامة بلهاء :

ـ جزاء ازعاجك بغير فائدة .

ولكن قلبى ارتعش فى تلك اللحظة بنوع من الحماسة .

رجعت الى البيت وأنا أغذ الخطى . ان النغمات الحزينة من الأغنية المحطمة قد ترجّعت فى نفسى على حين غرة . شـعرت بأنفاسى تتقطع . الغشـاوة سقطت أخيراً عن عينىّ ، سقطت الغشاوة ! ما دامت قد غنّت بحضـورى ، فمعنى ذلك أنها نسيت ـ الأمر واضح بقدر ما هو مريع . أحس قلبى ذلك . ولكن الحماسة التى أشرقت فى نفسى غلبت الروع . يا لسخرية القدر ! هل كان فى نفسى طوال ذلك الشـتاء شىء غير تلك الحماسة ، بل هل كان يمكن أن يوجد فى نفسى طوال ذلك الشتاء شىء غير تلك الحماسة ؟ فأين كنت أنا فى ذلك الشتاء ؟ هل كنت مع نفسى ؟ صعدت السلم مسرعاً ، فلا أدرى هل كان دخولى رزينا . كل ما أتذكره هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدمىّ ، وأننى كنت أحس بنفسى عائماً فى نهر . دخلت الغرفة . كانت جالسة فى مكانهـا وكانت تطرز مائلة برأسها على شغلها . ولكنها قد انقطعت عن الغناء . ألقت علىّ نظرة سريعـة خالية ، نظـرة ليست نظرة ، وانما هى تلك الحركة الآلية التى ليس فيها اكتراث ، الحركة التى تجريها حين يدخل أحد الغرفة .

مضيت اليها ُقدُماً ، وجلست بقربهـا على كرسى كالمجنـون . فاذا هى تنظر الىّ فجـأة مذعورة مرتاعة . تناولت يدها . ولا أتذكر الآن ماذا قلت لها ، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها ، لأننى لم أفلح فى أن أرسل كلامى سليماً صحيحاً . وانحبس صـوتى ، و ُعقل لسانى ، فلم أعد أنطق بحرف . ثم اننى كنت لا أدرى ما عنـانى أقول لهـا . كنت أختنق اختناقاً .

وفجأة تمتمت أقول لها ببلاهة :

ـ هلا تكلمنا .. قليلاً .. قولى لى شيئاً ..

نعم ، بهذه البلاهة خاطبتها ، ولكن هل كان يمكن أن أكون فى تلك اللحظة ذكياً ؟ فما ان نظرت الىّ وجهاً لوجه حتى ارتعشت وترنحت من جديد ، واعتراها هلع شديد . ولكن « اندهاشاً قاسياً » لم يلبث أن ارتسم على وجهها . نعم ، كان ذلك اندهاشاً ، وكان قاسياً . نظرت الىّ وقد اتسعت حدقتاها . فسرعان ما صعقتنى تلك القسوة ، سرعان ما صعقنى ذلك الاندهاش القاسى . كان ذلك الاندهاش كأنه يسألنى رغم صمتها : « أما زلت اذن تطلب حباً ؟ حبــاً ؟ » ، قرأت ذلك فى وجهها رغم أنهـا لم تقل شيئاً . فاذا كل شىء فى نفسى يهتز ، واذا أنا أهوى على قدميها . نعم ، تهالكت على قدميها . فنهضت بوثبـة واحدة ، ولكننى بقوة خارقة أمسكتها من ذراعيها .

ذلك أننى كنت أدرك ما أنا فيـه من كرب ويأس ادراكاً كاملاً . آه ... نعم ، كنت أدركه ! ومع ذلك ـ هل تصـــدقون ؟ ـ كانت الحماسـة تغلى فى قلبى غلياناً يبلغ من القوة والصرامة التى لا سبيل الى قمعها أننى اعتقدت بأن حينى قد حان ، وأننى أموت . طفقت ألثم قدميها سكراً ونشوة وسـعادة . نعم ، سـعادة طافحة ، لا نهاية لها ، على علمى بأننى صرت الى يأس لا مخـــرج منه . وكنت أبكى ، وأتكلم دون أن أجد الى الكلام سبيلاً . فاذا بالارتياع والدهشة يحل محلّهما عندها قلق وتســاؤل ، فتنظر الىّ وقد لاح فى وجهها استغراب ، وحتى توحش . كانت تريد أن تفهم شيئاً بأقصى سرعة ، وكانت تبتسـم . ولقد أشعرها بخزى رهيب أن رأتنى أقبّل قدميها ، فسحبتهما ، ولكننى قبّلت عندئذ الموضع الذى كانت فيه قدماها من الأرض . فلما رأت هذا ضحكت شعوراً منها بالخجل والخزى (هل رأيتم أحـداً يضحك شـــعوراً منه بالخجـل والخزى ؟) . وأوشكت أن تعتريها نوبة عصبية . رأيت ذلك . كانت

يداها ترتجفان • ولم أحترس ، فظللت أتمتم قائلاً انني أحبها ، وانني لن أكف عن حبها ؛ وأضفت أقول : « دعيني أقبل ثوبك ••• هكذا ••• سأقضي حياتي كلها مصلياً لك ، ضارعاً اليك ••• » نسيت الآن ما قلته لها أيضاً • واني لكذلك ، اذا هي تنفجر ناشجة منتحبة ، وتأخذ ترتعش• هذه نوبة عصبية تعتريها • لقد روّعتها •

نقلتها الى السرير • فلما انتهت النوبة ، جلست على سريرها وقد بان في وجهها ارهاق شديد واعيـاء قوي ، وأمسكت يدي ، وأخذت تتوسـل الي أن أهدأ ، وتقول لي : « لا تعذّب نفسك ، هدىء بالك » ، ثم استأنفت بكاءها • لم أتركها طوال المساء • وظللت أقول لها اني سأخذها الى بولوني لتستحم في مياه البحر ، واني سأفعل هذا الآن ، على الفور ، بعد خمسة عشر يوماً ؛ واني قد سمعت في صوتها بالأمس من التحول والتكسر والتحطـم ما يجعلني أقـرر أن أغلق المكتب ، وأبيعـه الى دوبرونرافوف ؛ واننا سنبدأ كل شيء بدءاً جديداً ، واننا سنسافر خاصةً الى بولوني ، الى بولوني ! فكانت تصـغي الى كلامي ولا تكف عـن الارتيـاع ، وكان الجزع يجتاحهـا أكثر فأكثر • على أن أهمّ شيء في نظري لم يكن هو هذا ، وانما كانت تستبد بي من جـديد رغبـة عارمة قوية ما تنفك تشتد وتعنف فلا سـبيل الى مقاومتها ومغالبتها ، وهي أن أرتمي على قدمي زوجتي مرةً أخرى ، وأن آخذ بتقبيلهما من جديد ، وأن ألثم الأرض التي وطئتها قدماها ، وأن أرجوها مردداً في كل لحظة « لا ألتمس منك الا شيئاً واحـداً •• لا تحبيني ، لا تلقي بالاً اليّ ، لاتكترثي بي •• ولكن دعي لي أن أنظر اليك من الركن الذي أقبع فيه ، اجعليني متاعاً لك ، عدّيني شيئاً من أشيائك ، احسبيني كلبك الصغير ! » وكانت تبكي • وأفلت منها قولها بغير أن تريد ذلك :

ـ « كنت أقدر أن تتركني على هذه الحال ••• » •

قالت ذلك على غير ارادة منها ، ولعلها لم تسمع ما قالته • ولكن

هذا الذى قالته كان أخطر كلامها شأناً ، وأشده شؤماً ، وأكثره استغلاقاً على الفهم طوال السهرة ، وكان أشبه بطعنة نفذت فى قلبى حين سمعته ! لقد أوضحت لى تلك الجملة كل شيء ، كل شيء ولكننى أثناء وجودها بقربى أمام عينىّ ، لم يكن فى وسعى أن أفقد الأمل ، حتى لقد كنت أستنشق عبير سعادة لا حدود لها . آه ... كنت فى ذلك المساء أرهقها تعباً ، وكنت أدرك ذلك ، ولكننى لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شيء على الفور ! وحين هبط الليل أخيراً ، خارت قواها وانهارت انهياراً . فأقنعتها بأن تنام ، فسرعان ما نامت نوماً عميقاً . وكنت أتوقع أن تهذى ، فهذت فعلاً ، ولكن هذيانها كان خفيفاً . ولبثت الليل كله أقوم فى كل لحظة ، فاقترب منها بنابوجين دون أية ضجة ، لأنظر اليها ، وأتأمل وجهها . فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض ، الراقد على ذلك المضجع هناك ، على ذلك السرير المصنوع من حديد الذى اشتريته لها بثلاثة روبلات ، لا يسعنى الا أن أعقف يدىّ أسفاً وحسرة . وكنت أجثو على ركبتى ، دون أن أجرؤ مع ذلك على أن أقبل قدمى النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف ارادتها ويسوؤها) . وكنت أحاول أن أصلّى لله ، ولكننى لا ألبث أن أنهض بوثبة . وكانت لوكيريا تنظر الىّ ، ولا تنفك تخرج من المطبخ . فمضيت اليها ذات مرة وطلبت منها أن تنام ، وقلت لها ان كل شيء « سيُتدارك فى غد وسيتغير » .

وذلك ما كنت أومن بها ايماناً أعمى ، ايماناً مجنوناً . آه ... كانت الحماسة تغمر قلبى ، تغرق قلبى ! كنت لا أنتظر الا أن يجيء الغد . والأنكى من ذلك أننى كنت لا أتصور أن تنزل بنا مصيبة ، لأننى كنت لا أرى شيئاً ينذر بذلك . لم أكن قد استرددت رشدى كاملاً ، رغم أن الغشاوة تمزقت . ومضى وقت طويل قبل أن أسترد رشدى كاملاً ، وقت طويل امتد الى هذا اليوم ، بل اننى حتى فى هذا اليوم لم أصحُ صحواً تاماً . وأين لى أن أصحو صحواً تاماً فى ذلك الحين ؟ ألم تكن

لا تزال حيــة ، هى أمامى وأنا أمامها ؟ « غداً تستيقظ ، فاحكى لها كل شيء ، وتكتشف كل شيء » • تلكم كانت خواطـــرى فى ذلك الوقت ، واضــحةً كل الوضــوح ، بسيطة أشـد البساطة ، ومن ثمَّ كانت تنبع حماستى الغامرة الفيَّاضة ، وكانت فكرة السفر الى بولونى خاصة تؤجج تلك الحماســة تأججا شــديداً ، اذ كنت أتصور ـ لا أدرى لماذا ـ أن بولونى كل شيء ، وأن فى بولونى مستقراً لـكل شيء • « الى بولونى ، الى بولونى ! ••• » •

وعلى هذه الحــال من الخرف والهذيان ، انما كنت أنتظـر طلوع الفجر •

٣

فهمت كل الفهم

ما رأيكم في أن هذا انما وقع منذ بضعة أيام فحسب ، منذ خمسة أيام ليس غير ، في يوم الثلاثاء الماضي ؟ نعم نعم ، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل ، لو أنها تريثت قليلاً ، لو أنها تمهلت شيئاً من التمهل ، اذن لاستطعت أن أبدد جميع الظلمات . ألم تكن قد هدأت ؟ بلى . لقد أصبحت منذ الغد تصغى الى مبتسمة رغم حيرتها وارتباكها . ان ما كنت ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت ، طوال تلك الأيام الخمسة ، انما هو الحيرة والارتباك خاصة ، أو هو الخجل والحياء . وكانت خائفة أيضاً ، كانت خائفة خوفاً كبيراً . لا أنكر هذا . لست مجنوناً فأزعم النقيض . كان ذلك خوفاً . ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف ؟ كنا قد عشنا غريبين أحدنا عن الآخر ، بعيدين أحدنا عن الآخر ، مدة طويلة ، وحدث كل ما حدث مباغتاً أشد المباغتة ... ولكنني لم أكترث بمخاوفها : ان فجراً جديداً يطلع ! والحق أنني ارتكبت خطأً فاحشاً . ذلك حق لا يمكن أن أمارى فيه . لقد ارتكبت خطأً منذ استيقظنا في الغد ، ذلك الصباح نفسه (يوم الثلاثاء) : أسرعت أعاملها كما تعامل صديقة . تعجلت . أسرفت في التعجل . ولكن كان لابد لي من أن أعترف لها ، كان لا غنى لي عن هذا الاعتراف . لا أقل من الاعتراف ! وهكذا بحت لها بما أخفيته حتى عن نفسي ، بما أخفيته عن نفسي طول حياتي . قلت لها فجأة انني خلال هذا الشتاء كله كنت واثقاً بحبها ؟ وكشفت لها عن

أن مكتب الاقراض هذا ليس لوجوده من سبب الا ضعف ارادتي وقلة ذكائي ، وانه اسلوب ابتكرته لمعاقبة نفسي والمباهاة بها في الوقت نفسه . وذكرت لها أن ما وُصفتُ به من جبن لم يكن تجنيا عليَّ بل كان حقاً ، اذ لقد جبنت فعلاً في بوفيه المسرح ، لأنني رجل خائر العزيمة سيء الظن شديد المحاذرة ؛ وكان الجو الذي يحيط بي ، والبوفيه ، وكل ذلك ، قد ملأني دهشة . ثم هذا الأمر أيضاً : كيف كان يمكن أن أخرج من هذه الورطة دون أن أبدو للناس سخيفاً مضحكاً ؟ ان خوفي لم يكن من المبارزة ، بل من أن أظهر للملأ سخيفاً مضحكاً . ثم انني لم أشأ أن أوافق على المبارزة ، فأخذت أعذب جميع الناس ، فعذبتها هي أيضاً بسبب ذلك ، وتزوجتها بعدئذ من أجل أن أعذّبها . الخلاصة أن أكثر كلامي لها كان كالهذيان . فأمسكت يدي ، وضرعت اليَّ أن أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك » . وطفقت تبكي من جديد ، وأوشكت أن تعتريها نوبة عصبية أخرى ! وكانت لا تنفك ترجوني أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات .

ولكنني أغضيت عن ضراعاتها ولم أحفل بها ، وظللت أحدثها عن الربيع وبولوني قائلاً : هناك ستشرق الشمس ... هناك ستتلألأ شمسنا الجديدة . وكنت لا أقول لها شيئاً غير هذا ! وأغلقت المكتب ، وعهدت بالعمل الى دوبرنرافوف . واقترحت عليها فجأة أن نوزّع كل شيء على الفقراء ، الا الثلاثة آلاف روبل التي ورثتها من عرّابتي ، فبهذا المبلغ نسافر الى بولوني ، ثم نرجع من بولوني لنبدأ حياة عمل جديدة . على هذا اتفقنا ، لأنها لم تعترض بشيء ، لم تقل شيئاً ، واكتفت بالتبسم . وأظن أنها كانت تتبسم كياسةً ولباقةً حتى لا تؤلمني . وكنت أرى رؤية واضحة أنني أتعبها . لا تظنوا أنني بلغت من الأنانية والحماقة حداً يجعلني لا ألاحظ ذلك . لقد رأيت هذا كله ، رأيته بأدق التفاصيل . كنت

أرى وأعلم أكثر من أى انسان فى العالم • وكان يأسى كله ماثلاً أمامى تحت بصرى •

طفقت لا أحدثها الا عنها وعنى • وعن لوكيريا • قلت لها اننى بكيت • وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه • حرصت على أن لا أثير ذكرى بعض الأمور • حتى ان هيئتها قد انتعشت مرةً أو مرتين • أذكر هذا ، أذكر هذا ! ما بالكم تزعمون أننى كنت أنظر فلا أرى شيئاً ؟ ولو أن « ذلك » على الأقل لم يحدث ، لكان هذا انبعاثاً • ألم تقصص علىّ فى غداة الغد ، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته أثناء هذا الشتاء ، ألم تقصص علىّ ، وهى تضحك لهذه الذكرى ، مشهد « جيل بلاس » مع رئيس أساقفة غرناطة ؟ وما كان أروع ضحكها ! كان كضحك طفلة صغيرة ، ذكرنى بضحكها أيامَ الخطوبة (مدة لحظة ، لحظة واحدة) • آه ما كان أسعدنى ! ومع ذلك لم تدهشنى قصتها عن رئيس الأساقفة • وقلت لنفسى : معنى هذا أنها استطاعت فى خلال هذا الشتاء أن تسترد كثيراً من هدوء البال والطمأنينة والسعادة ، حتى أخذت تتسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب • معنى ذلك أنها أخذت تألف الوضع وتتلاءم مع الظرف ، وأنها أخذت تؤمن حتماً بأننى سوف أتركها « على تلك الحال » • لقد قالت لى فى يوم الثلاثاء ذاك : « كنت أظن أنك ستتركنى علىٰ هذه الحال » • تلك فكرة تراود خاطر صبية صغيرة فى العاشرة من العمر ! كانت تعتقد فعلاً — كانت تعتقد بذلك — بأن كل شىء سيبقى على تلك الحال ••• أجلس أنا الى مائدتى ، وتجلس هى الى مائدتها ، ونبقى على هذه الحال الى سن الستين • ثم هأنذا أتدخل تدخل زوج • والزوج يطلب أن تحبه زوجته • فذلكم كان سوء فهمى • وتلكم كانت عماوتى ! •••

وكان خطأ آخر هو أننى كنت أتأملها فى حماسة • كان ينبغى لى أن أكبح زمام نفسى ، لأن حماستى أخافتها • ولكن ألم أكبح زمام نفسى

حين كنت أمتنع عن لثم قدميهـا ؟ وما من مرة هممت ... هيًّا ... قلها ... نعم ... ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج . حتى ان ذلك لم يخطـرلى على بال ؛ وكانت شـفتاى لا تتحركان الا بالضراعة والرجاء .

على أننى ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتاً تاماً فما أنطق بكلمة ! لذلك رأيتنى أعترف لها فجأة بكل المسرة التى أجنيها من حديثها ، وأعبر عن مدى ما أكنه من احترام لها وأصفها بأنها تفوقنى أدباً وثقافة فلا وجه للمقارنة بينى وبينها فى مضمار الأدب والثقافة . فاصطبغ وجهها بحمرة شديدة ، وخجلت خجلاً قوياً ، وقالت انى أبالغ . وفقدت عندئذ سيطرتى على نفسى ، فاذا أنا أرتكب حماقة كبرى ، فأصف لها ما شعرت به من سورات الحماسة حين كنت واقفاً وراء الباب أتنصّت على الهجوم الذى شنّه طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك ، وأصف لها ما ذقته من لذة عاطفية حين كنت أسمع عباراتها اللاذعة ، وأشهد براءتها الساذجة . فاذا هى يسرى فى جسـمها كله ما يشبه أن يكون رعدة ، واذا هى تهم أن تقول اننى أبالغ ، ولكن وجهها لم يلبث أن اكفهر واربد ، ثم أسرعت تدفن رأسها فى يديها وتنفجر باكية ... فلم أستطع عندئذ أن أكبح جماح نفسى ، فاذا أنا أركع من جديد ، وأهوى على قدميها ألثمهما ، واذا بهذا كله ينتهى بنوبة عصبية أخرى تعتريها كما اعترتها نوبة عصبية فى المرة الأولى . حدث ذلك فى العشية ، حتى اذا طلع الصباح ...

الصباح ؟ يا لى من مجنون ! ... ان ذلك الصباح هو هذا اليوم ، هو اليوم الذى نحن فيه ، هو منذ برهة ، منذ برهة ...

اصغوا الىّ ، وتابعوا ما أقوله . منذ مدة وجيزة ، حين افترقنا عقب تناول الشـاى (حدث هذا بعد النوبة العصبية التى اعترتهـا أمس) ، أدهشنى ما رأيته فيها من هدوء . تلكم كانت حالنا . وكنت من جهتى قد قضيت الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس . ولكنها

اقتربت مني على حين فجـأة ، وضمّت ذراعيها احـداهما الى الأخـرى ابتهالاً (منذ قليل ، منذ قليل !) وأخذت تقول لى انها مجـرمة وانهـا لا تجهل ذلك ، وان جريمتها قد عذّبتها طوال الشـتاء ولا تزال تعذبها الى الآن ... وانها تقدر شهامتى ومروءتى قدراً عظيماً ... وأضافت تقول : « لسوف أكون خليلتك الوفيـة ، ولسوف أقدسك تقديسـاً » . فما ان سـمعت هـذا الكلام حتى انتفضت ، وهجمت أعانقهـا بذراعيَّ كالمجنون ! وقبّلتها ، قبّلت وجهها وشفتيها ، تقبيلَ زوجٍ زوجتـه ، لأول مرة منذ انفصالنا الطويل .

لماذا خرجت بعد قليل لأغيب عن البيت سـاعتين ؟ خرجت لأنجز اجراءات جوازيْ سـفرنا الى الخارج . آه ... يا رب ! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق لا أكثر ... اذن لكان يمكن ألا يحدث ما حـدث ! ولكن هأنذا أرجع الى البيت ، فأرى أمام بابنـا حشداً كبيراً من الناس ، وأرى الأبصار كلها تشخص اليّ ... آه ... رباه !

وتقول لى لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تنصرف بحـــال مـن الأحوال . انهـا تعرف كل شيء . بقيت عندنا الشتاء كله ، فسوف تقص عليّ ما تعرف) ، تقول لى لوكيريا انها ، بعد خروجى من البيت بعشرين دقيقة فى أكثر تقدير ، دخلت على مولاتها فى غرفتنا فجأة لتسألها عن أمر من الأمور ، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تلك نفسها) لم تكن فى مكانها ، وأن مولاتهـا كانت قد وضعت الأيقونة أمامهـا على المائدة ، وأن مولاتها كان يبـدو عليها أنها صلت للأيقونة فى تلك اللحظة نفسها . قالت لى لوكيريا : سألتها : « ما بك يا سيدتى ؟ » ، فأجابتنى : « لا شيء يا لوكيريا ، اذهبى لشـــأنك ، بل انتظـرى يا لوكيريا » . وتقدمت منى وقبّلتنى . سألتها : « هل أنت سـعيدة يا سـيدتى ؟ » فاجابتنى : « نعم يا لوكيريا » . قلت : « كان ينبغي لمولاى أن يطلب منك العفو منذ مدة طويلة ... الحمد لله على أنكما تصالحتما » . قالت : « طيب يا لوكيريا ،

اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا » • وابتسمت مرة أخرى ، ولكن ابتسامتها كانت غريبة • كانت من الغرابة بحيث ان لوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لترى ماذا كانت تفعل • « كانت مكبةً على الحائط بقرب النافذة ، قد أسندت اليه احدى ذراعيها وأسندت الى الذراع رأسها • وبقيت على هذه الحال مستغرقة في أفكارها ، حتى لقد بلغت من شدة الاستغراق أنها لم تلاحظ أنني لبثت في الغرفة أنظر اليها • ورأيت في وجهها ما يشبه الابتسام ، ورأيتها تفكر ثم تبتسم • نظرت اليها ملياً ، ثم استدرت في رفق وهدوء ، وخرجت واجمة مفكرة ، فاذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأة • فرجعت لأقول لها : « الهواء بارد يا سيدتي ، فحذار أن يصيبك برد » ، لكنني رأيتها ترتقي حافة النافذة المفتوحة ، وتقف عليها منتصبة القامة ، مديرةً ظهرها الىّ ، محتضنةً الأيقونة بيديها • فهبط قلبي فزعاً وصرخت : « سيدتي ! سيدتي ! » ، فسمعت صوتي ، وتحركت لتلتفت نحوي ، ولكنها لم تلتفت ، بل ترجحت ، وشدت الأيقونة الى قلبها ، ملقيةً بنفسها من النافذة ! » •

أذكر أنني حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حاراً • وأهول ما في الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون الىّ • سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات ، ثم صمت المحتشدون كافةً وتنحوا عن طريقي ليفسحوا لي ممراً • كانت راقدة هناك ، قابضةً على الأيقونة • أذكر ، كما يذكر المرء رؤية في ظلمات ، أنني تقدمت صامتاً ، وتأملتها ملياً • كان الجمهور قد ابتعد ، وكان يُقال لي شيء ما • وكانت لوكيريا هناك ، لكنني لم أبصرها • يقال لي انها كلمتني • انني لا أتذكر الا ذلك البائع الذي كان لا ينفك يصيح قائلاً لي : « خرج من فمها خيط نحيل

من دم ، خيط ، خيط من دم ! » ، وكان يشــير لى الى الدم هنــاك على الحجر • وقد لمست الدم فطليت به أصــبعى (أذكر هذا) ، بينما كان البائع لا يزال يصيح « خيط نحيل من دم ! » • فما كان منى الا أن زأرت زئيراً شديداً فى أغلب الظن ، وشهرت قبضتى يدى ، وهويت عليه •••

آه ••• يا للحادث القاسى ، الأليم ! سوء فهم ! غلطة ! شىء لا يُعقل حدوثه ! شىء مستحيل !

٤

بسبب خمس دقائق من التأخر

أأكون واهماً ؟ هل هذا كله يُعقل حدوثه ؟ هل يمكن أن يقول أحد ان مثل هذا الأمر ممكن ؟ لماذا ماتت هذه المرأة ؟

صدقوا اننى أفهم الأمر • ولكن سبب موتها ••• يظل سؤالاً قائماً • لقد خافت من حبى • تساءلت جادةً : « أيجب أن أقبله أم لا ؟ » • فلما لم تطق احتمال هذا السؤال ، آثرت أن تموت • أنا أعرف ذلك ، أعرفه ، فلا حاجة الى أن أصدّع رأسى • لقد تورطتْ فى وعود مسرفة ، وخشيت ألا تستطيع الوفاء بها ••• الأمر واضح • تضافرت ظروف رهيبة • هذا كل شىء •

ذلك أننى أتساءل حقاً لماذا ماتت ؟ لا يملك المرء الا أن يعود الى هذا السؤال • والسؤال قائم تحت جمجمتها ينبض ويخفق • لقد كان يمكننى أن أدعها على « تلك الحال » ، ما دامت هذه هى رغبتها • ولكنها لم تصدقنى • وتلك هى حقيقة الأمر كله • لا ، لا ، اننى أكذب : ما هذه هى حقيقة الأمر • بل حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها فى المستقبل أن تحبنى حباً صادقاً ، حباً كاملاً تاماً ، لا كالحب الذى كانت ستهبه للبقال • ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترتضى هذا النوع من العاطفة التى تلائم بقالاً ، قد رفضت أن تغشنى وتخدعنى • لم تشأ أن تغشنى وتخدعنى بأن تهب لى نصف حب أو ربع حب فى حلة حب

كامل • كانت شريفة مسرفة في الشرف ، وكانت مستقيمة مغالية في الاستقامة • ذلك هو الأمر كله ! ألا ما كان أغباني حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر ، هل تتذكرون ؟ فكرة غريبة عجيبة !

وهناك نقطة يهمني كثيراً أن تتضح لي : تُرى هل كانت تعتبرني ؟ لا أدري أكانت تحتقرني أم لا • ولكنني لا أعتقد مع ذلك أنها كانت تحتقرني • شيء غريب ! لماذا لم يخطر على بالي في يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحتقرني ؟ لقد بقيتُ الى آخر لحظة ، الى اللحظة التي نظرت اليّ فيها « بدهشة قاسية » ، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك • وحينذاك انما أدركت فجأةً أنها تحتقرني • فهمت ذلك مرةً الى الأبد • آه ! أي ضير ، أي ضير في أن تظل تحتقرني طوال حياتها شريطة أن تبقى حية ، أن تبقى حية ؟ انني لا أفهم أن تكون قد ألقت نفسها من النافذة ! منذ قليل كانت تمشي ، وكانت تتكلم ! وكيف كان يمكنني أن يخطر ببالي ما عقدت نيتها عليه ، ولو قبل خمس دقائق ؟ لقد ناديت لوكيريا • لن أدع لوكيريا ترحل ، لا ، لن أدعها ترحل بحال من الأحوال •

أواه ! كان لا يزال في امكاننا أن نتفاهم • صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيراً تعود أحدنا على الآخر وألفته له ، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة ؟ ان نفسي نبيلة سامية ـ وكذلك نفسها ـ فكان يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الاتصال والالتقاء ! لو تبادلنا بضع كلمات أخرى ، لو تريثت يومين آخرين ، يومين لا أكثر ، لكان يمكن أن تفهم كلّ شيء••

أنكى ما في الأمر أن هذا كله ثمرة المصادفة ، ثمرة مصادفة عمياء ، قاسية ، وحشية ، غادرة • ياله من ظلم وجور ! خمس دقائق ، لا أكثر من ذلك ، خمس دقائق من تأخر ! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق ، لانقضت اللحظة المشئومة كما ينقضي حلم ، ولما خطر الأمر ببالها بعد ذلك في يوم من الأيام • كانت ستفهم في النهاية • وبدلاً من ذلك ، هاهي

ذي الغرف تقفر من جديد ، وهأنذا أبقى وحيداً مرة ثانية ؟ هل تسمعون دقات الساعة ؟ ان الساعة لا يهمها الأمر انها لا تأسف لشيء ولا تتحسر على شيء . آه ... ألا يـكون للانسـان أحـد في هذا العالم ... يا له من حزن !

انني أسير ذاهباً آيباً ، ولا أزيد على أن أذهب وأؤوب . أعلم ما يدور في أذهانكم ، أعلمه ، فلا حاجـة بكم الى أن تقولوه : انه يبدو لكم أمراً سخيفاً مضحكاً أن تروني آسفا لمصادفة هذه الدقائق الخمس ؟ ولكن أسفي شيء يدركه الانسان بداهةً . تذكروا أنها لم تترك حتى ورقةً تعلن فيها أنه لا ينبغي اتهام أحـد بأنه سبب موتها ، كما يفعل ذلك جميع من ينتحرون . ألم يكن في وسعها أن تقدّر أن من الممكن اقلاق لوكيريا وازعاجها ، كأن يقال لها : « كنت وحيدةً معها ، فلابد أنك أنت التي دفعتها » . على كل حال ، كان يمكن اعتقال بريئة لولا أن كان في فناء المنزل أربعة أشـخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت واقفة على النافذة محتضنةً الأيقونة ، وكيف ألقت نفسها بنفسها الى تحت . وانها لمصـادفة على كل حال أن كان في الفناء أشخاص رأوها . لا ، لا ، ان ذلك كله هو ثمرة لحظة ، ثمرة لحظة من عدم الشعور بالمسئولية . نزوة مباغتة ! لماذا كانت تصلّي أمام الأيقونة ؟ ليس معنى هذا أنها كانت تنوي الموت . لعل المدة التي قضـتها مكبـةً على الحائط ، مسـندةً رأسها الى يديها ، مبتسمة ، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقـة ، فاذا هي تتخذ قرارها . انها فكرة برقت في رأسها ، فاعتراها دوار ، ولم تستطع أن تقاوم نداء الانتحار .

هو سوء فهم لا أكثر . كان لا يزال في وسعها أن تعيش معي . ولكن ماذا اذا كانت مصابة بفقر الدم ؟ ماذا اذا كان مردُّ الأمر الى الأنيميا وحدها ، الى نضوب قوة الحياة ليس غير ؟ يكون الشتاء قد أتعبها وأضناها ، فاذا هي ...

لقد تأخرتُ !!!

ما أشد ما يبدو جسمها ناحلا في التابوت ! ما أشد ما يبدو أنفها رفيقاً ! وان أهدابها تبدو أشبه بسهام . حين سقطت على الأرض لم تصب بجرح ولا كسر ! لم يظهر الا ذلك « الخيط النحيل من الدم » . ان الدم الذى نزف منها يملأ ملعقة قهوة فى أكثر تقدير . كانت الاصابة داخليه . فكرة غريبة تخطر ببالى : لو أمكن ألا تدفن ؟ ذلك أنها اذا أخذت منى .. فسوف .. لا ، لا .. انه يستحيل تقريباً أن تؤخذ منى . آه .. اننى أعلم حق العلم مع ذلك أنها لابد أن تؤخذ . ما أنا بمجنون ، ولست أهذى . بالعكس : ما كان فكرى فى يوم من الأيام صاحياً كصحوه الآن . ولكن ما معنى أن البيت عاد مقفراً ليس فيه أحد ، ما معنى أنه لم يبق الا غرفتان ، وأننى قد عدت وحيداً مع الأشياء المرهونة ؟ كابوس ! كابوس ! هذا هو الكابوس !

ما قيمة قوانينكم عندى بعد الآن ؟ بل فى أى شىء تنفعنى عاداتكم وتقاليدكم وآدابكم وأخلاقكم وحياتكم ودولتكم ودينكم ؟ ما قيمة أن تحكم علىَّ محاكمكم ؟ ألا فلأجرَّ للمثول أمام القضاة ، ولأستجوب ، فأقول اننى لا أقر شيئاً من ذلك كله . ولسوف يزأر القاضى عندئذ قائلاً لى : « اسكت ، أيها الضابط » ، فأصرخ أنا قائلاً له : « من أين لك هذه السلطة التى تجبرنى على طاعتك ؟ لماذا قتلت مصادفة عمياء أعزَّ انسان على قلبى ؟ ما فائدة قوانينكم كلها . اننى أنسحب » . نعم ، لا يهمنى . سأعتزل .

عماوة ! عماوة ! انها ميتة . انها لا تسمع ! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك ؟ كانت الجنة فى قلبى ، وكان يمكن أن أنقلها اليك فتحف بك . ولكن كان يمكن ألا تحبينى ؟ فلتفرض هذا . كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الحال » . ولكن كنت ستحكين لى ، كما يحكى صديق لصديقه ، شئونك الصغيرة ، وكنا سنبتهج ، وكنا سنبتسم

بينما ينظر كل منا فى عينى صاحبه فرحاً مرحاً . هكذا كان يمكن أن نعيش . واذا أحببت رجلاً آخر ، ما كنت سأهتم أو أكترث . كنت ستذهبين معه ،وكنت ستبتسمين ، وكنت أنا سأحوّل بصرى الى جهة أخرى من الشارع ... آه ... ما قيمة هذا كله ، بشرط أن تفتح عينيها من جديد مرةً واحدة ! لحظة واحدة ، لحظة وحيدة ! وتنظر الىّ ، كما كانت تنظر الىّ منذ قليل واقفةً تحلف لتكوننّ لى خليلة وفية . آه ... ان فعلت أدركتُ كل شىء بنظرة واحدة !

يا للقدر ! يا للطبيعة ! ان المرء وحيد على هذه الأرض . ذلكم هو الشقاء . ان المجذوم الروسى الذى تحدثت عنه الأسطورة يهتف سائلاً : « هل هنا أحد حى ؟ » . وانى لأهتف أنا أيضاً ، أنا الذى لست مجذوماً ، فلا يجيبنى أحد . يقال ان الشمس تحيى الطبيعة . ان الشمس تطلع ، انظروا اليها ... أليست كأنها ميتة ؟ كل شىء ميت . ليس فى كل مكان الا أموات . الانسان وحيد . كل ما حوله صمت . تلكم هى الأرض ! « أيها البشر ، أحبوا بعضكم بعضاً » . من الذى نطق بهذه الكلمات ؟ من أين يأتى هذا النداء ؟ من حمل هذه الرسالة ؟

ساعة الحائط تدق بغير احساس ، دقاً رتيباً منفّراً . هى الساعة الثانية من الفجر . حذاءاها الصغيران تحت السرير . كأنهما ينتظران . أواه ! ما عسانى أصير حين يأخذونها غداً . قولوا : ما عسانى أصير !

حلم رجل مضحك

١٨٧٧

«حلم رجل مضحك» نشرت هذه القصة أول مرة فى كراسة شهر نيسان (ابريل) ١٨٧٧ من «يوميات كاتب» (الفصل الثانى)

١

حكاية عجيبة

أنا رجل مضحك . يقولون الآن انى مجنون . يكون هذا لقباً أعلى لو أننى مازلت فى نظرهم مضحكاً . لكننى لن أزعل بعد الآن . فجميع الناس لطاف فى معاملتى ، حتى حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ، بل هم ، حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ، كأنهم ألطف وأرق . لولا أننى أشعر بحزن شديد حين أتأملهم ، لسرّنى أن أشاركهم الضحك ، لا على نفسى ، بل حرصاً على أن أسرّهم . اننى أحزن حين أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة ، الحقيقة التى أعرفها أنا . ما أشق أن يكون المرء هو الوحيد الذى يعرف . ولكنهم لن يفهموا . لا ، لن يفهموا .

فى الماضى كان يؤلمنى كثيراً أن أبدو مضحكاً . وأنا لم أكن أبدو مضحكاً ، بل كنت مضحكاً . لقد كنت طول حياتى مضحكاً ، وأنا أعلم أننى وُلدت مضحكاً فى أكبر الظن . لعل سنّى كانت سبع سنين حين علمت أننى مضحك . ثم درست بعد ذلك فى المدرسة الثانوية ، وفى الجامعة ، فكنت كلما أوغلت فى الدراسة مزيداً من الايغال علمت مزيداً من العلم أننى مضحك . حتى لكأن علمى الجامعى كله لم يوجد الا ليبرهن لى ويشرح لى أننى مضحك كلما ازددت تعمقاً له ، وتوغلاً فيه . وكان شأن الحياة كشأن العلم فى هذا . فكنت ، سنةً بعد سنة ، أزداد يقيناً بأننى أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحى . لقد ضحك منى

واستهزأ بي جميع الناس في كل مكان وكل زمان . ولكن ما من أحد منهم خطر بباله أنه اذا وجد في هذا العالم انسان يعرف أكثر من سائر الناس أنني مضحك ، فهذا الانسان هو أنا . لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال . والذنب في هذا ذنبي ، لأن خيلائي منعتني دائماً من الاعتراف بسرِّي . وكانت هذه الخيلاء تزداد مع تقدمي في السن ، فلو اتفق ان انسقت في يوم من الأيام فاعترفت لأحد من الناس ايا كان ، انني رجل مضحك لهشمت رأسي بطلقة من مسدس في مساء ذلك اليوم نفسه . لطالما تعذبت أثناء المراهقة حين كنت أتصور أنني لن أستطيع أن أقاوم ، وانني سأنساق مرةً على حين فجأة ، فأعترف بالأمر لرفاقي . ولكنني حين صرت شاباً هدأ بالي واطمأنت نفسي لسبب أو لآخر ، رغم أني كنت أزداد اقتناعاً بشذوذي الرهيب سنةً بعد سنة ، وما ذلك الا لأنني مازلت الى هذا اليوم أجهل لماذا وكيف ! لعل مردَّ ذلك الى تلك الكآبة الواسعة التي استولت على نفسي في أعقاب ظرف يفوقني كثيراً ، ألا وهو اقتناعي ، الذي أصبح راسخاً مستقراً ، بأن كل شيء في هذه الحياة الدنيا « ليس له شأن » . كنت أشتبه في ذلك منذ مدة طويلة جداً ، ولكنني اقتنعت به اقتناعاً كاملاً ، وأيقنت منه يقيناً تاماً على حين فجأة . أحسست بغتةً أنني لن يهمني ألا يوجد العالم أو ألا يوجد شيء في أي مكان ، فلو حدث هذا لما اكترثت له ولا حفلت به . وأخذت أدرك وأحس أن لا شيء في نظري موجود في حقيقة الأمر . كان قد لاح لي دائماً حتى ذلك الحين أن أشياء كثيرة قد وجدت قبلي . فأدركت في تلك اللحظة أن لا شيء كان له وجود من قبل ، أو قل انه لم يكن ثمة الا مظاهر . واقتنعت شيئاً فشيئاً بأنه لن يوجد شيء أبداً . فأصبحت عندئذ لا أغتاظ من الناس ولا أحنق عليهم ، وصرت آخر الأمر لا أكاد ألحظهم . وقد تجلت هذه الحالة النفسية في ظروف من الحياة هي أتفه الظروف : فكان يتفق لي مثلاً وأنا سائر في الشارع أن أصطدم بالناس ؛ ليس معنى هذا أنني أكون مستغرقاً في فكرة

من الأفكار ، فقد أصبحت في ذلك الحين لا أفكر في الأشياء التي ينبغي أن أفكّر فيها ، لأن الأمور جميعاً قد استوت في نظري ، فلست أحفل بشيء ، وتركت حتى الاهتمام بحل المشكلات التي تعرض لفكر المرء ، ولم أحلّ منها مشكلة واحدة ، بل لا يعلم الا الله هل عرضت لفكري مشكلات أصلاً . فمن « قلة اكتراثي » ، ذهبت المشكلات أدراج الرياح .

ولكن هأنذا أعلم الحقيقة . لقد انكشفت لي هذه الحقيقة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، في اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجه الدقة ، فأصبحت ماثلة في ذاكرتي منذ ذلك الحين كلّ لحظة . حدث ذلك في ليلة مظلمة ، في ليلة كانت أحلك الليالي ظلاماً . كنت عائداً الى بيتي في نحو الساعة الحادية عشرة . أذكر ذلك . وكنت أفكّر في أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلةً أحلك ظلاماً من هذه الليلة . وكان المطر قد انهمر طوال النهار ، وكان مطراً من أشد الأمطار برداً وكآبة ، بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم ... أذكر ذلك ... ثم اذا هو ينقطع عن الانهمار فجأة ، في نحو الساعة الحادية عشرة ، واذا برطوبة شديدة ترتفع من الأرض ، رطوبة أشد وأبرد من الرطوبة التي كانت منتشرة أثناء انهمار المطر . كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشارع ، ومن كل زقاق ، حين تسرّح طرفك في بعيد فترى الحارة من أولها الى آخرها . وبدا لي فجأة أن المرء يقل احساسه بالحزن والأسى اذا انطفأت مصابيح الغاز في كل جهة من الجهات ، فالى هذا الحدّ كانت أضواء مصابيح الغاز تحزن القلب بالقائها الضوء على هذا كله . لم أكن قد تعشيت في ذلك اليوم . وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحبة رفيقين له . فكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلم ، فلابد أنني أضجرتهم . وقد تحدثوا في أمور مثيرة ثم اذا بالغضب يستولي عليهم . ولكنهم كانوا في الحقيقة غير مكترثين ـ رأيت ذلك رؤية واضحة ـ وكانوا لا يتحمسون ذلك التحمس الا شكلاً بغير

مضمون • فاذا أنا أقول لهم فجـأة : « يا سـادة ، حقيقة الأمر أنكم غير مكترثين » ، فلم يغضبوا ، ولم يزيدوا على أن ضـحكوا لسـماع هذه الكلمات • وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أي معنى من معاني اللوم ، وما قلته لهم الا لأن الأمر كان يبدو لي غير مثير للاهتمام أو الاكتراث ، وقد لاحظوا قلة اكترائي ، فاعترتهم نوبة مرح ، وطفقوا يضحكون •

حين دارت في رأسي تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا في الشارع ، رفعت عينيّ نحو السماء • كانت قبة السماء كلها تمتد مظلمةً ظلاماً رهيباً • ولـكن المرء يستطيع أن يميِّز فيها مزق السحائب تمييزاً واضـحاً ، وأن يرى في هذه السـحائب بقعاً سـوداً عميقة • وبينا كنت أنظر في هذه السحائب اذ لمحت في احدى تلك البقع نجمة صـغيرة ، فأخذت أتأملها محدقاً • ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت في نفسي فكرة • قررت أن أنتحر في تلك الليلة نفسها • كنت قد عزمت على الانتحار منذ شهرين ، فاشتريت ، رغم شدة فقري ، مسدساً رائعاً لقمته في ذلك اليوم نفسه • وانقضى شهران والمسدس لا يزال نائماً في الدرج • ولكنني بلغت من قلة الاكتراث بأي شيء أنني أصبحت أشتهي أخيراً أن تأتي الدقيقـة التي يبدو لي فيها الانتحار جديراً بالاكتراث • لماذا ؟ لا أدري • وصرت كلما سرت عائداً الى بيتي في الليل ، يخطر ببالي أن أطلق الرصاص على رأسي • وأخذت انتظر أن تجيء اللحظة الملائمة المناسبة • وها هي النجمة التي أراها في السماء توحي اليّ بفكرة : أن أنفذ الليلة ما عزمت عليه ، « حتماً » • فاذا سألتني لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة في نفسك ، لأجبتك بأنني لا أعرف ذلك معرفة تامة •

وفي تلك الأثناء ، بينا كنت أنظر في السماء ، انما أمسكت تلك البنت الصغيرة كوعي • كان الشارع مقفراً في تلك الساعة ، أو قل انه قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد • كان هناك حوذي يغفو على مقعده •

انالبنت الصغيرة هى فى نحو الثامنة من العمر • كان رأسها مغطى بمنديل ، وكانت ترتدى ثوباً رثاً ، وكان الماء يسيل عليها • ولكن بصرى وقع خاصة على حذاءيها المثقوبين اللذين يتسرب منهما الماء الى قدميها • مازلت أتذكر هذه الواقعة الى الآن • لقد خطف هذان الحذاءان انتباهى أكثر من أى شىء آخر • وأخذت البنت الصغيرة تشدنى من كوعى منادية مستنجدة • كانت لا تبكى • وكانت تنادينى متقطعة الصوت ، موعوعة بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذى كان يجعلها ترتجف ارتجافاً شديداً • كانت تبدو مذعورة من شىء ما ، وتصيح يائسة : « أمى ، أمى العزيزة ! » • التفت اليها ، ولكننى لم أقل لها كلمة واحدة ، وتابعت سيرى • ركضت ورائى ، وشدتنى من ذراعى ، بينما كان يخرج من حلقها صوت أجش أبح هو ذلك الصوت الذى تسمعه من الأطفال المذعورين واشياً بما اعتراهم من كرب ويأس • اننى أعرف هذه اللهجة • وفهمت من وعوعتها ، رغم عدم اشتمالها على كلمات ملفوظة ، أن أمها تحتضر فى مكان ما ، أو أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث لها اللحظة ، فركضت تبحث عن انسان أو شىء يغيث أمها • ولكننى لم أتبعها • وأكثر من ذلك أننى خطر ببالى فجأة أن أنهرها وأطردها • قلت لها فى أول الأمر ان عليها أن تستنجد بشرطى • ولكنها سرعان ما ضمت يديها الصغيرتين احداهما الى الأخرى ضارعة مبتهلة ، وانفجرت تبكى لاهثة ، وظلت تسير الى جانبى لا تتركنى • فلم يسعنى الا أن أشتمها قارعاً الأرض بقدمى • فلم تزد على أن تصيح قائلة : « سيدى ، سيدى ••• » ، ثم تركتنى فجأة لتقطع الشارع مسرعة كالسهم ، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل ، فلا شك أنها تركتنى لتركض اليه •

صعدت السلم حتى بلغت مسكنى الذى يقع فى الطابق الرابع • ان المسكن شقة مفروشة يقيم فيها مستأجرون مختلفون • وغرفتى فى

هذه الشقة صغيرة فقيرة ، ليس لها من نافذة الا نصف كوة • أثاثى ديوان مغطى بقماش مشمّع ، ومائدة عليها كتبى ، وكرسيان ، ومقعد قديم متقوض ، لكنه من طراز فولتير • جلست وأشعلت الشمعة واسترسلت فى التفكير • وكان فجور يملأ الغرفة المجاورة فى الجهة الأخرى من الحاجز • ان هذا الفجور قائم منذ يومين • فالشخص الذى يعيش فى تلك الغرفة كابتن محال على التقاعد جاءه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة ، وطفقوا يشربون مفرطين ، ويلعبون « الفرعون » بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب • وقد نشبت بينهم مشاجرة فى الليلة الماضية ، وعرفت أن اثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة • وكان يمكن أن تشكوهم المؤجرة ، ولكن الكابتن كان يرعبها • ولم يكن فى البيت مستأجرون آخرون ، الا سيدة هزيلة نحيلة ضامرة هى أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار ، فما ان ساقتهم المقادير الى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً • وكان الأولاد وأمهم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظلون يرتجفون ويصلون طوال الليل • حتى ان أصغر الأولاد قد اعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية • وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرش بالمارة على طول شارع نفسكى مستعطياً اياهم صدقة • وما كان لأحد أن يعهد اليه بأى عمل لو سعى هو الى الحصول على العمل • ومع ذلك فان هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة انما أجىء على ذكره) لم يثر فى نفسى أى شعور بالنفور منه والكره له ، وقد انقضى على سكناه فى هذا البيت شهر كامل • صحيح أننى منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم بينى وبينه صلة ، ولو قد جالسته لسئم صحبتى على كل حال • وانما أحب أن أذكر أننى كنت لا أكترث ولا أبالى ، مهما تكن الجلبة التى يحدثها هو وصحبه صاخبة ، ومهما يكن عددهم كبيراً • وقد تعودت ألا أرقد طوال الليل ، وكنت فى حقيقة الأمر لا أسمعهم ، حتى لقد نسيت فى النهاية وجودهم • اننى

لا أستطيع أن أغمض عينىَّ قبل بزوغ الفجر ، وذلك منذ سنة • لذلك أقضى الليل جالساً فى الكرسى أمام المائدة لا أفعل شيئاً ، (فأنا لا أقرأ الا فى النهـار) حتى اننى لا أفكر فى شىء ، وانما أدع لأفكارى أن تطـوِّف متشردةً على ما يشـاء لهـا هواها • وتذوب الشمعة الى آخرها • وقد جلست فى هذه المرة الى المائدة صامتاً ، وتناولت المسدس ، ووضعته قريباً من يدى • وتساءلت حين وضعته قريبـاً من يدى (أتذكر ذلك واضحاً) : « أهـــذا مؤكد محقق ؟ » وسرعان ما أجبت نفسى بأنه مؤكـد محقق طبعـاً ، أى بأننى سأنتحـــر لا محـالة • كنت أعلم فى تلك الليلة أننى سأقتل نفسى يقيناً ، ولكننى كنت أتسـاءل عن المدة التى يجب أن أبقاها جالساً الى مائدتى أنتظر اللحظة الأخيرة • ذلك أننى كنت لا أعرف تلك اللحظة على وجه اليقين • وما من شك عندى فى أننى كنت سأنتحر تلك الليلة لولا أن لقيت فى الشارع تلك البنت الصغيرة •

٢

رغم انني صرت لا أكترث بشيء ، فقد بقيت امــرأ حساســـاً ، ولو حساساً بالألم مثــلاً ٠ فلو ضربني أحــد لتألمت ٠ وقولوا مثل هذا عن الألم النفسي ٠ فاذا حدث لي شيء محزن جداً شعرت بحزن كالذي كنت أشــعر به من قبل ، كما أنني لمّا أفقد بعد كل اكتراثي بكل ما في الحياة ٠ فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة : لقد كان في وسعي أن أغيث تلك البنت الصغيرة طبعاً ٠ فما هو السبب في أنني لم أغثها ؟ السبب هو تلك الفكرة التي انبثقت في ذهني بينما كانت البنت تشــدني من كمي منادية مستنجدة ؟ وهنــاك سبب آخــر هو سؤال ألقى نفسه عليّ فجأةً ولم أســتطع أن أجــد له جواباً ٠ هو ســـؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه ولا طائل تحته ، ولكنه أحنقني وأثار في نفسي غيظاً شديداً ٠ ولقد جاء الغيظ من هذا التفكير المنطقي : اذا كنت قد قررت أن أبارح الحياة في هذه الليلة نفسها ، فان كل شيء في هذه الحياة يجب أن يمسي غير مثير لاكتراثي في هذه الســاعة أكثر من أي ســاعة مضت ٠ فلماذا أحسست فجأة بأنني لست غير مكترث بشيء ، وانني أرثي لحال تلك البنت الصغيرة وأشفق عليها ؟ أذكر أنني رثيت لحالها وأشفقت عليها اشــفاقاً شديداً ، حتى أنني أسيت لها أسىً لا يليق البتة بحالي ٠ اعترف لكم بأنني لا أفلح في تصوير الاحساس الذي اجتاح نفسي حينذاك ٠ ولكن ذلك الاحساس قد بقي في نفسي لايغادرها ٠ فلما جلست الى مائدتي في غرفتي كنت

فى حالة من الغيظ والحنق أشدّ من سابقتها . وأخذت الاستدلالات المنطقية تتعاقب في فكرى ويتصل بعضها ببعض ؛ فكنت أقول لنفسى : « من الواضح أننى انسان ، وأننى لست صفراً ، وما ظللت انساناً ، وما لم استحل صفراً ، فاننى أحيا ، ويمكن اذن أن أتألم وأن أغتاظ وأن أشعر بخزى من أفعالى . طيب . ولكن اذا انتحرت ، اذا انتحرت بعد ساعتين مثلاً ، ففيم يهمنى شأن تلك البنت الصغيرة ، وما فائدة ذلك الشعور بالخزى ، وسائر ما عداه ؟ سأكون قد استحلت الى صفر ، الى صفر مطلق . فهل يُعقل ألا يكون لمعرفتى بأننى بعد قليل سأبارح الحياة مبارحة « تامة » ، وأن كل شىء مثلاً لن يكون له وجود فى هذا العالم ، هل يُعقل ألا يكون لهذا أى تأثير لا فى شعورى بالشفقة على البنت الصغيرة ولا على شعورى بالخزى من الحقارة التى ارتكبتها ؟ ذلك أننى حين قرعت الأرض بقدمى ناهراً زاجراً انما أهنت البنت التعيسة . وهذه الحقارة الخالية من الشعور الانسانى قد ارتكبتها « لا لأبرهن على أننى أمسيت لا أحس بالشفقة فحسب ، بل أيضاً لأن كل شىء سينتهى بعد ساعتين » . قولوا لى بصراحة : هل تصدقون أننى لهذا السبب انما صرخت زاجراً ؟ اننى من جهتى أميل الى الاعتقاد بهذا . لقد كنت أتصور تصوراً واضحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقفان علىّ وحدى ؛ حتى ليمكن أن أقول اننى كنت أتصور فى تلك اللحظة ان العالم لم يُخلق الا لى وحدى : فيكفى أن أهشم رأسى برصاصة حتى لا يبقى للعالم وجود ، بالنسبة الىّ على الأقل . ناهيك عن أن من الممكن حقاً ألا يبقى للعالم وجود بالنسبة الى أى أحد بعدى ، وأن يزول العالم كله كزوال شبح متى زال ادراكى أنا ، لأنه ليس الا ادراكى له ، فمن الممكن أن يزول مادام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون الا أنا . أذكر اننى حين كنت جالساً الى مائدتى كنت استعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد واحدة وأرى فيها آراء جديدة ، واكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب

جديدة . من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكرى فجأةً . قلت لنفسى : « هبنى عشت فى الماضى فى القمر أو فى المريخ ، وهبنى ارتكبت هنالك عملاً من تلك الأعمال الشائنـة البشعة الى أبعـد حدود البشاعة ، هبنى ارتكبت أحقر دناءة يتمثلها الخيال ، فصرت مجللاً بخزى وعار رهيبين لا يتصور المرء مثلهما الا حين يصيبه فى نومه جاثوم ثقيل ؛ وهبنى استيقظت فجـأة فاذا أنا أجـد نفسى على الأرض لا فى القمر ، ولا أزال شاعراً بما ارتكبته من أعمال مشينة بشعة حين كنت فى الكوكب الآخر ، ولكننى موقن يقيناً قاطعاً باننى لن أعود الى ذلك الكوكب الآخر فى يوم من الأيام مهما يحـدث ، أفلا تستوى فى نظرى « جميع » الأمـور فى القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض ؟ أأشعر عندئذ بالخزى من ذكرى الجريمة التى اقترفتها ؟ أسئلة لا طائل تحتها وليست فى محلها ، لا سيما وأن المسـدس موضـوع على المائدة أمامى ، وأننى أعـرف بكل جوانحى أن « الأمر » سيتم انفاذه ؛ ولكنها أسئلة تثير فى جسمى حمَّى ، وتبعث فى نفسى أقصى الاضطـراب . فكان يستحيـل علىَّ نوعاً من الاستحالة أن أمـوت الآن ، اللهـم الا أن أهتدى قبل ذلك الى حـل للمسألة . الخلاصة أن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتنى من الانتحار . لأننى بالانتقال من سؤال الى سؤال قد تجنبت طلقة المسدس . وفى أثناء ذلك كان كل شيء فى غرفة الكابتن يسكن ويهدأ . فقد انقطعوا عن اللعب بالورق ، وتهيئوا للنوم ، فلا يسمع المرء الا بضع دمدمات من حين الى حين ، والا بعض الشتائم يتثاءب بها صوت وسنان . وحينذاك انما أخذنى النوم فجأة ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لى فى يوم من الأيام قبل الآن ، أمام المائدة فى المقعد . نمت دون أن أحس باننى نمت . والأحلام ، كما لا يجهل أحـد ذلك ، أمرُها غريب كل الغرابة : فبعضها يعرض لك بكل ما فيه من حدة رهيبة ، واضـحاً مفصلاً دقيقاً كدقة المصوغات حين تخرج من بين يدى الصائغ ؛ وفى بعضها تجتاز الفضاء ، وتخترق الزمان دون أن يخطر لك ذلك على بال . فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو

العقل بل الرغبة ، ليس هو الرأس بل القلب • ومع ذلك ما كان أبرع عقلي في الأحلام أحياناً ! حتى انه ليقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصي تفسيرها • من ذلك مثلاً أن أخي ، وقد مات منذ خمس سنين ، يظهر لي في الأحلام ، ويشاركني أعمالي ، فنعكف عليها مهتمين بهما أكبر الاهتمام مشغوفين بها أشد الشغف ، ومع ذلك لا يغيب عن بالي مرةً واحدة أثناء الحلم أن أخي ميت وأنه مدفون • فكيف لا أحس بدهشة حين أراه جالساً بجانبي يشاركني عملي ، مع علمي بأنه ميت ؟ كيف يسهل على عقلي أن يقبل هذا كله ؟ ولكن كفى ! فلأحدثكم الآن عن الحلم الذي رأيته • نعم ، في تلك الليلة انما رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) •

بعض الناس يسخرون مني الآن قائلين ان ذلك ليس الا حلماً • ولكن ألا يستوي أن يكون حلماً وألا يكون حلماً ، اذا كان هو الذي بلّغني « الحقيقة » • فما دمت قد رأيت الحقيقة الى الأبد ، فان معنى ذلك أنني رأيتها فعلاً ، فلا حقيقة سواها ، سواء أجاءتني في الحلم أم انكشفت لي في الحياة الواقعية • فليس يضيرني ألا يكون ذلك الا حلماً • ان هذه الحياة التي تضعونها في أعلى منزلة كنت أنا في تلك الليلة مستعداً لانهائها بطلقة مسدس • أما حلمي ، أما حلمي ، فقد بلّغني رسالة حياة جديدة ، رحبة ، منبعثة ، قوية •

اسمعوا •

٣

قلت اننى نمت دون أن أحس بأننى نمت ، وكأننى كنت لا أزال أفكر فى تلك الأمور نفسها . وفجأةً حلمت بأننى تناولت المسدس ، وسددته الى قلبى مع بقائى جالساً ؛ سددته الى قلبى لا الى رأسى ، وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة فى صدغى الأيسر . فبعد أن وضعت فوهة المسدس على صدرى ، انتظرت ثانية أو ثانيتين ، ثم اذا بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وتترنح جميعاً فى آن واحد ، فأسرعت أطلق الرصاصة فى قلبى .

يحدث أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك ساقطاً من مكان عال شديد العلو ، أو أن ترى أنك تُطعن أو تضرب . ولكنك لا تحس بألم أبداً ، اللهم الا أن تكون قد لكمت بيدك حديد السرير مثلاً ، فتحس عندئذ بألم فتستيقظ . وكذلك حدث لى فى هذا الحلم ؛ لم أشعر بأى ألم من اطلاق الرصاصة فى قلبى ، ولكن خيِّل الىّ اننى أحس بنوع من صدمة ، ثم زال كل شىء فجأة ، ولبثت غارقاً فى ظلمات رهيبة ؛ وكأنى قد صرت أعمى وأخرس ثم هأنذا مسجًّى تحت شىء صلب ، قد امتددت مقلوباً ، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن آتى بأيسر حركة ، والناس من حولى تسير وتصرخ ، والكابتن يُرعد ، والمؤجرة تُعول . وهؤلاء نفر يداهمون غرفتى من جديد ، وينقلوننى مكشوفا فى تابوت ، فأحس بالتابوت يترجح

تحتى ويهتز ، فأفكر فى هذه الواقعة ، ويدهشنى لأول مرة أن أتصور أننى مت ، أننى مت حقا • وصرت عالما بموتى كل العلم ، لا يساورنى فيه شك ولا ريب • اننى لا أبصر ولا أتحرك • وان كنت أحس وأفكر • على أننى سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الاحلام ، وقبلت الواقع بغير مناقشة ولا جدال •

وهاهم أولاء ينزلوننى فى الأرض ثم ينصرفون ، فأبقى وحيداً ، وحيداً كل الوحدة ؛ ولا أستطيع أن أحرّك من أعضائى عضواً • اننى قبل ذلك ، أثناء سهرى الليل ، حين كنت أطلق لخيالى العنان فأتصور كيف ستكون حالى فى القبر ، كنت لا أربط بهذا التصور على وجه الاجمال الا الاحساس بالرطوبة والبرد • لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً ، ولا سيما فى أقصى أصابع رجلىّ ، ولكننى لا أحس بشىء عدا هذا •

كنت مضجعاً • ومن غريب الأمر أننى كنت لا أنتظر شيئاً ، فأنا مسلم دون اعتراض بأن على الميت ألا يتوقع حدوث شىء • ولكن الرطوبة شديدة • لا أدرى كم انقضى من الوقت • لعل ما انقضى من الوقت ساعة ، أو لعله عدة أيام ، أو لعله أيام كثيرة • ثم اذا بقطرة كبيرة من الماء تسقط فجأة من خلال غطاء التابوت على عينى اليسرى التى كانت مغمضة ، ثم اذا بقطرة أخرى تسقط ، وهكذا دواليك ؛ فى كل دقيقة تسقط قطرة • فأحس بغيظ عميق يكوى قلبى ، ثم لا ألبث أن أشعر فجأة بألم جسمى فى قلبى • قلت لنفسى : « هذا جرحى ، هذه هى الرصاصة التى أطلقتها فى صدرى ••• انها ثاوية فى قلبى ••• » وكانت قطرات الماء لا تزال تسقط دقيقة بعد دقيقة ، وتقع على عينى المغمضة رأساً • فلم يسعنى عندئذ الا أن أنادى ، ولكن ندائى لم يكن بصوت ، لأننى جامد لا أتحرك ، وانما كان ندائى بكيانى كله ، ناديت الحكم الذى يتصرف فى كل ما كنتُ ألعوبة بيده • قلت له أياً كنت أنت ــ هذا اذا سلمنا بأنك كائن ، وبأنه يوجد أى شىء يمكن أن يُعقل وجوده سوى

ما أنا ألعوبة بيده ـ ألا فلتسمح بألا يحدث هذا هنا ! اذا كنت تريد أن تنتقم منى بسبب انتحارى الاحمق ، فتوقع فىّ هذه السخرية وهذا البقاء السخيف بعد الموت ، فان التعذيب الذى تنزله بى ، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ ، لن يساوى أبداً الاحتقار الصامت الذى سأحسه ، ولو استمر هذا التعذيب آلاف السنين ! » •

كذلك قلتُ ثم سكت • وانقضت قرابة دقيقة فى صمت عميق ، حتى ان قطرة ماء قد سقطت ، ولكننى كنت أعلم ، كنت أعلم وأوقن يقيناً قوياً راسخاً لا يتزعزع أن كل شىء لابد ان يتغير فى هذه اللحظة نفسها ولا ريب • وها هو ذا قبرى ينفتح فجأة ، أو قل لا أدرى اهو قد فتح ام هو قد ذاب ، ولكننى أعلم أن كائناً غامضاً لا اعرفه قد أمسكنى ، ثم اذا نحن كلانا نطير فى الفضاء • وُردّ الىّ بصرى على حين غرة ، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الحالك قبل ذلك ابدا ، أبداً • لم أسأل ذلك الذى كان ينقلنى • وانما انتظرت لائذاً بكبريائى منطوياً على خيلائى • كنت مقتنعاً بأننى غير خائف ، وكنت فى نشوة من حماستى لعدم خوفى • لا أذكر الآن كم طال طيراننا ، ولا أستطيع ان أتصوره : حدث ذلك كله كما يحدث دائماً فى الحلم حين يجتاز الحالم تخوم الزمان والمكان ، مخترقاً كل قوانين الوجود والعقل ، وحين لا يتلبث الا على النقاط التى يرنو اليها قلبه • أذكر أننى أبصرت فى الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة • فلم أستطع أن أمسك عن سؤال صاحبى الذى كان يطير بى : « أهذا كوكب سيريوس » ، مع اننى كنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن القاء السؤال عليه ، فأجابنى بقوله : « بل هذا هو الكوكب نفسه الذى لمحته بين السحائب حين كنت عائداً الى بيتك • » • كنت أعلم أن هذا الكائن الذى يطير بى له مظهر انسان • ومن غريب الأمر أننى لم أحبّ هذا الكائن ، حتى لقد كان يوقظ فى نفسى كرهاً عميقاً له • لقد كنت أنتظر العدم المطلق ، ومن أجل أن أصل الى العدم

المطلق انما أنفذت رصاصة فى قلبى ، فما بالى أجد نفسى بين ذراعى كائن ليس هو بالانسان حتماً ، ولكنه « موجود » قطعاً . قلت لنفسى : « فلا بد أن هناك حياة اخرة تلى القبر ! » ، قلت لنفسى ذلك مدفوعا بما فى الحلم من خفة غريبة وطيش عجيب ، ولكن هذا لا ينفى أننى احتفظت في قرارة قلبى بميزتى الأساسية ، فقلت لنفسى : « اذا كان المقصود هو أن « أوجد » من جديد ، وأن تحيينى ارادة لا مفرّ منها حياةً أخرى ، فاننى لا أريد أن أكون مغلوباً ولا أريد أن أُذلّ » . فقلت لصاحبى فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السؤال الذى يشتمل على اعتراف كامل ، حتى لقد شعرت من هذا الجبن بابرة تثقب قلبى ثقباً : « أنت تعلم أننى أخشاك وأهابك ، وهذا هو السبب فى أنك تحتقرنى . » . فلم يجب ، ولكننى أحسست على الفور أنه لا يحتقرنى ، وأنه لا يسخر منى ، وحتى أنه لا يشفق علىّ ، وأن رحلتنا تمتد الى غاية مجهولة سرية لا شأن لأحد بها غيرى ، ولا تتعلق الا بى . فازداد الرعب فى قلبى . وانتقل سكوت صاحبى الىّ ، ونفذ فىّ حضوره الصامت مؤلماً بعض الألم . كنا قد توغلنا فى ظلمات لا قرار لها ، وكانت الكواكب التى ألفتها عيناى قد غابت عنى منذ مدة طويلة . وكنت أعلم أن فى آخر السماء نجوماً لن تصل أشعتها الى الأرض الا بعد ألوف السنين وملايين السنين . فلعلنا قد قطعنا تلك الفضاوات كلها . كنت أنتظر شيئاً ما ، وكانت نفسى زاخرة بحنين أليم يطعن القلب . وانى لكذلك اذا بعاطفة أعرفها كل المعرفة ، عاطفة توقظ الماضى ايقاظاً قوياً عميقاً ، تهز كيانى كله على حين فجأة . لقد عدت أرى الشمس ! كنت أعرف أن هذه الشمس التى أراها لا يمكن أن تكون شمسنا « نحن » التى ولدت أرضنا ، وكنت أعرف أننا قد بعدنا عن شمسنا بعداً لا نهاية له ، ولكننى كنت أدرك بينى وبين نفسى أنها شمس تماثل شمسنا مماثلة مطلقة ، فهى منها بمثابة الصدى أو هى لها نظير . فغمر نفسى حنان كبير بثّ فيها الحماسة : ان قوة الضياء

الذى خلقنى قد ترجّجعت فى قلبى وأحيته ، وأحسست بعودة الحياة ، الحياة القديمة ، لأول مرة منذ أن نزلت الى القبر •

وهتفت أقول لصاحبى سائلاً :

ـ ولكن اذا كانت هذه هى الشمس ، اذا كانت هذه شمسنا نفسها ، فاين هى الأرض ؟

فأرانى صاحبى كوكباً يشبه زمردة براقة فى ظلام الليل • وكنا نتجه فى طيراننا الى ذلك الكوكب •

ـ ماذا ؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة اذن فى هذا الكون ، وهل يمكن أن يكون هذا هو قانون الطبيعة ؟ واذا كانت هذه أرضاً ، فهل يمكن أن تكون هى أرضنا نفسها ••• أو أن تكون مثلها تماماً فى الشقاء والفقر ، وفيما نضمره فى أنفسنا مع ذلك من حب لها وشغف بها الى الأبد ، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تحبّب بها أبناءها ، حتى أجحدهم وأشدّهم عقوقاً ؟

كذلك هتفت أسأل صاحبى وأنا ارتعش بحب لا يقاوم ، متحمساً لهذه الأرض التى ولدت فيها ثم هجرتها • ومرت فى خاطرى بسرعة كسرعة البرق صورة البنت الصغيرة المهانة المعذبة • قال لى صاحبى :

ـ ستعرف كل شىء •

وكان فى كلماته ما يشبه أن يكون نبرة أسى •

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنواً سريعاً ، فكان حجمها يكبر فى نظرى ؛ فلما أخذت أميّز المحيط وحواشى أوروبا ، اذا بغيرة غريبة تشتعل فى قلبى ، غيرة نبيلة مقدسة • قلت لنفسى : « كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار ؟ وما جدواه ؟ اننى أحب هذه الأرض التى غادرتها ، ولا يمكن أن أحب سواها ، هذه الأرض التى بقيتْ عليها لطخات من

دمى حين عمدت ، أنا الابن العقوق ، الى انهاء حياتي برصاصة أطلقتها في قلبي . وما كففت في يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط ، حتى في تلك الليله التي ودعتها فيها ، بل لعلني كنت أحبها عندئذ حباً أقوى استثاراً بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبي لها في أي وقت مضى . هل الالم موجود على هذه الأرض الجديدة ؟ لقد كنا هنالك في أرضنا لا نستطيع أن نحب الا بألم ، ولا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم . فنحن لا نحسن أن نحب الا هذا الحب ، ولا نعرف حباً آخر . فأنا أطلب الألم لأستطيع أن أحب . ما أقوى شهوتي وما أشد ظمئي الى أن أعانق تلك الأرض وحدها باكياً ، تلك الأرض التي أحببتها وهجرتها ، ولا أريد أن أعيش في أي أرض أخرى غيرها ، بل أرفض أن أعيش في أي أرض أخرى غيرها ! ... » .

ولكن صاحبي كان قد تركني . واذا أنا أجدني فجأة على تلك الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالي ذلك ، غارقاً في الضياء الساطع من يوم مشمس جميل كجمال الجنة . فخيل الي أنني هبطت الى واحدة من تلك الجزر الصغيرة التي يتألف منها على أرضنا أرخبيل اليونان ، أو هبطت في مكان آخر على خرائب قارة بجوار الأرخبيل . كان كل شيء في تلك الأمكنة شبيهاً بما عندنا شبهاً تاماً . ومع ذلك كان كل شيء يشع منه نوع من الحبور والجذل والرصانة والأبهة ، يقارب الروعة . وكانت مياه بحر كالزمرد تتكسر تكسراً خفيفاً على الشاطىء ، فتلاعبه ملاعبة فيها حب ظاهر واضح يشبه أن يكون واعياً . وكانت تنتصب في الفضاء أشجار باسقة فارعة الأغصان تتألق بغزارة نسغها ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة ؛ ولا شك أنها كانت تحييني بحفيفها الرفيق اللطيف ، وكأنها تتمتم لي بكلمات حب . وكان المرج يزدهي بنبت دافىء عذب لذيذ . وكانت الطيور تشق الهواء أسراباً ، وتأتي الي بلا خوف فتحط على كتفي ويدي وهي تصفق بأجنحتها الراعشة صفقاً فرحاً . وأخيراً رأيت سكان تلك

الأرض السعيدة جاءوا الىّ من تلقاء أنفسهم ، وأحاطوا بى ، وعانقونى وقبّلونى . أبنـاء الشمس ، أبنـاء شمسهم ... ألا ما كان أجملهم ! ما رأيت في يوم من الأيام مثل هذا الجمال في الانسان على أرضنا ! قد تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندنا ، فى السـنين الأولى من حياتهـم ، شيئاً يشبه أن يكون صـورة باهتـةً ضعيفة لهذا الجمال الذى رأيته فى سكان ذلك الكوكب من البشر . ان أعين هؤلاء السعداء تشع ببريق صاف وضّاء . وان وجوههم تشرق بالحكمة والوعى ، الوعى الذى بلغ كمـال هدوئه وتمام رصانته . ولكن هذه الوجوه تظل فرحة ، فان فرحاً كفرح الأطفال يرنّ فى أقوال هؤلاء البشر وفى أصواتهم ! آ ... فهمت كل شيء ، كل شيء ، من أول نظرة . هنـا كانت الأرض قبل أن تدنّسها الخطيئة الأصلية : ان سكانهـا الذين لا يعرفون الشر يعيشـون فى هذه الجنة نفسها التى تتناقل الانسانية كلها أن أجدادنا الجناة قد عاشوا فيها ، مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بعينها فى كل ركن من أركانها وكل جهة من جهاتها . ازدحم حولى هؤلاء البشر الذين يضحكون ضحكة جذلى ، وغمرونى بملاطفاتهـم ، ومضوا بى الى منازلهم ، فكانوا جميعاً يريدون أن يغدقوا علىّ الراحة اغداقاً ، وأن يسكبوها لى سكباً . ولم يلقوا علىّ أسئلة فكأنهم كانوا يعرفون كل شيء ، وكأن نفوسـهم لا تجيش فيها الا رغبـة واحـدة : هى أن يمحوا بأقصى سرعة ما كان منقوشاً على وجهى من علائم العذاب والألم .

٤

هأنتم أولاء ترون مرةً أخرى : أى ضير فى أن يكون الأمر حلماً ؟ ان حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحدث فى نفسى أثراً باقياً لا يفنى ، وانى لأحس أن حبهم لا يزال يغسل روحى بمياهه النقية من هناك الى الأبد . ذلك أننى أنا قد عرفتهم ، وأحببتهم ، وتعذبت وتألمت لهم بعد ذلك ! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أننى فى كثير من الأمور لا أفهمهم : لم أفلح مثلاً فى أن أفهم ، أنا التقدمى الروسى الحديث ، أنا البطرسبرجى العفن ، ان من الممكن أن يكونوا ، هم العالمين بكل ما يعلمون من أمور كثيرة ، جاهلين بعلمنا نحن . ولكننى لم ألبث أن أيقنت أن علمهم علم كامل ، وأنه يستند وينطبق على ادراكات تختلف عن ادراكاتنا كل الاختلاف ، وأن تطلعاتهم تختلف عن تطلعاتنا كل الاختلاف أيضاً . انهم بلا رغبة ، وهم فى هدوء نفوسهم وسكينتها ، لا يتطلعون الى معرفة الحياة كتطلعنا نحن الى معرفتها ، ما داموا قد بلغوا حالة الكمال . ولكن معرفتهم أعمق من علمنا وأسمى من علمنا ، لأن علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة ، ويجهد أن يعرف الحياة ليعلم الناس كيف يحيون . أما هم فليسوا فى حاجة الى علمٍ ليعرفوا كيف يجب عليهم أن يحيوا . ذلكم ما أدركته بدون أن أفلح فى فهم معرفتهم . لقد أرونى أشجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون اليها بحب يبلغ هذا المبلغ كله من القوة ، وكيف يكلمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم .

كانوا يكلمون الأشجار فعلاً : اعلموا اننى لا أعتقد أن الأمر مشتبه على حين أقول انهم كانوا يكلمونها • نعم ، لقد اكتشفوا لغة الأشجار • وانى لواثق أن الأشجار كانت تفهم عنهم ما يقولون • تلك كانت نظرتهم الى الطبيعة • ومع الحيوانات كانوا يعيشون فى سلام فلا يلحقون بالحيوان أى أذى ، ولا يصيبونه بأى ضر ؟ كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم ، وبالحب انما روّضوها وأنسّوها • وقد أرونى النجوم وحدثونى عنها ، فقالوا لى أشياء لم أستطع أن أفهمها ، ولكننى مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم السماء تواصل وتفاهم ، لا بالفكر والخيال ، بل بواسطة حية • نعم ، لم يفلح أولئك الناس فى أن يجعلونى أفهمهم • وكانوا يحبوننى بدون أن أفهمهم • ولكننى كنت أعلم فى مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهمونى ، ولذلك لم أكد أحدثهم عن أرضنا • كنت أكتفى فى حضورهم بأن أقبّل الأرض التى يعيشون عليها ، وكنت أنا نفسى أعشقهم عشقاً دون أن أنطق بكلمة • وقد أدركوا ذلك ، فتركوا لى أن أعشقهم ذلك العشق ، لا يشعرون من هيامى بهم واخلاصى لهم بحرج أو عار ، لأنهم كانوا هم أنفسهم يزخرون حباً • وكانوا لا يتألمون لى ، حتى حين أقبّل أقدامهم بأنهم يستجيبون لحبى بحب قوى عميق يملأ عليهم قلوبهم • وكنت أتساءل فى بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيئوا مرةً واحدة الى انسان مثلى ، ولا أن يوقظوا فى نفسى شيئاً من عواطف الغيرة والحسد مرةً واحدة أيضاً ؟ ساءلت نفسى مراراً كيف استطعت ، أنا الرجل المباهى الكذاب ، ألا أحدثهم فى يوم من الأيام عن معارف وعلوم كانت تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً ؟ كيف لم تساورنى رغبة فى ادهاشهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم ؟ كانوا فرحين يمرحون ويطربون كالأطفال ، مطوّفين فى أرجاء أحراجهم الرائعة وغاباتهم ، صادحين بأغانيهم الجميلة • وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل

غاباتهم ولبن نعاجهم الوديعة • كانوا لا يحتاجون الا الى قليل من العمل لتأمين طعامهم وكسائهم • وكانوا يتبادلون الحب ، وكان يولد لهم أولاد ، ولكنى لم أر عندهم فى يوم من الأيام سورات تلك اللذة « القاسية » التى يتصف بها جميع سكان أرضنا تقريباً ، جميعهم وكل واحد منهم ، والتى هى ينبوع جميع خطايا انسانيتنا تقريباً • كانوا يبتهجون لميلاد الأطفال ابتهاجهم بضيوف جُدُد وفدوا يشاركون فى عيد المسرات هذا • لم تنشب بينهم مشاجرات قط ، ولا رأيت فيهم الغيرة أبداً ، حتى انهم لا يعرفون معنى هذه الكلمة • كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع ، لأنهم كانوا أسرة واحدة • وكانوا لا يكادون يعرفون المرض ، رغم أنهم يموتون ، ولكن الشيخ منهم يموت موتاً هادئاً فكأنه يغفو وينام وقد أحاط به ذووه يباركونه ويبسمون له ، وهم أنفسهم يبسمون هذه البسمة المضيئة حين يُحتضرون • لم يتفق لى مرة واحدة أن رأيت لديهم عند الموت لا حزناً ولا دموعاً ؛ وانما رأيت ازدياداً فى الحب يبلغ به حدَّ الوجد ، وهو وجد هادىء رصين فيه كمال وفيه تأمل • حتى ليقدِّر المرء أنهم يظلون على صلة بموتاهم بعد رحيل هؤلاء الموتى ، وأن الموت لم يقطع ما كان بينهم وبينهم من رابطة على الأرض • انهم لم يكادوا يفهمون عنى حين سألتهم عن الحياة الأبدية • ولكن كان واضحاً أنهم – على غير شعور منهم – كانوا يبلغون من الثقة بالحياة الأبدية والاطمئنان لها أنهم لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال • ولم يكن لهم معابد ، وانما هم يحيون فى تواصل دائم مع « الكل » العظيم • ولم تكن لهم ديانة ، ولكنهم كانوا يعلمون أنهم حين يرتوون من أفراح الأرض ، ويشرفون على اجتياز حدود الطبيعة الأرضية ، فان الاتصال بين البشر – الأحياء منهم والأموات – وبين « الكل » العظيم سيكون أوسع وأرحب ، فهم ينتظرون تلك اللحظة مبتهجين ، بغير تعجل ولا حنين ، أو قل انهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ الآن بنبوءات قلوبهم ، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات •

وهم في المساء ، قبل أن يخلدوا الى النوم ، يحبون أن يستمعوا الى غناء جوقات كاملة ؛ والأغنيات التى يسمعونها تعبر عن جميع الاحساسات التى عمرت قلوبهم فى النهار الذى انقضى ، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونه . وانهم يحتفلون بالطبيعة ، بالأرض والبحر والغابات . ويحلو لكل منهم أن يؤلف لغيره أغنيات ، وأن يتغنى كل منهم بالآخر كالأطفال ؛ وأغانيهم بسيطة كل البساطة ، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثر فى القلوب . ثم انهم لا يحبون أن يلاطف بعضهم بعضاً فى أغانيهم فحسب ، بل فى جميع ظروف الحياة فيما يبدو . ان نوعاً من حماسة ولهى شاملة متبادلة تجعل كلاً منهم ممتلئاً بالآخر معجباً به محباً له . لقد عجزت تقريباً عن فهم تلك الأناشيد التى تشيع فيها الأبهة ، وتترقرق فيها معانى الانتصار . كنت أدرك ألفاظها ، ولكننى لا أستطيع أن أنفذ الى كل معناها . كان فكرى لا يستطيع أن يرقى الى هذا المعنى ان صح التعبير . ولكن قلبى كان يتشبع به شيئاً بعد شىء دون أن ينتبه الى ذلك . كنت أقول لهم فى كثير من الأحيان اننى قد سبق لى أن أحسست بهذا كله احساس تنبؤ ؛ وأن هذا الحبور وهذا الفرح قد انكشفا لى منذ أن كنت أعيش على أرضنا ، وذلك فى صورة حزن مترع بالحنين ، حزن يبلغ أحياناً حد الألم ؛ واننى قد تصورتهم جميعاً ، هم وما هم فيه من مجد ، فى أحلام قلبى وأحلام فكرى ؛ واننى كثيراً ما عجزت أثناء حياتى على أرضنا عن أن أتأمل غروب الشمس بدون أن أبكى ... وان كرهى لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبىء . لماذا لم أستطع أن أبغضهم رغم أننى لم أحبَّهم ؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم ؟ لماذا ذلك الحزن فى حبى لهم ؟ لماذا كنت لا أحبهم بدون أن أكرههم ؟ فكانوا يصغون الىَّ ، فأرى أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا الى معنى كلماتى . ولكننى كنت لا آسف لقول ما أقول ، لأننى كنت أعلم أنهم يفهمون حزنى الذى يوقظه فى نفسى فراق من فارقتهم ! لا ، لا ،

حين كانوا يرمقوننى بنظرتهم الرقيقة المفعمة حباً ، وحين كنت أحس فى صحبتهم بأن قلبى يصبح بريئاً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم ، كنت لا آسف على أننى لا أفهمهم • وكنت اذا بلغت هذا الاحساس بالامتلاء والكمال ، تتقطع أنفاسى ، وآخذ أصلى لهم فى صمت •

آه ••• لا شـــك فى أن جميع النـاس سيضحكون الآن منى ، وسيقولون انه يستحيل على المرء أن يرى فى الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التى أسجلها الآن ، وانتى أثناء نومى ما رأيت ولا أحسست الا ما كان يبعثه فى قلبى هذيانى • أما التفاصـيل فانما تخيلتها أنا تخيلاً بعد أن استيقظت • وحين كنت أعترف أن كل شيء لعله جرى على هذا النحو أيضاً ، فيالله ما كان أشدّ الضحك الذى كنت أثيره فيهم ، وما كان أشد المرح الذى كنت ألقيهم اليه ! ••• اذا صدق رأيهم ، فان الأمر لا يعدو أننى كنت متأثراً باحساسات ذلك الحلم ، وأن هذا التأثر هو الذى بقى فى قلبى الجريح الدامى ؟ أما الصور والأشكال التى رأيتها فيه فقد كانت تبلغ من اتســاق الكمال ، وقوة السحر ، وبراعة الجمال ، وصدق الحقيقة أننى حين استيقظت لم أملك القدرة على تجسيدها فى أقوالى الضعيفة الهزيلة ، فلم يسعها الا أن تمَّحى من فكرى ، فمن الجائز جداً والحالة هذه أننى اضطررت على غير شعور منى الى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك ، مشوهاً لها بطبيعة الحال ، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة فى أن أنقلها الى الآخرين بأقصى سرعة كيفما اتفق • ولكن لماذا لا أصدِّق أن ذلك كله قد وقع فعـلاً ؟ نعم ، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألقاً وفرحاً مما وصفت ، ألف مرة • واعلموا أننى سأبوح لكم الآن بسر • لعل ما رأيته لم يكن حلماً • ذلك أنه قد حـدث شيء ، شيء فيه حقيقة تبلغ من الهول والفظاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رئى فى حلم • لنسلِّم أن هذا الحلم منشؤه قلبى ، فهل كان فى امكان قلبى أن يلقى الضوء على حقيقة ما حدث لى بعد ذلك ، وهى حقيقة مريعة رهيبة • كيف كان يمكننى أن أتخيل

وحدى هذا الذى حدث ، أو أن أحلم به فى قلبى ؟ هل يُعقل أن يستطيع قلبى الذى يشبه قلب طفل ، وأن يستطيع فكرى الباطل الذى تحركه النزوة ، أن يرتفعا الى اكتشـاف الحقيقة ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم . لقد كتمت عنكم الأمر حتى الآن . ولكننى سأبوح لكم بالحقيقة كلها فى هذه اللحظة : اننى ... قد أفسدتهم جميعاً .

٥

نعم ، نعم ، انتهيت الى افســـادهم جميعاً ! كيف حـدث ذلك ؟ لا أدرى . ولكننى أحفظ ذكراه واضحة أشد الوضوح . ان حلمى الذى قطع ألوف السنين يترك فى نفسى احســاساً بشىء متصـــل غير منقطع . ولكنى أعلم أنى أنا كنت سبب الخطيئة الأصـلية . ومثـــل دودة خنزير معدية ، أو مثـل ذرة طاعون ســـارية تستطيع أن تنشر الوباء فى مملكة بأسرها ، كذلك أفسد حضورى بالعدوى أرضاً للمسرات والمباهج كانت قبلى بريئة طاهرة . تعلموا أن يكذبوا ، واستطابوا الكذب ، وعرفوا جمال الكذب . لعل ذلك كله قد بدأ « بريئاً » كل البراءة ، لعله بدأ مزاحـاً أو غنجاً لا أكثر ، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلية ، ولعله قد حدث بفعل ذرة من الذرات حقاً ، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت الى أعماق قلوبهم فبدت لهم محببة . وبعد ذلك بقليل ظهرت اللذة ، ووَلّدت اللذة الغيرة ، وبعثت الغيرة على القسوة . آه ... لا أعـلم ! لم أعد أتذكر ! ولكنى أعرف أن الدم لم يلبث أن انبجس لطخة أولى ، فدهشـــوا ، وارتاعوا ، وأخذوا ينأون بعضهم عن بعض ، وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض ، وقامت فيهم أحلاف ، ولكن أحلافهم الآن تعادى أحلافاً أخرى . وأخذت الملامات والمآخذ والتقريعات تُسمع . وعرفوا الخجل . وصار الخجل لهم فضيلة . ونشأ لديهم الشعور بالشرف ، ورفع كل حلف رايته فوق رءوس

أفراده . وأخذوا يسيئون معاملة الحيوانات . فصارت الحيوانات تهرب منهم الى أعماق الغابة ، وتناصبهم العداء . وبدأ عهد جديد يمجد في الانسان « الخصوصية » و « الفردية » و « الشخصية » ويعلّم الناس أن يفرّقوا بين ما هو لي وما هو لك . وتنوعت اللغات . وتعلموا الألم ، وأحبوا الألم ، وتاقوا الى الألم ، وقالوا ان الحقيقة لا تُكتسب الا بالألم . وظهر فيهم العلم . وغدوا أشراراً ، فأخذوا عندئذ يتكلمون عن الأخوة والانسانية ، وأدركوا تلك المعانى . وأمسوا مجرمين ، فابتدعوا عندئذ العدالة ، وفرضوا على أنفسهم قوانين كاملة تصون العدالة . ومن أجل أن يكفلوا لهذه القوانين أن تُحترم ، أوجدوا المقصلة . ولم يبق لهم مما فقدوه الا ذكرى غامضة ، حتى انهم لم يشاءوا أن يصدقوا أنهم كانوا في الماضي بريئين سعداء . وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة ، وسموا تلك السعادة حلماً ، بل غدوا لا يستطيعون أن يتمثلوها في أشكال محسوسة ، ولا أن يتصوروها بأخيلة . ومن أغرب الأمور وأعجبها ، أنهم مع ذلك ، رغم فقدانهم ايمانهم بسعادتهم القديمة ، ورغم أنهم سمّوْها حكاية مربية ، ظل توقهم الى استعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم ، وألّهوا ذلك التوق ، وشادوا معابد ، ووجّهوا الصلوات الى فكرتهم ، الى « رغبتهم » ، وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبداً ، ولكنهم لا يكفون عن عبادتها بالصلوات والدموع . ومع ذلك لو كان في الامكان أن يعودوا الى حالة البراءة والسعادة تلك التى فقدوها ، وأتيح لهم أن يستشفوها فجأة ، وسُئلوا هل يريدون حقاً أن يعودوا اليها ، فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون . وقد أجابوا عن هذا بقولهم : « نحن كذابون ، أشرار ، ظالمون . ليكن . نحن نعرف ذلك . ونحن بسبب هذا نبكي ونتألم وننزل في أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب لعلها أسوأ من أنواع التعذيب والعقاب التى سينزلها فينا الديان الرحيم الذى سيحاسبنا والذى لا نعرف حتى اسمه . ولكننا نملك العلم ، وبالعلم

سنهتدى الى الحقيقة ، فنقبلها فى هذه المرة واعين . ان المعرفة شىء يفوق العقل ، وان وعى الحياة يفوق الحياة . العلم سيهب لنا الحكمة ، والحكمة ستكشف لنا عن القوانين ، ومعرفة قوانين السعادة هى فوق السعادة . » .
ذلكم ما صاروا يقولونه . وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم يعود الى حب نفسه حباً أشد أنانية لأنهم يستحيل عليهم أن يفعلوا غير ذلك . هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول أن يذل شخصية الآخرين وأن يخفضها بجميع الوسائل . أصبحت المسألة فى نظره مسألة وجود وبقاء . وظهرت العبودية . حتى لقد وجدت عبودية متطوعة تطوعاً . فالضعفاء خضعوا للأقوياء عن طواعية ورضى ، بشرط أن يساعدهم الأقوياء فى سحق من هم أضعف منهم . وجاء الى هؤلاء الناس رجال عادلون صالحون ، فكلموهم عن صلفهم وكبريائهم ذارفين الدموع ، وعابوا عليهم أنهم فقدوا القصد والاعتدال والاتساق ، وأنهم ضيعوا الخجل والخفر والحياء . فسخر الناس منهم ، ورجموهم بالحجارة . وانسكب دم القديسين على رحبات المعابد . وظهر فى مقابل ذلك رجال آخرون تخيلوا أن يعيدوا الانسجام الى البشر ، فلا يكف الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يحب غيره ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقبة وحاجزاً ، وبذلك يشترك الأفراد جميعاً فى تأليف مجتمع يعيش فيه الناس كافةً فى وفاق . وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ . ولكن هذا لا ينفى أن المقاتلين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصى ستجبر البشر أخيراً على أن ينعقد اتفاقهم على ارساء قواعد مجتمع يسوده العقل ، وهم لذلك ــ أعنى « الحكماء » ــ يحاولون بانتظار أن تتحقق اقامة ذلك المجتمع الكامل أن يتخلصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء ولا يفهمون فكرتهم ، حتى لا يكون هؤلاء عقبةً تقف فى طريق انتصارهم . ولكن عاطفة البقاء الشخصى ضعفت بسرعة ، فقام عهد المعتزين بأنفسهم ، المزهوين بصفاتهم ، الحريصين على لذاتهم ، الذين يطلبون بوضوح كامل

أن يكون لهم كل شيء أو ألا يكون لهم أي شيء . ومن أجل أن يحصلوا على كل شيء ، وجب عليهم أن يلجئوا الى الوحشية ، فاذا لم تفلح الوحشية لجئوا الى الانتحار . ووجدت ديانات تدعو الى عبادة اللاوجود ، وتنادي بتدمير الانسان نفسه نشداناً للراحة الأبدية في أحضان العدم . وتعب هؤلاء البشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسعور ، فحملت وجوههم آثار الألم ، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جمال ، لأن الفكر لا يولد الا من الألم ، أو لأن الألم ثمن الفكر ؛ وأخذوا يمجدون الألم في أغانيهم . وصرت أتجول بينهم وأنا أعقف يديّ حسرة عليهم وأذرف العبرات حزناً لهم ، ولكن لعلني صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم قبل ذلك ، أيام كانت وجوههم خالية من الألم ، وكانوا بريئين وكانوا على ذلك الجانب كله من الجمال . وعدت أحب الأرض التي دنّسوها أكثر مما كنت أحبها أيام كانت جنة ، لا لشيء الا لأن الألم ظهر فيها ! وا أسفاه ! كنت قد أحببت العذاب والحزن دائماً ، ولكنني أحببتهما لنفسي ، لنفسي وحدها ، فكنت أبكي عليهم وأرثي لحالهم . وصرت أمدُّ اليهم ذراعيّ مكروباً يائساً ، أتهم نفسي وأدينها وألعنها وأحتقرها . قلت لهم انني أنا الذي صنعت هذا الشر كله ، أنا وحدي ، وانني أنا الذي جلبت لهم الفساد والعدوى والكذب ! وتضرعت اليهم أن يصلبوني ، وعلمتهم كيف يُصنع صليب . كنت لا أستطيع ، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسي ، ولكنني أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم . كنت أتوق الى الألم . كنت أتطلع الى أن أسكب في هذا الألم حتى آخر قطرة من دمي . ولكنهم كانوا لا يزيدون على أن يضحكوا مقهقهين ، ولم يفتهم في النهاية أن يعدوني مجنوناً مجذوباً الى عالم الغيب ، مجنوناً صوفياً . وأعلنوا لي أخيراً أنني أخذت أبدو خطراً ، وأنهم سيحبسونني في ملجأ للمجانين اذا أنا لم أسكت . فاجتاح نفسي عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبي انقبض انقباضاً شديداً وأحسست أنني أموت ... وحينذاك ، استيقظت من نومي .

كان الفجــر قد بدأ يتنفس ، ولمّا يطلع النهار بعد ، ولكن الساعة تقارب السادسة • فتحت عينيّ فوجدتني جالساً على ذلك المقعد نفســه ، وكانت شمعتي قد ذابت الى آخرها ، وكان كل شيء نائماً في غرفة جاري الكابتن • وكان الصمت مخيماً حولي رغم ندرة الصمت في بيتنا •

ان أول شيء بدر مني هو أنني وثبت من مكاني وقد اعترتني دهشة شديدة أقصى الشدة • لم يسبق أن حدث لي أمر كهذا في يوم من الأيام • ولا حدث لي (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد • وبينما أنا أهبُّ واقفــاً وأثوب الى رشــدي ، اذا بالمســدس الملقوم المهيأ لانطلاق الرصاصة منه يخطف بصري ، ولكنني سرعان ما أقصيته عني • آ ••• الحياة ! الآن الحياة ! ورفعت ذراعيّ أبتهل الى « الحقيقة » الأبدية ، بل لم أبتهل ، وانما أخــذت أبكي وقد أخــذت حميًّا شديدة ، حميًّا لا حدود لها ، ترفع وجودي كله ، وتسمو به • نعم ، يجب أن أحيا وأن أبشّر ! ونذرت نفسي فوراً لرسالة التبشير ، مدى الحياة طبعاً • سأمضي أبشـّر • أريد أبشـّر ••• بماذا ؟ « بالحقيقة » ، ما دمت قد رأيتهــا ، رأيتها بعيني رأسي ، رأيتها في كل مجدها !

ومنذ ذلك الوقت انما رحت أبشرّ ! وما أكثر ما أحب أولئك الذين يضحكون مني ! لعلني أحبهم أكثر مما أحب غيرهم • لماذا ؟ لا أدري ، ولا أستطيع أن أجد لهذا تعليلاً أو تفسيراً • ولكن ليس لهذا من شأن • المهم أنهم يدعون الآن أنني أسير في طريق خطأ ، أو يتساءلون عما سأصير اليه وقد سرت في طريق خطــأ • هذه حقيقة : لقد ضللت الطريق ، وسيزداد الأمر سوءاً • لا شك في أنني سأغلط مراراً قبل أن اكتشف كيف يجب عليّ أن أبشـّر ، أن ما هي الأقوال وما هي الأفعــال التي ينبغي أن تكون ســبيلي الى التبشــير ، لأن رسالة التبشــير ليست بالامر السهل • هذا كله أراه أنا أراه رؤية واضحة وضوح النهار منذ الآن • ولكن اسمعوا : من ذا الذي لا يضل الطريق ؟ من ذا الذي لا يسير في

طريق خطأ ؟ ومع ذلك يسير الجميع ويتجهون الى غاية واحدة بعينها ، من أحكم حكيم الى شرّ شرير . كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون الى هذه الغاية الواحدة سبلاً مختلفة . تلك حقيقة قديمة . ولكن اليكم على الأقل هذا الأمر الجديد : انني لن أستطيع أن أخدع عن نفسي كثيراً ، لأني رأيت الحقيقة . رأيت ، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسعادة دون أن يفقدوا القدرة على أن يحيوا على هذه الأرض . لا أريد ولا أستطيع أن أصدق أن الشر هو الظرف الطبيعي السوي العادي لأفراد البشر . ومع ذلك فانهم بسبب هذا الاعتقاد وحده انما يسخرون مني ويتهكمون عليّ . ولكن كيف يمكن أن لا يصدقني الناس ؟ لقد رأيت الحقيقة . رأيتها رؤية ، ولم أتخيلها تخيلاً بالفكر . رأيتها رؤية ، وغمرتني « صورتها الحية » وملأت نفسي الى الأبد . رأيتها في كمال مطلق يبلغ من التمام أنني لا أستطيع أن أصدّق أنها لن توجد لدى البشر ! فكيف أضلّ الطريق والحال هذه ؟ وقد أتوه غير مرة ، وقد أنطق بأقوال غريبة ، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة . ان الصورة الحية لما رأيته ستظل ماثلة في نفسي على الدوام ، فتعرف كيف تقوّم عوجي وتسدّد خطاي وتوجه سيري . واني امرؤ شجاع وان لي قوى نضرة ، فلأمضينّ مبشّراً ولو ألف سنة . أرأيتم ؟ لقد أردت أن أخفي عنكم في أول الأمر أنني أفسدت الجميع . وكان هذا الكتمان مني خطأ أول . ولكن « الحقيقة » همست تقول لي انني أكذب ، فصانتني من الانزلاق ووجهت مسيري . ماذا يجب أن نعمل لاقامة الجنة ؟ ـ لا أدري ، لأنني لا أستطيع أن أعبرّ عن هذا بألفاظ . انني منذ رأيت حلمي قد فقدت استعمال الكلام ، أو فقدت على الأقل استعمال الأقوال الأساسية التي لابد منها ولا غنى عنها . ولكن لن يهمني هذا . لسوف أمضي ، ولسوف أقول كل شيء بغير كلال ، لأنني قد رأيت بعيني رأسي ، وان كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيت . يقولون : « ما رآه هو حلم ، هو

كابوس ، هو هلوسة .. » . هيه .. هيه .. ليس في هذا الكلام كله نطارة . وما أكثر اعتزازهم به مع ذلك ! حلم ؟ ما الحلم ؟ حياتنا كلها ، أليست حلماً ؟ بل انني لأمضى الى أبعد من ذلك فأقول : ليس يهمني ألا تعود تلك الجنة بعد الآن أبداً ، وليس يهمني أنها لم تعد موجودة (وأنا أدرك ذلك) ، ولكنني سأمضى أبشر بالجنة رغم كل شيء . وما أبسط الأمر مع ذلك . ان من الممكن أن يعاد بناء كل شيء في يوم واحد ، في « ساعة واحدة » . وانما المهم أن يحب الانسان قرينه الانسان كما يحب نفسه . ذلك هو الشيء الأساسي الذي هو كل شيء ولا حاجة بنا الى شيء آخر سواه : فمتى وفرتموه عرفتم على الفور كيف تبنون الجنة . على أن هذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها الناس وكرروها مليارات المرات ! ولكن اسمعوا : انها لم تغرس جذورها في النفوس ، انها لم ترسخ في القلوب . لا يزال الناس يتصورون أن « وعى الحياة أعلى من الحياة . وأن معرفة قوانين السعادة أعلى من السعادة » . وهذا بعينه ما يجب أن نكافحه . ولسوف أكافح . يكفى أن يريد كل الناس حتى يتم بناء كل شيء .

أما تلك البنت الصغيرة ، فقد وجدتها . وسأمضى الى أمام . سأمضى .

خطاب عن بوشكين

١٨٨٠

نشر هذا «الخطاب عن بوشكين» اول مرة فى كراسة شهر آب (اغسطس) ١٨٨٠ «من يوميات كاتب» (الفصل الثانى)

خطاب القي في ٨ حزيران ـ يونية
أمام « جمعية اصدقاء الأدب الروسي »

بوشكين ظاهرة من الظاهرات الخارقة ، ولعل النفس الروسية قد تجلت به تجلياً فريداً . كذلك قال جوجول (١) . واني لأضيف الى قوله أن بوشكين كان كذلك ظاهرة نبوة . نعم ، ان ظهوره يكشف لنا نحن الروس عن شيء لا شك أن فيه نبوة . لقد ظهر بوشكين حين أخذنا نعي أنفسنا حقا ، وحين ساهم هذا الوعي الذي كان في مجتمعنا لايزال بذرة بعد الاصلاح الذي قام به بطرس الأكبر ، حين أسهم بظهوره في انارة طريقنا المظلمة ، وفي توجيه سيرنا . بهذا المعنى يكون بوشكين عرافاً ومرشداً . انني أقسم حياة بوشكين الأدبية الى ثلاث مراحل . وليس ناقداً أدبياً من يتحدث في هذه الساعة : انني في نظرتي الى أدب بوشكين الآن لا أريد الا أن أشرح فكرتي عن معنى النبوة الذي لبوشكين عندنا وعمّا أقصده بكلمة النبوة . ومع ذلك أحب أن ألفت الانتباه ، عابراً ، الى أن مراحل الانتاج عند بوشكين لا يبدو أن بينها حدوداً تفصل بعضها عن بعض فصلاً تاماً . ان بداية « أونيجين » مثلاً تنتمي في رأيي الى المرحلة الأولى ، ولكن « أونيجين » تنتهي في المرحلة الثانية ، بينما كان بوشكين قد اهتدى الى اكتشاف مثله الأعلى على تراب الوطن ، وتشبّع

(١) هذه كلمات جو جول نفسها . في مقالته «بضع كلمات عن بوسكين» التي نشرت سنة ١٨٣٥ (في زخارف عربية) وكان الشاعر الكبير لايزال حياً . وفي مقالة أخرى عنوانها «ماجوهر الشعر الروسي» أشار جوجول الى «الترجيع الخلاق» الذي أثارته في نفس بوشكين قراءة شعراء مختلف الامم ومختلف العصور ؛ وهذه فكرة سيعود اليها دوستويفسكي في هذا المقال ويتحدث عنها .

بهذا المثل الأعلى مجدداً اياه تجديداً كاملاً بكل ما تملكه نفسه المحبة البصيرة من قوة . وقد اصطلح الناس أيضاً على أن يقولوا ان بوشكين فى المرحلة الأولى من مراحل ابداعه قلّد الشعراء الأوربيين من أمثال باني ، وآندره شينييه وغيرهما ، ولا سيما بايرون . نعم ، لا شك أن شعراء أوروبا قد أثروا تأثيراً كبيراً فى تفتح عبقريته ، وقد احتفظوا بهذا التأثير فيه الى الأبد . ولكن ذلك لا ينفي أن القصائد الأولى التى نظمها بوشكين لم تكن تقليداً فحسب ، بل كانت تكشف منذ ذلك الحين عن تمتع عبقريته بأكبر الاستقلال . انكم لن تقعوا يوما ، فى أى تقليد أو محاكاة ، على ما تجدونه من أصالة الألم وعمق الوعى فى قصيدة « الغجر » مثلاً ، وهى قصيدة أنسبها الى المرحلة الاولى من مراحل انتاجه ، ناهيكم عن ذلك التدفق العارم فى الابداع ، وهو تدفق ما كان ليتجلى على هذا النحو لو كان الشاعر لا يزيد على أن يقلّد . ان نموذج آليكو ، بطل قصيدة « الغجر » لهو رسمة أولى لتلك الفكرة القوية ، الروسية تماماً ، التى ستتجلى بعد ذلك فى رواية « أوجين أو نيجين » متسقةً أعظم الاتساق ، منسجمة أكبر الانسجام ؛ وفى هذه الرواية نرى آليكو ذاك نفسه لا يبقى صورة شبه خيالية ، بل يصبح له وجه يمكن لمسه وفهمه فعلاً . لقد اكتشف بوشكين فى آليكو ذلك المتشرد الشقى فى بلادنا ، ذلك الجوّاب التاريخى الروسى ، الذى يشكل وجوده فى هذا المجتمع المنفصل عن الشعب ظاهرة تاريخية ذات ضرورة قصوى . اكتشف بوشكين نموذج آليكو وصوّره . ومن نافل القول أن نشير الى أنه لم يكتشفه عند لورد بايرون فحسب . ان هذا النموذج نموذج حقيقى ، وقد رآه بوشكين بدقة لا يأتيها الباطل ، ووضوح معصوم من الزلل . وهو نموذج سيظل يوجد دائماً ، وسيبقى على الأرض الروسية زمناً طويلاً . ان هؤلاء الجوّابين الذين ليس لهم نارٌ بها يستدفئون ولا مكان اليه يأوون لا يزالون حتى أيامنا هذه يجوبون ، ولا يبدو أنهم سيختفون قبل انقضاء وقت طويل .

واذا صاروا فى زماننا هذا لا يذهبون الى الغجر ملتمسين فى عاداتهم وتقاليدهم المتوحشة مثلاً عليا عامة شاملة ، ولا يذهبون اليهم ناشدين أن يرتاحوا فى أحضان الطبيعة من الحياة السخيفة المضطربة العكرة التى يعيشها الناس فى مجتمعنا الروسى المثقف ، فانهم يندفعون الآن الى الاشتراكية التى لم يكن لها وجود فى زمان آليكو ، ويأخذون على عاتقهم مهمة جديدة ، مؤمنين كما كان يؤمن آليكو بأنهم بهذه الوسيلة الوهمية سيصلون لا الى أهدافهم الخاصة وحدها ، بل الى أهداف البشر أجمعين . ذلك أن الجوّاب الروسى لا يرضى بأقل من سعادة البشر كافةً ليهدأ باله وتطمئن نفسه : انه لا يمكن أن يقبل بأقل من هذا ــ ما ظل الأمر على صعيد النظرية طبعاً . اننا فى الحالين ازاء ذلك الروسى نفسه ظهر فى فترتين مختلفتين . أعود فأقول ان هذا الرجل انما ظهر فى مجتمعنا المثقف المنفصل عن الشعب ، المنفصل عن القوى الشعبية ، فى بداية القرن الثانى الذى أعقب اصلاح بطرس الأكبر . لا شك أن عدداً كبيراً من المثقفين الروس ، سواء فى زمان بوشكين وفى زماننا ، كانوا يعملون ولا يزالون يعملون بهدوء وسكينة ، موظفين فى المحاكم وفى السكك الحديدية وفى البنوك . وان بينهم كذلك أناساً يحصلون على مالٍ بجميع الوسائل ، حتى ان بينهم من يهتمون بالعلوم ، ويقرءون محاضرات ، وذلك كله على نحو مطرد هادىء وان . وانهم ليقبضون رواتب ، ويلعبون بالورق ، دون أن تراودهم أية نزوة تحض على الهروب الى مخيمات الغجر أو الى أماكن أخرى ألصق بزماننا . وان هناك عدداً كبيراً من الناس يصطفون لأنفسهم صفة اللبراليين ويضيفون الى هذه اللبرالية « مسحة اشتراكية أوروبية » ترفع الدمامة الروسية من شأنها قليلاً . ولكن المسألة مسألة وقت لا أكثر . فليس يغيّر من حقيقة الأمر شيئاً ألا يكون فلان قد بدأ يحس القلق ، وأن يكون فلان الآخر قد اتسع وقته منذ الآن لأن يمضى الى الباب المغلق فينطح به رأسه . ان مصيراً واحداً ينتظرهما كليهما متى

حان الحين ، اذا هما لم يسيرا فى طريق السلامة ، الذى هو طريق المصالحة مع الشعب . وهبْ ان هذا المصير لن يشارك فيه جميع الناس ، فانه ليكفى أن تشارك فيه « نخبة » ، يكفى أن يظهر عُشرْ الناس استياءهم واستنكارهم حتى يقوم السواد الأعظم بفضل ذلك ، فلا يهدأ له بال ولا يعرف الى الراحة سبيلاً . صحيح أن آليكو لا يعرف بعدُ أن يعبّر لنا على وجه الدقة عن موضوع حنينه . ان ذلك كله لا يزال فيه أمراً مجرداً بعض التجريد . وهو لا يحنُّ الآن الا الى الطبيعة . انه لا يُحسن الا الشكوى من المجتمع الراقى ، والبكاء على حقيقة ضائعة ، ولا يعرف أين يجد هذه الحقيقة ولا كيف ، ولا يفلح فى الاهتداء اليها . ان فيه شيئاً عن جان جاك روسو انه لا يقول لنا ما هذه الحقيقة ، ولا أين يمكن أن تظهر ، ولا كيف يمكن أن تظهر ، ولا يحدّد لنا الزمان الذى ضاعت فيه . هو لا يذكر لنا شيئاً من ذلك . ولكن هذا لا ينفى أن ألمه صادق . ان الانسان غريب الأطوار نافد الصبر ، لا ينتظر الآن أن يأتيه الخلاص وتأتيه السلامة الا من الأحداث الخارجية . ولابد أن يكون الأمر كذلك . هو يقول : « لابد أن تكون الحقيقة موجودة فى مكان غير نفسى ، لابد أن تكون موجودة فى البلاد الأخرى ، عند الشعوب الأوروبية مثلاً ، تلك الشعوب التى لها بنيان تاريخى متين ، والتى تتصف فيها الحياة الاجتماعية والمدنية بأنها منظمة . » . انه لن يدرك أبداً أن الحقيقة قائمة فى ذاته قبل كل شىء . وأنّى له أن يدرك ذلك بينما هو كفّ على أرضه عن أن يكون عين ذاته ؟ انه منذ قرن طويل قد فقد عادة العمل . انه غير ذى ثقافة . لقد شبّ كما تشب فتاة فى مدرسة داخلية ، بين جدران عالية وأسوار سامقة ، خاضعاً لالتزامات غريبة لا حصر لعددها ، تتصل بارتباطه بهذه الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التى ينقسم اليها المجتمع المثقف فى روسيا . هو الآن زغبة منتوفة تتموج على ما تشاء لها الريح . وانه

ليحس بذلك ، وانه يتألم منه ، بل انه ليتألم منه تألماً حاداً جداً في كثير من الأحيان . وما ذا يهمه بعد ذلك ، أن يكون ، بانتمائه الى اسرة نبيلة كما 'يحتمل هذا ، مالكاً لأقنان ، وأن يكون قد انساق مع نزوة تستبد بنفس نبيـل من نبـلاء الريف ، فبيح لنفســه ذلك الانقياد لغواية أناس « خارجين عن القانون » ، ويتبع جمـاعةً من الغجـر. ويصير صاحب دب يتفـرّج عليه المتفـرّجون ؟ وطبيعي أن تستطيع المرأة ، « المرأة المتوحشة » على حد تعبير الشاعر ، أقدر من سائر الأشياء على أن تهب له الأمل في أن تشفيه من حنينه الأليم ، ولذلك نراه يرتمي على زمفيرا بايمان طائش لكنه مشبوب الهوى ، قائلاً لنفســه : « هنـا يمكن أن تكون سعادتي ، هنـا في أحضـان الطبيعة بعيداً عن المجتمع بين هؤلاء الذين ليس لهم لا مدنية ولا قوانين ! » . وماذا يحدث ؟ انه منذ أول احتكاك بعقائد هذه الطبيعة المتوحشة ، يعجز عن السيطرة على نفسه ، ويلطخ بالدم يديه . ان هذا الحالم الشقي ليس عاجزاً عن الانسجام الشامل فحسب ، بل هو عاجز حتى عن الانسجام والتوافق مع الغجر ، وهاهم أولاء يطردونه ، بلا رغبة في الانتقام ، وبلا كره أو ضغينة ، وقد امتلأت نفوسهم جلالاً وحلماً ودماثة .

اتركنا ايها الرجل الصلف
نحن متوحشون ليس لنا قوانين
نحن لانعذب ولانعاقب

ذلك كله خيال طبعاً ، ولكن هذا « الرجل الصلف » انما هو انسان مستمد من الواقع وقد أحسن الشاعر رسمه . وان بوشكين هو أول من أدركه ، وذلك ما لا ينبغي لنـا أن ننسـاه . وبحماســة عارمة وحشية سيمزق هذا الانســان نفســه ، وســيعاقب نفسه للاساءة التي ارتكبها ، أو هو ــ وذلك سيكاد يكون أسهل عليه أيضاً ، بعد أن تذكر أنه ينتمي الى واحــدة من الطبقات الأربع عشرة ــ ســيتوق طبعاً (لأن ذلك هو

ما حدث) الى قانون قاس يفرض العقاب ، وسيحرّض على اقامة هذا القانون ، ولو لمعاقبة الاساءة التى ارتكبها هو . لا ، ان هذه القصيدة العبقرية ليست تقليداً ومحاكاة ! اننا نرى فيها منذ الآن بزوغ الجواب عن ذلك السؤال ، « السؤال المحتوم » الذى يلقيه الايمان وتلقيه الحقيقة الشعبية : « أيها الانسان الصلف أذلّ نفسك أولاً وحطّم خيلاءك . أذلّ نفسك أيها الانسان الضعيف المغرور . وعلى هذه الأرض التى ولدت فيها اتعب واجهد قبل كل شىء » .

ذلكم هو الجواب الذى يطابق الحقيقة ويطابق عقل الشعب . « ليست الحقيقة فى خارجك ، بل هى فى داخلك . اهتد الى نفسك فى نفسك . أخضع نفسك لنفسك . املك نفسك بنفسك . فترى الحقيقة . ليست هذه الحقيقة فى الأشياء ، ولا هى فى خارج ذاتك ، ولا هى فى أى مكان بعيد ، وانما هى قبل كل شىء فيما تحدثه من تأثير فى نفسك . فاذا تغلبت على نفسك ، اذا انتصرت على نفسك فوجدت السلام والطمأنينة أصبحت حراً حرية لم تتخيل أنك فى يوم من الأيام أنك ستملكها . سوف تقوم بعمل عظيم ، سوف تحرر الأخرين ، وسوف ترى السعادة ، لأن حياتك ستكون ملأى ، وستفهم عندئذ شعبك وحقيقته . ليست الحقيقة فى مكان آخر ، كما لم تكن عند الغجر ، وانما أنت أنت الذى لا تستحقها ولا تكون بها جديراً ، اذا كنت شريراً ومزهواً ، واذا طالبت بما لك على الحياة من حقوق دون أن تؤدى ما للحياة عليك ، دون أن تعطى فى مقابل هذه الحقوق أىّ عطاء ، وحتى دون أن يخطر ببالك أن عليك أن تعطى شيئاً » . ان هذا الجواب عن السؤال ، ان هذا الحل للمشكلة قد أشارت اليه قصيدة بوشكين اشارة قوية . ثم جاءت قصيدة « أوجين أونيجين » فعبّرت عنه تعبيراً أوضح . وهى قصيدة ليست خيالاً كقصيدة الغجر ، وانما هى واقع محسوس ملموس تجسدّت فيها الحياة الروسية الحقيقية تجسداً فيه من القوة والكمال ما لم يشاهد مثله قبل بوشكين ، وربما بعده .

ان أونيجين يصل من بطرسبرج ، ولابد حتماً أن تكون بطرسبرج هى التى يصـــل منها ، ولاشك أن هذا لا غنى عنه للقصـــيدة : فما كان لبوشكين أن يدع لأية ســـمة من واقع يبلغ هذا المبلغ من الكثافة أن تفوته فى قص ســيرة بطله . أعود فأقول مرة أخرى انه صاحبنا آليكو نفسه ، ولا سيما حين يهتف وقد استبد به الحزن كما سنرى بعد قليل :

لماذا لم يشلنى الكساح
كما شل المحلف فى تولا ؟

ولكنه هنا ، فى مستهل القصيدة ، لا يزال مزهوا بعض الزهو ولا يزال من أبناء المجتمع الراقى . ان الحياة التى عاشها أقصر من أن يـكون وقتـه قد اتسع لأن يتخلص تخلصـاً تاماً من وهم الحيـاة . غير أنه قد بدأ يزوره ويحاصره

شيطان نبيل هو شيطان ضجر مستتر خفى

وهو فى هذا الركن المنزوى من الريف ، فى قلب وطنه ، لا يحس طبعاً أنه فى داره . انه لا يدرى ما عســاه فاعلاً هنا ، وانه ليشعر ، على كونه فى مسكنه ، أنه فى هذا المسكن نزيل ، أنه فيه ضيف . وبعد ذلك ، حين سيطوّف مكتئبـاً أســيان فى الأرض التى ولد فيهـا ، وفى الأرض الأجنبية ، هو الرجل الذى لا شـك فى أنه ذكى وأنه صـادق ، سوف يشعر ، حتى فى الخارج ، أنه غريب عن نفسه مزيداً من الغربة . هو يحب أرضه التى ولد فيها حقاً ، ولكنه لا يؤمن بها . صحيح أنه سمع فى تلك الأرض مثـلاً عليا ، لكنه لا يصدّق هذه المثل العليا . انه لا يؤمن الا بشىء واحـد : هو أن كل عمل يحـاول الشروع فيه من أجل بلاده التى ولد فيها ، مستحيل اســتحالةً مطلقة . أما الذين يؤمنـون بامكان تحقيق هذا العمل والنهوض بهذه المهمة ، والذين كان عددهم فى ذلك الزمان قليلاً كقلته فى هذا الزمان ، فهو ينظـر اليهم بسخرية حزينة . لعله لم يقتل لنسكى الا سأماً ، من يدرى ؟ لعل نوعاً من الســـأم الذى

يوّلده الحنين الى مثل أعلى شامل هو الذى جعله يقتل لنسكى . أما تاتيانا فانها لا تشبهه : انها انسانة متينة ، قوية الاستناد الى الأرض . ان لها جوهراً لا يملك أونيجين مثله ، وهى تبعاً لذلك أذكى منه . انها بنبل غرائزها وحده تحس أين هى الحقيقة ، وتدرك ما الحقيقة ـ وذلك ما سيعبر عنه ختام القصيدة . ولعل بوشكين كان يحسن احساناً أكبر لو أنه جعل عنوان قصيدته « تاتيانا » بدلاً من أن يجعله « أونيجين » ، لأنها هى بطلة القصيدة بلا مراء . نحن هنا ازاء نموذج ايجابى لا سلبى ، بل نحن هنا ازاء نموذج الجمال الايجابى بعينه ؟ ان الشاعر هنا يمجد المرأة الروسية ، ويهيئها لأن تنطق بفكرة قصيدته فى المشهد الذى يصوّر اللقاء بين أونيجين وتاتيانا . ونستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان نموذج الجمال هذا الذى يعترف به للمرأة الروسية ليس له فى أدبنا نظير يساويه ، اللهم الا أن نقول ان ليزا التى صورها تورجنيف فى روايته « عش سادة » ، ربما كانت له نظيراً . ولكن طريقة أونيجين فى النظر من أعلى جعلت أونيجين لا يتعرف تاتيانا حين رآها أول مرة فى ذلك الركن من الريف ، فبانت له صورةً مسكينة للفتاة الطاهرة البريئة التى تخجل أشد الخجل حين يراها هو أول مرة : انه لم يستطع أن يدرك لدى الفتاة المسكينة ما تشتمل عليه نفسها من كمال وتمام ، ولعلّه عدّها « نطفة روح » ان صح التعبير . ماذا ؟ نطفة ؟ هى ، نطفة ؟ هى ، بعد الرسالة التى كتبتها الى أونيجين منذ قليل؟ ألا أنه لهو الذى يمكن أن يوصف بأنه نطفة روح ، هو أونيجين ، اذا كان فى هذه القصيدة نطفة روح . هو أولاً ما كان فى وسعه أن يتعرفها بحال من الحال . أهو يعرف النفس الانسانية ؟ انه رجل يعيش فى عالم مجرد ، انه حالم قلق طول حياته . وبعد ذلك لم يتعرفها أكثر من هذا فى بطرسبرج ، رغم زعمه فى رسالته الى تاتيانا أنه اكتشف « جميع ما تتحلى به من ألوان الكمال » . ولكن هذه الكلمات ليست الا كلمات : لقد مرت تاتيانا بحياة أونيجين مروراً ،

مرت بجانبه دون أن يعرفها وأن يقدرها حق قدرها . وتلكم هي مأساة روايتهما . آ ... لو قد وصـــل من انجلترا الى تلك القرية في ذلك الأوان ، حين رآها أول مرة ، لو قد وصل رجل اسمه تشايلد هارولد ، أو وصل بايرون نفسه ، فلاحظ ما في تاتيانا من سحر خفي نفّاذ ، فدلّ أونيجين عليه ، وأشار له اليه ، اذن لخطف هذا السحر انتباهه حتماً ، ولأذهله اذهالاً ، لأن لدى شهداء « ألم المجتمع » هؤلاء عبودية روحية تبلغ مبلغاً كبيراً من الانحطاط ! ولكن هذا لم يحدث . وقد رأينا صاحبنا الباحث عن الانسجام الكلي الشامل ، بعد أن يلقي عليها موعظته وبعد أن يتصرف تصرفاً شريفاً على وجه الاجمال ، يمضي مصطحباً ألمه من المجتمع والدم الذي سفحته يداه بحماقته الشريرة ، يمضي يطوّف في البلد الذي ولد فيه ، ولكنه يطوّف في هذا البلد دون أن يرى منه شيئاً ، ويهتف قائلاً في سيل من اللعنات وهو يفيض صحة وعافية :

انا في ريعان الشباب ؛ والحياة قوية في نفسي
فماذا انتظر ؟ انه السام ثم السام !

وذلك ما كانت قد أدركته تاتيانا . وفي الأبيـات الخالدة من هذه الرواية الشعرية يصوّر الشاعر بطلته تاتيانا وهي تزور منزل ذلك الرجل الذي لا يزال غريبـاً كل الغـرابة ولا يزال لغزاً خفياً وسراً عجيباً في نظرها . ها هي ذي في مكتب أونيجين ، تلقي نظـرةً على كتبه وأشيائه وتحفه ، وتحاول أن تنفذ الى نفس مالكها من خلالها ، وأن تدرك السر وتحل اللغز من النظر اليها . وتتلبث « النطفة الروحية » أخيراً على فكرة وهي تبتسم ابتسامة غريبة مع احســـاسٍ بأنهـا حلّت اللغز ، ودمدمت شفتاها تقولان :

الايمكن ان يكون نوعا من محاكاة مضحكة ؟

نعـم ، كان لا يمكنهـا الا أن تنطق بهـذا الكلام . لقد أدركت

الحقيقة • وبعد ذلك بمدة طويلة ، أثناء لقائهما الجديد فى بطرسبرج ، كانت تعرفه منذئذ معرفة تامة • وبالمناسبة ، من ذا الذى زعم أن حياة البلاط ، حياة المجتمع الراقى ، قد أحدثت فى نفسها أثراً وبيلاً ، وأن صفتها كسيدة من سيدات المجتمع الراقى والآراء الجديدة التى فى ذهنها عن منزلتها ومكانتها كانت من أسباب الرفض الذى واجهت به أونيجين ؟ لا ، ان الأمر لم يكن كذلك • لا • انها لا تزال تانيا نفسها ، تانيا القروية كما كانت فى الماضى • انها لم تفسد • بالعكس • ان بذخ الحياة البطرسبرجية يرهقها ويضنيها ، وانها لتتألم من ترف هذه الحياة ببطرسبرج• انها تكره مكانتها هذه كسيدة من سيدات المجتمع الراقى • ومن يحكم عليها غير هذا الحكم يكن جاهلاً بما أراد أن يقوله بوشكين • ها هى تكلم أونيجين فتقول له بلهجة جازمة :

لكنى وهبت نفسى لآخر

وسابقى وفية له الى الابد

لقد نطقت بهذه الكلمات نطق امرأة روسية تماماً • وذلك هو تمجيدها • انها تعبر عن حقيقة القصيدة • لن أقول شيئاً عن اعتقاداتها الدينية ، لن أقول شيئاً عن الرأى الذى تراه فى رباط الزواج المقدس • لا • هذه نقطة لن أمسّها • ولكن ماذا ؟ هل لهذا رفضت أن تتزوجه ، مع أنها قالت له هى نفسها : « أحبك » ؟ هل لهذا ، من حيث أنها امرأة روسية (لا امرأة من الجنوب ، لا فرنسية ما) تعجز عن القيام بخطوة جريئة ، ولا تقوى على كسر القيد الذى يكبّلها ، والتضحية بمفاتن الأمجاد والثراء والمكانة العالية فى المجتمع الراقى والآراء السائدة عن الفضيلة ؟ لا ، ان المرأة الروسية جريئة • المرأة الروسية تتبع الرجل الذى تؤمن

به ، تتبعه ببسالة وجســـارة ، ولقد برهنت على ذلك • ولكنها « وهبت نفسها لآخر وستبقى وفيةً له الى الأبد » • فمن الذى ستبقى وفيةً له ؟ وباسم أية واجبـات تبقى وفيـةً له ؟ أهى وفيـــة لذلك الجنرال الذى لا تستطيع أن تحبه لأنهـا تحب أونيجين ، وانما هى تزوجتـه لا لشىء الا لأن أمها توسلت اليها أن تتزوجه « دامعةً ضارعة » ، ولأن نفسها التى أهينت وُجرحت لم يكن فيها حينذاك شىء الا اليأس ، ولم يكن ثمة أى دليل على أن جـديداً سـيحدث ؟ نعم ، لهذا الجنرال انما ستكون وفية ، لزوجها ، للرجل الشريف الذى يحبها ويحترمها ويبجّلها ويبدو فخوراً بها • لا قيمة لالحاحات أمها • انها هى التى وافقت لا غيرها : هى التى حلفت لتكوننّ له الزوجة الوفيـة • ليس أمراً هاماً أنها تزوجتـه بعد يأس • هو الآن زوجها • فلو خانته لجللها العار والدنس ، ولقتلها قتلاً • ثم هل يستطيع الانسان أن يبنى سعادته على شقاء غيره ؟ ليست السعادة كل شىء فى مباهج الحب ، بل السعادة فى الانسجام الأعلى الذى يتحقق للروح والفكر • وأنّى للفكر أن يجد الراحـة اذا كان يحاصره شبح عمل غير شريف ، عمل شرير ، عمل ليس انسانيـاً • أيجب عليهـا أن تهرب لا لشىء الا لأن الأمر أمر سعادتها ؟ أية سعادة يمكن أن يتمتع بها المرء اذا كانت قائمة على شقاء غيره ؟ تصوروا أنكم مكلفون أنتم أنفسكم ببناء صرح المصائر الانسانية لهدف أخير هو أن تجعلوا جميع الناس سعداء ، وأن تهبوا لهم الســلام والراحة آخر الأمر • وتخيلوا عندئذ أيضاً أنكم فى سـبيل تحقيق ذلك لا غنى لكم عن تعذيب انســان واحد ، واحد لا أكثر ، بل انسان ليس له قيمة كبيرة ، انسان يمكن أن يعد مضحكاً ، فليس هو رجـلاً عبقرياً مثـل شكسبير ، وانما هو شـيخ طيب شريف لا أكثر له زوجـة شـابة يؤمن بحبها ايماناً أعمى ، زوجـــة لا يعرف قلبها ، ولكنه فخور بها مرتاح اليها واثق بهـا • تخيلوا أن هذا الرجل هو الذى يجب عليكم أن تهينوه وأن تخزوه وتلطخوا شرفه وأن تعذبوه •

تخيلوا أن سعادتنا لابد أن تُبنى على دموع هذا الشيخ الذى لا حول له ولا قوة ولا يملك عن نفسه دفاعاً . فهل تقبلون أن تشيدوا ذلك الصرح بهذا الثمن ؟ وهل يمكنكم أن تسلّموا ، ولو دقيقةً واحدة ، أن أولئك الذين بُنى لهم هذا الصرح يرضون هم أنفسهم أن يقبلوا منكم تلك السعادة اذا كانت قد شيدت على آلام مخلوق هو أهون المخلوقات شأناً ، مخلوق عُذّب لهذه الغاية ظلماً بغير شفقة ولا رحمة ؟ وهل تقدرون ، اذا أنتم قبلتم هذه السعادة ، أن تبقوا سعداء الى الأبد ؟ قولوا لى : هل كانت تاتيانا تستطيع أن تعقد عزمها على غير ما عقدته عليه ، وأن تتخذ قراراً غير القرار الذى اتخذته ، هى التى وُهبت لها نفس تبلغ هذا المبلغ من النبل ، وأوتيت قلباً يبلغ هذا المبلغ من الرحمة ؟ لا ، لم يكن فى وسعها أن تفعل غير ما فعلت . هكذا يكون القرار الذى تتخذه نفس روسية نقية . « ألا فلأحرم وحدى من السعادة ، ألا فليكن شقائى أكبر من شقاء هذا الشيخ الى غير حدٍ ولا نهاية ، ألا فليجهل جميع الناس وهذا الشيخ نفسه تضحيتى ، ولا يقدروها حق قدرها الى الأبد ! اننى أوثر ذلك على أن تقوم سعادتى على شقاء غيرى . اننى أرفض أن يكون شقاء غيرى ثمن سعادتى ! » . فى هذا تكمن المأساة ، ولسوف تحدث المأساة ، سوف يفوت أوان تجاوز الحاجز . ذلكم هو السبب الذى جعل تاتيانا تطرد أونيجين . ورب قائل يقول : « ولكن أونيجين شقى أيضاً . فهى قد أنقذت واحداً وأهلكت آخر ! » . اسمحوا لى ! هذه مسألة ، ولعلها أخطر مسألة فى القصيدة . يجب أن أشير فى هذه المناسبة الى أن امتناع تاتيانا عن الذهاب مع أونيجين هو عندنا ، فى أدبنا على الأقل ، قصة فريدة جداً فى نوعها . لذلك أبحث لنفسى أن أفيض فى الكلام على هذا الموضوع افاضة طويلة . ان أغرب ما فى الأمر هو أن الحل الأخلاقى لهذه المسألة قد كان موضع شك فى كثير من الأحيان عندنا . فاليكم ما أراه فى الأمر من رأى . اننى أتصور أن تاتيانا ما كان لها أن تذهب مع أونيجين

ولو حدث أن أصبحت حرة طليقة ، أن مات عنها زوجها ، أن أصبحت أرملة . أنحن فى حاجة حقاً الى أن نتعمق طبيعة هذا المزاج ؟ انها تعلم حق العلم من هو أونيجين : هو جوَّاب أبدى حدث أن رأى ، على حين فجأة ، المرأة التى سبق أن ازدراها ؛ رآها فى البذخ والترف الذى تنعم به بيئة لا يقدر هو أن يبلغها . هنا جوهر القضية كلها . هذه البيئة هى جوهر القضية كلها . ان تلك البنت الصغيرة التى أوشك فى الماضى أن يحتقرها احتقاراً ، تحظى اليوم بتبجيل المجتمع الراقى ــ هذا المجتمع الذى له على رجل مثل أونيجين سطوة وسلطان ، رغم جميع ميول أونيجين الى الشمول ــ ومن أجل هذا انما هرع اليها مبهوراً ! لقد هتف يقول : « هذا مثلى الأعلى ، هذا خلاصى ، هذا ما يروى ظمئى ، ويشفى غليلى ، ويروى حنينى ! لم أقدر أن أرى السعادة حين كانت فى متناول يدى ، حين كانت قريبة كل القرب منى ! » . وكما يتوق آليكو الى زمفيرا ، يتطلع أونيجين الى تاتيانا . أليست تعرفه تاتيانا وتقرأ ما فى نفسه قراءة واضحة ؟ ألم تكتشف سرَّه ، وتفك لغزه منذ مدة طويلة ؟ انها لتعلم الآن علم اليقين أنه لا يحب فى الواقع الا وهمه الجديد ، فهو لا يحبها هى ، هى التى لا تزال كما كانت فى الماضى تاتيانا الهادئة . انها تعلم أنه يعدُّها شيئاً آخر غير ما هى . انها تعلم أنه لا يحبها هى ، وأنه ربما كان لا يحب أحداً ، بل أنه قد يكون عاجزاً عن أن يحب أحداً رغم كل ما يقاسيه من تباريح شديدة ! انه يحب وهمه الخاص ، وهو نفسه ليس الا وهماً ! فلو تبعته لصحت من الفتنة وأفاقت من السحر منذ الغد ، ولسخرت مما اندفعت فيه وانقادت له من حماسة . ان أونيجين لا أرض له ، لا تراب له . انه زغبة فى مهب الريح . أما هى فتختلف عن هذا كل الاختلاف . انها حتى فى اليأس والألم اللذين يستبدان بهما حين ترى تهدم حياتها ، يبقى لها شىء ثابت لا يتزعزع ، شىء متين راسخ تستند اليه روحها ، وتعتمد عليه نفسها : وهو ذكريات طفولتها ، ذكريات البلد

الذى ولدت فيه ، ذكريات الركن الصغير من الريف ، الذى فيه بدأت حياتها الهادئة النقية . هو « الصليب وظل الأغصان على قبر مرضعتها المسكينة » . ان هذه الذكريات وهذه الصور الباقية من الماضى لهى أغلى فى نفسها من كل شىء . ان هذه الصور هى كل ما بقى لها ، وهى هى التى تنقذ روحها من يأس لا مخرج منه . وهذا وحده ليس قليلاً ، بل انه لكثير ، لأنه أساس راسخ ، فيه شىء لا يتزعزع ولا يتهدم . بهذا انما يتم اتصال الانسان بالوطن ، وارتباطه بالشعب ، وتعلقه بما يجله ويقدسه . فما الذى يملكه أونيجين ، ومن هو ؟ انها لا تستطيع أن تتزوجه من باب الرأفة والشفقة ، ملهاةً يزجّى بها وقته لا أكثر . انها لا تملك أن تبدّد هذا الكنز من الشفقة المحبة ، من أجل أن تخلق له شبح سعادة ، لأنها تعلم حق العلم أنه سيستهزىء فى غد بهذه السعادة . لا . ان من النفوس نفوساً عميقة قوية لا تستطيع ، عامدةً واعية ، أن تسلم للعار شيئاً تحترمه وتقدسه ، ولو أوتيت عطفاً لا نهاية له ، ورأفة لا حدود لها . لا . ما كان فى وسع تاتيانا أن تتزوج أونيجين .

هكذا يتجلى بوشكين ، فى قصة « أونيجين » ، فى هذه القصيدة الخالدة التى لاتضاهى ، يتجلى كاتباً قومياً لم نعرف مثله قبله . لقد استطاع بنظرة ثاقبة تبلغ غاية الدقة والحدة أن يرى أعمق أعماق كياننا ، وأن يبصر قرارة هذا المجتمع الذى ينزل عندنا منزلةً فوق طبقة الشعب . ان بوشكين ، بتصويره الجوّابَ الروسى ، بتصويره المتشرّدَ فى هذا الزمان والمتشرد الذى وُجد حتى الآن ، وبادراكه بحدس العبقرى طبيعة هذا المتشرد ومصيره التاريخى وما يكتسبه من شأن ضخم فى مصائر روسيا فى المستقبل ؟ وبوضعه نموذج الجمال الروسى الحق الى جانب ذلك المتشرد متمثلاً فى المرأة الروسية ، قد استطاع ، سابقاً جميع كتاب روسيا ، أن يعرض أمام أبصارنا فى سائر الآثار التى ألفها فى تلك المرحلة من مراحل حياته الأدبية ، سلسلة كاملة من النماذج الروسية الجميلة حقاً ،

التى اكتشفها فى الشعب الروسى • وأبرز سمات هذا الجمال أن هذه النماذج حقيقة صادقة ، فهو جمال لا يمكن جحوده ، جمال محسوس ملموس ، فلا يستطيع المرء أن ينكر هذه النماذج ، لأنها قائمة أمام بصره كأنها مقدودة من صخر • أعود فأقول مرة أخرى اننى لا أتكلم كلام ناقد من نقاد الأدب • لذلك سأتجنب أن أشرح رأيى فأصدر حكماً مفصلاً على ما تركه شاعرنا من آثار عبقرية • ان المرء ليستطيع مثلاً أن يؤلف كتاباً كاملاً عن نموذج الراهب العالم بالأخبار ، فيبيّن ما لهذا الوجه المهيب عندنا من شأن كبير ودلالة غنية ، وهو الوجه الروسى الذى اكتشفه بوشكين على الأرض الروسية ، واستخرجه ، ونحت صورته ، ووضعه أمام أبصارنا فأصبحنا نراه الى الأبد بجماله الروحى الهادىء الفخم شاهداً على ما للشعب من روح قوية قادرة على أن تستخرج من قرارة ذاتها وجوهاً لا سبيل الى جحود جمالها أيضاً • ان بوشكين قد استمد هذا الوجه من الواقع ، فهو وجه موجود ، لا يمكن انكاره ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه مبتكر ابتكاراً ، وأنه ثمرة من ثمرات الخيال أو التصور عند شاعر • انكم لتتأملونه أنتم أنفسكم وتسلّمون به : نعم ، هو اذن موجود ، وان روح الشعب الذى خلقته لموجودة أيضاً • ويتبع ذلك أن ما تملكه هذه الروح من قوة حية نشيطة موجودة كذلك ، وكبيرة ورحبة • اننا لنحس فى جميع أعمال بوشكين ايماناً بالطبع الروسى ، ايماناً بطاقته الروحية • واذا وجد الايمان فقد وُجد الأمل أيضاً ، وهو أمل كبير فى الانسان الروسى :

مؤملا مجدا وخيرا
ارنو امامي غير خائف

كذلك قال الشاعر نفسه فى مناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات يمكن أن تصدق على جميع آثاره القومية . وما من كاتب روسى ، لا قبله ولا بعده ، بقى فى يوم من الأيام متحداً بشعبه اتحاداً يبلغ هذا المبلغ من العمق ، ويصل الى هذه الدرجة من ارتباط الابن بأبيه وأمه . صحيح أن عندنا كتاباً كثيرين يعرفون الشعب ويتكلمون عنه بموهبة ومقدرة ومحبة . ولكن كل ما تستطيع أن تقوله عن هؤلاء الكتاب ، اذا أنت قستهم ببوشكين (عدا مستثنيين اثنين بين أواخر مقلدى الشاعر) هو أنهم « سادة » يتكلمون عن الشعب . وحتى بين أقواهم موهبة ، حتى لدى المستثنيين الاثنين اللذين ألمعت اليهما ، نحس على حين فجأة بظهور شيء أعلى ، شيء ينحدر من طراز آخر من المعيشة والحياة ، شيء يشبه أن يكون رغبة لدى الكاتب فى رفع الشعب اليه ، ونفعه بتصوره . أما بوشكين فانه يملك شيئاً لا أدرى ما هو ، شيئاً يقرّبه من الشعب « نهائياً » ، ويكتسى لديه نوعاً من طبيعة بسيطة ساذجة . انظروا فى أسطورة « الدب » ، اقرأوا كيف قتل فلاح « صاحب المعالى الدب » ، أو تذكروا ذلك البيت من الشعر عن « العراب ايفان » ، افعلوا هذا فتدركوا ماذا أريد أن أقول .

ان جميع هذه الكنوز من الفن والحدس التى خلّفها لنا شاعرنا الكبير هى نوع من الهدى للفنانين الذين سيخلفونه ، للفنانين الذين سيحققون رسالتهم بعد الآن على هذا الدرب الذى شقه لهم . حقاً اننا نستطيع أن نقول : لولا أن وُجد بوشكين ، لما وُجدت المواهب التى أعقبته . أو قولوا على الأقل ان هذه المواهب ، مهما تكن عظمتها ، ما كان لها لولاه أن تظهر قوية هذه القوة التى نراها لها اليوم ، ولا واضحة هذا الوضوح الذى تتجلى به فى هذا الوقت . ولكن الأمر ليس أمر شعر فحسب ، ليس أمر عمل فنى فحسب : ان الشيء الذى كان يمكن ألا يتجلى تجليا قويا هذه القوة التى لا تقاوم، لولا أن وجد بوشكين

(وهذا ما رئى بعد ذلك لدى بعضهم ان لم يكن لديهم جميعاً) انما هو ايماننا باستقلالنا الروسى ، وهذا الأمل الذى أصبح اليوم واعياً كل الوعى ، أعنى أملنا فى شعبنا ، وايماننا بالرسالة التى سيكون علينا ذات يوم أن نحققها فى أسرة الشعوب الأوروبية . وان مأثرة بوشكين هذه تتضح اتضاحاً خاصاً اذا نحن نفذنا الآن الى ما سوف أسميه بالمرحلة الثالثة من حياته الفنية .

أكرر أن هذه المراحل ليس لها تخوم محدَّدة تحديداً واضحاً . فبعض أعمال بوشكين ، حتى بين تلك التى تنتمى الى المرحلة الثالثة ، كان يمكن أن تظهر فى بداية حياة شاعرنا الفنية ، لأن بوشكين كان فى جميع الأوقات كائناً حياً مكتملاً ان صح التعبير ، كائناً حياً يشتمل منذ البداية على بذور جميع تطوره ، فهو لم يتلق هذه البذور من خارجه . فالعالم الخارجى لم يزد فى أكثر تقدير على أن حرَّك ما كان ثاوياً فى أعماق نفسِ الشاعر . ولكن هذا الكائن العضوى كان يتطور ، ونحن نستطيع أن نميِّز مراحل هذا التطور ، فنرى فى كل مرحلة منها طابعها الخاص ، وسلَّم النمو من طور الى طور . وعلى هذا الأساس نستطيع أن ننسب الى المرحلة الثالثة من تطوره ، تلك السلسلة من الأعمال التى تتألق فيها الأفكار العالمية خاصة ، والتى تنشر أمام أبصارنا الصور الشعرية عند الشعوب الأخرى ، وتجسِّد لنا عبقرية هذه الشعوب . ان عدداً من هذه الأعمال لم يظهر الا بعد موت بوشكين . وفى هذه المرحلة من حياته الفنية انما يمثل الشاعر شيئاً معجزاً ، شيئاً لا عهد بمثله من قبل ، شيئاً لم يلاحظ فى أى مكان الى أن جاء بوشكين . صحيح أن فى الآداب الأوروبية عبقريات فنية تحتل مرتبة أولى فى العظمة ، أمثال : شكسبير ، وسرفانتس ، وشيلر . ولكن أرونى عبقرية واحدة من تلك العبقريات الكبرى ملكت من القدرة على الترجيع العالمى ما ملكته عبقرية بوشكين . وهذه القدرة التى هى وقف على أمتنا ، هى

بعينها ما يشارك فيه بوشكين شعبنا ، وهى ما تجعل منه شاعراً قومياً • ان أكبر الشعراء الأوروبيين لم يستطيعوا فى يوم من الأيام أن يجسد أحدهم عبقرية شعب آخر ، ولو كانت عبقرية الشعب الذى يجاور شعبه ، وأن يفصح عن كل العمق الخبىء فى روحه ، وعن كل الحنين الى تحقيق رسالته ، بمثل القوة التى برهن عليها بوشكين فى هذا كله • بل ان الشعراء الأوربيين حين كانوا يرجعون الى الشعوب الأخرى ، فانما كانوا فى أغلب الأحيان يفعلون ذلك لادخال هذه الشعوب فى شعبهم ، وفهمها على طريقتهم • لو نظرت الى شكسبير نفسه لرأيت جميع الايطاليين تقريباً يشبهون فى آثاره الانجليز • ان بوشكين ينفرد بين سائر الشعراء العالميين بالقدرة على التجسد فى شعب آخر • انظروا الى مشاهد « فاوست » ، انظروا الى « الفارس البخيل » ، انظروا الى أغنية « المغامر الفقير » • انكم اذا أعدتم قراءة « دون خوان » ، لما كان فى وسعكم أن تعرفوا أن الانسان الذى كتب هذه القصيدة ليس اسبانياً ، الا أن تروا اسم بوشكين • ما أعمق وما أهول الصور فى هذه القصيدة : « المأدبة فى زمان الطاعون » ! ألا يحس المرء فى هذه الصور الخارقة عبقرية انجلترا ؟ ان هذه الأغنية العجيبة عن الطاعون ، التى يغنيها بطل القصيدة ، وهذه الأغنية التى تغنيها ميرى وتقول فيها هذين البيتين :

من صغارنا فى المدرسة الصاخبة
ترجعت الاصوات

لهما أغان انجليزية • انهما سأم الروح البريطانية ، وأسلوب العبقرية البريطانية فى البكاء ، واحساسها الأليم بما تتوقعه من مستقبل • وتذكروا تلك الأبيات الغريبة التى جاء فيها :

ان هذا ليكاد يكون نقلاً حرفياً للصفحات الثلاث الأولى من كتاب غيبى صوفى غريب ، كتبه نثراً متشيعٌ دينى انجليزى قديم ، ولكن أهو نقل فحسب ؟ انك من خلال الموسيقى الحزينة المتحمسة التى تسمعها فى هذه الأشعار لتحس روح البروتستانتية الشمالية نفسها ، روح مهرطق انجليزى غيبى صوفى سأمان قد امتلأت نفسه احتقاراً ، وتحس ميوله الغامضة المبهمة ، العارمة التى لا تقاوم وتحس أحلامه الغيبية الصوفية الجامحة المتطرفة . انك حين تقرأ هذه الأشعار ليخيَّل اليك أنك تسمع روح عصور « الاصلاح » ، فاذا أنت تدرك تلك الشعلة المحاربة ، شعلة البروتستانتية ، وهى فى فجرها ، واذا أنت أخيراً تفهم التاريخ نفسه ، تفهمه لا بالفكر وحده ، وانما تفهمه كما لو كنت أنت هناك ، كما لو كنت تمر بمعسكر أصحاب هذه الملة ، وتتلو معهم أناشيدهم ، وتشاركهم ذرف الدموع فى حماساتهم الصوفية ، وتشاطرهم ايمانهم بما هم به مؤمنون . وفى موازاة هذه الصوفية الدينية ، انظروا الآن الى تلك الأبيات الدينية الأخرى المستمدة من روح القرآن ، أعنى « اقتباسات من القرآن » . ألا تحسون حين تقرءونها أن مسلماً هو الذى يتكلم ؟ ألا تحسون روح القرآن ؟ ألا ترون حسامه ؟ ألا تحسون تلك العظمة البريئة فى عقيدته ، وتلك القوة الهائلة الرهيبة فى تعاليمه ؟ وعودوا بنا الى العالم القديم . اقرءوا قصيدة « ليالى مصر » . ألا ترون آلهة الأرض هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم حكم آلهة ، ويزدرون عبقرية شعوبهم وأشواقها ، ولا يؤمنون بها ، والذين يصدق عليهم أنهم آلهة منعزلون ،

أطاشت العزلة عقولهم واحتضروا من الضجر وهم يهدهدون حزنهم بميول حيوانية عجيبة رهيبة ، وشبق كشبق الحشرات ، ولذة كلذة انثى العنكبوت التى تلتهم ذكرها . انى لأقول غير هيّاب : ما عرفت الانسانية شاعراً يضارع بوشكين فى قدرته على الترجيع العالمى الشامل . وليس الأمر أمر ترجيع فحسب ، وانما هو أيضاً ذلك العمق المدهش فى هذا الترجيع ، وتلك القدرة التى تملكها روح بوشكين على أن تتقمص روح شعوب أخرى تقمصاً يكاد يكون كاملاً فهو معجزة ، لأن هذه الظاهرة لم تتجدد لدى أى شاعر فى العالم بأسره من أقصاه الى أقصاه . ان هذا لم يحدث الا عند بوشكين . وبهذا المعنى يكون بوشكين ـ كما سبق أن قلت ـ ظاهرة ليس لها سابقة ، وهو فى رأينا ظاهرة نبوة ! ذلك ... ذلك لأن ما هو روسى أكثر من كل ما عداه فى بوشكين انما يتجلى فى هذا ، أعنى العبقرية القومية فى شعره ، أعنى روح شعبنا فى الصورة التى ستصير اليها فى المستقبل ، أى روح مستقبلنا التى عرف كيف يستخرجها من بين شوائب الحاضر ، وكيف يعبّر عنها تعبير نبى حقاً . وهل قوة روحنا القومية الا ميلها ـ من خلال الأهداف المحدودة التى تستهدفها ـ الى العالمية الشاملة ، الى التكامل الانسانى ؟ ان بوشكين الذى أصبح شاعراً قومياً ، ما ان اتصل بالشعب حتى أحس سلفاً بما لهذه القوة الشعبية من دلالة واسعة . فهو من هذه الجهة قد أدرك المستقبل وكان نبيا .

ان فى وسعنا أن نتساءل فى الواقع : ما اصلاح بطرس بالنسبة الينا ، لا من جهة المستقبل فحسب ، بل من جهة ما كان ، من جهة الماضى ، من جهة ما حدث ووقع ؟ ما ذا كانت دلالة هذا الاصلاح بالنسبة الينا ؟ ذلك أن هذا الاصلاح ، فى حقيقة الأمر ، لا يقتصر بالنسبة الينا على أننا استعرنا العادات والأخلاق والاختراعات الأوروبية فحسب . يجب أن نتعمق تعمقاً أشد ، فنرى كيف حدث هذا الاصلاح . من

الجائز جداً ألا يكون بطرس الأكبر نفسه قد خطرت بباله فى أول الأمر الا هذه الفكرة ، فجهد فى تطبيقها ، أى ألا يكون قد استهدف فى البداية الا منافع مباشرة . ولكن ما يملكه بطرس الأكبر من رهافة فى الفكر توجهه فى عمله لابد أنها دفعته بعد ذلك ، أثناء مضىّ فكرته فى تطورها ، الى أهداف بعيدة المدى لا شك فى أنها أرحب من تلك المنافع المباشرة . فنستطيع أن نقول ان الشعب الروسى قد قبل ذلك الاصلاح لا باسم المنفعة المباشرة وانما هو قبلها حتماً لأنه أحس سلفاً بهدف بعيد أعلى كثيراً من تلك المنفعة المباشرة . وأعود فأقول ان هذا الاحساس قد يكون لا شعورياً ، ولكن ذلك لا ينفى أنه كان قوياً وأنه كان راسخاً رسوخاً عميقاً فى نفس الشعب الروسى . لقد كنا جميعاً فى ذلك الأوان نميل الى اعادة بناء وحدة الحياة ، الى اعادة بناء وحدة النوع الانسانى . اننا بالصداقة لا بالعداوة (كما قد يُظن) ، وبالمحبة كلها انما قبلنا فى أنفسنا عبقريات الأمم الأجنبية ، وقبلناها جميعها ، دون أن نفرّق بينها ونجعل بعضها فوق بعض طبقات مختلفة باختلاف الأجناس ، لأننا علمنا بالفطرة ومنذ أول خطوة تقريباً كيف نزيل التناقضات وكيف نعذر ونغفر ، وكيف نحقق المصالحة بين الاختلافات . وبذلك كنا نؤكد منذ ذلك الحين ما نملك من استعداد وميل لأن نعيد بناء الوحدة العالمية ، والوحدة الانسانية بين أسر الجنس الآرى الكبير كلها منذ أن انكشفت هذه الوحدة لأبصارنا . نعم ، ان دلالة الانسان الروسى هى أنه أوروبى وأنه عالمى ، ما فى ذلك ريب . فأن يكون المرء روسياً حقيقياً ، أن يكون روسياً كاملاً ، فذلك انما يعنى (احفظوا هذا !) أنه أخو البشر جميعاً ، أنه مؤمن بالوحدة الانسانية اذا شئتم هذا التعبير . ان كل ما ذهبنا اليه من دعوة الى السلافية ومن دعوة الى التشبه بالغرب ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن ضرورياً من الناحية التاريخية . فالروسى الحقيقى يرى أن أوروبا ومصائر الجنس الآرى العظيم كله غالية على نفسه كروسيا نفسها

ومصائر أرضه التى ولد عليها : ذلك أن مصيرنا انما هو العالمية الشاملة ، التى لا تتحقق بالسيف ، بل بالأخوة ، بجهدنا الأخوى فى سبيل أن نردّ البشر الى الأخوة . فلو تعمقتم تاريخنا الروسى الذى تلا اصلاح بطرس الأكبر ، لوجدتم فيه منذ ذلك الحين أثراً من هذا التفكير وقرائن تدل عليه ، أو قولوا ان شئتم أن تستبدلوا بكلمة التفكير كلمةً أخرى ، انكم واجدون فيه آثاراً وقرائن تدل على تلك الأحلام التى عبّرت عنها منذ قليل حين تحدثت عما هو مشترك بيننا وبين الشعوب الأوروبية ، حتى فيما يتعلق بسياسة حكومتنا ؟ اذ ما الذى فعلته روسيا فى مضمار السياسة خلال هذين القرنين ؟ أليس واضحاً أنها خدمت مصالح أوروبا أكثر مما خدمت مصالحها الخاصة ؟ لا أظن أن مردّ ذلك الى جهل رجال السياسة عندنا . لا . ان شعوب أوروبا لا تدرى كم هى عزيزة فى قلوبنا ، غالية فى نفوسنا ! انى لعلى يقين بأن الروس فى المستقبل ، أعنى الروس الذين سيخلفوننا سوف يدركون جميعاً ـ ولا أستثنى منهم أحداً ـ أن انتماء الفرد الى الشعب الروسى ، أى أن يكون الفرد روسياً حقيقياً ، انما معناه أن يقوم بمصالحة ـ هى فى هذه المرة مصالحة نهائية ـ بين التناقضات الأوروبية ، وأن يبيّن للحنين الى أوروبا كيف أن هذا الحنين يمكن أن يرتوى من نفسنا الروسية التواقة الى الشمول الانسانى والى الوحدة بين البشر ؟ وأن يجعل جميع اخوتنا فى العالم ينضمون الينا بالحب حتى لقد تكون روسيا هى التى تنطق بالقول الفصل فى الاتساق الشامل والانسجام الكبير والاتفاق النهائى الأخوى بين جميع الشعوب تحت لواء المسيح . انى لأعلم حق العلم أن كلماتى هذه لابد أن تبدو شديدة الحماسة كبيرة الغلو وأن تبدو أوهاماً يتعلق بها الخيال . لا ضير . لست نادماً على أننى قلتها . لقد كان يجب أن تقال ، فى هذا الأوان خاصة ، فى هذه الساعة الجليلة عندنا ، هذه الساعة التى نحتفل فيها بذكرى شاعرنا العظيم الذى جسّد هو نفسه هذه الفكرة وحقّقها فى

فنه . ثم اننى لا أعلن هذا الرأى أول مرة . ان هـذا الرأى ليس بجديد . ولكن الشيء الخطير هو أن يظن بما أقول الغرور . فاذا بمعترض يعترض : « ماذا ؟ أيكون هذا قدر وطننا الجلف البائس ؟ أنكون نحن الذين هيأنا القدر بين سائر الانسانية لأن ننطق بالقول الجديد ؟ » . أى غرابة فى هذا ؟ أأنا أتكلم عن مجد اقتصادى ، عن مجد السيف أو العلوم ؟ لا ! فانما أنا أتكلم عن الأخوة بين البشر ، فأقول ان القلب الروسى ربما كان هو المهيأ أكثر من سائر الشعوب لأن يحقق الوحدة الشاملة الأخوية بين جميع البشر . وقد استقيت علامات ذلك من تاريخنا ، ورأيتها فى نبغائنا ، وشهدتها فى عبقرية بوشكين الفنية . لا يضيرنا أن أرضنا فقيرة بائسة . ان هذه الأرض الفقيرة قد « طاف بها المسيح وباركها فى صورة قن من الأقنان » . فلماذا تستبعدون أن تنطوى نفوسنا نحن على آخر كلمة قالها المسيح ؟ ألم يولد هو نفسه فى مذود ؟ أعود فأقول : اننا على الأقل نستطيع منذ الآن أن نطلع على العالم بشاعرنا بوشكين ، وبالروح العالمية الشاملة التى عبّر عنها ، وبعبريته التى تتصف بأنها انسانية كاملة . لقد استطاع بوشكين أن يضم فى نفسه العبقريات الأجنبية الأخرى كأنها من ذوى قرباه . لقد برهن فى الفن ، أو فى خلقه الفنى على الأقل ، برهاناً لا سبيل الى جحوده ، على توق الروح الروسية الى العالمية الشاملة ، وذلك وحده دليل كبير . اذا كان رأينا وهماً ، فاننا نقع عند بوشكين على ما يصلح أساساً وقاعدة لهذا الوهم يقوم عليها وطيداً راسخاً . لو أن بوشكين عاش عمراً أطول ، فلربما كشف عن جوانب خالدة رائعة من النفس الروسية كان اخوتنا الأوروبيون سيفهمونها فتجذبهم الينا أكثر مما هم منجذبون الينا الآن . لعله كان سيستطيع ، لو عاش عمراً أطول ، أن يشرح لهم أشواقنا الحقيقية ، ولعلهم كانوا سيدركون عندئذ مَنْ نحن ، فيكفون عن النظر الينا بالريبة والاحتقار اللذين لا يزالان يظهرونهما

لنا . لو عاش بوشكين عمراً أطول ، فلربما قلّ ما يقوم بيننا وبينهم الآن من سوء التفاهم ، وما ينشب بينا وبينهم من مشاجرات . ولكن الله أراد غير ذلك . فمات بوشكين وهو فى عنفوان تفتح قواه ، ولا شك أنه حمل معه الى قبره سرا كبيرا . فهذا السر هو ما يجب علينا منذ الان أن نحاول النفاذ اليه بعد غيابه عنا .

الفهرس

الأعمال الأدبية الكاملة

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" "والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقا أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكى كان رائدًا سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف